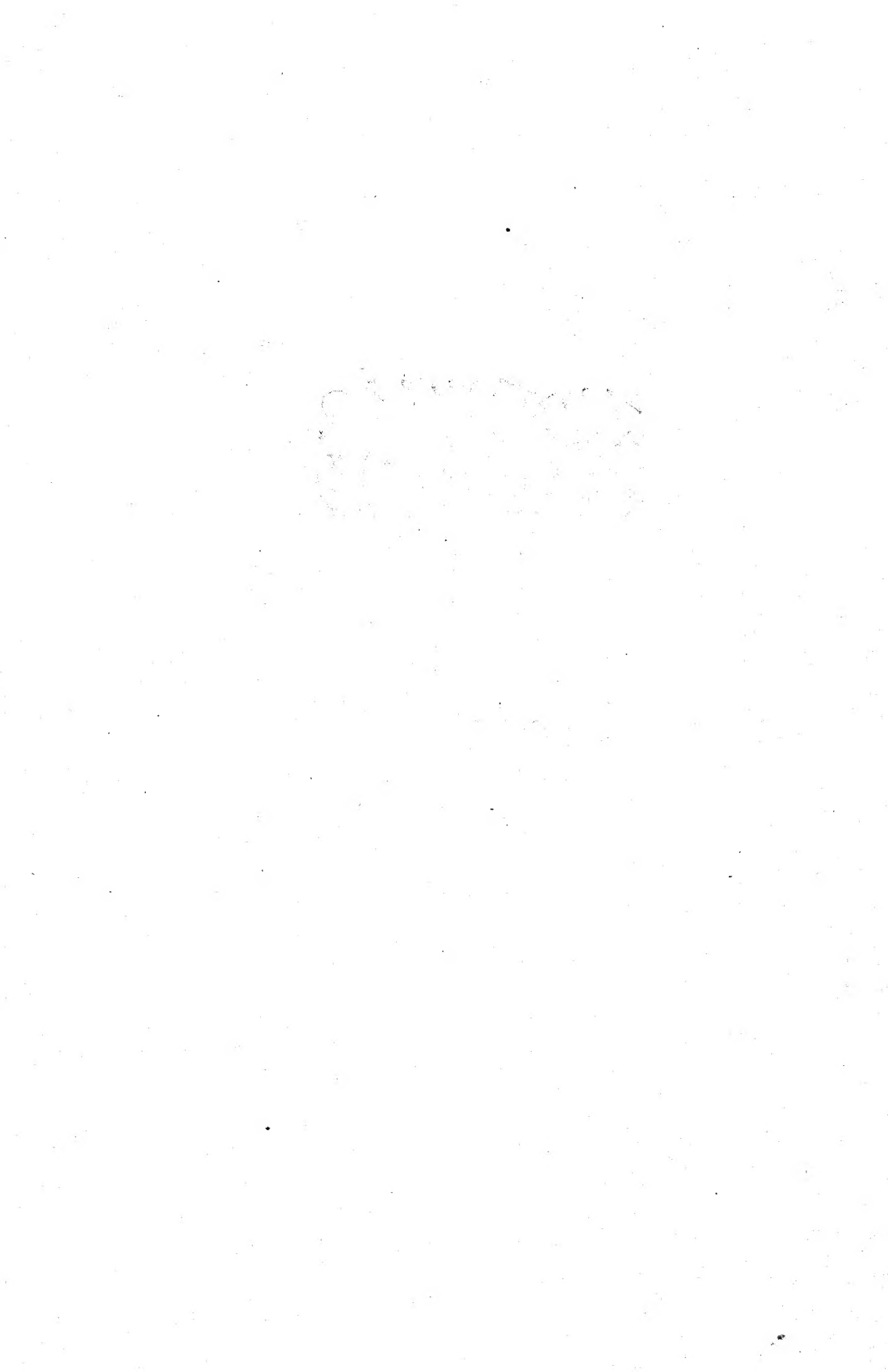


صَبْحُ الْأَسْبَةِ

الجزء الثامن



دار الكتب السلطانية

كتاب

صبح الأسماء

تأليف

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجزء الثامن

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب السلطانية

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٤ هـ
م ١٩١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

المقصود الثالث

في المكتبة إلى أهل الجانب الجنوبيّ من جرت العادة بالمكتبة إليه
من العرب والسودان، وفيه ثلاث جمل

الجملة الأولى

(في المكتبة إلى من بهذا الجانب من العُربان)

وقد ذكر في " التثقيف " من كُتِبَ منهم جماعةً بالطُرُقَاتِ الموصّلة من الديار
المصرية إلى بلاد الحبشة وغيرها . ثم قال : ولعلّ هؤلاء أيضا من عُربان الممالك
المحروسة ، غير أنه لا إقطاعاتٍ لهم ، وعدّ منهم ثمانية أشخاص ، وذكر أنه كتب
إلى كل منهم الأسم ومجلس الأمير :

الأول — سَمُرَةُ بن كامل العامريّ .

الثاني — عَبَّاد بن قاسم .

الثالث — كِمال بن سِوَار . قال : وهو مستحدّث المكتبة في العشر الأول من
جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وسبعائة .

الرابع — جُنَيْد : شيخُ الجَوَابَةِ من الهكاريّة بأبواب النوبة . قال : وهو
مستحدّث المكتبة في سنة تسع وستين وسبعائة .

الخامس - شريف : شيخ النَّمَائَةِ ، بأبواب التَّوْبَةِ أيضا ، ومكاتبته مستجدة حينئذ .

السادس - على : شيخ دُغَيْم .

السابع - زاملُ الثاني .

الثامن - أبو مُهَنَّا العِمْرَانِي .

الجملة الثانية

(في المكتبة إلى مسليى ملوك السودان ، وهم أربعة ملوك)

الاول - ملك التَّوْبَةِ . وهو صاحب مدينة دُنْقَلَةَ : وقد تقدّم الكلام عليها مستوفى في الكلام على المقالة الثانية في "المسالك والممالك" . قال في "التعريف" : وهو رعية من رعايا صاحب مصر ، وعليه حملٌ مقرّرٌ ، يقوم به في كل سنة ، ويُخطب [ببلاده] ^(١) خليفة العصر ، وصاحب مصر .

قلت : هذا كان في الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» وهذه الإناوة كانت مقررة عليهم من زمن الفتح ، في إمارة عمرو بن العاص رضى الله عنه ؛ ثم صارت تنقطع تارةً وتُجملُ أخرى ، بحسب الطاعة والعصيان . وهى الآن مملكةٌ مستقلةٌ بذاتها ، ولذلك أوردتُ مكتبة صاحبها في جملة الملوك :

ورسم المكتبة إليه إن كان مسلما على ما ذكره في "التعريف" :

صدرت هذه المكتبة إلى المجلس الجليل ، الكبير ، الغازى ، المجاهد ، المؤيد ، الأوحِد ، العُصْد ، مجد الإسلام ، زين الأنام ، نحر المجاهدين ، عمدة الملوك والسلطين .

(١) الزيادة من "التعريف" .

وذكر ذلك في «التتقيف» نقلا عنه . ثم قال : ولم أجد له مكتبة متداولة بين الجماعة . قال : ولم يكتب له شيء في مدة مباشرتي بديوان الإنشاء ، ولم يزد على ذلك .

ورأيت في الدستور المنسوب للمقر العلاءي بن فضل الله أن مكتبته هذه المكتبة أيضا ، وأنه يقال بعد عمدة الملوك والسلاطين : «أدام الله سعادتَه ، وبلغه في الدارين إرادته ، نتضمن إعلامه كَيْتَ وكَيْتَ ، فيتقدم بكذا وكذا ، فيحيط علمه بذلك» . ثم قال : والمكتبة إليه في قطع العادة ، والعلامة «أخوه» ولا يخفى أن العنوان بالألقاب ، ويظهر أن التعريف «صاحب دُنُقلة» .

الثاني — ملك البرنو . قال في «التعريف» : وبلاده تحُدُّ بلاد [ملك] التَّكُور^(١) من الشرق ؛ ثم يكون حدُّها من الشمال بلاد [صاحب]^(١) أفريقية ، ومن الجنوب الهمج ؛ وقد تقدم الكلام عليها مستوفى في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك . ولم يذكر هذه المملكة في «مسالك الأبصار» . قلت : وملكها يزعم أنه من ذرية سيف بن ذي يزن ملك ابن علي ماورد به كتابه في أواخر المائة السابعة . ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في «التعريف» :

أدام الله تعالى نصر الجناح الكريم ، العالى ، الملك الجليل ، الكبير ، العالم ، العادل ، الغازي ، المجاهد ، الهمام ، الأوحد ، المظفر ، المنصور ، عز الإسلام ، (من نوع ألقاب ملك التَّكُور) : يعنى شرف ملوك الأنام ، ناصر الغزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحدين ، جمال الملوك والسلاطين ، ظهير الإمام ، عضد أمير المؤمنين الملك فلان . ويدعى له بما يناسبه ، وبعد إهداء السلام والتشوق هذه المفاوضة تبدي ، على ما سياتى ذكره في مكتبته .

(١) الزيادة من «التعريف» .

وهذا صدر يليق به : ولا زالت هم سلطانة غير مقصرة ، ووفود حجة غير محصرة ، وسيفه في سواد من جاوره من أعدائه الكفار يقول : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ صدرت ، ولها مثل مسكة أفعه عبق ، وعبرة طينته سواد إلا أنه من السواد اليق ، وشيبة ملكه الذي يفديه سواد الحديق . أوجها ود أسكنه [مسكنه^(١)] من سويداء القلب لا يريم ، وأراه غرة الصبح الوضاح تحت طرة الليل البهيم . وحكى ذلك عنه في "التنقيف" ولم يزد عليه .

ورأيت في الدستور المنسوب للقر العلاءي بن فضل الله أن مكاتبتة في قطع الثلث ، والعلامة « أخوه » وتعريفه « صاحب برؤ » .

قلت : ووصل من هذا الملك كتاب في الدولة الظاهرية (برقوق) يتشكى فيه من عرب جذام المجاورين له ، ويذكر أنهم أخذوا جماعة من أقاربه بأعوهم في الأقطار ، وسأل الكشف عن خبرهم ، والمنع من بيعهم بمصر والشام ، وأرسل هدية صالحة من زبقي وغيره . وكتب جوابه بخط زين الدين طاهر : أحد كتّاب الدست .

صدره : أعز الله تعالى جانب الجنب الكريم ، العالى ، الملك الجليل ، العالم ، العادل ، الغازي ، المجاهد ، الهام ، الأوحدي ، المظفر ، المنصور ، المتوكل ، نحر الدين أبي عمرو عثمان بن إدريس : عز الإسلام ، شرف ملوك الأنام ، ناصر الغزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحدين ، جمال الملوك والسلاطين ، سيف الجلالة ، ظهير الإمامه ، وبعث إليه به مع رسوله الوارد صُحبة الحجيج ، فأعيد وقد كتب الجواب على ظهره بعد سنة أو سنتين .

الثالث — ملك الكانم . قال في "مسالك الأبصار" : وقاعدة الملك منها بلدة اسمها « جيمي » ومبدأ مملكته من جهة مصر بلدة اسمها « زلا » وأحرها طولاً بلدة

يقال لها « كَا كَا » وبينهما نحو ثلاثة أشهر . قال : وعسكرهم يتلثمون ، وملئهم على حَقارة سلطانه ، وسوء بُقعة مكانه ، في غاية لا تُدرك من الكبرياء ، يمسح برأسه عَنان السماء ، مع ضَعْف أجناده ، وقلة متحصِّل بلاد ، محبوب ، لا يراه أحد إلا في يوم العيدين بُكرة وعند العَصْرِ ، وفي سائر السنة لا يكلمه أحد ولو كان أميرا إلا من وراء حجاب .

وقال في "التعريف" ملوكها من بيت قديم في الإسلام ، وجاء منهم من ادعى النسب العلوي في بني الحسن ، وهو يمتدح بمتدح الشافعي . ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في "التعريف" كرسم مكتبة صاحب البرنو ، بدون الكريم ، وتبعه على ذلك في "التتيف" ناقلا له عنه . ثم قال : ولم أطلع على مكتبة له غير الذي قد ذكره .

الرابع — ملك مالي . قال في "مسالك الأبصار" وهي في نهاية الغرب متصلة بالبحر المحيط ، وقاعدة الملك بها بني . وهي أعظم ممالك السودان ، وقد تقدم في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك ذكر أحوالها ، وما تيسر من ذكر ملوكها ، وأن مالي أسم للإقليم ، والتكرور مدينة من مدنه ، وكان ملكها في الدولة الناصرية « محمد بن قلاوون » منسا موسى ، ومعنى منسا السلطان .

وقد ذكر في "مسالك الأبصار" أنه وصل منه كتاب عن نفسه لنفسه فيه (١) ناموسا ، وأنه وصل إلى الديار المصرية حاجا ، وأجتمع بالسلطان الملك الناصر ، فقام له وتلقاه ، وأكرمه وأحسن نزلَه ، على ما هو مبسوط في موضعه .

(١) عبارة "المسالك" في الكلام على ملكة مالي فيها « ولقد جاء كتاب من هذا السلطان إلى الحضرة السطانية بمصر وهو بالخط المغربي في ورق عريض ، السطر إلى جانب السطر وهو يسك فيه ناموسا لنفسه » فلفل مالي الأصل هكذا « عن نفسه وهو يسك لنفسه الخ » فتدبر .

قال في "التعريف": "وملك التكرور هذا يدعى نسباً إلى عبد الله بن صالح
آبن الحسن، بن علي، بن أبي طالب .

ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في "التعريف": «أدام الله تعالى نصر المقتدر
العالى، السلطان، الجليل، الكبير، العالم، العادل، المجاهد، المؤيد، الأوحيد،
عز الإسلام، شرف ملوك الأنام، ناصر الغزاة والمجاهدين، زعيم جيوش الموحدين،
جمال الملوك والسلاطين، سيف الجلالة، ظهير الإمامة، عضد أمير المؤمنين»
الملك فلان. ويدعى له بما يناسب. وبعد إهداء السلام والتشوق «هذه
المفاوضة تبدي» .

قال: «ولا يعرض له ولا يقتر بشيء من الالتقاء الدالة على النسب العلوى .
وهذا صدر لهذه المكتبة ذكره في "التعريف" .

ويسر له القيام بفرضه، وأحسن له المعاملة في قرضه، وكثر سواده الأعظم
وجعلهم بيض الوجوه يوم عرضه، ومتعه بملك يجد الحديد يجف سمائه والذهب
نبات أرضه. صدرت هذه المفاوضة وصدرها به مملو، وشكرها عليه يملو، ومن أيا
حبه في القلوب سر كل فؤاد، وسبب ما حلي به الطرف والقلب من السواد؛ تنزل
به سفنها المسيرة في البحر وترسى، وتخل عند ملك ينقص به زائده وينمى موسى
منبى، وتقيم عليه والدهر لا يطرفه فيما ينوب، والفكر لا يشوقه إلا إذا هبت صبا
من أرضه أو جنوب .

والمتداول بين جماعة كتاب الإنشاء أن المكتبة إليه: «أعز الله تعالى جانب
الجناب الكريم العالى، الملك، الجليل، العالم، العادل، المجاهد، المؤيد، الم رابط،
المتاخر، العابد، الناسك، الأوحيد، فلان، دُخر الإسلام والمسلمين، نُصرة الغزاة

والمجاهدين، عَوْنُ جُيُوشِ المُوَحِّدين؛ رُكْنُ الأئمة، عماد المِلَّة، جمال الملوك والسلاطين، وليّ أمير المؤمنين» والدعاء .

وذكر نحو ذلك في الدستور المنسوب للقرن العاشر بن فضل الله؛ ثم قال ويقال : «صدرت هذه المكتبة إلى الجنب العالی مملوءة الصدر بشكره ، باسمه الثغر برفعة قدره، موصحة لعلمه الكريم كَيْتَ وكَيْتَ . وذكر أن خطابه بالجنب الكريم، والطلب والقصد والختم بالإحاطة؛ وذكر هو وصاحب "التثقيف" أن المكتبة إليه في قطع الثلث، والعلامة «أخوه» ؛ وتعريفه «صاحب مالى وغانة» .

الجملة الثالثة

(في المكتبة إلى ملوك المسلمين بالحِشَة)

قد تقدم في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك أن بلاد الحبشة سبعة ملوك مسلمين ، لهم سبع ممالك ؛ كل مملكة منفردة بملك ؛ وبها الجوامع والمساجد ينادى فيها بالأذان ، وتقام بها الجمع والجماعات ، وهم مع ذلك تحت أمر صاحب أمّحرا ملك ملوك الحبشة ؛ يختار لولاية ممالكهم من شاء توليته ، ولا يردون ويصدرون إلا عن أمره ، وهى مملكة أوقات والزَّيْلَع ، ومملكة دَوَّارو ؛ ومملكة أرابيني ؛ ومملكة هَديّة ؛ ومملكة شَرْحَا ؛ ومملكة بالي ؛ ومملكة دارة .

وقد تقدم الكلام عليها وعلى أحوالها مستوفى عند الكلام عليها في المقالة الثانية . قال في "مسالك الأبصار" : وهذه المسالك تُجاور ناصع ، وسواكن ، ودَهْلَك ؛ وليس بها مملكة مشهورة .

قال في "التعريف": ولم يرد من هذه الملوك السبعة كتاب، ولا صدر إليهم خطاب. قال: فإن ورد منهم شيء فتجربى مكاتبتهم مثل مكاتبة صاحب الكانم والبرنو. وقد تقدم أن رسم المكاتبة إليهما على ما ذكره في "التعريف": «أعز الله تعالى نصرة الجنب الكريم، وأعز الله تعالى جانب الجنب الكريم» على ما كتب به القاضي زين الدين طاهر في جواب صاحب البرنو على ما هو مذكور في موضعه.

المقصود الرابع

(في المكاتبة إلى أهل الجنب الشمالي، وفيه ثلاثة أطراف)

الطرف الأول

(في المكاتبات إلى أمراء الأتراك بالبلاد المعروفة ببلاد الروم المسماة الآن ببلاد الدروب)

قال في "التعريف": وهي البلاد المنحصرة بين بحري القرم والخليج القسطنطيني تنتهي في شرقها إلى بحر القرم المسمى بحر نيطش، وفي الغرب إلى الخليج القسطنطيني وتنتهي متشاملة إلى القسطنطينية، وتنتهي جنوباً إلى بلاد الأرمن، يحدها البحر الشامي. قال: وهذه البلاد بلاد متسعة، وهي مفترقة لملوك مجتمعه، ولكنه لا يطلق عليهم إلا اسم الإمارة؛ ولا انتظام لكتبتهم، ولا اجتماع لجللتهم؛ ثم قال: وأكبرهم صاحب كرمان، وله بينهم وضع محفوظ، ونظام مرعي.

أما ملوكنا، فأجل من لديهم منهم جماعة بنى قرمان، لقرب ديارهم، وتواصل أخبارهم، ولنگاياتهم في ممالك سيس وأهل بلاد الأرمن، وأجتيابهم لهم من ذلك

الجانب، مثل اجتياح عساكرنا لهم من هذا الجانب؛ فمكاتبنا إلى بني قرمان لا تنكاد تنقطع، وأما إلى البقية فأقل من القليل، وأخفى من مرأى الضئيل. ثم عد منهم ستة عشر أميرا، وذكر رسم المكتبة إلى كل واحد منهم :

الأول - صاحب كرميان . قال في "التعريف" : ولم يكتب إليه مدة مقامى بالأبواب السلطانية ؛ ويُسبِّه أن تكون المكتبة إليه بالمقر نظير صاحب ماردین، لكن بأبسط ألقاب : إذ هي أدعى لاستحسانهم لقلّة معارفهم ، وعلى هذا التقدير يكون رسم المكتبة إليه : « أعزّ الله تعالى نصر المقرّ الكريم ، العالی ، الملکی ، الأجلّی ، العالمی ، العادلی ، المجاهدی ، المؤیدّی ، المرابطی ، المناغری ، المظفری ، المنصوری ، الفلانی ، عون الأنام ، شرف الملوك والسلاطين ، نصير الغزاة والمجاهدين ، زعيم الجيوش ، مقدّم العساكر ، ظهير أمير المؤمنين » .

قال : فإن لم يُسمَح له بكل هذه المخاطبة ، ولم يؤهّل لنظير هذه المكتبة ؛ كتبت إليه هذه الألقاب مع الجانب الكريم ، وخوُطِبَ بالإمارة إن لم يسمح له بالمخاطبة بالملك .

قال في "التنقيف" ولعل مكاتبته بالجانب مع هذه الألقاب كما ذكر ومخاطبته بالإمارة أولى : لأنه إذا كان بنو قرمان أجل لدى ملوكنا ، ومكاتبهم بالدعاء والمجلس العالی ، فيتعين حيث هو أكبر منهم أن يكون هو أعلى منهم رتبة في المكتبة بدرجتين (١) وهي : الجانب الكريم . قال : هذا هو الأولى عندي .

قلت : وهذا كله إنما كان قبل أن يعلو قدر ابن عثمان صاحب برّسا الآتي ذكره ، ويرتفع قدره على من بتلك البلاد جملة ؛ أما بعد ارتفاعه وانحطاطهم دونه فينبغي أن يُنظر في قدر المكتوب إليه ، ويكتب إليه بحسب ما تقتضيه الحال .

الثاني — صاحب طَنْغُزْلُو . قال في " التعريف " ورسم المكاتبه إليه : « صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس العالي الأميرى » ولم يذكر العلامة إليه . قال في " التثقيف " والذي وجدته مسطورا في مكاتبته الأسم والسامى بالياء .

الثالث — صاحب تُوَازَا . قال في " التعريف " : وهو فى المكاتبه نظيرُ صاحب طَنْغُزْلُو ، ولم يزد على ذلك ، غير أنه ذكر أن اسمه فى زمانه كان « على أرينه » وذكر فى " التثقيف " أنه لم يقف له على رسم مكاتبه سوى ذلك .

الرابع — صاحب عَيْدَلِي . قد ذكر فى " التعريف " أن اسمه فى زمانه دَنْدَار أَخو يُوُس صاحب أَنْطَالِيَا ، وأنه نظير صاحب تُوَازَا فى المكاتبه ، فتكون المكاتبه إليه : صدرت والعالي . قال فى " التثقيف " ولم أَقِفْ على رسم مكاتبه إليه سوى ذلك ، إلا أنه ذكر بعد ذلك صاحب عدليو . وقال : إن المكاتبه إليه الأسم والسامى بالياء ، وذكر أن المقر الشهابى بن فضل الله لم يتعرض إلى ذكره فى " التعريف " ثم قال : وقد تكون هى عَيْدَلِي المقدم ذكرها ، وإنما تكررت بتغيير الحروف . قال ولم يتحزّر هل هما آثان أو واحد .

الخامس — صاحب كَضَطْمُونِيَّة وهى قَسْطَمُونِيَّة . قال فى " التعريف " وكانت أَحْرَوقِيَّة لسلطان باشا ، وكان أميراً كبيراً ، كثير العدد ، موفور المدد ، ذاهية وتمتع . ثم قال : وورث ملكه أبنه إبراهيم شاه ، وكان عاقاً لأبيه ، خارجاً عن مراضيه ، وكان فى حياته منفرداً بمملكة سنوب . قال : وهى الآن داخله فى ملكه ، منخرطة فى سلكه .

وذكر أن رسم المكاتبه اليه : « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي الأميرى » بأكل الألقاب ، وأتم ما يُكْتَب فى هذا الباب ، وذكر فى " التثقيف " نقلاً عن القاضى ناصر الدين بن النشائى ، وأمين الدين خضر مثل ذلك ، وأن العلامة إليه « أخوه » .

السادس — صاحب فاوياً . قال في "التعريف" وهو (يعنى فى زمانه) مراد الدين حمزة ، وهو ملك مضعوف ، ورجلٌ يجالسُ أنسه مشغوف . قال : ورسم المكتبة إليه « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامى الأميرى » بالياء . قال فى "التثقيف" وهو غير بعيد .

السابع — صاحب برساً . وقد ذكر فى "التعريف" انه فى زمانه أرخان بن عثمان . ثم قال : وهو نظير صاحب فاوياً فى المكتبة ، فتكون مكاتبته السامى بالياء . قال فى "التثقيف" ولم أطلع على رسم للمكتبة إليه غير ذلك ، إلا أنه ذكر فى الفصل الأول من الباب الرابع فى الكلام على مكاتبات الحكام أرخان بن عثمان . وقال : إن لقبه سيف الدين . ثم قال : ويقال إنه صاحب برساً ؛ وذكر أن رسم المكتبة إليه فى قطع العادة والدعاء والمجلس العالى ، والعلامة أخوه ، وتعريفه اسمه .

قلت : وقد تقدم فى الكلام على المسالك والممالك أن الأمر قد آل فى بنى عثمان إلى أرخان بن عثمان جق ؛ ثم إلى ابنه مراد بك ؛ وأنه أتسع ملكه وجاوز فى الفتح الخليج القسطنطينى حتى قارب خليج البنادقة ؛ ثم إلى ابنه أبى يزيد فزاد فى الملك على ما كان بيد أبيه ؛ وتزوج فى بنى قرمان ، ودخل بنو قرمان وسائر التركمان فى طاعته ، ولم يبق خارجاً عن ملكه إلا سيواس ؛ فإنها كانت مع قاضيه إبراهيم المتغلب عليها ، ولم يزل كذلك حتى قصده تمرلنك وأسره ، ومات فى يديه ؛ وملك بعده ابنه سليمان چلبى . ثم مات ؛ وملك بعده أخوه محمد بن أبى يزيد بن مراد بك ابن عثمان جق ، وهو القائم بها إلى الآن . وكانت المكتبة قد استقرت إلى أبى يزيد
(١)

فى الأيام الظاهرية (برقوق)

(١)

الثامن - صاحب أكبرا . قد ذكر في "التعريف" : أنه كان في زمانه دمبرخان
 ابن قرأشي ؛ وذكر أن مكاتبته نظير مكتبة صاحب برسا ، يعني السامى بالياء ؛
 وذكر في "التثقيف" : أنه لم يقف على سوى ذلك .

التاسع - صاحب مرمرأ . وقد ذكر في "التعريف" : أنه في زمانه كان
 بنحشى بن قرأشي . وقال : إن رسم المكتبة إليه : « صدرت هذه المكتبة إلى
 المجلس العالى » .

قلت : وقد تقدم في المسالك والممالك أن هذه البلدة كانت جزيرة بالخليج
 القسطنطينى بها مقطع رخام ، وأن النصارى غلبوا عليها .

العاشر - صاحب مغنيسيا . ذكر في "التعريف" : أن اسمه صاروخان .
 وقال : إن المكتبة إليه السامى بالياء . وذكر في "التثقيف" : أنها صارت بعده
 إلى ابنه إسحاق بن صاروخان ؛ وأنه كتب إليه في شوال سنة سبع وستين وسبعمائة
 بالإسم والسامى بالياء .

الحادى عشر - صاحب نيف . ذكر في "التعريف" : أنه في زمانه كان
 على باشا أخو صاروخان صاحب «مغنيسيا» المقدم ذكره ؛ وذكر أن رسم المكتبة
 إليه مثل أخيه المذكور ، فتكون صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى .

الثانى عشر - صاحب بري . ذكر في "التعريف" : أنها في زمانه كانت
 بيد ابن أيدين ولم يصرح باسمه . قال : وإن المكتبة إليه « أدام الله تعالى نعمة
 المجلس العالى » بالألقاب التامة ؛ وذكر في "التثقيف" : أنه لم يقف له على مكتبة
 غير ذلك .

(١) هي كذلك في كتاب "المسالك" والذي تقدم في ج ٥ قلا عن "التعريف" أيضا صاروخان ،
 وليست في نسخة "التعريف" التى بأيدينا .

الثالث عشر — صاحب فوقه . ذكر في "التعريف" : أنه كان في زمانه أرخان ابن منتشا، وأن المكتبة إليه نظير صاحب بركي، فتكون الدعاء مع العالي بالألقاب التامة أيضاً، وذكر في "التثقيف" : أنه لم يقف في مكاتبته على غير ذلك .

الرابع عشر — صاحب أنطاليا . ذكر في "التعريف" : أنه كان في زمانه اسمه خضر بن يونس . وقال : إن رسم المكتبة إليه « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالي » . وذكر في "التثقيف" : أن خضر بن يونس المذكور كان يلقب سنان الدين، وأنه استقر بعده دادى بك، ثم استقر بها آخراً محمد المعروف بكجوك، وذكر أن المكتبة^(١) إليه « أخوه » والدعاء والعالي . ثم قال : وهو الأصح لأنه آخر ما استقر عليه الحال في مكاتبته وكتب به إليه .

الخامس عشر — صاحب قرصار . ذكر في "التعريف" : أنه كان في زمانه اسمه زكرياً، وأن رسم المكتبة إليه : هذه المكتبة إلى المجلس السامي، بلاياء، وذكر في "التثقيف" : أنه لم يطلع على مكتبة إليه سوى ذلك، وأنه لم يكتب إليه شيء في مدة مباشرته .

السادس عشر — صاحب أرمناك . ذكر في "التعريف" : أنها كانت في زمانه بيد ابن قرمان ولم يصرح باسمه، وذكر في "التثقيف" : أن اسمه علاء الدين سليمان . قال في "التعريف" : ورسم المكتبة إليه : أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي . بكل الألقاب وأكبرها، وأجمعها وأكثرها . وذكر في "التثقيف" : أن آخر من استقر بها في شوال سنة سبع وستين وسبعائة علاء الدين على بك بن قرمان، ووافق على رسم المكتبة المذكورة . وقال : إن العلامة إليه « أخوه » وتعريفه « فلان بن قرمان » .

(١) لعله "العلامة إليه" .

قال في "التعريف": وإخوة صاحبها آبن قِرْمَان المذكور رسوم في المكاتبات، فأكبرهم قَدْرًا، وأتتَّكهم نابًا وظُفْرًا، الأمير بهاء الدين موسى . وقد تقدّم في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية أنّه حضر إلى الأبواب السلطانية ، ووجّه مع الزكب الشريف ؛ ثم عاد إلى الأبواب السلطانية ، وأجلس في المرّتين مع أمراء المشورة ، وأشرك في الرأي . وسأل السلطان في كتابة منشور بما يفتح من بلاد الأرمن فكُتِب له . قال في "التعريف" : وأسقطت المكتبة إليه مثل مكتبة أخيه . قال : أما بقية بن قِرْمَان فدُونهما في المكتبة .

وَأَعْلَم أن صاحب "التتقيف" قد زاد على ذلك من أمراء هذه البلاد ستة نفر .

أحدهم — الحاكم بالعَلَايَا . وذكر أنه كان اسمه حُسام الدين محمود بن علاء الدين ، وأنه كتب إليه في شوال سنة سبع وستين وسبعائة «أخوه» والدعاء ، والعالى ، في قَطْع العادة .

الثاني — صاحب بَلَاط ورىحر .^(١) ذكر أنه كان بها « أمير موسى » بن إبراهيم آبن مَنْتشا ، وأن المكتبة إليه في قَطْع العادة «والده والدعاء» والمجلس العالى .

الثالث — صاحب أَكْرَدُور وهى أَكْرَدُون . ذكر أنه كان بها إلياس بن مصطفى من بنى حميد ، وأن رسم المكتبة إليه على ما استقر عليه الحال عند ما كتب إليه في شوال سنة سبع وستين وسبعائة «والده» والسامى بالياء .

الرابع — صاحب أَيَا سُلُوق . ذكر أنه كان بها عيسى بن أيدين ، وأنه كتب إليه في شوال من السنة المذكورة أيضا .

(١) كذا باهمال جميع حروفها نعم تقدّم في القواعد «بلاط» فقط ولم نعر عليها بعد البحث والتصحيح .

الخامس — صاحب بلى شار . ذكر أنه كان بها الأمير محمد ولم يذكر نسبه .
وقال : إن المكتبة اليه الأسم والسامى بالياء .

السادس — الأمير ذروان بن كيمان بن متشا . ذكر أنه من استجذت مكاتبته
في شوال سنة سبع وستين وسبعائة .

وأعلم أنه قد زاد في "التثقيف" ذكر مكتبة جماعة لم أتحقق هل هم من أهل
هذه البلاد أم من غيرها .

منهم صاحب قلعة الحنفاء؛ ذكر أنه كان اسمه سيف الدين قوجى، وأن المكتبة
إليه في قطع الثلث والسامى بالياء .

ومنهم صاحب قلعة الجوز، في قطع الثلث الأسم والسامى بالياء، وتعريفه اسمه .
ومنهم صاحب بكجرى : استجذت الكتابة إليه في شوال سنة سبع وستين
وسبعائة، وكتب إليه الأسم والسامى بغير ياء .

ومنهم الحاكم بقلعة أبيض كتب إليه الأسم ومجلس الأمير .

ومنهم الحاكم بقلعة نعمة، كتب إليه الأسم ومجلس الأمير أيضا .

ومنهم الحاكم بقلعة أشنى : وهى أشنوكتب إليه كذلك .

على أنه قد ذكر منهم جماعة أيضا ليسوا من أهل هذه البلاد جملة؛ منهم نائب
خلاط، وصاحب موغان، وهى موقان، والحاكم بإسعرود وهى سيعرت، وصاحب
قيشان وهى قاشان .

وقد تقدم أن خلاط من أرمينية، وموقان من أرمينية، وإسعرود من ديار ربيعة
من الجزيرة الفراتية، وقاشان من عراق العجم؛ وبالجملة فقد خلط في "التثقيف"
في البلدان تخليطا كثيرا، وخلط بعض أقاليم البلاد ببعض .

قلت : قد تقدّم في صدر الكلام على المكاتبات ذكرُ أصول يعتمدها الكاتب في كتبه تُعمُّ الكتب السلطانية وغيرها ؛ وأنا أذكرُ هنا ما يختصُّ منها بالكتب الصادرة عن السلطان على النمط الجاري عليه الاصطلاح الآن ليسهل القصد إليها لقربها ، ويحصل الغرض من ذلك ، بذكر [تسعة] أمور :

أولها — مقاديرُ قطع الورق ؛ قد تقدّم في الكلام على مقادير قطع الورق المستعملة في دواوين الإنشاء جملةً ، والذي يختصُّ منها بالكتب الصادرة عن السلطان أربعة مقادير :

أحدها — قطع البغدادى الكامل ؛ وقد مرَّ أنه يكتبُ فيه للقائات .

وثانيها — قطع النصف ، وفيه يكتبُ إلى أكابر الملوك من دون القائات .

وثالثها — قطع الثلث ، وفيه يكتبُ إلى الرتبة الثانية من الملوك .

ورابعها — قطع العادة ، وفيه يكتبُ إلى أصاغر الملوك والولاة وغيرهم .

الثانى — العنوان ؛ قد تقدّم في مقدّمة الكتاب أنّ الذى كان يكتبُ عنوانات الكتب السلطانية في الزمن المتقدم هو صاحب ديوان الإنشاء دون غيره ؛ أما الآن ، فإنَّ كاتب كلِّ كتاب صار هو الذى يكتبُ عنوانه بنفسه .

وقد جرت العادة في عامة الكتب السلطانية أن يكون المكتوب فيها هي ألقاب المكتوب اليه وتُعوّنه التي في صدر المكتبة في الباطن ؛ ثم يدعى المكتوب إليه في آخر الألقاب بالدعوة التي صدر بها الدعاء في الصدر مثل : أعزَّ الله أنصاره ، أو ضاعف الله نعمته ، وما أشبه ذلك من الأدعية التي تُفتَح بها المكاتبات ؛ فإن كان الكتاب مفتوحاً بالحمدلة أو بلفظ من فلان ، كُتِب في العنوان الألقاب التي في صدر الكتاب بعد ذلك ؛ ثم بعد الدعاء يُحلى بياضاً قليلاً ؛ ثم يذكر تعريف

المكتوب إليه . مثل «صاحب فلانة» ونحو ذلك مما تقدم ذكره من التعريفات .
وتكون كتابة العنوان بنظير قلم الباطن في الدقة والغلظ . وتكون أسطره متصلة من
أول عرض الدرج إلى آخره، وأسطره متلاصقة متتالية .

الثالث — الطرة التي يكتب فيها تعريف المكتوب إليه ، والعلامة التي يكتبها
المكتوب عنه ، والسبب في كتابته .

وقد جرت العادة في ذلك أنه يكتب في رأس الدرج في الجانب الأيمن
«إلى فلان» وفي الجانب الأيسر «بسبب كذا وكذا» وفي الوسط العلامة التي يعلمها
السلطان مثل «أخوه» أو «والده» أو «أسمه» : ^(١) يُنظر عند علامة السلطان على
الكتاب فيعلم حال الكتاب، ويجرى الأمر في العلامة على هذا الرسم، وتكون كتابتها
بقلم الكتاب من ثلث أو رقاع أو غيرهما، إلا أن يكون الكتاب مختصر الطومار في قطع
البغدادى فيكون ذلك بقلم الثلث . وهذه الطرة تقطع بعد أن يعلم على الكتاب .

الرابع — البياض في أعلى الكتاب ، وقد جرت العادة في الكتب السلطانية أن
العلامة إلى المكتوب إليه : إن كانت «أخوه» أو «والده» ترك فيه ثلاثة أوصال
بياضا بما فيه من وصل العنوان؛ ثم تكتب البسملة في رأس الوصل الرابع؛ وإن
كانت العلامة إليه الاسم، ترك وصلان بياضا فقط وكتبت البسملة في أول الوصل
الثالث؛ ثم يكتب السطر الأول من الكتاب على سمت البسملة ملاصقا لها؛ ثم يحل
موضع العلامة بياضا، ويكتب السطر الثانى على سمت الأول في أواخر ذلك
الوصل على قدر إصبعين من آخره؛ ثم يجعل بين كل سطرين أربعة أصابع مطبوعة،
إن كان القطع صغيرا، وإن كان القطع كبيرا كان فيه قدر رُبع ذراع أو نحوه بحسب

(١) لعله في الكتابة أى يكتب مايناسب العلامة .

المناسبة؛ فإذا انتهى إلى آخر الكتاب كتب «إن شاء الله تعالى» في الوسط على بُعد قدر إصبعين من السطر الآخر. ثم يكتب : «كُتِبَ في تاريخ كذا من شهر كذا سنة كذا وكذا» ويكون إلى آخر ذكر الشهر سطر، ومن أول سنة كذا إلى آخره سطر. ثم يكتب المستند على نحو البعد المذكور : فإن كان بتلق كاتب السر خاصة كتب «حَسَبَ المرسوم الشريف» فقط. وإن كان بتلق كاتب السرو كتاب الدست من دار العدل كتب «حَسَبَ المرسوم الشريف» في سطر، وتحتة بقدر إصبع «من دار العدل الشريف» في سطر. وإن كان برسالة الدوادار كتب «حَسَبَ المرسوم الشريف» في سطر، وتحتة بقدر إصبع «برسالة الجناح العالي الأميري الفلاني الدوادار الفلاني» بقلب السلطان «ضاعف الله تعالى نعمته» . وإن كان من ديوان الخاص، كتب «حَسَبَ المرسوم الشريف» في سطر وتحتة «من ديوان الخاص الشريف» . وإن كان بخط السلطان : بأن كُتِبَ على القصّة بالخط الشريف، كتب «حَسَبَ الخط الشريف» في سطر واحد. وإن كان بإشارة النائب الكافل كتب «بالإشارة العالية الأميرية الكبيرة الفلانية» في سطر، وكتب تحتة بقدر إصبع «كافل الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالى» . وإن كان بإشارة أستاذ الدار، كتب «بالإشارة العالية الأميرية الكبيرة الفلانية» في سطر، ثم يكتب تحتة بقدر إصبع «أستاذ الدار العالية أعلاها الله تعالى» . على أنه قد تقدّم في الأقباب أن كتابتهم أستاذ الدار هو عرف جرى عليه اصطلاحهم؛ وأنّ الصواب فيه إستدّار بغير ألف بعد التاء . وتكون كتابة المستند ببياض من جانبيه ، سواء كان سطرا واحدا أو سطرين ؛ ثم إذا فرغ من كتابة المستند، كتب الحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في سطر كامل على بُعد قدر إصبعين من المستند؛ ثم يكتب الحسبة على قدر إصبعين من سطر الحمدلة والتصلة.

وقد تقدّم في الكلام على الخواتم في المقالة الثالثة نقلاً عن عبد الرحيم بن شيث أن موضعها من ثلث السطر الأخير من أوله إلى حين تنهى كتابتها .

الخامس — قد ذكر ابن شيث في معالم الكتابة أنه لا يكتب في حواشي الكتب السلطانية : لأن في ذلك شحاً بالورق ، وذلك مما لا يليق بالسلطان ؛ ولا خفاء في استقباح ذلك ، بل قد يستبجح ذلك في غير السلطان كما سيأتي ذكره في الإخوانيات .

السادس — العلامة السلطانية على المكتوب ، في بيت العلامة من البياض السابق ذكره . قد ذكر في "التعريف" أن أكبر من يكتب إليه من الأمراء وممالك البيت الشريف فترجمته بالخط الشريف « والده » ومن دون ذلك « الأسم الشريف » ؛ أما الغرباء كلوك المسادين والعربان وأكابر القضاة وأهل الصلاح والأكابر؛ فترجمته بالخط الشريف « أخوه » ومن دون ذلك الأسم الشريف .

والذي استقر عليه الحال آخر في زماننا أن لأكابر الأمراء من النواب وغيرهم « أخوه » لرفع مكان الأخ على الولد ، ولمن دونهم « والده » ولمن دون ذلك « الأسم » وبقى الحال على ما ذكره ؛ وقد سبقترجمة كل مكتوب إليه في الكلام على المكتبة إليه .

أما القانات الكبار فقد تقدّم في الكلام على المكتبة إليهم أنه تكتب لهم طغرة بالألقاب السلطانية في موضع العلامة ؛ وأما ملوك الكفر ، فسيأتي أنه تكتب طغرة بالألقاب السلطانية فوق البسمة .

السابع — طي الكتب السلطانية : قد تقدّم في صدر الكلام على المكتبات نقلاً عن ابن شيث من كتاب الدولة الأيوبية أن كتب السلطان يكون طيها

في عَرْض أربعة أصابع ، وأن مقتضى ذلك أن كُتِبَ السلطان بالديار المصرية كانت تُطَوَّى على هذه الهيئة كما في كُتُب أهل المغرب الآن ؛ والذي أَسْتَقَرَّ عليه الحال آخرا أنها يجعل طيها في صورة أُنْبُوبِ القَنَاة ولا تُضَغَط في طيها لتكون نبيلة تعظيما لأمر السلطان وإجلالا لقدره .

الثامن — ختم الكتاب : قد تقدّم في الكلام على الخواتم واللواحق في المقالة الثالثة أن الكتب السلطانية كانت تَحْتَمُ بِسَحَاءَةٍ^(١) ، ويُطَبَّعُ عليها بِطِينٍ أحمر ، يُوتَى به من سِرَافٍ ، وتَحْتَمُ بِخَاتَمٍ كما تَحْتَمُ المغاربة الآن ؛ أما الآن فقد أَسْتَقَرَّ الحال على أن الكتب تُلصَقُ بالنِّشَاءِ أو ما في معناه من الكَثِيرَاءِ ونحوها ؛ وقد سأل الشيخ جمال الدين بن نُبَاتَةَ في رسالته التي كتبها إلى الشَّهاب محمود رحمه الله حين بَلَغَهُ وقوعُ بعض كُتُب دِمَشْقَ في حقه عن غير طِينٍ الختم إلى النِّشَاءِ ، ولم أَقِفْ على زمان تغيُّر ذلك ولا مَنْ غيَّره ، على أني حلَّلت معظم أسئلة هذه الرسالة في خِلَالِ هذا الكتاب مفرقة في مواضعها .

التاسع — أن الكتب الصادرة عن الأبواب السلطانية : إن كانت إلى أحد من عظماء الملوك كالثقات ببلاد الشرق ، أو ملوك بلاد المغرب ونحوهم من يتعاضد البلاء في الكتب الصادرة عنه ، كتبت مسجوعة كلها ؛ وإن كانت إلى صغار الملوك والحكام كتبت غير مسجوعة ؛ وإن كانت إلى أحد من أهل المملكة ؛ فإن كانت في أمرٍ بعد وقوعه : كالكتابة بالإشارة بوفاء النيل ، أو جلوس السلطان على التَّيْحَتِ لأقرب أمره ، أو بُرْئِهِ من المرض ، أو ولادة ولدٍ له ، أو الإشارة بفتح ، أو الإعلام بركوب الميدان ، أو الإنعام بخيل أو نحوها ؛ كتبت مسجوعة ، وإلا كتبت مُرْسَلَةً غير مسجوعة .

(١) يريد تلف عليها سحاءة كما يؤخذ من بقية العبارة وما تقدم في جزء هـ

الطرف الثاني

(في المكتبة عن ملوك الديار المصرية على المصطلح المستقر عليه

الحال، إلى ملوك الكفر)

وأعلم أن ملوك الكفر المكاتبين عن هذه المملكة جميعهم نصارى : من الروم ،
والفرنج ، والكُرج ، والحَبْشَة وغيرهم ؛ إذ كانوا هم المستونين على أكثر الممالك ؛
أما اليهود ، فإنهم لم يبقَ لهم مملكةٌ معروفة ، بل هم تحت الذمة أين كانوا . قال
تعالى : ﴿ ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ أَيْنَمَا تَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ ﴾ .
قال في " التعريف " وجميع الكتب المكتوبة إلى ملوك الكفر لا يشملها الخطُّ
الشريف أصلاً ، بل يُكتب فوق البسملة في الكتاب بخط الكاتب عوض العلامة
الشريفة أسطر قصيرة بياض من الجانيين ماصورته :

« من السلطان الأعظم الملك الناصر - مثلاً - العالم ، العادل ، المجاهد ، المربط ،
المُتَاغِر ، المؤيد ، المظفر ، المنصور ، الشاهنشاه ؛ فلان الدنيا والدين ، سلطان الإسلام
والمسلمين ، نُحْيِي العَدْلَ في العالمين ، وارث الملك ، ملك العرب والعجم والتُرك ؛
ظَلَّ الله في أرضه ، القائم بسُنَّتِهِ وفَرَضِهِ ؛ إسكندر الزمان ، مملك أصحاب المنابر
والتخوت والتيجان ؛ واهب الأقاليم والأمصار ، مُبِيد الطُغَاة والبُغَاة والكُفَّار ؛ حامٍ
الحرمين والقِبْلَتَيْنِ جامع كلمة الإيمان ، ناشِر لواء العَدْل والإحسان ؛ سيد ملوك
الزمان ، إمام المتقين ، قسيم أمير المؤمنين ؛ أبى فلان ، ابن السلطان الشهيد الملك
الفلاني فلان ، خلد الله سلطانه ، ونصر جنوده وجيوشه وأعوانه » .

وأوضح ذلك في " التثقيف " فقال : ويكون في الطرة بعد وِضْلين بياضاً من أول
الكتاب بهامش جيد من الجانيين يَمْنَةً وَيَسْرَةً ، ويكونان في قدر بياضهما سواءً

تقدير أربعة أصابع فأكثر من كل جانب، من الورق العريض؛ وفي قطع العادة دُونَ ذلك . وتكون الأسطر متقاربة، ما بينهما من البياض تقدير إيهام أو أزيد منه بشيء يسير؛ وإذا انتهت الألقاب يترك بعدها وصلاً أبيض؛ ثم يكتب البسملة الشريفة، وبعدها رسم المكتبة للكتوب إليه .

الطرف الثالث

(في المكتبة إلى مَنْ وراء بحر القِرم بالجانب الشمالى منه)

وهو صاحبُ البُلغار والسَّرْب . وهى بلادٌ فى نِهاية الشَّمال ، متاخمةٌ لصاحب السَّراى ؛ وقد ذكر فى ” التعريف ” المكتبة إليه فى المكتبة إلى جملة ملوك المسلمين . وقال : إنَّ صاحبها يُظهر الأتقياد لصاحب السَّراى ، وإنه أرسل رُسُلَه تَطَلُّب له الألوِيَّة من الأبواب السلطانية فُجِّهت إليه مع ما جرت به العادة من السيف والتشريف والخيَل المُسرَّجة المُلجَمة . وذكر أن رسم المكتبة إليه على ما كُتِب إذ ذاك :

« أعزَّ الله نصرَ الجناح الكَريم، العالى، المَلَكى، الأَجَلِّى، الكَبِيرى، العالمى، العادلى، المجَاهِدِى، المؤيِّدى، المُرابِطى، المناغِرى، الأوحدى، سيف الإسلام والمسلمين، ناصر الغُزاة والمجاهدين، زعيم الجيُوش، مقدِّم العساكر، جمال الملوك والسلاطين، دُخْر أمير المؤمنين » .

ثم هذا الطرف يشتمل على أربعة مقاصد مشتملة على الجهات الأربع :

المقصود الأول

(في المكتبة إلى ملوك الكُفَّار ببلاد الشَّرق ، وجملةٌ من بها من ملوك
النصارى المكتَّبين عن هذه المملكة مملكتان)

الأولى - مملكة الكُرج من النصارى المَلِكِيَّة . قال : في "التعريف" ويقال
في المسلمين الكُرد، وفي النصارى الكُرج . قال : وموقع هذه [البلاد] بين بلاد الروم
وبين بلاد أرمينية . وهي بلادٌ جليسةٌ ، ومملكةٌ مفخمةٌ ، وكأنها مقتطعة من
البلادين ، ولها ملك قائم ، وبها مُلك دائم ؛ وأمُّها مدينة تَقْلَيْس ، وسلطانُ بيت
هُولاكو بمملكة إيران يحكمُ عليها ، ويرالغُه تصلُّ إليها ؛ إلا أنه لا يطغى بها سيَّله ،
ولا تجوسُ خلالَ ديارها للحرب المضَّربة خيله ؛ وإنما له بها توماً اتخذ سِداداً
لنُفْرها ، وقياماً بأمرها ؛ مَنَزَلُهُمْ فسيحُ بواديها ، أهلُ حلٍّ وترحالٍ ، وتنقُل من حال
إلى حال . قال : وآخرُ مَنْ كان له في هذه البلاد سُمتة ، وأُقيمت به للمهاجرة صرعه ؛
الشيخُ محمودُ بنُ جوبان ، وكان باسلاً لا يُطاق ، ورجلاً مرَّ المَدِّاق ؛ ولما جرت
الكائنة لأبيه ، لاذَ بالسلطان (أزبك قان) ثم لم تطل له مُدَّة ، ولا أنفجرت له حِلَقُ
شِدِّه ؛ وأتاه أجلُّه وما أستطاع رَدُّه . ثم قال : وعسكر الكُرج صليبةُ دين الصَّليب
وأهلُ البأس والتَّجده ، وهم للعساكر الهولاكوية عِتادٌ وذُخْرٌ ، ولهم بهم وثوق
وعليهم أَعِمادٌ ، [ولا] سِيَّما لأولاد جوبانَ وبنيه ، وبقايا تَحَلُّفِهِ ، لسالفِ إحسانِ
جوبانَ إليهم ، ويدٌ مشكورةٌ كانت له عندهم ، وكان صديقاً لملكهم برطلميا يفرس
عنده الصَّنائع ، ويستترِعه الودائع ؛ فكان أخصَّ خصيص به ، وأصدقَ صديق
له ، يدعوه للمُهم ، ويستصرخ به في المُلِم ، ويعُدُّه رِداءً لعسكره ؛ ومُزِيلاً لِمُنْكَرِه .

وعقب ذلك بأن قال : وبرطما المذكور عهدي به حتى يَرْزُقَ من أجل ملوك
النصرانية ، وأعرق أنساب بني المعمودية ، وقد كان كاتب الأبواب السلطانية
بسبب كنيسة المصلبه ، وأن تُرفع عنها الأيدي المتغلبه ، فبرزت الأوامر المطاعة
بإعادتها عليهم وكانت قد أخذت منهم - وهى بظاهر القدس الشريف - وأُتخذت
مسجدا ، وعز هذا على طوائف العلماء والصالحاء وان لم يعمل هذا سدى . قيل
إنه كان يحسن لجوبان قصد البلاد ، ويبدل له عليه الطارف والتلاد . وذكر أن
رسم المكتبة إليه : « أدام الله تعالى بهجة الحضرة العلية ، حضرة الملك الجليل
الهمام ، الباسل ، الضرغام ، السميع الكرار ، الغصنفر ، المتخت ، المتوج ، العالم
فى ملته ، العادل فى رعيته ، بقية الملوك الأغريقية ، سلطان الكرج ، ذخرمك البحار
والخلج ، حامى حى الفرسان ، وارث آبائه فى الأسرة والتيجان ، سياج بلاد الروم
وإيران ، سليل اليونان ، خلاصة ملوك الشريان ، بقية أبناء الثخوت والتيجان ،
معز النصرانية ، مؤيد العيسوية ، مسيح الأبطال المسيحية ، معظم البيت المقدس
بعقد النية ، عماد بنى المعمودية ، ظهير الباب بابا رومية ، مؤاد المسلمين ، خالصة
الأصدقاء المقربين ، صديق الملوك والسلاطين » .

وهذا دعاء أورده فى " التعريف " يليق به وهو : وحى ملكه بوذه لا يجنده ،
وبوفائه بعهده لا يجشيه ومدبده ، وبما عندنا من سجايا الإحسان لا بما يظن أنه من
عنده ، وبما فى رأينا المورى لا بما يقدح النار من زنده - وربما قيل مضافى
المسلمين بدل مؤاد المسلمين .

أما فى " التثقيف " فقد ذكر أن للكرج ملكين (أحدهما) صاحب تقيس المقدّم
ذكره ، وذكر أنه كان اسمه إذ ذاك « داود » (الثانى) الحاكم « بسخوم » و « أنحاس »
وهما مدينتان على جانب بحر القرم من الجانب الجنوبي كما تقدم ذكره فى الكلام على

الممالك والممالك في الجانب الشمالى ، وسمى صاحبها إذ ذاك (ديادان) . قال :
ورسم المكتبة إلى كلٍّ منهما في قطع النصف : أطال الله تعالى بقاء حضرة الملك
الجليل ، المكرم ، الخطير ، الباسل ، الهمام ، المقدس ، الروحاني ، فلان ؛ عزَّ الأُمَّة
المسيحية ، كنز الطائفة الصليبية ، فخر دين النصرانية ، ملك الجبال والكرج
والخرجان ، صديق الملوك والسلاطين . وتعريف كلٍّ منهما ”ملك الكرج“ .

ثم قال : وقد ذكر القاضى المرحوم شهاب الدين بن فضل الله في المكتبة
المذكورة من التغييرات مالا حاجة إلى ذكره : لأنَّ ما ذكرته هو المستقر في المكتبة
إليه إلى آخر وقت .

قلت : وذلك لأنه في زمن المقر الشهابي بن فضل الله كان مرعى الجانب
بملاة التتر وانضمامه إلى جوبان ، كما تقدمت الإشارة إليه ؛ فكانت المكتبة إليه
إذ ذاك أعلى وأخفم ، فلما زالت دولة التتر من إيران ونحمت قسوتهم انحطت رتبة
المكتبة إلى ملك الكرج عن هذه الرتبة . ثم قد تقدم في المسالك والممالك
في الكلام على مدينة تفليس أنها من إقليم أران ، وأنها كانت قد فتحها المسلمون .
ثم غلب عليها الكرج وملكوها ، فلو عبّر عن صاحبها بتملك تفليس كما كان يعبر عن
المستولى على سيس من الأرمن بتملك سيس ، وعن المستولى على قبرس بتملك
قبرس على ما سياتى ذكره على الأثر إن شاء الله تعالى .

الثانية — مملكة الأرمن وقاعدتها مدينة ”سيس“ قبل فتحها ؛ وقد سبق
في الكلام على مدينة سيس عند ذكر مضافات حلب ، في الكلام على المالك الشامية
في المسالك والممالك ذكر حدود هذه البلاد وبيان أحوالها ؛ وأنها كانت تسمى

في زمن الخلفاء بلاد الثغور والعواصم ؛ وأنها كانت بأيدي المسلمين ، وأهلها نصارى أرمن ؛ وعليهم جزية مقررة يؤدونها إلى الملوك ؛ إلى أن كانت طاعتهم آثراً لبقية الملوك السلاجقة ببلاد الروم ، والعُمَالُ والشحاني على بلادهم من جهة الملك السلجوقي حتى ضُعت تلك الدولة ، وسكنت شقاشق تلك الصولة ، وانتدب بعضهم لقتال بعض ، وصارت الكلمة شُورى ، والرعية فوضى ، وشواخ المعافل مجالاً للتخريب ، والبلاد المصونة قاصية من الغنم للذئب ، وطمع رئيس النصارى بهذه البلاد حينئذ فيها واستنسر بغائه ، وأشد إنكائه ، ورأى سواماً لا ذائد عنه فساقه ، ومتاعاً لاحامية له فلا منه أوساقه ؛ فاستولى على هذه البلاد وتملكها ، ونحيف مواريث بنى سلجوق وأستهلكها . وذكر في "مسالك الأبصار" أن كبيرهم كان يسمى قليج بن لاؤن .

قال في "التعريف" ، وقد أخذ في أخريات الأيام الناصرية ، يعنى (محمد بن قلاوون) بلاد ماوراء نهر جاهان وأمها آياس ، وكان قد أخذ بعض ذلك [أيام] الملك المنصور (لاحين) واستنيب به أستدمر الكرّجى ؛ ثم أعيدت إلى الأرمن بمواطاة أستدمر حين قتل لاحين وضُعت الدولة . وذكر أنه قرّر على الأرمن ملوك الديار المصرية قطعة مقررة بلغت ألف ألف ومائتى ألف درهم مع أصناف ، ثم حُطّ لهم منها ؛ ثم صاروا بعد ذلك بين طاعة وعصيان . وذكر أنه كان لملوك البيت الهولا كوهى عليهم حكم قاهر ، وله فيهم أمر نافذ ، قبل ضعف شوكتهم ، ولين قسوتهم ، وخلو غايهم من قسورتهم . ثم قال : ولو تمكّنوا من دمشق لحوّا آثارها ، وأنسوا أخبارها ؛ ثم أشار إلى أن ملكها يومئذ صاهر صاحب قبرس ليتقوى به ، وأنه مع ذلك أوصى سلطاننا صاحب مصر على ابنه بوصية أشهد عليها أهل مملكته ، وجعل ذلك وسيلة لبقاء دولته ؛ وكتب له تقليد عوضاً عن أبيه وجّهز إليه ، وأليس التشریف فلبس

(١)

وَقَبْلَ الْأَرْضِ بِهِ وَخَدَمَ . قَالَ فِي "التعريف" : وَمَنْ مَلَكَ مِنْهُمْ سَمِيَ التَّكْفُورَ ،
 سَمَةً جَرَتْ عَلَيْهِمْ مُنْذُ كَانُوا وَإِلَى الْآنَ . قَالَ : وَمَلَكَهُمْ مَلَكَ عَرِيقٌ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ ،
 يَزْعُمُ أَنَّ أَصْلَهُ مِنَ الْبَيْتِ الْقُسْطَنْطِينِيِّ . قَالَ : وَعِنْدِي نَظَرٌ فِي دُعَاوِهِمْ ذَلِكَ : إِذْ
 كَانَ أَهْلُ ذَلِكَ الْبَيْتِ هُمْ صَليَةُ الرُّومِ وَمَعْتَقَدُهُمْ مَعْتَقَدُ الْمَلَائِكَةِ وَالْبَيْتُ التَّكْفُورِيُّ
 أَرْمَنُ وَمَعْتَقَدُهُمْ مَعْتَقَدُ الْيَعَاقِبَةِ أَوْ مَا يُقَارِبُهُ ، وَبَيْنَ الْمَعْتَقِدِينَ بَعْدَ عَظِيمٍ ، وَبَوْنٌ نَاءً .
 وَقَدْ ذَكَرَ فِي "التعريف" أَنَّ اسْمَهُ لِيْفُورُ بْنُ أَوْشِيرٍ . وَذَكَرَ أَنَّ رَسْمَ الْمَكْتَابَةِ
 [إِلَيْهِ] صَنَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكْتَابَةُ إِلَى حَضْرَةِ الْمَلِكِ ، الْجَلِيلِ ، الْبَطْلِ ، الْبَاسِلِ ، الْهَامِ ،
 السَّمِيدِ ، الضَّرْغَامِ ، الْغَضَنَفَرِ ، فَلَانِ بْنِ فَلَانٍ ، نَحْرِ الْمَلَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ ، ذُنُرِ الْأُمَّةِ
 النَّصْرَانِيَّةِ ، عِمَادِ بَنِي الْمَعْمُودِيَّةِ ، صَدِيقِ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ .

وهذه أدعية — ذكرها في "التعريف" تناسبه :

وَفَقَّهَ اللَّهُ تَعَالَى لِبَطَاعَةِ يَكْفُتُهُ ذِمَامُهَا ، وَيَقِيهِ مَصَارِعَ الشُّوءِ الزَّائِمُهَا ، وَتَجَرِي لَهُ
 بِالسَّلَامَةِ فِي النَّفْسِ وَالْمَالِ أَحْكَامُهَا .

آخِرُ : وَلَا عِدَمَ مِنْ مَنِينِ الْكَرَمِ الَّذِي أَجَارَهُ ، وَالْأَمْنِ الَّذِي أَمَّنَ جَارَهُ ،
 وَالْأَمَانَ الَّذِي وَسَّعَ عَلَيْهِ وَجَارَهُ ، وَالْعَفْوَ الَّذِي وَقَاهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ نَارًا وَقُودَهَا
 النَّاسَ وَالْمَجَارَهُ .

آخِرُ : أَبْقَاهُ اللَّهُ لَوْلَاءِ يُبْدِيهِ ، وَقَرَضَ مِنَ الْخِدْمَةِ يُؤَدِّيهِ ، وَدَيْنٍ فِي ذِمَّتِهِ مِنْ
 الْوُظُفَةِ يَقُومُ بِهِ مَعَ طَرَائِفِ مَاهِدِيهِ .

(١) في التعريف بدون خدم .

(٢) في التعريف المطبوع ص ٥٧ ليعون بن أوشين ، ونخشي أن يكون تصحيحاً .

آخر : أَرَاهُ اللَّهُ مَا يَسْتَدْفِعُ بِهِ مِنْ مَوَاضِي السُّيُوفِ الْبَلَاءِ إِذَا نَزَلَ ، وَالسَّمْهَرَى
الَّذِي لَا يُرْوِيهِ الْبَحْرُ إِذَا نَهَلَ ، وَالسَّيْلُ الَّذِي لَا يَقِفُ فِي طَرِيقِهِ شَيْءٌ وَلَا يَمْشِي
عَلَى مَهَلٍ .

آخر : صَانَ اللَّهُ تَعَالَى بِمَصَانَعَتِهِ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِهِ كُلِّ قَبِيلٍ ، وَأَمَّنَ اللَّهُ بِمُدَارَاتِهِ
مِنْ خَوْفِ جُيُوشِنَا الْمَنْصُورَةِ كُلِّ سَبِيلٍ ، وَصَدَّ عَنْهُ بِصَدْقِ صِدَاقَتِهِ يَبْعَثُ جُنُودَنَا
الَّذِي لَا يُرَدُّ وَأَوَّلُهُ بِالْقُرَاتِ وَآخِرُهُ بِالنَّيْلِ .

آخر : وَلَا زَالَ يَتَوَقَّى بِطَاعَتِهِ بَوَادِرِ الْأَيْسَنَةِ ، وَعَوَادِي الْخَلِيلِ مُوَشَّحَةً
بِالْأَعْنَةِ ، وَعَيْتُ الْجَيْشِ حَيْثُ لَا يَبْقَى إِلَّا أَحَدُ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ : الْقَتْلُ أَوِ الْأَسْرُ
أَوِ الْمَنَّةِ .

آخر : جَنَّبَ اللَّهُ رَأْيَهُ سُوءَ التَّعْكِيْسِ ، وَشَرَّ مَا يُزَيِّنُ لِمِثْلِهِ إِبْلِيسَ ، وَأَخَذَ
جَنَائِبَ قَلَاعِهِ وَأَوَّلُ تِلْكَ الْجَنَائِبِ سَيْسٍ .

والذي ذكره في "التثقيف" أنه كان اسمه كستندي بن هتيوم ؛ وأن رسم
المكاتبة إليه على ما كان آستقر عليه الحال إلى حين الفُتُوح في سنة ست وسبعين
وسبعائة ، في قَطْعِ العادة : «صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ إِلَى حَضْرَةِ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ ، الْمَكْرَمِ ،
الْمُبْجَلِ ، الْمُعْظَمِ ، الْمُعَزَّزِ ، الْهَامِ ، الْبَاسِلِ ، فَلَانِ بْنِ فَلَانِ ؛ عَزَّ دِينُ النَّصْرَانِيَةِ ، كَبِيرِ
الطَّائِفَةِ الصَّلَيبِيَّةِ ، عِمَادِ بْنِ الْمُعْمُودِيَةِ ، صَدِيقِ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ ؛ أَدَامَ اللَّهُ
نِعْمَتَهُ ، وَحَرَسَ مُهْجَتَهُ ، تُعَلِّمُهُ كَذَا وَكَذَا» . وتعريفه «مَمْلُوكُ سَيْسٍ» قال : وَكُتِبَتْ
أَنَا وَالْجَمَاعَةُ إِلَيْهِ بِهَذِهِ الْمَكَاتِبَةِ مَرَّاتٍ .

قلت : وَقَدْ بَطَلَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ بِفَتْحِ سَيْسٍ حِينَ فَتَحَهَا قُشْتُمَرُ الْمَنْصُورِيُّ
نَائِبُ حَلَبٍ فِي الدَّوْلَةِ الْأَشْرَفِيَّةِ «شُعْبَانِ بْنِ حُسَيْنٍ» فِي التَّارِيخِ الْمَقْدَمِ ذَكَرَهُ ،

وَأَسْتَقَرَّتْ نِيَابَةٌ فِي رَتْبَةِ نِيَابَةِ طَرَابُلُسَ وَمَا فِي مَعْنَاهَا ؛ ثُمَّ أَسْتَقَرَّتْ تَقْدِيمَةُ عَسْكَرِ
فِي مُضَافَاتِ حَلَبَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ هُنَاكَ . وَإِنَّمَا كَانَ
يُقَالُ لَهُ مَمْلُوكٌ سِيسَ دُونَ مَلِكٍ سِيسَ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّهَا كَانَتْ أَوَّلًا بِيَدِ الْمُسْلِمِينَ ،
ثُمَّ وَثَبَ عَلَيْهَا رَئِيسُ الْأَرْمَنِ الْمَقْدُمُ ذِكْرُهُ فَلَمَّا كَانَتْ بِيَدِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ
فِي إِعَادَتِهَا إِلَى يَدِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَسْتَقَرَّهَا فِي جَمْلَةِ الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ .

المَقْصِدُ الثَّانِي

(فِي الْمَكْتَابَةِ إِلَى مَلُوكِ الْكُفَّارِ بِلَادِ الْمَغْرِبِ مِنْ جَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ
وَمَا وَالَاهَا مِمَّا هُوَ شَمَالِي الْأَنْدَلُسِ مِنَ الْأَرْضِ الْكَبِيرَةِ)

قَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ مِنَ الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا
قَدْ أَفْتَحُوا جَزِيرَةَ الْأَنْدَلُسِ فِي خِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَنَّهَا
أَقَامَتْ بِأَيْدِي الْمُسْلِمِينَ إِلَى رَأْسِ السَّتِّائَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا بِيَدِ الْمُسْلِمِينَ
إِلَّا غَرْنَاطَةُ وَمَا مَعَهَا مِنْ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ ، عَرَضُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي طُولِ عَشْرَةِ أَيَّامٍ ؛
وَبَاقِي الْجَزِيرَةِ عَلَى سَعَتِهَا بِيَدِ أَهْلِ الْكُفْرِ مِنْ نَصَارَى الْفَرَنْجِ ، وَأَنْ الْمُسْتَوْلَى عَلَى
ذَلِكَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةُ مَلُوكٍ :

الْأَوَّلُ — صَاحِبُ طُلَيْطَلَةَ^(١) وَمَا مَعَهَا ، وَلَقَبُهُ الْأَذْفُونَشُ : سَمِعْتُ عَلَى كُلِّ مَنْ مَلَكَ
مِنْهُمْ ، وَعَامَّةُ الْمَغَارِبَةِ يَسْمُونَهُ الْقُدْسَ ، وَلَهُ مَمْلَكَةٌ عَظِيمَةٌ وَعُمَلَاتٌ مَتَّسِعَةٌ ، تَشْتَمِلُ
عَلَى طُلَيْطَلَةَ ، وَقَشْنَالَةَ ، وَإِشْبِيلِيَّةَ ، وَبَلَنْسِيَّةَ ، وَقَرْطَاجَنَةَ ، وَجِيَّانَ ، وَجَلِيقِيَّةَ ،
وَسَائِرِ أَعْمَالِهَا .

(١) ضَبَطَهَا يَاقُوتٌ عَنْ الْحِجْدِيِّ بِضَمِّ الطَّاءِ فِي وَفَتْحِ اللَّامِ ثُمَّ قَالَ وَأَكْثَرُ مَا سَمِعْتُهُ عَنْ الْمَغَارِبَةِ ضَمُّ الْأَوَّلِ
وَكَسْرُ الثَّانِيَةِ . وَكَذَلِكَ ضَبَطَهُ الْمُؤَلِّفُ فِيهَا تَقَدَّمَ فِي جِزِهِ هـ فَلْيَتَنَبَّهُ .

الثاني — صاحب أَشْبُونَةَ وما معها، وتُسمى البَرْتَقَال، ومملكته صغيرة واقعة في الجانب الغربي عَرْضًا له، تشتمل على أَشْبُونَةَ وغَرْب الأَنْدَلُس .

الثالث — صاحب بَرْشْلُونَةَ، وَأَرْغُون، وشَاطِبَةَ، وسَرْقُطَةَ، وبلَنَسِيَّة^(١)، وجزيرة دَانِيَّة، ومَيُورْقَةَ .

الرابع — صاحب بيرة : وهى بين عَمَالَات قَشْتَالَةَ، وعَمَالَات بَرْشْلُونَةَ، وقاعدته مدينة يَنْبُلُونَةُ ؛ ويقال للملكها ملك البَشْكَنْس . ووراء هُؤْلَاء بالأرض الكبيرة صاحبُ إِفْرَنْسَةَ التى هى أصل مملكة الفَرَنْج كما تقدّم في الكلام على المسالك والممالك ، وملكُها يقال له الرِّيد إِفْرَنْس . قال في "التعريف" : وهو الملك الكبير المُطَاع ؛ وانما الأَدْفُونش هو صاحب السُّطوة ، وذِكْرُه أشهر في المغرب لقُربِه منهم، وبعْد الرِّيد إِفْرَنْس .

والمكاتبُ منهم ملكان :

الأوّل — الأَدْفُونش المبدأً بذكره . قال في "التعريف" : ويده جُهور الأَنْدَلُس، وبُسيوفه فَيَنْتَ بِحَاجِجِهَا الشُّمُس، وهو وارث مُلْك لَدْرِيق . ولَدْرِيق هذا الذى أشار إليه في "التعريف" هو الذى آتَرَعَهَا المسلمون من يده حينَ الفَتْح في صدر الإسلام . قال صاحب "التعريف" : وحَدَّثَنِي رَسُولُ الأَدْفُونش بتعريف تَرْجَمَانٍ موثوقٍ به من أهلِ العَدَالَةِ يسمّى صلاحَ الدين التَرْجَمَانِ الناصرى : أن الأَدْفُونش من ولدِ هِرَقْلِ المَفْتَحِ منه الشام ؛ وأنَّ الكُتَّابَ الشريفَ النَبِيَّ الواردَ على هِرَقْلٍ متوارثٌ عندهم مَصُونٌ ؛ يَأْفُ بالدِّيَاج والأَطْلَس، ويُدَنَّرُ أَكْثَرُ من ادِّخَارِ الجواهر والأَعْلَاق، وهو إلى الآنَ عندهم لا يُخْرَج، ولا يُسَمَحُ بِإِخْرَاجِه،

(١) هى بلَنَسِيَّة المُتَقَدِّمَةُ أَضِيْفَتْ إِلَى بَرْشْلُونَةَ فَمَا بَعْدَ .

يُنْظَرُ فِيهِ بَعِينَ الْإِجْلَالِ ، وَيُكْرِمُونَهُ غَايَةَ الْكَرَامَةِ ، بِوَصِيَّةٍ تَوَارَثَهَا مِنْهُمْ كَابِرٌ عَنْ كَابِرٍ وَخَلَفٌ عَنْ سَلَفٍ .

قال : وكان الأدفونس من قَوِي طَمَعُهُ فِي بِلَادِ مِصْرَ وَالشَّامِ فِي أُخْرَى الْيَالِي الْأَيَّامِ الْفَاطِمِيَّةِ . ثم قال : ومكاتباته متواصلة ، والرُّسُلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ مَا تَنْقَطِعُ عَلَى سُوءِ مَقَاصِدِهِ ، وَخُبْتُ سِرَّهُ وَعَلَانِيَتَهُ ؛ أَهْدَى مَرَّةً إِلَى السُّلْطَانِ سَيْفًا طَوِيلًا وَثَوْبًا بُنْتُقِيًا وَطَارِقَةً طَوِيلَةً دَقِيقَةً ، تَشْبَهُ النَّعْشِ ، وَفِي هَذَا مَا لَا يَخْفَى مِنْ أَسْتِفْخَاحِ بَابِ الشَّرِّ وَالتَّصْرِيحِ الْمَعْرُوفِ بِالْكَثَايَةِ ؛ فَكَانَ الْجَوَابُ أَنْ أُرْسَلَ إِلَيْهِ حَبْلُ أَسْوَدَ وَحَجَرٌ ، أَيْ إِنَّهُ كَلَبٌ إِنْ رُبِطَ بِالْحَبْلِ وَالْأَرْمَى بِالْحَجَرِ .

قال في "التعريف" : ورسم المكتبة إليه أطال الله بقاء الحضرة السامية ، حضرة الملك الجليل ، الهمام ، الأسد ، الباسل ، الضَّرْغام ، الغَضَنَفَر ، بَقِيَّةُ سَلَفٍ قَيْصَر ، حَامِي حُمَاةِ بَنِي الْأَصْفَر ، الْمَنْعُ السُّلُوك ، وَارِثُ لَذْرِيقٍ وَذَرَارِيٍّ الْمُلُوك ؛ فَارِسُ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، مَلِكُ طَلَيْطَلَةٍ وَمَا يَلِيهَا ، بَاطِلُ النُّصْرَانِيَّةِ ، عِمَادُ بَنِي الْمَعْمُودِيَّةِ ، حَامِلُ رَايَةِ الْمَسِيحِيَّةِ ، وَارِثُ التَّيْجَانِ شَيْبِهِ مَرِيحَتَا الْمَعْمَدَانِ ، مُحِبُّ الْمُسْلِمِينَ ، صَدِيقُ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ .

دعاء وصدر يليقان به

وَكَفَاهُ شَرَّ نَفْسِهِ ، وَجَنَاهُ ثَمَرُ غَرَسِهِ ، وَوَقَاهُ فَعْلَ يَوْمٍ يُجْرُ عَلَيْهِ مِثْلُ أَمْسِهِ ، وَأَرَاهُ مِقْدَارَ النِّعْمَةِ بِالْبَحْرِ الَّذِي تَمْنَعُ لِسُورِهِ وَتَوْفَى بِثَرَسِهِ .

أَصْدَرْنَاهَا إِلَيْهِ وَجَنَدُ اللَّهِ لَا يَمْنَعُهُمْ مَانِعٌ ، وَلَا يُضِرُّهُمْ فِي اللَّهِ مَا هُوَ جَامِعٌ ، وَلَا يَلِيَاؤُونَ أَكْتَائِبَ يُخَلِّفُونَهَا أَمْ كُتِبْنَا ، وَجَدَاوِلُ تَعْرِضُ لَهُمْ أَمْ بِحَارٌ لَا تَقْطَعُهَا إِلَّا وَثْبًا .

آخِرُ : وَوَقَاهُ بِتَوْفِيقِهِ تِلَافَ الْمُهَجِّ ، وَلَفَاهُ بِأَسْ كُلِّ أَسَدٍ لَمْ يُهَجِّ ، وَحَاهُ مِنْ شَرِّ فِتْنَةٍ لَا يَلِيُّ الْبَحْرُ الَّذِي تَحْصُنُ بِهِ غُبَارَهَا مِنَ الرَّجْحِ .

أصدرناها إليه وأَسْنَنَّا لَا تُرَدُّ عَنْ نَحْرٍ ، وَأَعْتَنَّا لَا تُصَدُّ بِسُورٍ وَلَوْ ضُرِبَ مِنْ وَرَاءَ الْبَحْرِ .

قلت : وينبغي أن تكون في قَطْعِ النِّصْفِ .

الثاني — صاحب بَرْحَلُونَة ، وَوَهْمٌ فِي "التَّخْيِيفِ" بفعله هو الأَدْفُونُشُ الْمَقْدَمُ ذَكَرَهُ . وقال : إِنَّهُ يَلْقَبُ أَتْفُونُش ، دُونَ حَاكِمٍ . ثم قال : وَهُمْ طَائِفَةُ الْكِتِلَانِ وَرَسَمَ الْمَكَاتِبَةَ إِلَيْهِ فِي قَطْعِ النِّصْفِ بِقَلَمِ الثَّلَاثِ الْكَبِيرِ « أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِجَةَ الْحَضْرَةِ الْمَوْقُورَةِ ، الْمَلِكِ الْجَلِيلِ ، الْمَكْرَمِ ، الْمَجْلَلِ ، الْخَطِيرِ ، الْبَطْلِ ، الْبَاسِلِ ، الْهَمَامِ ، الضَّرْغَامِ ، الرَّيْدِ أَرْغُونِ ، فَلَانِ ؛ نَصِيرِ النَّصْرَانِيَّةِ ، نَخْرِ الْأُمَّةِ الْعِيسَوِيَّةِ ، دُخْرِ الْمَلَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ ، حَامِي الثَّغُورِ ، مَمْلَكِ السَّوَاخِلِ وَالْبُحُورِ ، عِمَادِ الْعَمُودِيَّةِ ، ظَهِيرِ بَابَا رُومِيهِ ؛ مَلَاذِ الْفُرْسَانِ ، حِمَالِ التُّخُوتِ وَالتَّيْجَانِ ، صَدِيقِ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ ، صَاحِبِ بَرْحَلُونَةِ » .

قال في "التعريف" : أَمَا الرَّيْدُ فَرَنْسٌ فَلَمْ يَرِدْ لَهُ إِلَّا رَسُولٌ وَاحِدٌ ، أَبْرَقَ وَأَرْعَدَ ، وَجَاءَ يَطْلُبُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ عَلَى أَنَّهُ يُفْتَحُ لَهُ سَاحِلُ قَيْسَارِيَّةٍ أَوْ عَسْقَلَانَ ، وَيَكُونُ لِلْإِسْلَامِ بِهِمَا وِلَاةٌ مَعَ وِلَاةِهِ ، وَالْبِلَادُ مُنَاصِفَةٌ ، وَمَسَاجِدُ الْمُسْلِمِينَ قَائِمَةٌ ، وَإِدْرَارَاتُ قَوْمِهَا دَائِرَةٌ ، عَلَى أَنَّهُ يَبْدُلُ مَائَتِي أَلْفِ دِينَارٍ تُعَجَّلُ وَتُجْمَلُ فِي [كُلِّ] سَنَةٍ ، نَظِيرَ دَخَلِ [نِصْفِ] الْبِلَادِ الَّتِي يَتَسَلَّمُهَا عَلَى مَعْدَلِ ثَلَاثِ سِنِينَ ، وَيُطَرِّفُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِغَرَائِبِ التُّخَفِ وَالْهَدَايَا . وَحَسَّنَ هَذَا كِتَابٌ مِنْ كِتَابَةِ الْقِبْطِ ، كَانُوا صَارُوا رُؤُوسًا فِي الدَّوْلَةِ بِعَائِمِ بَيْضٍ وَسَرَاثِرِ سُودٍ ، وَهُمْ أَعْدَاءُ زُرْقٍ ، يَجْرِعُونَ الْمَوْتَ الْأَحْمَرَ ، وَعَمِلُوا عَلَى تَمْشِيَةِ هَذَا الْقَصْدِ وَ[أَنْ] سَرَى فِي الْبَدَنِ هَذَا السَّمُّ ، وَتَطْلُبُ لَهُ الدَّرِيَاقُ فَعَزَّ .

(١) مراده الثلث الثقيل .

(٢) الزيادة من "التعريف" ص ٦٣ .

وقالوا : هذا مالٌ جليلٌ معجَّلٌ ثم ماذا عسى أن يكون منهم وهم نُقْطَةٌ في بحرٍ ،
وحصاةٌ في دَهْناء .

قال : وبلغ هذا أبي رحمه الله ، فألى أن يُجَاهِرَ في هذا ، ويجاهدَ بما أمكنه ،
ويدافعَ بهما قَدَرَ عليه ، ولو لاوى السلطانَ على رأيه إن أصغى إلّا أولئك الأفكّة ؛
وقال لى : تقوم معي وتُكَلِّمُ ، ولو خُضِبَتْ منا ثيابُنَا باللّحم ، وراسلنا قاضى القضاة
القزوينى الخطيب ، فأجاب وأجاد الإستعداد ؛ فلما بَكَّرْنَا إلى الخِدمة وحضرنا بين
يَدَيِ السلطانِ بدار العدل ، حضرت الرسل ، وكان بعضُ أولئك الكُتّبة حاضرا ،
فاستعدَّ لأن يتكلَّم ، وكذلك استعدينا نحن : فما آستم كلامَهُمْ حتّى غَضِبَ السلطانُ
وحَمَى غَضَبُهُ ، وكاد يتصرَّم عليهم حطبُهُ ، ويتعجَّلَ لهم عطْبُهُ ، وأُسكِتَ ذلك المناقِقُ
بِخِزْيَتِهِ ، وسكتنا نحن اِكْتِفَاءً بما بلغه السلطانُ مما رَدَّه بِخِيَّتِهِ ؛ فصدَّ ذلك
الشيطانُ وكفى الله المؤمنين القتالَ ؛ ورُدَّتْ على راميا النّصال . وكان الذى قاله
السلطانُ : والكم أتم عَرَقْتُم ما لقيتم نوبةً دِمَياط من عسكر المَلِكِ الصالح ، وكانوا
جماعة أكرادٍ ملفّقة جمعة ؛ وما كان بعد هؤلاء التُّرك ؛ وما كان يشغلنا عنكم إلا قتال
الترّ ؛ ونحن اليوم بحمد الله تعالى صلّح^(١) [نحن وإياهم] من جنسٍ واحدٍ ما يتخلّى بعضه
عن بعض ، وما كنا نريد إلا الابتداء ؛ فأما الآنَ فتحصّلوا وتعالوا ، وإن لم تجوا
فنحن نجيكم ولو أننا نخوض البحر بالخيّل ؛ والكم صارت لكم السنة تذكرون بها
القدّس ؛ والله ما ينال أحد منكم منه ترابه إلا ما تسفيه الرياح عليه وهو مصلوب !
وصرخ فيهم صرخة زعزعت قواهم ، وردّهم أقبح ردّ ، ولم يقرأ لهم كتابا ، ولا ردّ
عليهم سوى هذا جوابا .

(١) الزيادة من "التعريف" .

قلت : فإن آتفق أن يكتب إلى الرّيد إفرنس المذكور فتكون المكتبة إليه مثل المكتبة إلى الأدفونس أو أجل من ذلك .

وأعلم أن الرّيد فرّنس هو الذي قصد الديار المصريّة بمواطاة الأدفونس : صاحب طليطلة المقدم ذكره ، وملكوا دميّاط ، وكانت الواقعة بينهم في الدولة الأيوبية في أيام الصالح أيوب ؛ وأخذ الرّيد فرّنس وأمّسك وحبس بالدار التي كان يترها نحر الدّين بن لقمان : صاحب ديوان الإنشاء ، بالمنصورة ، ورسم عليه الطّواشي صبيح ، ثم نفّس عنه ؛ وأطلق لأمر قرّر عليه ؛ وقال في ذلك جمال الدين بن مطروح أبياته المشهورة وهي :

[قُلْ لِلْفَرَنْسِيِّسِ إِذَا جَتَّه * مَقَالَ صِدْقٍ مِنْ قَوْلِ نَصُوحِ
أَتَيْتَ مِصْرًا تَبْتَغِي مُلْكَهَا * تَحْسَبُ أَنَّ الزَّمْرَ يَاطِلُ رِيحُ
وَكُلُّ أَصْحَابِكَ أَوْدَعَتْهُمْ * بِحَسَنِ تَذْيِيرِكَ بَطْنُ الضَّرِيحِ
نَحْسِينَ أَلْفًا لَا تَرَى مِنْهُمْ * غَيْرَ قَتِيلٍ أَوْ أُسِيرٍ جَرِيحِ
وَفَقَّكَ اللَّهُ لَأَمْثَالِهَا * لَعَلَّ عَيْسَى مِنْكُمْ يَسْتَرِيحُ
أَجْرَكَ اللَّهُ عَلَى مَا جَرَى * أَفْنَيْتَ عَبَادَ يَسُوعَ الْمَسِيحِ
فَقُلْ لَهُمْ إِنْ أَصْمَرُوا عَوْدَةً * لِأَخْذِ نَارٍ أَوْ لِقَصْدِ صَبِيحِ :
دَارُ ابْنِ لُقْمَانَ عَلَى حَالِهَا * وَالْقَيْدُ بَاقٍ وَالطَّوَاشِي صَبِيحُ^(١)]

(١) بيض لهذه الأبيات في الاصل ونقلناها مما تقدم في ج هـ

المقصود الثالث

(في المكتبة إلى ملوك الكفار بالجانب الجنوبي)

والمكاتب بهذا الجانب منهم ملكان :

الأول — صاحب أحمرا : ملك ملوك الحبشة ، ولقبه عندهم حطى . بفتح الحاء وكسر الطاء المشددة المهملتين ، سمة على كل من ملك عليهم منهم .

قد تقدم في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية أنه نصراني يعقوبي ، يحكم على تسعة وتسعين ملكا ، منهم سبعة مسلمون ، وهم صاحب وفات ، وصاحب دوارو ، وصاحب أراييني ، وصاحب شرخا ، وصاحب هذية ، وصاحب بالي ، وصاحب دارة ، وأنه لولا أن معتقد دين النصرانية لطائفة اليعاقبة أنه لا يصح تعدد معمودي إلا باتصال من البطريك ، وأن كرسي البطريك كنيسة الإسكندرية فيحتاج إلى أخذ مطران بعد مطران من عنده ، لشمخ بأفقه عن المكتبة ، لكنه مضطر إلى ذلك .

قال في " التعريف " ورسم المكتبة إليه :

أطال الله بقاء الحضرة العالية ، الملك ، الجليل ، الهام ، الضرم ، الأسد ، الفضنفر ، الخطير ، الباسل ، السميع ، العالم في ملته ، العادل في مملكته ، المنصف لرعيته ، المستمع لما يجب في أقضيته ، عز الملة النصرانية ، ناصر الملة المسيحية ، ركن الأمة العيسوية ، عماد بني المعمودية ، حافظ البلاد الجنوبية ، متبع الحواريين ، والأخبار الربانيين ، والبطاركة القديسين ، معظم كنيسة صهيون ، أوجد ملوك اليعتوبية ، صديق الملوك والسلاطين . ويدعى له دعاء مفحما يليق به .

وهذا دعاء وصدر يليقان به، ذكرهما في "التعريف" :
 وأظهر فضله على مَنْ يُدَانِيهِ من كُلِّ ملك هو بالتاج مَعْتَصِب ، وَلَكَفَّ الْجَلَّاج
 بِالْعَدْلِ مَتَّصِب ، ولقطع حِجَاج كُلِّ معاند بالحق معتصراً وللحق مَعْتَصِب .
 صدرت هذه المُفَاوَضَةُ إلى حضرته العلية ومن حضرة القُدُس مَسْرَاهَا ، ومن
 أُسْرَةِ المُلِكِ القَدِيمِ سُرَاهَا ؛ وعلى صَفَاءِ تلك السَّرِيرَةِ الصَّافِيَةِ تَرَدُّ وإن لم يَكُنْ بها
 غَلِيل ، وإلى ذلك الصَّدِيقِ الصَّدُوقِ [المَسِيحِيِّ] تصل ، وإن لم تَكُنْ بُعْثَ إلا من
 تَلْقَاءِ الخَلِيل .

ولم يذكر القطع الذي يكتب إليه فيه . أما في "التنقيف" : فإنه ذكر أنه
 يُكْتَبُ إليه في قطع التُّلُث بقلم التوقيعات مانصه :

أطال الله بقاء المُلِكِ ، الجليل ، المَكْرَمِ ، الخطير ، الأَسَدِ ، الضَّرْعَامِ ، الهَامِ ،
 البَاسِلِ ، فلان بن فلان ، العالم في مِلَّتِهِ ، العادل في مَمْلَكَتِهِ ، حَطَّى ملك أَمْحَرَا ، أَكْبَرِ
 مُلُوكِ الحُبْشَانِ ، نَجَاشِيِّ عَصْرِهِ ، سَنَدِ المِلَّةِ المَسِيحِيَةِ ، عُضْدِ دِينِ النَصْرَانِيَةِ ، عِمَادِ بَنِي
 المَعْمُودِيَةِ ، صَدِيقِ المُلُوكِ والسُّلَاطِينِ ؛ والدعاء ، وتعريفه «صاحب الحَبْشَةِ» .

قال : فإن كانت المكتبة جواباً ، صُدِّرَ الكِتَابُ إليه بما صورته : ورد كتاب الملك
 الجليل ، ويذكر بقية المكتبة . ثم قال : وهذه المكتبة هي التي آسَقَرَّ عليها الحال عند
 مَا كُتِبَ جوابه في التاسع من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وسبعائة .



وهذه نسخة جوابِ كِتَابٍ ورد عن صاحب الحَبْشَةِ من سَلْطَنَةِ المُلِكِ المَظْفَرِ
 صَاحِبِ اليَمَنِ ، على المُلِكِ «الظاهر بيبرس» رحمه الله ، بَطْلَبِ مِطْرَانٍ يُقِيمُهُ لهم
 البَطْرُكُ ؛ مما كتب به القاضي محي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله ، وهي :

ورد كتابُ الملك، الجليل، الهام، العادل في ملته، حطّى ملك أمحرًا أكبر ملوك
 الخُشنان، الحاكم على ما لهم من البلدان، نجاشى عصره، صديق الملوك والسلاطين،
 سلطان الأمحرًا حرس الله نفسه، وبني على الخير أسه، فوقفنا عليه وفيهنا ماتضمنه :
 فأما طلب المطران فلم يحضر من جهة الملك أحدٌ حتى كنا نعرف الغرض المطلوب،
 وإنما كتابُ السلطان الملك المظفر صاحب اليمن ورد مضمونه أنه وصل من جهة
 الملك كتابٌ وقاصد، وأنه أقام عنده حتى يسير إليه الجواب . وأما ما ذكره من كثرة
 عساكره ، وأن من جملتها مائة ألف فارس مسلمين ، فالله تعالى يكثر في عساكر
 الإسلام . وأما وخم بلاده فالآجال مقدرة من الله تعالى، ولا يموت أحدٌ إلا بأجله،
 ومن فرغ أجله مات .

وأعلم أن العادة جرت أنه كلما كتب إليه كتابٌ عن الأبواب السلطانية كتب
 قرينه كتابٌ عن البطريق . قال في " التعريف " : ولأوامر البطريق عنده
 ما لشرعته من الحرمة ، وإذا كتب كتابًا فأتى ذلك الكتابُ أول مملكته ، خرج
 عَمِيدُ تلك الأرض فحمل الكتاب على رأس علم ، ولا يزال يحمله بيده حتى يُخرجه
 من أرضه ، وأرباب الديانة في تلك الأرض : كالقسوس والشمامسة حوله مشاةً
 بالأذخنة ، فإذا خرجوا من حد أرضهم تلقاهم من يليهم أبداً كذلك في كل أرض
 بعد أرض حتى يصلوا إلى أمحرًا، فيخرج صاحبها بنفسه ، ويفعل مثل ذلك الفعل
 الأول ؛ إلا أن المطران هو الذى يحمل الكتاب لعظمته لا لتأبى الملك . ثم لا يتصرف
 الملك في أمر ولا نهى ، ولا قليل ولا كثير، حتى ينادى للكتاب، ويجمع له يوم الأحد
 في الكنيسة، ويقرأُ والملك واقف ؛ ثم لا يجلس مجلسه حتى ينفذ ما أمره به .

الثانى — صاحب دُنْقَلَة . قد تقدّم في الكلام على المسالك والممالك
 أن دُنْقَلَة هي قاعدة مملكة النوبة، وأنها كانت في الأصل يكون ملكها من نصارى

النوبة، ومعتقدهم معتقدُ اليعاقبة، وأنه ربما غلب عليها بعضُ المسلمين من العرب فملكها؛ وقد تقدّم ذكر المكتبة إلى صاحبها إذا كان مسلماً؛ أما إذا كان نصرانياً فقد ذكر في "التثقيف" أن المكتبة إليه: هذه المكتبة إلى النائب، الجليل، المبجل، الموقر، الأسد، انبازل، فلان؛ مجد الملة المسيحية، كبير الطائفة الصليبية، غرس الملوك والسلطين؛ والدعاء، وتعريفه «النائب بدُنُّقه» .

المقصود الرابع

(في المكتبة إلى ملوك الكُفَّار بالجانب الشمالي من الروم والفرنجية على اختلاف أجناسهم، وجميعهم معتقدهم معتقد المَلِكِيَّة)

وجملة ما ذكر من المكاتبات في "التعريف" و"التثقيف" اثنتا عشرة مكتبة:

الأولى — مكتبة الباب، وهو بطريرك المَلِكِيَّة، القائم عندهم مقام الخليفة؛ والعجب من جعله في "التثقيف" بمنزلة القان عند التتار، والقان إنما هو بمنزلة ملكهم الأكبر، والباب ليس من هذا القبيل، بل إليه أمر الديانة حتى في التحليل والتحرير .

وقد تقدّم في الكلام على المسالك والممالك عند ذكر البطارقة أنهم كانوا يُسمون القيسيس ونحوه آباء، ويُسمون البطريرك آباءً فأحبوا أن يأتوا على البطريرك^(١) بسمه له تميزه عن غيره من الآباء، فاختاروا له لفظ الباب؛ وأنه يقال فيه الباب والبابا ومعناه أبو الآباء؛ ثم لما غلب الروم على المملكة، وعلت كلمتهم على اليعاقبة، خصّصوا اسم الباب ببطريركهم؛ فصار ذلك علماً عليه، ومقره مدينة رومية على ما تقدّم

(١) مراده أن يطلقوا على البطريرك سمة الخ .

هناك ، ورسمُ المكتبة إليه على ما ذكره في ”التثقيف“ ضاعفَ الله تعالى بهجةَ الحضرة السامية ؛ الباب الجليل ، القديس ؛ الروحاني ؛ الخاشع ، العامل ، بأبها رومية ؛ عظيم الملة المسيحية ، فُدوة الطائفة العيسوية ، مملكِ ملوكِ النصرانية ، حافظ الجُسُور والخُجان ، ملاذِ البَطاركة والأُساقفة والقُسُوس والرُهبان ، تالي الإنجيل ، معرّف طائفته التحريم والتحليل ، صديق الملوك والسلاطين . والدعاء ، وصدرت هذه المكتبة .

قال في ”التثقيف“ : هذا ما وجدته مسطورا ولم يكتب إليه شيء في مدة مباشرتي ، ولا أدري في أي شيء كان يكتب إليه ولا عرفت تعريفه . ولم يتعرض له المقر الشهابي بن فضل الله في ”التعريف“ جملةً ، ورأيت في بعض الدساتير أنه لم يكتب إليه إلا مرة واحدة ، وأن الكتابة إليه في قطع النصف مع المكتبة المتقدمة .

الثانية — المكتبة إلى ملك الروم صاحب القُسْطَنْطِينِيَّة . قد تقدّم في الكلام على المسالك والممالك أنها صارت آخرًا إلى بني الأَشْكَريّ ؛ فصار الأَشْكَريّ سمةً لهم ملكا بعد ملك . قال في ”التعريف“ وقد كان قبل غلبة الفَرَنْجِ ملكًا جليلا ، يرجع إليه من عباد الصليب سائر الملوك ، ويفتقر إليه منهم الغني والصُّعْلوك ؛ وكتب التواريخ مشحونةً بأخباره ؛ وذكر وقائعِهِ وآثارِهِ ، وأوّل من ألبس هامته الذلّة ، وأصار جمعه إلى القلّة ، هارون الرشيد حين أغزاه أبوه المهديّ إياه ، فأزال السَّمَمَ من أنفه ، وثني جامعَ عطفه . فأما غزوات مسلمة بن عبد الملك ويزيد بن معاوية فإنها لم تبلغ فيه حدّ النكايه ؛ ولا أعظمت له الشكاية ؛ قال : وهذا الملك الآن كان السلطان (أزبك) قد كاد يبتزّ تاجه ، ويُعقِم نِتاجه ؛ ويُحِل من جانب البحر المُغَلَق رتاجه ؛ فأحتاج إلى مداراته وبذل له نفائس المال ، وصحب أيامه على مَضَض

الآحتال، وكانت له عليه قطيعةٌ مقرّره، وجملةٌ مالٍ مقدّره؛ ثم عميت علينا بعده منهم الأخبار، وتولّى بالدنيا الإِدبار .

ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في " التعريف " : ضاعف الله تعالى بهجةَ الحضرة العالية ، المكرّمة ، حضرة الملك ، الجليل ، الخطير ، الهمام ، الأسد ، الغصنفر ، الباسل ، الضّرغام ، المعرق ، الأصيل ، المجدد ، الأثير ، الأثيل ، البلالوس ، الرّيدأرغون ، ضابط الممالك الروميّة ، جامع البلاد الساحليّة ، وارث القياصرة القدّماء ، محيي طرق الفلاسفة والحكماء ، العالم بأموّديّنه ، العادل في ممالكه ، معزّ النصرانيه ، مؤيّد المسيحيّة ، أوحّد ملوك العيسويّه ، محوّل التّخوت والتّيجان ، حامى البحار والخلجان ، آحر ملوك اليونان ، ملك ملوك السّريان ، عماد بنى المعموديّة ، رضى الباب پاپا رومية ، ثقة الأصدقاء ، صديق المسلمين ، أسوة الملوك والسلّاطين . ثم يكتب اسمه هنا ويدعى له ؛ ولم يذكر قطع الورق الذى يكتب إليه فيه .

وهذا دعاء وصدر يليقان به ، أوردهما فى التعريف .

وجعل له من السّلامة ^(١) يدا لا تُزعزعه من أوطانه ، ولا تنزعّه من سلطانه ، ولا تُوجب له إلا استقراّرا لتيجانه ، واستمراّرا بملكه على مادارت على حصونه مناطق خُلقانه ، ولا برحت ثمار الودّ تدنو من أفئانه ، وموآثيق العهد تُبوى له مايسرّ به من إشادة معالم سلفه وشدّ بناء يونانه : أصدرناها ، وشكره بكاره البحر لا يُوقف له على آخر ، ولا يُوصف مثل عقده الفاجر ، ولا يكثر إلا قيل : أين هذا القليل من هذا الزاخر .

(١) فى التعريف « مع الإسلام » .

آخر له : وَنَظَمَ سِلَكَهُ ، وَحَمَى بِحُسْنِ تَأْتِيهِ مُلْكَهُ ، وَفَنَى بِحُبِّهِ هُلْكَهُ ،
وَأَجْرَى بِوَدِّهِ رِكَابَهُ وَفُلْكَهُ ، وَوَقَاهُ كِذْبَ الْكَاذِبِ وَكُفَّ إِفْكَهُ ، وَأَشْهَدَ عَلَى وَدِّهِ
الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا جَنَّ كَافُورُ هَذَا كَافُورُهُ وَلَا مِسْكُ هَذَا مِسْكُهُ .

قلت : هذا الدعاء والصدر وإن أوردته في " التعريف " في جملة الأدعية له
والصدور ، فإنه منحط الرتبة عن المكتبة السابقة ؛ اللهم إلا أن يُخصَّصَ هذا بحالة
مناذرة أو تهديد ، ونحو ذلك .

وذكر في " التنقيف " أن الذي استقرَّ عليه الحال في المكتبة إليه أنه يُكتَبَ إليه
في قَطْعِ النَّصَفِ ما نصه : ضَاعَفَ اللهُ تَعَالَى ^(١) [بهجة] حضرة الملك الجليل ،
المَكْرَمَ ، المَبْجَلَّ ، الأَسَدَ ، الخَطِيرَ ، البَطْلَ ، البَاسِلَ ، الهَمَامَ ، الضَّرْغَامَ ، فلان ،
العالم في ملته ، العادل في أهل مملكته ، عزَّ الأَمةَ المَسِيحِيَّةَ ، كَبِيرَ الطَّائِفَةِ الصَّالِيَّةِ ،
جَمَالَ بَنِي المَعْمُودِيَّةِ ، صَمَّصَامَ المُلُوكِ اليُونَانِيَّةِ ، حُسَامَ المَمْلَكَةِ المَاكْصُونِيَّةِ ،
مَالِكَ اليرغلية والاملاحية ، صَاحِبِ أَمْصَارِ الرُّوسِ وَالْعَلَّانِ ، مُعِزِّ اعْتِقَادِ الكُرْجِ
وَالشَّرِيَّانِ ، وَارِثِ الأَسِرَّةِ وَالتَّيْجَانِ ، الحَاكِمِ عَلَى الثُّغُورِ وَالبُحُورِ وَالخُلُجَانِ ، الضُّوْقِسِ
الْأَنْجَالُوسِ الكَنْتِينُوسِ البَالَاوُغِسِ ، صَدِيقِ المُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ ؛ ثُمَّ الدعاء .
صَدَرَتْ هَذِهِ المَكْتَابَةُ إِلَى حَضْرَتِهِ تَشْكُرُ مَوْلَاتِهِ ، (وَمِنْ هَذِهِ المَادَّةِ) وَتَوَضَّعَ
لِعَالِمِهِ السَّعِيدِ .

ورأيت في بعض الدساتير أنه يختتمها بقوله : فَيُحِيطُ بِذَلِكَ عِلْمًا ، وَاللهُ تَعَالَى
يَدِيمُ بِهِجَتِهِ .

(١) مقتبسة من " التعريف " لصحة الكلام .

قال في "التثقيف" : وتعريفه « ضابط مملكة الروم » وذكر أن هذه المكتبة هي المتداولّة بديوان الإنشاء بين كُتّابه ، وأنه هو كُتّب بها إليه ، ولم يتعرّض لإيراد المكتبة التي ذكرها في "التعريف" بل أحال في معرفتها لمن أرادها على النظر فيه .

الثالثة - المكتبة إلى حُكّام جَنَوَة : وهم جماعة متفاوتو المراتب ، وهم : البودشطا ، والكبطان ، والمشايخ . ورسم المكتبة إليهم على ما ذكره في "التثقيف" في قطع الثلث :

صدرت هذه المكتبة إلى حضرة البودشطا والكبطان الجليلين ، المكرّمين ، الموقّرين ، المبجلّين ، الخطيرين ، فلان وفلان ، والمشايخ الأكابر المحترمين ، أصحاب الرأي والمشورة ، الكُنون بجنّوه^(١) ، أجداد الأئمة المسيحية ، أكابر دين النصرانية ، أصدقاء الملوك والسلاطين ، ألهمهم الله تعالى رشدهم ، وقرن بالخير قصدهم ، وجعل النصيحة عندهم . تتضمن إعلامهم كذا وكذا . وتعريفهم «الحُكّام بجنّوه» .

قال في "التثقيف" والذي استقرّ عليه الحال آخرًا في مفتتح سنة سبع وستين وسبعائة إبطال المكتبة إلى البودشطا والكبطان ، بحكم أنهما أبطالا ، واستقرّ [ت مكتبة] الدّوج مكانهما بما نصه :

صدرت هذه المكتبة إلى الدّوج الجليل ، المكرّم ، المبجلّ ، الموقّر ، الخطير ، فلان ، والمشايخ ، والباقي على ما تقدّم ذكره .

قلت : هكذا هو في "التثقيف" بدال وواو وجيم ، والمعروف إبدال الجيم في آخره كانا على ماسياتي ذكره في الكلام على صاحب البندقية على الأثر .

وأعلم أنه قد ذكر في "التثقيف" أنه كان لصاحب جنوة مُقَدِّم على الشَّوَانِي بِقُبْرُس ، وقيل إنه كان بالمأغوصة ، وأنه كتب إليه في رمضان جواباً عما ورد عنه في قَطْع العادة مانصه :

وردت مكتبة المُحْتَشِم ، الجليل ، المجلل ، الموقر ، الاسد ، الباسل ، فلان ؛
مجد الملة المَسيحية ، كبير الطائفة الصليبية ، غرس الملوك والسلاطين ؛ ثم الدعاء .
وتعريفه «مقدم الشَّوَانِي الجَنَوِيَّة بِقُبْرُس» .

الرابعة — المكتبة إلى صاحب البندقيَّة . قال في "التثقيف" : ورسم المكتبة
إليه على ما استقر عليه الحال عند ما كتب إليه جوابه في شهر رجب سنة سبع وستين
وسبعائة ، وهو يومئذ مَرَكِيَادُو في قطع الثلث :

وردت مكتبة حضرة الدَّوَج ، الجليل ، المكرم ، الخطير ، الباسل ، الموقر ،
المفخَّم ، مَرَكِيَادُو وغر الملة المسيحية ؛ جمال الطائفة الصليبية ، دُوج البندقيَّة
والمناسية ، دوج كرال دين بنى المعمودية ، صديق الملوك والسلاطين ، والدعاء .
وتعريفه «صاحب البندقية» : ثم ذكر بعد ذلك نقلاً عن خط القاضي ناصر الدين
أبن النشائي أنه كتب في الجواب إلى دُوك البنادقة :

وردت مطالعة دُوك الجليل ، المكرم ، المجلل ، الموقر ، البطل ، الهام ، الضَّرغام ،
الغَضَنَفَر ، الخطير ؛ مجد الملة النصرانية ، نحر الأئمة العيسويَّة ، عماد بنى المعمودية ،
معزُّ بابا رومية ، صديق الملوك والسلاطين ، دُوك البنادقة ، وديارقة ، والرُّوسا ،
والإصطنبوليَّة . ثم قال : ولم يذكر تعريفه ولا قَطْع الورق الذى يُكْتَب إليه فيه ؛
ثم نقل عنه أيضاً أن المكتبة إلى دُوك البندقيَّة : هذه المكتبة إلى حضرة
المحتشم ، الجليل ، المجلل ، الموقر ، المكرم ، المفخَّم ، الباسل ، الضَّرغام ، فلان ؛

عَنِ الْأَمَةِ الْمَسِيحِيَّةِ، جَمَالِ الطَّائِفَةِ الْعِيسَوِيَّةِ، دُخْرُ الْمَلَّةِ الصَّلِيبِيَّةِ، صَدِيقِ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينَ . ثُمَّ قَالَ : هَكَذَا رَأَيْتَهُ مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ تَعْرِيفِهِ وَلَا الْقَطْعِ الَّذِي يَكْتُبُ إِلَيْهِ فِيهِ . قَالَ : وَمَا يَبْعُدُ أَنَّهُ غَيْرُ الْأَوَّلِ وَلَمْ يَزِدْ عَلَى ذَلِكَ .

قلت : ومقتضى ما ذكره من جميع ذلك أن الدُّوكَ غَيْرُ الْمَلِكِ نَفْسِهِ . عَلَى أَنَّ الْمَكْتَابَةَ الْأُولَى والثَّانِيَةَ فِي الْجَوَابِ مُتَقَارِبَتَانِ . أَمَّا الْمَكْتَابَةُ الثَّلَاثَةُ فَنَحْطُهُ عَنْ الْأَوَّلَتَيْنِ . عَلَى أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْمَسَالِكِ وَالْمَالِكِ عِنْدَ ذِكْرِ الْبَنْدُوقَةِ نَقْلًا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ مَلِكَ الْبَنْدَاةِ يَقَالُ لَهُ الدُّوكُ بضم الدال المهملة وواو وكاف فِي الْآخِرِ، وَهَذَا مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَى تَحْرِيرٍ؛ فَإِنْ كَانَ الدُّوكُ هُوَ الْمَلِكُ فَتَكُونُ الْمَكْتَابَةُ إِلَيْهِ اخْتَلَفَتْ بِاخْتِلَافِ الْحَالِ، أَوْ بِاخْتِلَافِ غَرَضِ الْكُتَّابِ، أَوْ عَدَمِ أَطْلَاعِهِمْ عَلَى حَقِيقَةِ الْأَقْدَارِ وَالْوُقُوفِ مَعَ مَا يُلْقَى إِلَيْهِمْ مِنَ الْمُزَاحِمَةِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَهُوَ الظَّاهِرُ .

الخامسة — الْمَكْتَابَةُ إِلَى صَاحِبِ سَنُوبَ، مِنْ سَوَاحِلِ بِلَادِ الرُّومِ، قَبْلَ أَنْ تُفْتَحَ وَيَسْتَوْلَى عَلَيْهَا التُّرْكُ . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" وَهِيَ عَلَى ضَفَّةِ الْخَلِيجِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَمَلِكُهَا رُومِيٌّ مِنْ بَيْتِ الْمَلِكِ الْقَدِيمِ، مِنْ أَقَارِبِ صَاحِبِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ . قَالَ : وَيُقَالُ إِنَّ أَبَاهُ أَعْرَقَ مِنْ آبَائِهِ فِي السُّلْطَانِ . قَالَ : وَلَكِنْ لَيْسَ مَلِكُهُ بِكَبِيرٍ، وَلَا عَدَدُهُ بِكَثِيرٍ، وَيَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُمَرَاءِ الْإِتْرَاكِ حَرْوبٌ، يَكُونُ فِي أَكْثَرِهَا الْمَغْلُوبُ . وَذَكَرَ أَنَّ رَسْمَ الْمَكْتَابَةِ إِلَيْهِ مِثْلُ مَمْلُوكٍ سَيِّسٍ، فَتَكُونُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ فِي مَكْتَابَةِ مَمْلُوكٍ سَيِّسٍ :

صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكْتَابَةُ إِلَى حَضْرَةِ الْمَلِكِ، الْجَلِيلِ، الْبَطَلِ، الْبَاسِلِ، الْهَمَامِ، السَّمِيدِ، الضَّرْغَامِ، الْغَضَنْفَرِ، فَلَانٍ؛ خَيْرِ الْمَلَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ، دُخْرِ الْأَمَةِ النُّصْرَانِيَّةِ، عِمَادِ بَنِي الْمَعْمُودِيَّةِ، صَدِيقِ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينَ .

وهذا دعاء يليق به، ذكره في "التعريف" :

وكفاه شَرَّ مَائِنُوب ، وروَّحَ خَاطِرَه في الشَّمالِ بَرِيًّا مَائِبُوبٌ من الجُنُوب ، ووقاه
سُوءَ فَعِيلٍ يُورِثُ النَّدَمَ وأَوَّلُ مَا يَقْرَعُ السَّنَّ سَنُوب .

السادسة - المكتبة إلى صاحب البلغار والسرب . قد تقدم في الكلام على
المكتبات إلى ملوك الإسلام بالجانب الشمالي نقلا عن " التعريف " ما يقتضي أن
ملكها مسلم ، ودُكرت مكاتبته الإسلامية هناك ، وعلى ذلك أقصر في "التعريف"
وتقدم النقل عن "مسالك الأبصار" أنها صارت إلى ملوك النصرية ، وعليه أقصر
في "التثقيف" وهو المراد هنا .

ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في " التثقيف " نقلا عن ابن النشائي في قطع
الثالث ما نصه :

أطال الله تعالى بقاء حضرة الملك ، الجليل ، المكرم ، المبجل ، الهام ، الضرغام ،
الباسل ، الدوقس ، الانجالوس ، الكمينوس ، فلان ؛ عماد النصرية ، مالك السرب
والبلغار ، نحر الأئمة العيسويه ، ذخر الملة المسيحية ، فارس البحور ، حامي الحصون
والثغور . والدعاء ، أصدرنا هذه المكتبة ، وتعريفه «صاحب البلغار» .

وأعلم أنه في "التثقيف" بعد أن أورد المكتبة المتقدمة لصاحب السرب والبلغار ،
نقلا عن ابن النشائي ذكر نقلا عنه أيضا أن المكتبة إلى صاحب السرب في قطع
الثالث نظير متملك سيس ، فتكون المكتبة إليه على ما تقدم أنه الذي استقر عليه الحال
في المكتبة لمتملك سيس :

صدرت هذه المكتبة إلى حضرة الملك ، الجليل ، المكرم ، المبجل ، المعزز ،
الهام ، الباسل ، فلان ؛ عز دين النصرية ، كبير الطائفة الصليبية ، عماد بني

(١) أى البلد التي هي عاصمة ملكه .

المعمودية، صديق الملوك والسلاطين، أدام الله نعمته، وحرس مهجته، تعلمه كذا وكذا؛ وتعريفه «صاحب السَّرب» .

ثم قال : ولم أدر هل يجتمعان لشخص واحد تارة فيكون بهما آثان تارةً وواحد تارةً أم لا . ثم قال : على أنه لو كان الأمر كذلك لكان يتعين أن يذكر مكاتبه صاحب البُلغار وحده مفردًا كما ذكر مكاتبه صاحب السَّرب وحده مفردًا .

قلت : كلا الأمرين محتملٌ، فيجوز أنهما كانا مجتمعين لواحدٍ ، وأنه كتب تعريفه بالإضافة إلى أحدهما استغناءً به عن الآخر، أو أنه كتب إلى صاحب السَّرب بمفرده، ولم يحطَّ رتبته في قطع الورق عن رتبة من اجتماعه له ، ولا يلزم من ذلك أنه كان يكتب لصاحب البُلغار بمفرده لاحتمال أنه لم يكتب إليه شيء حينئذٍ ، وبالجملة فهذا أمر راجع إلى النقل .

السابعة — المكاتبه إلى ملك رُودس . قال في "التعريف" وهي جزيرة تقابل شطوط البلاد الرومية . قال : وأهلها في البحر حرامية ، إذا ظفروا بالمسلم ، أخذوا ماله ، وأحيوه ، وباعوه أو استخدموه ؛ وإذا ظفروا بالفريجي ، أخذوا ماله وقتلوه .

ورسم المكاتبه إليه مثل ممتلك سيس ، إلا أنه لا يقال فيه معزٍ بابا رومية ، وتختصر بعض ألقابه لأنه دونه ، وحينئذٍ فيتجه أن تكون المكاتبه إليه :

صدرت هذه المكاتبه إلى حضرة الملك الجليل ، البطل ، الباسل ، السَّميدع ، فلان ؛ نحر الملة المسيحية ، دُخر الأمة النصرانية ، صديق الملوك والسلاطين ، وأنحو ذلك . على أنه في "التعريف" لم يذكر في المكاتبه إلى ممتلك سيس ، معزٍ بابا رومية ؛ فلم يكن ليجتاج أن يقول : إلا أنه لا يقال فيه معزٍ بابا رومية .

وهذا دعاء يليق به ، ذكره في "التعريف" وهو
 قَدَّمَ اللهُ لَهُ الْأَعْذَارَ ، وَكَفَاهُ قَوَامِعَ الْإِنْذَارِ ، وَحَذَّرَهُ عَاقِبَةَ الْبَغْيِ قَبْلَ أَنْ لَا يَنْفَعَ الْحِذَارُ .
 آخِر : فَكَ اللهُ مِنْ وَثَاقِهِ كُلِّ مَاسُورٍ ، وَأَقَالَ كُلَّ غَرَابٍ لَهُ مِنَ الرَّجُوعِ
 وَجَنَاحُهُ مَكْسُورٍ ، وَعَصَمَهُ بِالتَّوْبَةِ مِمَّا آقَرَفَ ، لَا بِالْبَحْرِ وَلَوْ أَنَّهُ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ، وَسُورِ
 مَدِينَتِهِ وَلَوْ أَنَّهُ مِائَةُ سُورِ .

الثامنة — المكتبة إلى صاحب جزيرة المصطكى . قال في "التعريف" : وهي
 جزيرة صغيرة لا تبعد مدى من الإسكندرية ، وصاحبها صغيراً في مالٍ ولا في رجالٍ ؛
 وجزيرته ذات حُط لا يطُرُّ شاربها بَزْرَعٍ ، ولا يَدُرُّ حالبها بَضْرَعٍ ؛ إلا أنها تُثَبِّت
 هذه الشجرة فتَحْمَلُ منها وتُجَلَّبُ ، وتُرْسَى السفنُ عليها بسببها وتُطَلَّبُ ؛ قال :
 وفي ملكها خدمة لرُسُلنا إذا ركبوا ثَبَجَ البحرِ ، وتجهِزُ لهم إلى حيثُ أرادُوا ، وتَجِيزُ
 لهم إذا توجَّهُوا وإذا عادُوا . ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في "التعريف" كالمكتبة
 إلى صاحب جزيرة رُودِسِ المتقدمة الذكر آنفاً وهي :

صدرت هذه المكتبة إلى حضرة الملك الجليل إلى آخر ما تقدم .

وهذه أدعية تليق به ذكرها في "التعريف" دعاءً من ذلك ، وفقه الله لطاعته ،
 وأنفضه من الولاء بقدر طاقته .

آخر : أطاب الله قلبه ، وأدام إلينا قُربَه .

آخر : لا زال إلى الطاعة يُبَادِرُ ، وعلى الخدمة أنفضَ قادِرُ ، ومكانه مُزْمٌ
 إليه رُكَّابُ السفنِ بكلٍ واردٍ وصادرٍ .

التاسعة — المكتبة إلى مَمْلُوكِ قُورَسِ . وإنما قيل له مَمْلُوكِ قُورَسِ لأنها كانت
 قد فتحها المسلمون ، ثم تغلب عليها النصارى وملكوها ؛ فقيل لمن غلب عليها مَمْلُوكِ

ولم يُقَلْ له مَلِكٌ ؛ وذكر في ”التثقيف“ عن القاضي ناصر الدين بن النشائي أن المكتبة إليه [مثل] مملوك سيس ولم يَزِدْ على ذلك ؛ وحينئذ فتكون المكتبة إليه مثل ما استقر عليه الحال في المكتبة إلى مملوك سيس في قطع العادة :

صدرت هذه المكتبة إلى حضرة الملك ، الجليل ، المكرم ، المبجل ، المعزز ، الهمام ، الباسل ، فلان ؛ عز دين النصرانية ، كبير الطائفة الصليبية ، عماد بن المعمودية ؛ صديق الملوك والسلطين ؛ أدام الله نعمته ، وحرس مهجته . وتعريفه « مملوك قبرس » .

قال صاحب ”التثقيف“ : ولم أقف على مكتبة إليه ابتداءً ولا جواباً سوى ذلك ، إلا أنه كتب إليه عن الأمير الجاي اليوسفي عند وقوع الصلح في سنة اثنتين وستين وسبعائة ، يعني عند ما كان الجاي أتابك العساكر المنصورة .

العاشرة — المكتبة إلى ملك مؤنفراد . ذكر في ”التثقيف“ أنه كان بها ابن ملك إصطنبول ، وأنه كتب إليه في سنة ثلاث وثلاثين وسبعائة :

أصدرناها إلى حضرة الملك الجليل ، المكرم ، البطل ، الهمام ، الأسد ، الضرغام ، فلان ؛ مجد النصرانية ، نحر العيسوي ، عماد بن المعمودية ، جمال الطائفتين الرومية والفرنجية ، ملك مؤنفراد ، وارث التاج ، معز الباب ، أدام الله بقاءه ، وحفظه ووقاه ، وأورثه من أبيه تحته وتاجه وولاه ؛ تتضمن إعلامه كذا وكذا . ثم قال : هذا ما وجدته مسطوراً في رسم المكتبة المذكورة ، ولم يكتب إليه شيء في مدة مباشرتي ، ولم أدر ما تعريفه ، ولا في أي قطع يكتب إليه . قال : والذي يظهر أنه يكتب إليه في قطع العادة ، وأن يكون تعريفه « ملك مؤنفراد » .

الحادية عشرة - المكتبة إلى صاحبة نابل . وقد ذكر في "التثقيف" أنه كان اسم صاحبها جوانا، وأنه كتب إليها في أواخر سنة ثلاث وسبعين وسبعائة ما صورته :

صدرت هذه المكتبة إلى الملكة، الحليّة، المكرّمة، المبعّلة، الموقّرة، المفخّمة، المعزّزة، فلانة، العالمة في ملّتها، العادلة في مملكتها، كبيرة دين النّصرانية، نصيرة الأئمة العيسويّة، حامية الثغور، صديقة الملوك والسلاطين . ثم الدعاء ؛ نتضمّن إعلامها، وتعريفها «صاحبة نابل» ولم يذكر قطع الورق لمكتبتها، ولا خفاء أنه يكتب إليها في قطع العادة لصغر مقامها .

قلت : فإن ولي مملكتها رجل، فينبغي أن يكتب إليه بهذه المكتبة على التذكير أو أعلى من ذلك، لميزة الرجال على النساء . وهؤلاء جملة من تعرض إلى مكاتبتها في "التعريف" و"التثقيف" من ملوك الكفر؛ فإن اتفقت المكتبة إلى أحد سواهم فليُقَسَّ على من هو مثله منهم . ثم قد ذكر في "التثقيف" القنصل بكفأ، وذكر أنها جارية في حكم جنوة؛ وأنه لم يكتب إليه شيء عن المواقف الشريفة، ولا خفاء في ذلك، فإن مقام القنصل دون أن يكتب عن الأبواب السلطانية .

الفصل الخامس

من الباب الثاني من المقالة الرابعة

(في الكتب الواردة على الأبواب الشريفة السلطانية بالديار المصرية ؛
من جرت العادة بمكاتبتة إليها من أهل المملكة وغيرها من
سائر الممالك المكتبة عن هذه المملكة ؛ وهي نوعان)

النوع الأول

(المكتبات الواردة عن ملوك المسلمين ، وهي على قسمين)

القسم الأول — في الكتب الواردة عن أهل هذه المملكة ، بالديار المصرية ،
والبلاد الشامية ، ممن يؤهل للمكاتبة إلى الأبواب السلطانية ، من النواب وغيرهم :
من الأمراء ، وأرباب الأقاليم : من الوزراء ، والعلماء ومن في معانهم ؛ وهم على
ضريعتين :

الضرب الأول

(في المطالعات الواردة عن أكابر أهل الدولة بالديار المصرية)

والبلاد الشامية : من النواب ومن في معانهم)

قد جرت عادة من يكتب إلى الأبواب السلطانية من أهل هذه المرتبة ، أن
يكتب جميعهم كتبهم في قطع العادة ؛ فإن كان بالديار المصرية فن الورق البلدي ،
وإن كان بالبلاد الشامية فن الورق الشامي ، وجميع ذلك في الورق الأبيض ، إلا
نائب الشام ونائب الكرك ، فإنهما قد جرت العادة فيهما بأنهما يكتبان إلى الأبواب
السلطانية في الورق الأحمر الشامي ، شيء اختصابه دون سائر أهل المملكة .

ثم قد ذكر في "عرف التعريف" أن المملوك لا يُكتب إليهم إلا «يُقبل الأرض»
 ويُنبى . ويُحتم الكتاب بما صورته : طالع المملوك بذلك وللآراء العالية مزيد العلو؛
 أو أنهى المملوك ذلك وللآراء العالية مزيد العلو، والعنوان «المَلِكِيّ الفلانيّ»، مطالعة
 المملوك فلان » وحينئذ فالذى جرت به العادة في ذلك أن يتبدى الكاتب فيكتب
 فهرست الكتاب في رأس الدّرج من جهة وجهه، في عرض إصبع، في الجانب الأيمن
 «إلى الأبواب الشريفة» وفي الجانب الأيسر «بسبب كذا وكذا» ثم يقبّل الدّرج
 ويكتب في ظاهره، بعد ترك ما كتب الفهرست في باطنه، العنوان؛ فيكتب :
 «المَلِكِيّ الفلانيّ» في أول العنوان، و«مطالعة المملوك فلان» في آخره . ثم بعد ذلك
 يقبّل الدّرج، ويترك وصلاً أبيض، ويكتبُ البسملة في رأس الوصل الثاني بعد
 خلّو هامش من الجانب الأيمن . ثم يكتبُ تحت البسملة ملاصقاً لها ما صورته
 «المَلِكِيّ الفلانيّ» بحيث يكون آخر المَلِكِيّ الفلانيّ مسامتاً لجلالة البسملة، بلقب
 السلطان، كأنه ينسب نفسه إلى سلطانه . ثم يكتب صورة المكتبة على سمت البسملة
 في سطرٍ ملاصقٍ للمَلِكِيّ الفلانيّ «يُقبل الأرض ويُنبى كذا وكذا» فإن كان ابتداءً
 كتب ويُنبى أن الأمر كذا وكذا، ويأتى بمقاصد المكتبة : فإن كانت فصلاً
 واحداً ذكره وختم الكتاب بآخر كلامه؛ وإن كان الكتاب مشتملاً على فصول أتى
 بالفصل الأول إلى آخره . ثم يخلى بياضاً قدر خمسة أسطر . ثم يسرد الفصول بعد
 ذلك فصلاً فصلاً : يُخلى بين كل فصلين قدر خمسة أسطر أيضاً، ويقول في أول
 كل فصل «المملوك يُنبى كذا وكذا» وإذا أتى على ذكر السلطان، قال : خلد الله
 سلطانه؛ أو خلد الله ظله؛ أو أتى على ذكر المرسوم الشريف، قال : شرفه الله
 وعظمه ونحو ذلك؛ وإذا سأل في أمر، قال : والمملوك يعرض على الآراء الشريفة
 كذا وكذا، أو إن اقتضت الآراء الشريفة كذا فلها مزيد العلو، ولا يقال : يسأل

الصدقات الشريفة، إلا في أمر جليل أو شيء مهم، والعرض أبلغ في الأدب، ولا يلقب أحدا بالجناب والمجلس ومجلس الأمير، وإذا ذكر كبيرا في الدولة كالنائب الكافل، ونائب الشام، أو نائب حلب، أو أمير كبير. قال: إن مملوك مولانا السلطان خلّد الله ملكه الأمير فلان الدين فلان الناصري مثلاً، كافل الممالك الشريفة، أو نائب السلطنة الشريفة بالملكة الشامية المحروسة، أو كافل المملكة الشامية المحروسة، أو نائب السلطنة الشريفة بحلب المحروسة، أو الأمير فلان الدين فلان الناصري مثلاً، أو القاضي فلان الدين، أو ناظر الجيوش المنصورة بالأبواب الشريفة، وما يجرى هذا المجرى، ولا يدعى في المطالعة لأحد. وإذا آتت الفصول إلى آخرها، قال: وقد جهّز المملوك بمطالعتة هذه مملوكه فلانا السيّفى مثلاً المائل بها. وإن كان ثمّ مشافهة، قال: وقد حمّله مشافهة يسأل المسماع الشريفة سماعها إن اقتضت ذلك، أو يُنهيها إلى المسماع الشريفة إذا رُسم له بإنهائها، طالع بذلك، أو أنهى ذلك.

ثم قد جرت عادة الثواب بالبلاد الشامية أن يُقدّموا في صدر المكاتب ما شتمل على أخبار البلاد الشرقية من مملكة إيران المجاورة لأواخير هذه المملكة: من تجديد أمر، أو حركة عدوّ، أو حكاية حال مهمّة من أحوال تلك البلاد، مثل أن يقال في أول المكاتب، وينهى أن قصّاده عادّوا من البلاد الشرقية بخبرين بكذا وكذا، ويشرح الحال التي أخبر بها قصّاده.

وإن كان الخبر نقلاً عن نائب من نواب الأطراف كالرها ونحوها، قال: إن مطالعة نائب فلانة وردت بكذا وكذا، ويذكر ما تضمنته ملخصاً. وإن كانت المطالعة جواب مائل شريف ورد فقط، قال: وينهى أن المرسوم الشريف

شرفه الله تعالى وعظمه ورد على المملوك على يد فلان الدين فلان البريدي بالأبواب الشريفة يتضمّن ما اقتضته المراسيم الشريفة ، أو ما اقتضته الآراء الشريفة شرفها الله تعالى وعظمها : من كذا وكذا ، ويذكر نصّ المثال الشريف حرقاً حرقاً . ثم يقال : وتفهم المملوك ما رسم له به ، وقابل المراسيم الشريفة - زاد الله تعالى شرفها - بتكرار تقبيل الأرض والامثال ؛ وتقدّم بكذا ، ان كان الأمر مما نفذ ، أو والذي ينهيه المملوك كذا وكذا إن كان الأمر قد توقّف .

ثم إن كان النائب عظيم القدر كخائب السلطنة الشريفة بالشام أو حلب ، جعل بعد ما يمين كل سطرين تقدير رأس إصبع ؛ وإن كان دون ذلك جعل ما بينهما أقل من ذلك حتى ينتهى فى أقل الرتب إلى ملاصقة السطور بعضها ببعض .

وإن كانت المطالعة فى أمر مهم كاستقرار نائب أو بشارة بفتح أو نحو ذلك ، أتى بجميع الكتاب مسجّعا وإلا فلا .

وهذه نسخة مطالعة عن نائب الشام ابتداءً .

يقبل الأرض ، وينهى أنه ورد على المملوك مكتوبة نائب السلطنة الشريفة بحلب المحروسة ، يذكر فيها أن قصاده عادوا من جهة بلاد الشرق ، وأخبروا أن العدو المخذول فلانا قد خرج عليه عدو من ورائه وقصد بلاده فكرّ راجعا إليه بعد أن كان قاصدا هذه الجهة ، وأحبّ المملوك إحاطة الخواطر الشريفة بذلك .

المملوك ينهى أن مطالعة نائب الرّحبة المحروسة وردت على المملوك يخبر فيها أن فلانا التركمانى قد عاد إلى الطاعة الشريفة ، ولاذّ بمراحم الأبواب العالية ، وأنه ما كان حمله على ما وقع منه من عدم المقابلة إلا الخوف من السّطوات الشريفة ، وأنه يسأل كتابة أمان شريف له ولجماعته ومن يليه بأن يكونوا آمينين على أنفسهم ،

وأموالهم ، وسائر ذات يدهم ، وأنه إذا وصل إليه الأمان قصد الأبواب السلطانية ، وتمثل بالمواقف الشريفة ، وأمثال ما تبرز به الأوامر المطاعة في أمره وأمر جماعته . والمملوك ينظر ما يردُّ به الجواب الشريف في أمره لكاتب نائب الرحبة المحروسة بما يعتَمِده في أمره .

المملوك يُنهي أنه قد بلغ المملوك أنَّ البحر مشغولٌ بمراكب الفرنج ، ولم يعلم إلى أيِّ مكان يقصِدون ، وقد أخذ المملوك في الاحتراز على السواحل المذكورة بإقامة المرَّكين ، وأمرهم بالاحتراز والاحتفاظ ، وقد عرض المملوك ذلك على الآراء العالية ليكون ذلك على الخواطر الشريفة ، ويكتب به التواب بالبلاد المجاورة للبحر .

المملوك يُنهي أن الأمير فلان الفلاني : أحد أمراء الطبلخاناة بدمشق المحروسة قد توفَّى إلى رحمة الله تعالى ، والمملوك يسأل الصدقات الشريفة في استقرار إمرته باسم مملوك مولانا السلطان عز نصره ، ولد المملوك فلان ، إعانة له على الخدمة الشريفة ، وجبراً لحاظر المملوك ، فإن حَسُن ذلك بالآراء الشريفة ، وإلا فلن رأى العالى مزيد العلو .

المملوك يُنهي أن الأمير فلان الدين فلان : أمير حاجب بالشام المحروس ، كان قد برزت المراسيمُ الشريفةُ باستقراره في نيابة صَفَد المحروسة ، وقد توجَّه إلى محلِّ نيابته ، والمملوك يعرِّض على الآراء الشريفة إن حَسُن بالرأى الشريف أن يستقرَّ في الوظيفة المذكورة الأميرُ فلان الدين فلان : أحد الأمراء الطبلخاناة بدمشق المحروسة ، فإنه كُفِّء لذلك ، أو يستقر من تبرز به الآراء الشريفة .

المملوك يُنهي أن فلان : أحد رجال الحلقة المنصورة بدمشق المحروسة ، قد درج بالوفاة ، وقد كتب المملوك مربعةً باسم فلان الدين فلان باستقراره على إقطاعه ، وجَهَّزها إلى الأبواب الشريفة لتعرض على الآراء العالية ، فإن حَسُن بالرأى الشريف

إمضاؤها وإلا فيستقرّ على إقطاعه من تبرُّز المراسيم الشريفة باستقراره ، وقد جهّز المملوك هذه المطالعة على يد مملوكه فلان إلى الأبواب الشريفة .

طالع بذلك ، إن شاء الله تعالى ثم يكمل .



وهذه نسخة مطالعة عن نائب الشام أيضا ، في جواب مكتبة شريفة وردت عليه وهي :

يَقْبَلُ الْأَرْضَ وَيُنْهِى أَنْ الْمَرْسُومُ الشَّرِيفَ - شَرَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَعَظَّمَهُ - وَرَدَّ عَلَى الْمَمْلُوكِ عَلَى يَدِ فُلَانٍ الدِّينِ فُلَانِ الْبَرِيدِيِّ ، بِالْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ ، يَتَضَمَّنُ أَنَّ الْمَرْسُومَ الشَّرِيفَ اقْتَضَى الْإِجْتِهَادَ وَالْإِهْتِمَامَ فِي حِفْظِ السَّوَاهِلِ وَالْمَوَانِي ، وَإِقَامَةِ الْأَيْزَاكِ وَالْأَبْدَالِ فِي أَوْقَاتِهَا عَلَى الْعَادَةِ ، وَإِلْزَامِ أَرْبَابِهَا بِمَوَاطِنِهَا ، وَإِلْزَامِ الْمُنَوِّرِينَ بِاللَّدِيدَاتِ وَالْمَنَاطِرِ وَالْمَنَاطِرِ فِي الْأَمَاكِنِ الْمَعْرُوفَةِ ، وَتَعَهُدِ أَحْوَالِهَا وَتَفْقُدهَا ، وَتَقْوِيمِ أَحْوَالِهَا بِحَيْثُ تُقَوِّمُ أَحْوَالَهَا عَلَى أَحْسَنِ الْعَوَائِدِ وَأَكْمَلِهَا ، وَلَا يَقْعُ عَلَى أَحَدٍ دَرَكٌ بِسَبَبِهَا . وَأَنَّ الْمَمْلُوكَ يَتَقَدَّمُ بِاعْتِمَادِ مَا اقْتَضَاهُ الْمَرْسُومُ الشَّرِيفُ مِنْ ذَلِكَ مَعَ مُضَاعَفَةِ الْإِحْتِفَالِ بِذَلِكَ وَالْمُبَادَرَةِ إِلَيْهِ . فَوْقَ الْمَمْلُوكِ عَلَى الْمَرْسُومِ الشَّرِيفِ شَرَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَعَظَّمَهُ ، وَتَفَهَّمُ مَأْرُسِمَ لَهُ بِهِ ، وَقَابِلِ الْمَرَامِ الشَّرِيفَةِ زَادَ اللَّهُ تَعَالَى شَرَفَهَا بِالْإِمْتِنَانِ ، وَتَقَدَّمَ بِاعْتِمَادِ مَا اقْتَضَتْهُ الْمَرَامِ الشَّرِيفَةِ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَخَذَ فِي حِفْظِ السَّوَاهِلِ وَالْمَوَانِي ، وَإِقَامَةِ الْأَيْزَاكِ وَالْأَبْدَالِ ، وَإِلْزَامِ أَرْبَابِهَا بِمَوَاطِنِهَا ، وَإِلْزَامِ الْمُنَوِّرِينَ بِاللَّدِيدَاتِ وَالْمَنَاطِرِ [فِقَامَتِ الْأَحْوَالِ] عَلَى أَحْسَنِ الْعَوَائِدِ ، وَجَرَتْ عَلَى أَكْمَلِ الْقَوَاعِدِ ، وَلَمْ يُكُنْ عِنْدَ الْمَمْلُوكِ غَفْلَةٌ عَمَّا هُوَ بِصَدَدِهِ مِنْ ذَلِكَ ، وَقَدْ أَعَادَ الْمَمْلُوكُ فُلَانَ الدِّينِ فُلَانًا الْبَرِيدِي الْمَذْكُورَ بِهَذِهِ الْمَطَالَعَةِ : لِيَحْصُلَ الْوَقُوفُ عَلَيْهَا . طَالِعَ بِذَلِكَ



وهذه نسخة مطالعة تشتمل على 'أبتداء' وجواب : يقبل الأرض وينهى أنه قد حضر رسول من القان فلان بالملكة الفلانية [وقصده التوجه] إلى الأبواب الشريفة ، والمملوك يعرض على الآراء العالية أمره ، فإن أذن له في التوجه إلى أبوابه الشريفة ، جهزه المملوك إليها على العادة .

المملوك ينهى أن المرسوم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه ورد على المملوك على يد فلان الدين فلان المسفر من الأبواب الشريفة ، يتضمن طلب فلان الفلاني ، وحمله إلى الأبواب الشريفة محتفظاً به ، فبادر المملوك ما برزت به المراسيم الشريفة بالأمثال ، وتقدم بطلب فلان المذكور وسلمه إلى فلان الدين المسفر المذكور ، وبعث معه من يحتفظ به في الطريق إلى حين وصوله إلى الأبواب الشريفة .



صورة وضع المطالعة من نواب السلطنة ومن في معناهم ، إلى الأبواب الشريفة
الجانب الأيمن الطرة الجانب الأيسر
إلى الأبواب الشريفة بسبب كذا

العنوان

الملكى الفلاني مطالعة المملوك فلان

الصدر

بسم الله الرحمن الرحيم

الملكى الظاهرى مثلاً

يقبل الأرض وينهى أن المرسوم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه ، ورد على المملوك ، على يد فلان الدين فلان البريدى ، ويكمل عليه إلى آخره .

الضرب الثاني

(من المطالعات الواردة إلى الأبواب السلطانية عن أهل المملكة)

(١)
المطالعات الواردة من الولاة ومن في معنائهم .

القسم الثاني - في الكتب الواردة على الأبواب السلطانية، عن أهل الممالك الإسلامية المكتوبة عن هذه المملكة . وحالها مختلف باختلاف حال مصطلح أهل البلاد وحال المكتوب عنه في رفعة القدر . وفائدة معرفة ذلك أنه إذا عرف الكاتب مصطلح كل مملكة في الكتابة ، ظهر له ما هو وارد عن ملكها حقيقة وما هو مفتعل عليه ، ولا يخفى ما في ذلك من كبير الفائدة ، وعظيم النفع ، وارتفاع قدر الكاتب عند ملكه بإظهار الزيف بحك المعرفة .

ومن غريب ما وقع في هذا المعنى أنه ورد رسول من الشرق ، في الأيام الظاهرية الشهدية برقوق سقى الله تعالى عهده ، وأظهر لأهل الطرقات أنه رسول من عند طقتمش صاحب بلاد أذربك ، ورفعت بطاقته بالقلعة المحروسة بذلك ؛ فأمر السلطان النائب الكافل وأكابر الأمراء بالخروج لملاقاته على القرب من القاهرة ، فخرجوا وتلقوه بالتعظيم ، على أنه رسول طقتمش خان المقدم ذكره ؛ وأنزل بالميدان الكبير تعظيماً لأمره ؛ فلما عرض كتابه نظره في المقر البدري بن فضل الله ، تغمده الله تعالى برحمته ، وهو يومئذ صاحب ديوان الإنشاء الشريف ، فوجده غير جارٍ على مصطلح كتب القانات في الورق والكتابة ؛ فاستفسر الرسول المذكور عن ذلك ونوقش في قضيته ؛ فأخبر أنه عن الحاكم بالقرم من أتباع طقتمش خان ، فأنكر عليه ذلك ، وحط رتبته عند السلطان وأهل دولته عما كان عليه ، وعلا بذلك مقدار المقر البدري بن فضل الله المشار إليه عند السلطان ، وشكره ما كان من ذلك .

ويشتمل على أربعة مقاصد :

المقصود الأول

(في الكتب الواردة عن أهل الشرق؛ وفيه أطراف)

الطرف الأول

(الكتب الواردة عن القانات العظام من بني جَنْكِرخان؛ ولها حالان)

الحال الأولي — ما كان الأمر عليه قبل دُخُولهم في دين الإسلام .

وكان الأمر يجرى في كتابتهم مجرى المَخَاشنة ، والتصريح بالعداوة ، ولم أقف على مقادير قطع ورق كتبهم يومئذ ولا ترتيب كتابتها .

وهذه نسخة كتاب كتب به هُولاكو بن طوحي ، بن جَنْكِرخان ، المنتزع العراق من أيدي الخلفاء العباسيين . كتب به إلى الملك المظفر قُطز في سنة ثمان وخمسين وسبعائة ، وهو :

من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الأعظم :

بأسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء .

يعلم الملك المظفر قُطز الذي هو من جنس الماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتمتعون بأنعامه ، ويقتلون من كان سلطانه بعد ذلك .

يعلم الملك المظفر وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حوّلها من الأعمال ، أننا جُندُ الله في أرضه ، خَلَقْنَا مِنْ سَخَطِهِ ، وَسَلَّطْنَا عَلَى مَنْ أَحَلَّ عَلَيْهِ غَضَبَهُ ، فَسَلِّمُوا إِلَيْنَا أُمُورَكُمْ تَسْلِمُوا ، قَبْلَ أَنْ يَنْكَشِفَ الْغِطَاءُ فَتَنْدُمُوا ، وَقَدْ عَرَفْتُمْ أَنَّ نَحْرَبَنَا الْبِلَادَ ، وَقَتَلْنَا الْعِبَادَ ، فَلَكُمْ مِنَ الْهَرَبِ ، وَلَنَا خَلْقُكُمْ الْطَلَبُ ؛

فما لكم من سُيُوفنا خَلَاص : خُيُولُنا سَوَاقٍ ، وَسُيُوفُنا قَوَاطِع ، وَقُلُوبُنا كَالْجِبَال ،
وَعَدَدُنا كَالرَّمَال ، وَمَنْ طَلَبَ حَرْبًا نَدِم ، وَمَنْ قَصَدَ أَمَانًا سَلِم ؛ فَإِنْ أَتَمَّ لَشَرُّنا
وَأَوَامِرُنا أَطَعْتُمْ فَلَكُمْ مَالُنا ، وَعَلَيْكُمْ مَا عَلَيْنَا ؛ فَقَدْ أَعْذَرَ مَنْ أَنْذَرَ . وقد ثبت عندكم
أَنَّا كَفَرُنا ، وَثَبَّتْ عِنْدَنا أَنُكُمُ الْفَجَرُ ، فَاسْرِعُوا إِلَيْنَا بِالْجَوَابِ قَبْلَ أَنْ تُضْرِمَ الْحَرْبُ
نَارَها ، وَتُرْمِيَكُمْ بِشَرَارِها ، فَلَا يَبْقَى لَكُمْ جَاهٌ وَلَا عِزٌّ ، وَلَا يَعِصُكُمْ مِنْ جَبَلٍ وَلَا
حَرْزٍ ، فَمَا بَقِيَ لَنَا مَقْصِدٌ سِوَاكُمْ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ ، وَعَلَى مَنْ أَتْبَعَ الْهَدْيَ ،
وَخَشِيَ عَوَاقِبَ الرَّدَى ، وَأَطَاعَ الْمَلِكَ الْأَعْلَى .

الحال الثانية — ما كان الأمرُ عليه بعد دُخُولهم في دين الإسلام مع قيام العداوة
بين الدولتين .

وكان عادتهم في الكتابة أن يُكْتَبَ بعد البسملة « بقوة الله تعالى » ثم يُكْتَبَ
بعد ذلك « بإقبال قان فرمان فلان » يعني كلام فلان .
ولهم في ذلك طريقتان .

إحداهما — أن يُكْتَبَ بِسْمِ اللَّهِ سَطْرًا ، وَيُكْتَبَ « الرحمن الرحيم » سَطْرًا
تحتها ، وَيَكْتَبَ « بقوة الله » سَطْرًا « وتعالى » سَطْرًا آخر تحتها ؛ ثم يَكْتَبُ تحت
ذلك في الوسط بهامش من الجانبين « بإقبال قان » سَطْرًا ، وتحت « فرمان فلان »
باسم السلطان المكتوب عنه سَطْرًا آخر .

والطريقة الثانية — أن تُكْتَبَ الْبِسْمَلَةُ جَمِيعُها سَطْرًا واحدًا ، ثم يَكْتَبُ تحت
وَسَطَ الْبِسْمَلَةِ « بقوة الله تعالى » سَطْرًا « وَمِيَامِينَ الْمَلَّةِ الْمُحَمَّدِيَّة » سَطْرًا آخر ؛
ثم يَكْتَبُ تحت ذلك سَطْرًا آخر بزيادة يسيرة من الجانبين « فرمان السلطان فلان »
يعني كلام السلطان فلان .

ولم أَقِفْ عَلَى قَطْعِ الْوَرَقِ الَّذِي كُتِبَ فِيهِ حَيْثُذُ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ فِي الْبَغْدَادِ الْكَامِلِ تَعْظِيمًا لِشَأْنِ الْمَكْتُوبِ عَنْهُمْ . وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ الْكُتُبَ الْوَارِدَةَ عَنْهُمْ عَلَى تَمَاطُ الْكُتُبِ الْوَارِدَةِ مِنْ هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ إِلَيْهِمْ ، جَرِيًا عَلَى قَاعِدَةِ كُتَابِ هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ مِنْ أَنَّ الْغَالِبَ مَضَاهَاثُهُمْ لِأَكْبَرِ الْمَمْلُوكِ فِي كُتُبِهِمْ فِي الْهَيْئَةِ وَالتَّرْتِيبِ شَرْقًا وَغَرْبًا .

وهذه نسخةُ كُتَابِ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْأُولَى ، وَرَدَ عَنِ السُّلْطَانِ « أَحْمَد » صَاحِبِ مَمْلَكَةِ إِيْرَانِ ، مِنْ بَنِي هُوَلَاكُو الْمَقْدَمِ ذَكَرَهُ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ ، كُتِبَ بِهِ إِلَى الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ « قَلَاوُونَ » صَاحِبِ الدِّيَارِ الْمَصْرِيَّةِ ، تَعَمُّدَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِرِضْوَانِهِ ، وَرَدَ مُؤَرَّخًا بِأَوْسَطِ جُمَادَى الْأُولَى سَنَةِ إِحْدَى وَثَمَانِينَ وَسِتِّمِائَةٍ ، وَرَأَيْتُ فِي بَعْضِ الدَّسَاتِيرِ أَنَّهُ مِنْ إِنْشَاءِ الْفَخْرِ بْنِ عَيْسَى الْمَوْصِلِيِّ ، وَوَرَدَ بِخَطِّهِ وَهُوَ :

بِقُوَّةِ اللَّهِ

بِسْمِ اللَّهِ

تَعَالَى

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِأَقْبَالِ قَانِ .

فَرْمَانِ أَحْمَدِ .

إِلَى سُلْطَانِ مِصْرَ ؛ أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ نَسَبَحَانَهُ وَتَعَالَى بِسَابِقِ عِنَايَتِهِ ، وَنُورِ هِدَايَتِهِ ، قَدْ كَانَ أَرْشَدَنَا فِي عُقُوقَانِ الصَّبَا ، وَرِيعَانِ الْحَدَاثَةِ ، إِلَى الْإِقْرَارِ بِرُبُوبِيَّتِهِ ، وَالْاعْتِرَافِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ ، وَالشَّهَادَةِ لِمُحَمَّدٍ ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ، بِصِدْقِ نُبُوَّتِهِ ، وَحُسْنِ الْأَعْتِقَادِ فِي أَوْلِيَائِهِ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ وَبَرِيَّتِهِ ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَمْشِمْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ فَلَمْ نَزَلْ نَمِيلُ إِلَى إِعْلَاءِ كَلِمَةِ الدِّينِ ، وَإِصْلَاحِ أُمُورِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، إِلَى أَنْ أَنْضَى إِلَيْنَا بَعْدَ أَيْنَا الْجَلِيلِ ، وَأَخِينَا الْكَبِيرِ ، نُوبَةُ الْمُلْكِ ، فَأَضْفَى عَلَيْنَا مَنْ

جَلَّابِيبِ الطَّافَةِ وَلَطَائِفِهِ ، مَاحَقَّقَ بِهِ آمَالَنَا فِي جَزِيلِ آيَاتِهِ وَعَوَارِفِهِ ، وَجَلَّى هَذِهِ الْمَمْلَكَةَ عَلَيْنَا ، وَأَهْدَى عَقِيلَتَنَا إِلَيْنَا ، فَاجْتَمَعَ عِنْدَنَا فِي قُورَيْيَلَانَ الْمُبَارَكِ - وَهُوَ الْمَجْتَمِعُ الَّذِي تُقَدِّحُ فِيهِ الْآرَاءُ - جَمِيعُ الْإِخْوَانِ وَالْأَوْلَادِ وَالْأَمْراءِ الْكِبَارِ ، وَمَقَدِّمُو الْعَسَاكِرِ ، وَزَعَمَاءُ الْبِلَادِ ، وَأَتَّفَقَتْ كُلُّهُمْ عَلَى تَفْهِيمِ مَاسْبِقٍ بِهِ حُكْمُ أَخِينَا الْكَبِيرِ ، فِي إِنْفَازِ الْحَمِّ الْغَفِيرِ ، مِنْ عَسَاكِرِنَا الَّتِي ضَاقَتْ الْأَرْضُ بِرُحْبِهَا مِنْ كَثَرَتِهَا ، وَأَمْتَلَتْ الْأَرْضُ رُعبًا مِنْ عَظِيمِ صَوْلَتِهَا ، وَشَدِيدِ بَطْشَتِهَا ، إِلَى تِلْكَ الْجَهَةِ بِهَمَّةٍ تَخْضَعُ لَهَا صُمُّ الْأَطْوَادِ ؛ وَعِزْمَةٍ تَلِينُ لَهَا الصُّمُّ الصَّلَادِ ، فَفَكَّرْنَا فِيمَا تَمَخَّضْتَ زُبْدُ عِزَائِهِمْ عَنْهُ ، وَاجْتَمَعَتْ أَهْوَاؤُهُمْ عَلَيْهِ ، فَوَجَدْنَاهُ مَخَالِفًا لِمَا كَانَ فِي ضَمِيرِنَا مِنْ اقْتِفَاءِ الْخَيْرِ الْعَامِّ ، الَّذِي هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَقْوِيَةِ شِعَارِ الْإِسْلَامِ ، وَأَنْ لَا يَصْدُرَ عَنْ أَوَامِرِنَا مَا أَمَكْنَا إِلَّا مَا يُوجِبُ حَقَّقَ الدَّمَاءِ ، وَتَسْكِينِ الدَّهْمَاءِ ، وَتَجَرُّي بِهِ فِي الْأَقْفَارِ ؛ رُخَاءُ نَسَائِمِ الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ ، وَيَسْتَرِجِحُ بِهِ الْمُسْلِمُونَ فِي سَائِرِ الْأُمُصَارِ ، فِي مِهَادِ الشَّفَقَةِ وَالْإِحْسَانِ ؛ تَعْظِيمًا لِأَمْرِ اللَّهِ ، وَشَفَقَةً عَلَى خَلْقِ اللَّهِ ، فَأَلْهَمَنَا اللَّهُ تَعَالَى إِطْفَاءَ تِلْكَ النَّارِ ، وَتَسْكِينِ الْفِتَنِ النَّارِ ، وَإِعْلَامَ مَنْ أَشَارَ بِذَلِكَ الرَّأْيِ بِمَا أُرْشَدْنَا اللَّهُ إِلَيْهِ : مِنْ تَقْدِيمِ مَا يُرْجَى بِهِ شِفَاءُ مَزَاجِ الْعَالَمِ مِنَ الْأَدْوَاءِ ، وَتَأْخِيرِ مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ آخِرَ الدَّوَاءِ ، وَأَنْتَا لَا نَحِبُ الْمَسَارَعَةَ إِلَى هَرِّ النَّصَالِ لِلنَّضَالِ إِلَّا بَعْدَ إِبْصَاحِ الْمَحْجَّةِ ، وَلَا نُبَادِرُهَا إِلَّا بَعْدَ تَثْنِيَنِ الْحَقِّ وَتَرْكِيبِ الْحُجَّةِ ، وَقَوَى عِزِّ مَنَا عَلَى دِمَارِ أَيْنَاهِ مِنْ دَوَاعِي الصَّلَاحِ ، وَتَفْهِيمِ مَا ظَهَرَ لَنَا بِهِ وَجْهُ النَّجَاحِ ؛ إِذْ كَانَ ، الشَّيْخُ قُدْوَةُ الْعَارِفِينَ « كِمَالُ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ » الَّذِي هُوَ نِعَمَ الْعَوْنِ لَنَا فِي أُمُورِ الدِّينِ ؛ فَأَرْسَلْنَاهُ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لِمَنْ [لَبَّى] دُعَاةَ ، وَنِقْمَةً عَلَى مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ وَعَصَاهُ ؛ وَأَنْفَذْنَا أَقْضَى الْقَضَاةِ قُطْبَ الْمِلَّةِ وَالْدِّينِ ، وَالْأَتَاكَ بِهَاءِ الدِّينِ ، الَّذِينَ هُمَا مِنْ ثِقَاتِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الزَّاهِرَةِ لِيُعَرِّفُوهُمْ طَرِيقَتَنَا ، وَيَتَحَقَّقَ عِنْدَهُمْ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ لِعُمُومِ الْمُسْلِمِينَ جَمِيلُ نِيَّتِنَا ، وَبَيْنَا لَهُمْ أَنَّا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى بَصِيرَةٍ ، وَأَنَّ الْإِسْلَامَ

يُحِبُّ ما قبله ، وأنه تعالى ألقى في قلوبنا أن نتبع الحق وأهله ، وشاهد أن عظيم
 نعمة الله للكافة بما دعانا إليه من تقديم أسباب الإحسان ، أن لا يجرموا بالنظر
 إلى سائر الأحوال فكل يوم هو في شأن ؛ فإن تطلعت نفوسهم إلى دليل تستحكم
 بسببه دواعي الإعتماد ، وحجة يثقون بها من بلوغ المراد ؛ فليظنوا إلى ما ظهر من
 أمرنا مما أشتهر خبره ، وعم أثره ، فإنا آتبدأنا بتوفيق الله بإعلاء أعلام الدين
 وإظهاره ، في إيراد كل أمر وإصداره ، تقديماً لنأموس الشرع المحمدي ، على
 مقتضى قانون العدل الأحدي ، إجلالاً وتعظيماً ؛ وأدخلنا السرور ، على قلوب
 الجمهور ، وعفونا عن كل من اجتراح سيئة وأقترف ، وتابنا بالصفح وقلنا عفا الله عما
 سلف ؛ وتقدمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس ،
 وعمارة بقاع الدين والريط الدوآرس ؛ وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القائمة إلى
 مستحقها بشروط واقفيها ؛ ومنعنا أن يلمس شيء مما استحدث عليها ؛ وأن لا يغير
 أحد شيئاً مما قرر أولاً ؛ وأمرنا بتعظيم أمر الحجاج وتجهيز وفدها ، وتأمين سبلها ،
 وتسيير قوافلها ؛ وإنا أطلقنا سبيل التجار المترددين إلى تلك البلاد ليسافروا بحسب
 اختيارهم على أحسن قواعدهم ؛ وحررنا على العساكر والقرأغولات والشحاطي
 في الأطراف التعرض لهم في مصادره ومواردهم ، وقد كان قرأغول صادف جاسوساً
 في زى الفقراء كان سبيله أن يهلك ، فلم يهرق دمه : لحرمة ما حرمه الله تعالى وأعدناه
 إليهم . ولا يخفى عنهم ما كان في إنفاذ الجواسيس من الضرر العام للمسلمين ، فإن
 عساكرنا طالما رأوهم في زى الفقراء والنسك وأهل الصلاح ، فسألت ظنونهم
 في تلك الطوائف ؛ فقتلوا منهم من قتلوا ، وفعلوا بهم ما فعلوا ، وارتفعت الحاجة
 بحمد الله إلى ذلك بما صدر إذنتنا به من فتح الطريق وتردد التجار ، فإذا أمعنوا الفكر
 في هذه الأمور وأمثالها لا يخفى عنهم أنها أخلاق جيلة طيعيه ، وعن شوائب

التَّكْلُفُ والتَّصَنُّعُ عَرِيَّةٌ . وإذا كانت الحال على ذلك فقد آرتفعت دَوَاعِي المَضَرَّة التي كانت مُوجِبَةً للمخالفة ، فإنها إن كانت طريقًا للدَّبِّ والدُّودِ عن حَوْزَةِ الإسلام ، فقد ظهر بفضل الله تعالى في دَوْلَتِنَا النُّورِ المِيِّين ، وإن كانت لما سَبَقَ من الأسباب ، فَمَنْ يَتَحَرَّى الآنَ طريقَ الصَّوابِ ، فَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ . وقد رَفَعْنَا الحِجَابَ ، وَأَتَيْنَا بِفَضْلِ الْخِطَابِ ؛ وَعَرَفْنَاهُمْ [طَرِيقَتَنَا وَ] مَا عَزَمْنَا بِنَبِيَّةٍ خَالِصَةٍ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى اسْتِثْنَائِهَا ، وَحَرَّمْنَا عَلَى جَمِيعِ الْعَسَاكِرِ الْعَمَلِ بِخِلَافِهَا ، لِنُرِضِيَ اللَّهَ وَالرَّسُولَ ، وَيُلَوِّحَ عَلَى صَفَحَاتِهَا آثَارُ الْإِقْبَالِ وَالْقَبُولِ ؛ وَتُسْتَرِجَ مِنْ آخْتِلَافِ الْكَلِمَةِ هَذِهِ الْأُمَّةُ ، وَتُجَلِّيَ بُنُورُ الْإِثْتِلَافِ ، ظُلُمَةُ الْإِخْتِلَافِ ، وَالْغَمَّةُ ، وَيَشْكُرَ سَابِغُ ظُلْمِهَا الْبَوَادِي وَالْحَوَاضِرُ ، وَتَقَرَّ الْقُلُوبُ الَّتِي بَلَغَتْ مِنَ الْجَهْلِ الْحَنَاجِرَ . وَيُعْفَى عَنْ سَالِفِ الْجَرَائِرِ ؛ فَإِنَّ وَقَّعَ اللَّهُ سُلْطَانَ مِصْرَ إِلَى مَا فِيهِ صَلَاحُ الْعَالَمِ ، وَأَنْتَظَامُ أُمُورِ بَنِي آدَمَ ، فَقَدْ وَجِبَ عَلَيْهِ التَّمَسُّكُ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ، وَسُلُوكُ الطَّرِيقَةِ الْمَثَلِيِّ ، بَفَتْحِ أَبْوَابِ الطَّاعَةِ وَالْإِتِّحَادِ ، وَبَذَلِ الْإِخْلَاصِ بِحَيْثُ تَعَمَّرَ تِلْكَ الْمَمَالِكُ وَتِيكَ الْبِلَادُ ؛ وَتُسَكَّنُ الْفِتْنَةُ النَّاثِرَةُ ، وَتُعْمَدُ السُّيُوفُ الْبَاسِرَةُ ، وَتَحُلَّ الْعَامَّةُ أَرْضَ الْهُوَيْنِيِّ وَرَوْضَ الْهُدُونِ ، وَتَخْلُصَ رِقَابُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَغْلَالِ الذَّلِّ وَالْهُونِ . وَإِنْ غَلَبَ سُوءُ الظَّنِّ بِمَا تَفَضَّلَ بِهِ وَاهِبُ الرَّحْمَةِ ، وَمَنَعَ مَعْرِفَةَ هَذِهِ النِّعْمَةِ ، فَقَدْ شَكَرَ اللَّهُ مُسَاعِينَا وَأَبْلَى عُدْرَنَا ، (وَمَا كُنَّا مُعَدِّينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) وَاللَّهُ تَعَالَى الْمَوْفِقُ لِلرَّشَادِ وَالسَّدَادِ ، وَهُوَ الْمُهَيِّمُنُ عَلَى الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة كتاب على الطريقة الثانية، كُتِبَ به عن السلطان « محمود غازان » صاحب إيران أيضا ، إلى السلطان الملك الناصر « محمد بن قلاوون » صاحب الديار المصرية وما معها من البلاد الشامية ، وهي :

بسم الله الرحمن الرحيم

بقوة الله تعالى

وميّامين الملة المحمدية

فرمان السلطان محمود غازان

لِيَعْلَمَ السُّلْطَانُ الْمَلِكُ النَّاصِرُ، أَنَّهُ فِي الْعَامِ الْمَاضِي، بَعْضُ عَسَاكِرِهِمُ الْمُفْسِدَةِ دَخَلُوا
أَطْرَافَ بِلَادِنَا، وَأَفْسَدُوا فِيهَا لِعِنَادِ اللَّهِ وَعِزَادِنَا، كِمَارِدِينَ وَنَوَاحِيهَا، وَجَاهَرُوا
اللَّهَ بِالْمَعَاصِي فِيمَنْ ظَفَرُوا بِهِ مِنْ أَهْلِهَا، وَأَقْدَمُوا عَلَى أُمُورٍ بَدِيعَةٍ، وَارْتَكَبُوا
آثَامًا شَنِيعَةً، مِنْ مُحَارَبَةِ اللَّهِ وَخَرْقِ نَامُوسِ الشَّرِيعَةِ، فَأَنْفَنَّا مِنْ تَهْجُمِهِمْ، وَغَرْنَا
مِنْ قَحْجَمِهِمْ، وَأَخَذْنَا الْحِمَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ فَجَذَبْنَا إِلَى دُخُولِ بِلَادِهِمْ، وَمَقَابِلَتِهِمْ عَلَى
فَسَادِهِمْ، فَرَكِبْنَا بَيْنَ كَانٍ لَدَيْنَا مِنَ الْعَسَاكِرِ، وَتَوَجَّهْنَا بَيْنَ اتَّفَقٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ حَاضِرٌ،
وَقَبْلَ وَقُوعِ الْفِعْلِ مَنَا، وَاشْتَهَارِ الْفَتْكِ عِنَا، سَلَكْنَا سَبِيلَ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَأَقْتَفَيْنَا آثَارَ
الْمُتَقَدِّمِينَ، وَأَقْتَدَيْنَا بِقَوْلِ اللَّهِ ﴿لَقَدْ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ وَأَنْفَذْنَا
صُحْبَةَ يَعْقُوبَ السَّكِرَجِي جَمَاعَةً مِنَ الْقَضَاةِ، وَالْأُئِمَّةِ الثَّقَاتِ، وَقَلْنَا ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنْ
النَّذْرِ الْأُولَى أَزِفَتِ الْآزِفَةُ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ فَقَابَلْتُمْ ذَلِكَ بِالْإِصْرَارِ،
وَحَكَمْتُمْ عَلَيْكُمْ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالْإِضْرَارِ، وَخَالَفْتُمْ سَبِيلَ الْمُلُوكِ، فِي حُسْنِ السُّلُوكِ،
وَصَبَرْنَا عَلَى تَمَادِيكُمْ فِي غَيْبِكُمْ، وَخُلُودِكُمْ إِلَى بَغْيِكُمْ، إِلَى أَنْ نَصَرْنَا اللَّهَ، وَأَرَاكُم
فِي أَنْفُسِكُمْ قَضَاءَهُ ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ﴾ وَظَنَّنَا أَنَّهُمْ حَيْثُ تَحَقَّقُوا كُنْهَ
الْحَالِ، وَآلَ بِهِمُ الْأَمْرُ إِلَى مَا آلَ، أَنَّهُمْ تَدَارَكُوا الْفَارِطَ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَرَتَّقُوا مَا فُتِّقُوا
بَقَدَرِهِمْ، وَوَجَّهَ إِلَيْنَا وَجْهَهُ عَذْرَهُمْ، فَإِنَّهُمْ رَبَّمَا سَيَّرُوا إِلَيْنَا حَالَهُ دُخُولِهِمْ إِلَى الدِّيَارِ
الْمِصْرِيَّةِ، رُسُلًا لِإِصْلَاحِ تِلْكَ الْقَضِيَّةِ، فَبَقَيْنَا بِدَمَشَقَ غَيْرِ مُتَحَنِّينَ، وَتَبَطُّنًا تَبَطُّ
الْمُتَمَكِّنِينَ، فَصَدَّاهُمْ عَنِ السَّعْيِ فِي صَلَاحِ حَالِهِمُ التَّوَانِي، وَعَلَّقُوا نُفُوسَهُمْ عَنِ الْيَقِينِ

بِالْأَمَانِي، ثُمَّ بَلَّغْنَا بَعْدَ عَوْدِنَا إِلَى بِلَادِنَا أَنَّهُمْ أَلْقَوْا فِي قُلُوبِ الْعَسَاكِرِ وَالْعَوَامِّ، وَرَأَوْا جَبْرَ مَا أَوْهَنُوا مِنَ الْإِسْلَامِ، أَنَّهُمْ فِيمَا بَعْدَ يَلْقَوْنَنَا عَلَى حَلَبَ وَالْفُرَاهِ، وَأَنَّ عَزْمَهُمْ مُصِرٌّ عَلَى ذَلِكَ لِأَسْوَاهِ؛ فَجَمَعْنَا الْعَسَاكِرَ وَتَوَجَّهْنَا لِلْقَاهِمِ، وَوَصَلْنَا الْفُرَاتَ مَرْتَيْنِ ثُبُوتَ دَعْوَاهُمْ، وَقَلْنَا لَعَلَّ وَعَسَاهُمْ، فَمَا لَمَعَ لَهُمْ بَارِقٌ، وَلَا ذَرَّ شَارِقٌ، فَقَدِمْنَا إِلَى أَطْرَافِ حَلَبَ، وَعَجِبْنَا مِنْ تَبَطُّبِهِمْ غَايَةَ الْعَجَبِ؛ وَفَكَّرْنَا فِي أَنَّهُ مَتَى تَقَدَّمْنَا بَعَسَا كَرْنَا الْبَاهِرَةَ، وَجَمُوعِنَا الْعَظِيمَةَ الْقَاهِرَةَ، رُبَّمَا أَنْحَرَبَ الْبِلَادَ مَرُورُهَا، وَبِإِقَامَتِهِمْ فِيهَا فَسَدَتْ أُمُورُهَا، وَعَمَّ الضَّرُّ الْعِبَادَ، وَانْخِرَابُ الْبِلَادِ؛ فَعُدْنَا بَقِيًّا عَلَيْهَا، وَنَظَرَةُ لُطْفٍ مِنْ اللَّهِ إِلَيْهَا. وَهَذَا نَحْنُ الْآنَ مَهْتَمُونَ بِجَمْعِ الْعَسَاكِرِ الْمَنْصُورَةِ، وَمُشْحِدُونَ غِرَارَ عِزَاتِنَا الْمَشْهُورَةِ، وَمَشْتَغِلُونَ بِصُنْعِ الْمَجَانِيقِ وَأَلَاتِ الْحِصَارِ، وَعَازِمُونَ بَعْدَ الْإِنْذَارِ ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾. وَقَدْ سَيَّرْنَا حَامِلِي هَذَا الْكِتَابِ الْأَمِيرَ الْكَبِيرَ نَاصِرَ الدِّينِ عَلَى خَوَاجَا، وَالْإِمَامَ الْعَالِمَ مَلِكَ الْقُضَاةِ جَمَالَ الدِّينِ مُوسَى ابْنَ يَوْسُفَ، وَقَدْ حَمَلْنَاهُمَا كَلَامًا شَافَهُمَا بِهِ، فَلْتَقُوا بِمَا تَقَدَّمْنَا بِهِ إِلَيْهِمَا فَإِنَّهُمَا مِنَ الْأَعْيَانِ، الْمُعْتَمِدِ عَلَيْهِمَا فِي الدِّيَوَانِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فَلْتَعُدُّوا لَنَا الْهَدَايَا وَالتَّحَفَ، فَمَا بَعْدَ الْإِنْذَارِ مِنْ عَازِرٍ، وَإِنْ لَمْ تَنْتَدَارُوا الْأَرْضَ فِدَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالَهُمْ مَطْلُوبَةٌ بِتَدْيِيرِهِمْ، وَمَطْلُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ فِي طَوْلِ تَقْصِيرِهِمْ.

فَلْيَمْنِ السُّلْطَانُ لِرِعِيَّتِهِ النَّظَرَ فِي أَمْرِهِ. فَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرًا مِنْ أُمُورِ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ وَخَلَّتْهُمْ، آحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتْهُ وَفَقَرَهُ». وَقَدْ أَعْذَرُ مِنْ أَنْذَرٍ، وَأَنْصَفَ مِنْ حَذَرٍ، وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ

أَتَّبِعُ الْهَدْيَ - فِي الْعَشْرِ الْأَوْسَطِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ سَبْعِمِائَةٍ - بِجِبَالِ الْأَكْرَادِ،
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا [مُحَمَّدٍ] الْمُصْطَفَى وَآلِهِ وَصَحْبِهِ
وَعِزَّتِهِ الطَّاهِرِينَ .

قلت : وقد تقدّم جواب هذين الكأين في الكلام على المكأبات إلى القانات
ببلاد الشرق من نبي جنكخان فليُنظر هناك .

الطرف الثاني

(في المطالعات الواردة إلى الأبواب السلطانية عن أهل الشرق :
(٢)
من الملوك والحكام بالبلاد أتباع القانات ومن في معناهم)

(١) تقدم له أنه لا يقال العشر الأوسط بل العشر الوسطى أو الأوسط قال وبعض النحويين أجازوه
فما في الجواب على ذلك الرأي .

(٢) ترك في الأصل باقي الصفحة بياضا ولم يكتب عن هذا الطرف شيئا .

الطرف الثالث

(في رسم المكاتبات الواردة عن صاحب اليمَن إلى هذه المملكة)

وعادةً مكاتبتِه أن يحدِّو حدَّو الديار المصرية ، فيما يُكتب إليه عنها ، فيبتدئ المكاتبَةَ بلفظ : أعزَّ الله تعالى أنصارَ المقام الشريف ، العالى ، المولوى ، السلطانى ، الفلانى بقلب السلطنة ؛ ثم يقول أصدرها من مكان كذا ، ويذكر المقصِد ، ويختم بالدعاء ونحوه ، ويكتبون في قِطْع الشامى الكامل بقلم الثلث .

وهذه نسخة كتابٍ عن الملك الأشرف « إسماعيل » صاحب اليمن ، إلى الملك الظاهر « برقوق » صاحب الديار المصرية ، في شهور سنة ثمانٍ وتسعين وسبعائة ، على يدِ القاضى برهان الدين المحلّى ، تاجر الخصاص ، والطواشى آفتخار الدين فاجر دَوَادار الملك الأشرف صاحب اليمن المذكور ، وهو :

أعزَّ الله تعالى أنصارَ المقام الشريف العالى السلطانى الظاهرى ، وزاده فى البسطة والقُدرة ، وضاعف له مَوادَّ الاستظهار والنَّظر العزيز ، وجعل الظَّفَر مقرونا برأياته أينما يَمُمْتُ ما بينهما تَمَيِّز ، ومحبوباً إلى عساكره المنصورة حيثُ توجَّهَتْ وفتح بركة أيامه كلَّ مُقفلٍ ممتنِّعٍ بأمرٍ وجيز ، ولا زال ممتلئ الأوامر والمَراسِم ، رافِلاً فى أردان العِزِّ والمَكارم ، مُدوِّداً على الأُمة [منه] ظلُّ المراحم ، بمنَّه وكرمه .

أصدرها إليه من رُبدة زَيْد المحروسة مُعربةً عن صدقِ ولَّائه ، متمسكةً بوثيقِ أسبابِ آلائه ، ناشرةً طيبَ شأئه ، مترجمةً ناظمةً لمتنويرِ الكتابِ الكريمِ الظاهرى الواردِ على يدِ المجلس العالى البُهانى ، بتاريخ ذى الحِجَّة عَظُمَ اللهُ بركاتها ؛ سنة سبع وتسعين وسبعائة ، أحسنَ اللهُ خاتمتها ؛ فتلقَّيناها باليدين ، ووضَعناها على الرأس والعين ، وأسَدَلْنا به على شريفِ همته ، وصفاءِ مودَّته ، وتأكيدِ أُوْجُوته ، وسألنا الله

تعالى أن يمتنعنا بقاء دولته القاهرة، وينشر في المشارق والمغارب أقلامه الزاهية؛
ففضضنا ختامه، فوجدنا فيه من نشر السلم الأريج أذكاه، ومن أنوار ما جمه القلم
الشريف ما يحجل منه توار الربيع وبهائه، فانشرح به الصبور، وتزايد به السرور؛
وقرت به الأعين، وكثر التهجذ به لما استعذبت به الألسن، وأمثلنا المرسوم الشريف
في تعظيم المجلس العالي ذي الجلالين؛ برهان الدين إبراهيم بن عمر المحلى، ومراعاته
في جميع أموره وسرعة تجهيزه؛ على أنا نحله ونجمله، ونوجب حقه ولا نجعله، فهو
عندنا كما كان في عهد الوالد المرحوم الملك الأفضل، بل أمكن وأفضل، فهو لدينا
المكين الأمين؛ وجهزنا له المتجر السعيد الظاهري، وبرزت مراسمنا إلى الثواب
بشعر عدن المحروس أن لا يعترض في عشور ونول، وحملناه على ظهور مرأكبنا عزيزنا
مكرما، وعرفناه أن لا يصرف على الحمل السعيد ولا الدرهم الفرد، وذلك قليل منا
لأجل غلمان بابكم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه؛ وجهزنا الهدية السعيدة المباركة
المتقبلة، صخبته هو والأمير الأجل الكبير الافتخاري : افتخار الدين فاجر الدوادار،
وصارت بأيديهما بأوراق مفصلة، للقام الشريف والأمرء الأجلاء الكبراء، وصخبتهما
نقر من المعلمين البازدارية، برسم حمل الطيور للصيد السعيد، والمهتارية للصافيات
الحياة . على أنا لو أهدينا إلى جلال المقام الشريف الظاهري أعز الله أنصاره
بمقدار همته الشريفة العاليه، ورتبته المنيعة السامية، لاستصغرت الأفلاك الدائرة،
والشهب السائرة، وأستقلت السبعة الأقاليم تحفه، والأرض وما أقتته طرفه، ولم
نرض أن نبعث إليه الأنعام ممالك وخولا، ونجني إليه ثمرات كل شيء قبلا، ولو رام
حب المقام هذه القضية، لقصر عنه حوله، ولم يصل إليه طوله، ولكنه يرجع
إلى المشهور، بين الجمهور، فوجدنا العمل يقوم مقام الاعتقاد، وليس على المستمر^(١)

(١) لعله "الاعتقاد يقوم مقام العمل" أو "العمل يقوم مقامه الاعتقاد" تأمل .

على الطاعة سوى الإجهاد ، والمخلص في الولاء محمول على قدرته لا على ما أراد ، فوق هذه القضية ، وأغد إلى المقام الشريف على يد موصولها هذه الهدية ، رغبة إلى إنعامه في بسط عذره ، وحمله على شروط المحبة طول دهره ، وتصريفه بين أوامره الممتثلة ، ومراسيمه المتقبلة . والمسئول الإتخاف بالمهمات والمراسيم الشريفة شرفها الله تعالى وعظمها .

ونوضح لعلمه الكريم ما أفاء الله به علينا من النصر الذي خفقت بؤده ، وأشرقت سعادته ، وبرقت سيوفه في رقاب المارقين ، وأطردت في راياته المارب فتناولها باليمين ﴿ نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴾ وفتح الفلاح والمصانع ، والاستيلاء على المزارع والمزارع ، واستئصال شافة المارقين ، واسترجاع حصن قاف المحروس بعد طول مكثته تحت يد العرب ، فكم من كمي مقتول ، وأسير مكبول ، وحصان ترك سبيلها ، ورب حصان كثر عليه عويلها ، فخرّبنا المعاول ، وأطلقنا العقائل ، وأوطناهم الحميم ﴿ وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ وغير ذلك ما أرسلنا على يد المجلس البرهاني والأمير آفتخار الدين : فاحر الدوادار ، لقضاء بعض الحوائج الطارئة من الديار المصرية « ألف وأربعمائة وسبعون قطعة من أصناف البهار ، وسبع قطع حرير » والمستمد من إحسان المقام الشريف العالي ، برؤز أمره الأشرف العزيز النافذ المطاع ، أنفذه الله تعالى شرقا وغربا ، وأمضاه بعدا وقربا ، في قضاء حوائجها وسرعة تجهيزها وقبولها إلى يمين اليمن ، وعزّ عزّ قريبا .

وبعد ، فإن الجلالة والاحترام بهما دوام الموالاة ، وتوفير الحُرُمات ، بل هي أعظم الكرامات ، والمسئول من المقام الشريف الظاهري أعز الله تعالى أنصاره ، وضاعف اقتداره ، برؤز أمره الأشرف إلى النواب بمصر المحروسة ،

وثغر الإسكندرية، والشام، بالجلالة والإحترام، لكافة غلماننا الواردين إلى الديار المصرية، ومن أنتسب إلينا من تاجر وغيره، مسافراً كان أو مقيماً، وأن يُعار في مهماته، جلالة تقياً ظلالها، ويشمله إقبالها، كما سبق للوالد المرحوم المقدس الملك المجاهد، تغشاه الله برحمته، بل نرجو فوق ذلك مظهرها، إن شاء الله، فتم خطوط ناصرية من السلطان حسن والملك الصالح لخدمتنا القديما، لما أرسلوا إلى الإسكندرية ودمشق، كتب لهم مربعات ومثالات شريفة، ولا غرو أن يُبدى المستعطى مافي ضميره إلى المعطى، والأشهر بما بيننا وبين المقام الشريف من الأخوة الممهدة، والمصافاة المؤكدة، والمودات المحككة، والأسباب الثابتة، أوجب ذلك؛ وحسن الظن الجميل نطق به لسان الحال، في هذا الاسترسال؛ ولم يخف عن المقام الشريف أن لله عوارف يجذب بها القلوب إليه، ولطائف خفية يستدل بها المحب عليه؛ وتعاطى كأس الوداد، يدل على حسن الاعتقاد؛ ولذلك نطق اللسان، وكتب البنان، بما أفترض على عباده الرحمن؛ فقال في محكم كتابه المين ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ . ومحب المقام الشريف يقدم الكتاب، ويسأل الجواب، بالإذن الشريف : ليعتمد بعد الله عليه في حج البيت الحرام، عند تيسير الله تعالى لذلك، فقد حسن ظنه بذلك، وركن إليه لقضاء الفرض والتبرك بالمساعرة العظام، فلا زالت أيام المقام الشريف على منابر الدنيا تُنلى، وآيات الشكر لله سبحانه على استقراره في الملك العقيم تُنلى . جميع هذا الخطاب مقدمة الإيجاب بالإذن بالحج، وتفسير المحمل في كل عام، إلى بيت الله الحرام، لحاج المؤمنين تعذرت عليه الطرقات، ولم يُطبق حمل النفقات، ونرجو من الله تعالى أن يفتح ببركة أيامه الشريفة، وشمول الفكر الشريف، بحل عقدة هذه الأسباب، إنه هو الكريم الوهاب، بمنه وكرمه .

وأما ما نعتقده من أمانة المجلس البرهاني فإنها متينة ، وشواهدُها من أقواله وأفعاله مُبينة ، خصوصاً في المقام الشريف ، وأستملته للقلوب بالعبارات اللطيفة ؛ فقد نظم معاقِدَ الائتلاف ، وتزايد بشرحه الأئس في محاورته والإختلاف ؛ ولولا المهِّم الشريف لاستوقفناه عندنا عاماً كاملاً من بعد هذا التاريخ : يُملِّي علينا آياتِ المقام الشريف ؛ شرفه الله تعالى وعظمه . وعلى لسانه ما يُثديه في المواقف الشريفة شفاهاً إن شاء الله تعالى .

في سابع جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وسبعائة ، أحسن الله تعالى ختامها ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وباطناً وظاهراً .

قلت : أما إمام الزيدية باليمن فلم أقف له على مكتّبة ، وإن كان المقرّ الشهابي ابن فضل الله قد أشار في كتابه "التعريف" إلى أنه ورد عنه مكتّبة إلى الأبواب السلطانية الناصرية (محمد بن قلاوون) يستجيشه على صاحب اليمن ، والغالب على الظن أن مكتّبه أعرابية ، كما أن إمارته أعرابية : إذ لا اعتناء لأهل البادية وعربان الوادي بفن الإنشاء جملة ؛ وإنما يكتبُ عنهم بحسب ما يقتضيه حالهم ، على أن فيما يأتون به مقنعا من الفصاحة والبلاغة بكل حال ، إذ عنهم قد علِم اللسان وعليهم فيه يُعَوَّل .

الطرف الرابع

(في الكتب الواردة إلى الأبواب السلطانية عن ملوك الهند)

قد تقدّم أن المكتّبة إلى صاحب الهند تُسبّه المكتّبة إلى القانات العظام بإيران وتوران . وتقدّم أن الكتب الواردة عن القانات المذكورين تكون في معنى الكتب الصادرة إليهم في قطع الورق والترتيب ، من حيث إن الغالب جريان العادة

في الأجوبة بأن تكونَ على تَمَطِ الكُتُب الواردة ، وحينئذ فيكون مقتضى ذلك أن الكتب الواردة من صاحب الهند في هيئة الكتب الصادرة إليه في قطع الورق وغيره ، فتكون في البغدادى الكامل بقلم مختصر الطومار بالطغراء والخطبة المكتبتين بالذهب ، إلى ما يجرى مجرى ذلك مما تقدم ذكره في المكتبات إلى القانات .

قلت : ولم أقف على صورة مكتبة من ذلك ولا على نسخة شيء ورد ، لكن قد تقدم في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية عند ذكر مملكة الهند أن من جملة ممالك الهند مملكة تُعرف بالسيلان ، وقد رأيت في تذكرة (محمد بن مكرم) التي جمعها في وقائع ديوان الإنشاء بالديار المصرية ؛ أنه في سنة أثنين وثمانين وستمائة ، وصل كتاب من صاحب السيلان هذه في صحيفة ذهب رقيقة ، عرض ثلاثة أصابع ؛ في طول نصف ذراع ، وحواله مدورة (حلقه) داخلها شيء بالخوص أخضر ، عليه كتابة تُشبه الخط الرومى أو القبطى ، فطلب من يقرؤه فلم يوجد ؛ فُسِّلَ الرُّسل عما هو مكتوب فيها . فقليل : إنه سيررسوله رومان ورفيقه ، وقصد أن يسير معهما الهدية إلى الباب الشريف ، فقليل له : ما لهم طريق . فقال لهم : سافروا إلى (هرمز) فحضروا إليها ، وذكروا أن مضمون الكتاب السلام ، والدعاء للسلطان ، وأن بلاد السيلان مضر ، وبلاد مضر السيلان ؛ وأنه ترك صحة صاحب اليمن مرة واحدة ، وتعلق بحجة مولانا السلطان خلد الله ملكه ؛ وسأل أن يحضر رسول من عند مولانا السلطان إلى عنده صحة رُسُله ، ورسول آخر إلى عدن ينتظر حضورهم من تلك الجهة على تلك الطريق ، وأن عنده الجواهر والألآئى والفيلة والقماش الكثير من البر وغيره ، وكذلك البقم والقرفة وجميع ما يطلب الكارم ، وأن عنده في كل سنة عشرين مربعا يسيرها إليه ، فيطلق مولانا السلطان التجار إلى

البلاد ، وأن رسول صاحب اليمن حضر في هذه السنة يتسلم التَّقَادِمَ والفَيْلَةَ حتَّى يسافروا إلى اليمن فردّه ، ولم يُعْطِه شيئاً ، وأنه يُعْبَى التَّقَادِمَ والفَيْلَةَ إلى أبواب مولانا السلطان ، وأنَّ بِمَمْلَكَةِ سَيْلَانَ سَبْعًا وَعَشْرِينَ قَلْعَةً ، وبها معادنُ الجَوْهَرِ والياقوتِ ومَغَاصُ اللُّؤْلُؤِ . ولم يزد على ذلك . ورأيت في كتاب ”الذيل“ على تاريخ ابن الأثير نحو ذلك ، وفيه ذكر البلاد التي مرّت عليها رسلُ صاحب السَّيْلَانَ في طُرُقها .

المقصد الثاني

(في المكاتبات الواردة عن ملوك الغرب)

والعادةُ الجاريةُ في الكتب الواردة عنهم أن تكونَ على تَمَطٍّ واحدٍ في الورق ، مع تقاربِ الحال في الترتيب ، وتكونُ كُتُبُهُمْ في طُومارٍ واحدٍ ، في عَرَضٍ نحو شبرين ، في طولٍ نحو ثلاثة أشبار ، والبسملةُ بعد بياضٍ نحو شبر وثلاثة أصابع مطبوقة من أعلى الطُّومار ، وعَرَضُ سبعة أصابع مطبوقة عن يمين البسملة ، والسُّطور منحطَّةُ الأوائل مرتفعةُ الأواخر حتَّى يصيرَ البياضُ الذي في أعلاها في آخر سَطْرِ البسملة قدرَ شبرٍ فقط ، وبين كلِّ سَطْرَيْنِ قدرُ عَرَضِ إصبعٍ ونِصْفِ إصبعٍ ، وكلُّ سطرٍ ينقص عن الذي فوقه قليلاً من جهة اليمين على التدريج ، حتَّى يكونَ السطرُ الآخر قطعةً لطيفةً في زاوية الطُّومار التي على اليسار من أسفل ، ثم يكتب بحاشية الطُّومار من أسفله آخذاً من آخر السطر الأخير ، ويكون بين ذلك وبين الكتابة الأصلية قدرُ رأسِ خِنْصِرٍ ، ويتبدى السطرُ الأوّل منها بقطعةٍ لطيفةٍ منحطَّةٍ الأوّل مرتفعةٍ الآخر ثم السطر الثاني قطعةً أطول من ذلك ، ولا يزال كذلك حتَّى يكمل السطر فيكتب أسطراً كاملةً ، إلا أنه في أوّل كلِّ سطرٍ ينقصه قليلاً عن الذي قبله حتَّى يكونَ السطرُ

الأخير قدر الأتملة في زاوية الطومار من جهة البسملة ؛ ويكون بين كتابة الأصل وبين كتابة الحاشية قدر إصبعين بياضاً إلى سمت البسملة ، أسطرًا متضايقة حتى ينتهى إلى آخر الكلام ؛ ويكتب في آخره بقلم الثلث : وكتب في التاريخ المؤرخ ، ويزاد فيه هاء مشقوقة راجعة إلى الخلف . وفيه جمل :

الجملة الأولى

(في المكتبة الواردة عن صاحب تونس)

وعادة مكاتبتة أن تفتتح بلفظ : « من عبدالله الفلاني » بقلب الخلافة الخاص به ، « أمير المؤمنين ابن فلان » . ويقال : في كل من آباءه أمير المؤمنين إن كان قد ولي الخلافة ويدعى له « إلى أخينا فلان » ويؤتى بالسلام والتحية ؛ ثم يتخلص بالبعدية إلى المقصد ، ويختم الكتاب .

وهذه نسخة كتاب عن المتوكل على الله أحمد بن أبي عبدالله بن أبي بكر ، إلى السلطان الملك الظاهر (برقوق) صاحب مصر ، جواباً عن كتابه إليه . وهو :

من عبدالله ، المتوكل على الله ، أمير المؤمنين « أحمد » ابن مولانا الأمير أبي عبدالله ، ابن مولانا أمير المؤمنين أبي يحيى أبي بكر ، ابن الأمراء الراشدين ؛ أعلى الله به كلمة الإسلام ، وضاعف نوافل سيفه من عبدة الأصنام ، وغض عن جانب عزه عيون حوادث الأيام .

إلى أخينا الذي لم تزل تُشاهد من إخوانه الكريم ، في ذات الرب الرحيم ، قبلة صفاء لم تغيرها يد بعاد ولا أنتراح ، وتناثر من حفظ عهده ، والقيام بحق وده ، على ما يؤكّد معرفة الخُلوص من لدن تعارف الأرواح ؛ ونبادر لما يبعث القلوب على الإبتلاف ، والأمن بفضل الله من عوائق الاختلاف ؛ وإن شحطت الدار وتنايت

الصور والأشباح . ونَعْتَرِفُ بما له من مَزِيدِ الإِعْظَامِ ، بِمَجَاوِرَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، وَالْقِيَامِ
بِمَا هُنَاكَ مِنْ مَطَالِعِ الْوَحْيِ الْكَرِيمِ وَمَشَاعِيرِ الصَّلَاحِ ، وَنَجْتَلِي مِنْ أَنْوَانِهِ الْكَرِيمَةِ
الشَّرِيفَةِ ، وَمَطَالِعِهِ الْعَالِيَةِ الْمُنِيفَةِ ، وَجُوهَ الْبَشَائِرِ رَائِقَةِ الْغُرَرِ وَالْأَوْضَاحِ . وَنَسْتَمْدِي
مَائِسُرُنَا مِنْ أَنْبَاءِهِ ، مِمَّنْ يَرِدُ مِنْ تِلْقَائِهِ ، حَتَّى مِنْ أَنْوَارِ الصَّبَاحِ وَسُقْرَاءِ الرِّيَّاحِ ، وَنَبْتَمِلُ
إِلَى اللَّهِ بِالْإِدْعَاءِ أَنْ يُخَبِّرَنَا عَنْهُ ، وَيُطَاعِنَا مِنْهُ ، عَلَى مَا يُقَرُّ عِيُونَ الْقَوَزِ وَيُشْرَحُ صُدُورَ
النَّجَاحِ - السُّلْطَانِ الْجَلِيلِ الطَّاهِرِ ، الْمَلِكِ الْأَعْظَمِ «الظَّاهِرِ» ، جَمَالِ الدِّينِ وَالْدُنْيَا ،
مُؤَيِّدِ كَلِمَةِ اللَّهِ الْعُلْيَا ، سَيْفِ الْمِلَّةِ الْمَرْهُوبِ الْمَضَاءِ ، بِيَدِ الْقَضَاءِ ، وَرُكْنِهَا الْبَاسِقِ
الْعَلَاءِ ، فِي أَوْجِ عِزِّهَا الْمُنْدَاحِ لِلْقَضَاءِ ، الْمَشْهُودِ لَهُ مِنْ لَدُنْ حُلِّ التَّائِمِ ، وَلَوْثِ الْعَائِمِ ،
بِالشَّهَامَةِ الَّتِي تُرْعِبُ الْأَسَدَ فِي أَحْجَاهَا ، وَتَسْتَخْذِمُ لَهُ سَائِرَ الْأُمَمِ : تُزَكِّيهَا وَعَرِّبَهَا
وَعَجِّمَهَا ؛ الْمُخْتَارِ لِلْقِيَامِ بِحَقِّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ ، فِي أَرْضِهِ وَبِلَادِهِ ، الْفَائِزِ مِنْ جَوَارِ بَيْتِ اللَّهِ
وَمَقَامِ خَلِيلِهِ ، وَمُشْرِعِ الْحُجَّجِ إِلَيْهِ وَتَيْسِيرِ سَبِيلِهِ ، بِمَا أَحْرَزَ لَهُ سَعَادَةَ الدَّارَيْنِ ، وَعِزَّ
الْمَقَامَيْنِ ؛ كَوْكَبِ السَّعْدِ الَّذِي شَقِيَتْ بِهِ أَعْدَاؤُهُ ، وَبَدَرَ الدِّينَ الَّذِي اسْتَضَاءَتْ بِهِ
أَنْحَاؤُهُ ، مِيزَانِ الْعَدْلِ لِإِنْصَافِ الْحَقُوقِ ، وَشَمْسِ الْهُدَايَةِ النَّيِّرَةِ الْغُرُوبِ وَالشُّرُوقِ ؛
(أَبِي سَعِيدِ بَرَقُوقِ) وَصَلَ اللَّهُ لَهُ رَتَبَةً رَاقِيَةً يَنْبُؤُا بِمَحَلِّهَا ، وَنِعْمَةً بَاقِيَةً يَتَقَيَّا ظِلَّهَا ،
وَعِزَّةً وَاقِيَةً تَسِمُ وَجُوهَ أَعْدَائِهِ خَسَفَهَا وَدُظَّلَهَا ، بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .

سَلامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

وَبَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ نَازِمِ الشَّمْلِ وَقَدْ رَابَ ثَرُّهُ وَشَتَاتُهُ ، وَجَابِرِ الصَّدْعِ وَقَدْ آتَسَعَتْ
عَنِ الْجَبْرِ جِهَاتُهُ ، وَرَادَّ الْأَمْرِ وَقَدْ أَعْيَا ذَهَابُهُ وَفَوَاتُهُ ، وَوَاصِلِ الْجَبَلِ وَقَدْ آسْتَوَلَى
انْقِطَاعُهُ وَأَنْبَتَاتُهُ ، الْعَالِمِ الَّذِي لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِمَّا تُكِنُّهُ أَرْضُهُ وَسَمَوَاتُهُ ،
الَّذِي قَرَنَ بِالْعُسْرِ يُسِّرًا ، وَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ، فَلَا تَحْزَنُكَ ذَرَّةٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَلَا يَكُونُ
فِي مُلْكِهِ إِلَّا مَا تُفْقِذُهُ أَحْكَامُهُ وَإِرَادَاتُهُ .

والصلاة والسلام الأكين ، على سيدنا ومولانا محمد رسول الله الذي صدقت
بالحق آياته ، وقامت بحجة دعواه معجزاته ، ونطقت بأنه رسول الله على لسان
وجيه الصادق الأمين كلمته ، المبعوث بالملة السمحة ، ومن أركاها حج بيت الله
المقدسة أركانه ومجراته ، المعظمة عند الله حرمانه ، المغفورة ان سبقت له الحسن
بحجه سيئاته ، وعلى آله وأصحابه الذين قضوا رضى الله عنهم وهم أولياء دينه الكريم
وولائه ، وأنصار حربه المفلح وحماته ، وليوث دفاعه فى صدور الأعداء وكلماته .
والرضا عن الإمام المهدي القائم بهذه الدعوة الموحدة قيام من خالصت لله نيافته ،
وصدقت فى ذاته دعواته ، وصممت لإظهار دينه القويم عزماته ؛ وصلة الدعاء
لهذا المقام الأحمدي المتوكل الفاروقى ، بنصر ترضى به فى صدور أعدائه شبائمه ،
وعز يطرد به استقلاله وثباته ، وسعد تطيب به أيامه المتصلة وأوقاته ، وتطول
به حياته .

فإننا كتبنا لسلطانكم - كتب الله لكم من إسناده ما يتكفل بعزه ونصره ، ويتضمن
إطالة زمنه المبارك وعصره ، ويقوم بحفظ قطره الشريف ومصره - من حضرتنا
العلية "تونس" كلاًها الله تعالى ، ووجوه نصر الله العزيز لدينا وضاحة الأسرة
متبلجة الصور ، وآيات فتحه المبين والله المنة محكمة السور ، وأحاديث الشكر على نعمه
سبحانه سلسلة الخبر ، وبشرنا بما من الله به عليكم قد عمل بمقتضاه من تحت
إيالتنا الكريمة من البشر . وإلى هذا فوجهه إليكم بعد تقريب حب شرعت فى مله
الوفاء قواعده ، وقيل فى عقد الصفاء شاهده ، وأستقل بصلة الخلوص عائده ، وثبت
فى مرسوم الصداقة الصادقة زائده ؛ إعلامكم أنا علم الله من حين اتصل بنا خبركم
الذى جره القدر المقدور ، وجرى به فى أم الكتاب الحكم المستطور ، لم نزل نتوجه إلى

(١) مراده من تحت حكمتنا وسياستنا .

الله تعالى في مَطَانَّ قُبُولِ الدَّعَاءِ ، وَرَفَعِ الدَّعَاءِ ؛ بَأَن يُجَبِّرَكُمْ بِفَضْلِهِ مِنْ حَيْثُ صَدَعَ ، وَيَصِلَكُمْ بِخَيْرِهِ إِثْرَ مَا قَطَعَ ، وَيُعْطِيَكُمْ مِنْ نِعْمَتِهِ أَضْعَافَ مَا مَنَعَ ، إِلَى أَنْ دَارَكَ اللَّهُ بُلْطَفَهُ وَأَجَابَ ، وَتَأَذَّنَ بِفَضْلِهِ فِي قُبُولِ الدَّعَاءِ بظَهْرِ الْغَيْبِ وَهُوَ مُسْتَجَابٌ ، فَرَدَّ عَلَيْكُمْ مُلْكَكُمْ ، وَصَرَفَ إِلَيْكُمْ مِلْكَكُمْ ، فَأَخَذَ الْقَوْسَ بَارِيهَا ، وَفَوْقَ السَّهْمِ مَقَرِّطُهَا وَرَامِيهَا ، وَأَنْفَذَ الْقَضَايَا حَكْمَهَا وَمُقْتِنَهَا ، وَإِذَا كَانَ الْعَوِيلُ يُفْضِي إِلَى النَّجْدَةِ ، وَالْبِلَا يُقْضِي بِالْحَدَّةِ ، وَالْفَرْجُ يُدَافِعُ فِي صَدْرِ الشَّدَةِ ، فَلَا جَرَمَ خَفَرَ اللَّهُ لِلْأَيَّامِ مَا اقْتَرَفَتْ ، لَمَّا أَنْابَتْ وَاعْتَرَفَتْ ، وَهَلْ هُوَ إِلَّا التَّحِيصُ الْإِلَهِيُّ أَرَاكُمْ اللَّهُ مِنْ بَاطِنِ الصَّرَاءِ سَرَاءَكُمْ ، وَأَجْزَلَ مِنْ جَانِبِ الْغَمَاءِ نَعْمَاءَكُمْ ، وَالتَّبَرُّعُ بَعْدَ السَّبْكِ يُرَوِّقُ النُّوَاطِرَ خُلَاصَةً نُضَارِهِ ، وَالبَدْرُ بَعْدَ السَّرَّارِ تَتَأَلَّقُ أَشْعَةُ أَنْوَارِهِ .

ولما جاءنا بِنَصْرِكُمُ الْبَشِيرِ ، وَطَلَعَ مِنْ ثَنِيَةِ الْهَنَاءِ بِأَكْثَامِ السُّرُورِ إِلَيْنَا يُشِيرُ ، هَزَزْنَا لَهُ أَعْطَافَ الْأَرْتِيَاخِ ، وَتَلَقَّيْنَا مِنْهُ وَارِدَ التَّهَانِي وَالْأَفْرَاحِ ، وَحَمَدْنَا اللَّهَ لَكُمْ عَلَى مَا مَنَّ بِهِ مِنَ الْفُوزِ وَالتَّجَاحِ ؛ وَرَأَيْنَا أَنَّ تَهْنِئَتَكُمْ بِهِ مِنْ فُرُوضِنَا الْمُؤَكَّدَةِ ، وَعُهُودِنَا الْمُجَدَّدَةِ ، وَأَنَّهُ لَا يَقُومُ بِهِ عَنَّا هُنَا لَكُمْ ، وَيُودَى مَا يَجِبُ مِنْهُ بَيْنَ يَدَيِ كُرْسِيِّ جَلَالِكُمْ ، إِلَّا مَنْ لَهُ مِنْ دِيَارِ الْمُلُوكِ ، قُرْبُ الْأَدَبِ وَالسُّلُوكِ ؛ فَاقْتَضَى نَظَرُنَا الْجَمِيلُ أَنَّ عَيْنًا لَهُ شَيْخَ دَوْلَتِنَا الْمُسْتَشَارِ ، وَعَلَمَهَا الَّذِي فِي مُهَمَّاتِهَا إِلَيْهِ يُسَارُ ، فَلَان .

وَقَدْ كَانَ مِنْذُ أَعْوَامٍ يَتَطَارَحُ عَلَيْنَا فِي أَنَّ نُحْلِيَ لِلْحَجِّ سَبِيلَهُ ، وَنُبَلِّغَهُ مِنْ ذَلِكَ مَأْمُولَهُ ، وَنُذِ الصَّنَةَ لَا تَسْمَحُ بِهِ طَرَفَةٌ دِينٍ ، وَنَفْسُ الْإِعْتِبَاطِ لَا تُجِيبُ فِيهِ دَوَاعِيَ الْبَيِّنِ ، إِلَى أَنْ تَعَيَّنَ مِنْ تَهْنِئَتِكُمُ الْكَرِيمَةِ مَا عَيْنَتَهُ ، وَسَمَّلَ شَأْنَهُ عَلَيْنَا وَهَوْنَهُ ، فَوَجَّهْنَاهُ وَاللَّهُ تَعَالَى يُسْعِدُ وَجْهَتَهُ ، وَيَجْعَلُ حُجَّتَهُ لِقَبُولِ الْأَعْمَالِ حُجَّتَهُ . وَحَمَلْنَاهُ مِنْ أَمَانَةِ الْحُبِّ مَا يُلْقِي إِلَيْكُمْ ، وَمِنْ حَدِيثِ الشُّوقِ مَا يَقْضِي أَخْبَارَهُ عَلَيْكُمْ ، وَمِنْ طَيِّبِ الشَّنَاءِ مَا يُفِضُ خِتَامَهُ

بين يديكم، وأصحبناه برسم إصطبلاتكم الشريفة مايسر الحب سبيلها، وأوضح الخلوص دليلاً، ورجونا من فضلكم على نزارتها قبولها، إذ لو كانت الملوك تُهادى على قدر جلالها، لما أنسعت لذلك خزان أموالها، لكنّها عنوان الحبّ السليم، حسب ما اقتضاه الحديث النبوي الكريم .

وفي أثناء شرونا في ذلك، وسُلوكتنا منه أيمن المسالك، وصل إلينا كتابكم الكريم، تعرف النواظر في وجوه بشارته نضرة النعم، فأطلعنا منه على ما راق العيون وصفا ونعتا، وعبر للخلوص سبيلا لا ترى القلوب فيها عوجاً ولا أمناً، والله هو من كتاب كتب من البيان كتاب، وأستأثر بفلك الإجابة فأحرز به سعادة الكاتب، فقسمنا بالقلم وما سطر! والحبر وما حبر! لو رآه عبد الحميد لتركه غير حميد، أو بصر به ليبد لأعاده في مقام يلد، ولو قصص على قس إباد فصاحته لتزله عن منبر خطابه بعكاز، أو سحب على سحبان وائل ذيل بلاغته لأراه كيف يتولد السحر الحلال بين المعاني الرائقة والألفاظ .

ولما استقرينا من فحواه، وخطابه الكريم ونحوه، تشوقكم لأخبار جهادنا، وسروركم بما يُسنيه الله من ذلك بلادنا، رأينا أن نُخف أسمعكم منه بما قوت به أعين الإسلام، وأُتلج صدور الليالي والأيام . وذلك أنا من حين صدر من عدو الملة في الجزيرة ماصدر، حسب ما جرّه محتوم القدر، لم نزل يُبج لأساطيلنا المنصورة حرمة وحماه، ونطرق طروق الغارة الشعواء بآلده وقراه، ونكتسح بأيدي الاستلاب ما جمعت بها يده، إلى أن ذاقوا من ذلك وبأل أمرهم، وتعرفوا عاقبة مكرم .

وكان من جزائهم المعترضة شجاً في حُلوق الخطار، ومتجشمي الأخطار، وزكّاب البحار : من الحجاج والتجار، جزيرة "غودش" وبها من أعداء الله جم كثير، وجمع

كبير، فأرسلنا عليهم من أسطولنا المنصور غير أننا نعت عليهم بالمنون، وعرفت المسلمين بركة هذا الطائر الميمون، وشحنها عدداً وعدداً، وأستمددنا لها من الله ملائكة سمائه مدداً، فسارت تحت أجنحة النجاح إليها، وتحوم إلى أن رمت محالب مراسيها عليها؛ فلما نزلوا بساحتها، وكبروا تكبيرة الإسلام لإباحتها، بهت الذي كفر، وودَّ الفرار والحين يناديه أين المَقْرَب؟ فلما قضى السيف منهم أوطاره، وشفى الدين من دماهم أواره، وشكر الله من المسلمين أنصاره، عمدوا إلى ماتخطاه السيف من والدٍ وولد، ومن أخلد إلى الأرض من رجالهم عن المدافعة فلم يعترضه بالقتل منهم أحد، فجمعوا منهم عدداً يُنيف بعد الأربعانة على الأربعين، وجاءوا بهم في الأصفاد مقرنين، وأمتلأت بغنائمهم والحمد لله أيدي المسلمين، وأقبلوا فرحين بما آتاهم الله مستبشرين، إلى أن دخلوا حضرتنا العلية بسلام آمنين .

فعرّفناكم بهذا الفتح : لتأخذوا بحظكم من شكر الله عليه، وتوجهوا في مثله بصالح أدعيتكم إليه ، وهو سبحانه وتعالى يطاعنا ويطلعكم على ما يسر النفوس ويهينها ، ويحول وجوه البشائر ويبيديها ، بمنه وكرمه ، والسلام العطر المحيا الجميل المحيا عائدة عليكم ورحمة الله وبركاته .

الجملة الثانية

(في المكاتبات الواردة عن صاحب "تلمسان" من بني عبد الواد)

ورسم مكاتبه فيما وقفت عليه في المكتبة الواردة على صاحب الديار المصرية أن يبدأ الكتاب بقوله : إلى الحضرة الفلانية حضرة فلان - بالألقاب المعظمة المفحمة ثم يدعى له بما يناسب الحال ، ويؤتى بحُطبة ، ثم بالسلام ؛ ويقع الخطاب في أثناء الكتاب بالإخاء بلفظ الجمع ، ويُختم بالدعاء المناسب .

كما كتب عبد الرحمن بن أبي موسى بن يغمَراسن ، إلى السلطان الملك الناصر (محمد بن قلاوون) في سنة خمس وعشرين وسبعمائة :

إلى الحضرة العالية السامية ، السنية ، الماجدة ، المحسنة ، الفاضلة ، المؤيدة ، المظفّرة ، المنصورة ، المالكة ، حضرة السلطان ، الملك ، الجليل ، الفاضل ، المؤيد ، المنصور ، المظفّر ، المعظم ، ناصر الإسلام ، ومُذلّ عبدة الأصنام ؛ الذى أيدّه الله بالبراهين القاطعة ، والأنوار المنيرة الساطعة ، الأعلى ، الأوحد ، الأكل ، الأرفع ، الأمجّد ، الأسمى ، الأشرى ، ذى المجد الظاهر ، والشرف الباهر ، الملك الناصر ، ابن السلطان ، الملك ، الجليل ، العادل ، الفاضل ، المؤيد ، المظفّر ، الأعلى ، الأوحد ، الأكل ، الأرفع ، الأمجّد ، الأسمى ، الأشرى ، ناصر الإسلام والمسلمين ، ومُعَلّي كلمة الموحّدين ، المقدّس ، المرحوم ، ذى المجد المشهور ، والفخر المنشور ، والذكر المدخور ، الملك المنصور ، أدام الله علوّ قدره فى الدنيا والآخرة ، وأسبغ عليه نعمه باطنة وظاهرة ، وجعل وجوه محاسنهم فى صفحات الدهر سارة سافرة ، وصفقة أعدائهم خائبة خاسرة .

وبعد حمد الله الذى أظهر الأمر العلى الناصرى وأيدّه ، وبسط فى قول الحق وفعله لسانه ويده ، وسدّد نحو الصواب منحاه كلّ ومقصّده ، والصلاة التامة المباركة على سيدنا محمد رسوله المصطفى ، الذى خصّه الله بعموم الدعوة وأفرّده ، وقرّن ذكره بذكره فأبقاه أبد الدهر وخلّده . والرضا عن آله الكرام ، وصحّابته الأعلام ، الذين حفظوا بالتوقير والتعزير مغيبه ومشهده ؛ وكأُتوا عند استللال السيوف ، وبجبال الحُتوف ، عدده المظفّر وعدده . والدعاء لذلّكم المقام الشريف بسعيد يطيل فى شرف الدين والدنيا مدّده وأمدّه .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، من أخيكم، البرّيكم، الحريص على تصافيكم،
عبد الرحمن بن أبي موسى بن يغمراسن . وإنا كتبناه إليكم كتب الله لكم أنجح
المقاصد وأرخصها، وأثبتها عزاً وأوضحها، من حصن "تلمسان" حرسها الله تعالى،
ولا ناشئ بفضل الله تعالى إلا ما عوّد من بشارتكم جيادها، ومسار يتناول
إلى المزيد أعتيادها - وإلى هذا أعلى الله كلمتكم، وأمتع المسامين بطول بقائكم،
فإنا نعرفكم بوصول كتابكم الخطير الأثير، فتلقيناه بما يجب من التكريم والتعظيم،
وتتبعنا فصوله، وأستوعبنا فروعه وأصوله، وتحققنا مقتضاه ومحصوله، وعلمنا
ما أنطوى عليه من المنن والإفضال، واشتمل عليه من التفصيل والإجمال، ومن أعظم
ذلك إذنكم لنا في أداء فرض الحج المبرور وزيارة سيد البشر، الشفيع في المحشر،
الذي وجبت له نبوته، ومُنَى الغيب عليه مُنْذِل، وآدم صلوات الله عليه في طينته
مُنْجِل، ودلم الله أننا لم نزل آمالنا متعلقة بلكم المشاعر الكريمة، وقلوبنا متشوقة
إلى تلك المشاهد العظيمة؛ فلنا في ذلك نيات صادقة التّخويم، وعزّات داعية
التصميم، وكان بودّنا لو ساعدنا المقدار، وجرى الأمر على ما نحبّه من ذلك ونختار،
أن نمتّع برؤية المواطن التي تُقَرّ أبصاراً، ويُشفي بها إيراداً وإصداراً، ولعلّ الله
تعالى ينفعنا بخالص نياتنا، وصادق طويّاتنا، بمنه وكرمه .

وقد وجب شكركم علينا من كلّ الجهات، وأتّصلت المحبة والمودة طول الحياة،
غير أنّ في قلوبنا شيئاً من ميلكم إلى غيرنا وأستئناسكم، ونحن والحمد لله أعلم الناس
بما يجب من حقوق ذلكم المقام الشريف، ولنا القدرة على القيام بواجبكم، والوفاء
بكرم حقكم، وليس بيننا وبين بلادكم من يُحشَى والحمد لله من كيدته، ولا يُبالي بهزله
ولا جدّه، وقد توجه إلى بابكم الشريف قرأبنا الشيخ الصالح الحسيب الأورع
الأكل الزاهد أبو زكريّا يحيى ابن الشيخ الصالح المرباط المقدّس المرحوم أبي عبد الله

محمد، بن جرار الوادى، وهو من أهل الدين والخير، وقد شافهناه بما يُلقيه إلى ذلك المقام الشريف من تقرير الود والإخاء، والمحبة والصفاء، مما يعجز عنه الكتاب؛ فالمقام الشريف يثق إلى قوله ويعامله بما يليق ببيته ودينه. وغرضنا أن نعرفه بجميع ما يصلح لذلك المقام الشريف مما في بلادنا، ويصلحكم إن شاء الله في أقرب الأوقات، على أحسن الحالات، ولكم بذلك علينا المنة العظمى، والمزية القصوى، والله تعالى يُبقي ذلك المقام الشريف محروس المذاهب، مشكور المناقب؛ إن شاء الله تعالى.

الجملة الثالثة

(في المكاتبات الواردة عن صاحب "فاس" إلى الأبواب

السلطانية، بالديار المصرية)

وعادة كتبهم أن تفتح بلفظ « من عبد الله فلان أمير المسلمين ». وأول من كتب منهم أمير المسلمين « يوسف بن تاشفين » حين استولى على المغرب، قبل بنى مرين، خضوعاً أن يتلقب بأمر المؤمنين مضاهاةً للخلفاء. وهو :

من عبد الله على أمير المسلمين، وناصر الدين، المجاهد في سبيل رب العالمين، ملك البرين، ومالك العدوتين، أبي سعيد، ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، ملك البرين، وسلطان العدوتين، أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، ملك البرين، وسلطان العدوتين، القائم لله بإعلاء

(١) كذا في الأصل الوحيد وصوابه "أبي الحسن" كما يؤخذ مما تقدم في الكلام على ملوك فاس من أن علياً هذا يكنى أبا الحسن وأنه ابن السلطان أبي سعيد عثمان ابن السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق فعمل ما في الأصل من أعمال النسخ فتنبه.

دين الحق ، أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق ، منح الله التأييد مقامه ، وفَسَحَ لفتح
معاقِل الكفر وكَسَرَ حِجَاف الصُّفَر أَيْامَهُ .

إلى السلطان ، الجليل ، الكبير ، الشهير ، العادل ، الفاضل ، الكامل ، الحافل ،
الملك ، الناصر ، المجاهد ، المُرَاطِط ، المتناغر ، المؤيَّد ، المظفَّر ، المنصور ، الأسعد ،
الأضعد ، الأرقى ، الأوفى ، ناصر الدنيا والدين ، وقامع البُغَاة والمعتدين ، مُفِيد الأوطار ،
مُيِيد الكُفَّار ، هازِم جيوش الأرمن والفرنَج والكُرَج والتتار ، مَالِي صُدُور البراري
والبحار ، حامِي القِبْلَتَيْن ، خَدِيم الحرمين ، غِيث العُفَاة ، عَوْن العُتَاة ، مُصَرِّف
الكَتَائِب ، مُشَرِّف المَوَاقِب ، ناصر الإسلام ، نَاشِر الأعلام ، فَخِر الأَنام ، ذُنُور الأَيَّام ،
قَائِد الجُنُود ، عَاقِد البُنُود ، حَافِظ الثُّغُور ، حامِي المَجْهُور ، نِظَام المَصَالِح ، بَقِيَّة السَّلَف
الصالح ، ظهير الخِلافة وَعَضُدُهَا ، وَلِيَّ الإِمَامَةِ وَسِنْدُهَا ، عَاضِدِ كَلِمَةِ المُوَحِّدِينَ ، وَلِيَّ
أَمِير المُؤْمِنِينَ ، أَبِي المَعَالِي (محمد) أَبْنِ السُّلْطَان ، الكبير ، الجليل ، الشهير ، الشهيد ،
الخطير ، العادل ، الفاضل ، الكامل ، الحافظ ، الحافل ، المؤيَّد ، المظفَّر ، المعظَّم
المبجَّل ، المكبَّر ، الموقَّر ، المعزَّز ، المجاهد ، المُرَاطِط ، المتناغر ، الأُوحد ، سيف الدين
(قلاوون) أَدَامَ اللهُ فَضْلَ عِزِّهِ المَاضِي بِتَأْيِيدِهِ ، وَأَدَارَ الأَفْلاكَ بِتَشْيِيدِ مُلْكِهِ
الشَّامِخِ وَتَمْهِيدِهِ ، وَطَهَّرَ أَرْجَاءَهُ مِنْ أَرْجَاسِ المُنَافِقِينَ ، وَأَذْنَسَ المَارِقِينَ ، بِمَا يُرِيقُ
عَلَيْهَا مِنْ دِمَائِهِمْ ، فَمَا كُلُّ مُتَطَهَّرٍ يُجْزَى عَنْهُ غَسْلُ مَائِهِ أَوْ تَيْمُّ صَعِيدِهِ .

سَلامٌ كَرِيم ، طَيِّبٌ عَمِيم ، أَرْجَ السَّعِيم ، مَتَّصِعٌ النَّسِيم ، تَسْتَمِدُّ الشَّمْسُ بِأَهْرِ
سَنَائِهِ ، وَيَسْتَعِيرُ الْمَسْكُ عَاطِرَ شَدَائِهِ ، يُخْصُّ إِخَاءَ كَمِ الْعِلَى ، وَوَقَاءَ كَمِ الْوَفَى ،
وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتِهِ .

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ الَّذِي أَيْدَى المُؤْمِنِينَ ، عَلَى عُدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ، وَعُرِفَ
الإِسْلَامُ وَأَهْلُهُ مِنَ السَّرِّ الْعَجِيبِ ، وَالصَّنْعِ الْغَرِيبِ ، مَا فِيهِ عِبْرَةٌ لِّلْسَامِعِينَ وَالنَّاظِرِينَ ؛

حِكْمَةٌ عَجَزَتْ عَنْ فَهْمِ سِرِّهَا الْمَكْتُومِ ، وَقَصُرَتْ عَنْ كُنْهَيْهَا الْمُخْتُومِ ، أَلْبَابُ عَيْسِدِهِ
الْقَاصِرِينَ . وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ الَّذِي أَرْشَدَ بِهِ الْخَائِدِينَ
الْخَائِرِينَ ، وَأَرْسَلَهُ بِالْمُهْدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ بَرِّغَمَ الْخَاحِدِينَ
الْكَافِرِينَ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَيْهِ وَبَلَدَهُمْ هَجَرُوا ، وَالَّذِينَ آوَأْ مِنْ أَوَى
إِلَيْهِمْ وَنَصَرُوا ، وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِي اللَّهِ فَصَبَرُوا ، فَفَازُوا بِذِكْرِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ
وَأَجْرِ الْمُجَاهِدِينَ الصَّابِرِينَ ، وَصِلَةِ الدُّعَاءِ لِحَزْبِ الْإِسْلَامِ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا
بِفَضْلِ لَا يَزَالُونَ مَعَهُ لِأَعْدَائِهِمْ قَاهِرِينَ ، وَسَعْدٍ لَا يَنْفَكُونَ لَهُ بِأَمَلِهِمْ ظَافِرِينَ ،
وَنَصْرِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ .

فَإِنَّا كَتَبْنَا لَكُمْ - كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ مَجْدًا مَدِيدَ الظَّلَالِ ، وَعِضْدًا حَدِيدَ الْإِلَالِ ، وَسَعْدًا
جَدِيدَ السَّرْبَالِ - مِنْ مَنْصُورَةِ "تَيْلَسَان" حَرَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى ، وَالصَّنَائِعُ الرَّبَّانِيَّةُ تُكَيِّفُ
الْعَجَائِبَ ، وَتُعَرِّفُ الْعَوَارِفَ الرِّغَائِبَ ، وَتَسْنِفُ الْأَسْمَاعَ بِمَا تُسْمِعُهَا مِنْ إِجْزَالِ
الْمُنُوحِ وَالْمَوَاهِبِ ، وَتُقَوِّفُ الرِّقَاعَ بِمَا تُودِعُهَا مِنْ أَحَادِيثِ الْفُتُوحِ الْغَرَائِبِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
عَلَى مَا يَسَّرَ مِنَ الْمَأْرَبِ ، وَسَهَّلَ مِنَ الْمَوَاهِبِ . وَإِخَاؤُكُمْ الصَّادِقُ مَبْرُورُ الْجَوَانِبِ ،
مَأْثُورُ الْمَنَاقِبِ ، مُشْرِقُ الْكَوَاكِبِ ، مُغْدِقُ السَّحَابِ ، نَائِي الْمَرَاتِبِ ، سَائِي الْمَرَاقِبِ ،
وَاللَّهُ تَعَالَى يُثَبِّتُهُ فِي ذَاتِهِ ، وَيَقِيهِ مِنْ صَرْفِ الدَّهْرِ وَأَذَاتِهِ . وَإِلَى هَذَا وَصَلَ اللَّهُ
لَكُمْ سَعْدًا جَدِيدًا ، وَجَدًا سَعِيدًا ، وَمَجْدًا حَمِيدًا ، وَحَمْدًا مَجِيدًا ، فَقَدْ وَصَلَ كِتَابُكُمْ
الْأَثِيرَ ، الْمُزْرَى بِالْمَسْكِ الثَّيْرِ ، فَاجْتَلَيْنَا مِنْهُ رَوْضَةً جَادَهَا الْبَيَانُ فَأَمْرَعَهَا ، وَرَادَهَا الْبَيَانُ
فَوْشَعَهَا ، وَاجْتَنَيْنَا مِنْ غُصُونِ سَطُورِهِ ثَمَرَاتٍ وَدَادٍ مَا أَيْنَعَهَا ، إِنْبَاءً عَمَّا تَلَقَّاهُ الْإِخَاءُ
الْكَرِيمُ مِنْ قَبْلِ الشَّيْخِ الْأَجَلِّ ، أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَرَّاحِ مَا عَنَّا تَحْمَلُ ، وَفِي إِفْقَائِهِ

وأدائه بمحضرتكم الكريمة أحسن وأجمل ، وهو ما كان عليه عزُّم مولاتنا الوالدة
ألحقها الله تعالى رضوانه ، وبوقاها جنانه : من حج البيت المحرم ، وزيارة [القبر] المعظم
المكرم ، والصلاة بالمسجد الحرام ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، وثالثها في شد
الرحال المسجد الأقصى ونعم المغنم ، وقضاء النُكس بتلك المناسك والمشاهد ، والتبرُّك
بتلك المعالم المنيعة والمعاهد ، وما وصّف مع ذلك بهذا الجانب الغربي ، ورصّف
من أمر قتالنا لكل مارق أبي وكافر حرّبي ، وما منحنا الله من تدبير لعلوب أهل
الإيمان مبهِج ، ولصُدور عبدة الصُّلبان مُحرج ، وأن الإخاء الكريمة حصل له بذلك
أبهى آتِهاج ، وحلّ منه محلّ القبول الذي آتِهاج له من آقنى سبيل القصد أنهى
آتِهاج ؛ فعقد العزم على تلقى الوافد من تلقائنا ، والوارد رجاء أداء فرض الحج من
أرجائنا ، بتسهيل سبيله ، وتيسير آرتحاله إلى بيت الله ورسوله ، وأنه متى وقع الشعور
بمقدم المولاة رحمها الله تعالى على يلاذه ، وقرّبها من جهاته المجودة من جود جوده
بمهاده ، يقدم للخروج من يتلقّى ركبها ، ويعتمد بالبر والتكريم جانبها ، حتى تحمد وجهتها
الشريفة بجمل نظره وإيابها ، وقام عنا بما نوّده من برّها ، وساهم فيما تُقدّمه إلى الله عزّ
وجلّ من صالح أجرها . وقد قابلنا هذا الفضل من الشكر بأجرله ، ومن البرّ بأخفاه
وأحفله ، وحصل لدينا بإزائه سليم وُدّه وكريم إخوانه ، من تخليص ولّائه ، وتمحيص
صفائه ، ممّا لا يزال عهده الأنيق في نهائه ، وحقّده الوثيق في أزياده ونمائه ، وغُصّنه
الوريق في رونق غلوائه ، ولئن كانت المولاة الوالدة قدّس الله روحها ، وبرّد ضريحها ،
قد وافّت بما قدّمت عند الله من صالح العمل ، وماتت على ما أبرمت في قصد البيت
الشريف من نيّة وأمل ، اذ كانت رحمة الله تعالى عليها قد تاهبت لذلك ، واعتدّت
لسلوك تلك المسالك ، وأداء ما فرض الله من السعاية والمناسك ، وعلى الله إجزال
نواياها ، وعنده نحتسب ما ألمّ فآلم من مصابها - فإنّ لدينا من يمتّ بمحرمة الحرم إلينا ،

ويلزم بحق التربية علينا ، من يقومُ عندنا مقامها ، ويرومُ من ذلك المقصد الشريف مرَّامها ، وسنُوردها إن شاء الله تعالى على تِلْكَمِ الْبَقَاعِ ، ونُوردها من تِلْكَمِ الْأَفْطَارِ والأَصْفَاعِ ؛ ما يَجْمَلُ بِحُسْنِ نَظَرِكُمْ مَوْرِدُهُ وَمَصْدَرُهُ ، وَيَطَّابِقُ فِي جَمِيلِ اعْتِنَائِكُمْ وَحَفِيلِ احْتِفَالِكُمْ خَبْرَهُ وَخَبْرَهُ ، بِفَضْلِ اللَّهِ وَعُونِهِ .

وأما تشوقُ ذلِكِمِ الْإِخَاءِ ، لمواصلةِ الْكُتُبِ بِسَارِّ الْأَنْبَاءِ ؛ فَإِنَّ مِنْ أَقْرَبِهَا عَهْدًا ، وَأَعْدِيهَا حَدِيثًا يُهَادِي وَيُهْدِي ، ما كان من أمرِ الْعَاقِ قَاتِلِ أَبِيهِ ، الْحَالُّ مِنْ إِقْلِيمِ تِلْهَسَانَ وَمَالِكهَا بِالْحِلِّ النَّبِيِّ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ أَسْلَافَهُ بَنِي زِيَّانَ ، كَانُوا قَدْ آسَتَوْا عَلَى هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ فِي سَالِفِ الزَّمَانِ ، وَلَمْ يَزَلْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَسْلَافِ الْمُخْتَوِينَ عَلَى مُلْكِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى وَقَائِعِ تَوْرِدِهِمُ الْحِمَامِ ، وَتَذِيقِهِمُ الْمَوْتَ الرُّؤَامِ ، فَيَدْعُونَ الْمَنَازِعَةَ ، وَيَعُودُونَ لِلْوَادِعَةِ ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثُوا ، أَنْ يَنْكَبُوا ، وَلَمْ يَضُرُّوا ، أَنْ يَغْدِرُوا ، إِلَى أَنْ كَانَ مِنْ حِصَارِ عَمَّا الْمُقَدَّسِ الْمَرْحُومِ أَبِي يَعْقُوبَ قَدَسَ اللَّهُ تَرْبَتَهُ لِيَاْهُمْ ، فَأَكْثَرَ مَوْتَهُمْ وَكَدَّرَ حَيَاتَهُمْ ، وَتَمَادَى بِهِمُ الْحِصَارُ تِسْعَ سِنِينَ ، وَمَا كَانُوا غَيْرَ شَرِذِمَةٍ قَلِيلِينَ ، وَهُنَالِكَمُ اتَّصَلَتْ بَيْنَكُمَا الْمُرَاسَلَةُ ، وَحَصِلَتْ الصَّدَاقَةُ وَالْمُوَاصَلَةُ ، ثُمَّ حُمِّمَ مَوْتُهُ ، وَتَمَّ قُوَّتُهُ ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَوْمَهُ ، وَرِضْوَانَهُ يَشْمَلُهُ وَيُعِمُّهُ ، فَفُتِّسَ خِنَاقُهُمْ ، وَعَادَ إِلَى الْإِبْدَارِ مُحَاقُهُمْ ، وَصَرَفَ الْقَائِمُ بَعْدَهُ عَنْهُمْ الْحَيْنَ ، عَمَّا كَانَ هُوَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَدْ طَوَّعَهُ مِنْ بِلَادِ مَغْرَاوَةٍ وَتَحِينَ ، فَأَتَسَّعَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسَالِكُ ، وَمَلَكُوا مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ لِأَوَائِلِهِمْ طَمَعٌ مِنَ الْمَالِكِ ، لَكِنَّ هَذَا الْخَائِنَ وَعَمَّهُ كَانَا مِنْ أَسَارَتِهِ الْفِتَنِ ، وَعَمَّ بِهِ فِيهَا غَوَامِرُ الْمِحَنِ ، فَسَلَكَا مَسْلَكَ أَسْلَافِهِمَا فِي إِذَاعَةِ الْمُهَادَنَةِ ، وَالرَّوْغَانِ عَنِ الْإِعْلَانِ بِالْمُقَاتَلَةِ .

ولما سَوَّلَ الشَّيْطَانُ لِهَذَا الْعَاقِ قَتْلَ وَالِدِهِ ، وَالْإِسْتِيلَاءَ عَلَى طَارِفِهِ وَتَالِدِهِ ، لَمْ يَقْدَمْ عَمَلًا عَلَى إِشْخَاصِ إِرسَالِهِ بِحَضْرَةِ مَوْلَانَا الْمُقَدَّسِ أَبِي سَعِيدٍ ، قَدَسَ اللَّهُ

مَنَواهُ ، وجعل الجنة مأواه ، في السَّلمِ راغباً ، ولِلْحُكْمِ بمُؤَادِعِهِ طالبا ، فاقْتَضَى النظر المَصْلِحِيَّ حِينَئِذٍ موافقته في غَرَضِهِ ، وإن كان باطنه على مَرَضِهِ ، فَقَوَّى أمره ، وَضَرَى ضُرَّهُ ، وَشَرَى شَرَّهُ ، وَوَقَدَ تحت الرماد جمره ، وسرى إلى بلادِ جيرانه الموحدين دأؤه ، وطال عليهم تضييقُه واعتدائُه ، واستشعر ضعفهم عن مدافعتِه ، وهَنَمَ عن مقاومتِه ومنازعتِه ، فبغى وطغى ، ولم يَدِرْ أَنَّ مِنْ فوقه سَقَبَ السماء رِغاً ، وباطنَ جماعةٍ من عَرَبِ أَفْرِقِيَّةِ المَفْسِدِينَ وَجُرَّه بحبل الأطماع إليها ، وأقام على بِجَايَةِ عشرين سنة يشدُّ على بِجَايَةِ الحِصَارِ ، وَيُسْنُّ على أَحْوَازِ تُوُسِ الغار ، حتَّى كان من هزيمة جيشه لصاحبها ما كان ، بمالأةٍ منهم ومن غيرهم من وراثته (١) كابن الليثاني ، وأبن الشهيد ، وأبن عمران ، فأدَّى ذلك صاحبها السلطانَ أبا يحيى أعزَّه الله تعالى أنْ بعَثَ إلينا وزيرَه في طَلَبِ النُّصرة رسولا ، وأوقَدَ علينا أعزَّ ولده أبا زكريا في إذهابِ المَضَرَّة عنه دَخِيلاً ، فغاطبنا إذ ذاك هذا الخائن العاقَّ مبصِّرين ، وبقوله تعالى ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ مذكِّرين ، فما زادته الموعظةُ إلا أشراً ، ولا أفادته التذكُّرُ إلا بطراً ، وحين دُكِّرَ فلم تتفعَّه الذِّكْرُ ، وفكَّرَ فلم يتيسَّرَ لليسرى ، آمثلنا فيه أمر الله تعالى المرتب على قوله ﴿ فَإِنْ بَقِيَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى ﴾ فأزعمنا قَدْعَه ، وأجمعنا رَدَّه وَرَدْعَه . وفي أَثناءِ ذَلِكَ وصل إلينا أيضا سلطانُ الأندلسِ مُستَغِيثاً على النصارى أعداءِ الله جيرانِه على طاغيتهم ، المُصِرِّ على عداوته وعداوتهم ، بفجْهَزنا معه وَلَدَنَا عبدَ الواحدِ في أربعةِ آلافٍ من الأبطال ، وأمَدَدْنَاهُمْ بِمَا كَفَاهُمْ من الطعام والعدَّةِ والمال ، فأجاز من سَبْتَةِ إلى الخضرَاءِ عَجَلاً ، ولم يُقَدِّم على مَنَازِلَةِ جَبَلِ الفتح عملاً ، وكان هذا الجبل الخطيرُ شأنُه منذ آسَ تولى عليه العدوُّ قَصَمَه الله في سنة تسع وستين سَجًّا في لَهَوَاتِ أَهْلِ العُدُوتَيْنِ ، وَغُصَّةِ لُفُوسِ السَّاكِنِينَ بِالْجِهَتَيْنِ ،

لإطلاعه عليهما، وإرساله جوارح جواريه إليهما، تَخَطَّفَ مَنْ رام العبور بيمر الزقاق، وما يقرب الملجأ إلى هذا المغفل المستقر من اللحاق، فكم أرمِلَ وأَيْتَمَ، وأنكل وأَيْمٍ - فأحاطت به العاديات السوايحُ برًّا وبحراً، وأذاقت مَنْ به مِنْ أهماج الأعلاج شراً وحضراً؛ إلى أن أسأموه للسلمين قهراً وقسراً، ومنع الله حزبه المؤمنين فتحاً ونصراً، وسمع الطاغية الغادر إجابة الله تعالى بأمره، فطار بما قدر عليه من حشوده وجنوده إلى إغائته ونصره، فوصله بعد ثمانية أيام، من تسليحه للإسلام، فنزل بحيلة ورجله إزاءه، وأقسم بمعبوده لا يبرح فناءه، حتى يُعيد إليه دينه، أو يلقي منونه دونه، فأكذب الله زعمه، وأوهن عزمه، وأحنت يمينه، وأقلع بعد شهرين وأيام مذبلاً، وأسرع العود إلى مستقره وأسأله كيف نجا، وكان ذلك سبب إنايته للسلم وأقياده، وإجابته لترك ما كان له على أصحاب "عُرْناطة" من معتاده، وكانوا يعطونه ما يُنيف على الأربعين ألفاً من الذهب في العام، ضريبة ألزمهم الطاغية أداءها في عقد مصالحته أي إلزام؛ فبُسمناه تركها وإسقاطها، وألزمناه فيما عقدها له من السلم أن يدع أشراطها؛ والحمد لله الذي أعز بنا دين الإسلام، وأذل رقاب عبدة الأصنام، وقد آعنتينا بتحصين حصن هذا الجبل تميماً لها وتكليلاً، وأبتدأنا من تحصين أسواره وأبراجه بما يقدو على جبينه تاجاً وإكليلاً. وكنا في هذه المدة التي جرت بها هذه الأحوال، وعمرت فيها هذه الأهواء والأهوال، منازلٍ أخانا المتنع "بسيجلماسة" من بعض بلاد القبلة، ومحاولين من إزاحة ضره، والإراحة من شره، ما فيه الصلاح والفلاح على التفصيل والجملة، لعنايته في الفساد، ودعايته إلى العناد، ومعاصده صاحب "تلمسان"، ومساعدته على البغي والعُدوان، فسهل الله آفتاحها، وعجل من صنائعه الجميلة منها مباحها؛ وذلك بعد تسليم جبل الفتح بثلاثة أشهر ونصف، ويسر الله تعالى في ذلك من بدائع الصنائع ما يقصر عنه كل نعت ووصف.

وفي خلال تلك المنازلة ، وحال تلك المحاولة ، لاحت للخائن التلمساني قرصه ، جُرغ منها غصه ، إذ ظن أنا عنه مشغولون ، وفي أمرٍ ماعرض من سحلماسة وجبل الفتح معتملون ، فخرج من بلده على حين غفلة بالعزيمة والجد ، إلى حصن ماوررت الذي هو بين بلاده وبلادنا كالحدة ، فوجد هناك ولدنا الأسعد تاشفين ، في ثلثة من بني مرين ، آساد العرين ، فلما نذروا به ثاروا إليه مسرعين ، فنكص على عقبيه ، ولم ير له جنة أوقى من هربه ، وصاد لذلك ثانيه ، فلم تكن عساكرنا عن طرده وانيه ، بل ردت في الحافره ، وأنشدته بلسان حالها الساعره :

إن عادت العقرب عدنا لها * وكانت النمل لها حاضره

ولما فرغنا والحمد لله من تلك الشواغل ، وأرغنا من الخائن التلمساني ترك ما هو فيه من إثارة الفتن واغل ، فأعرض وأشاح ، وما لاحت عليه مخيلة فلاح ، نهدنا نحو أرضه ، لتجزيه بقرضه ، بجيوش يضيق عنها فسيح كل مدى ، وخيول تذر الأكم للخوافر سجدا ، تنقض على الأقران أمثال الأجادل ، وتقض الجنادل من حوافرها بأصلب من الجنادل ، فكفنا بتسلم منازل مئزلا فمزلا ، وتسئم معاقله معقلا فمعقلا ، وجل رعاياه تقر بفضلنا ، وتفر من جوره إلى عدلنا ، ومن تمسك منهم بجبله ، أو سلك من النى في سبله ، قاده السيوف برعنه ، وأستزله على حكمه ، والعفو مع ذلك يؤمهم ، والإحسان يشملهم ويعمهم ، حتى لم يبق إلا معقله الأشب ، ومزله الذي رأى أنه عن عين الشوايب محتجب ، قد شمع أنفا حيا ، وصاح كفا للثريا ، ولم يرض لاهنه عمام إلا الغائم ، ولا لأنامل شرفاته خواتم ، إلا النجوم العواتم ، فزنا بساحه ، وأقبلنا على كفاحه ، وجعلنا نقدفهم من حجارة المجانيق ، بأمثال النيق ، ومن كيزان النقط الموقده ، بأمثال الشهب المرصده ، ومن السهام العقاره ، بأمثال العقارب

الجرّار ، حتى غدت جذرائهم مهْدُومَه ، وجُسُومهم مَكْلُومَه ، ونُغُورُ شُرْفاتهم
 في أفواه أبراجهم مهْتُومَه ، وظلّت الفعلة تُسَيِّدُ إزاء أبراجهم أبراجا ، ومُهمَّد منها
 لتسوير أسوارهم أذراجا ، وللعاول في أسافلها إغوال ، وللعواسل على أعاليها أعمال ،
 وللأشقياء مع ذلك شدَّةٌ وجلدٌ ، وعدَّةٌ وعددٌ ، وحِدَّةٌ ولدَدٌ ، يقاتلون حميَّةً ، وينازلون
 بنفوسٍ أيَّه ، وحجارةُ المجانيق تُشدِّخُ هامهم ، وبنات الكائن تُنزلُ أقدامهم ، وهم
 في مثل ذلك لازمون إقدامهم ، إلى أن آشتدت أزممتهم فلم يجدوا لها من فارح ،
 وأحاطت بهم الأوجال من خارج ، وهدمت أبراجهم الشواحق ، ورِدِمَت حفايرهم
 والخننادق ، وأخذت الكُكَّةُ ، في العروج ، إلى البروج ، والحمأة ، في السباق ، إلى الأنفاق ،
 والرماة ، في النضال ، بالنصال ، فن مُرتقي سلما ، غير مُتقي مؤلما ، ومشتغل بالنقب ،
 غير محتفل بشابور الحجارة المنصب ، وأفرج المضيق ، وأنتهج الطريق ، وأفتحمته
 أطلابُ الأبطال ، وولجته أقبال القبائل وولى الأشقياء الأدبار ، وعاذوا بالفرار ،
 وبدت عليهم علامات الإدبار ، وسابقوا إلى الأبواب ، فكانت يحيطهم من أقوى
 الأسباب ، وقتل منهم الزحام ، من أساره الهدم والحسام ، فتملكنا مادارت عليه
 الأسوار الخارجة : كفرار السبع والملعب ، وجميع الحنان والعروش التي ما أنفك الشقي
 يجتهد في عمارتها ويتعب ، وأعلننا بالنداء أن كل من جاءنا هاربا ، ووصل إلينا تائبا ،
 منحناه العفو ، ومحونا عنه الحقو ، وأوردناه من إحساننا الصفو ، فتبادروا عند ذلك
 يتساقطون من الأسوار ، تساقط جنيات الثمار ، فرادى ومثى ، آيين إلى الحسنى ،
 فيسعهم الصفح ، ويمسبهم المن والمنح .

ولما رأى الخائن قلة من بقي معه ، وشاهد تفرق من ذلك الموقف جمعه ، أمر
 بسراح من في قبضته وسجنه ، واعتقدهم عوناً له فكانوا أعون شيء على وهيه وهيه ،
 وأعتمد الناس في بقية يومهم السور توسع أنقابها ، وتتحرق أبوابها ، إلى أن جهم

الليل، وحقّ منهم بالأعداء الويل؛ ولزم كلّ مكره، ولم يكن الليل ليحجبه من عمله ولا يحجزه؛ وبات الفرار إلينا يهربون، ومن كل نفق يتسربون؛ فلما ارتفع الضياء، ومتع الضحاء، أمرنا ولدينا: يعقوب وعبد الواحد، ووزيرنا القاعدله بالمرأصد، بأن زحفوا إليها، مع أطلابنا تحت راياتنا المنصورة عليها؛ فرجفت قلوبهم، ووجبت جنوبهم؛ ولم يكن إلا كلاً حتى أمطيت تلك الصهوه، ونُسنت فيها الذروه، ونُسملت بيد العنوه، وفُصمت عُراها عُروّة عُروه، وأنزلوا من صياصيمهم؛ وتمكنت يد القهر من نواصيمهم، وحقّت عليهم كلمة العذاب من معاصيمهم؛ وفرّ الشقي إلى فناء داره، في نفر من ذويه وأنصاره؛ وفيهم ولداه مسعود وعثمان، ووزيره موسى ابن عليّ معينه عليّ البغي والعصيان؛ وعبد الحق بن عثمان الخائن الغادر، وابن أخيه العامل بعمله ثابت بن عامر، فكنتهم هنالك أولياء دولتنا العلية، فأوردوهم ويوسف ولد الشقيّ السالب حياض المنية، ونبذت بالعرأ أجسامهم، وتقدّمنا للذين، بأن يمدّ على الرعية ظلّ التأمين؛ ويوطأ لهم كفّ التمدّنة والتسكين، ويوطد لهم مهادّ العافية، وتكفّ عنهم الأكفّ العادية، حتى لا تمتدّ إليهم كفّ مترب، ولا يلتفت نحوهم طرف مستلب؛ ومن آتتهب شيئاً أمر برده، وصدّ عن قصده - وكلّ لنا والحمد لله بالاستيلاء على هذا القطر جميع البلاد، الداخلة في ولاية بني عبد الواد؛ ونسخت منها دولتهم، ومحيّت من صحيفتها دعوتهم؛ وعوّض الرعايا من خوفهم أمناً، ومن شؤمهم يئناً؛ وشملتهم كلمتنا الراقية، المنصورة بكلمة الله الباقية؛ وفي ذلك معتبر لأهل اليقين، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

والحمد لله على هذه النعمة التي أفاضت على النعم جلالاً، والصنيعة التي بهرت الصنائع بجمالاً؛ وأضفت على المسامين من الصلاح والعافية سربالاً. وقد رأينا من حقّ هذا الإتمام الجسيم، والصنع الرائقي الوسيم؛ أن نتبع العفو بعد المقدّره،

(١) بالإحسان لمن أسلف لنا غمطه أو شكره ، [فنتأ] على قبائل بني عبد الواد ، وأضفينا عليهم صنوف الملابس نساءً ورجالاً ، وأوسعنا لهم في العطاء مجالاً ، وأفعمنا لهم من الحباء سجالاً ، وأقطعنا لهم من بلاد المغرب حاطها الله تعالى ما هو خير من بلادهم ، وجبوناهم منها بما كفل بإحساب مرادهم ، وإخصاب مرادهم ، وخططناهم بقبائل بني مرين ، وحطناهم باتحاد الكلمة من تقوّل المتقولين ، وتزوير المزورين ، وأعددنا منهم لأوان الجهاد أوفر عدد ، وأعتدنا من فرسانهم ورجالهم ليطعان الأعادي أكبر مدد ، وأزيل عن الرعايا بهذه البلاد الشرقة إضرهم ، وأزيح عنهم بتوحي العدل فيهم جورهم ووزرهم ، وخففنا عنهم ما آد من المعارم ، وهاد من المكارم ، فانشرحت صدورهم ، وصلحت أمورهم .

والحمد لله الذي ثل محالّ الباغين ومجالهم ، وأورثنا أرضهم وديارهم وأموالهم ، وأخذهم بما أحقّبوها من المآثم ، واكتسبوا من الجرائم واستحلوا من المحارم ، وأباحوا من المسكرات ، وأذاعوا من المنكرات ، وطالما أصبح ربهم معدين الفسوق ، وموطن العقوق ، ومقطن إضاعة الحقوق ، لاسيما في أيام المسرور بهناته ، المغرور بما سؤل له الشيطان وأملى له من ترهاته ، المشهور بقتل أبيه ، الماثور من مثالبه ومعاييه بما لم يأت الدهر له بشييه ، ولقد طبقت الآفاق معاصيه ، وبلغت أخبار خيائته من باطراف المعمور وأقاصيه ، ولكن الله تعالى أملى له ليكثر ما نمته ، حتى إذا شاء أخذه أخذ القرى وهى ظالمه .

والحمد لله الذى طهر بآيدنا هذه الأرجاء من أرجاسه ، ورخص عنها بآيدنا أوضار أدناسه وأنجاسه ، وأتاح لأهلها بهلاك هذا المرید المراد ، وأراح منه ومن شيعته

(١) بيض في الأصل هذه الكلمة وقد أفتينتها من المقام

البِلَادَ وَالْعِبَادَ ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا مَانَالُ الْجُجَّاجِ مِنْ تَعْنِيهِ وَتَعَدِّيهِ ، وَطَالَ عَلَيْهِمْ مِنْ تَعْرِضِهِ لَهُمْ وَتَصَدِّيهِ ؛ حَتَّى حَجَزَ عَنِ الْحِجَازِ الشَّرِيفِ قُصَادَهُ ، وَحَجَرَ بَقْطَعِ السَّبِيلِ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ مَنْ أَرَادَهُ ؛ فَكَمْ سَلَبَ الْجُجَّاجِ ، وَسَدَّ عَلَيْهِمُ الْمَسَالِكَ وَالْفِجَاجِ ؛ وَفَرَّقَ فَرِيقَهُمْ ، وَعَوَّقَ طَرِيقَهُمْ . وَالْآنَ بِحَمْدِ اللَّهِ حَقَّتِ الْحَقَائِقُ ، وَأَرْتَفَعَتِ الْعَوَائِقُ ؛ وَصَحَّ الْعَلِيلُ ، وَوَضَحَ السَّبِيلُ ؛ وَتَسَهَّلَ الْمَرَامُ ، وَتَيَسَّرَ الْقَصْدُ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ ؛ مَكَانَ تَرَدُّهِ الزُّوَارُ عَلَيْكُمْ أَرْسَالًا ، وَوَفُودِ الْأَبْرَارِ لِلسَّلَامِ خِفَافًا وَثِقَالًا ؛ يَأْتُونَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، وَيَقْضُونَ مَا يَقْضُونَ مِنْ مَنَاسِكِهِمْ ، آمِنِينَ فِي مَسَالِكِهِمْ ، إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ؛ وَهَكَذَا أَيْضًا خَلَا وَجْهُنَا لِجِهَادِ الرُّومِ ، وَلِإِعْدَادِ مَنْ يَغْزُونَهُمْ فِي عُقْرِ دَارِهِمُ لِلْقَصْدِ الْمَرْوَمِ ؛ وَأَنْ نَجِدَّ مِنْ هَذَا الْعَمَلِ بِجَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ حَاهَا اللَّهُ تَعَالَى مَا لَسَلَفْنَا بِهَا سَلَفٌ ، وَنَبِدَّ مِنْ شَمْلِ عِبَادِ الصَّلِيبِ مَا خَلَفْنَاهُمْ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرَ خَلْفٍ ؛ فَعَمَلُ الْجِهَادِ ، بِهَذِهِ الْبِلَادِ ، هُوَ الْفَضِيلَةُ الَّتِي لَنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ ذَنْحَهَا ، وَالْحُسْنَةُ الَّتِي فِي صَحَائِفِ أَعْمَالِنَا سَطَرَهَا ، وَبِجُيُوشِنَا الْمَنْصُورَةِ عَزَّ دِينَ الْإِسْلَامِ بِهَذَا الْمَغْرِبِ الْغَرِيبِ ، وَبُسُيُوفِنَا الْمَشْكُورَةِ وَاللَّهُ الْمَشْكُورُ ذَلَّ بِهَا الصَّلِيبُ ، أَوْزَعَنَا اللَّهُ تَعَالَى شُكْرَ آلَاتِهِ ، وَأَمْتَعَنَا بِتَوَاتُرِ نِعَمَاتِهِ ، بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ .

وَأَنهِنَا لِعِلْمِكُمُ الْكَرِيمِ هَذِهِ الْأَنْبَاءَ السَّارَةَ ، وَالْآلَاءَ الدَّارَةَ : لِمَا ذَكَّرْتُمْ مِنْ تَشَوُّفِكُمْ لِاسْتِظْلَاعِهَا ، وَسَطَّرْتُمْ مِنْ تَشَوُّفِكُمْ لِاسْتِمَاعِهَا ، وَلِعِلْمِنَا أَنْكُمْ تُسْرُونَ بِقَطْعِ دَابِرِ الْبَاغِينَ ، وَتَسْتَبْشِرُونَ بِحَسَمِ أَدْوَاءِ الطَّاغِينَ ؛ وَتُؤْمِرُونَ الْإِخْبَارَ بِإِثْلَافِ الْكَلِمَةِ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ الْكَافِرِينَ بِإِثَارِ الْحَامِدِينَ لِفِعْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي إِظْهَارِ دِينِهِ الشَّامِكِينَ . لَازِلْتُمْ تُشْرَعُ نَحْوَكُمْ الْبَشَائِرُ ، وَتُفْرَعُ بِذِكْرِكُمُ الْمَنَابِرُ ، وَتُرْفَعُ لِاجْتِلَاءِ أَمَارِكُمْ السَّنَائِرُ ،

وَأَسْجَلَاءُ أَخْبَارِ سِيرِكُمُ الْبَاهِرَةِ النَّوَاطِرُ، وَتُجَمَّعُ لِسَجَايَاكُمْ السَّنِيَّةُ الْعَلَاءُ، وَمَزَايَاكُمْ الْعَلِيَّةُ السَّنَاءُ؛ ثَوَاقِبُ الْمَنَاقِبِ وَقَوْلُ خَيْرِ الْمَفَاحِرِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَالسَّلَامُ الْأَتَمُّ، الْأَضْوَعُ الْأَتَمُّ، يُحْصَى إِخَاءُكُمْ الْأَوْفَى، وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

قلت : جواب هذا الكتاب [تقدّم] في الكلام على المكتاتبات عن الأبواب السلطانية في المكتاتبات إلى الملوك .



وهذه نسخة كتاب ورد من أبي الحسن المرينيّ صحبة الهدايا، والحرّة الحاجة في شهر رمضان المعظم سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة، ونصّه بعد البسملة :

من عبد الله على أمير المسلمين ، ناصر الدين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ملك البرّين ، مالك العدوتين ، ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ملا البرّين ، وسُلطان العدوتين ، أبي سعيد ، ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ملك البرّين ، وسُلطان العدوتين ، أبي سعيد^(١) ، ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ملك البرّين ، وسُلطان العدوتين ، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق ، منح الله التأييد مقامه ، وفسّح لفتح معاقل الكُفْر وكسْر جحافل الصُفْر أيامه .

إلى السلطان الجليل ، الكبير ، الشهير ، العادل ، الفاضل ، الكامل ، الكافل ، الملك ، الناصر ، المجاهد ، المُرابط ، المؤيد ، المنصور ، الأسعد ، الأُصعد ، الأرقى ، الأوفى ، الأتجد ، الأتجد ، الأتقم ، الأتخم ، الأُوحد ، الأوفى ، ناصر الدين ، عاضد كلمة المسلمين ، مُحيي العدل في العالمين ، فاتح الأمصار ، حائر مُلك الأقطار ، مُفيد

(١) تقدّم في ص ٨٧ من هذا الجزء التنبيه على سلسلة نسب أبي الحسن فتنه .

الأوطار، مُبِيدُ الْكُفَّارِ، هَازِمُ جُيُوشِ الْأَرَمَنِ وَالْفَرَنْجِ وَالْكُرْجِ وَالتَّتَارِ، خَادِمُ
الْحَرَمِينَ، غَيْثُ الْعُقَاةِ، غَوْتُ الْعُنَاةِ، مُصَرِّفُ الْكُتَّابِ، مُشَرِّفُ الْمَوَاكِبِ، نَاصِرُ
الْإِسْلَامِ، نَاشِرُ الْأَعْلَامِ، نَقِيرُ الْأَنَامِ، ذُنُورُ الْأَيَّامِ، قَائِدُ الْجُنُودِ، عَاقِدُ الْبُنُودِ، حَافِظُ
الثُّغُورِ، حَائِطُ الْجُمْهُورِ، حَامِي كَلِمَةِ الْمَوْحِدِينَ، أَبِي الْمَعَالِي، مُحَمَّدِ بْنِ السُّلْطَانِ،
الْجَلِيلِ، الْكَبِيرِ، الشَّهِيرِ، الشَّهِيدِ، الْخَطِيرِ، الْعَادِلِ، الْفَاضِلِ، الْكَافِلِ، الْكَامِلِ،
الْحَافِظِ، الْحَافِلِ، الْمُؤَيَّدِ، الْمَكْرَمِ، الْمَبْجَلِ، الْمَكْبَرِ، الْمُوقَّرِ، الْمُعَزَّرِ، الْمُعَزَّزِ، الْمُجَاهِدِ،
الْمُرَابِطِ، الْمُتَنَاصِرِ، الْأَوْحِدِ، الْأَسْعَدِ، الْأَصْعَدِ، الْأَوْفَى، الْأَنْفَعُ، الْأَصْحَمُ، الْمُقَدَّسُ،
الْمَرْحُومُ، الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ، سَيْفُ الدُّنْيَا وَالْدِّينِ، قَسِيمُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ . أَيْقَى اللَّهِ مُلْكُهُ
مَوْصُولُ الصَّوْلَةِ وَالْإِقْتِدَارِ، نَحْمَى الْحَوْزَةَ حَامِيًا لِلدِّيَارِ، حَمِيدَ الْمَآثِرِ الْمَأْثُورَةِ وَالْآثَارِ،
عَزِيزَ الْأَوْلِيَاءِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ وَالْأَنْصَارِ .

سَلَامٌ كَرِيمٌ، زَاكِ عَمِيمٌ، تُشْرِقُ إِشْرَاقَ النَّهَارِ صَفْحَاتُهُ، وَتَعْبُقُ عَنْ شِدَا الرُّوضِ
الْمِطْطَارِ نَفْحَاتُهُ، يُخْصِ إِخَاءَكُمْ الْعَلِيِّ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي وَسَّعَ الْعِبَادَةَ مَنَاجِسِيًا، وَفَضَّلَا جَزِيلًا، وَأَهْمَهُمُ الرِّشَادَ
بِأَنْ أَبْدَى لَهُمْ مِنْ آثَارِ قُدْرَتِهِ، عَلَى مَقْدَارِ وَحْدَتِهِ، بُرْهَانًا وَاضِحًا وَدَلِيلًا، وَأَلْزَمَ أُمَّةَ
الْإِسْلَامِ، حَجَّ بَيْتِهِ الْحَرَامِ، مِنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَجَعَلَ تَعْظِيمَ شَعَائِرِهِ مِنْ تَقْوَى
الْقُلُوبِ، وَمَثَابَاتٍ تَحَطُّ الْأَوْزَارُ وَالذُّنُوبُ، فَمَا أَجَزَلَ نِعْمَتَهُ مَنِيْلًا، وَأَجْمَلَ رَحْمَةَ رَبِّهِ
مَقِيلًا، وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى مِنْ أَفْضَلِ الْعَرَبِ
فَصِيلَةً، فِي أَكْمَلِ بَقَاعِ الْأَرْضِ فَضِيلَةً، وَأَكْرَمِهَا جَمَلَةً وَتَفْصِيلًا، الْمُحْتَبَى لِنُخْتَمِ الرِّسَالَةَ،
وَحَسْمِ أَدْوَاءِ الضَّلَالَةِ، فَأَحْسَبَ اللَّهُ بِهِ النُّبُوَّةَ نَتْمًا وَالرِّسَالَةَ تَكْيِيلًا، الْمُخْصُوصَ بِالْحَوْضِ
الْمَوْرُودِ، وَالْمَقَامِ الْمَحْمُودِ، يَوْمَ يَقُولُ الظَّالِمُ ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ الْمَبُورَا

من دار هجرته ، ومقرّ نصرته ، محلاً ما بين بيته ومنبره فيه روضة من رياض الجنة لم
يزل بها نزىلاً ، والرضا عن آله الأبرار ، وأصحابه الأخيار ، الذين فضّلهم سابقة
السعادة تفضيلاً ، وأهّلهم العناية [بأمر الدين إلى أن يؤسّعوا الأحكام برّهانا ودليلاً ،
فإننا نحيط علم^(١)] الإخاء الأعزّ ما كان من عزّم مولانا الوالدة قدس الله روحها ،
وتورّضريحها ، على أداء فريضة الحجّ الواجبة ، وتوفية مناسكه اللازبة ؛ فاعترض
الحمام ، دون ذلك المرام ، وعاق القدر ، عن بلوغ ذلك الوطر ، فطوى كتابها ،
ومجّل إلى مقرّ الرحمة بفضل الله مأبها ، وعلى الله أجرها ، وعنده يحسب ذخرها ،
وإنّ لدينا من نوجب إعظامها ، وتقيمها بحكم البرّ مقامها ، وعزّمها إلى ما أمّلته
مصرف ، وأمّلها إلى ما كانت أمته موقوف ؛ وهى محلّ والدتنا المكرّمة ، المبرورة ،
الأنيرة ، الموقرة ، المبجلة ، المفصلة ، المعززة ، المعززة ، المعظمة ، المطهرة ؛ أسنى
الله مكاتّبها ، وسنى من هذا القصد الشريف لباتّها ؛ وقد شيعناها إلى حجّ بيت
الله الحرام ، والمثول بحول الله تعالى ما بين زمزم والمقام ، والفوز من السلام ، على
ضريح الرسالة ، ومثابة الجلالة ، ينزل السؤل والمرام : لتظفر بأملها المرغوب ، وتفرّ
بعد أداء فرضها لأكرم الوجوب .

وحين شخّص لذلّكم الغرض الكريم ، موكبها ، وخلص إلى قصد الحرم العظيم ،
مذهبها ؛ والكرامة تلحفها ، والسلامة إن شاء الله تكتفها ؛ أحصيناها من حور
دولتنا وأحظيائها ، ووجوه دعوتنا العلية وأوليائها ؛ من اخترناه لهذه الوجهة الحميدة
الأثر ، والرحلة السعيدة الورد إن شاء الله تعالى والصّدر ؛ من أعيان بنى مريم أعزّهم
الله تعالى والعرب ، وأولاد المشايخ أولى الديانة والتقوى المالئين دلاء القرب ، إلى

(١) فى الأصل وأهلتهم العناية الاخاء الخ ولا يخفى ما فيه . ولعله سقط من قلم الناسخ شئ . فردنا ما بين

التريعين لاعلى أنه هو الساقط بل ليرتبط الكلام نوع ارتباط تأمل .

عَقْدَ الْكَرْبِ ؛ وَكُلٌّ مِنْ لَهُ أَثَرُهُ مَشْهُورُهُ ، وَشُهْرُهُ بِالْمَزَايَا الرَّابِحَةِ وَالسَّجَايَا الصَّالِحَةِ
 مَأْثُورُهُ ؛ وَقَصْدُهُمْ مِنْ أَدَاءِ فَرِيضِ الْحَجِّ قَصْدُهَا ، وَوَرْدُهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ
 مَنَهِلِ بَرَكَاتِهِ الْجَمَّةِ وَرَدُّهَا ؛ وَهَكَذَا سَيَرْنَا مِنْ تَحَوُّفِ هَذِهِ الْبِلَادِ إِلَيْكُمْ مَا تَيْسَّرُ فِي الْوَقْتِ
 تَسْيِيرُهُ ، وَإِنْ تَعَذَّرَ فِي كَثِيرٍ مِمَّا قَصَدْنَاهُ وَلِهَذَا الْغَرَضُ أَرْدْنَاهُ تَيْسِيرُهُ ، لَطَوَّلَ الْمَغِيبَ
 عَنْ الْحَضَرَةِ ، وَالشُّغْلَ بِتَهْيِيدِ الْبِلَادِ الَّتِي فَتَحَهَا اللَّهُ عَلَيْنَا فِي هَذِهِ السَّفَرَةِ ؛ وَعَيْنًا
 لِإِيرَادِهَا لَدَيْكُمْ ، وَلِإِفَادِهَا عَلَيْكُمْ ؛ أَبَا إِسْحَاقَ ابْنَ الشَّيْخِ أَبِي زَكَرِيَّا يَحْيَى بْنِ عُثْمَانَ
 السُّوَيْدِيَّ ؛ وَأَمِيرَ الرِّكْبِ الْحَسَنَ بْنَ عِمْرَانَ وَغَيْرَهُمْ ، كَتَبَ اللَّهُ سَلَامَتَهُمْ ، وَيَمِّنْ
 ظَنَّهُمْ وَإِقَامَتَهُمْ . وَمَقَامُ ذَلِكَ الْإِخَاءِ الْكَرِيمِ يُسَنِّيْ لَكُمْ مِنَ الْيُسْرَى وَالتَّسْهِيلِ الْقَصْدَ
 وَالسُّوْلَ ، وَيَأْمُرُ نُوَابَ مَالِهِ مِنَ الْمَمَالِكِ ، وَقُؤَامَ مَا بَهَا مِنَ الْمَسَالِكِ ، لَتُكْمَلَ الْعِنَايَةُ بِهِمْ
 فِي الْمَمَرِ وَالْقَفُولِ . وَمَعْظَمُ قَصْدِنَا مِنْ هَذِهِ الْوِجْهَةِ الْمُبَارَكَةِ إِصْبَالُ الْمُصَحِّفِ الْعَزِيزِ
 الَّذِي خَطَطْنَاهُ بَدْنًا ، وَجَعَلْنَاهُ ذَخِيرَةً يَوْمِنَا لَعَدْنَا ؛ إِلَى مَسْجِدِ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا ، وَعَصْمَةِ
 دِينِنَا وَدُنْيَانَا ؛ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِطَبِيعَةِ زَادِهَا اللَّهُ تَشْرِيفًا ، وَأَبْقَى عَلَى
 الْأَيَّامِ نَحْرَهَا مُنِيفًا ، رَغْبَةً فِي الثَّوَابِ ، وَحِرْصًا عَلَى الْفَوْزِ بِحَظٍّ مِنْ أَجْرِ التَّلَاوَةِ فِيهِ
 يَوْمَ الْمَاتِ .

وَقَدْ عَيْنًا بَيْدَ مَحَلِّ الْوَالِدَةِ الْمَذْكُورَةِ فِيهِ ، كَرَّمَ اللَّهُ جَبْهَتَهَا ، وَيَمِّنْ وَجْهَتَهَا ، مِنْ
 الْمَالِ مَا يُشْتَرَى بِهِ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ الْمُحَوَّطَةِ مِنَ الْمُسْتَعْلَاتِ مَا يَكُونُ وَقْفًا عَلَى الْقَرَاءَةِ
 فِيهِ ، مُؤَبَّدًا عَلَيْهِمْ وَعَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ فَوَائِدُهُ وَمَجَانِيهِ . وَالْإِخَاءُ الْكَرِيمُ يَتَلَقَّى
 مِنَ الرُّسُلِ الْمَذْكُورِينَ مَا إِلَيْهِمْ فِي هَذِهِ الْأَغْرَاضِ أَلْقَيْنَاهُ [وَيَأْمُرُ] بِاحْضَارِهِمْ لِأَدَائِهِمْ
 بِالْمَشَافَهَةِ مَا لَدَيْهِمْ أَوْعَيْنَاهُ ، وَيُوعِزُّ بِإِعَانَتِهِمْ عَلَى هَذَا الْغَرَضِ الْمَطْلُوبِ ، وَيُسِّرْ لَهُمْ
 أَسْبَابَ التَّوَصُّلِ إِلَى الْأَمَلِ وَالْمَرْغُوبِ ، وَشَأْنُهُ الْعَوْنُ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَلَا سِيَّمَا

ما كان من أمثال هذا إلى مثل هذه السُّبُل الواضحة ؛ وشكراً بآدابكم موطد الأساس ،
مطرّد القياس ، متجدّد مع اللحظات والأنفاس ؛ والله يصلّ للإخاء العلى نُصرةً أيّامه ،
ويوالى نُصرةً أعلامه ؛ ويبقى الثُّغور القصيّة ، والسُّبُل السّريّة ، مَنوطةً بتقضيه
وإبرامه ، مَحُوطةً بمعاوضة أسيافه وأقلامه ، والسلامُ الكريمُ العميم ، يخصُّ إخوانكم
الأعزّ ، ورحمةُ الله وبركاته - وكتب في يوم الخميس المبارك الخامس والعشرين
من ربيع الأول عام ثمانية وثلاثين وسبعائة .



وهذه نسخةُ كتابٍ عن السلطان عثمانَ بن أبي العباس المِرَينِيّ^(١) ، في العشر الأوسط
من شعبان سنة أربع وثمانمائة ، وهو :

من عبد الله وولّيه : عثمانَ أميرِ المسلمين ، المجاهدِ في سبيل ربِّ العالمين ، سلطانِ
الإسلام والمسلمين ، ناشرِ سَاطِ العدل في العالمين ، المقتدى بآثارِ آبائه الكرام ،
المفتي سُنَنِهِم الحميدة في نُصرة الإسلام ، المُعِملُ نفسَه العزيزة في التَّهَمِّ بما قلَّده
الله من أمور عبادِه ، وحيَاطة ثُغوره وبلاده ، سيفُ الله المُسلَّول على أعدائه ، المنتشر
عَدْلُهُ على أقطار المعمور وأنحائه ، ظلُّ الله تعالى في أرضه ، القائمُ بِسُنَّتِهِ وقرضه ،
عمادِ الدنيا والدِّين ، علم الأئمة المهتدين ، آبن مولانا السلطانِ المظفرِ القان الخليفة
الإمام ، ملكِ الملوك الأعلام ؛ فاتحِ البُلدان والأقطار ، مُمهدِ الأقاليم والأمصاير ؛ جامعِ
أشتاتِ المحامد ، ملجأِ الصّادر والوارد ؛ الملكِ الجَوَاد ، الذي حلَّتْ محبَّتُه في الصُّدُور
محلَّ الأرواح في الأجساد ؛ أميرِ المسلمين ، المجاهدِ في سبيل ربِّ العالمين ؛ أبي العباس
آبن مولانا أميرِ المسلمين ، المجاهدِ في سبيل ربِّ العالمين ، أبي سالم ، آبن مولانا

(١) جرى على طريقة بعض النحاة وإن كان الأكثر أنه يقال العشر الوسطى أو الوسط .

أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي الحسن، ابن مولانا أمير المسلمين،
 المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي سعيد، ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل
 رب العالمين، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق؛ وصل الله تعالى أسباب تأييده
 وعرضه، وقضى باتصال عرف تجديد سعده، وأنا له من جميل صنعه ما يتكفل
 بتيسير أمره وبلوغ قصده .

إلى محل أخينا الذي نُؤثِرُ حقَّ إخوانه الكريم، ونُثْنِي على سلطانه السعيد ثناء الوليِّ
 الحميم، ونشكر ماله فينا من الحبِّ السليم، والودِّ الثابت المقيم، السلطان الجليل،
 الماجد الأصيل، الأعزَّ الخطير المثيل، الشهير الأجد الأرفع، الهام الأرفع؛
 السرى الأرضي؛ المجاهد الأمضى؛ الأوحد الأسنى، المكين الأحمى؛ خديم
 الحرمين الشريفين، حائر الفخرين المنيفين؛ ناصر الدنيا والدِّين، محيى العدل
 في العالمين؛ الأجد، الأوَّد، المكين، الأخلص، الأفضل، الأكل، أبى السعادات
 فرج، ابن السلطان الجليل، الأعزَّ المثيل، الخطير الأصيل، الأرفع، الأجد،
 الشهير، الهام، الأوحد، الأسنى، الأسرى، الأرضى، المجاهد، الأمضى، خديم
 الحرمين الشريفين، حائر الفخرين المنيفين، الأفضل، الأكل، المبرور، المقدم،
 المرحوم، أبى سعيد (برقوق) بن أنص؛ وصل الله تعالى لسلطانه المؤيد جدًّا
 لا يُعجم عوده، وعزًّا لا يميل عموده، ونصرًا يملأ قطره بما ينص به حسوده،
 وعرضه يأخذ بزمام أمه السنن فيسوقه ويقوده .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله على سُبُوغ نعمائه، وترادف لطفه وآلائه؛ الذى عرفنا من وللائكم
 الكريم ما سرنا من أطراد اعتنائه، وأبهج النفوس والاسماع من صفاء وآلائه،

ومواصله صفاته ، والصلاة والسلام الأكلين على سيدنا ومولانا محمد خاتم رُسله
وأنبياؤه ، ومبلغ رسالاته وأنبائه ، صاحب المقام المحمود ، والحوض المورود ، واللواء
المعقود ، فأنكرم بمقامه وحوضه ولوائه ؛ والرضا عن آله وصحبه وأوليائه ، الذين
هم للدين بدور أهدئائه ونجوم أفتدائه ؛ وصلة الدعاء لمقامكم الكريم بدوام عزه
واعتلائه ، وأقبال النصر المبالغ في احتفاله واحتفائه ، وحياطة أنحائه وأرجائه ،
وتأييد عز ماته وآرائه .

فإننا كتبنا إليكم كتب الله لكم سعدا سافرا ، وعز ما ظافرا ، من حضرتنا العلية
بالمدينة البيضاء كلاًها الله تعالى وحرصها ، ونعم الله سبحانه لدينا واكفة السجال ،
وولائوه جل جلاله سابق الأذيال ، وخلافكم التي نزعى بعين الرجوانية ، ونقتنى
في كل منقبة كريمة سيرها الحميدة ومداهبها - وإلى هذا وصل الله سعدكم وإلى
عزكم ، وكنائنا هذا يقرر لكم من وداونا ماشاع وذاع ، ويؤكد من إخلاصنا
إليكم ما نتحدث به السمار فتوعيه جميع الأسماع ؛ وقد كان آتتهى إلينا حركة
عدو الله وعدو الإسلام ، الباغي بالاجتراء على عباده سبحانه بالبؤس والانتقام ،
الآخذ فيهم بالعيث والفساد ، الساعى بجهده في تهديم الحصون وتخريب البلاد ،
وتعرفنا أنه كان يعلق أمله الخائب بالوصول إلى أطراف بلادكم المصيرية ، وأنتهاز
الفرصة على حين غفلة من خلافتكم العلية ، والحمد لله الذى كفى بفضل شره ، ودفع
نقمته وضره ، وأنصرف ناكصاً على عقبيه ، خائباً من نيل أربه . ولقد كنا حين سيعنا
بسوء رأيه الذى غلبه الله عليه ؛ وما أضمر خلق الله من الشر الذى يجهده فى أجراه
ظله يسعى بين يديه [عز منا على] أن يمدكم من عساكرنا المظفرة بما يضيق عنه
الفضا ، ونجهز لجهتكم من أساطيلنا المنصورة ما يمتد فى إمداد المناصرة ويرضى ؛

فالحمد لله على أن كفى المؤمنين القتال ، وأذهب عنهم الأوجال ، ويسر لهم الأعمال ،
وهيا لخلافكم السنية وللسلمين ، هناء يتضمن السلامة لكم ولهم على تعاقب الأعوام
والسنين .

وبحسب ما لنا فيكم من الود الذي أسست المصافاة بنيانه ، والحب الذي أوضح
الإخلاص برهانه ، وقع تحيرنا فيمن يتوجه من بابنا الكريم لتفصيل مجمله ، وتقرير
مالدينا فيه على أتم وجه الاعتقاد وأكمله ؛ على الشيخ ، الأجل ، الشريف ، المبارك ،
الأصيل ، الأسنى ، الحظي ، الأعز ، الحاج ، المبرور ، الأمين ، الأخف ، الأفضل ،
الأكل ؛ أبي عبد الله محمد ، ابن الشيخ الأجل ، الأعز ، الأسنى ، الأوجه ، الأنوه ،
الأرفع ، الأجد ، الآثر ، الأزهي ، الشريف ، الأصيل ، المعظم المثل ، الأشهر ،
الأخطر ، الأمثل ، الأجل ، الأفضل ، الأكل ، المرضي ، المقدس ، المرحوم
أبي عبد الله محمد ، بن أبي القاسم ، ابن نفيس الحسني العراقي ؛ وصل الله تعالى
سعادته ، وأحمد على حضرتكم السنية وفادته ، حسب ما يفي بشرح ما حملناه نقلة ،
ويكمل بايضاحه لديكم يقظته ونبهه ، إن شاء الله تعالى ، وهو سبحانه وتعالى يديم
سعادتكم ، ويحفظ مجادتكم ، ويسني من كل خير إرادتكم ، والسلام عليكم ورحمة
الله وبركاته .

الجملة الرابعة

(في عادة الكتب الواردة عن صاحب الأندلس)

والرسم في ذلك أن يكتب «الأبواب الشريفة» ويصفها ، ثم يقول : «أبواب
السلطان الدلاني» ويصفه ، ويذكر ألقابه ، ثم يدعو له ، ثم يقول : «سلام كريم»
ويصفه . من فلان ، ويذكر السلطان المكتوب عنه ، ثم يقول : أما بعد حمد الله ،

ويأتى بـحُطْبَةٍ في المعنى تشتمل على التحميد، والتصلية على النبي صلى الله عليه وسلم، والرضا عن الصحابة رضى الله عنهم؛ ثم يقول: فإننا كتبنا اليكم، ويأتى على مايناسب المقام، ثم يخرط في سلك المقصود إلى آخره ويختم بالدعاء.

وهذه نسخة كتاب كُتِبَ به عن أمير المسلمين السلطان أبى عبد الله محمد بن أبى الحجاج يوسف بن نصير بن الأحمر، صاحب غرناطة - من الأندلس، إلى السلطان الملك الأشرف "شعبان بن حسين" ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون، إنشاء الوزير أبى عبد الله بن الخطيب، صاحب ديوان إنشائه، يشير فيه إلى حادثة الفَرَنْج بالإسكندرية، الواقعة في سنة سبع وستين وسبعائة، إلا أنه وهم في لقبه الملوكي فلقبه المنصور. وهى:

الأبواب الشريفة^(١) التى تعنو لِعِزَّةِ قَدْرِهَا الأبواب، وتعتري إلى نَسَبِ عَدْلِهَا
الحِكمة والصَّواب؛ وتُنَادِيهَا الأَقْطَارُ البعيدة مفتخرة بولائها، واصلة السبب بعلائها،
فيَصْدُرُ بما يَشْفِي الجَوَى منها الجَوَاب؛ فإذا حَسُنَ منابُّ عن أئمة الهدى، وسَبَّاق
المَدَى، كان منها عن عُمومة النُّبُوَّة النَّوَاب؛ وإذا ضَفَّتْ على العُفَاة بغيرها أثوابُ
الصَّلَات، ضَفَّتْ منها على الكعبة المقدَّسة الأَثواب - أبواب السلطان الكبير،
الجليل الشهير، الطاهر، الظاهر، الأوحد، الأسعد، الأصعد، الأجمد، الأعلى،
العادل، العالم العايل، الكامل، الفاضل، الكافل؛ سلطان الإسلام والمسلمين،
رافع ظلال العدل على العالمين، جمال الإسلام، علم الأعلام، نجر الليالي والأيام،
ملك البرين والبحرين، إمام الحرمين، مؤمل الأمصار والأقطار، وعاصب تاج
الفَخَار، هَزِمَ الفَرَنْج والتُّرك والتَّار، الملك المنصور أبى الفُتُوح شَعْبَان، ابن الأمير،

الرفيع المجّاد ، الكريم البنوة والولادة ، الطاهر الظاهر ، الكبير ، الشهير ، المعظم ،
 المجدد ، الأسمى ، الموقر ، الأعلى ، نحر الملة ، سيف الأمة ، تاج الإمارة ، عز
 الإسلام ، جمال الأيام ، قمر الميادين ، أسد أجمّة الدين ، سمام الطغاة والمعتدين ،
 المقدّس ، المظفر ، الأمير أبي عليّ حسين ، ابن السلطان الكبير ، الشهير ،
 ملك الإسلام والمسلمين ، والد السلاطين ، [سيف خلافة الله في العالمين ، وليّ
 أمير المؤمنين ، وظهير الدين] سلطان الحجّ والجهاد ، وكاسي الحرم الأمين ،
 قانع المعتدين ، قاهر الخوارج والمتمرّدين ، ناصر السنّة ، محي الملة ، ملك البرّين
 والبحرين ، مقيم رُسوم الحرمين الشريفين ، العادل ، العالم ، العامل ، الطاهر ،
 الظاهر ، الأسعد ، الأصعد ، الأوحد ، الأعلى ، المنصور ، المؤيد المعان ، المرفّع ،
 المعظم ، المبجل ، المؤمل ، المجاهد ، المرابط ، الغازي ، أبي عبد الله محمد بن قلاوون ،
 الصالحى أبقاه الله ، وقلق الصباح يشهد بكماله ، وخدمة الحرمين الشريفين طراز
 مذهب على حلة أعماله ، ومُسوَّرات الإسلام ، أمانة على طول الأيام ، من إهماله ،
 ولا زال ركنًا للدين الحنيف ، تترأّحم على مستلمه الشريف ، شفاه أماله .

سلام كريم ، برّعيم ، كما استودعت الرياض أسرارها ، صدر النسيم ، وأرسلت
 مطالع الفجر أنهارها ، من بحر الصباح الوسيم ، يسرى من الطيب ، والحمد المطيل
 المطيب ، فى الصّوان الكريم ، ويقف موقف الأدب والفهامه • بما استُحفظ
 من الأمانة إلى محل الإمامه ، وقوف الحفيظ العليم ، يعتمد مشاريع تلك الأبواب
 الشارعة إلى الفضل العيم ، المقابلة لديمام وسائل الإسلام بالصّدر المشروح ، والبر
 المنوح ، والقلب السليم - من معظّم سلطانه ، ومجلّ شأنه ، المفتخر بالانتظام فى سلك

خُصَّاهُ ، أمير المسلمين بالأندلس ، عبد الله الغالب بالله ، محمد بن يوسف بن إسماعيل
ابن فرج بن نصر ، بلغه الله من رضاه أقصى سوله ، وأعانه على جهاد عدو الله
وعدو رسوله .

أما بعد حمد الله جاعل قِلادة الإسلام ، على الدوام ، آمنة من الانحرام ، والانتثار ،
مفصلة النظام ، بخز المائر العظام ، والآثار . معترف أهلها ، في حزن البسيطة وسهله
عوارف الصنع المثار ، وإقالة العثار . القوى العزيز الذي لا يغالب قدره بالإحتشاد
والاستنكار ، ولا يتبدل غيبه المحجوب ، بعد ما عين حكمه الوجوب ، في خرائن
الاستنثار ، حتى تظهر خبيثة عنايته بأوليائه ، المعترفين بآلائه ، بادية للأبصار ، فيما
قرب وبعد من الأعصار ، ورحمته عند الاستغاثه به والانتصار ، في مختلف الأقطار
والأمصار . الولي الذي لا تُكدر هبات فضله شروط الاعتصار ، ولا تشين خطب
حمده ضرائر الاقتصار والاختصار .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله نخبه الاكوان ، وسر الدهور والأزمان ،
وفائدة الأدوار . نور الله المتميز باختصاصه ، وأستصفائه واستخلاصه ، قبل خلق
الظلمات والأنوار . ورحمته الوارفة الشاملة ، الهامية الهامله ، على الهضاب والوهاد
والنجد والأغوار . أقرب عوالم الشهادة والخلق ، إلى حضرة الحق ، على تعدد الرتب
وتفاضل الأطوار . متقذ الناس من البوار ، ومبوءهم من جوار الله خير الجوار ،
نبي الرحمة والجهم والغوار . المنصور على الأحزاب عند ما استداروا بمئوى نبوته على
الأطم والأسوار دور السوار . الواعد عن ربه بظهور دينه الحق على الأديان فمهما
أوقدوا نار الحرب تكفل الله لهم بإطفاء النار وإخماد الأوار .

والرضا عن آله وأصحابه حمة الدمار ، ومقتحمة الغمار ، وباذل كرائم الأموال من
دونه ونفائس الأعمار ، القائمين في سماء ملته للاهتداء بسنتهم ، والإقتداء بسنتهم ،

مَقَامَ النُّجُومِ الْهَادِيَةِ وَالْأَقْصَارِ ، مَا صَقَلَتْ مَدَاوِسُ النَّسِيمِ سُيُوفَ الْأَنْهَارِ ، وَتَحِيلَ
الْوَرْدُ مِنْ تَبَسُّمِ الْبَهَارِ ، وَغَازَلَتْ عَيُونُ زَهْرِ الْحَبْرَةِ عُيُونَ الْأَزْهَارِ ، وَطَرَدَ أَدْهَمُ اللَّيْلِ
أَشْهَبَ النَّهَارِ .

وَالدُّعَاءُ لَتِلْكَ الْأَبْوَابِ ، الْمُتَعَدِّدَةِ الْحِجَابِ ، الْمَعُودَةِ بِاجْتِلَاءِ غُرْرِ الْفَتْوحِ ، وَالْمَطَالَعِ
الْمَشِيدَةِ الْمَصْنَعِ عَلَى الْعِزِّ الْمُنُوحِ ، وَالْأَوَاوِينَ ، الْمُؤَيَّدَةِ الدَّوَاوِينَ ، بِالْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ ،
بِإِعْلَاءِ الْمَظَاهِرِ وَالصُّرُوحِ ، وَإِنَارَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِأَهْلَةٍ تِلْكَ السُّرُوحِ سَاحَاتِ تِلْكَ
السُّرُوحِ ، وَلَا زَالَتْ أَقْلَامُ بَشَائِرِهَا تَأْتِي عَلَى سُورَةِ الْفَتْحِ بِأَكْمَلِ الشُّرُوحِ .

فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ لِمَنَابِتِكُمُ السُّلْطَانِيَّةِ دَارِ الْعِزِّ الْأَحْمَرِ ، وَالْمُلْكِ الْأَشْرَفِ الْأَسْمَرِ ،
وَالصَّبِيَّةِ الْبَعِيدِ الْمَرْحَمِ ، كَتَبَ اللَّهُ لَهَا مِنْ عِنَايَتِهِ - وَقَدْ فَعَلَ - أَوْفَرَ مَقَاسِمِ التَّعْمِي ،
وَجَعَلَ غِيَتَ نَوَاهِهَا الْأَهْمَى ، وَحَقَّظَ جَلَالَهَا مِنْ اللَّهِ الْأَثْمَى ، وَدَامَتْ كَوَاكِبُ سُعُودِهَا
تَمُزَّقُ جَلَالِيبَ الظُّلُمَا ، وَأَخْبَارَ بَاسِهَا وَجُودِهَا ، وَسَعَادَةَ وَجُودِهَا ، تُهْدِيهَا عَلَى الْبُعْدِ
رُكَّابُ الدَّأْمَا ، وَتَرْفِرُ بِرِيَّاحِ آرْتِيَا حِجَابِهَا أَجْنِحَةُ بَنَاتِ الْمَا ، مِنْ مَنَزَلِنَا الْمُحِبُّورِ ،
بِسَعَادَةِ سُلْطَانِكُمُ الْمَنْصُورِ ، وَخِزْيِ عَدُوِّهِ الْمَذْخُورِ ، بِحِمَاةِ غُرْنَا طَافَ : دَارِ مَلِكِ الْجِهَادِ
بِجَزِيرَةِ ثَغْرِ الْأَنْدَلُسِ ، وَآلَى اللَّهِ عَنْهَا الدِّفَاعُ ، وَأَنَارَ بِمَشْكَاةِ نُورِهِ الَّذِي وَعَدَ بِإِتْمَامِهِ
الْأَعْلَامَ مِنْهَا وَالْأَيْفَاعَ ، وَوَصَلَ لَهَا بِشَرَفِ مَخَاطِبَتِكُمُ الْإِرْتِفَاعَ وَالْإِتِفَاعَ ، حَتَّى تَشْفَعَ
بِتَهَانِيكُمُ الْأَوْتَارَ وَتُوتِرَ الْأَشْفَاعَ ، وَآلَاءُ اللَّهِ لَدَيْنَا ، بِنِعْمَةِ دِينِ الْإِسْلَامِ عَلَيْنَا ،
قَدْ أَتَجَلَّتِ اللِّسَانُ الشُّكُورِ ، وَإِنْ أَسْتَنْفَدْتَ الرُّوَّاحَ وَالْبُكُورَ ، وَالثَّقَّةُ بِاللَّهِ فِي هَذَا
الشَّعْرِ الْغَرِيبِ قَدْ كَثُرَتْ الْعَدَدُ الْمَنْزُورِ ، وَالْحَقُّ الصَّرِيحُ قَدْ كَافَحَ الزُّورَ ، وَالنُّوْطَيْنُ عَلَى
الشَّهَادَةِ قَدْ شَرَحَ الصُّدُورَ ، وَأَقْطَعَ فِي الْجَنَّةِ الْمَنَازِلَ وَاللُّدُورَ ، وَالْمَعْرِفَةُ بِمَقَامِ تِلْكَ
الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ عَقِيدَةٌ لَا تُبَدَّلُ ، وَأَدْوَا حُلَاَّهَا حَائِمُ الْحَمْدِ بِهَا تَهْدِلُ ، وَمَحَافِلُ

شأنها تَرَاكُمْ فِي سَمَائِهَا الْأَلْوَةُ وَالْمَنْدَلُ؛ [وَالْحَالُ مَا عَلِمْتُمْ : بَحْرُ زَانِحِ الْأَمْوَاجِ ، وَعَدُوٌّ
وَإِفْرُ الْأَفْوَاجِ] ^(١) وَحَرَمٌ لَوْلَا اتَّقَاءُ اللَّهِ مَقْتَحَمُ السَّيَاحِ ؛ وَجِيَادٌ صَمَّرَتْهَا مُصَابِرَةُ الْهِيَاجِ ،
وَدَاءٌ عَلَى الْأَيَّامِ مَتَوَقَّعُ الْاَهْتِجَاجِ ، وَعَدَدٌ إِلَى الْإِصْرَاحِ وَالْإِنْجَادِ عَظِيمُ الْاَحْتِجَاجِ ؛
فَالْفَوْسُ إِلَى اللَّهِ يُجَهَّزُ وَتُسَلَّمُ ، وَالصَّبِيَانُ فِي الْمَكَاتِبِ تُدْرَبُ عَلَى مَوَاقِفِ الشَّهَادَةِ
وَتُعَلَّمُ ، وَالْأَلْسِنَةُ بَغِيرِ شِعَارِ الْإِسْلَامِ لَا تَنْتَبِسُ غَالِبًا وَلَا تَنْكَلِمُ ، إِلَّا أَنَّ عَادَةَ الْخَبِيرِ
الطَّيِّيفِ ، تَخْفِيفُ الذُّعْرِ الْمُطِيفِ ، وَنَصْرُ النَّزْرِ الضَّعِيفِ ، عَلَى عَدَدِ النُّضْعِيفِ ؛
وَالْحَالُ تُرْجَى بَيْنَ الْحَرْبِ وَالسَّلَامِ ، وَالْمُكَالَمَةِ وَالْكَلَمِ ، وَتَأْمِيلِ الْجَبْرِ ، وَارْتِقَابِ عَاقِبَةِ
الصَّبْرِ ، عَلَى حُمَاةِ الدَّبْرِ .

وإلى هذا فإننا أتصل بنا مارامت الروم من المكيده التي كان دافع الله من دونها
سداً ، والملائكة جنداً ، والعصمة سورا ، والروح الأمين مدداً منصوراً ، وأنها
استنفدت الوسع في اجتشادها ، حتى ضاقت البلج عن أعواذها ، وبلغت المحجود
في استنفادها ، حتى غص كافر البحر بكفارها ، يصيح بهم التائب ، ويدمرهم
الصليب ، وقد سول لهم الشيطان يكاد تغر الإسكندرية شجاً صدورهم ، ومرمى
آمال غرورهم ، ومحوم قديمهم ، ومتعلل غريمهم ، ليترتموا تغر الإسلام بصدمتها ،
ويقودوا جنائب الساحل في رمتها ، ويرفعوا عن دينهم المعززة ، ويتلقفوا في القدس
كرة الكزة ؛ ويقلصوا ما أمتد من ظلال الإسلام ؛ ويشيموا ^(٢) سيوف التغلب على
الشام ؛ ويحولوا بين المسلمين وبين محط أوزارهم ، وحجهم ومزارهم ، وبيت ربهم
الذي يقصدونه من كل فج عميق ، ويركبون إليه نهج كل طريق ، وقبر نبيهم الذي
يظفرون بزيارته من الشوق كل حريق ، ويكحلون الجفون بمشاهدة آثاره عن بكاء

(١) الزيادة من الريحانة وهي لازمة كما لا يخفى .

(٢) شام السيف غمده واسله ضد . والمراد هنا المعنى الثاني كما لا يخفى .

وشهيق، وشوقٍ بذلك الحبيبِ خَلِيق . ويقطّعون حبلَ المسلمين حتى لايتأتى بلوغُ فريق ولا غرضُ تشريق ، والله من ورائهم مُحِيط ، وبدمائهم مُشِيط ، وعباده بصير ، ولدينه الحقُّ وليٌّ ونَصِير ، ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ . فما هو إلّا أن صمّا جرادهم ، وخلص إليها مرادهم ، وفاض عليها بحرهم ، وعظم من المحاولة أمرهم ، حتى أشترك الشرك بعض أسوارها ، ونال النهبُ مستطرف ديارها ، وظننت أنها الوهية التي لا ترفع ، والمصيبة التي غلتها لا تنقع ، وأشتعل الباس ، ودُعمَ الناس ، وأرى الشدة من تدارك بالفرج ، وأعاد إلى السعة من الحرج ، وأنشأ ريح النصر عاطرة الأرج ، ونصر حرب الإسلام من لا غالب لمن ينصره ، وحصر العدو من كان العدو يحصره ، وظهر الحق على الباطل ، والحالي بزينة الله على العاقل ، فخرج العدو الخاسر عما حازَه والسيوفُ ترهقه حيث تُلفيه ، والسهام تُثبته وتنفيه ، وغرماء كُرة الإسلام تستقضي منه دينها وتستوفيه ، والخزى قد جَلَّ سبَاله الصُّب ، وحناء الدماء قد خضبت مشيخته الشُّب ، والغلب قد أخضع رقابه الغلب ، فكم من غريق أردته دُرُوعه ، لمّا حشى بالروع رُوعه ، وطعين نُظمت بالسهمى ضلُوعه ، فغلبوا هنالك وأقبلوا صاغرين ، وأحقَّ الله الحقَّ بكلماته وقطع دابر الكافرين ، و﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ . فأى رحمة منشورة صفت على الإسلام ظلالها ، وخطة نعمة أوسع نطاقها ورحب مجالها ، ومجلى صنيعة راق عيون المؤمنين جمالها ، فاهترت بها الأرض وربت ، وشكر الله جلّ جلاله أعربت ، وأستبشرت النفوس ، وذهب البؤس ، وضا بمنة الله اللُّبوس ، وظهرت عناية الله بقمائمكم ، وإقالة عثرة الإسلام في أيامكم ، فما كان الله سبحانه ليضيع لكم خدمة

الحرمين ، وإنها للوسيلة الكبرى ، والدريعة إلى سعادة الدنيا والأخرى ؛ وهى
عهدة الله التى يصونها من كل أهتضام ، وقلاذته التى ما كان يتركها بغير نظام .
وكان من لطائف هذا الفتح الذى أجزل البشرى ، وأوسع أعلام الإسلام نشرًا ،
وروده بعد أن شُفيت العلة ، ونُصرت الملة ، وبعد أن جفا الدهر وتجافى ، وعادى
ثم صافى ، وهجر ووافى ، وأمرض ثم عافى ؛ فلو ورد مقدمه قبل تأليه ، ونقده متأخرًا
عن كاليه ، أو كانت أوارحه بعيدًا ما بينها وبين أوليه ، لأوحشت الظنون وساءت ،
وبلغت الهموم من النفوس ماشاءت ؛ فإن الإسلام كالجسد يتداعى كله لتألم بعضه ،
ويتسأهم إخوانه فى بسطه وقبضه ، وسماؤه مرتبطة بأرضه ، ونقله متعلق بقرضه ،
فالحمد لله الذى خفف الأثقال ، وألهم حال الضر الانتقال ، وسوغ فى الشكر المَقال ،
وزاروا قال ، وجمع بين إيقاظ القلوب ، وإنالة المطلوب ، وأن وجد العدو طعم
الإسلام مرًا فما ذاقه ، وعوده ضلًا فما أطاقه ، ورفع عن طريق بيت الله ماعاقه ،
وقاد إليكم فى بيوتكم فضل الجهاد وساقه [ورد المكر السيئ على العدو وأحاقه ^(١)]
فما كانت هذه المكيدة إلا داهية للكفر طارقه ، ونكثة لعصب التثليث عارقه ،
ومعجزة من آثار النبى الشريف لهذا الدين المنيف خارقه ، واستأصلت للعدو المال ،
وقطعت الآمال ، وأوهنت اليمين والشمال . فبادرنا عند تعرف الخبر ، المختال من
أثواب المسرة فى أبهى الخبر ، المهدى أعظم العبر ، إلى تهنئتك تطير بنا أجنحة
الإرتياح ، مبارية للرياح ، وتستفزنا دواعى الأفراح ، بحسب الود الضراح ؛ وكيف
لا يسر اليسار بيمينه [والوجه بيمينه ، والمسلم بدينه ، وخاطبناكم مهتين ولولا العوائق ^(١)]
التى لا تبرح ، والموانع التى وصحت حتى لا تُشرح ، ومكايدة هذا العدو الذى يأسوبه
الدهر ويحرج ، لم تجتر بإعلام القلم ، عن إعمال القدم ، حتى نتشرف [بالورود على

(١) الزيادة من " الریحانة " .

(١) تلك المَثَابَةِ الشَّرِيفَةِ ، وَنَمَازَ بَازِيَةِ الأَبْوَابِ المُنِيفَةِ ، فَتَقَضَى [الفَرَضُ تَحْتَ رَعِيهَا ، وَبَرَكَهَ سَعِيهَا ، لَكِنِ الْمَرْءُ جَنِيبُ أَمَلِهِ ، وَنِيَّةُ الْمُؤْمِنِ أُلْبَغُ مِنْ عَمَلِهِ ؛ فَهَيِّئْنَا بِمَا خَوَّلَكُمْ اللَّهُ مِنْ ظَفِيرِ شَهِدَتْ بِرَضَا اللَّهِ مَرَامِيهِ ، وَأَقَرَّتْ عَنْ تُغُورِ الْعِنَايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ مَبَاسِمَهُ ، وَتَوَقَّرَتْ لَدَيْكُمْ مَوَاجِبُهُ وَمَقَاسِمَهُ ، وَبَيَّئْتُ الْبَيْتَ الْمُقَدَّسَ مَكَانَ فَضْلِ اللَّهِ وَمَنِّهِ ، وَسَلَامَةِ مَجْنَهْ ، وَبَيَّئْتُ الْإِسْلَامَ عِصْمَةَ نَفَرِهِ الْمُؤَشَّرِ ، وَطَهَارَةَ كِتَابِهِ الْمُنْشَرِ ، وَجَمَالَ عُنْوَانِهِ ، وَقُفْلَ صَوَانِهِ ، وَبَابَ إِيوَانِهِ : مَرَفَا الْقُسْطَاطِ ، وَمَرْكَزَ لَوَاءِ الرِّبَاطِ ، وَمَحَطَّ رِحَالِ الْإِغْتِبَاطِ ، وَمَتَخَيَّرَ الْإِسْكَندَرَ عِنْدَ الْبِنَاءِ وَالْإِخْطَاطِ . وَمَا زَادَنَا بِجَحَا بِهَذَا الْفَتْحِ ، وَسُرُورًا زَائِدًا بِهَذَا الْمَنْحِ ، مَا تَحَقَّقْنَا أَنَّهُ يَشِيرُ مِنْ شَفَقَةِ الْمُسْلِمِينَ لِهَذَا الْقَطْرِ الَّذِي لَا يَزَالُ يَطْرُقُهُ مَا طَرَقَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ ، وَتُجْلِبُ عَلَيْهِ بَرًّا وَبَحْرًا عَبْدَةُ الْأَصْنَامِ ، بِحَيْثُ الْبَرُّ مُوَصُولُ ، وَالْكَفْرُ بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ يَصُولُ ، وَنِيرَانُ الْحَوَارِ [مُتَرَاثِيَةً لِلْعِيَانِ ، وَالْفَرَاسِخُ الْقَلِيلَةُ] ^(١) مُتَوَسِّطَةٌ بَيْنَ مُخْتَلِفِ النَّحْلِ وَالْأَدْيَانِ ، وَالْعَدَدُ لَا يُنْسَبُ ، وَالصَّرِيحُ إِلَّا مَنْ عِنْدَ اللَّهِ لَا يُحْسَبُ ، فَتَنْجِدُنَا بِالْإِدْعَاءِ أَلْسِنَةُ فَضْلَانِهِ ؛ وَتُسَهِّمُنَا خَوَاطِرُ صَالِحِيهِ وَأَوْلِيَائِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَقْطَعُ عَنِ الْجَمِيعِ عَوَائِدَ آلَانِهِ ، وَيَعْرِفُنَا بِرَكَّةِ أَنْبِيَائِهِ ، وَيُنْصِرُنَا فِي أَرْضِهِ بِمَلَائِكَةِ سَمَائِهِ .

وَقَدْ كَانَتْ أَتَّصِلُ بِنَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْفَارِطَةِ الذُّنُرُ الَّذِي مَلَأَ الْيَدَ اسْتِكْثَارًا ، وَالْخَلَدَ اعْتِدَادًا وَاسْتِظْهَارًا ، وَالْهِمَمَ تَغَارًا ، وَأَضَاءَ الْقَطْرِ أَنْوَارًا : جَوَابِكُمُ الْكَرِيمُ يُسَمِّئُ مِنْ نَفْحَاتِهِ شَدَا الْإِذْخِرِ وَالْجَلِيلِ ، وَتُلْتَمَسُ مِنْ خِلَالِ حَاقَاتِهِ بَرَكَاتُ الْخَلِيلِ ، وَتَقْرَأُ الْوُجُوهَ بِهِ أَتَارَ الْمَعَاهِدِ ، وَتُلْتَمَعُ مِنْ ثَنَائِهِ وَفَادَتِهِ بَوَارِقُ الْفَوَائِدِ ، فَأَكْرِمُ بِهِ مَنْ وَافِدٍ مَخْطُوبٍ ، وَزَائِرٍ مَرْقُوبٍ ، صَدَعْنَاهُ فِي حَفْلِ الْجِهَادِ اتِّخَاءً وَافْتِخَارًا ، ثُمَّ صُنَّاهُ

في كرائم الخزائن آفتاءً للتلّف وأدخارا ، وجعلنا قِراه سُكرا معطارا ، وثناءً يبقَى
 في الخاقين مُطارا ، ودعاءً يُعلي الله به لمقامكم السني في أولياته مَدارا ، ويجهز به
 لمدِّكم كما فعل أنصارا ، ويثيبكم الجنة التي لا يرضى السعداء بغيرها قرارا ،
 والله تعالى يجعل لأفلاك الهناء على مخاطبة مقامكم الرفيع العلاء مدارا ، ويُقيم الشكر
 ألزم الوظائف لحقكم أبتدارا ، والثناء أولى ماتحلى به مجدكم شعارا ، ويُقيمكم للإسلام
 رُحما شديدا ، وظلا مديدا ، وسماء مذرارا ، ما استأنفت البدور أبتدارا ، وعاقب الليل
 نهارا ، والسلام .

المقصود الثالث

(في رسم المكاتبات الواردة عن ملوك السودان ؛ وفيه ثلاثة أطراف)

الطرف الأول

(في المكاتبات إلى صاحب مالى^(١))

وهو المستولى على التكرور وغانة وغيرهما ، وهي أعظم ممالك السودان المسلمين
 مملكة ، ولم أقف لأحد منهم على صورة مكتبة إلى الأبواب السلطانية ، إلا أن المقر
 الشهابي بن فضل الله في كتابه "مسالك الأبصار" عند الكلام على هذه المملكة
 تعرض لذكر سلطانها في زمان الملك الناصر «محمد بن قلاوون» وهو منسى موسى ،
 وذكر أنه ورد منه كتاب يُمسك لنفسه فيه ناموساً ولم يورد نسخته .

(١) كذا في الأصل ولعله « المكاتبات الواردة من صاحب مالى » كما يقتضيه التقسيم فتنبه .

الطرف الثاني

(في المكاتبات الصادرة عن صاحب البرنو)

ورسم مكاتبتَه أن تُكْتَبَ في ورق مربعٍ بخطِّ نخطِ المغاربة : فإن فضل من المكاتبَة شيءٌ كُتِبَ بظاهرها ، وتُفْتَحَ المكاتبَة بِحُطْبَة مُفْتَتَحَة بالحمد ، ثم يَخْلَصُ إلى المقْصِدِ ببعْدِيَّةٍ ، ويأتى على المقْصِدِ إلى آخره ، ورأيتَه قد خَتَمَ مكاتبتَه إلى الأبواب السلطانية بقوله : والسلامُ على من اتَّبَعَ الهدى . وكأنَّ ذلك جهلٌ من الكاتب بمقاصد صناعة الإنشاء ، إذ لا يَتَنَدُون إلى حقائقها .

وهذه نسخةُ كتابٍ ورد على الملك الظاهر « أبى سعيد برقوق » ووصل في شهر سنة أربع وتسعين وسبعمائة ، صحبة ابن عمه ، مع هديةٍ بعث بها إلى السلطان بسبب ما يذكُر فيه من أمر عَرَب جُدَام المجاورة لهم ، وهى في ورق مربع ، السطرُ إلى جانب السطر ، بخطِّ مغربى ، وليس له هامشٌ في أعلاه ولا جانبيه ، ونِمةُ الكتاب في ظهره من ذيل الكتاب وهو :

بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما .

الحمد لله الذى جعل الخطَّ ترأسلا بين الأَبَعد ، وتَرْجُمانا بين الأَفارب ، ومُصاحَفةً بين الأَحباب ، ومؤنسا بين العلماء ، ومُوحِشا بين الجُهاال ، ولولا ذلك لبطلت الكلمات ، وفَسَدَت الحاجات . وصلواتُ الله على نبينا المصطفى ، ورسولنا المرتضى ، الذى أَغْلَقَ الله به بابَ النبوة وخَتَمَ ، وجعله آخرَ المرسلين بشيرا ونَذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسِرَاجا مُنيرا ، ماناحِ الورق ، وما عاقبَ الشروقَ الأصيل . ثم بعد ذلك أبو بكر وعمر وعثمانُ وعلى ، رضى الله عنهم أجمعين .

من المتوكل على الله تعالى ، الملك ، الأجل ، سيف الإسلام ، وربيع الأيتام ،
 الملك المقدم ، القائم بأمر الرحمن ، المستنصر بالله المنصور في كل حين وأوان ،
 ودهر وزمان : الملك ، العادل ، الزاهد ، التقى ، النقي ، الأتجد ، الأتجد ، الغشمشم ،
 نحر الدين ، زين الإسلام ، قطب الخلافة ، سلاله الكرماء ، كهف الصدور ، مصباح
 الظلام ، أبي عمرو عثمان الملك ، ابن إدريس الحاج أمير المؤمنين المرحوم ، كرم الله
 ضريحه ، وأدام ذرية هذا بملكه - هذا اللفظ وارد على [لسان] كاتبنا لأننا ولا نغفر -
 إلى ملك المضر الجليل ، أرض الله المباركة أم الدنيا .

سلام عليكم أعطر من المسك الأذفر ، وأعذب من ماء الغمام واليم ، زاد الله ملككم
 وسلطانكم ، والسلام على جلسائكم وفقهائكم وعلمائكم ، الذين يدرسون القرآن والعلوم ،
 وجماعتكم ، وأهل طاعتكم ، أجمعين .

وبعد ذلك ، فإننا قد أرسلنا إليكم رسولنا ، وهو ابن عمي ، اسمه إدريس بن محمد
 من أجل الحاجة التي وجدناها ، وملوكتنا ، فإن الأعراب [الذين] يسعون جداما
 وغيرهم قد سبوا أحرارنا : من النساء والصبيان ، وضعفاء الرجال ، وقربتنا ، وغيرهم
 من المسلمين . ومنهم من يشركون بالله ، يُمارقون للدين ، ففاروا على المسلمين
 فقتلوه قتلًا شديدًا ، لفتنة وقعت بيننا وبين أعدائنا ، فبسبب تلك الفتنة قد قتلوا
 ملكنا ، عمرو بن إدريس الشهيد ، وهو أخونا ابن أبننا إدريس الحاج ، بن إبراهيم
 الحاج ، ونحن بنو سيف بن ذي يزن ، و[الد] قبيلتنا ، العربي القرشي ، كذا
 ضبطناه عن شيوخنا ، وهؤلاء الأعراب قد أفسدوا أرضنا كلها ، في بلد بنوكافة
 حتى الآن ، وسبوا أحرارنا وقربتنا من المسلمين ، ويبيعونهم لحلاب مصر والشام
 وغيرهم ، ويخندمون ببعضهم ، فإن حكم مصر قد جعله الله في أيديكم من البحر إلى
 أسوان ، فإنهم قد اتحدوا متجرا ، فتبعثوا الرسل إلى جميع أرضكم ، وأمرائكم ،

ووزرائكم، وقضائكم، وحكامكم، وعلمائكم، وصواحب أسواقكم، ينظرون ويحسبون ويكشفون؛ فإذا وجدوهم فليترعوهم من أيديهم، وليتلوهم، فإن قالوا نحن أحرار ونحن مسامون فصدقوهم ولا تكذبوهم؛ فإذا تبين ذلك لكم فأطلقوهم وردوهم إلى حريتهم وإسلامهم، فإن بعض الأعراب يفسدون في أرضنا ولا يصابحون، فإنهم الجاهلون كتاب الله وسنة رسولنا، فإنهم يزيئون الباطل، فاتقوا الله واخشوه ولا تتخلوهم يسترقوا ويأعوا. قال الله تعالى ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾. وقال الله تعالى لنبيه عليه السلام ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾. وقال الله تعالى ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾. وكان عليه السلام يقول: «السلطان ظل الله في الأرض يأوى إليه كل مظلوم». وقال: «المؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضاً إلى يوم القيامة». وقال: «المؤمن أخو المؤمن لا يظلمه ولا يسلمه» إلى آخره. وفي الحكمة: ومن الفرائض الأمر بالمعروف على كل من بسطت يده في الأرض (أراد به السلاطين) وعلى من تصل يده إلى ذلك (أراد بذلك القضاة والحكام والأمراء) فإن لم يقدر فبلسانه، (أراد بذلك الفقهاء والعلماء) وإن لم يقدر فبقلمه، (أراد بذلك عامة المسلمين) أطل الله بقاءكم في أرضكم. فازجروا الأعراب المفسدين عن دعرهم، قال الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وقال عليه السلام: «كلكم راجع وكلكم مسئول عن رعيته». وقال في الحكمة: لولا السلطان لأكل بعضهم بعضاً. وقال تعالى لنبيه داود عليه السلام ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ والسلام على من أتبع الهدى - ولم يورخ.

الطرف الثالث

(في المكاتبات الصادرة عن ملك "الكائيم" ولم أقف له على مكتبة إلا أنه يُشبه أن تكون المكتبة عنه نظير المكتبة عن صاحب "البرنو" فإنه على قرب من مملكته والله أعلم

المقصود الرابع

(في الكتب الواردة من الجانب الشمالي، وهي بلاد الروم) قد تقدم ذكر المكتبة إلى أمراءها، وأن كبيرهم الذي صار أمرهم إليه وأنقادوا إلى طاعته الآن هو ابن عثمان صاحب برسا^(١).

القسم الثالث

(من المكاتبات الواردة إلى هذه المملكة الكتب الواردة عن ملوك الكفار، وهي على أربعة أضرب)

الضرب الأول

(الكتب الواردة عن ملوك الكرج^(٢))

الضرب الثاني

(الكتب الواردة عن ملوك الحبشة^(٣))

والعادة فيها أن ترد في قطع^(٣) باللسان^(٣) ولم أظفر بصورة مكتبة في هذا المعنى إلا مكتبة واحدة وردت على الملك الظاهر بيبرس، ضمن كتاب إلى صاحب اليمن، وصاحب اليمن أرسله إلى هنا فيما وقفت عليه في بعض المصنفات، وهو:

(١) لم يذكر في الأصل نموذجاً من المكتبة ولا ترك لها يابضاً كالعادة فتنبه .

(٢) لم يذكر لها نموذجاً ولم يتكلم على رسمها كغيرها . (٣) يابض في الأصل .

أَقْلُ المَالِيكَ يَقْبَلُ الْأَرْضَ ، وَيُنْهِى بَيْنَ يَدَيِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ ، خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ ، أَنْ رَسُولًا وَصَلَ إِلَى مَنْ وَإِلَى قُوصَ ، بِسَبَبِ الرَّاهِبِ الَّذِي جَاءَنَا ، فَتَحْنُ مَا جَاءَنَا مَطْرَانُ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ وَنَحْنُ عَيْبُهُ ، فِيرُسُّمُ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ لِلْبَطْرِيرِكِ [أَنْ] يَجْهَزُ لَنَا مَطْرَانًا يَكُونُ رَجُلًا جَيِّدًا عَالِمًا ، لَا يَنْجِي ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً ، وَيُرْسِلَهُ إِلَى مَدِينَةِ "عَوَانَ" . وَأَقْلُ المَالِيكَ يُسِيرُ إِلَى نَوَابِ مَوْلَانَا الْمَلِكِ الْمُظْفَرِ : صَاحِبِ الْيَمَنِ مَا يَلْزِمُهُ ، وَهُوَ يُسِيرُهُ إِلَى نَوَابِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ ، وَمَا كَانَ سَبَبُ تَأْخِيرِ الرُّسُلِ عَنْ الْحَضُورِ إِلَى [مَا] بَيْنَ يَدَيِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ إِلَّا أَنِّي كُنْتُ فِي سَكَارٍ (؟) وَالْمَلِكُ دَاوُدُ قَدْ تَوَقَّى ، وَقَدْ مَلَكَ مَوْضِعَهُ وَلَدَهُ ، وَعِنْدِي فِي عَسْكَرِي مَائَةُ أَلْفِ فَارَسٍ مُسْلِمِينَ ، وَأَمَّا النَّصَارَى فَكَثِيرٌ لَا يُحْصَوْنَ ، وَالْكُلُّ غِلْمَانُكَ وَتَحْتَ أَمْرِكَ ، وَالْمَطْرَانُ الْكَبِيرُ يَدْعُوكَ وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ يَقُولُونَ آمِينَ ؛ وَكُلُّ مَنْ يَصِلُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى بِلَادِنَا نَكُونُ لَهُ أَقْلُ المَالِيكَ ، وَنَحْفَظُهُمْ وَنَسَفِّرُهُمْ كَمَا يَجِبُونَ وَيَخْتَارُونَ ؛ وَأَمَّا الرَّسُولُ الَّذِي سَفَرُوهُ فَهُوَ مَرِيضٌ ، وَبِلَادُنَا وَنِحْمَةٌ . أَيُّ مَنْ مَرِيضٌ لَا يَقْدَرُ أَحَدٌ يَدْخُلُ إِلَيْهِ ، وَأَيُّ مَنْ شَمَّ رَائِحَتَهُ فَيَمْرُضُ فَيَمُوتُ . وَنَحْنُ نَحْفَظُ كُلَّ مَنْ يَأْتِي مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ ، فَسِيرُوا مَطْرَانًا يَحْفَظُهُمْ .

قلت : وقد تقدّم الجواب عن هذا الكتاب من كلام القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر ، في الكلام على الكتب الصادرة عن الأبواب السلطانية إلى أهل الجانب الجنوبي من أهل الكُفْرِ ، ولكن الكتاب المذكور يخالف ما تقدّم هناك من ادّعائه العظمة ، وأنه لولا اضطرابه إلى أخذ المَطْرَانِ مِنْ بَطْرِيرِكِ الدِّيارِ المِصرِية لكان يَشْمَخُ بِنَفْسِهِ عَنِ الْمَكَاتِبَةِ ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ كَانَ فِي الزَّمَنِ الْمُتَقَدِّمِ .

الضرب الثالث

(الكتُب الواردة عن ملوك الروم، ورأس الكل صاحب القُسطنطينية)

وقد وقفتُ على كتابٍ ورد منه في السابع والعشرين من صَفَر سنة أربع عشرة وثمانمائة في دَرَج ورق فَرَنجِيٍّ في نحو عشرين وَصْلاً قَطَعَ النصف، والبياض في أعلاه وصل واحد، وفي أسفله وَصْلان، وله هامش عن يمينه وهامش عن يساره، كلُّ منهما تقديرُ إصبعين، ومقدارُ ما بين السطور متفاوتٌ : فأعلاه بين كلِّ سطرين أربعة أصابع مطبوعة؛ ثم بعد تقدير ثلث الكتاب بين كلِّ سطرين قدر ثلاثة أصابع؛ ثم بعد ذلك بين كلِّ سطرين قدر إصبعين؛ ثم بعد ذلك بين كلِّ سطرين قدر ثلاثة أصابع إلى آخر الكتاب، والقلم في غاية [الدقة بـ] قلم الرِّقاع الدقيق، وفي آخره ثلاثة أسطر وقطعة بالحمرة بقلم أجل من الأول قليلاً.

وهذه نسخة كتاب معربة بترجمة بطرك المِلْكانية، بحضور سيف الدين سيف^(١) التَّرجُمان، وهي :

المعظم، المجدد، المبجل، الضابط، السلطان، الكبير، سلطان مصر ودمشق وحلب وغيرها، الملك الناصر (فرج) ابن السلطان الكبير المرحوم الظاهر (برقوق) المحبوب إلى العزيز أكثر من أولاد مملكتي .

يُحِيطُ علمه أني ومملكتي طَيُّون بنعمة الله تعالى، وكذلك تكون - أن شاء الله تعالى - سلطنتك المجددة طيبة في خير، وأنَّ المحبة والمودة لم تزل بين والدك المرحوم وبين والدي إلى آخر وقت . ونحن بحمد الله قد تزايدت محبتنا على ذلك وتكاثرت،

(١) لعله سودون الآتي بعد في الضرب الرابع .

وتؤكد أيضا المحبة بيننا وبين سلطتك المعظمة إلى الأبد ، فإن ذلك واجب ،
وتتردد رُسُلُكم بكتبكم إلينا ، وكذلك رُسُلنا بكتبتنا إلى مُلككم ؛ وكان قصدنا أن نجهز
إليكم رسولا لكنَّ الفتنَ في بلادنا ، وما بلغنا من سفر مولانا السلطان من تحت
ملكته ، ولم نعرف إلى أيِّ مكانٍ توجه ، أوجب تأخير ذلك ؛ وأنَّ حاملَ هذا الكتاب
المتوجه به إلى السلطان المعظم المسمَّى (سورمش) التاجر من اسطنبول هو من جهتنا ،
وله عادة بالتردد إلى مملكتم المعظمة ، ونحن نعلم أنَّ سلطتكم تُحبُّ الطيور الكواهي ؛
فجهزنا لكم صحبة المذكور خمس كواهي وبازدار ، ليكونَ نظركم الشريف عليهم ،
وكذلك على البطاركة والنصارى والكنايس على حُكم مَعْدَلَةِ السلطان ومحَبَّتِهِ ، والوصية
بهم ، ومعاونتهم ورعايتهم وإجراؤهم على جاری عوائدهم ، من غير تشويش على
مالِ قُوهِ من إنصافكم أولا وآخرا لأجل محبتكم لنا ومحبتنا ، واستمرار العناية بهم ،
مع أنَّ البطاركة عرَّفونا أنَّ مولانا السلطان يُرز مرسومه بمراعاتهم ، والإحسان
إليهم ، ولم يزالوا داعينَ له شاكرينَ من مَعْدَلَتِهِ ، ونُضاعفُ شكرنا من إحسانكم
على ذلك ، وتكونوا ان شاء الله تعالى طيبين ، والمحبة مترايدة في أيامكم وأيامنا ،
ومهما كان لمولانا السلطان بمملكتنا من أطواع ^(١) ، فيرسمُ يعرِّفنا بها وينادِرُ بذلك .
والذي بآخره بالحمرة علامة الملك مضمونها (مانويك المسيحي بنعمة الله ،
ضابط مملكة الروم البَلَلوغس) .

(١) كذا في الأصل ومراده من خدم أو حاجات .

الضرب الرابع

(الكتب الواردة من جهة ملوك الفرنج بالأندلس، والجهات الشمالية،

وما إلى ذلك)

والعادة فيها أن تكتب باللسان الفرنجى، وعادة الكتب الواردة عنهم جملة أن تكتب فى فرخة ورق فرنجى مربعة على نحو مقدار الفرخة البلدى أو دونها، بأسطر متقاربة، باللسان الفرنجى وقلمه؛ ثم يطوى طياً مسطحا ويعنون فى وسطه، ويطوى من جهتي الأول والآخري حتى يصير العنوان ظاهراً من الطي، ثم يُحرز ويختم بسعاة، ويختم عليه بطمغة فى شمع أحمر على نحو ما تقدم فى الكتب الواردة عن ملوك الغرب؛ فاذا ورد على الأبواب السلطانية فكُتِّمته، وترجم بترجمة الترجمان بالأبواب السلطانية وكتب تعريبه فى ورقة مفردة وألصقت به بعد كتابة الجواب من التعريب على ما تقدم ذكره فى مقدمة الكتاب .

وهذه نسخة كتاب وارد من دوج البنادقة ميكائيل، على يد قاصده نقولا البندقى فى سادس عشر صفر المبارك سنة أربع عشرة وثمانمائة، ترجمة شمس الدين سنقر، وسيف الدين سودون، الترجمة بالأبواب الشريفة، فى فرخة ورق فرنجى مربعة متقاربة السطور، وهو :

السلطان المعظم، ملك الملوك «فرج الله» ناصر الملة الإسلامية، خلد الله سلطانه . يقبل الأرض بين يديه نقولا دوج البنادقة^(١)، ويسأل الله أن يزيد عظمته : لأنه ناصر الحق ومؤيده، وموئل الممالك الإسلامية كلها . ويُنهى ما عنده من الشوق

(١) تقدم قبل بأسطر أن اسمه ميكائيل وأن اسم رسوله نقولا . فنبه

والحجة لمولانا السلطان، وأنه لم تزل أكابر التجار والمحششين والمترددين من الفرّج إلى الممالك الإسلامية شاكرين من عدل مولانا السلطان وعلو مجده، وتزايد الدعاء ببقاء دولته، وقد رغب التجار بالتردد إلى مملكته الشريفة بواسطة ذلك، ولأجل الصلح المتصل الآن بيننا والمحبة .

وأما غير ذلك، فإنه بلغنا ما اتفق في العام الماضي من حبس العرف في تغر دميّاط المحروس، وأن مولانا السلطان مسك قنصل البنادقة والمحششين من التجار بشعر الإسكندرية المحروس، وزجرهم بالحديد، وأحضرهم إلى القاهرة، وحصلت لهم البهولة بين جنوسهم والضّرر والقهْر الزائد، وكسر حرمتنا بين أهل طائفتنا، فإن الذي فعل مع المذكورين إنما فعل معنا، وتعجبنا من ذلك: لأن طائفتنا لم يكن لهم ذنب، وهذا مع كثرة عدل مولانا السلطان في مملكته، ومحبتنا له، ومناداتنا في جميع مملكنا بكثرة عدله، ومحبتنا لطائفتنا، وإقباله عليهم، وقولنا لجميع ثوابنا: إنهم يكرمون من يجدونه من مملكة مولانا السلطان ويراعونه ويحسنون إليه، والمسئول من إحسانه الوصية بالقنصل والتجار وغيرهم من البنادقة، ومراعاتهم وإكرامهم والإقبال عليهم، والنظر في أمورهم إذا حصل ما يشبه هذا الأمر، ومنع من يشاكلهم لتحصل بذلك الطمأنينة للتجار، ويترددوا إلى مملكته .



وهذه نسخة كتاب ورد من كبطان الماغوصة والمستشارين بها، في ثامن عشر صفر المبارك سنة أربع عشرة وثمانمائة، ترجمة شمس الدين سنقر وسيف الدين سودون التبرجائين بالأبواب الشريفة، وهو :

الملك المعظم، ملك الملوك، صاحب مصر المحروسة، الملك الناصر، عظم الله شأنه .

يَقْبَلُ الأرض بين أياديهِ الكبطانَ والمستشارونَ، وَيُنْهَوْنَ أَنَّهُمْ أَنَاءَ اللَّيْلِ دَاعُونَ
 بطول بقاءه، مجتهدون في استمرار الصُّلحِ والمودَّة التي لا يشوبها كَدَرٌ بين القومون (؟)
 وبين مولانا السلطان، وأنَّ في هذا الوقت ثمَّ حَرامِيَّةٌ غراب يتحرَّمون بأطراف هذه
 البلاد، والمين الإسلاميَّة؛ ونحن لم نزل نُسَحِّطُهُم بالمراكب والأُغرَبَة، ونمنعُهم
 من ذلك جُهْدَنَا وَقُدْرَتَنَا، حتَّى إِن أَحَدًا صار لا يَحْسُرُ على الدخول إلى مِينَا
 الماغوصَة جملةً كافِيَّةً، مع أننا كُنَّا خَلَصْنَا في المدة الماضِيَّة من الحَرامِيَّة المذكورين
 خمسةً وعشرين نَفَرًا من المسلمين، وأكرمناهم وأطلقنا سبيلهم ^(١) [وعزُّمنا أن] نجهِّزهم
 إلى دِمِياط أو إلى نغر الإسكندرية .

وأما غير ذلك، فقد بَلَّغْنَا أن برطلما أوسق للواقف الشريفة صابونًا في مرآكه،
 وكان قصده أن يَهْرُبَ بذلك، فلحال عَمَرْنَا مَرَجًا كبيرًا، وأخذنا برطلما المذكور
 بالمحاربة، وأحضرناه إلى الماغوصَة، وعهِدْنَا بطروق المركب إلى شخص يسمَّى
 (أرمان سليوريون) وهو رجلٌ مشكور السيرة، وقلنا له إنه يتوجَّه إلى خازن الصابون
 المذكور ويستشيرُه إن كان يُوسِقُ شيئًا من الأصناف لمولانا السلطان، ويجهِّزه إلى
 أيِّ مكان اختاره ليسلمه ليد من تبرُّز له المراسيمُ الشريفة بتسليمه، ليفعل، وهذا
 القول كُلُّهُ يكون دليلًا عند مولانا السلطان على صِدْقِ الولاء والتسكِّ بالصُّلح،
 والمسئول من الصدقات الشريفة الإقبالُ على التُّجَّارِ الجَنَوِيَّة الذين عند مملكته،
 وكفَّ أسباب الضرر عنهم، وينشر مَعْدَلَتَهُ عليهم، والله تعالى يديم بقاءه بمنَّة وكرمه .

(١) في الأصل « وعقبها نجهِّزهم » .

الفصل السادس

[من الباب الثاني] من المقالة الرابعة

(في رسوم المكاتبات الإخوانيات - وهي جمع إخوانية، نسبة إلى الإخوان، جمع أخ - والمراد المكاتبات الدائرة بين الأصدقاء . وفيه طرفان)

الطرف الأول

(في رسوم إخوانيات السلف من الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين ؛ وهي في الغالب لا تخرج عن ضرين)

الضرب الأول

(أن تفتتح المكاتبة باسم المكتوب عنه)

وكان رسمهم فيه أن تفتتح المكاتبة بلفظ « من فلان إلى فلان ، سلام عليك ، إني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو » فلما كانت خلافة الرشيد وأمر أن يزداد هنا في السلطانيات « وأسأله أن يصلي على سيدنا محمد عبده ورسوله » كما تقدم في موضعه ، جرى الكتاب في الإخوانيات على ذلك أيضا ، وكان الخطاب يجري بينهم في ذلك بأنا ، وأنت ، ولي ، ولك ، وعندي ، وعندك ؛ وما أشبه ذلك من ألفاظ الخطاب ، وكانت خاتمة الكتب عندهم بالسلام .

الضرب الثاني

(أن تفتح المكتبة باسم المكتوب إليه : تفخيماً لأمره ، وتعظيماً لشأنه)
 وكان رسمهم في ذلك أن يفتحوا المكتبة بلفظ « إلى فلان من فلان ، سلامٌ عليك ، فإني أحمدُ اليك الله الذي لا إله إلا هو » وباقي الكتاب على ما تقدم في الضرب الأول في الخطاب والختام وغيرهما .

الطرف الثاني

(في رسوم الإخوانيات المحدثّة بعد السلف ، وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصد الأول

(في رسوم إخوانيات أهل المشرق ، وفيه أربعة مباحٍ)

المهيّج الأول

(^(١) في صدور الابتداآت ، وهي على أساليب)

الأسلوب الأول - أن تفتح المكتبة بالدعاء ، وعليه أقصر أبو جعفر النحاس في كتابه " صناعة الكتاب " وكان على رأس الثلاثمائة في خلافة الرازي ؛ وقد تقدم في الكلام على مقدّمات المكاتبات نقلاً عن " موادّ البيان " أن الأدعية كانت في الزمن الأول تُستعمل فيما يتعلّق بأمر الدين : مثل قولك : أكرمك الله ، وحفظه الله ووفقه ، وحاطه ، وما أشبه ذلك ؛ فعُدل عنها قصداً للإجلال والإعظام إلى الدعاء بإطالة البقاء ، وإدامة العِزِّ ، وإسباغ النعمة ، ونحو ذلك : مما يتنافس فيه أبناء

(١) لم يذكر منها إلا الأسلوب الأول ونبه على أن النحاس أقصر عليه فتبه .

الدنيا، جرياً على عادة الفُرس . ثم رتبوا الدعاء على مراتب : بفعلوا أعلاها الدعاء بإطالة البقاء ، ثم بإطالة العمر ، ثم بالمد في العمر ، وكذلك سائر المكاتبات على ما تقدم بيانه هناك .

ثم هو على ستة أضرب :

الضرب الأول

(المكاتبه من المروس إلى الرئيس ؛ وهو على صنفين)

الصنف الأول

(المكاتبه إلى الأمراء)

قد ذكر النحاس أنه يقال في افتتاح مكاتبتهم : أطال الله بقاء الأمير، فإذا أردت أجل ذلك كله، كتبت : أطال الله بقاء الأمير في أعز العز وأدوم الكرامة والسرور والغبطة، وأتم عليه نعمه في علو الدرجة، وشرف من الفضيلة، ونتأج من الفائدة، ووهب له السلامة والعافية في الدنيا والآخرة ؛ وبلغ بالأمير أفضل ما تجرى إليه همته، وتسمو إليه أمنيته ، أو بلغ بالأمير أفضل شرف العاجل والآجل، وأجر له ثواب الآخرة .

ثم قال : ومن الدعاء له : أطال الله بقاء الأمير في عز قاهر ، وكرامة دائمة ، ونعمة سابعة ، وزاد في إحسانه إليه ، والفضيلة لديه ، ولا أخلى مكانه منه .
قال : ومنه أطال الله بقاء الأمير ، وأدام عزه وتأييده ، وعلوه وتمكينه ، وكبت عدوه .

ثم ذكر أدعية أخرى للأمراء عن الفضل بن سهل . منها - أطال الله بقاء الأمير، ومكن له في البسطة وتزايد النعمة ، وزاده من الكرامة والفضيلة ، والمواهب

الجليلة ، في أعزِّ عزٍّ وأدوم سلامة ، وأسبل عافية - ومنها - أطال الله بقاء الأمير ، وأدام له الكرامة مرغوباً إليه ، وزاد في إحسانه لديه ، وأتمَّ نعمته عليه ، ووصل له خير العاجل يجزى الآجل .

الصنف الثاني

(المكاتبة إلى القضاة)

وقد قال النحاس : إنه يدعى للقاضي بمثل ما يدعى به للأمير ، غير أنه يجعل مكان الأمير القاضي ، إلا أن الفضل بن سهل قال : يدعى لقاضي القضاة : أطال الله بقاء القاضي ، وأدام عزَّه وكرامته ، ونعمته وسلامته ، وأحسن من كلِّ جميل زيادته ، وألبسه عفوً وعافيته . وإنه يدعى له أيضاً : أطال الله بقاء القاضي في عزٍّ وسعادة ، وأدام كرامته ، وأحسن زيادته ، وأتمَّ نعمته عليه في أسبغ عافية ، وأشمل سلامة . قال : وقال غير الفضل : إن الكُفَّ يكتب كُفَّاه ومن كان خارجاً من نعمته : أدام الله بقاءك أيها القاضي .

الضرب الثاني

(المكاتبة من الرئيس إلى المرعوس : كالمكاتبة عن الوزير وقاضي القضاة)

وغيرهما ، والخطاب في جميعها بالكاف)

قال النحاس : وهي على مراتب ، أعلاها في حق المكتوب إليه أطال الله بقاءك وأدام عزَّك وأكرمك ، وأتمَّ نعمته عليك ، وإحسانه إليك وعندك . ودونه « أطال الله بقاءك ، وأعزَّك وأكرمك ، وأتمَّ نعمته عليك وعندك » . ودونه « أدام الله عزَّك ، وأطال بقاءك ، وأدام كرامتك ، وأتمَّ نعمته عليك ، وإدامها لك » .

ودونه « أعزك الله، ومد في عمرك، وأتم نعمته عليك، ومابعده على توالي الدعاء الذي تقدم ». ودونه « أكرمك الله وأبقاك، وأتم نعمته عليك، وأدامها لك ». ودونه « أن تسقط وأدامها لك ». ودونه « أبقاك الله وحفظك وأتم نعمته عليك، وأدامها لك ». ودونه « أن تسقط وأدامها لك ». ودونه « حفظك الله وأبقاك، وأمتع بك ». ودونه « عافانا الله وإياك من السوء » .

قال في "صناعة الكتاب" : هذا إذا جرى الأمر على نسبته ولم تتغير الرسوم، وإلا فقد يعرض أن يكون في الدولة من هو مقدم على الوزير أو مساوئ به فتتغير المكتبة، فقد كان عبد الله بن سليمان (يعني وزير المعتضد) يكتب أبا الجيش (يعني ثمارويه بن أحمد بن طولون) : أطال الله يا أُنحى بقاءك إلى آخر الصدر، للصاهرة التي كانت بين أبي الجيش وبين المعتضد ولأن المعتضد كناه . ثم قال : فإن كان الرئيس غير الوزير، فربما زاد في مكاتبته زيادة لمن له محل : فيزيده ويكتبه زيادة التأييد ودوام العز . قال : ويدعى للفقهاء : أدام الله بقاءك في طاعته وسلامته وكفائته، وأعلى جدك وصان قدرك، وكان لك ومنعك حيث لا تكون لنفسك . أو : أدام الله بقاءك في أسر عيش وأنعم بال، وخصك بالتوفيق لما يحب ويرضى، وحباك برشده، وقطع بينك وبين معاصيه . أو : أطال الله بقاءك بما أطال به بقاء المطيعين، وأعطاك من العطاء ما أعطى الصالحين . أو : أكرمك الله بطاعته، وتولاك بحفظه، وأسعدك بعونه، وأيدك بنصره، وجمع لك خير الدنيا والآخرة برحمته، إنه سميع قريب . أو : تولاك من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وكان لك من هو بالمؤمنين رؤوف رحيم . أو : أكرم الله عن التبار وجهك، وزين بالقوى تجلك . أو : أكرمك الله بكرامة تكون لك في الدنيا عزاً، وفي الآخرة من النار حرزاً .

الضرب الثالث

(المكتبة إلى النظراء، والمخاطبة فيه بالكاف)

قال في "صناعة الكتاب" وأعلى ما يكتب في ذلك (يعنى بالنسبة إلى المكتوب إليه) ياسيدى «أطال الله بقاءك وأدام عزك وتأييدك إلى آخر الصدر». ودونه «أطال الله ياسيدى بقاءك». ودونه «ياسيدى وأحى أطال الله بقاءك». ودونه «أدام الله يا أحى بقاءك».

الضرب الرابع

(المكتبة إلى الأبناء، والخطاب فيه بالكاف)

قال في "صناعة الكتاب" يكتب الرجل إلى ابنه : أبى أنت ، أو : فداك أبوك . أو : مات قبلك . أو : أسأل الله عز وجل حفظك وحياتك ورعايتك . أو : أرشدك الله أمرك . أو : أحسن البلاغ بك . أو : بلغ الله بك أفضل الأمل ، وأتم السرور بك ، وجعلك خلفا صالحا ، وبقية زاكية .

الضرب الخامس

(المكتبة إلى الفتيان، والخطاب فيه بالكاف)

قال النحاس : يُدعى لهم : صرف الله سوء عنك ، وعن حظى منك . أو : أطال الله بقاء النعمة عليك وعلى فيك . أو : جعلت أنا وطاري وتالذى فداك . أو : ملأنى الله إزاءك ، وأدام بقاءك . أو : أستودع الله عز وجل ما وهب لى من خلقك ، ومنحنى من أخوتك ، وأعزنى به من مودتك . أو : حاط الله حظى منك ،

وأحسن المدافعة عنك . أو : ببقائك مُنعت ، وفقدك مُنعت . أو : نفسى تفديك ،
والله يُبقيك ، ويقينى الأسواء فيك . أو : ملأنى الله النعمة ببقائك ، وهنأنى مامنحنى
من إخالِكَ . أو : أبقي الله النعمة لى ببقائها لك ، وبلغتها بك . أو : وفر الله حظى
منك ، كما وفر من المكارم حظك . أو : ملأنى الله ببقاك ، كما منحنى إخالكَ .
أو : دافع الله لى وللكارم عن حوائك ، وأمتعنى ببقائك ، وجمع أملى فيك بجمعه
المكارم لك . أو : زادك الله من النعم حسب تزيديك فى البر لإخوانك ، وبلغ بك
أملهم كما بلغ بهم آمالهم فيك .

الضرب السادس

(المكاتبة إلى النساء)

قد ذكر النحاس أنهن يُكاتبن على نظير ما تقدم من مكاتبة الرئيس والمرئوس
والنظير ، غير أنه قد وقع فى الاصطلاح من بعضهم أنه لا يقال فى مكاتبتهم وكرايمك
ولا وأتم نعمته عليك ، ولكن وأتم نعمته لديك ، ولا فضله عندك ، ولا سعادتك ،
ولا فعلت ولا أن تفعل ، ولكن يقال : إن رأيت أن تمنى بذلك مننت به ، وما
أشبه ذلك ، وقد تقدم فى الكلام على مقدمات المكاتبات بيان كرايمهن لذلك .

قلت : ثم راعى الكُتَّاب فى تعظيم المكتوب إليه أن عدلوا عن خطابهم بالكاف
عن نظير خطاب المواجهة إلى معنى الغيبة ، فقالوا : له ، وإليه ، وعنده ، ونحو ذلك
وخصوا الخطاب بالكاف بأدنى المراتب فى حق المكتوب إليه . على أنه قد تقدم
من كلام النحاس إنكار ذلك على من أعتمده محتجاً عليه بأنه لا أعظم من الله تعالى
مع أنه يقال فى الدعاء يا الله ونحو ذلك .

(١) كذا فى الأصل ولعل مراده وغير الكاف من ضمير خطاب المواجهة إلى الخ .

وقد ذكر ابن حاجب النعمان في كتابه "ذخيرة الكتاب" أدعيةً مرتبةً على الغيبة، وقال: أعلاها «أطال الله بقاءه»، وأدام تمكينه وارتقاءه، ورفعته وسنائه، وكبت عدوه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام تأييده، وعلاه وتمهيدَه، وكبت عداه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام تأييده وحرس حوباءه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام تأييده ونعماءه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام نعماءه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام عزَّه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام توفيقه وتسديده». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام سدادَه وإرشادَه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام حراسته». ودونه «أدام الله تأييده». ودونه «أدام الله توفيقه». ودونه «أدام الله عزَّه وسنائه». ودونه «أدام الله عزَّه». ودونه «أدام الله حراسته». ودونه «أدام الله كرامته». ودونه «أدام الله سلامته». ودونه «أدام الله رعايته». ودونه «أدام الله كفايته». ودونه «أبقاه الله». ودونه «حفظه الله». ودونه «أعزَّه الله». ودونه «أيَّده الله». ودونه «حرسه الله». ودونه «أكرمه الله». ودونه «وَقَّفه الله». ودونه «سلمه الله». ودونه «رعاه الله». ودونه «عافاه الله». وعلى معنى الغيبة يقال في الدعاء أطال الله بقاء الأمير. أو بقاء القاضي. أو بقاء سيدي. أو بقاء مولاي، وما أشبه ذلك في كل رتبة بحسبها.

وأعلم أن الداهيين من الكُتَّاب إلى إجراء المخاطبة في المكتبة على معنى الغيبة كما هو طريقة ابن حاجب النعمان وغيره، يعبرون عن المكتوب إليه بلقبه الخاص: كالوزير، والأمير، والحاجب، والقاضي، وما أشبه ذلك؛ وذكره بالسيادة وما في معناها، مفضلين لفظ الجمع، كسيِّدنا ومولانا على لفظ الأفراد كسيدي ومولاي؛ ويتعتون المكتوب إليه بالجليل أو الحاجب الجليل، ويعملون الأفراد دون ذلك في الرتبة فيقولون: سيدي، أو مولاي الأمير الجليل، أو الحاجب الجليل،

ونحو ذلك . ثم توسّعوا في ذلك بفعلوا الدعاء متوسطاً كلام الصدر على القرب من الابتداء ، مقدّمين بعض كلام الصدر عليه ، ومؤخّرين بعضه عنه . مثل أن يقال في المكتبة بشكر : إذا كان الشكر - أطال الله بقاء سيدنا الأمير فلان - ترحمان النبي ، ولسان الطويّة ، وشاهد الإخلاص ، وعنوان الإختصاص ، وسبباً إلى الزيادة ، وطريقاً إلى السعادة ، وكانت معارفه قد أحاطت بمعادنه ، واستولت على محاسنه ، فالسنُّ آثارها مع الصمت أفصح من لسانه ، وبيانها مع الجحود أبلغ من بيانه ، ونحو ذلك . ثم أحدثوا اصطلاحاً آخر أضافوه إلى الاصطلاح الأول ، قدّموا على الدعاء لفظ «كاتبنا» أو لفظ «كاتبى» رتبةً دون رتبة ، مثل أن كتبوا : كاتبنا - أطال الله بقاء الأمير - ونحن على أفضل ما عودنا الله من انتظام الأمور وسدادها ، واستقامتها بحضرتنا وأطرادها . أو كاتبى - أطال الله بقاء مولاي الحاجب - عن سلامة ينغصها فقدك ، ويتقصها فراقك ، وما يجرى مجرى ذلك . وربما أبدلوا لفظ كاتبنا أو كاتبى بلفظ كتبت بصيغة الفعل ، وربما أبدعوا بلفظ أنا ونحوه . ثم خرج بهم الاختيار إلى مصطلحات اصطلاحوا عليها مع بقاء بعض المصطلح القديم : خاطبوا بالحضرة تارة ، وبالخدمة تارة ، وبالمجلس أخرى ، فكتبوا : كاتبى - أطال الله بقاء حضرة سيدنا الوزير ، أو سيدنا الأمير ، ونحو ذلك ، أو أسعد الله الحضرة ، أو أسعد الله الخدمة ، أو ضاعف الله جلال الخدمة ، أو أعز الله أنصار الخدمة . وربما كتبوا : صدرت هذه الخدمة إلى فلان . وقد يكتبون : صدرت هذه الجملة ، إلى غير ذلك من تفنّاتهم التي لا يسع استيعابها ، ولا يمكن اجتماع متفرّقاتها .

قلت : وبالجملة فضبط صدور الإخوانيات وابتدائها على هذا المصطلح غير ممكن لأختلاف مذاهبهم في ذلك ، والذي تحصّل لى من كلام النحاس

وَأَبْنُ حَاجِبِ النِّعَانِ، وَتَرْسُلُ أَبِي إِسْحَاقَ الصَّابِي، وَالْعَلَاءُ بْنُ مُوَصَّلَايَا، وَأَبِي الْفَرَجِ
الْبَيْهَقِيِّ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْكُتَّابِ الْمُجِيدِينَ أَنَّ الْغَالِبَ فِي الْمَكَاتِبِ الدَّائِرَةِ بَيْنَ أَعْيَانِ
الدُّوَلِ عَلَى سَبْعَةِ أَسَالِيبَ :

الأسلوب الأول

أَنْ تَفْتَحَ الْمَكَاتِبَ بِالْدَّعَاءِ

كَمَا كَتَبَ أَبُو إِسْحَاقَ الصَّابِي إِلَى الصَّاحِبِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَبْدِ الشُّكْرِ وَالتَّشَوُّقِ .

أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ سَيِّدِنَا الصَّاحِبِ الْجَلِيلِ، فِي سَلَامَةِ دُنْيَا وَدِينِ، وَنَفَازِ أَمْرٍ وَتَمَكُّينِ،
وَتَمَامِ عِزٍّ وَتَأْيِيدِ، وَثَبَاتِ وَطَاءٍ وَتَمْهِيدِ، وَعُلُوِّ قَدَرٍ وَسُلْطَانِ، وَتَعَاظِمِ خَطَرٍ وَشَانِ،
وَتَوَلَّاهُ فِي نَفْسِهِ وَأَوْلِيَائِهِ بِأَحْسَنِ مَا عُرِفَ وَأُلْفَ، مِنْ نِعَمِ دَارَةِ الْحَلَبِ، مَتَفَرِّعَةِ
الشَّعْبِ، مَحْمِيَةِ الْجِهَاتِ وَالْجَوَانِبِ، مَحْجُوبَةٍ عَنِ النَّوَابِ وَالشَّوَابِ، وَأَرَاهُ فِي حُسَادِ
فَضَائِلِهِ، وَكُفَّارِ فَوَاضِلِهِ، مَا عَوَّدَهُ فِيهِمْ مِنْ شَقَاءِ جُدُودِهِمْ، وَفُلُولِ حُدُودِهِمْ، وَحُلُولِ
النِّكَالِ بِهِمْ، وَإِثْبَاتِ الْعِصْمَةِ مِنْهُمْ . وَجَعَلَ حُكْمَهُ قُطْبًا لِمَدَارِ الْإِنْفَالِ، وَنَهْجًا
لِجَارِي الْأَقْدَارِ، فَلَا يَنْزِلُ مِنْهَا مَحْبُوبٌ مَطْلُوبٌ إِلَّا تَوَجَّهَ إِلَيْهِ وَتَحَاوَى، وَلَا يَحْذَرُ إِلَّا
أَعْرَضَ عَنْهُ وَتَحَامَاهُ، ثُمَّ كَانَ بَرُّؤُسَ مَعَانِيهِ حُلُولُهُ، وَبِرِّقَابِهِمْ إِحَاطَتُهُ، وَفَوْقَ
ظُهُورِهِمْ تَحَلُّهُ، وَطَى صُدُورَهُمْ بِجَنَمِهِ، أَمْرًا جَزَمَا قَضَاهُ اللَّهُ لَهُ وَخَصَّهُ بِهِ، وَأَعْطَتْهُ
الْأَيَّامُ عَلَيْهِ عَهْدَ أَمَانِيهَا، وَأَمَرَّتْ لَهُ بِهِ عَقْدَ ضَمَانِيهَا، غَاطِفَةً عَلَيْهِ بِطَاعَتِهَا وَمُؤَانَاتِيهَا،
مُغْضِيَةً لَهُ عَنْ نَوَائِبِهَا وَتَبَوَّاتِيهَا، وَحَقِيقَ عَلَيْهِ جَلَّ أَسْمُهُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ بِهِ، وَيَسْمَعَ
هَذَا الدَّعَاءَ فِيهِ، إِذْ كَانَ مَرْفُوعًا إِلَيْهِ فِي أَوْفَرِ عِبَادَةِ فَضْلَا، وَأَعْمَرَهُمْ نَيْلًا، وَأَجْرَهُمْ
أَدْبَا، وَأَكْثَرَهُمْ حَسَبًا، وَأَعْمَلَهُمْ بِطَاعَتِهِ، وَأَوْلَاهُمْ بِإِحْسَانِهِ وَمَعُونَتِهِ،

كتب هذا الكتاب أطال الله بقاء سيدنا صاحب الجليل ؛ ثم آنخرط في سلك مقصده إلى آخره .

الأسلوب الثاني

أن يتوسط الدعاء صدر الكتاب بعد الابتداء بكلام مناسب للحال .

كما كتب أبو إسحاق الصابي أيضا عن بعض الأمراء إلى أمير آخر، مبشرا بفتح :
ومن أعظم النعم - أطال الله بقاء مولانا الأمير الجليل - خطرا ، وأحسنها أثرا ،
نعمه سكنت ثوره ، وأطفأت فوره ، وعادت على الناس بحجمل الصنع ، وجيل النفع ،
ونظام الأمور ، وصالح الجمهور ، فلك التي يجب أن يكون الشكر عليها مترادفا ،
والاعتداد بها متضاعفا ، بحسب ما أزالته من المضره ، وجددت من المسرّه ،
وأماطت من المحدثور ، ونشرت من المأمول . وحقيق على الناس أن يعرفوا حقها ،
ويؤفوها من حمد الله قسطها ، ويتجزؤه وعده الحق في أداها ، وإطالة الإمتاع بها ،
والحمد لله على أن جعلنا ممن يعرف ذلك ويهتدى إليه ، ويعتقده وينطوي عليه ،
ويؤدى فرض الاجتهاد في الاستدامة والاستراة منه ، وأن خصنا من هذه النعم
بذوات الفضل السابغ ، والظلل الماتع ، الجامعة لكبت العدو ومساءته ، وابتهاج الولي
ومسرته ، وهو المسئول جل اسمه وعز ذكره ، أن لا يسلبنا ما ألبسناه من سرايلها ،
وأجرنا من فضل ذيولها ، وعودناه من جلاله أقدارها ، وتعاضم أخطارها ، ولا يعبدنا
معونه منه على بلوغ أقصى الوسع في الاعتداد بها ، ومُنْتَهَى الطوق في البشر لها ،
بمنه وطوله ، وقوته وحوله .

وقد عرف مولانا الأمير فلان ما كاتب من كذا وكذا ؛ ثم أتى على ذكر الفتح إلى آخره .

الأسلوب الثالث

أن يُفْتَحَ الْكِتَابُ بلفظ « كتابي » كما كتب الصابى عن الوزير أبى عبد الله الحسن بن سعدان ، إلى نحر الدولة بن بويه في إشارة فتح .

كتابي - أطال الله بقاء مولانا الأمير الجليل نحر الدولة - ومولانا الملك السيد صمصام الدولة وشمس الملّة ، جارٍ على أفضل حال ، جمع الله بينهما في تمام عزّ ونصر ، ونفاذ أمرٍ ونهى ، وعلوّ كلمةٍ ورأي ، وسبوغ موهبةٍ ونعمه ، وشكر الله يستريد من فضله ، ويستدرّ المادة من طوله ، وأنا جارٍ فيما أحمله من أعباء خدمتهما ، وأتولاه من تعاطم شئونهما ، على أجمل ما عود الله وزراء هذه المملكة المناهجين لها ، وأوليائها المحامين عنها ، من هداية إلى مرآشد الأمور ، وتوفيق لصواب التدبير ، والحمد لله رب العالمين ، وقد كان كذا وكذا .

الأسلوب الرابع

أن يُفْتَحَ الْكِتَابُ بلفظ « كتبت » كما كتب الصابى إلى صاحب الجيش في تعزية : كتبت - أطال الله بقاء سيدنا صاحب الجيش - والعين عبرى ، والكبد حرى ، والصبر مسلوب ، والعزاء مغلوب ، بالفجعة في سيدي فلان نصر الله وجهه ، وكرم منقلبه ، التي هدّت الجلد ، وفئت في العضد ، وبسطت عذر الجزوع ، وهجنت حلم الحليم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وإلى أمره صائرون ، وعند الله نخسبه غصنا ذوى ، وشهاباً خبا ، وعالق مضنة علق به أيدي النوائب ، وتخيره سهام المصائب ، وقارنت بين قلوب الأبعد والأقارب ، والخواص والعوام في التألم لفقده والإستيحاش لمصرعه ، والكتابة لوقوع المهدور به ، وعزّ على أن يجرى لساني بهذا القول ، ويدي هذا الخط ، إلى آخر المكاتبة .

الأسلوب الخامس

أن يُفْتَحَ الْكِتَابُ بِالْخُطَابِ : كما كتب صاحبُ ديوان الإنشاء في زمن المسترشد عن نفسه ، إلى تُجَاعِ الدَّوْلَةِ وَزِيرِ دِمَشْقَ ، بعد هَلَاكِ زَنْكِي بن أَقْسُنُقُر .

أيها السَّيِّدُ الرَّئِيسُ الْحَامِي عن سِرِّهِ ، والذي قَصَّرَ إلَّا في الْمَعَالَى ، رَبُّ نَائٍ بِجِسْمِهِ وَهُوَ دَائِنٌ بقلْبِهِ ، وغريبٌ إِذَا نُسِبَتْ وَأَمِيرٌ عَلَى دِمَشْقَ مَطَاعٌ فِي صَحْبِهِ ، وله بالعِراقِ إِخْوَانٌ مِنْ حِزْبِهِ ، إلى آخرِ الْمَكَاتِبَةِ .

الأسلوب السادس

أن تُفْتَحَ الْمَكَاتِبَةُ بِلفظ : «أنا» كما كتب الصَّابِي عن نفسه إلى الْأَمِيرِ أَبِي الْحَسَنِ يَهَنُّهُ بِعِيدٍ .

أنا - أطال الله بقاء سيِّدنا الْأَسْتَاذِ الْأَمِيرِ - أَحَاوِلُ الْخِدْمَةَ لَهُ وَالْقُرْبَةَ مِنْهُ مِنْذُ وَصَلْتُ إِلَى الْعَسْكَرِ الْمَنْصُورِ ، فَيَعْتَرِضُ دُونَ ذَلِكَ عَوَارِضٌ يَجْرِي بِهَا الْمَقْدُورُ ، إِلَى الْحَيْنِ الْمَوْقَتِ الْمَسْطُورِ ؛ وَقَدْ عَلِمَ مِنِّي وَشِيرَ عَنِي كَذَا وَكَذَا ، إِلَى آخِرِ الْكِتَابِ .

الأسلوب السابع

أن تُفْتَحَ الْمَكَاتِبَةُ بِلفظ « صَدَرَتْ » أو « أَصْدَرْتُ » كما كتب صاحبُ ديوان الإنشاء في زمن المسترشد عن نفسه إلى أَبِي الْفَرَجِ سَعْدِ بْنِ مُحَمَّدٍ تَشَوُّقًا .

صَدَرَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ إِلَى فُلَانٍ ، وَلَوْاعَجُ الْأَشْوَاقِ إِلَيْهِ مَتَضَاعِفَةٌ مِتْرَادِفَةٌ ، وَاسْتَمَرَّارُ الصَّبْرِ عَلَى الْبُعْدِ عَنْهُ قَدْ رَثَّ قُوَاهُ ، وَوَهَنَ عُرَاهُ ، وَأَعْوَزْنَا وَجْدَانَهُ إِذْ عَنَّتْ ذِكْرَاهُ ،

وإن كان ذكره سَمِيرَ الخاطر، وَثَجَاهِ الناظر، والغريم المَلَازم، الذى يستحق غالبه اللبيب الحازم، إلى آخر الكتاب .

المهية الثاني

(فى الأجوبة على هذا المصطلح ، وهى على ضربين)

الضرب الأول

أن يُفْتَحَ الجواب بما يُفْتَحُ به الابتداء ثم يقع التعرُّض بعد ذلك لوصول الكتاب والجواب عنه : إما ملاصقاً لأوّل الابتداء ؛ وإما بعد كلام طويل .
فأما ما هو متصل بأوّل الابتداء، فكما كتب الصابى .

كتابى — ووصل كتاب مولائى وفهمته ، وجلّ عندى قدره وموقعه ، وسكنت إلى مادّل عليه من سلامته ، وسألت الله أن يُسَبِّحَ عليه ظلّها ، ويُلِّيه نعمة كلّها ،
فأما ما ذكره من كذا وكذا ، إلى آخر الكتاب .

وأما ما هو بعد كلام طويل ، فكما كتب الصابى أيضاً عن نفسه إلى الصاحب ابن عباد .

كتابى — أطل الله بقاء مولانا الصاحب الجليل كافى الكفاه — وليس من جارحة إلا ناطقةً بشكره وحمده ، ولا فى الدهر جراحة إلا عافيةً بفضلِهِ ورِفْدِهِ ، وأنا مستمرُّ له على دعاء : إن خلوتُ من أن يكونَ عائداً لصلاحي ، ورأيتُنا لحنّاجي ، لآلئِرمته عن الأحرار العائشين فى نداه ، المستظّلين بِدَرَاهِ^(١) ، فكيف وأنا أوّل ساهر فى مرابعه ،

(١) الذى ما يستكن فيه الانسان والظل راجع ج ١٨ من السان .

ووارِد لِشِرائِعِهِ ، وَأَحْوالِي جاريةً عَلَى اسْتِقامَةٍ أَقْوى أَسبابِها تَصَرُّفُ الأَيامِ عَلَى آرائِهِ ،
وَأَتباعُها إِشارَةُ في أَوْلِيائِهِ وأُعدائِهِ ؛ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العالَمِينَ ، قَضاءُ حَقِّهِ وَأَقْضاءُ
لَمَزيدِهِ ، وَاسْتِدامَةُ لِلنَّعْمَةِ عِنْدَهُ ، الَّتِي اسْتَحْصَقْتُ في أَيدينا سَعَمَها ، وَسالَتْ عَلَيْنَا
شِعبُها ، وَغَمَرَتْنا سِجْالُها ، وَفَتَّياتُ لَنَا ظِلالُها ، وَمَا يَزَالُ بَيْنَ رَغْبَةٍ مَوْلانا الصَّاحِبِ الجَلِيلِ
كَافِي الكُفَّاةِ - أَدامَ اللهُ عُلُوَّهُ ، وَكَبَّتْ عُدُوَّهُ ، في عِبدِهِ وَرَغْبَةٍ عِبدِهِ إِلَيْهِ سِرٌّ مَكْنُونٌ
في الصُّدُورِ ، وَمَسْتورٌ تَحْتَ الصُّلُوعِ ، فَهَما يَتَنَاجِيانِ بِهِ عَلَى بَعْدِ الدَّارِ ، وَيَلْتَقِيانِ
عَلَيْهِ بِالْأَفْكارِ ، فَإِنَّ تَطَلُّعَ مِنْ حِجابِ القُلُوبِ ؛ وَشَدُّ مِنْ ظُهورِ الغُيوبِ ، فَإِنَّ ظُهورَهُ
يَكُونُ مِنْ جِهَتِهِ في نَفَحاتِ الإِنعامِ ؛ وَمِنْ جِهَتِي في ثَمَراتِ الكلامِ . وَقَدْ وَصَلَ كِتابُهُ
المَخْطُوطُ بِكَرَمِهِ لا بَقائِهِ ، إِلَى صَنِيعَتِهِ المائِلِ بَيْنَ يَدَيْهِ بِهَمِّهِ لا بَقَدَمِهِ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ
أَنْ يَنْهَضَ مِنَ الفِكرِ ، إِلَّا بِقَدْرٍ ما يَرى سَاحَتَهُ مِنَ الكُفْرِ ، وَيَلْغُهُ إِلَى آحِرِ الإِجْتِهادِ
وَالْعُدْرِ ؛ وَأَسأَلَ اللهُ أَنْ يَطِيلَ بقاءَهُ لِلإِفضالِ المَأخُوذِ مِنْهُ ، وَالْفَضْلِ المَأخُوذِ عَنْهُ ،
وَالْعِلْمِ الَّذِي يَزْخَرُ بِهِ بِجُودِهِ ؛ وَالْفَخْرِ الَّذِي يُسْحَبُ لَهُ ذِيْلُهُ ، وَالْعِزِّ الَّذِي ضُرِبَ عَلَيْهِ
رُؤُوفُهُ ، وَالسُّلْطانِ الَّذِي أُلْقِيَ إِلَيْهِ اسْتِحْقاؤُهُ ، وَالأَمْرِ وَالنَهْيِ اللَّذِينَ يَحْويُهُما تَرانَا
وَأكْتِسابَا ، إِذا حَواهُما غَيْرُهُ غُلُولًا وَأَغْتِصابًا ، بِنَمَّةٍ وَطُولِهِ ؛ وَقَدْ كانَ كِذاً وَكَذاً .

الضرب الثاني

(أَنْ يُفْتَحَ الجِوابُ بلفظ «ورد أو وصل» ونحوهما)

كَمَا كَتَبَ الصَّابِي عَنِ الوَزِيرِ أَبِي عَبْدِ اللهِ بْنِ سَعْدانَ في جِوابِ كِتابٍ وَرَدَ عَلَيْهِ .
وَصَلَ كِتابُكَ - أَطالَ اللهُ بقاءَكَ - وَفَهِمْتُهُ ، وَأَدَّى فُلانٌ ما تَمَلَّه عَنْكَ وَوَعَيْتُهُ ،
وَأَزْدَدْتُ بِهِ بَصِيرَةً في سَدادِكَ وَمَعْرِفَتِكَ ، وَفَضْلِكَ وَحَصافَتِكَ ، واجْتِماعِ الأَدواتِ
الجَمِيلَةِ فِيكَ ، الداعِيَةِ إِلَى إعلاءِ مَحَلِّكَ ، وَحَمِيدِ حالِكَ ، وَالثَّقَةِ بِكَ ، وَالإِسْتِنامَةِ إِلَيْكَ ،

وأنهيت ذلك إلى مولانا الملك فلان ، فأصغى إليه مستمعاً ، وأوجب لك به حقاً متضاعفاً ، وأمرني بكذا وكذا إلى آخر مراده .

وكما كتب أبو الفرج البغاء في جواب كتاب :

ورد كتابك مُشافهاً من البرِّ ، ومؤدياً من الفضل ، ومتحملاً من المنِّ ، مانحاً واز الإنصاف إلى الإسراف ، وقرن الإكرام بالإنعام ؛ ولم أدر أى المنح به أشكر ، ولا بأى العوارف له أعترف : أبما تحمله من جميل نيته ، أم ما أدنى من جليل مخاطبته ، أم ماناجتني به فوائد ملاطفته ، أم ما اعتمدني من حلاوة مُفاوَصته ، إلى غير ذلك من الوصول إلى النعمة التي لا أطاولها بشكر ، ولا أقاومها بمنة أعتداد : وهو ابتداءه إياي من المكاتبة بما أحرز به على عادته قصب السبق ، وزاد على الرغبة مبرها وبصادق الودِّ مُحبراً ، وإلى البسط دليلاً ، وعلى مستأنف الخدمة بالمواصلة باعثاً ، ووجدته أيده الله قد فعل كذا وكذا .

المهية الثالث

(في خواتم الإخوانيات على هذا المصطلح)

وأعلم أنه لم يكن لهم ضابط للاختتمات ، ولا ما يقتضى ملازمة اختتام معين لصديق معين ، بل ذلك موكول إلى رأى الكاتب لا يراعى فيه غير علو الرتبة وهبوطها ، حيث تفاوتت رتب الاختتمات عندهم .

ثم الاختتمات لديهم على أنواع شتى .

منها — الاختتام باستمache الرأى ، وهو على مراتب : أعلاها «ولمولانا علو الرأى فى ذلك» كما كتب الصابى فى خاتمة كتاب : ولمولانا علو الرأى فى تشريف خادمه

بالقبول، والتقدم بإعلامه بالوصول، واستخدامه بما يتعلق بأرابه وأوطاره - ومن نظائر ذلك وأشكاله - إن شاء الله تعالى .

ودون ذلك - الاختتام بلفظ « فإن رأى كذا وكذا فعل » كما كتب الصابي في خاتمة كتاب بشارة بفتح ، فإن رأى سيدي أن يعرفني موقع هذه البشري منه ، ومقابلتها بالشكر الواجب عليها ، ويتقدم بإشاعتها في نواحيه وأعماله ، ليكتب الله به عدوه وعدونا ، ويكاتني بما أطلعته من أحواله وأخباره ، وأتعمد إسعافه به من مآريه وأوطاره ، فإنني أعتده شريكاً لنا مساهماً ، وخليطاً مفاضاً ، فعل إن شاء الله تعالى .

ودونه « فرأيك في كذا وكذا » كما كتب أبو الفرج البيهقي في خاتمة كتاب في الحث على مواصلة الكتب ، فرأيك في إيناسنا بكتبك متضمنة ماؤثره من أنيساطك ، ونعلمه من أخبارك ، موقفاً إن شاء الله تعالى .

وقد تقدم في الكلام على أصول المكاتبات لأى معنى كان فرأيك دون فإن رأيت .

وذكر ابن حاجب الثعمان أن أعلى المراتب « وللآراء العالية فضل السمو ومزيد القدرة . ودونه « ولرأى المجلس الفلاني فضل وسموه » . ودونه « ولرأى الحضرة الفلانية فضله » . ودونه « ورأى حضرة مولانا أسمى » . ودونه « ورأى حضرة مولاي العالى » . ودونه « ورأيه موقفاً » . ودونه « ورأيه السديد » . ودونه « ورأيه الأرشد » . ودونه « والمؤثر كذا » . ودونه « فأحب أن يفعل كذا » . ودونه « ويجب أن يفعل كذا » . ودونه « فافعل كذا من غير مخالفة » . ودونه « واحذر المخالفة » .

ومنها — الاختتام بالدعاء، كما كتب الصابي خاتمة كتاب «وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُطِيلَ بَقَاءَهُ، وَيَصِلَ إِخَاءَهُ، وَيَحْفَظَهُ بَعِيدًا وَقَرِيبًا، وَيَرْعَاهُ غَائِبًا وَحَاضِرًا».

ومنها — الاختتام بطلب مواصلة الكتب، كما كتب الصابي في خاتمة كتاب؛ وأنا أسأله أَنْ يُوَاصِلَنِي بِكُتُبِهِ، مُضَمِّنَةً أَخْبَارَهُ الطَّيِّبَةَ، وَأَمْرَهُ الْمُسْتَحْتَمِلَ، وَأَوْطَارَهُ وَمُهَمَّاتِهِ، مَعْتَمِدًا بِذَلِكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

ومنها — الاختتام بترك التكليف بالمكاتبة في غير الضروري، كما كتب الصابي في آخر مكاتبة، وما أَطَالَبُ سَيِّدِي بِالْمَكَاتِبَةِ إِلَّا عِنْدَ الْحَاجَةِ الْعَارِضَةِ؛ فَإِنَّهُ يُفِيدُنِي بِهَا جَمِيلًا أَشْكُرُهُ، وَيَسْتَفِيدُ مِنِّي سَعْيًا يَجِدُّهُ، فَأَمَّا مَا عَدَا ذَلِكَ مِمَّا يَشْغُلُ أَوْقَاتَ رَاحَتِهِ، وَيُسَدُّ فُرْجَ خَلْوَتِهِ، فَإِنِّي أَسْتَعْفِي مِنْهَا أَسْتَعْفَاءَ الْمُتَقَرَّبِ إِلَيْهِ، الْمُؤَثِّرِ لِمَا خَفَّ عَلَيْهِ، وَلَهُ فِيمَا سَأَلْتُ فَضْلُ النَّظَرِ فِيهِ، وَالْإِسْعَافِ بِهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

ومنها — الاختتام بالتحذير من المخالفة، كما كتب الصابي في خاتمة كتاب إلى جماعة بتحصيل قوم: وَلْيُكْتَبْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِحَبْرٍ مِنْ عَنِي أَنْ يَظْفَرَ بِهِ مِنْ هَؤُلَاءِ، أَوْ يَقِفَ عَلَى مَوْضِعِهِ، أَوْ يَنْتَهِيَ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ خَبَرِهِ، وَلْيَحْذَرُ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي ذَلِكَ. إلى غير ذلك من الاختتمات التي لا تحصى كثرة.

وقد ذهب كثير من الكُتَّاب [إلى عدم تفضيل بعض الاختتمات على بعض] على أَنَّ^(١) ابن حجب النُّعْمَان قد قال في «ذخيرة الكتاب» إِنَّ أَعْلَى ذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ: وَلِلْأَرَاءِ الْفَلَائِيَةِ فَضْلُ السُّمُوِّ وَمَزِيدُ الْقُدْرَةِ. ودونه «وَلِرَأْيِ الْمَجْلِسِ الْفَلَائِيِ فَضْلُهُ وَسُمُوهُ». ودونه «وَلِرَأْيِ الْحَضَرَةِ الْفَلَائِيَةِ فَضْلُهُ». ودونه «وَلِرَأْيِ حَضَرَةِ سَيِّدِنَا أَشْمِي». ودونه «وَلِرَأْيِ حَضَرَةِ مَوْلَايَ الْعَالِي». ودونه «وَلِرَأْيِهِ».

(١) اقتبسنا هذه الجملة من المقام وأضفنا لها تسيم الكلام وعبارة ابن حجب النُّعْمَان فمحدث في الصفحة

مَوْفَقًا . ودونه «وَرَأْيُهُ السَّيِّدُ» . ودونه «وَرَأْيُهُ الْأَرشَدُ» . ودونه «وَالْمُؤَثَّرُ كَذَا» . ودونه «فَأُحِبُّ كَذَا» . ودونه «وَيَجِبُ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا» . ودونه «وَسَبِيلُهُ أَنْ يَتِمَّدَ كَذَا» . ودونه «فَاعْمَلْ كَذَا» . ودونه «فَاعْمَلْ كَذَا مِنْ غَيْرِ مَخَالَفَةٍ» . ودونه «وَاحْذَرْ الْمَخَالَفَةَ» .

المهيمع الرابع

(في عُنوانات الكتب على هذا المصطلح ، وفيها أربعة أحوال)

الحالة الأولى — أن يكون العنوان من الرئيس إلى المرئوس ، قد ذكر في "صناعة الكتاب" أن العُنوانات من الوزير والقاضي وغيرهما من الرؤساء على تسع مراتب :

(الأولى) أن يكتب في الجانب الأيمن «لأبي فلان أطل الله بقاءه وأعزه» ، وفي الجانب الأيسر «من فلان بن فلان» باسم الوزير وأسم أبيه إن لم يكنه الإمام ؛ فإن كتبه ، كتب «من أبي فلان» ، والقاضي في معنى ذلك .

(الثانية) أن يكتب في الجانب الأيمن «لأبي فلان أطل الله بقاءه» فقط ، ويكتب الأسم ولا يكتب وأعزه^(١) .

(الثالثة) أن يكتب في الدعاء للكتوب إليه ، أدام الله عزه .

(الرابعة) أن يكتب أعزه الله .

(الخامسة) أن يكتب أكرمه الله وأدام كرامته .

(١) أى أسم الوزير في الجانب الأيسر وقوله ولا يكتب وأعزه أى في الدعاء للكتوب إليه الذى هو في الجانب الأيمن فتنبه .

(السادسة) أن يُكْتَبَ أكرمهُ اللهُ ، وفي ذلك يَكْتُبُ أَسْمُ الوَزيْرِ في الجَانِبِ الأيسر .

(السابعة) أن يُكْتَبَ أبْقَاهُ اللهُ ، ولا يَذْكُرُ أَسْمُ الوَزيْرِ في هذه المَرتَبَةِ وما بَعْدَهَا .

(الثامنة) أن يَكْتُبَ حَفِظَهُ اللهُ ولا يَكْتُبُ أَسْمُ الوَزيْرِ .

(التاسعة) أن يَكْتُبَ عَافَاهُ اللهُ .

وعلى نحو ذلك جرى أبْنُ حَاجِبِ النُّعْمَانِ في ”ذخيرة الكتاب“ فقال : إنه يَبْدَأُ في الجَانِبِ الأيمن بِذِكْرِ المَكْتُوبِ إِلَيْهِ وَنُعُودِهِ وَكُنْيَتِهِ وَأَسْمِهِ وَأَسْمِ أَبِيهِ وَتَسْمِيَةِ المَشْهُورِ مِنْ نَاحِيَتِهِ أَوْ قَبِيلَتِهِ أَوْ بَلَدِهِ ، ثُمَّ يَذْكُرُ المَكْتُوبَ عَنْهُ في الجَانِبِ الأيسر بِأَسْمِهِ وَأَسْمِ أَبِيهِ ، فَإِنْ كَانَ الكِتَابُ عَنِ الوَزيْرِ ، ذَكَرَ كُنْيَتَهُ في الجَانِبِ الأيسر ، إِنْ كَانَ الإِمَامُ أَمْرَهُ أَنْ يَكْتُبَ مَتَكْنِيًّا أَوْ مَتَلَقًّا .

وقد سبق في الكلام على أصول المكاتبات في أول الباب الثاني من هذه المقالة أن من السلف من كره لأبي فلان وقال : الصواب أن يكتب إلى أبي فلان . قال في ”صناعة الكتاب“ ويكتب : لأبي الحسن ، فإن أعدت الكنية في الناحية الأخرى رفعت فقلت أبو الحسن على بن فلان على المبتدأ والخبر أو على إضمار مبتدأ ، وإن شئت خفضت على البذل ، فإن لم تعد الكنية كان الخفض أحسن فقلت لأبي الحسن ، ثم قال : وإن كتبت إلى رجلين كنية كل منهما أبو الحسن ، كتبت لأبوي الحسن إذا لم يكن لهما ولد يقال له الحسن ، فإن كان لكل منهما ولد يقال له الحسن ، جاز أن يكتب لأبوي الحسنيين . قال : والاختيار أن يكتب لأبوي الحسن أيضا ، لأنَّ المعنى للذين يقال لكل واحد منهما أبو الحسن . ويجوز أن يكتب إلى الرجلين اللذين يكتبان بأبي الحسن : لأبي الحسن بفتح الباء وكسر الياء على لغة

من قال جاءني أبك ، والأصل فيه لأبين الحسن سقطت النون للإضافة ، ويكتب في الجميع لأبي الحسن بكسر الباء ، الأصل لأبين بكسرها أيضا ، سقطت النون للإضافة على لغة من قال : جاءني أبوك^(١) يعني بضم الواو ، ويموز أن يكتب لرجل كنيته أبو الحسن لأبا الحسن على لغة القصر ، كما يقال لفتى الحسن .

قال في " ذخيرة الكتاب " وإن كان الكتاب إلى اثنين وكنايتهما مختلفة : كأبي جعفر ، وأبي منصور ، وأبي بكر ، كتبت آباء جعفر ومنصور وبكر . وإن كانت كنايتهم متفقة مثل أن تكون كنية كل منهم أبو جعفر كتبت آباء جعفر .

الحالة الثانية — أن يكون العنوان من المرئوس إلى الرئيس . قد ذكر « النحاس » عن الفضل بن سهل أنه إذا خُوطب الكُفء بيجعلني الله فداءك بالصدر الكامل ، فأحسن دُعائه للعنوان ، أعزّه الله وأطال بقاءه ؛ وذكر أنه إذا كُتِبَ بأعزّه الله فأجمل العنوان مد الله في عمره . قال في " صناعة الكتاب " ولا يتكنى الرجل في كُتبه ، إلا أن تكون كنيته أشهر من اسمه فيتكنى على نظيره ، ويتسمى لمن فوقه ؛ ثم يلحق المعروف أبا فلان ، أو المعروف بأبي فلان . قال : ويكتب : من أخيه ، إن كانت الحال بينهما تُوجب ذلك .

الحالة الثالثة — أن يكون العنوان من الرجل إلى أبنه ومن في معناه ، قد ذكر النحاس أنه يُعنون إليه من فلان بن فلان إلى فلان بن فلان ، ثم قال : وكذا كبير الإخوة والرجل إلى أهل بيته .

(١) كذا في الأصل ولم نعثر في كتب النحو على هذه اللفظة ولعله تحريف من التامخ والأصل جاءني أبك يعني بضم الباء فتأمل .

(٢) لعله إلى اثنين فأكثر وكنايتهم ... تأمل .

الحالة الرابعة — أن يكون المكتوب إليه امرأة . قال في "صناعة الكُتّاب" :
 إن كان المكتوبُ إليه أمّ الخليفة ، كتب : للسيدة أمّ فلان أمير المؤمنين ، وإن
 كانت امرأة الخليفة وكان ابنها معهودًا إليه بالخلافة ، كتب للسيدة أمّ فلان ولى
 عهد المسلمين ، وإن كانت امرأة رجل جليل ، كتب لحرّة أمّ فلان ، ولا يكتب
 اسمها ، ويدعو لها بالدعاء الذى يكون خطابها به .

هذا ما كان الحال عليه فى زمن النحاس فى خلافة الراضى وما حوّلها .

وقد ذكر ابن حاجب النعمان فى " ذخيرة الكُتّاب " أنَّ الحالَ تغيّرَ عن ذلك عند
 تغيّر المكاتبات إلى المجلس العالى ، والحضرة السامية ، وما يجرى مجرى ذلك ؛ ثم قال :
 فعلى هذا إذا كتب إلى المكتوب إليه بالمجلس العالى أو السامى ونعوته ، فيجب
 أن يكتنى عن نفسه بالملوك أو مملوكه أو العبد أو الخادم . وإذا كتب : الحضرة
 السامية أو العالمة ونعوتها ، فيجب أن يكتنى عن نفسه الخادم أو خادمها أو عبدها .
 وإذا كتب : حضرة سيدنا ونعوتها ؛ فيجب أن يكتنى عن نفسه خادمها أو خادمه
 وعبدها أو عبده . وإذا كتب : حضرة مولانا ونعوته ، فيجوز أن يكتنى عن نفسه ماشاء
 من ذلك . قال : وفى الكتابة إلى النظير لا ضابط لعنوانه كما لا ضابط لمكاتبة ،
 بل له أن يكتنى عن نفسه بما شاء مما تقدّم ذكره .

ثم قال : وإن كانت المكاتبة من الرئيس إلى المرءوس ، فيجب أن يكتنى : حضرة
 القلانى بغير مولاي — ودونه : القلانى بغير حضرة ، وكنيته ونعوته واسمه وأسم أبيه ،
 ويكتنى عن نفسه ما يختار أن يكتبه الرئيس إلى المرءوس مما هو معروف مشهور ، ويزيد
 فى اسمه وأسم أبيه ألفاً ولاماً ، إن كانا مما يحوز أن يُزاد [فيهما] ، وإذا كتب المرءوس
 إلى الرئيس وكنى عن نفسه بما كنى ، فيجب أن يحذف من اسمه وأسم أبيه الألف

واللام . قال : وللرئيس أن يكتب عن نفسه بما شاء من الكايات التي تليق بمنصبه وأسمه وأسم أبيه ونعته المقرن بأمر المؤمنين ، مثل ناصر أمير المؤمنين ، وحسام أمير المؤمنين ، وما أشبه ذلك .

المقصد الثاني

(في [رسوم] إخوانيات أهل المغرب)

وعادتهم فيها أن يكون الخطاب فيها خطاب المواجهة ، مثل : أنت ، وأنا ، ولك ، وعندى ، وعندك . وربما خاطبوا الواحد بجمع تعظيماً للكتاب إليه ، كما يعبر عن المتكلم الواحد بنون الجمع تعظيماً له . قال ابن شيث في "معالم الكتابة" ولا يُعرف ذلك لغيرهم ، وربما وقع الخطاب عندهم على الغيبة أيضاً ، وفيه جملتان :

[الجملة الأولى]

(في مفتحات المكاتبات على اصطلاحهم ، وفيها مهيعان)

المهيع الأول

(في ابتداء المكاتبات ، وهى على طرق)^(١)

منها — أن تفتح المكتبة بالدعاء : إنا بطول البقاء كما كتب عبد الله بن طاهر : أطل الله بقاء سيدي الأعلى ، ومفرعى في الجلى ، متممة عليه النعم ، ميسرة لديه الهيم ، أقول بدءاً أيديك الله : لقد أعشى الناظرين سنك ، كما أعيا الطالبين مسعك ، ولئن فئت الجميع ، لقد أبدعت الصنيع ، فلا غاية لمجد إلا وأنت آتيها ، ولا ذروة لعز

(١) بيض لذلك في الأصل وزدناها من نظيرتها الآتية .

إِلَّا وَمَنْ طَبَّكَ بَانِيهَا، لَكَ الْهُدَى وَالنَّاسُ ضَلَالٌ، وَفِي يَدِكَ الضُّوءُ وَالْكُلُّ أَغْفَالٌ؛
وإِن الْأَمْرَ كَذَا وَكَذَا .

وكما كتب أبو المطرّف بن عميرة : أطل الله بقاء الأخ السريّ الكريم، الحريّ
بالتقديم والتعظيم؛ أوحِدَ فُرْسَانَ الإحسان، وواحد عِقبَانَ البَيَان؛ ولا زال قَلَمُهُ جَالِيَّ
بدائع السّحر، جالبَ بَضَائِعِ الشّحر، مغبوطَ السّبق، عند كَلَالِ جِيَادِ الكَلَام، مَبْسُوطَ
الرّزق، في حال إِمْلَاقِ الأَقْلَام، إِنْ ذُكِرْتُ - أَبْقَاكَ اللهُ - البِلاغةُ فَمِنْ عَلَى مَوْرِدِهَا
يُسَاجِلُكَ، أَوْ قِيلَ فِي شَرِيعَتِهَا بُنِيَتْ عَلَى نَحْسٍ فَإِنَّمَا هِيَ أَنَا مِلْكُكَ، صَفْوُهَا مَتَفَجَّرَ
مِنْ مَعِينِكَ، وَشَاوُهَا لَا مَطْمَعَ فِيهِ لغيرِ يَمِينِكَ، وشَاوُهَا تَسْتَوْفِيهِ فِي هَيْئَةٍ مَتَمَهَّلٍ،
وَجَنَاهَا تَرَعَاهُ بَعِزَّةٌ أَحْيَى مُهْلَهْلٍ، فَقَدْ صرَتْ أَمَامَ أُمَّتِهَا، لَا بِلْ إِمَامَ أُمَّتِهَا، وَالرَّاضِعَ
لِرِسْلِهَا، بِلِ الْوَاضِعِ لِأَصْلِهَا . فَهَنِيئًا لَهَا أَنْ كُنْتَ سَابِقَ غَايَتِهَا، وَسَائِقَ رَايَتِهَا، وَبُشْرَى
لِمُهْرَقِ وَشْتِهِ بِرَاعَتِكَ، وَمَشْتِهِ بِرَاعَتِكَ، لَقَدْ أُوتِيَ مِنَ الْحُسْنِ مَا تَشْتَرِيهِ الْقُلُوبُ
بِحَبَابَتِهَا، وَتَشْتَبِيهِ النُّفُوسُ أَكْثَرَ مِنْ حَيَاتِهَا؛ وَإِن الْأَمْرَ كَذَا وَكَذَا .
وإِذَا بِالْبَقَاءِ الْمَجْرَدِ .

كما كتب أبو محمد بن عبد البرّ، إِلَى بَعْضِ أَرْبَابِ الْأَقْلَامِ :
أَبْقَى اللهُ الشَّيْخَ فِي عِزَّةٍ تَالِدَةٍ طَارِفِهِ، وَسَعَادَةٍ لَا تَزَالُ طَارِقَةً بِكُلِّ عَارِفِهِ؛ وَلَا زَالَ
قَاصِدُهُ نَحْيًا مِنْ رِفْدِهِ بَرُوضِ نَاصِرٍ، وَمُحَوِّمًا مِنْ مَجْدِهِ عَلَى مَسَرَّةِ سَمْعٍ وَقُرَّةِ نَاطِرٍ؛
وَالْأَمْرَ كَذَا وَكَذَا .

وإِذَا بِالْإِدْعَاءِ لِلْحُضرةِ .

كما كتب أبو زيد الفارازي :

أَبْقَى اللهُ حَضْرَةَ السَّيِّدِ نَاضِرَةَ أَدْوَا حِ السَّعْدِ ، عَاطِرَةَ أَفْوَاحِ المَحْمَدِ ، سَاكِبَةَ أَنْوَاعِ
الْحَدِّ ، صَائِبَةَ سِهَامِ الحَدِّ ، وَلَا زَالَتِ مَغْشِيَّةُ الحَنَابِ ، بَوْفَدِ الحَمْدِ ، مَوْشِيَّةُ الإِهَابِ ،
بُسُودَدِ الحَفْدِ . الظُّلُّ إِذَا رَحُبَ ، اَزْدَحَمَ عَلَيْهِ الضَّاحُونَ ، وَالْوَرْدُ إِذَا عَدْبَ ،
اَزْدَلَفَ إِلَيْهِ الْمُتَنَاحُونَ ؛ وَظَلَّ الحَضْرَةَ المَكْرَمَةَ كَثِيفُ الأَفْيَاءِ ، وَوَرَدُهَا مُغْنِي عَنْ وَسَائِطِ
الأَرِشِيَّةِ وَالْدَّلَاءِ ، فَلَا غَرَوَ أَنْ تُضْرَبَ إِلَيْهَا أَكْبَادُ الإِبِلِ ، وَتَقْصَّ بِالْوُفُودِ عَلَيْهَا أَفْوَاهُ
السُّبُلِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُعِينُ الحَضْرَةَ المَكْرَمَةَ عَلَى الأَيَادِي تُسَوِّغُهَا ، وَالْأَمَالَ تَبْلَغُهَا ،
بِمَنَّةٍ . وَإِنْ الأَمْرُ كَذَا وَكَذَا .

وإِذَا بالدُّعَاءِ لِلْحَلِّ .

كما كتب أبو المطرّف بن عميرة في صدر شَفَاعَةِ .

أَبْقَى اللهُ الحَمْلَ الأَعْلَى حَرَمًا يَتَحَمَّاهُ الأَنَامُ ، وَعَلَمًا تَتَضَاءَلُ لَهُ الأَعْلَامُ ؛ وَلَا زَالَتْ
أَرَاؤُهُ النَاجِحَةُ ، تَسْتَمِدُّهَا العُقُولُ والأَفْهَامُ ، وَمَسَاعِيهِ الصَالِحَةُ ، يَشْكُرُهَا اللهُ
وَالْإِسْلَامُ . إِنَّ مَجْدًا سَامَى الكَوَاكِبِ بَمَنَوَاهُ ، وَسَارَى الغُرِّ السَوَاكِبِ فِي جَدْوَاهُ ؛
لِدَايِعِ إِلَى أَسْتِلَامِ كَفِّهِ عَلَيْهِ ، وَالِاسْتِهَامِ عَلَى وَصْفِهِ الذِّى لَهُ حَقِيقَةُ الأَوَّلِيَّةِ ؛ وَكَيْفِ
لَا وَقَدْ أَجَارَ مِنَ الدَّهْرِ المُخِيفِ ، وَصَارَ قِبْلَةً كُلِّ دَاخِلٍ تَحْتَ التَّكْلِيفِ ؛ يُعِيدُ مَتَى
أَخْطَاهَا صَلَاةَ الأَمَلِ ، وَيَرَى الأَجْتِهَادَ فِي طَلِبِهَا مِنْ رَاحَةِ العَمَلِ ؛ وَإِنْ الأَمْرُ
كَذَا وَكَذَا - إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الدُّعَاءِ .

ومنها - أَنْ تَفْتَحَ المَكْتَابَةَ بِلفظِ « كِتَابِي » كما كتب أبو المطرّف بن عميرة إِلَى
بَعْضِ العُلَمَاءِ .

كِتَابِي إِلَى سَيِّدِي - حَفِظَهُ اللهُ مُقِيمًا وَسَائِرًا ، وَأَبْقَاهُ لُغْرَرِ البَيَانِ سَاحِرًا ، وَعَنْ وَجْهِ
الإِحْسَانِ سَافِرًا ؛ وَلَا زَالَتْ آدَابُهُ تُشْرِقُ وَتَرُوقُ سَاحِرًا ، وَمَحَاسِنُهُ كَالشَّمْسِ إِذَا لَمْ

يَلْقَى نَوْرَهَا سَاتِرًا - من فلانة - وَالْوَدَّ رَوْضَةً مَطْلُولَةً ، وَرَحِمُ مَوْصُولُهُ ؛ خَلَصَ مِنَ
الْقَلْبِ إِلَى حَبَّتِهِ ، وَاخْتَصَّ مِنْهُ بِمَا لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ أَحِبَّتِهِ ؛ وَأَثَارُ شَوْقًا عَلَى قَدْرِهِ ،
وَهَوًى نَوًى فِي صَدْرِهِ ؛ وَأَسْفًا عَلَى عَهْدٍ أَصْبُو إِلَى ذِكْرِهِ ؛ فَاتَتْ ، وَرَدُّ الْفَائِتِ يَعْسُرُ ،
وَقَصْرُ ، وَأَيَّامُ السَّرُورِ تَقْصُرُ ؛ كَأَنَّمَا كَانَ قِرَاءَةً سَطْرًا ، أَوْ إِغْفَاءَةً بَحْرًا ؛ أَوْ زِيَارَةً
مُجْتَازًا ، أَوْ عِبَارَةً ذِي إِيجَازٍ . فَمَنْ لَنَا بِذَلِكَ الْأَرْجِ الذِّكْرَى ، وَالْأَرْيَحَى يَرْتَاحُ لَمَّا يُخْتَرَعُ
أَوْ يُحْكَى ، وَمَتَى نَقُوزُ بَيْنَ نِيحَتٍ مِنْ صَخْرٍ ، وَيُزْرَى بِأَبَى صَخْرٍ ، وَيَغْرَفُ مِنْ بَحْرٍ ،
وَيُجْرَى مَعَ أَبِي بَحْرٍ ؛ وَيَجْعُ إِسْنَادُهُ بَيْنَ الْجَامِعِ وَالْمُسْنَدِ ، وَيُنْشَدُ مِنْ بَدَائِعِ حَفِظِهِ
مَا يُؤْثِرُ الْمُسْنَدَ ، شَجَرَةٌ عِلْمٌ تُؤْتِي كُلَّ حِينٍ أَكْلَهَا ، وَمُزْنُهُ فَضْلٌ تَجُودُ مَا تَحْشَى مُجْلَهَا ،
وَضَالَّةٌ أَدِيبٌ يَقِلُّ لَهَا أَنْ يُجْعَلَ الْقَارِثُ^(١) جُعْلَهَا ، فَاتَ عَنَّا ، فَاتَعَبَ وَعَنَى ، فَهَلْ مَعِينٌ
عَلَى دَوَاءِ إِنْ نَحْنُ لُسَعْنَا ، أَوْ سَبِيلٌ إِلَى مَا يَفِيدُنَا مِنَ الْكَلَامِ فَتَحْنُ فِي حُرُوفٍ تَحْيَى بَغِيرِ
مَعْنَى ، وَإِنْ الْأَمْرُ كَذَا وَكَذَا .

ومنها - أَنْ تَفْتَحَ الْمَكَاتِبَ بِلَفْظٍ : كَتَبَتْ .

كما كتب أبو زيد الفازاني .

كَتَبْتُ - كتب الله للأخ الأبرَّ الأوفى ، والفاضل الذي أثار مَائِرَةَ لَاتُخْفَى ، مَجْدًا
هَامِي الرِّبَابَةِ ، سَامِي الرِّبَابَةِ ، وَذَكَرًا مُتَحَلًّا بِالْإِطَالَةِ وَالْإِطَابَةِ ، وَقَرَنَ أَعْمَالَهُ بِالْقَبُولِ
وَدَعَاوِيهِ بِالْأَسْتِجَابَةِ - مِنْ مَكَانٍ كَذَا ، وَلَا جَدِيدَ يُبْنِي اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا صُنْعُهُ الْجَمِيلَ ،
وَلُطْفُهُ الْعَرِيزُ الطَوِيلَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، حَمْدًا يُؤْمِنُ آلَاءَهُ مِنَ التَّغْيِيرِ
وَالْتَبْدِيلِ ، وَالْأَمْرُ عَلَى كَذَا وَكَذَا .

(١) القارث أجف المسك وأجوده .

ومنها - أن تفتح المكتبة بكتابة عن المكتوب إليه من لقب ونحوه .

كما كتب أبو المطرف بن عميرة لبعض الرؤساء .

الجناب الرياسي أدام الله اعتلاءه، وحرس مجده وسنائه .

صدرت هذه الخدمة إليه من فلانة، ولا مزيد على ما يجب لحلاله من التعظيم،
ولفضله من التقديم، ولآلائه من الشكر العميم؛ وإن الأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو بكر بن عيسى شافعاً في أنصاري .

السيد العماد، والماسجد الجواد، والملجأ المنيع المريع لمن يرتأع أو يرتاد، أدام الله
علاءه، وضاعف عنده آلاءه، بذر الجملة الشريفة، وفرع الدوحة المنيفة، من
آل قيس الجود، وقيل بني قبيلة الباذلين الموجود، أو لك الذين عز المهاجرون
بإحاثهم وسخائهم، فلا غرو أن تكلف الألسنة بمدحه، وتمد الأيدي إلى منحه،
ويصدر باسمه تاريخ الأجداد فهو أحق مفتحه، والأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو المطرف بن عميرة، عن الأمير أبي جميل زيان، إلى الأمير
أبي زكريا بن إسحاق .

الأمير الأجل الهام الأعلى حرس الله مقامه، وأسعد أيامه، وظاهره بالنصرة
مضاءه واعتزاه، راسخ شرف التجار، ثابت أصل الفخار، مستهل آلاء السحب
الغزار، والعيون إليه سامية، والهيم إلى مالدية مترامية، والصدور بالأمل فيه تُشرح،
والنفوس الحرة إلى استرقاقه تطمح، ولا غرو والكرم من بعض شيمه، والغنى
من فضل ديمه - أن يسير إليه في البر والبحر كل ذي رغبة، وتراعى نحوه ركائب
الرجاء من كل ثربه . ومحاطبتنا هذه إلى مجلسه أيده الله عما نعلمه من كبر قدره،
ونوجهه لعالى أمره، ونبيح به من طيب خبره، وجميل ذكره، والأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو الحسن بن شلبون :

الِعِمَادُ الْمَذْنَرُ ، وَالْمَلَأْدُ الَّذِي بَوْلَانُهُ أَفْخَرُ ؛ جَعَلَ اللَّهُ قَدْرَهُ عَالِيَا ، وَدَهْرَهُ بِحَاسِنِهِ
حَالِيَا ، وَلَا زَالَ لِلنَّعْمِ قَابِلَا وَلَا لِلسَّوَاءِ [سَوَاءٌ] قَالِيَا ، كَتَبْتُ مِنْ مَكَانٍ كَذَا ، وَالْوُدَّ حَلِيَّةً
يَتَأَلَّقُ رَوْنَقُهَا ، وَشَجَرَةً لَا يَسْقُطُ رَوْقُهَا ، وَإِنِهَا مَغْرُوسَةٌ ، لَا تَقْبَلُ بَذَرَ الْعَوَادِي ،
وَمَحْرُوسَةٌ ، لَا يَقَعُ عَلَيْهَا مِنْ يَقَعُ فِي شَجَرِ الْوَادِي ؛ وَالْأَمْرُ كَذَا وَكَذَا .

وكما كتب أبو المطرّف بن عميرة إلى بعض الفقهاء شافعا موصيا :

الْمَحَلُّ الْأَعْلَى - ضَاعَفَ اللَّهُ أَنْوَارَ هِدَايَتِهِ ، وَأَبْقَى عَلَى الْجَمِيعِ آثَارَ عِنَايَتِهِ - مُسْتَوْدَعُ
الْكَمَالِ ، وَمَشْرِعُ الْأَمَالِ ؛ وَمَقْعِدُ أَرْبَابِ السُّؤَالِ ، وَمَصْعَدُ الصَّالِحِ مِنَ الْأَعْمَالِ ،
وَإِنْ فَلَانَا مِنْ أَمْرِهِ كَذَا وَكَذَا .

وكما كتب ابن أبي الحِصَالِ :

السَّيِّخُ الْأَجَلُّ أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ وَنِعْمَاهُ ، وَوَصَلَ رِفْعَتَهُ وَعُلَاهُ بِتَقْوَاهُ ؛ يُجِلُّ قَدْرَكُمْ ،
وَمِلَّتِمَّ رَيْتُمْ وَشُكْرَكُمْ ؛ الْعَارِفُ بِحَقِّكُمْ ، فَلَانٌ ؛ فَكُتِبَ يَعْظُمُكُمْ كِتَابُ اللَّهِ لَكُمْ خَيْرًا
مُسْتَمِرًّا ، وَرِضًا عَلَى مَا تَرْضَوْنَهُ ثَابِتًا مُسْتَقَرًّا ، مِنْ مَكَانٍ كَذَا ، عَلَى الرَّسْمِ الْمُلْتَزَمِ مِنْ
تَوْفِيرِ عِلَائِكُمْ ، وَالشُّكْرَ لَا لِأَنْكَ ، وَالرَّبُّ تَعَالَى يُنْهَضُ بِحَقِّكُمْ الْإِزْمَ الْإِزْمَ ، وَيَصِلُ
حِرَاسَةَ مَجْدِكُمُ الْإِتْلَادِ الْأَقْدَمَ ؛ بِمَنَّةٍ وَفَضْلِهِ ، وَإِنَّ الْأَمْرَ كَذَا وَكَذَا .

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ رَبِّمَا أَتَى بَعْدَ ذِكْرِ النُّعُوتِ بِالسَّلَامِ ، ثُمَّ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَالصَّلَاةِ عَلَى
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ ؛ ثُمَّ الرِّضَا عَنْ الْخُلَفَاءِ الْمَاضِينَ وَالْخُلَيفَةِ الْقَائِمِ .
وعلى ذلك كانت طريقة كتاب دولة الموحّدين أتباع «المهديّ بن تومرت» كما كتب
أبو محمد بن عبد البر :

الشيخ الأجل، أدام الله عزَّته، ووصل كرامته ورَفَعته . مُجِلُّ قدره، وملتمز برّه
وشُكره، المسرورُ بما يُجْريه إحسانه من طيب ذكركه .
سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد حمد الله العظيم ، والصلاة على سيدنا محمد رسوله الكريم ، وعلى آله -
والرضا عن الإمام المعصوم مهديّ ، وعن خلفائه الأئمة الراشدين - والدعاء لسيدنا
الخليفة الإمام أمير المؤمنين ، ابن الأئمة الخلفاء أمراء المؤمنين ، بالنصر الأعزّ ،
والفتح الأتمّ الأوفى ، فكتب كتب الله لكم مجدا لا يهَى شرفه ، وسعدا لا يَبْنى
طرفه ، من فلاة - حرسها الله - ولا ناشئ عن الله تعالى وعميم لطفه إلا الخير
الأكل ، والصنع الأجل ، والحمد لله رب العالمين كثيرا، وإنَّ الأمر كذا وكذا .

قلت : وعلى هذه الطريقة كانت كتابة أبي عبد الله بن الخطيب : كاتب ابن
الأحرر بالأندلس على القُرب من زماننا .

ومنها - أن تفتَح المكتبة بالخطاب ، إمام مع حذف ياء النَّسب أو مع إثباتها .
أما مع حذفها ، فكما كتب أبو المطرف بن المشي :

سَيِّدِي وَمَفْخَرِي ، وَعِصْمَتِي وَوَزَرِي ، وَرُكْنِي وَعِمَادِي ، وَذَخِيرَتِي
وَعَتَادِي ، أَبْقَاكَ اللهُ نَاهِجًا سُبُلَ الْمَكَارِمِ وَالْمَعَالِي ، مُوقِّ حَوَادِثِ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي .
كُتِبِي أَعَزَّكَ اللهُ عَنْ عَهْدِ حَسَنِ لَكَ قَدْ أَحْكَمْتَ مَعَاقِدَهُ ، وَوَدَّ تَحْضِيضَ فَيْكِ قَدْ صَفَتْ
مَوَارِدَهُ ، وَنَفْسٌ تَرْتَاحُ لِذِكْرِكَ ، وَلِسَانٌ لَا يَهْ بَيْنَ مَحَاسِنِكَ وَعُلَاكَ ، قَدْ انْقَسَحَ فِي نَشْرِ
فَضَائِلِكَ مَيْدَانُهَا ، وَفَاقَ فِي وَصْفِ قَوَاضِيكَ بَيَانُهَا ، فَهِيَ تَنْظُمُ عُقُودَ مَجْدِكَ ، عَلَى أَجْيَادِ
شُكْرِكَ ، وَتُحَوِّكُ مِنْ بُرُودِ تَقْرِيطِكَ وَتَسَائِكَ ، خِلْعًا لِمَجْدِكَ وَسَنَائِكَ ، وَشَيْهَا الذِّكْرُ
الْخَطِيرُ ، وَطِرَازُهَا التَّرْفِيعُ وَالتَّوْقِيرُ ، تَكْسِرُ عَصَبَ عَدْنٍ ، وَتُعْفِي عَلَى وَشَى الْيَمَنِ ؛

وَتُطْلَعُ مِنْ رِيَاضِ أَخْلَاقِكَ ، فِي مَنْابِتِ أَعْرَاقِكَ ، مَا يُزِيرِي بِنَسِيمِ الْمِسْكِ تَضَوُّعَ عَرَفِهِ وَآتِنَشَارِهِ ، وَيُرِي عَلَى حُسْنِ النُّجُومِ الزَّاهِرَةِ طَوَالِعَ أَزْهَارِهِ وَأَنْوَارِهِ ، وَأَخْلَقَ بَيْنَ جَمْعِ اللَّهِ الْعَالَمِ فِيهِ ، وَحَرَسَ مَعَاهِدَ الْبِرِّ بِكَرِيمِ مَسَاعِيهِ ، أَنْ لَا تُعْزَى خَلَّةُ نَيْلَةٍ إِلَّا إِلَيْهِ ، وَلَا تُقْصَرُ مَنَقِبَةُ جَلِيلَةٍ إِلَّا عَلَيْهِ ، وَلَا تُؤْثَرُ مَأْثَرَةُ نَفِيسَةٍ إِلَّا عَنْهُ ، وَلَا تُقْتَبَسَ سِيرَةٌ حَمِيلَةٍ إِلَّا مِنْهُ ، وَاللَّهُ تَقَدَّسَ اسْمُهُ يَجْنِي هَذِهِ الْأَوْصَافَ الْبَدِيعَةَ ، وَالْخِلَالَ الْرَفِيعَةَ ، مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ وَتَوَازِلِ الْغَيْرِ ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهَا يَدَهُ ، وَيَصْرِفُ عَنْهَا مَعَرَّةَ كُلِّ خُطْبٍ وَشَدَّةَ ، بِحَوْلِهِ وَطَوْلِهِ ، وَيَكُونُ الْأَمْرُ كَذَا ، وَكَذَا .

وَأَمَّا مَعَ إِثْبَاتِ يَاءِ النَّسَبِ ^(١) ، فَكَمَا كَتَبَ أَبُو الْمَطَرِ بْنِ الدَّبَّاحِ إِلَى بَعْضِ الْأَدْبَاءِ عِنْدَ وَرُودِهِ إِلَى بِلَادِهِ :

يَا مَوْلَايَ ، وَسَيِّدِي ، الْعَظِيمَ شَأْنُهُ وَأَمْرُهُ ، الْعَالِيَ صِيتُهُ وَذِكْرُهُ ، وَمَنْ أَبْقَاهُ اللَّهُ فِي عِزٍّ لَا تَقْصِمُ عُرَاهُ ، وَحِرْزٍ لَا يُسْتَبَاحُ حِمَاهُ ، لَمْ أَزَلْ - أَبْقَى اللَّهُ سَيِّدِي وَمَوْلَايَ - تَسْمُوبِي إِلَى الْكُتَابَةِ هِمَّةً ، وَتَتْرَافِي بِي إِلَى الْبَلَاغَةِ عَزْمَةً ، حَتَّى تَذَلَّتْ لِي صِعَابُهَا فَامْتَطَيْتُ ، وَتَسَهَّلَتْ لِي حُرُوفُهَا فَارْتَقَيْتُ . وَلَمَّا رُفِعَتْ لِي عَنْ غَرَائِبِهَا الْأَسْتَارُ ، وَعَلِمْتُ مِنْ غَوَامِضِهَا الْأَسْرَارُ ، وَفُزْتُ بِالْمَعْلَى مِنْ سِهَامِهَا ، وَالْمَوْفُورِ مِنْ أَقْسَامِهَا ، جَعَلْتُ بِأَيِّ أُمَّتٍ أَأْتُمُّ وَأَهْتَدِي ، وَإِلَى أَى رُؤُسَائِهَا أَنْتَسِبُ وَأَعْتَرِي ، نَاطِرًا فِي ذَلِكَ إِلَى شَائِعِ الْأَخْبَارِ ، وَمُتَدَاوِلِ الْآثَارِ ، فَوَجَدْتُ الْأَلْسِنَةَ إِذَا تَتَاوَلَتْ صِفَةً سِوَاهُ ، تَحَلَّتْ بَعْضَ حِلَاهُ ، أَوْ أَرْقَتْهُ إِلَى رُتْبَةٍ مِنَ الْعِلْيَاءِ ، تَمَثَّلَتْ بِهِ فِي الرَّفْعَةِ وَالسَّنَاءِ ، ثُمَّ تُفْرَدُ أَعَزَّهُ اللَّهُ دُونَهَا بِالْفَهْمِ الْمَتِينِ ، وَالْعِلْمِ الْمَشْهُورِ ، وَالْحِلْمِ الْمُتَعَارَفِ ، وَالْفَضْلِ الْمُتَوَاصِفِ ، وَالرُّتْبَةِ السَّامِيَةِ ، وَالْجَلَالَةِ الْمُتَنَاهِيَةِ . فَكُلَّمَا رَأَيْتُ مُحَاسِنَ مَجْدِهِ تُجَلَّى ، وَسُورَ فَضْلِهِ

(١) لم تثبت فيه ياء النسب كما هو ظاهر فتأمل .

تُتلى، هَمَمْتُ أَنْ أُطِيرَ إِلَى حَضْرَتِهِ بِجَنَاحِ الْإِرْتِيَاكِ، وَأَرْكَبَ إِلَى أَفْقِهِ نَوْرَهُ اللَّهُ أَعْنَاقَ
الرَّيَّاحِ، وَالْأَيَّامُ تَقْطَعُنِي بِمَصَائِبِهَا، وَتَقِيدُنِي بِأَحْدَاثِهَا وَبَحَوَائِهَا، حَتَّى قَضَى اللَّهُ أَنْ
يَرِدَ هَذَا الْأَفْقُ فَأَفْرِخَ الْأَمَلَ بِغَيْرِ نَصَبٍ، وَأُنَالِ الْبُغْيَةَ بِغَيْرِ طَلَبٍ :

وَلَيْسَ الَّذِي يَتَّبِعُ الْوَبْلَ رَائِدًا * كَمَنْ جَاءَهُ فِي دَارِهِ رَائِدُ الْوَبْلِ

ومنها - أَنْ تُفْتَحَ الْمَكَاتِبُ بِالتَّحِيَّةِ وَالسَّلَامِ .

كما كتب أبو المطرف بن عميرة :

نَحْنُ الْآبَنُ حَبَّةٌ وَمِقَّةٌ، وَالْعِبَادَ اعْتَدَادًا بِجَانِبِهِ وَثِقَةً، حَفِظَ اللَّهُ نَجَاتَهُ ؛ وَجَعَلَ
لِدَائِعِي السَّيَادَةِ تَلْيِيتَهُ وَإِجَابَتَهُ، تَحِيَّةُ الْإِجْلَالِ وَالتَّكْرِمِ، وَالْمَوَدَّةِ الْخَالِصَةِ الْمُتَحَكِّمَةِ ،
وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ، مِنْ مَكَانٍ كَذَا، وَالْوُدُّ كُلُّهُ، وَالْمَهْدُ بِالصُّونِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ
مَكْتَنَفٌ، وَتَلَكُمُ الذَّاتُ السَّيْنِيَّةُ ذَخِيرَةً جَلِيلَةً، وَأَمَلٌ لَا تُحْطِي مِنْهُ تَحِيلُهُ، وَهَبَةٌ يَكْذِبُ
مَعَهَا أَنْ يُقَالَ الْيَوْمُ بِجِيلِهِ . وَكُنَّا نَنْظُرُ أَنْ يَنْبَاءَ الْكَرَمُ صَمَّ صَدَاهُ، وَمَرَجَّعُ الْفَضْلِ
عَاصِبُ بَرْدَاهُ، وَغَائِبٌ عَنِ الرَّشْدِ أَدَاهُ، وَنَقُولُ : مَا كُلُّ مَنْ أَقْعَدَتْهُ الْعَيْلَةُ عُيْلَهُ،
وَمَتَى يَفْطِنُ عَمِيرُ عَمْرٍ وَبَجِيلُهُ، فَكُفَّا بِكُفَاتِهَا، وَهَلْ سَوَى قَيْسٍ لِرُحَى الْعُجُوزِ عَدِمَتْ
جَدَاتِهَا، حَتَّى تَمَثَّلَ هَذَا الْمَجَاهِدُ مِنْ طَرَفِهِ، الْمُسْتَقْبَلُ آثَارَ سَلْفِيهِ، حَفِظَ اللَّهُ الْأَلْفَاظَ
وَالْأَلْسِنَةَ، وَحَمَلَةَ الْأَقْلَامِ وَالْأَسِنَّةِ .

وكما كتب أبو زيد الفازازي .

السَّلَامُ الْكَرِيمُ الْعَمِيمُ، عَلَى الشَّيْخِ الَّذِي أَثْبَتَ عَلَى وُدِّهِ فَلَا أُتَحَوَّلُ ، وَأُطْنِبُ
فِي حَمْدِهِ فَلَا أُسْتَعِيرُ وَلَا أَتَأَوَّلُ ، وَأَتَعَلَّلُ بِذِكْرِهِ عِنْدَ عَدَمِ مَرَاتِهِ وَلَا أُمِرِمَا أَتَعَلَّلُ ؛
فَلَانِ - آدَامُ اللَّهِ رَفَعَتْهُ، وَحَرَسَ مِنَ الْأَسْوَءِ مُهْجَتَهُ . كَتَبَ أَخُوكُمْ، الْبَرُّ بِكُمْ، الشَّيْقُ

إليكم، الشاكر لحسانكم، المسرور بما سمعته من صلاح أحوالكم، فلان، ولا جديد
بمن الله تعالى إلا الخير والحمد لله كثيرا والأمر كذا وكذا .

ومنها — أن تفتتح المكتبة بالكناية عن المكتوب عنه .

كما كتب ابن أبي الحِصَال إلى بعض الكُتَّاب يسأله حاجة :

معظم الشيخ الأجل أبي فلان، ومجله المبرر له فلان، أعلى الله قدركم، وأوزع
أوليائكم شكركم، أياديكم أدام الله كرامتكم أو كف من الغمام، ونعمكم ألزم للأعناق
من أطواق الحمَام، وإنَّ وليكم ومعظمكم يحتاج إلى كذا وكذا .

ومنها — أن تفتتح المكتبة بلفظ من فلان .

كما كتب [بعضهم] من فلان، إلى الشيخ الحافظ الأكرم أبي فلان : أدام الله
كرامته بتقواه، فالكاتب إليكم كتب الله لكم أحوالاً صالحه، وخيرات عليكم غادية
رائحه، من موضع كذا، والبركات متوافره، والخيرات متظاهره، والحمد لله تعالى،
وإنَّ الأمر كذا وكذا .

ومنها — أن تفتتح المكتبة بلفظ إلى فلان .

كما كتب بعضهم إلى والده .

إلى مولاي المعظم وأبي، المتكفل بتعليمي وحسن أدبي، أبقاه الله ناظراً إلى
بعين رضاه، وأعاني على الجري في ربه على حكم الشرع القويم ومقتضاه، من أبنك
المعظم لك، بل عبدك، المتطلع إلى ما يصل من الأبناء الكريمة من عندك، المواصل
المسعى في شكرك وحميدك، فلان : بأبي كتبه كتب الله لكم لساناً من العيش
وحفظاً، وجمع بعد الاقتراق بعضاً منا وبعضاً، ويسرلى بطوله ومته أن يصفح
عني وأن يرضى، من موضع كذا، ولا جديد إلا نعم من الله عز وجل تراوح

وَتُغَادِي، وَتَجْرِي الْخَوَاتِمُ مِنْهَا عَلَى حُكْمِ الْمَبَادِي، وَشَوْقٌ إِلَيْكُمْ يَعْمُرُ أَحْنَاءَ ضُلُوعِي
وَفُؤَادِي، وَيَحْسِمُ عَنِّي قَطِيعِي دَمْعِي الْهَتُونِ وَسَهَادِي، وَاللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ يَسِّرْ أَنْقِضَابَ
غُرْبَةِ النَّوَى، وَيُرِيحِ النَّفُوسَ مِنْ مُحْرِقِ اللَّوْعَةِ وَلَا عِجَّ الْجَوَى؛ وَالْأَمْرُ كَذَا وَكَذَا.

المَهْيَعُ الثَّانِي

(فِي الْأَجُوبَةِ)

(وهي على ما تقدم في أجوبة المشاركة من أنها على ضربين)

الضرب الأول

(أن يفتح الجواب بما يفتح به الابتداء، ثم يقع التعرض

إلى وُصول الكتاب، وذكر الجواب عنه)

كما كتب أبو عمرو الباجي :

وَعِنْدَكَ الْكَرِيمُ - أَدَامَ اللَّهُ عَزَّكَ - دِينَ، وَقَضَاؤُهُ شَرَفَ وَزِينَ، وَمِثْلُكَ مِنْ تَحْلِي
بِحَاسِنِ الشَّيْمِ، وَزَاوَحَ فِي السِّيَادَةِ بِالْمُنْكَبِ الْعَمِّ؛ وَحَفِظَ الْعَهْدَ لِمَا أُضِيعَ، وَأَشْتَرَى
الْمَجْدَ بِمَا بَاعَ؛ وَالتَزَمَ لِلْوَفَاءِ شَرْطًا لَا يُفْسَخُ، وَرَأَاهُ شَرْعًا لَا يُنْسَخُ؛ وَوَصَلَ كِتَابُكَ الْعَزِيزُ
فِي مَعْنَى كَذَا وَكَذَا.

الضرب الثاني

(أن يفتح الجواب بورود الكتاب وُصوله ابتداء)

كما كتب ابن أبي الخصال :

وَرَدَ كِتَابُكَ فِي أَمْرِ فُلَانٍ يَقْرَأُ الْجَمَلَ عَلَيْهِ فِي التَّفُؤُذِ لِوُجْهَتِهِ، وَالتَّقَدُّمُ إِلَى رُتْبَتِهِ،
وَلَيْسَ عِنْدِي إِلَّا عَوْنٌ وَإِنْجَادٌ، وَطَاعَةٌ وَأَتْقِيَادٌ، غَيْرَ أَنَّ فِي الْأَمْرِ كَذَا وَكَذَا.

الجملة الثانية

(في خَوَاتِمِ المَكْتَبَاتِ عَلَى أَصْطِلَاحِهِمْ ، وَهِيَ عَلَى أُسَالِيبِ)

منها — أَنْ يُحْتَمَ الكِتَابُ بِالسَّلَامِ المَجْرَدِ عَنِ الدَّعَاءِ .

كما كَتَبَ أَبُو عَمْرٍو البَاجِي فِي خَاتِمَةِ كِتَابِ :

وَأَقْرَأَ عَلَيْكَ سَيِّدِي ، وَأَسْنَى عُنْدِي ، أَجَزَلَ السَّلَامِ وَأَحْفَلَ ، وَأَتَمَّهُ وَأَكَمَّهُ .

ومنها — أَنْ يُحْتَمَ بالدَّعَاءِ .

كما كَتَبَ أَبُو المَطْرُفِ بْنُ الدَّبَّاعِ فِي خَاتِمَةِ كِتَابِ :

وَاللَّهُ لَا يُخْلِي مَوْلَايَ مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْقِيهِ ، وَمَنْعَمٌ يُنْعِمُ عَلَيْهِ [بِمَا] يَسْتَحِقُّهُ ، وَجَمِيلٌ يُؤَلِّيه ، وَصُنْعٌ يُسَيِّدِيهِ ، بَمَنِّهِ وَجَمِيلٌ صُنْعُهُ .

ومنها — أَنْ يُحْتَمَ بِذِكْرِ التَّوَدُّدِ وَالْمَحَبَّةِ .

كما كَتَبَ أَبُو جَعْفَرِ الكَاتِبِ فِي آخِرِ كِتَابِ :

وإِنْ لَمْ يَكُنْ لِي مِنَ الحَقِّ مَا لَا أَتَبَسَّطُ بِهِ عَلَيْهِ ، فَلِي مِنَ الودِّ مَا أَمْتُتُ بِهِ إِلَيْهِ ، خَفْسِي بِهِ سُلْمًا إِلَى فَضْلِكَ ، وَذَرِيعَةً إِلَى تَجْدِيدِكَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَالسَّلَامُ .

ومنها — أَنْ يُحْتَمَ بِاسْتِمَاحَةِ النِّظَرِ فِي أَمْرِ المَكْتُوبِ عَنْهُ .

كما كَتَبَ أَبُو المَطْرُفِ بْنُ المُنْتَنَى فِي خَاتِمَةِ كِتَابِ :

وَلَكَ الطَّوْلُ العَامُّ ، وَالْفَضْلُ الزَّاهِرُ ، فِي أَعْتِبَارِ أَمْرِي ، وَتَحْقِيقِ خَبْرِي ، وَالسَّلَامُ ؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الخَوَاتِمِ الَّتِي تَسْتَدْعِيهَا المَكْتُبَةُ وَتَسْتَوْجِبُهَا المَقَاصِدُ ، وَفِيمَا ذُكِرَ مِنَ الصَّدُورِ وَالخَوَاتِمِ ابْتِدَاءً وَجَوَابًا مَقْنَعٌ لِمَنْ تَأَمَّلَ ، وَاللَّهُ المُسْتَعَانُ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ .

المقصد الثالث

(في الإخوانيات المستعملة بالديار المصرية، وفيه ثلاثة مصطلحات)

المصطلح الأول

(ما كان الأمر عليه في الدولة الطولونية وماقاربها مما جرى عليه ابن عبد كان وغيره، وفيه ثلاثة مهايغ)

المهَيَّعُ الأول

(في الصدور، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(الابتدآت، ولهم فيه أساليب)

الأسلوب الأول

(أن تفتتح المكاتبة بالدعاء، وعليه غالب كتابتهم، وهي على أنماط)

منها — الدعاء بطول البقاء وما في معناه .

كما كتب ابن عبد كان في صدر مكاتبة : أطال الله بقاءك ، ففي إطالته حياة الأنام وأنس الأيام والليالي ، وأدام عزك ، ففي إدامته دوام الشرف ونمو المعالي ؛ وأتم نعمته عليك فإنها نعمة حلّت محلّ الاستحقاق ، ونزلت منزلة الاستيجاب ، ووقفت على من لا تكره الآلاء مكانه ، ولا تتكرّ الفواضل محله .

وكما كتب : عمر الله بك الأزمنة والدهور ، وأنس ببقائك الأيام والشهور ، وأمتع بدوام عزك السعداء بحظّهم منك .

ومنها — الدعاء بدوام النعمة .

كما كتب : أسبغ الله عليك نعمة الراهنة بنعمة المستظفر، وصانها لديك بإيزاع الشكر عليها ، فلم أرو الله الحمد نعمة قصدت مستقرها ، وتوخت وليها ، وتمنت كفؤها ، إلا نعمتك أكسبت أولياءها عزاً ونصرة ، وملأت أعداءها ذلةً وغضاضة ، وتمكنت بحل الصيانة والرعاية ، وخيمت بمستقر الشكر والحمد .

ومنها — أطراح الدعاء بدوام النعمة لتقيدها بموجباتها منها .

كما كتب : قد كفى الله عز وجل مؤونة الدعاء، لنعمتك بالثناء : لأنها توخت لديك محلها ، فحلت بفنائك سازه ، مطمئنة قاره ، تستورهمها قبالك ، وتستفي مواردك عنده ، ولم تزل تائقة إليك ، متطلعة نحوك بما آستجمع لها فيك : من لطيف السياسة وحسن الاحتمال لأعباء المغارم ، فهناكها الله متصلة البقاء بطول مدة بقاءك ، ومتحلية بحسن فنائك ، فلا زلت لعوارف النعم مستديعا ، وللشكر بالزيادة فيها ممتريا ، وبدوام الحمد لردفها مستمريا .

ومنها — الدعاء بجعلت فذاك .

كما كتب : جعلني الله فذاك ، فإن في ذلك شرفاً في العاجل ، وذخراً للعقبى في الآجل ، وخير ثرائ لحلفي من بعدى . دعاء أخلصته إليه ، وصدقته الطوية .

ومنها — استكراه الدعاء بالتفدية .

كما كتب : إن قلت في كُتبي إليك : جعلني الله فذاك ، فأكون قد بحسبك حظاً إحسانك إليّ ، وحق مفترضك عليّ : لأنها نفس لا توازن ساعة من يومك ، ولا توازي طرفة من دهرك ، وإنما يُفدى مثلك بالأنفس التي هي أنفس من الدنيا وأعرض من أقطار الأرض .

ومنها — تَقْدِيَةُ النِّعْمَةِ إعظاما لها :

كما كتب : جعلني الله فِدَاءَ نِعْمَتِكَ الَّتِي عَلَتْ ذِرْوَةَ سَنَامِهَا ، وَفَاضَتْ دِرَّةَ سَمَائِهَا ، فَعَمَّرْتَ أَقْطَارَ الْآمِلِينَ ، وَنَضَّرْتَ جَنَابَ نَاحِيَةِ الْمُعْتَمِدِينَ .

ومنها — الدِّعَاءُ بِصَلَاحِ الدُّنْيَا وَغِيْطَةِ الْآخِرَةِ :

كما كتب : أَسْعَدَكَ اللهُ بِعَوَاقِبِ قَضَائِهِ وَقَدْرِهِ ، وَوَهَبَ لَكَ الصَّلَاحَ فِي دِينِكَ وَالسَّلَامَةَ فِي دُنْيَاكَ .

ومنها — الدِّعَاءُ بِكَبْتِ الْعَدُوِّ :

كما كتب : مَنَّ اللهُ يَدَكَ مِنْ نَاصِيَةِ عَدُوِّكَ بِالصَّوْلَةِ عَلَيْهِ ، وَمِنْ زِمَامِ وَلِيِّكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَبَلَغَكَ مِنْ كُلِّمَا الْحَالَتَيْنِ مَا يَنْمِي عَلَى تَأْمِينِكَ ، وَيُؤْنِي عَلَى تَمْنِيكَ .

ومنها — الدِّعَاءُ الْمَشْتَرَكُ بَيْنَ الْمَكْتُوبِ عَنْهُ وَالْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ :

كما كتب : أَدَامَ اللهُ أُنْسِيَّ بَحْيَاتِكَ ، وَحَرَسَنِي مِنَ الْغَيْرِ فِي نِعْمَتِكَ ، وَأَكْرَمَنِي بِصِيَانَةِ أَيَّامِكَ وَلِيَالِكَ ، وَأَعَزَّنِي بِذُلِّ عَدُوِّكَ وَقَمْعِ حَاسِدِكَ .

ومنها — الدِّعَاءُ بِطَيِّبِ الْحَيَاةِ :

كما كتب : عِشْ أَطْيَبَ الْأَعْمَارِ ، مُوقًِّ مِنْ سُوءِ الْأَقْدَارِ ، مَبْلُغًا نِهَائَةَ الْأُمَالِ ، مَغْبُوطًا فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ ، لَا يَنْقُضِي عَنْكَ حَقٌّ عَارِفِيَّ حَتَّى تُجَدِّدَ لَكَ أُخْرَى أَجَلَ مِنْهَا ، وَلَا يَثْرِبُكَ يَوْمٌ مِنَ الْأَيَّامِ إِلَّا كَانَ مُؤَمَّنًا عَلَى أَمْسِهِ مَقْصَرًا عَنْ فَضْلَةِ غَدِهِ .

ومنها — الدعاء باقتضاء العدل والإنصاف :

كما كتب : جعلك الله ممن ينظر بعين العدل ، وينطق بلسان القسط ، ويزن بقسطاس الحق ، ويكيل بميزان الإنصاف .
ومنها — الدعاء بليزاج الشكر .

كما كتب : وصل الله لك كل نعمة ينعمها عليك من الشكر بما يكون لحقها قاضيا ، ولليزاد إليها داعيا ، ومن الغير مؤمنا ، وللسلامة موجبا .
ومنها — الدعاء للحاج بالبلاغ .

كما كتب : أوطاك الله في مسيرك أوتر المطايا ، وخولك فيما نويته أسبغ العطايا ، وأوردك الهداية إلى كريم المشاهدة وزكى المواقف وأولاه بالزلفة المقبولة ، والقربة المأمولة .

ومنها — الدعاء للمسافر .

كما كتب : جعلك الله في حفظه وكنفه ، وأحاطك بحيطته ، وجعل سفرك أيمن سفر عليك ، ورجع لك بدرك الحاجة ، وبلوغ الأمل ، ونجح الطلبة ، ونيل السؤل .

ومنها — الدعاء بالعافية من المرض .

كما كتب : مسح الله ما بك ، وعاد بالبر عليك ، وعجل الشفاء لك ، ومحص بلواك .
ومنها — الدعاء للوالة .

كما كتب : أجرى الله بالخير يدك ، وصمما (؟) بالعزيز طرفك ، وأوطأ كل مكرمة قدمك ، وأطال إلى كل غاية هممك ، وبلغك أقصى محبتك .

ومنها - الدعاء في الأُضحى بقبول النُسك .

كما كتب : جعلك الله بقبول النسيكة والقربان ، فائزاً بالأجر والرضوان ، مُخلصاً لله بالإيمان ، في السر والإعلان ، مؤدياً لما أقرض عليك ، شاكراً لإحسانه إليك .
ومنها - الدعاء بالهناء في الأعياد .

كما كتب : عَرَّفَكَ اللهُ في هذا العيد المبارك من السَّلامة وعمومِها ، والعافية وشُمولها ، والعارِفة وسُبُوغها ، والحِياطة وكِمالها ، والحِماية وجمالها ، أفضلَ ما عَرَّفَكَ في ماضى أعيادك ، وسالِف أعوامك .
ومنها - الدعاء بدفع النوائب .

كما كتب : كان الله جارك من بَخائع الدَّهر ونُوبه ، ووليَّ إناعم النِّعمة فيما آتاك من فضله ، وتطوَّل عليك من حُسن الحِياطة لما تولاَّك والذَّب عما أفادك .

الأسلوب الثاني

(أن تفتح المكاتبة بلفظ : كتابي أو كتبت)

فأما كتابي ، فكما كتب ابن عبد كان : كتابي إليك ، وأنا أَسْتَعِيبُ الأيام فيك ، وأصانعُ الزَّمان في تَقْرِيبِكَ ، ورُبُّعِ الحِوار الذي كما نَسْكُنُ تحت ظلاله ، ونتفياً برونق جماله ، بأجلِّ مُخَفِّه ، وأيسر ألفه ، وأعذب مُشاهدة ، وأصدق مُشاهدة ، ولعل أن يرتاح فيشعب صدعا ، ويُؤلَّفَ بجما .

وأما كتبت ، فكما كتب ابن عبد كان أيضا ؛ كتبتُ وأنا من حنين الصَّباة إليك ، وإرزام الشَّوق نحوك ، وأليم الشَّوق إليك ، ولا عِجَّ اللوعة بك ، على ما أسألُ الله أن يرحم ضغفي ويتصدق على برويتك ، ويهب لي النظر إلى وجهك وجمال غمرتك ، التي هي حليف الحذل ، ونزْهة الأمل .

الأسلوب الثالث

(أن تُفَتِّحَ المَكاتِبَ بِالْحِطَابِ بَأَنَا)

كما كتب : أَنَا مِنْ جُمْلَةِ صَنَائِعِكَ ، وَحَفَظَةِ وَدَائِعِكَ ، وَشُكْرَةِ إِحْسَانِكَ ،
مَتَى تَصَرَّفْتُ فِي الْبِلَادِ ، فَأَنَا الْمَعْرُوفُ بِمَعْرُوفِكَ ، وَالْعَائِشُ بِحَسَنَاتِكَ ، وَأَنْتَ مَنَزَعُ
هَيْمَتِي وَفُرَّةَ عَيْنِي ، وَمَدَارُ أَمَلِي ، وَمَحَلُّ رَجَائِي .

الضرب الثاني

(الأَجْوِبَةُ)

وَأَبْتَدَاؤُهَا إِمَّا كَمَا فِي الصُّدُورِ الْآبَتِدَاتِ كَمَا تَقْدَمُ ثُمَّ يَقَعُ التَّعَرُّضُ لَوْصُولِ الْكُتَّابِ ؛
وَأَمَّا بِأَنْ تُصَدَّرَ بِوَصُولِهِ وَهُوَ الْأَكْثَرُ .

كما كتب أَبُو عَبْدِ كَانَّ : وَصَلَ كِتَابُكَ فَدَفَعَ تَبَارِيحَ الشُّوقِ ، وَقَعَ كَاثِبَةَ الْبَيْنِ ،
وَأَطْفَأَ لَهْيَ الْحُرْفَةِ ، وَبَرَّدَ حَرَّ الصَّبَابَةِ .

وكما كتب : وَصَلَ كِتَابُكَ مُشْتَمِلًا مِنْ أَنْوَاعِ الْبَرِّ ، عَلَى مَا يَقْصُرُ فِي جَنْبِ أَيْسَرِهِ
أَعْظَمُ الشُّكْرِ .

وكما كتب : وَصَلَ كِتَابُكَ الْمَصْدَرُ بِجَوَاهِرِ لَفْظِكَ ، وَبِدَائِعِ مَعَانِيكَ ، وَمَحَاسِنِ
نَظْمِكَ ؛ مُسْتَوْدِعًا مَا لَا يُقَدَّرُ عَلَى حَمْدِهِ وَشُكْرِهِ إِلَّا بِالْإِعْتِرَافِ بِالْعِجْزِ عَنْهُ ؛ وَمَا
أَشْبَهَ ذَلِكَ .

المهيم الثاني

(في خواتم الكتب)

وكان اختتامُ المكاتبات عند أهل هذا المصطلح على ما تقدم في مكاتبات أهل المشرق من استراحة الرأي : إما بلفظ فإن رأيت :

كما كتب ابن عبد كان : فإن رأيت أن تأتي فيه مؤتلفاً ، ما لم تزل تأتيه سلفاً ، فعلت . وإما بلفظ فرأيتك .

كما كتب : فرأيتك فيه بما أنت أهله ، فإن الرأي [الذي] أنت أهله ، فوق ما يلتزمه المُسْرِف في همته ، والمتبسط في أمنيته .

وكما كتب : فرأيتك في ذلك بما تقضى به الحق وتصل به الدمام ، وتحفظ به الحرمة وتصدق به الأمل ، وتقنع به الصنعة ، وتستوجب به الشكر .

المهيم الثالث

(في عنوانات الكتب)

ومصطلحهم فيه على ما تقدم في مكاتبات أهل المشرق : من كتابة إلى فلان من فلان ؛ أو من فلان إلى فلان .

فأما ما يكتب إلى فلان من فلان . فكما كتب ابن عبد كان : للسيد الذي استعبد الأحرار بفضله .

وكما كتب : لمن قرُب به يمن وسعادة ، ونأيه نكد ومحنة .

وأما ما يكتب من فلان . فكما كتب : من صريح الشوق إليه ، وأسير الرقة عليه .

وكما كتب : ممن لا يتخلى الخير إلا له ، إذ كان لا يناله إلا به .

المصطلح الثاني

(من مصطلحات الديار المصرية ما كان عليه الحال في الدولة الأيوبية

مما جرى عليه القاضي الفاضل ومن بعده . وهو على قسمين)

القسم الأول — الابتداء : وليس لمصطلحهم ضابط في الابتداء ولا في الترتيب في الرقعة والضعة ، بل افتتاحاتهم في ذلك متباينة .

فمن ذلك الافتتاح بالدعاء ، وهو أكثر ما يقع في مكاتبتهم ، والغالب في ذلك الدعاء للمجلس ، كما كتب القاضي الفاضل إلى العماد الأصفهاني : أدام الله أيام المجلس التي لحسنات المدلّ مديله ، ولعثرات المقلّ مقيه ، ولمعاطف العزّ مميّه ، ولمقاطف الفوز منيله ، ولقداح الجدوى مجيله ، ولا زالت الآراب بمكارمه باجحه ، والآراء بمراسمه ناجحه ، ومتأجر المفاخر بمولاته راجحه ، وأيدى الآمال لآياديه بمصافاته مصافحه ، وأرواح أوليائه بروح آلائه في مواطاة أعطيائه عابقة فائحه ، وأدعية الداعين لآيأمين أيامه ، المدعين لعهود إنعامه ، طيبة صالحه .

ومن ذلك افتتاح العماد الأصفهاني في اعتذار تأخر المكاتبات : إن تأخرت مكاتباتي ، فإن العذر معلوم ، والأجر محتوم ، والقلم مضدود ، واللقم مسدود ، والبلد محصور .

إلى غير ذلك من أساليبهم المشهورة التي لا يسع أستيعابها ، ولا حاجة إلى الإمعان في ذكرها .^(١)

(١) لم يذكر القسم الثاني وهو قسم الكلام على الخواتم ولم يترك له بياضا نعم يفهم ذلك مما تقدم في الكلام على الخواتم العمومية فتنبه .

المصطلح الثالث

(من مصطلحات الديار المصرية في الإخوانيات، ما جرى عليه الاصطلاح في الدولة التركية، مما رتبته القاضى محى الدين بن عبد الظاهر، والشيخ شهاب الدين محمود الحلبي، والمفتى الشهابي بن فضل الله، ومن جرى مجراهم: من فضلاء الكُتّاب إلى زماننا، مما هو دائريّين أعيان الملكية وأكابر أهل الدولة: من نواب السلطنة وسائر الأمراء والوزراء، ومن في معانهم: من أعيان الكُتّاب ومن نهج نهجهم من أرباب الوظائف)

وفيه مهيئات:

المهيع الأول

(في رتب المكاتبات المصطلح عليها)

وقد اختلفت مقاصدهم في ترتيبها اختلافاً متقارباً في الزيادة والنقص والتقديم والتأخير، مع مراعاة أصول المراتب . وها أنا أذكر ما استقر عليه الحال من ذلك، وأنبئ على ماخالفه من ترتيبهم المتقدم الذكر: لتحصّل الإحاطة به، ويعلم ما جرى عليه أهل كل عصر منهم مما لعلّ مخاراً يختاره، أو ينسج على منواله، منها على وهم من وهم في شيء من ذلك .

وأعلم أنهم قد بنوا هذا النوع من الإخوانيات على قاعدتين، تتعين معرفتهما قبل الخوض في رتب المكاتبات:

القاعدة الأولى — فيما يتعلق بورق هذه المكاتبات .

قد جرت العادة أن تكون جميع هذه المكاتبات: من الأعلى إلى الأدنى، ومن الأدنى إلى الأعلى، ومن النظير إلى النظير، في ورق قطع العادة دون ما فوقه من مقادير

قَطَعَ الورق المتقدمة الذكر ، غير أنَّ أعيان أهل الديار المصرية يُكاتبون في الورق المصرى ، وأعيان أهل الشام يُكاتبون في الورق الشامى : لكثرة وجوده عندهم ، والمعنى في ذلك أنَّ كُتِبَ السلطان الصادرة عنه إلى جميع أهل المملكة من الثواب وغيرهم في هذا القطع ، فلا جائز أن تَعْلُوَ مكتبة أحد منهم على مكتبة السلطان في ذلك .

ثم قد أصطلحوا على أن يكون في أعلى المكتبة عن كل أحد من أعيان الدولة قبل البسملة وصل واحد بياضا ، إذ كان أقل ما يُجعل بياضا في كُتِبَ السلطان وصلين فاقصروا على وصل واحد ، كي لا يساويه غيره في ذلك . وأصطلحوا أيضا على أن لا تنقص المكتبات المذكورة عن ثلاثة أوصال : الوصل الأبيض في أعلى المكتبة على ما تقدم ، ووصلان مكتوبان : إذ لو نقص عن ذلك ، لخرج الكتاب في القصر عن الحد فيزدري ، أما لو دعت الضرورة إلى الزيادة على الثلاثة لزيادة الكلام فلا مانع منه . وأصطلحوا على أن يترك للكتاب حاشية بيضاء تكون بقدر رُجْع الدرج على ما تقدم ذكره في غير هذا الموضع .

القاعدة الثانية — فيما يتعلق بخط هذه المكتبات ، وكيفية أوضاعها .

قد أصطلحوا على أن جميع هذه المكتبات تكتب بقلم الرقاع على ما تقدم ذكره في الكلام على قطع الورق [من] أن لقطع العادة قلم الرقاع . وأصطلحوا أيضا على أن تكون كتابة البسملة في أول الوصل الثانى من المكتبة ، وأن يكون تحت الجلالة من البسملة لقب المكتوب عنه المضاف إلى ملكه أو أميره ؛ فإن كان المكتوب عنه من أتباع السلطان كغُتُوب السلطنة وغيرهم من الأمراء والوزراء ومن في معانهم من رؤساء الكُتُب السلطانية ، كتب المَلِكى الفلانى — بلقب ملكه السلطان ؛ مثل المَلِكى الظاهرى ونحو ذلك كما في هذه الصورة :

بسم الله الرحمن الرحيم

الملكى الظاهرى

وإن كان المكتوبُ عنه من أتباع الأمراء كاستدّار أمير ونحوه، انتسب في كتابته إلى لقب أميره الخاصّ مما يُضَاف في التلقب إلى الدين؛ فإن كان أميره لقبه سيف الدين مثلاً، كتب بدل الملكى الفلانى: السيفى؛ وإن كان لقب أميره ناصر الدين كتب الناصرى؛ وإن كان لقبه علاء الدين كتب العلائى؛ ونحو ذلك. وإذا كتب تحت الجلالة من البسملة الملكى الفلانى ونحو ذلك، جعل ما قبله في السطر بياضاً وما بعده بياضاً، ويكون ذلك قطعة من سطر مفردة بذاتها. وأصطلحوا على أنه كلما دقّ القلم وتقاربت الأسطر، كان أعلى في رتبة المكتوب إليه، وكلما غلظ القلم وتباعدت الأسطر كان أنزل في رتبة المكتوب إليه. وأصطلحوا على أن في الرتبة العلية من المكاتبات يكون السطر الأول من المكاتبه نلوا الملكى الفلانى وما في معناه ملاصقاً له، وفيما دون ذلك من المكاتبات يُترك بياض يسير، ولا يكتب فيه شيء؛ وكأن المكتوب عنه يقول للمكتوب إليه هذا محلّ العلامة، ولكنى قد تركت الكتابة فيه وكتبت بحاشية الكتاب تأدباً معك ورفعةً لقدرك؛ وفيما دون ذلك يُترك بياض أوسع من ذلك ويكتب فيه المكتوب عنه علامته على ما سيأتى بيانه في مواضعه إن شاء الله تعالى. وأصطلحوا على أنه بعد انتهاء الكلام في المكاتبه يكتب "إن شاء الله تعالى" في خطّه؛ ثم يكتب التاريخ في سطرين: اليوم والشهر في سطر، والسنة في سطر؛ ثم يكتب الحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في سطر؛ ثم الحسبلة في سطر على ما تقدم بيانه في الكلام على القوائح والحواتم في المقالة الثالثة.

وَيُعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْمَكْتَابَاتِ عَلَى قَسْمَيْنِ :

القسم الأول — الابتداءات ، وهو على أربع درجاتٍ سبق توجيهُ ترتيبها في الكلام على أصول المكتابات ، في أول هذه المقالة

الدرجة الأولى — [المكتابة] بتقيل الأرض ، وهي أعلاها رتبةً بالنسبة إلى المكتوب إليه .

وَأَعْلَمُ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ كُتَّابِ الزَّمانِ يَظُنُّونَ أَنَّ الْمَكْتَابَةَ يَقْبَلُ الْأَرْضُ مِنْ مَخْتَرَعَاتِ كُتَّابِ الدَّولةِ التُّركِيَّةِ ، بَلْ بَعْضُهُمْ يَظُنُّ أَنَّهَا مِنْ مَخْتَرَعَاتِ الْمُقَرَّرِ الشَّهَابِيِّ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، بَلِ الْمَكْتَابَةُ بِذَلِكَ كَانَتْ مَوْجُودَةً فِي أَوَاخِرِ الدَّولةِ الْعَبَّاسِيَّةِ بِبَغْدَادَ ، ثُمَّ سَرَتْ إِلَى الدِّيارِ الْمِصْرِيَّةِ فِي أَوَائِلِ الدَّولةِ الْأَيُّوبِيَّةِ ، فَاسْتَعْمِلَتْ بَعْضَ الْأَسْتِعْمَالِ ، وَالْمَكْتَابَةُ بِذَلِكَ مَوْجُودَةٌ فِي كَلَامِ الْقَاضِي الْفَاضِلِ فِي بَعْضِ الْمَكْتَابَاتِ الْمُلُوكِيَّةِ ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ إِلَى السُّلْطَانِ « صَلاحِ الدِّينِ يَوْسُفَ بْنِ أَيُّوبَ » فِي صَدْرِ كِتَابِ تَهْنِئَةٍ بِمَوْلُودَ :

الْمَمْلُوكُ يَقْبَلُ الْأَرْضَ بِالْمَقَامِ الْعَالِي النَّاصِرِيِّ ، نَصَرَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ بِمَقَامِهِ ، وَأَهْلَكَ أَعْدَاءَ الْحَقِّ بِأَنْتِقَامِهِ ، وَلَا أَعَدَمَ الْأُمَّةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ عَقْدَ التَّزَامِهِ ، بِكَفَالَتِهَا وَمَضَاءِ اعْتِزَامِهِ . ثُمَّ تَوَسَّعَ فِيهِ الْكُتَّابُ بَعْدَ ذَلِكَ حَتَّى كَاتَبَ بِهِ الْآحَادُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ،

وَقَدْ رَتَّبُوا الْمَكْتَابَةَ بِتَقْيِيلِ الْأَرْضِ فِي الْمَصْطَلَحِ الْمُسْتَقَرِّ عَلَيْهِ الْحَالُ عَلَى خَمْسِ مَرَاتِبٍ :

المرتبة الأولى — الْإِتْيَانُ بِالْإِنْهَاءِ بَعْدَ يُقْبَلُ الْأَرْضُ مِنْ غَيْرِ تَعَرُّضٍ لَذِكْرِ دَعَاءٍ وَلَا تَنْثَاءٍ ، مَعَ مَرَاعَاةِ الْإِخْتِصَارِ وَعَدَمِ السَّجْعِ وَتَقَارُبِ السُّطُورِ ، مِثْلُ أَنْ يَكْتُبَ بَعْدَ الْبِسْمَلَةِ وَلَقَبِ الْمَكْتُوبِ عَنْهُ الَّذِي تَحْتَ الْبِسْمَلَةِ :

يُقْبَلُ الْأَرْضَ وَيُنْهَى كَيْتَ وَكَيْتَ ، وَسؤالُ الْمَمْلُوكِ مِنَ الصَّدَقَاتِ الْعَمِيمَةِ بِرُوزِ
الْأَوَامِرِ الْعَالِيَةِ بِكَيْتَ وَكَيْتَ ؛ أَوِ الْمَمْلُوكُ يَعْرِضُ عَلَى الْآرَاءِ الْعَالِيَةِ كَيْتَ وَكَيْتَ ،
وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَيُحْمِلُ الْكَتَّابُ بِقَوْلِهِ : أَنَّهُ ' ذَلِكَ ، أَوْ طَالَعَ ذَلِكَ ، وَالْآرَاءُ الْعَالِيَةُ مِنْ يَدِ
الْعُلُوِّ ؛ وَيَعْبُرُ عَنِ الْمَكْتُوبِ عَنْهُ فِي خِلَالِ الْمَكَاتِبَةِ بِالْمَمْلُوكِ . وَيَخْتَلِفُ الْحَالُ فِي خُطَابِ
الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ : فَإِنْ كَانَ مِنْ أَرْبَابِ السُّيُوفِ وَهُوَ نَائِبُ سُلْطَنَةِ خُوطَبَ بِمَوْلَانَا
مَلِكِ الْأُمَرَاءِ عَزَّ نَصْرُهُ أَوْ أَعَزَّ اللَّهُ أَنْصَارَهُ ؛ وَإِنْ كَانَ أَمِيرًا غَيْرَ نَائِبِ سُلْطَنَةِ ،
خُوطَبَ بِمَوْلَانَا الْمُخْدُومِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ ؛ وَإِنْ كَانَ وَزِيرًا رَبَّ سَيْفٍ
خُوطَبَ بِمَوْلَانَا الْوَزِيرِ ؛ وَإِنْ كَانَ وَزِيرًا رَبَّ قَلَمٍ ، خُوطَبَ بِمَوْلَانَا الصَّاحِبِ ،
وَرَبِّمَا قِيلَ بِمَوْلَانَا الْوَزِيرِ ؛ وَإِنْ كَانَ قَاضِيًا خُوطَبَ بِمَوْلَانَا قَاضِيِ الْقَضَاةِ ؛ وَإِنْ كَانَ
عَالِمًا كَبِيرًا ، خُوطَبَ بِمَوْلَانَا شَيْخِ الْإِسْلَامِ ؛ وَإِنْ كَانَ مِنْ مَشَائِخِ الصُّوفِيَةِ ، خُوطَبَ
بِمَوْلَانَا شَيْخِ الشُّيُوخِ ؛ وَعَلَى ذَلِكَ بِحَسَبِ الْمَرَاتِبِ وَالْوِظَائِفِ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ رَأْيُ
الْكَاتِبِ بِمَا يُنَاسِبُ الْحَالَ .

وَالْعُنْوَانُ فِي هَذِهِ الْمَكَاتِبَةِ : الْفُلَانِيَّ مَطَالَعَةُ الْمَمْلُوكِ فُلَانٌ ، وَيَعْبُرُ عَنْ ذَلِكَ : بِالْفُلَانِيَّ
بِمَطَالَعَةٍ . وَقَدْ يَعْبُرُ عَنْ ذَلِكَ عَنِ نَفْسِ الْمَكَاتِبَةِ . وَصُورَتُهُ : أَنْ يَكْتُبَ فِي رَأْسِ ظَاهِرِ
الْمَكَاتِبَةِ مِنَ الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ « الْفُلَانِيَّ » بِاللَّغَبِ الْخَاصِّ بِالْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ ، كَالسَّيْفِيِّ ،
وَالنَّاصِرِيِّ ، وَالشَّمْسِيِّ ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ؛ وَيَكُونُ ذَلِكَ مُمْتَدًّا إِلَى نَحْوِ رُبْعِ عَرْضِ
الدَّرَجِ ، وَتَحْتَهُ فُلَانٌ بِمَا يَقْتَضِي تَعْرِيفَهُ مِنْ وَظِيفَةٍ أَوْ شُهْرَةٍ . فَإِنْ كَانَ نَائِبَ سُلْطَنَةِ
كُتِبَ تَحْتَ الْفُلَانِيَّ : مَوْلَانَا مَلِكِ الْأُمَرَاءِ بِالْمَكَانِ الْفُلَانِيَّ . وَإِنْ كَانَ وَزِيرًا كُتِبَ :
مَوْلَانَا الْوَزِيرِ بِالْمَكَانِ الْفُلَانِيَّ . وَإِنْ كَانَ قَاضِيًا قَضَاةً ، كُتِبَ : مَوْلَانَا قَاضِيِ الْقَضَاةِ

(١) لعله وقد يعبر بذلك عن نفس الخ تأمل .

[illegible]

ولمّا

فلان

وَيَكُونُ ذَلِكَ مُقَابِلَ « يَقْبَلُ » مُلَاصِقًا لَهُ بِحَيْثُ تَكُونُ حَرَّةُ الْكَافِرِ مِنَ الْمَمْلُوكِ
تَحْتَ الْيَبَاءِ مِنْ يَقْبَلُ ، فَكَأَنَّهُمْ رَاعَوْا فِي ذَلِكَ صُورَةَ مَا يَكْتُبُ فِي الْقِصَصِ الَّتِي تُرْفَعُ
إِلَى الْأَكْبَرِ لِاسْتِمَاحَةِ الْحَوَائِجِ وَنَحْوِهَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا يَكْتُبُ فِيهَا « الْمَمْلُوكُ فُلَانٌ يَقْبَلُ
الْأَرْضَ وَيُنْهَى كَيْتٌ وَكَيْتٌ » لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ إِظْهَارِ الْخُضُوعِ وَالتَّوَاضُّعِ .

المرتبة الثانية — أن يأتي بعد « يَقْبَلُ الأرض » بذكر الدعاء دُونَ الثناء مع تقارب الأسطر أيضا واجتناب السَّجْع . وقد أصطلحوا في هذه المكتبة على أن يكتبوا تحت البسملة مع لَقَب المكتوب عنه الذي هو المَلِكِيّ الفُلَانِيّ ونحوه لَقَب المكتوب إليه : كالسيفيّ ونحوه ، على سَمَت المَلِكِيّ الفُلَانِيّ من الجهة اليمنى مع بياض بينهما ، بحيث يَقَع بعض اللقب في حاشية الكتاب ، وبعضه تحت أول البسملة على هذه الصورة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السيفي

الملك الظاهري

ثم يأتي بصورة المكتبة بعد ذلك . ويختلف الحال في هذه المكتبة باختلاف حال المكتوب إليه ، فإن كان نائب سُلْطَنِيّ ، كتب « يَقْبَلُ الأرض » وينتهي بعد رفع الأذعية الصالحة ، أو بعد آتبهاله إلى الله تعالى بالأذعية الصالحة ، تقبلها الله تعالى من المملوك ومن كل دافع مخلص ، ببقاء مولانا ملك الأمراء ، أو بدوام أيام مولانا ملك الأمراء ، وحُلُود سعادته ، ومزيد تأييده ، وعلو درجته في الدنيا والآخرة ، بحمد وآله : أن الأمر كيت وكيت ، والمملوك يسأل الصّدقات العقيقة ، أو الصّدقات الكريمة ، أعز الله تعالى أنصارها بروز الأوامر المطاعة بكيت وكيت . ثم يقول : والمملوك مملوك مولانا ملك الأمراء وعبدُ بابه ونشأ إحسانه ، ويسأل تشريفه بمراسيمه وخدمه ، أو والمملوك يستعرض المراسيم الكريمة ، والخدم العالية ، ليبادر إلى امتثالها ، والفوز بقضائها ، أو والمملوك مملوك الأبواب العالية ونشؤها وغلأمها ، ويسأل دوام النظر الكريم عليه في أحواله كلها ، ونحو ذلك مما يقتضيه الحال ، وقد جهّز المملوك

بهذه المكتبة فلاناً أو مملوكه فلاناً . فإن كان قد حمّله كلامَ مشافهةٍ ، قال : وحمّله من المشافهة ما يسأل الصدقة عليه بسماعه والإصغاء إليه ونحو ذلك . ثم يقول : طالع بذلك والرأى العالى أعلاه الله تعالى أعلى . وإن كان المكتوب إليه أميراً غير نائب سلطنة ، كتب « بدوام أيام مولانا المخدوم » بدل مولانا ملك الأمراء . وإن كان قاضياً ، كتب « ببقاء مولانا قاضى القضاة ، أو بدوام أيام مولانا قاضى القضاة » . وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب « ببقاء مولانا شيخ الشيوخ » ونحو ذلك ، وبقى المكتبة على ما تقدم بحسب ما يقتضيه الحال . والعنوان فى هذه المكتبة « الأبوابُ الفلانية ، مطالعةُ المملوك فلان » ويعبر عن ذلك بالأبواب بمطالعة ، ويختلف الحال فى ذلك باختلاف حال المكتوب إليه : فإن كان المكتوب إليه نائب سلطنة ، كتب : الأبوابُ الكريمةُ ، العاليةُ ، المولويةُ ، الأميريةُ ، الكبيرةُ ، المالكيةُ ، المخدوميةُ ، الكافليةُ ، بقلبه الخاص كالسيفية ونحوها ، أعلاها الله تعالى فلان الفلانى ، باسمه وشهرته . وإن كان المكتوب إليه أميراً غير نائب سلطنة أسقط منه الكافلية . وإن كان وزيراً ربّ سيف ، كتب بعد الأميرية : الوزيرية . وإن كان وزيراً ربّ قلم ، أسقط الأميرية ، وكتب قبل الفلانية الصاحبية . وإن كان من رؤساء الكُتّاب من فى معنى الوزراء : ككتّاب السرّ ، وناظر الخاص ، وناظر الجيش ، ونحوهم ، أبدل لفظ الأميرية والوزيرية بالقاضوية . وإن كان قاضى حُكم ، أتى مع القاضوية قبل الفلانية بالخاكية . وإن كان من مشايخ الصوفية أبدل القاضوية بالشيخية ونحو ذلك .

وصورته أن يكتب الألقاب من أول عَرَض الدَّرَج سطرا إلى آخر المالكية ، ويحلّ بياضاً فى آخر السطر بقدر رُبْع الدَّرَج ، ثم يكتب المخدومية الفلانية فى أول

السطر الثاني مُلَاصَقًا لِلأَوَّلِ ، ثُمَّ يُحَلَّى بِيَاضًا يَسِيرًا ، ثُمَّ يَكْتُبُ : أَعْلَاهَا اللَّهُ تَعَالَى ، ثُمَّ يُحَلَّى بِيَاضًا يَسِيرًا ، ثُمَّ يَكْتُبُ « فُلَانُ الْفُلَانِي » تَحْتَ آخِرِ السَّطْرِ الْأَوَّلِ ؛ ثُمَّ يَكْتُبُ فِي آخِرِ الدَّرَجِ مِنَ الْجِهَةِ الْيُسْرَى بَعْدَ خُلُوفِ بِيَاضٍ « مَطَالَعَةُ الْمَمْلُوكِ فُلَانٌ » ثَلَاثَةَ أَسْطُرٍ عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي الْعُنُونَةِ بِالْفُلَانِي بِمَطَالَعَةٍ كَمَا فِي هَذِهِ الصُّورَةِ :

الأبوابُ الكريمةُ ، العالِيَةُ ، المُولَوِيَّةُ ، الأُمِيرِيَّةُ ، الكَبِيرِيَّةُ ، المَالِكِيَّةُ ، مَطَالَعَةُ
المُخْدُومِيَّةِ ، السَّيْفِيَّةُ أَعْلَاهَا اللَّهُ تَعَالَى أَمْرٌ دَوَادِرُ الظَّاهِرِي الْمَمْلُوكِ
فُلَانُ

والعلامة « المملوك فلان » بقلم ضئيل مُسَامِتٍ يَقْبَلُ كَمَا فِي الْمَكْتَابَةِ قَبْلَهَا .

قَالَ فِي « التَّنْقِيفِ » : وَهَذِهِ الْمَكْتَابَةُ يُكْتُبُ عَنْ أَكْبَرِ أَمْرَاءِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ إِلَى نَائِبِ الشَّامِ وَحَلَبٍ فِيمَا أَظُنُّ .

قَالَ : وَكَذَلِكَ كَانَ يُكْتُبُ الْمُقَرَّرُ الْعَلَائِيُّ بْنُ فَضْلِ اللَّهِ كَاتِبُ السَّرِّ الشَّرِيفِ إِلَى الْمَشَارِ إِلَىهِ ، يَعْنِي نَائِبَ حَلَبَ ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ لَهُ الْعَلَامَةَ أَسْفَلَ الْكُتَّابِ دُونَ أَعْلَاهُ .

قُلْتُ : وَعَلَى هَذَا يَكُونُ لِلْعَلَامَةِ فِي هَذِهِ الْمَكْتَابَةِ رُتَبَتَانِ ، إِنْ عَظَّمَهُ ، كَتَبَ لَهُ الْعَلَامَةَ عَلَى سَمْتٍ يَقْبَلُ ، وَإِلَّا فَفِي أَسْفَلِ الْكُتَّابِ ؛ وَمِنْ ثُمَّ ذَكَرْتُ قَوْلَ صَاحِبِ « التَّنْقِيفِ » هُنَا وَإِنْ كَانَ مَحَلُّهُ رُتَبُ الْمُتَكَاتِبِينَ عَلَى مَا سَبَقَ ذِكْرُهُ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

المرتبة الثالثة — أَنْ لَا يُكْتُبُ فِي أَوَّلِ الْمَكْتَابَةِ عَنْ يَمِينِ أَسْفَلَ الْبِسْمِلَةِ الْفُلَانِيَّ وَيَأْتِي بِذِكْرِ الدُّعَاءِ وَالتَّوَهُّدِ مَسْجُوعًا ، مِثْلَ أَنْ يَكْتُبَ بَعْدَ الْبِسْمِلَةِ وَلَقَبَ الْمَكْتُوبِ عَنْهُ الَّذِي هُوَ الْمَلِكُ الْفُلَانِي : يَقْبَلُ الْأَرْضَ ، وَيُنْهِي بَعْدَ رَفْعِ دَعَائِهِ ، وَإِخْلَاصِهِ فِي مَحَبَّتِهِ وَوَلَائِهِ ، وَأَعْتَرَفِهِ بِإِحْسَانِ مَوْلَانَا وَبِجَزِيلِ آلَائِهِ ؛ أَنْ الْأَمْرَ كَيْتَ وَكَيْتَ ؛

والمملوك يسأل إحسان مولانا، أو صدقات مولانا، أو إحسان المخدم، أو صدقاته في كَيْتٍ وكَيْتٍ ؛ ثم يقول : والمملوك فهو مملوك مولانا ومُحِبُّهُ ، والداعي لإحسانه ، ويسأل تشريفه بمراسيمه وخدمته ؛ وقد جهَّز المملوك بهذه العبودية فلانا ، أو مملوكه فلانا ، وحمله من الدعاء والولاء ما ينبغي من لسانه ، ويُعَرِّب عنه بليانه ؛ أو وقد حمله المملوك ما يقوم عنه به في إنهائه ، من رصف الأدعية ، ووصف الأئنية ؛ والمملوك يسأل الإصغاء إليه ، والتشريف بالمراسيم العالية والخدم الكريمة : ليفوز بإقبالها ، ويُبادر إلى أمثالها . طالع بذلك ، أو أنهى ذلك ؛ أو والمملوك يستعرض المراسيم العالية ، والخدم الكريمة المتواليه : ليتشرف بقضاها ، ويتشوف إلى إمضاها .

صدر آخر : ويُنتهى بعد رفع الأدعية ، وبثِّ الحامد والأئنية ، والمؤالاة التي يعمل منها على الألويه ، أن الأمر كَيْت .

آخر : ويُنتهى بعد رفع دعائه الذي لا يفتر لسأته عن رفعه ، ولا يخفى إن شاء الله إبان نفعه ، وأتباله الذي يرفع السُّحْب ، وشوقه الذي يهْدِي النُّجْب ؛ أن الأمر كَيْت وكَيْت .

آخر : ويُنتهى بعد دعائه المقبول ، وشوقه الذي لا يحول عنه ولا يزول ؛ وسلامه الذي يعجز عن شرحه القلم ويضعف عن حمله الرسول .

آخر : ويُنتهى بعد دعاء يرفعه بالغدو والآصال ، وولاء لا يتغير مادامت الأيام والليال ، وثناء أطيّب من عرف الرّوض إذا مرّ عليه نسيم الشمال ، أن الأمر كَيْت وكَيْت .

آخر : ويُنتهى بعد رفع الدعاء ، ونصب لواء الولاء ، وجرّ ذيول الفخر بالانتساب إلى عبودية مولانا والإعتراف ، أن الأمر كَيْت وكَيْت .

آخر : ويُنهى بعد دعائه المرفوع ، وثنائه الذى هو كالمسك يَضُوع ، وشكره الذى يُسَمَّع منه ويُسَمَّع أَطِيبُ مَسْمُوع ، أَنَّ الأمرَ كَيْتَ وكَيْتَ .

والعنوان لهذه المكتبة «الأبواب الفلانية» بغير مطالعة ، ويختلف الحال فيه : فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف وهو نائبُ سلطنة ، كتب «الأبواب الكريمة ، العالمة ، المولوية ، الأميرية ، الكبيرة ، السيدية ، المالكية ، المخدمية ، الكافلية ، الفلانية ، أعلاها الله تعالى» ثم يقال : نائبُ السلطنة الشريفة المحروسة ؛ أو كافل المملكة الفلانية المحروسة ؛ وباقي عُنوانات أرباب الوظائف : من أرباب السيوف والأفلام على ما تقدّم فى العُنوان بالأبواب بمطالعة .

وصورة وضعه أن يكتب «الأبواب الكريمة إلى آخر الكافلية» مثلاً سطرًا واحدًا من أول عَرْض الدَّرَج إلى آخره ؛ ثم يكتب «الْفُلَانِيَّةُ أعلاها الله تعالى» فى أول السطر الثانى ملاصقًا له ؛ ثم يترك بياضًا قدرَ رأس إبهام ؛ ثم يكتب فى آخر السطر الثانى «كافل الممالك الشريفة الفلانية المحروسة» كما فى هذه الصورة :
 الأبواب الكريمة ، العالمة ، المولوية ، الأميرية ، الكبيرة ، السيدية ، المالكية ، المخدمية ، الكافلية ،
 السيفية ؛ أعلاها الله تعالى كافل الممالك الشريفة بالشام المحروس

والعلامة فى ذيل الكتاب مقابل تحت البسملة بقلم الرقاع «الملوك فلان» وكأنهم لما آنحطت رُتبة المكتوب إليه عن أن تُكتب العلامةُ إليه على سَمْت «يَقْبَلُ» ليكون فى معنى القِصَّة كما تقدّم ، أخذ المكتوب عنه فى التنازل إلى آخر المكتبة تواضعًا للمكتوب إليه وتأدبًا معه .

قال فى «التنقيف» وبذلك كان يُكْتَب عن الأمير يُلْبِغا العُمَرَى : يعنى الخالصكى وهو أتايك العساكر المنصورة بالديار المصرية إلى نائبي الشام وحلب .

قال : وكذلك كتب بعده إلى المذكورين : الأمير منكلي بغا ، والأمير الجاى ،
وثواب السلطنة بالديار المصرية .

المرتبة الرابعة — أن يأتي بصدر المكتبة على ماتقدم فى المكتبة قبلها من
الابتداء يُقبل الأرض ويُبنى بعد رفع دعائه وما فى معناه على ماتقدم من غير فرق :
ولا يختلف الحال فى الصدر ولا فى متن الكتاب ، والعنوان « الباب الكريم » ولا يكون
إلا بغير مطالعة . فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كتب « الباب
الكريم ، العالى ، المولوى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ،
المالكي ، المخدمى ، الفلانى ؛ أعلاه الله تعالى ، فلان الفلانى — باسم المكتوب إليه .
وإن كان من أرباب الأقاليم أو غيرهم فعلى ماتقدم فى « الأبواب بمطالعة » من إبدال
الأميرى بالقضائى ، أو الشيخى ، وزيادة قاضى الحكم الحاكمى قبل الفلانى .

وصورة وضعه : الباب الكريم — بالألقاب المتقدمة إلى آخر المالكي سطرًا
واحدًا من أول عَرْض الدَّرَج إلى آخره ؛ ثم يكتب المخدمى الفلانى أعلاه الله تعالى
فى أول السطر الثانى ، ويترك بياضا ، ثم يكتب فلان الفلانى باسم المكتوب إليه
أو شهرته كما فى هذه الصورة :

الباب الكريم العالى ، المولوى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، المالكي .
المخدمى ، السيفى ، أعلاه الله تعالى بهادر أمير اخور الأشرقى .

تنبيه — كل ما كان العنوان فى الباب الكريم ، كان العنوان فى المسافر « الخيم »
بل الباب ، وباقي الألقاب على حالها كما نبّه عليه فى « التثقيف » وغيره ؛ والعلامة
فى آخر المكتبة مقابل حسبي الله ؛ إذ لما كانت العلامة فى أسفل الكتاب مقابل

تحت الحسبة كانت العلامة فيما فوق ذلك أنزل في رتبة المكتوب إليه وأعلى في رتبة المكتوب عنه .

المرتبة الخامسة — يُقبل الأرض بالمقر الشريف . والرسم فيه أن يترك بعد البسملة وما تحتها من الملكى الفلانى قدر سطر أو سطرين بياضاً ، ثم يكتب يقبل الأرض بالمقر الشريف ، ويختلف الحال فيه : فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كتب « يقبل الأرض بالمقر الشريف ، العالى ، المولوى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، الذخرى ، الظهيرى ، المسندى ، الزعيمى ، المالكى ، المخدومى ، الفلانى ، أعز الله تعالى أنصاره ، وأعلى مناره ، وضاعف مباره ، وينهى بعد وصف محبته ، وبث أنيته ، كيت وديت ، والمسئول من إحسانه كيت وكيت » وربما كتب : « والمملوك يسأل كيت وكيت » كما فى المكاتبات السابقة ، أو « والمملوك يسأل تشريفه بمراسمه وخدمه ، والله تعالى يديم عليه سوايخ نعمة » .

دعاء آخر لهذه المكاتبه : أعز الله تعالى أنصاره ، وأدام أنتصاره ، وجعل على غايات النجوم اقتصاره ، وينهى .

آخر : لازالت الرقاب لمهابته خاضعه ، والركاب به فوق النجوم واضعه ، وأجنت السيوف بمضار به من ماء الأعداء راضعه ، وينهى .

آخر : لازالت أعلامه مشرفه ، وأقلامه مصرفه ، وأيامه بطيب ثنائه بين الخافقين معرفة .

آخر : لازالت الدنيا ببقائه مجمله ، والعليا لأرتقائه مؤمله ، والنعم على اختلافها جواهر مكملة ، وينهى .

قلت وربما أتى بصورة الإنهاء مسجوعة أيضا؛ مثل أن يكتب : وَيُنْهَى بعد
تَعْبُده بَوَلَانِه، وقيامِه بِحَقُوقِ آلَانِه. أو وَيُنْهَى بعد دعاء يقومُ بِوَظَائِفِه، وولاءٍ يتردَّى
بِمَطَارِفِه. أو وَيُنْهَى بعد رَفَعِ أَدْعِيَتِه، وقَطْعِ العُمُرِ في مُوَالَاتِه وَعُبُودِيَّتِه، ونحو ذلك .
وعلى ذلك جرى في "عرف التعريف" إلا أن الغالب في كتابة أهل الزمان
إهماله . والعنوان إن قصد تعظيمه : البابُ العالى - بألقاب الباب الكريم
في المكتبة قبلها، إلا أنه يُحذف منها الكريم . وإن لم يقصد تعظيمه فالمقر الشريف
بالألقاب التي في صدر الكتاب . وصورة وضعه في الباب العالى على ما تقدّم
في الباب الكريم : أن يأتي به في سطرَيْن كاملين من أول عَرْض الدَّرَج إلى آخره،
كما في هذه الصورة :

المقر الشريف ، العالى ، المولوى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، الثنوى ، الظهيرى ،
المستندى ، الزعيمى ، المالكى ، المخدومى ، السيفى ، أعز الله تعالى أنصاره أمير حاجب بالشام المحروس
والعلامة في هذه المكتبة « المملوك فلان » بقلم الرقاع ، بأسافل الكتاب ، مقابل
إن شاء الله تعالى .

وأعلم أن هذه المراتب الخمس هي الدائرة في المكتبات بين كُتَّاب زماننا بملكة
الديار المصرية وما جرى على نهجها، والمعنى في ترتيبها على هذا الترتيب أنه في المرتبة
الأولى منها حُذف الدعاء والثناء المقتضيان للدلالة من المكتوب عنه على المكتوب
إليه ، وأقتصر على السير من الكلام دون الكثير الذى فيه سامة المكتوب إليه
وإسجاره ، عند قراءة الكتاب ؛ وعُتِيت بالفلانى كالسيفى ونحوه، من حيث
إنه لَقَب مؤد إلى رِفعة ؛ وأتى فيه بمطالعة المملوك فلان ، إشارة إلى التصريح بالرق
والعبودية من المكتوب عنه للمكتوب إليه مع إقامته في مقام الرِفعة بذكر لَقَبه
المؤدى إلى رِفعة قدره - وفي المرتبة الثانية أتى فيها بالفلانى داخل المكتبة دون

العنوان فكانت أنزل مما قبلها : من حيث إنَّ العُنْوَانَ ظاهرٌ وباطِنَ المكتبةِ خفيٌّ والظاهر المؤدَّى إلى الرِّفْعَةِ أعلى من الخفيِّ من ذلك ، وأُتِيَ بالدعاء فكانت أنزل رتبةً من التي قبلها لما تقدّم من أنَّ الدعاء فيه معنى الدالّة ، وأجتنب فيه السجع من حيث إنَّ في الإتيان به تفاصُّحاً على المكتوب إليه ، وعُنُونُ الأبواب إشارةً إلى شرف محلِّ المكتوبِ إليه من حيث الإشعارُ بأنَّ له أبواباً يُوقَفُ عليها ؛ وجعلتْ دُونَ المرتبةِ الثانية من حيث إنَّ العُنُونَةَ في المرتبة الأولى باللَّغَبِ المؤدَّى إلى الرِّفْعَةِ مع دِلَالَتِهِ على الذات . وفي الثانية عُنُونُ الأبوابِ المُوصِّلة إلى محلِّ الشخص ؛ ولا يخفى أنَّ ما دلَّ على نفس الشَّخْصِ أعلى مما هو مُوصَّل إلى محلِّه ؛ وأُتِيَ فيها بمطالعة المملوكِ فلانٍ إشارةً إلى التصريح للمكتوبِ إليه بالرقِّ والعبودية كما تقدّم في المرتبة الأولى . وفي المرتبة الثالثة حُذِفَ منها الفلاني المؤدَّى إلى الرِّفْعَةِ من داخل المكتبة فكانت أنزل من التي قبلها فأُتِيَ فيها بذلك ؛ وأُتِيَ بالدعاء مسجوعاً فكانت أنزل مما قبله لما في السجع من التفاضُّح على المكتوب إليه ، وأسقط من عنوانه مطالعة المملوكِ فلان فكانت أنزل من حيث إنَّه لم يقع فيه تصريحٌ بَرَقَّ وعبوديةً كما في المرتبة الأولى والثانية . وفي المرتبة الرابعة بقي الصَّدْرُ على حاله وعُنُونُ فيها بالباب بلفظ الإفراد ، فكانت أنزل مما قبلها ، من حيث إنَّ الإفراد دُونَ الجمع بدليل أنه بعضٌ من أبعاضه . وفي المرتبة الخامسة قيل يُقْبَلُ الأرضَ بالمَقَرِّ ؛ يعني مَقَرَّ المكتوبِ إليه ، فكانت أنزل مما قبلها من حيث إشعارُ ذلك بالقُربِ من محلِّه بخلاف يُقْبَلُ مطلق الأرض فإنه لا يَحْصُرُ في ذلك ، ثم إنَّ عُنُونَتِ البابِ العالی مجرداً عن الكريم ، كانت أنزل مما عُنُونُ فيه بالكريم لما جرى عليه الاصطلاح من رفعة رُتَبَةِ الكريم العالی

(١) لعله دون المرتبة الأولى ، ومراده أن العنونة بالأبواب أقل من العنونة بالألقاب للعلّة التي ذكرها .

(٢) مراده : يقبل الأرض بغير أن تقيّد بالمقر .

على العالى المجرد عن الكريم ، على ما تقدم فى الكلام على الألقاب فى المقالة الثالثة ، وإن عُنُونَت بالمَقَرِّ الشريف فهى على انحطاطِ الرتبة عما قبلها من حيث إشعاره بقُرب المحلِّ من المكتوب إليه . على أن فى عُنُونَةِ هذه المكتبة بالمَقَرِّ الشريف نظراً ، فإنَّ أعلى مَرَاتِبِ الْإِبْتِدَاءِ فى المكتبة بالدعاء هى الدعاء للمَقَرِّ الشريف ، وهو بعد تقبيل الباسِطِ والباسِطَةِ واليدِ على ما سياتى ذكره فى الدرجة الثالثة فيما بعد إن شاء الله تعالى .

فربما التبس عنوان هذه بعنوان تلك قبل فضاءها ، والوقوف على صدرها هل هو مَفْتَتَحٌ يَقْبَلُ الأَرْضَ بالمَقَرِّ أو بالدعاء للمَقَرِّ ، إلّا أنَّ كُتَّابَ الزمان قد رفضوا المكتبة بالدعاء للمَقَرِّ الشريف وأقصرُوا على الدعاء للمَقَرِّ الكريم ، إذ كان هو أعلى ما يكتب به عن السلطان لأكابر أمراء المملكة على ما تقدم ذكره فى الكلام على مكاتبات السلطان إلى أهل المملكة فى المقالة الرابعة .

قلت : وفى الدساتير المؤلفة فى الإخوانيات فى الدولة التركية فى الزمن السابق ما يخالف بعض هذا الترتيب ، فجعل فى "عُرْفُ التعريف" أعلى المراتب يقبل الأرض ويُنْهَى كَيْتَ وَكِتَ ، والعنوان «الفلانى بمطالعة» على ما تقدم ذكره فى الترتيب السابق . ودونه : الصدر بعينه ، والعنوان «الأبواب بمطالعة» . ودونه : كذلك والعنوان «الأبواب» بغير مطالعة . ودونه : « يقبل الأرض بالمَقَرِّ الشريف ، والعنوان إما الباب العالى أو المَقَرِّ الشريف » .

وفى دُستورِ يُعزَى لبعض بنى الأثير أنَّ أعلى المراتب يقبل الأرض ويُنْهَى كَيْتَ وَكِتَ على ما تقدم . ودونه : « يقبل الأرض ويدعو مثل يقبل الأرض ويُنْهَى بعد رفع دعائه الذى لا يفتقر لسانه عن رفعه ، ولا يخفى إن شاء الله إبان

نَفْعَهُ . ودونه : « يَقْبَلُ الْأَرْضَ وَيَدْعُو لَهَا ، مِثْلُ : يَقْبَلُ الْأَرْضَ حَمَاهَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ غَيْرِ الزَّمَانِ ، وَآكْتَفَنَهَا بِالْأَمَانِ ، مِنْ صُرُوفِ الْحَدَثَانِ ، وَلَا زَالَتْ مُحِطٌ وَفُودُ الْجَدَا ، وَكَمْبَةٌ قُصَادُ النَّدَا ، وَيُنْهَى كَيْتَ وَكِتَ » . ودونه « يَقْبَلُ الْأَرْضَ وَيَصِفُهَا ، مِثْلُ أَنْ يَكْتُبَ : يَقْبَلُ الْأَرْضَ الَّتِي هِيَ مُلْجَأُ الْعَفَاةِ ، وَمَلْتَمُ الشَّفَاةِ ، وَمَحَلُّ الْكَرَمِ الَّذِي لَا يَنْحِبُ مِنْ إِقْتَفَاةِ ، وَمَقْصِدُ الرَّاجِي الَّذِي إِذَا عَوَّلَ عَلَيْهِ كَفَاةِ ، وَيُنْهَى كَيْتَ وَكِتَ » . ودونه « يَقْبَلُ الْأَرْضَ وَيَدْعُو لَهَا ، مِثْلُ أَنْ يَكْتُبَ : يَقْبَلُ الْأَرْضَ لِأَزَالَتْ مُحْرُوسَةَ الرَّحَابِ ، هَامِيَةَ السَّحَابِ ، فَسِيحَةَ الْجَنَابِ ، لَمَنْ أَنَابَ ، وَيُنْهَى كَيْتَ وَكِتَ » .

وجرى في "التثقيف" على الترتيب المتقدم في المرتبة الأولى والثانية والثالثة والرابعة على ما تقدم في المراتب الخمس السابقة، وجعل المرتبة الخامسة يقبل الأرض مع وصفها على ما تقدم في الدستور المنسوب لبعض بني الأثير مع العنونة بالباب العالي، وجعل يقبل الأرض بالمقر الشريف مرتبة سادسة مع العنونة بالباب العالي أو المقر الشريف .

وفي غير هذه الدساتير ما يخالف بعض ذلك في الترتيب والتقديم والتأخير؛ وفي بعض الدساتير بعد تقبيل الأرض تقبيل العتبات، مثل أن يكتب : يُقْبَلُ الْعَتَاتِ الْكَرِيمَةِ، لَا بَرِحَتْ مَطْلَعُ السُّعُودِ، وَمَنْعَ الْجُودِ، وَمَهِيَعًا لِلْقَامِ الْمُحْمُودِ . أو : يُقْبَلُ الْعَتَاتِ الْكَرِيمَةِ ، لِأَزَالَتْ الْأَفْلَاكُ تَمْتَلِي أَنَّهَا بِهَا تُخَفُّ ، وَأَنَّهَا لَنَجُومِهَا إِلَيْهَا بِحُوضِ الْوَالِدِينَ (٩) تَرْفُ . أو : يُقْبَلُ الْعَتَاتِ الْكَرِيمَةِ ، لِأَزَالَتْ الْأَمَالُ بِهَا مُطِيفُهُ ، وَالسُّعُودُ لَهَا حَلِيفُهُ ، وَسَعَادَتُهَا لِأَسْتَعْدَادِ كُلِّ ذِي إِنْشَامٍ مُضِيفُهُ .

(١) هذه المرتبة تقدمت قبل بأسطر إلا أن يكون انحطاطها من حيث صيغة الدعاء تأمل .

ولا يخفى أن بعض هذه الاختيارات غير مُحْكَم الأساس، ولا موضوع على أصل يقتضى صحة الترتيب فيه، بل الكثير من ذلك راجع إلى التشهى، كلما تقدم متقدم فى دولة من الدول أحب أن يؤثر مخالفة غيره، ويجعل له شيئا يُحَدِّثه لِيُنْسَبَ إليه ولا يُبَالَى وافق فى ذلك غرضًا صحيحًا أم لا، وَقَلَّ مَنْ يصيب الغرض فى ذلك . على أن تقدم بعض هذه المراتب على بعض فى العلوّ والهبوط إنما هو من جهة استحسانه، لو تكلف المتكلف تأخير ما تقدم فيها أو تقديم ما أخر، لأمكنه ذلك .

الدرجة الثانية

(المكتبة بتقيل اليد، وقد رتبوا ذلك على ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى — يُقْبَلُ الباسط الشريف، وهى الأعلى بالنسبة إلى المكتوب إليه . والرسم فيها أن يترك الكاتب تحت المَلِكِىِّ الفلانى بعد البسملة قدرَ سطرين بياضًا كما فى المسألة قبلها، ويختلف الحال فى ذلك : فإن كان المكتوب إليه من أرباب السُّيُوف، كتب: يُقْبَلُ الباسط الشريف، العالى، المولوى، الأميرى، الكبيرى، العالمى، العادلى، المؤيدى، السيدى، المالكى، المخدومى، المحسنى، الفلانى؛ لازالت ساحتُه مقبله، وسَمَاحَتُه مؤمَّله، ويُنْهَى بعد وصف خِدمه، وثُبُوت قيامه فيها على قَدَمه، أن الأمر كيت وكيت؛ والمسئول من إحسانه كيت وكيت؛ والله تعالى يحرسه بمنه وكرمه .

دعاء آخر : يليق بهذه المكتبة؛ يقال بعد تكملة الألقاب : لازالت نعمه باسطه، وأيامه لعُقُود الأيام واسطه، ويُنْهَى كيت وكيت .

آخر : لازال جناح كرمه مبسوطا ، وجناب حرمه من المخاوف محوطا ،
وينهى كيت وكيت .

آخر : لازال يصرف الأعنة والأسنة ، ويقلد أعناق أعدائه كل أجل
وأعناق أودائه كل منه ، وينهى .

آخر : لازالت حائل السيوف تتسابق إلى بسانه ، وأعقاب الرماح تأوى
إلى أنامله : ليمكنها من قلوب أعداء الله يوم طعانه ، ومئون الخيل متحصنة بعزائه
فيقوى جناتها بجنانه .

آخر : لازالت رحي حروبه على أعدائه تدار ، وأسنة رماحه تُنادى الأعداء
البدار البدار ، وجنوده تقايل سفرة الوجوه إذا قاتل الأعداء في قرى محصنة أو
من وراء جدار .

آخر : لازالت أعلام النصر معقودة بأعلامه ، وجواري اليم السعيد معدودة
من خدامه ، وسطور البأس والكرم مثبتة إما بأقلام الخط من رماحه وإما برماح
الخط من أعلامه .

آخر : لازالت الأعنة والأسنة طوع يمينه وشماله ، والآمال والأحوال
تحت ظلال كرمه وكرم ظلاله ، والسيوف والأقلام : هذه جارية بعوائد بآسه ،
وهذه جارية بعوائد نواله .

آخر : ولازالت وجوه النصر تراءى في مرآة صفاحه ، وثمار النصر تجتني
من أغصان رماحه ، ولا يرح السيوف والقلم يتباريان في ضرر الأعداء بآسه ونفع
الأولياء بسماحه — وإن كان المكتوب إليه وزيراً رب سيف ، كتب بعد الأمرى
«الوزيرى» — وإن كان وزيراً رب قلم ، كتب قبل الفلانى أيضا الصاحبى —

وإن كان من أعيان الثَّكَّاب: ككتاب السَّرِّ وناظر الخاصِّ وناظر الجيش وناظر
الدَّولة وکُتَّاب الدَّست ونحوهم ، كتب بدل الأميری القَضَائِيَّ ؛ ثم يكتب للجميع
بعد الوزيری أو القَضَائِيَّ ؛ العالمیَّ ، العادلیَّ ، الممهَّديَّ ، المشيَّديَّ ، المالکیَّ ،
المخدوميَّ ، المحسنيَّ ، الفلانيَّ ؛ أسبغ الله تعالى ظلاله ومدَّها ، وشيَّد به مباني الملك
وشدَّها ، ووهَّب الأيام منه هبةً لا تستطيع الليالي ردَّها ، وينهى كيت وكيت .

دعاء آخر يليق بهذه المكتبة ، يقال بعد تكملة الألقاب ، ولا زالت أقلامه
تروِّع الأسد في آجامها ، وتزید على الغیوث في أنسجامها ، وتعلَّم الرِّمَّاح الإقدام
إذا نكصت لإنجامها ، وينهى .

آخر : ولا زالت الدَّول مشيَّدة بتصرفه ، مجدَّدة لتصرفه ، مؤيَّدة بين صرير
القلم وصريره .

آخر : ولا زالت أقلامه تهزُّ بالغيوث الهامية ، وأنعامه تفوق على البحار
الظامية ، وموارد إحسانه تأوی إليها الوفود الظامية .

آخر : وأدام القصد لبابه ، ونزول الآمال برحابه ، وصعودها إلى سحابه .

آخر : لا زال فسيحا للقاصد جنابه ، مجرَّباً للمناجح بابه ، صريحاً في ابتغاء خير
الدنيا والآخرة طلابه — وإن كان من القضاة الحُكَّام ، كتب : يُقبَّل الباسط .
الشریف ، العالی ، المولوی ، القَضَائِيَّ ، العالمیَّ ، الإمامیَّ ، العلَّامیَّ ، السَّيِّدیَّ ،
المالکیَّ ، المخدومیَّ ، المحسنيَّ ، الحاکیَّ ، الفلانيَّ ؛ أعزَّ الله تعالى أحكامه ،
وجلَّ به الدهر وحُكَّامه ، وثبَّت به الأمر وزاد إحكامه ، وينهى كيت وكيت .
دعاء آخر يناسبه : يقال بعد تكملة الألقاب : أعزَّ الله تعالى أحكامه وأنفذها ،
وتدارك به الأمة وأنفذها ، وأسعف به الملة الإسلامية وأسعدَّها ، وينهى .

آخر: نَضَرَ اللهُ الدِّينَ بَنُوهُ ، وَسَقَى الْغَافِمَ بَاقِيَ سُورِهِ ، وَحَمَى حِمَى الشَّرْعِ الشَّرِيفِ بِمَا ضَرَبَ عَلَيْهِ مِنْ سُورِهِ .

آخر: وَجَمَلَ الدَّهْرَ بِمَنَاقِبِهِ ، وَزَيَّنَ سَمَاءَ الْعِلْمِ بِكَوَاكِبِهِ ، وَلَا زَالَ الزَّمَانُ يَقُولُ لِمُنْصِبِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ بِشَخْصِهِ وَرَأْيِهِ : * عِزُّ يَدُومُ وَإِقْبَالُ لِصَاحِبِهِ * .

آخر: وَأَمْضَى بِيَدِهِ سُيُوفَ الشَّرْعِ الَّتِي هِيَ أَقْلَامُهُ ، وَأَعْلَى طُرُوسِ الْعَدْلِ وَالْحَقِّ فَإِنَّهَا أَعْلَامُهُ ، وَلَا زَالَتْ يَدُ الْقَصْدِ مُشِيرَةً إِلَيْهِ ، وَلَا يَنْعَقِدُ إِلَّا عَلَى ثَنَائِهِ خِنْصَرٌ وَلَا يَنْجَلِي إِلَّا بِهْدَاهُ إِبْهَامٌ .

آخر: وَسَدَّدَ سِهَامَ الْحَقِّ بِأَفْضِيَّتِهِ ، وَشَيَّدَ أَرْكَانَ الشَّرْعِ بِأَنْبِئَتِهِ ، وَأَيَّدَ الْإِسْلَامَ بِأَقْلَامِ سَيِّلَاتِهِ الْقَائِمَةِ لِلنَّصْرِ مَقَامَ الْوَيْتَةِ — وَإِنْ كَانَ الْمَكْتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ مَشَائِخِ الصُّوفِيَّةِ ، كَتَبَ : يُقْبَلُ الْبَاسِطُ الشَّرِيفُ ، الْعَالِيُّ ، الْمَوْلَوِيُّ ، الشَّيْخِيُّ ، الْإِمَامِيُّ ، الْعَالِمِيُّ ، الْعَامِلِيُّ ، الْخَاشِعِيُّ ، النَّاسِكِيُّ ، السَّيِّدِيُّ ، الْمَالِكِيُّ ، الْمُخْدُومِيُّ ، الْمُحْسِنِيُّ ، الْفَلَائِيُّ ؛ لَا زَالَ يِقَاتِلُ بِسِلَاحِهِ ، وَيُقَابِلُ فِسَادُ الدَّهْرِ بِصَلَاحِهِ ، وَيُجْلُو دُجَى الظُّلُمَاءِ بِصَبَاحِهِ ، وَيُنْهَى .

آخر: وَنَفَعَ بِيرَكَاتِهِ فِي الرُّوحَاتِ وَالْغَدَوَاتِ ، وَجَمَلَ بِبِقَائِهِ الْحَافِلَ وَالْمَلَوَاتِ ، وَبَسَطَ فِي صَالِحِ الدُّوَلِ [يَدَهُ] : إِمَامًا فِي مِبَاشَرَتِهِ بِصَالِحِ التَّدْيِيرِ وَإِمَامًا فِي آتِقْطَاعِهِ بِصَالِحِ الدَّعَوَاتِ .

والعنوان في هذه المكاتبة «الباسط الشريف» بالألقاب التي في صدر المكاتبة على السواء، والدعاء له بأول سَجْمَةٍ من دعاء الصِّدْرِ أَوْنَحُوها، بِحَسَبِ حَالِ الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ ، مِثْلُ أَنْ يَكْتُبَ لِمَنْ هُوَ مِنْ أَرْبَابِ السُّيُوفِ ، أَعَزَّ اللهُ تَعَالَى نَصْرَهُ ؛ أَوْ عَزَّ

نَصْرُهُ . ولن هو من رؤساء الكُتَّاب : أسبغ الله ظلاله . ولن هو قاضى حُكْم :
أعزَّ الله أحكامه . ولن هو من مشايخ الصوفية : أعاد الله من بركاته .

وصورة وضعه فى الورق أن تكتب الألقاب والدعاء والتعريف فى سطرين
كاملين من أول عَرْض الورق إلى آخره ، إلا أنه يُفصل بين الألقاب والدعاء
ببياض لطيف ، وبين الدعاء والتعريف ببياض لطيف كما فى هذه الصورة .

الباسط الشريف ، العالى ، المولوى ، الأميرى ، الكبرى ، العالى ، العادى ، المؤيدى ، السيدى ،
المالكي ، المخدومى المحسنى ، الفلانى أعزَّ الله أنصاره أمير حاجب بحلب المحروسة

وقد ذكر فى "عرف التعريف" : أنه إن قصد تعظيمه ، عنونه بالمقر الشريف
بالألقاب المتقدمة على السواء ، ولا تخفى صورة وضعه بعد ما تقدم ، والعلامة
«المملوك فلان» بقلم الرقاع مقابل إن شاء الله كالمكتبة بالمقر الشريف المتقدمة .

(١)

المرتبة الثانية — [يقبل الباسطة الشريفة] والرسم فيها أن يترك تحت الملى
الفلانى قدر سطرين بياضا كما فى المكتبة قبلها ، ثم يكتب يقبل الباسطة الشريفة
بالتأنيث ، ويجرى الحال فى ذلك كما فى الباسط — فإن كان المكتوب إليه من أرباب
السيوف ، كتب : يقبل الباسطة الشريفة ، العالية ، المولوية ، الأميرية ، الكبرى ،
العالية ، العادلية ، المؤيدية الذخريّة ، المالكية ، الحسينية ، الفلانية ؛ لازالت سبحانه
مستله ، ومواهبها للبحار مستقلة ؛ وينهى كيت وكيت ، والمستمد من محبته كيت
وكيت . وربما قيل والمسئول ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه .

دعاء آخر يليق بذلك : لازلْتُ سيولها تملأ الرحاب ، وسيوفها تُسرغ
السَّال إلى الرقاب .

(١) زدنا هذه العبارة أخذا مما سياتى على الأثر ولعلها سقطت من قلم الناسخ تأمل .

آخر : لا زالت خناصرُ الحِمدِ على فضلِ بنائها معقوده ، وماثرُ البأسِ والكرمِ لها ومنها شاهدةٌ ومشهوده ، وبوآثرِ السُّيوفِ مُسيرةُ القصدِ إلى مُناصرةِ أعلامِها المنضودة .

آخر : ضاعف الله تعالى مَوادَّ نعيمِها ، وجَوادَّ كرمِها ، وأتَّصالَ الآمالِ بمساقِطِ ديمِها .

آخر : لا زالت الآمالُ لائذةً بكرمِها ، عائذةً بحرمِها ، مستنجدةٌ على جذبِ الأيامِ بسقي ديمِها .

آخر : لا زالت لرُسومِ الكرمِ مُقيمهُ ، ولصنائعِ المعروفِ مُديمهُ ، ولأَيادي الإحسانِ متابعهُ إذا قَصَّرتْ عن البروقِ ديمهُ — وإن كان المكتوبِ إليه من رءوسِ الكتَّابِ كِتبٌ بدلِ الأُميرِ القضايِ ، والباقي على ما تقدَّم ؛ ثم يدعى له بما يناسبهُ .
دعاء يناسب ذلك : لا زالتِ السُّيوفُ خاضعةً لأعلامِها ، والنجومُ خاشعةً لكلامِها ، والجبالُ متواضعةً لإعلاءِ أعلامِها .

آخر : لا زالت مولاتُها فريضهُ ، وأجنحةُ أعدائها مهيضهُ ، ومُقلُ الأُسنةِ إذا خاضتها ألسنةُ أعلامِها غَضيضهُ .

آخر : أسبغ الله ظلَّها ، وهنَّأ بها أُمَّةً قُربَ مبعثِ زمانِها وأَظَلَّها ، وهَدَى الآمالَ وقد حيرَها الحرمانُ وأَصْلَها .

آخر : لا زال قلمُها مفتاحَ الرِّزقِ لطالبهِ ، والجاهُ لكاسِهِ ، والنصرُ لمُسْتَتِيبِ كُتُبِها عن كُتُبِهِ .

آخر : لا زال رِفْدُها المطلوبُ ، وسَعْدُها المكتوبُ ، وقلمُها المُخاطبُ في مصالحِ الدولِ والمخطوب .

آخر : بَسَطَ اللهُ ظِلَّهَا وَلَا قَلَصَهَا ، وزادها من فَضْلِهِ وَلَا تَقَصَّهَا ، وَلَا جَرَعَ كَيْدَ حَاسِدِهَا الظَّامِيَةِ إِلَّا غُصَصَهَا .

آخر : ولا زال عَمِيماً إِنْْعَامُهَا ، قَدِيماً وَحْدِثُهَا دِيْمُهَا وإِكْرَامُهَا ، قَاضِيَةٌ بِسَعْدِهَا النُّجُومُ الَّتِي هِيَ خُدَامُهَا .

آخر : لا زالتْ بَسِيطًا ظِلَّهَا ، مَدِيدًا فَضْلُهَا ، سَرِيعًا إِلَى دَاغِي النَّدى وَالرَّدى قَلَمُهَا فِي الْمِهْمَاتِ وَنَصْلُهَا - وإن كان من قُضَاةِ الْحُكْمِ زاد مع الْقَاضِي قَبْلَ الْفَلَانِي الْحَاكِمِي ودعا بما يُنَاسِبُ .

دعاء : أعزَّ اللهُ شَانَهَا ، وأذَلَّ مِنْ شَانَهَا ، وأغَصَّ بِأَدْمُعِ أَعْدَائِهَا الضَّرِيحَةَ شَانَهَا ^(١) .
دعاء آخر يليق بذلك : ولا زالت الآمالُ إِلَيْهَا وإِفْدَهُ ، وَالصَّلَاتُ عَائِدَهُ ، ومعاني الفضل عن أخبار مَعْنِيَا زَائِدَهُ .

آخر : لا زالتْ خَنَاصِرُ الْحَمْدِ مَعْقُودَةً عَلَى فَضْلِ بَنَانِهَا ، وَفُضِّلَ بَيَانُهَا ، وَعَوَانِدُ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ شَاهِدَةً بِالْحُسَيْنِ مِنْ فَضْلِهَا وَأَمْتِنَانِهَا - وإن كان من مَشَايِخِ الصُّوْفِيَّةِ أَبْدَلَ الْقَضَائِيَّةَ بِالشَّيْخِيَّةِ وَأَسْقَطَ الْعَادِلِيَّةَ وَالْحَاكِمِيَّةَ ودعا له نحو قوله :
وَمَعَ الْإِسْلَامَ بَقِيَّتَهُ الصَّالِحَ ، وَبَيَّضَ صَحَائِفَ أَعْمَالِهِ الَّتِي لَا يُدْبِي الْمَلَائِكَةُ الْكَرَامَ مُصَافِحَهُ .

آخر : لا أَخْلَى اللهُ مِنْ بَرَكَاتِ خَلَوَاتِهِ ، وَأَعَادَ مِنْ نَوَامِي دَعَوَاتِهِ ، وَسَوَامِي دَرَجَاتِهِ وَتَوَجُّهَاتِهِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ .

والعنوان الْأَلْقَابُ الَّتِي فِي صَدْرِ الْمَكَاتِبَةِ ، والدعاءُ بِالسَّجْعَةِ الْأُولَى مِنَ الدُّعَاءِ بَاطِنُهُ أَوْ نَحْوُهَا .

(١) الشَّانُ مَجْرَى الدَّمْعِ إِلَى الْعَيْنِ . قاموس .

وصورة وَضَعَهُ أَنْ تَكْتَبَ الْأَلْقَابُ والدعاء والتعريف في سطرين كما تقدم في الباسط كما في هذه الصورة .

الباسطة ، الشريفة ، العالية ، المولوية ، الأميرية ، الكبيرة ، العالمية ، العادلة ، الذنرية ، السندية ، الكاملية ، المحسنية أعز الله تعالى أنصارها أمير حاجب بحمة المحروسة .
والعلامة « المملوك فلان » بقلم الرقاع في أول الوصل الثالث على القرب من اللصاق .

المرتبة الثالثة — يقبل اليد الشريفة بألقاب الباسطة المتقدمة ؛ ثم اليد الكريمة ؛ ثم اليد العالية مع حذف الكريمة رتبة بعد رتبة ، والألقاب بحالها ويدعى له ؛ ثم يقال والمستمد من محبته كَيْتَ وَكَيْتَ ، والله تعالى يؤيده . والحال في اختلاف بعض ألقابها بالنسبة إلى أرباب السيوف وغيرهم على ما تقدم في الباسطة .

وهذه أدعية لأرباب السيوف في هذه المكتابة

دعاء من ذلك : يقال بعد استكمال الألقاب : لازالت مقبلة البنات ، مؤملة الإحسان ، مفضلة على أنواء السحب بكل لسان ، وينهى .

آخر : لازالت ترد بالسيف صدور الكتائب ، وترد الظماة منها موارد السحاب ، وتحدث عن البحر وكم في البحر من العجائب .

آخر : لازالت ربها مأمونه ، وبدبها ممنونه ، وأيامها تصبح الأعداء بأسئتها الزرق المستونه .

آخر : لا أخل الله من ودها ، ولا قطع وظائف حمدها ، ولا قضى مغيبها إلا جعل لها ذكرى بعدها .

آخر : لازالت مصالحها تظفر بالمتى ، وتحصل على الغنى ، وتطلق لسانه
بعاطر الشنا .

آخر : لازالت لتقليد المنز سابقه في الجود العدل ، مقسمة في مكارم
التكريم : باطنها للندى وظاهرها للقبيل .

وهذه أدعية تناسب أرباب الأقلام

يقال بعد استيفاء الألقاب : لازالت مستهله بالندا ، مستقلة بكبت العدا ،
مطلة على النجوم على بعد ما بينهما من المدى .

آخر : لا برحت مفارحها مفصله ، ومحبتها في الخواطر ممثلة ، والكواكب
تود لو فارقت فلكنها وأصبحت لديها مسبله .

آخر : لازالت لصحائف الإحسان مسطره ، ولقلوب الأعداء مغطره ،
ولصنائع المعروف إذا أمسكت الأنواء مغطره .

آخر : أعلى الله تعالى شأنها ، وضاعف إحسانها .

والعنوان . اليد الشريفة ، أو اليد الكريمة ، أو اليد العالية ، بالألقاب التي في صدر
الكتاب من غير زيادة ولا نقص ، والدعاء بأول سبعة من المدعوبة في صدر الكتاب
أونحوها ، والتعريف بعد ذلك .

وصورة وضعه في الكتابة أن يكتب سطران على ما تقدم في الباسط والباسطة كما
في هذه الصورة :

اليد الشريفة ، العالية ، الملووية ، الأميرية ، الكبيرة ، العالمية ، العادلة ، الذخيرة ،
المالكية ، المحسنة ، الفلانية . أعلى الله تعالى شأنها نائب ملطية المحروسة

والعلامة «المملوك فلان» بقلم التوقعات، في آخر الوصل الثاني من الكتاب، على القُرْب من موضع لصاقه^(١).

وأعلم أنه ربما وُصِفَ التَّجِيلُ في هذه المراتب بعد الدُّعاء بالأوصاف الدَّالَّةُ على زيادة التأدُّب ورفعة قدر المكتوب إليه، وعلى ذلك جرى في "عُرف التعريف". وقد يستعمله بعض كتَّاب الزمان، وذلك مثل أن يقول في تجييل الباسط بعد استعمال الدُّعاء : تَجِيلاً يَحُومُ عَلَى مَنَاهِلِهِ، وَيَحُلِّقُ نَسْرُ السَّمَاءِ عَلَى مَنَازِلِهِ ؛ أَوْ يَقُولُ : تَجِيلاً حَبِّ أَخْلَصَ وَلَاءَهُ، وَمَحْصَ الصَّدَقِ وَفَاءَهُ - أَوْ تَجِيلاً يُوَالِيهِ، وَيُنْظِمُ لآلِيهِ - أَوْ تَجِيلاً يُوَاصِلُ بِهِ الْخِدْمَ، وَيُوَدُّ لَوْ سَعَى لِأَدَائِهِ عَلَى الرَّأْسِ إِنْ لَمْ تُسَعِفِ الْقَدَمَ - أَوْ تَجِيلاً لَا يُرَوِّى الْكُرْمَ إِلَّا عَنْهُ، وَلَا تُسْتَفَادُ الْمَكَارِمُ إِلَّا مِنْهُ - أَوْ تَجِيلاً وَارِدٍ عَلَى ذَلِكَ الزُّلَالِ، رَائِدٍ فِي ذَلِكَ الرُّوضِ الْمُنْتَدِ الظَّلَالِ - أَوْ تَجِيلاً مُسَارِعٍ إِلَيْهَا، مُزَاحِمٍ عَلَيْهَا .

وربما أتى في الإنهاء بما يلائم المَقَامَ، مثل أن يقول : وَيُنْهَى بَعْدَ وَصْفِ خِدْمِهِ، وَتَمْنِيهِ لَوْ وَقَفَ فِي صَفِّ خِدْمِهِ ؛ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ .

قلت : وفي بعض الدَّساتير بعد تجييل اليد العالِيَةِ، يُقْبَلُ يَدَ الْجَنَابِ الْكَرِيمِ، الْعَالِي، الْأَمِيرِي، الْكَبِيرِي، الْعَالِمِي، الْمُؤَيَّدِي، النَّصِيرِي، الرَّعِيمِي، الْفَلَانِي؛ وَبَعْدَ ذَلِكَ : يُخْدَمُ الْجَنَابَ الْكَرِيمَ بِنَحْوِ هَذِهِ الْأَلْقَابِ ؛ وَفِي "التَّجْيِيلِ" يُقْبَلُ يَدَ الْجَنَابِ الْعَالِي، وَيُخْدَمُ الْجَنَابَ الْعَالِي، بِدُونِ الْكَرِيمِ ؛ ثُمَّ يَقَالُ بَعْدَ ذَلِكَ وَيُبْدَى لِعَلَمِهِ كَيْتَ وَكَيْتَ ؛ وَالْقَصْدُ مِنْ مَحَبَّتِهِ كَيْتَ وَكَيْتَ ؛ فَيُحِيطُ عَلَمًا بِذَلِكَ . وَبَعْضُ الْكُتَّابِ يَسْتَعْمَلُ ذَلِكَ إِلَى الْآنَ ؛ وَهُوَ ذُهُولٌ، إِذْ سَيَأْتِي فِي أَوَّلِ الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ أَنَّ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ الْمَفْتَحَةِ بِالْدُّعَاءِ لِلْمَقَرِّ الشَّرِيفِ عَلَى الْمَصْطَلَحِ الْأَوَّلِ، وَلِلْمَقَرِّ الْكَرِيمِ عَلَى مَا اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ الْحَالُ الْآنَ ؛ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَكَيْفَ يَتَأْتَى أَنْ تَكُونَ مَرْتَبَةً مِنْ مَرَاتِبِ الْجَنَابِ الْكَرِيمِ أَوْ الْجَنَابِ الْعَالِيِ قَبْلَ الْمَقَرِّ الشَّرِيفِ أَوْ الْمَقَرِّ الْكَرِيمِ .

الدرجة الثالثة

(المكاتبة بالدعاء)

وقد رتبوا المكاتبة بالدعاء على [ثلاث] مراتب ^(١):

المرتبة الأولى — الدعاء للمقتّر، والرسم فيه أن يُترك بعد «الملكى الفلانى» قدر عرض ثلاثة أصابع بياضاً، ثم يؤتى بصدر المكاتبة على سمت البسملة .

ويختلف الحال فى ذلك : فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كتب أعزّ الله تعالى أنصار المقتّر الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، العونى ، النصيرى ، الفلانى ، ثم يدعى له بما يناسب ، نحو : ولا زالت جيوشه جائله ، وجنوده بين الأعداء وبين مطأليها حائله ، وأوليأؤه على صهوات خيلها لديه قائله ، أصدرناها إلى المقتّر الكريم ، تهدي إليه من السلام أطيئه ، ومن الثناء أطنبه ، وتبدي لعلمه الكريم أن الأمر كيت وكيت ، والقصد من اهتمامه كيت وكيت ، فيحيط علمه بذلك ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه .

وهذه أدعية تناسب ذلك :

دعاء يليق بذلك : يقال بعد تكلمة الأتقاب : وأيد عزائمهم ونصرها ، وأعلى أعلامه ونسرها ، ودقق فى مقاتل الأعداء حيث تروّر الأسنة نظرها ، وينهى .

آخر : ولا برحت الآمال بكرمه تعترف ، وبوارق صوارمه لأبصار الأعداء تختطف .

آخر : وأعلى قدره ، وأنفذ أمره ، أصدرناها .

وإن كان من رؤساء الكُتّاب ، كتب : بسطَ اللهُ ظلَّ المقرِّ . أو أسبغَ اللهُ ظلالَ المقرِّ الكريم ، العالى ، القضاى ، الكيرى ، العالمى ، العادى ، المؤيدى ، السيّدى ، السندي ، المالىكى ، المخدوى ، المحسنى ، الفلانى ؛ وباقي المكتبة كما فى أرباب السيوف .

وهذه أدعية تناسب ذلك :

دعاءً يليق به : ولا زالت الأمورُ إليه مقوّضة ، ومضاربُ العزِّ إلا عنه مُقوّضة ، وصحائفُ الحسنات بتسويده على أثناء الدهر مُبيّضة ؛ أصدرناها .

آخر : وصرفَ لسانَ قلمه ، وشرفَ مكانَ قدمه ، وعرفَ من كان يُناويه أنّه أصبحَ لا يُعدّ من خدَمه .

قلت : وقد ذكر فى "عرف التعريف" أنّ القضاة والحكام لا مدخلَ لهم فى المكتبة بالمقرِّ ، وعلى ذلك جرى فى مشايخ الصوفية . على أنه قد كُتِبَ بذلك . وقد رأيتُ المكتبةَ بذلك فى بعض الدساتير ؛ وحينئذ فُكِّتَبُ : أعزَّ اللهُ تعالى أحكامَ المقرِّ العالى ، القضاى ، الكيرى ، العالمى ، العلّامى ، الإمامى ، المالىكى ، المحسنى ، الحاكى ، الفلانى ؛ ويُدعى له بما يناسب . مثل : وجدّ له إقبالا ، وبلغه من الدارين آمالا ، وأحسنَ إليه مبدأً ومآلاً ، ونحو ذلك . والباقي على نحو ما تقدّم .

وهذه أدعية تناسب ذلك :

لا برحتَ الشريعةَ محوطةً بأقلامه ، مضبوطةً بأحكامه ، منوطةً بما يُشيدُ مبانيها ومثانيها من أحكامه ، مؤرّخةً أيامَ سَعُودِها بأيامه .

آخر : حرس الله بأحكامه سرح المدى ، ولا برحت فتاويه بها يقتدى ،
ويظهر على المناوين والمتدعين من تجريدها مهتدا مهتدا .

آخر : لا برحت أنوار فتاويه لاميعة ، وسيوف أعلامها بها قاطعة ، وحدودها
إلى [موارد] أحكام الشريعة المحمدية شارعه .

والعنوان لهذه المكتبة المقر الكريم بنظير ما في الصدر ، والدعاء بأول سبعة
في الصدر من الدعاء .

وصورة وضعه في الورق أن يكتب في سطرين الألقاب والدعاء والتعريف
كما في هذه الصورة :

المقر الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، العونى ،

النصيرى ، الفلانى ؛ أعز الله تعالى أنصاره . فلان الفلانى

والعلامة « المملوك فلان » بقلم الثلث مقابل السطر الثانى من المكتبة .

المرتبة الثانية : الدعاء للجناب ، وهو على ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى — أعز الله تعالى نصرة الجناب الكريم . والرسم فيه أن يترك

تحت « المملوك الناصرى » عرض ثلاثة أصابع بياضا كما في المسئلة قبلها .

ثم إن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كتب : أعز الله تعالى نصرة

الجناب الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، العونى ،

الذخرى ، العضى ، الفلانى ؛ ويدعى له ، نحو : وأعلى قدره ، وأفد أمره ،

صدرت هذه المكتبة إلى الجناب الكريم ، تهدى إليه سلاما راقما ، وشاء عاقبا ،

وتوضح لعلمه الكريم كيت وكيت ، والقصد من اهتمامه كيت وكيت ؛ فيحيط علمه

بذلك ، والله تعالى يحرسه بمنه وكرمه .

وهذه أدعية تُناسبُ ذلك .

دعاء منه : ولا زالت عزائمهُ تُعير السُّيوفَ المَضَاءَ ، وتُعلمُ السَّهَامَ التُّقُودَ في القَضَاءِ .

آخر : ولا زال جنابُهُ مرَّعًا ، وسحابُهُ مرَّبعًا ، ورُعبُهُ لا يدع من قلوب الأعداء مَوْضِعًا .

آخر : ولا زالت عزائمهُ تُباري السُّيوفَ ، وتُشقُّ الصُّفوفَ ، وتُجارى إلى مَقَاتِلِ الأعداءِ الخُتُوفَ ، صدرت .

وإن كان من الكُتَّاب ، كتب : أدام الله تعالى جلالَ الجَنابِ الكريمِ ، العالى ، القَضَائِيَّ ، الكَبِيرِيَّ ، الصَّدْرِيَّ ، الرَّئِيسِيَّ ، العَوْنِيَّ ، الغِيَاثِيَّ ، المَلَادِيَّ ، الفَلَانِيَّ ، ويُدعى له بما يناسبه ، والباقي من نِسْبَةِ أربابِ السُّيوفِ .

دعاء يناسبه : وحرسَ سماءَهُ التي تَغْنِي عَنْ المَصَابِيحِ ، ونعماءَهُ التي هي للنَّعمِ مَفَاتِيحُ .

آخر : وبلغَهُ أشرفُ الرُّتَبِ ، ومَلَأَ به قُلُوبَ الأعداءِ غَايَةَ الرَّهَبِ ، وشَكَرَ نَدَى قَلَمِهِ الذی لم يدع للغَمَامِ إلا فَضْلَ ما وَهَبَ ، صدرت .

وإن كان قاضِيًا ، كَتَبَ : أعزَّ الله تعالى أحكامَ الجَنابِ الكريمِ العالى ، القَضَائِيَّ ، الإِمَامِيَّ ، العَالِمِيَّ ، العَلَّامِيَّ ، الأَوْحَدِيَّ ، الفَلَانِيَّ . ويدعوله ، نحو : ونورَ بَعلَمِهِ البصائرَ ، وسرَّ مُحْكَمِهِ السَّرَائِرَ ، وجعلَ قَيْضَ يَمِّهِ ما لا تُودَعُ دُرُّهُ إلا في الضمائرِ . والباقي من نِسْبَةِ ما تَقَدَّمَ .

وإن كان من مشايخِ الصُّوفِيَّةِ ، كَتَبَ : أعاد الله تعالى من بَرَكَاتِ الجَنابِ الكريمِ ، العالى ، الشَّيْخِيَّ ، الإِمَامِيَّ ، العَالِمِيَّ ، العَامِلِيَّ ، الوَرَعِيَّ ، الزَاهِدِيَّ ، الفَلَانِيَّ .

وَيُدْعَى لَهُ ، نَحْوُ : وَلَا زَالَ يُقَاتِلُ بِسِلَاحِهِ ، وَيُقَابِلُ فَسَادُ الدَّهْرِ بِصَلَاحِهِ ، وَتُجْلَى
دُجَى الظُّلُمَاءِ بِصَبَاحِهِ ؛ صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ إِلَى الْجَنَابِ الْكَرِيمِ تُهْدَى إِلَيْهِ
سَلَامًا يَزِدَانِ بَعْرُضٍ بِخِدْمَتِهِ ، وَيَزِدَادُ نَضْرَةً بِنَظَرَتِهِ .

وَالْعَتْوَانُ لِكُلِّ مِنْهُمْ بِالْقَابِ الصَّدْرِ ، وَالِدَعَاءُ بِأَوَّلِ سَجْعَةٍ مِنْ دَعَائِهِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ .
وَصُورَةٌ وَضَعَهُ أَنْ يَكْتُبَ فِي سَطْرَيْنِ أَلْقَابَهُ وَدَعَاءَهُ وَتَعْرِيفَهُ كَمَا فِي هَذِهِ الصُّورَةِ :
الْجَنَابِ الْكَرِيمِ ، الْعَالِي ، الْأَمِيرِي ، الْكَبِيرِي ، الْعَالِمِي ، الْعَادِلِي ،
النَّصِيرِي ، الْفَلَانِي ، أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى نُصْرَتَهُ فَالَانِ الْفَلَانِي

وَالْعَلَامَةُ « الْمَلُوكُ فَالَان » بِقَلَمِ الثَّلَاثِ مُقَابِلَ السَّطْرِ الثَّانِي كَمَا فِي الْمَكَاتِبَةِ
الَّتِي قَبْلُهَا .

الطَّبَقَةُ الثَّانِيَّةُ — مِنَ الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ : ضَاعَفَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الْجَنَابِ الْعَالِي .
وَالرَّسْمُ فِيهِ أَنْ يَتْرَكَ تَحْتَ الْمَلَكِي الْفَلَانِي قَدْرَ أَرْبَعَةِ أَصَابِعَ بَيَاضًا . ثُمَّ يَخْتَلِفُ الْحَالُ
فِي ذَلِكَ .

فَإِنْ كَانَ الْمَكْتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَرْبَابِ السُّيُوفِ ، كُتِبَ : ضَاعَفَ اللَّهُ تَعَالَى
نِعْمَةَ الْجَنَابِ الْعَالِي ، الْأَمِيرِي ، الْكَبِيرِي ، الْعَالِمِي ، الْعَادِلِي ، الْمُؤَيَّدِي ، الْعَوْنِي ،
النَّصِيرِي ، الذُّنْحَرِي ، الْفَلَانِي ؛ ثُمَّ يَدْعَى لَهُ ، نَحْوُ : وَنَصَرَهُ فِي جِلَادِهِ ، وَأَيَّدَهُ
فِي مَوَاقِفِ جِهَادِهِ ؛ صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ إِلَى الْجَنَابِ الْعَالِي تُهْدَى إِلَيْهِ سَلَامًا
يَشُوقُ ، وَثَنَاءً يَرُوقُ ، وَتَوْصِيحَ لَعَلَّهُ كَيْتَ وَكَيْتَ ؛ فَالْجَنَابِ الْعَالِي ، يَتَقَدَّمُ بِكَيْتَ
وَكَيْتَ ؛ فَيُحِيطُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُؤَيِّدُهُ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .

دَعَاءُ آخَرٍ يَنْاسِبُ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةَ : يُقَالُ بَعْدَ اسْتِيفَاءِ الْأَلْقَابِ ، وَلَا زَالَ
عَزَمَهُ مُؤَيِّدًا ، وَعِزَّهُ مُؤَبَّدًا ، وَاجْتِهَادَهُ وَجِهَادَهُ : هَذَا يَسْرُ الْأَوْلِيَاءَ وَهَذَا يَسُوءُ الْعِدَاءَ ؛

صدرت هذه المكتبة إلى الجنب العالى تحُصّه بالسّلام، والثناء الوافر الأقسام، وتوضّح لعلّه كيت وكيت .

آخر : ولا زالت أراؤه كواكب يهتدى بلوامعها ، وتقرأ سورة النصر في جوامعها ، وتسير كالسحب فترمي الأعداء بصواعقها وتأتي الأولياء بهوامعها .

وإن كان من الكتاب، كتب : ضاعف الله تعالى نعمة الجنب العالى، القضاى، الكبيرى، الصّدرى، الرئيسى، القوامى، النظامى، الفلافى، ثم يدعى له نحو : ولا زال يربحى لكلّ جليل، ويؤمل لكلّ جميل، ويؤهل لكلّ منتهى تقصّر دونه أصابع النيل؛ صدرت هذه المكتبة، والباقي على ما تقدّم في أرباب السيوف .

وإن كان من القضاة، كتب : ضاعف الله تعالى نعمة الجنب العالى، القضاى، العالمى، الفاضلى، الأوحدي، الصّدرى، الرئيسى، الفلافى، ويدعى له نحو : ودفع عنه الأباطيل، وأرشد هده من الأضاليل .

وإن كان من مشايخ الصّوفية، كتب : أعاد الله تعالى من بركة الجنب العالى، الشّيخى، الإمامى، العالمى، الكاملى، الورعى، الزاهدى، ويدعى له، نحو : ولا زال تُكشف به اللّواء، وتطّب به الأدواء . صدرت هذه المكتبة إلى الجنب العالى تُهدى إليه سلاماً، وتُفَضُّ عن مثل المسك ختاماً، وتوضّح لعلّه .

دعاء آخر : نفع الله بدعواته التى لا حاجب لها عن الإجابة، ولا عارض يمنعها عن الإجابة، وأمتع ببركاته التى هى أمن للناس ومثابه . صدرت .

والعنوان الألقاب التى في صدر المكتبة . والدعاء : ضاعف الله تعالى نعمته، ثم التعريف .

وصورة وضعه في الورق أن يُكتب في سطرين ألقابه ودعاؤه وتعريفه كما في هذه الصورة :

الجناب العالى، الأميرى، الكبيرى، العالمى، العادلى، المؤيدى، العونى،
النصيرى، الذخرى، الفلانى . ضاعف الله تعالى نعمته فلان الفلانى
والعلامة «الملوك فلان» بقلم الثلث الثقيل مقابل السطر الأول من المكتبة .
الطبقة الثالثة — أدام الله تعالى نعمة الجناب العالى وما فى معنى ذلك . والرسم
فيه أن يُترك تحت المَلَكى الفلانى بحيث يبقى من الوصل الذى فيه البسملة
ما يسع سطرين فقط . ثم يختلف الحال فيه .

فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كتب : أدام الله تعالى نعمة
الجناب العالى، الأميرى، الكبيرى، العالمى، المجاهدى، المؤيدى، العونى،
النصيرى، الذخرى، الفلانى . ويدعى له ، نحو : وأيد عزمه وأظهره، وكتب
عدوه وقهره؛ صدرت هذه المكتبة إلى الجناب العالى تُهدى إليه سلاما طيبا، وثناء
مُطنبا، وتوضح لعلمه كيت وكيت؛ فالجناب العالى يتقدم بكيت وكيت؛ فيحيط
علمه بذلك، والله تعالى يؤيده بمته وكرمه .

دعاء آخر يناسبه : وموه بجهاده كل سنان ، ونبه بجلاده جفن كل سيف
وسنان . صدرت هذه المكتبة تحية بسلام يطيب ، وثناء يهتر غصنه الرطيب،
وتوضح لعلمه .

وإن كان من الكُتَّاب ، كتب : أدام الله تعالى نعمة الجناب العالى، القضائى .
والألقاب من نسبة ما تقدم فى ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالى . والدعاء،
نحو : ولا زال قلمه لأبواب الأرزاق فاتحا ، ونجم رفده [لأنواء الفضل مانحا]
صدرت .

وإن كان من القضاة ، كتب : أدام الله تعالى نعمة الجنب العالى ، والألقابُ من نسبة ما تقدّم فى ضاعف الله تعالى نعمة الجنب العالى . والدعاء ، نحو : ولا أخلى الله أفق الفضل من كوكبه ، ولا مجال الجدال من مرّكبه . صدرت .

وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب : أدام الله تعالى نعمة الجنب العالى الشيخى . وبقية الألقاب من نسبة ما تقدّم مع ضاعف الله تعالى نعمة الجنب . والدعاء ، نحو : نفع الله بركات خلواته التى كم أنجلت عن الرّشاد ، وبان فى مرءاتها نور الهدى للعباد ، وأنارت إنارة الشمس لإنارة الزّناد .

والعنوان بنظير الألقاب التى فى صدر المكاتبه ؛ والدعاء أدام الله تعالى نعمته . وصورة وضعه فى الورق أن يكتب فى سطرين الألقاب والدعاء والتعريف كما فى هذه الصورة :

الجنب العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالى ، المجاهدى ، المؤيدى ، العونى ،
النّضيرى ، الذّخرى ، الفلانى ؛ أدام الله نعمته فلان الفلانى
والعلامة «الملوك فلان» تحت البسملة بقلم مختصر الطّومار .

المرتبة الثالثة — الدعاء للمجلس ، ويختص بالمجلس العالى ، واليباض فيه تحت الملكى الفلانى بحيث يبقّى من الوصل قدر سطرين كما تقدّم فى الجنب العالى . ويختلف الحال فيه .

فإن كان من أرباب السيوف ، كتب : أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالى ، المجاهدى ، المؤيدى ، الذّخرى ، العونى ، الفلانى ؛ ويدعى له ، نحو : وأيد عزّمه ، ووفّر من الخيرات قسمه ؛ صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس العالى تهدى إليه سلاماً ، وتوفّر له من الخير أقساماً ، وتوضح لعلمه المبارك

كِتَ وَكِتَ ، فالجلسُ يتقدّم بكيتَ وكيتَ ، فيحيط بذلك علما . والله تعالى يؤيّدُه بمنّه وكرمه .

وهذه أدعية تليق بهذه المكتبة .

دعاء من ذلك : ولا زالَ مشكورَ الأهتمام ، موصوفَ المحاسنِ وصَفَ البَدرِ الثَّمام ، معروفاً بجَميلِ الأثرِ مثلَ ما تُعرفُ مواقعُ النِّعام . صدرتْ هذه المكتبةُ إلى المجلسِ العالى تُهدى إليه سلاما ، وتُسَدّدُ لِرأيه الصَّائبِ سِهَما ، وتوضِّحُ لِعالمه الكَريم .

آخر : ولا زالَ سَيِّفاً يُدْفَعُ بِجَدِّه ، وَيَجْرى ماءُ النّصرِ من فِرْنِده ، ويتنوّعُ به الظَّفَرُ فيَقْتُلُ بتجريدِه ويُخافُ وهو فى غمّده .

وإن كان من الكُتّاب ، كتب : أدام الله تعالى نعمةَ المجلسِ العالى ، القَضائى ، الأجلّى ، الكبرى ، الرئيسى ، الماجدى ، الأوحدي ، الأثيرى ، الفلانى ؛ ويُدعى له ، نحو : وسدّد رأيه ووفّقه ، وصدّق فيه الظّنَّ وحققه ، وجمع له سَمَلَ السَّعادةِ ثم لافرقه . صدرتْ هذه المكتبةُ إلى المجلسِ العالى تُشكّرُ مَساعيِه ، وأهتماه الذى باتَ طَرفُ النّجمِ وهو يُراعيه ، وتوضِّحُ لِعالمه الكَريم .

آخر : ولا تَزَعِ عنه ثوبَ سَعاده ، ولا غَيِّرْ منه جميلَ عادَه ، ولا عَرِفْ سِوى بابِه الذى لو كان له الحقُّ فى جَبْهَةِ الأسدِ لاسْتَعادَه . صدرتْ هذه المكتبةُ إلى المجلسِ العالى تُهدى إليه السلام ، والثَّناء الذى تَنطِقُ به ألسِنَةُ الأَقلام ، وتوضِّحُ لِعالمه .

وإن كان من القُضاة ، كتب : أدام الله تعالى نعمةَ المجلسِ العالى ، القَضائى ، الكبرى ، العالمى ، العالمى ، الفاضلى ، الأوحدي ، الفلانى ؛ ويُدعى له ،

نحو : وَلَا بَرَحْتُ طُلُبْتُهُ مُفِيدَةَ الْمَطَالِبِ ، مُورِيَّةَ الْهُدَى فِي الْغِيَاهِبِ ، قَائِمَةً أَفْلَامُ هِدَايَتِهَا فِي لَيَالِي الْخَيْرَةِ مَقَامَ الْكَوَاكِبِ .

آخِر : وَلَا بَرَحْتُ الدُّنْيَا مَمْطُورَةً بِغَمَامِهِ ، مَجْبُورَةً بِدُخُولِهَا تَحْتَ ذِمَامِهِ .

وإن كان من مشايخ الصوفية^(١)، كتب : أدام الله تعالى بركة المجلس العالی ، الشَّيْخِيَّ ، الإِمَامِيَّ ، الْعَالِمِيَّ ، الْعَامِلِيَّ ، الْعَايِدِيَّ ، الْوَرَعِيَّ ، الزَّاهِدِيَّ ، الْأَوْحِدِيَّ ، الْفَلَائِيَّ ، وَيَدْعِي لَهُ نَحْو : وَلَا زَالَ نُورُهُ يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَيُدْعَى بِاسْمِهِ إِلَيْهِ .

آخِر : أَعَادَ اللَّهُ مِنْ بَرَكَاتِهِ عَلَى الرَّاعِي وَالرَّعِيَّةِ ، وَجَعَلَ خَلَوَاتِهِ خُلُوتِ كُلِّ نَفْسٍ رَاضِيَةٍ مَرْضِيَّةٍ ، وَالْباقِي عَلَى مَا تَقَدَّمَ .

وَالْعُنْوَانُ الْأَقْلَابُ الَّتِي فِي الصَّدْرِ ؛ وَالِدَعَاءُ : أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ . ثُمَّ التَّعْرِيفُ . وَصُورَةٌ وَضَعَهُ فِي الْوَرَقِ أَنْ تُكْتَبَ أَلْقَابُهُ وَالِدَعَاءُ وَالتَّعْرِيفُ كَمَا فِي هَذِهِ الصُّورَةِ :

الْمَجْلِسُ الْعَالِيُّ ، الْأُمَيْرِيُّ ، الْكَبِيرِيُّ ، الْعَالِمِيُّ ، الْمَجَاهِدِيُّ ، الْمُؤَيَّدِيُّ ،

الذُّخْرِيُّ ، الْعَوْنِيُّ ، الْفَلَائِيُّ ؛ أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ فَلَانُ الْفَلَائِيِّ .

وَالْعَلَامَةُ « الْمَمْلُوكُ فَلَانُ » بِقَلَمٍ مَخْتَصَرِ الطُّومَارِ تَحْتَ الْمَلِكِيِّ الْفَلَائِيِّ ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي الْمَكَاتِبَةِ قَبْلُهَا .

وَأَعْلَمُ أَنَّ تَرْتِيبَ هَذِهِ الدَّرَجَةِ عَلَى هَذِهِ الْمَرَاتِبِ : مِنَ الدُّعَاءِ بِأَعَزِّ اللَّهِ تَعَالَى أَنْصَارَ الْمُقْتَرِّ الْكَرِيمِ ؛ ثُمَّ أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى نُصْرَةَ الْجَنَابِ الْكَرِيمِ ؛ ثُمَّ ضَاعَفَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الْجَنَابِ الْعَالِيِّ ؛ ثُمَّ أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الْجَنَابِ الْعَالِيِّ ، ثُمَّ أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الْمَجْلِسِ الْعَالِيِّ - هُوَ الْمُسْتَقَرُّ عَلَيْهِ الْحَالُ بَيْنَ كِتَابِ الزَّمَانِ بِالْأَيَّامِ الْمَصْرِمَةِ . وَجَعَلَ فِي «عُرْفِ التَّعْرِيفِ» أَعْلَى الْمَرَاتِبِ فِي الدُّعَاءِ : أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنْصَارَ الْمُقْتَرِّ الْكَرِيمِ ؛

(١) الطلبة من معانيها السفرة البعيدة ولعلها المرادة إن لم تكن مصحفة عن طلعه .

ثم أعزَّ الله تعالى نُصْرَةَ المَقَرِّ الكريم؛ ثم أعزَّ الله تعالى نَصْرَ المَقَرِّ الكريم؛ ثم أدام الله تعالى نُصْرَةَ الجَنَابِ الشريف؛ ثم أدام الله نُصْرَةَ الجَنَابِ الكريم؛ ثم ضاعف الله تعالى نعمةَ الجَنَابِ العالى، وحرس الله تعالى نعمةَ الجَنَابِ العالى، مع اختصار الألقاب وحذف بعضها؛ ثم أدام الله تعالى نعمةَ المجلس العالى. وعلى كثيرٍ من ذلك كان الحال جاريا إلى آخر الدولة الأشرفية «شعبان بن حسين» ثم أخذ الناس في التغير إلى أن صار الأمرُ على ما هو عليه الآن.

قلت : وكانوا في الزمن السالف في الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» وما والاها لا يأتون مع المَقَرِّ الشريف، والمَقَرِّ الكريم، والمَقَرِّ العالى، والجَنَابِ الشريف، بأصدرناها ولا بصدرت هذه المكاتبه كما هو الآن؛ بل بعد الدعاء يقولون مع «أعزَّ الله تعالى أنصار المَقَرِّ الشريف» : المملوكُ يقبلُ الباسطة. ثم يأتى بالإنتهاء بعد ذلك مثل أن يقول : المملوكُ يقبلُ الباسطة الكريمة التى هى معدن السَّاح، وموطن ما يؤمن العدا من صدور الصفاح، وينهى. أو يقول : يقبلُ الباسطةَ الكريمه، ويرتفع منها فى كلِّ ديمه؛ وينهى. أو والمملوك يقبلُ اليدَ الشريفه، ويلجأ إلى ظلالها الوريقه، وينهى. ومع «الجَنَابِ الشريف» لفظُ «المملوك يخدم». ثم يقول : ويئدى مثل أن يكتب : المملوك يخدمُ بأثنيته، ويفضُّ عقودَ الشكر على أُنديته، ويئدى لعلمه الكريم. أو المملوك يخدمُ بأثنيته التى تريد الطيب طيبا، وتسرى سرى السُّحب فلا تدعُ فى الأرض جريبا؛ ويئدى لعلمه الكريم. وربما أعاض ذلك بقوله : صدرت هذه الخدمة، مثل أن يقول : صدرت هذه الخدمة وسلامها يتضوع، وثاؤها السافر لا يتبرقع.

الدرجة الرابعة

(الابتداء بصيغ مُحْتَرَعَةٍ من صدور مكاتبات الأدعية)

اعلم أن صدور المكاتبات المفتحة بالأدعية يقال فيها بعد الدعاء المعطوف :
أصدرناها أو صدرت هذه المكتبة ؛ ثم يقال : وتُبدى لعلمه أو وتوضَّح لعلمه .
ومن أجل ذلك جُعِلَتْ هذه الدرجة دون درجة الافتتاح بالدعاء ؛ لأنَّ هذه فرع
من فروع تلك ، وحينئذ فيكون الصدر مُشْتَمِلاً بعد الدعاء على ثلاثة أشياء .

أحدها — [افتتاح] صدور المكتبة بقوله : أصدرناها أو صدرت .

والثاني — الإشارة إلى المكتبة بقوله : هذه المكتبة .

والثالث — الإعلام بما صدرت بسببه المكتبة . فتنظم من ذلك ثلاث مراتب .

المرتبة الأولى — الافتتاح بصدور المكتبة ، وفيها طبقتان .

الطبقة الأولى — صدرت والعالى ؛ وهي أن تُفَسَّح المكتبة ، بأن يقال : صدرت
هذه المكتبة إلى المجلس العالى . ويختلف الحال فيها .

فإن كان المكتوب إليه من أرباب السُّيوف ، كتب : صدرت هذه المكتبة
إلى المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، المجاهدى ، المؤيدى ، الذخرى ، الأوحدي ،
الفلانى ، ويدعى له نحو : أدام الله تعالى نعمته ، ووفّر من الخير قسّمته ، نَتَضَمَّنْ
إعلامه كَيْتَ وَكَيْتَ . فالمجلس العالى يتقدّم بكيّت وكيّت ؛ فيعلم ذلك ويعتمده
والله الموفق .

وإن كان من الكُتّاب ، كتب : صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى ،
القضائى ، الكبيرى ، الرئيسى ، الكاملى ، الماجدى ، الأثيرى ، الأوحدي ،
الفلانى ، ويدعى له ، نحو : حرّس الله مجده ، وأنجح قصده ، والباقي على ما تقدّم .

وإن كان من القضاة ، كُتِبَ : صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى ،
القضائى ، الأجلّى ، الإمامى ، الصّدرى ، الفقيهى ، الكاملى ، الفاضلى ، الفلانى ؛
ويدعى له ، نحو : أيد الله أحكامه ، ووفّر من الخير أقسامه ؛ والباقي على ماتقدم .
وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب : صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى ،
الشّيعى ، الإمامى ، العالمى ، العاملى ، الزاهدى ، العابدى ، الورعى ، الأوحدى ؛
ويدعى له نحو : أعاد الله من برّكته ، ونفع المسلمين بصالح أدعيته ؛ والباقي
على ماتقدم .

والعنوان بالألقاب التى فى الصّدر وأوّل سبعة من الدعاء فيه . وتكون الألقاب
والدعاء والتعريف فى سطرين كما فى هذه الصورة :

المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، المجاهدى ، المؤيدى ، الذّخرى ،

الأوحدى ، الفلانى أدام الله رفّعتَه فلان الفلانى

والعلامة « المملوك فلان » تحت « المَلِكى الفلانى » بقلم مختصر الطّومار الثقيل ،
وربما جعل بعضهم العلامة « أخوه » .

الطبعة الثانية — صدرت والسامى . وهى أن تُفتَح المكتبة بأن يقال :
صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامى ، والبياض فيها تحت المَلِكى الفلانى كما
فى المكتبة التى قبلها : بحيث لا يبقى من الوصل إلّا ما يسعُ سطرين فقط
على ماتقدم .

ثم إن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كتب : صدرت هذه المكتبة
إلى المجلس السامى ، الأميرى ، الكبيرى ، المجاهدى ، العُضدى ، الذّخرى ،
الأوحدى ، الفلانى ؛ ويدعى له نحو : أدام الله سعده ، وأنجح قصده . ثم يقال :

تُضَمَّنُ إِعْلَامُهُ كَيْتَ وَكَيْتَ . فالمجلس السامى يتقدَّم بكيْت وَكيْت ؛ فيعلمُ ذلك ويعتمدُه ويبادرُ إليه ، والله الموفق .

وإن كان من الكُتَّاب ، كُتِبَ : صدرت هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامى القضائى ، الأجلّى ، الكبيرى ، الزينى ، الماجدى ، الأثيرى ، الأوحدى ، الفلانى ؛ ويدعى له ، نحو : ضاعف الله تعالى إقباله ، أو أدام الله سعادته ، وبلغه إرادته ؛ والباقي على ما تقدم .

وإن كان من القضاة ، كُتِبَ : صدرت هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامى ، القضائى ، الصِّدْرِى ، الفقيهى ، الإمامى ، العالمى ، الفاضلى ، الكاملى ، الأوحدى ، فلان الدين . والباقي من نسبة ما تقدم .

وإن كان من مشايخ الصوفية ، كُتِبَ : صدرت هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامى ، الشَّيْخِى ، العالمى ، العاملى ، الورعى ، الزاهدى ، الأوحدى ، الفلانى ؛ ويدعى له ، نحو : لا أخلاه الله من أنسه ، ولا أبعدَه من حضرة قُدسه . والباقي على نحو ما تقدم .

والعنوانُ الألقابُ التى فى صدر المكاتبة بالسَّجَّة الأولى مما فيه من الدعاء والتعريف .

وصورة وضعه فى الورق أن يكتب فى سطرين كما فى هذه الصورة :

المجلس السامى ، الأميرى ، الكبيرى ، المجاهدى ، العضدى ، الذُّخْرِى ،
الأوحدى ، الفلانى . أدام الله سعده فلان الفلانى

والعلامة «أخوه فلان» تحت المملِكيّ الفلانى ، بقلم مختصر الطُّومار الثقيل .

المرتبة الثانية — الافتتاح بالإشارة إلى المكتبة ، وهى أن يُكْتَبَ : هذه المكتبة إلى المجلس السامى بغير ياء فى ألقابه ، ويعبر عنه بالسامى بغير ياء ، والياض فيها تحت المَلَكِيَّ الفلانى متَّسِعَ أيضا : بحيث لا يبقى من الوصل إلا ما تَسِعَ سطرين فقط . ثم إن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كُتِبَ : هذه المكتبة إلى المجلس السامى ، الأمير ، الأجل ، الكبير ، المجاهد ، المؤيد ، الأوحِد ، الذَّخِر ، فلان الدين ؛ ويُدعى له نحو : أدام الله إقباله ، وبلغه آماله ؛ أو أُنَجِّحَ اللهُ قَصْدَه ، وأعْذَبَ وِرْدَه ، تُعَلِّمه كَيْتَ وكَيْتَ : فالمجلس يتقدَّمُ بكَيْتَ وكَيْتَ : فيعلم ذلك ويعتمدُه ويبادر إليه ، والله الموفق .

وإن كان من الكُتَّاب ، كُتِبَ : هذه المكتبة إلى المجلس السامى ، القاضى ، الأجل ، الكبير ، الصَّدر ، الرئيس ، الأوحِد ؛ ويدعى له ، نحو : أدام الله سعادته ، وبلغه من الخير إرادته ؛ تُعَلِّمه كَيْتَ وكَيْتَ . والباقي على ما تقدَّم .

وإن كان من القضاة ، كُتِبَ : هذه المكتبة إلى المجلس السامى ، القاضى ، الأجل ، الكبير ، العالم ، الفاضل ، الكامل ، الأوحِد ، فلان الدين . والباقي من نسبة ما تقدَّم .

وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب : هذه المكتبة الى المجلس السامى الشيخ ، الصالح ، الورع ، الزاهد ، فلان الدين ، نفع الله تعالى ببركته ، ولا أخلى مجالس الذِّكْرِ من محاسن سَمْتِه وسَمْتِه . والباقي من نسبة ما تقدَّم .

والعنوان الألقاب التى فى صدر الكتاب ، وأوَّلُ سَجْعَةٍ من الدعاء الذى فيه وتعريفُه ، ويكون فى سطرين كما فى هذه الصورة :

المجلس السامى ، الأمير ، الأجل ، الكبير ، المجاهد ، المؤيد ، الأوحِد ،
الذَّخِر ، فلان الدين . أدام الله إقباله فلان الفلانى

المرتبة الثالثة — الافتتاح بالإعلام بالقصد ، وهو أن يكتب : يعلم فلان ، وقد تقدم في الكلام على مقدمة المكاتبات من هذه المقالة أن الصواب فيها ليعلم بإثبات لام الأمر في أوله ، فحذف كتاب الزمان منها اللام اللازم لإثباتها وأجروها مجرى الخبر. والرسم فيه أن يترك تحت الملكى الفلانى بياض : بحيث لا يبق من الوصل إلا ما يسع سطرين كما فى المكاتبه قبلها وما قبل ذلك .

ثم إن كان المكتوب له من أرباب السيوف ، كتب : يعلم الأمير ، الأجل ، الكبير ، المؤيد ، الذخر ، المرتضى ، المختار ، فلان الدين ، ويدعى له ، نحو : أدام الله عزه ، ووفر من الخير كثره ، كيت وكيت ، فجلس الأمير يتقدم بكيت وكيت ، فيعلم ذلك ويعتمده ويبادر إليه ، والله الموفق بمنه وكرمه .

وإن كان من الكتاب ، كتب : يعلم مجلس القاضى ، الأجل ، الكبير ، العالم ، الفاضل ، الكامل ، الأوحد ، فلان الدين ، كيت وكيت ، والباقي من نسبة ما تقدم .

وإن كان من القضاة ، كتب : يعلم مجلس القاضى ، الأجل ، الكبير ، العالم ، الفاضل ، الكامل ، الأوحد ، فلان الدين ، كيت وكيت ، والباقي من نسبة ما تقدم .

وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب : يعلم مجلس الشيخ ، الصالح ، الورع ، الزاهد ، الأوحد ، الكامل ، فلان الدين ، كيت وكيت ، والباقي من نسبة ما تقدم .

والعنوان لهذه المكاتبه الألقاب التى فى الصدر والدعاء بأول سبعة مما فيه من الدعاء والتعريف .

وصورة وضعه في الورق أن يكتب ذلك في سطرين كما في هذه الصورة :

المجلس الأمير، الأجل ، الكبير، المؤيد ، الذخر، المرتضى ، المختار ،
فلان الدين . أدام الله عزّه
والعلامة تحت البسملة الاسم بقلم مختصر الطومار الثقيل .

قلت : ومما يجب التنبيه عليه أن الألقاب المذكورة في صدور المكاتبات وعنواناتها ليست موقوفا عندها ، بل لكل واحد فيها اختيار من تقديم وتأخير ، وتبديل لقب بلقب ، وزيادة ونقص ؛ إلا أن الزيادة والنقص يكونان على المقاربة ، مثل زيادة لقب ولقبين وثلاثة ، ونقصها . على أنهم في الزمن السابق كانوا يتعاطون في الإخوانيات الألقاب المركبة في الصدور والعنوانات فيما يبدأ فيه بالدعاء وما بعد ذلك إلى آخر المراتب كما هو في السلطانيات .

فإن كان من أرباب السيوف قيل مع الدعاء للقرّ الشريف لأرباب السيوف بعد استيفاء الألقاب المفردة : عزّ الإسلام والمسلمين ، سيّد الأمراء في العالمين ، زعيم الجيوش ، مقدّم العساكر ، عون الأمة ، غياث الملّة ، ممدّد الدول ، مشيد الممالك ، ظهير الملوك والسلاطين ، عضد أمير المؤمنين . ومع الدعاء للقرّ الكريم : عزّ الإسلام والمسلمين ، سيّد الأمراء في العالمين ، نصرّة الغزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحدّين ، عماد الدولة ، عون الأمة ، دُخر الملّة ، ظهير الملوك والسلاطين ، سيف أمير المؤمنين ؛ وعلى ذلك إلى آخر كل مرتبة بحسبها .

وإن كان من رؤساء الكُتّاب ، قيل : جلال الإسلام والمسلمين ، سيّد الكُبراء في العالمين ؛ رئيس الأصحاب ، قوام الأمة ، نظام الملّة ، مدبر الدولة ؛ دُخر الممالك ، ظهير الملوك والسلاطين ؛ وكذلك إلى آخر المراتب كلّ مرتبة بحسبها . وكذلك القول

في القضاة ومشايخ الصوفية كل واحد منهم بما يناسبه من الألقاب لوظيفته ورُتبته .
ثم أقتصروا بعد ذلك على استعمال اللَّقبِ المضاف إلى الملوك والسلاطين ، مثل ظهير
الملوك والسلاطين ونحو ذلك ؛ فحذف كُتَّاب الزمان هذه الألقاب المركبة جملةً
اختصاراً ، وهو مستحسن : لما في ذلك من ميل النفوس إلى الاختصار ، ولتخالف
المكتابات الصادرة عن السلطان ، فتكون مخصصةً بالألقاب المركبة دون غيرها .

القسم الثاني

(من المكتابات الإخوانيات الدائرة بين أعيان المملكة وأكابر

أهل الدولة ، الأجوبة ؛ وهي على ضربين)

الضرب الأول

(ما يُفتَح من ذلك بما تُفتَح به الابتداءات المتقدمة الذكر)

والرسم فيها أن يكتب صدر الكتاب كما يكتب أن لو كان ابتداءً ؛ ثم يذكر ورود
الكتاب المجاوب عنه ، ويُؤتى بالجواب عما تضمنته ؛ وهو على أربع مراتب :

المرتبة الأولى — وهي أعلاها في تعظيم الكتاب الوارد ، أن يعبر عنه بالمثال .
وذلك مع الابتداء بلفظ يقبل الأرض ويُنهى كيت وكيت . وصورته أن يقول بعد
كمال الصّدر : «^(١) ورد المثال الكريم العالی أعلاه الله تعالى على المملوك على يد فلان ،
ويذكر ما يليق به من المجلس العالی أو المجلس السامی أو غيرهما ؛ ثم يقول : فقَبَّلَ
المملوكُ لوروده الأرض ، وأدّى من واجبه الفرض ؛ وتضاعف دعاء المملوك لتأهيله
لغلمانية الأبواب الكريمة ، وأبتهج بوروده ، وحمد الله وشكره على ما دل عليه : من
عافية مولانا ملك الأمراء أعز الله أنصاره — إن كان المثال قد ورد من نائب سلطنته —
أو من عافية مولانا قاضي القضاة — إن كان قاضياً — أو من عافية الخدم وصحة مزاجه

(١) أى الذى منه وينهى ورود المثال الخ وهكذا فى الآتى .

المحروس . وقابلَ المملوكُ المراسيمَ الكريمةَ بالامتثال ؛ ففهمَ مَارِسَمَ له به من كَيْتَ
وكَيْتَ ؛ والمملوكُ لم يكنَ عنده غَفْلَةٌ ولا إهمالٌ فيما رُسِمَ له به . وإن كانَ ثمَّ فُصُولٌ
كثيرةٌ ، قال : فأما مَارِسَمَ له به من كَيْتَ وكَيْتَ فقد آتَمَثَلَه المملوكُ ؛ ويُجاوِبُ عنه .
ثم يقول : وأما مَارِسَمَ له به من كَيْتَ وكَيْتَ ، فالأمرُ فيه كَيْتَ وكَيْتَ ، حتى يَأْتِيَ
على آخرِ الفُصُولِ ؛ فإذا آتَمَثَى إلى آخرها ، قال : وسؤالُهُ من الصَّدَقَاتِ العَمِيمةِ ،
إمدادُهُ بمَراسِمِهِ الكريمةِ وخِدْمِهِ ، لِيُفُوزَ بقضائِها ، ويُيَادِرَ إلى آتَمَثَلِها ؛ والمملوكُ
مملوكه وعبدُ بابه الشريف .

المرتبة الثانية — أن يعبرَ عن الكتاب الوارد بالمثل العالى بدُونِ الكريم ، وذلك
مع الابتداء بلفظ يُقَبَّلُ الأرضَ ويُنْهِى بعد آتَمَثَالِهِ إلى الله تعالى ؛ والابتداء يُقَبَّلُ
الأرضَ بعد رَفَعِ دُعائِهِ ؛ ويُقَبَّلُ الأرضَ بالمَقَرِّ الشريف ؛ ويُقَبَّلُ الباسطَ الشريف .
فأما مع يُقَبَّلُ الأرضَ بعد آتَمَثَالِهِ ، فالأمرُ على ما تقدّم في جوابِ المَكاتِبَةِ قبلها ،
إلا أنه يقتصر على المثلِ العالى دُونِ الكريم كما تقدّمت الإشارةُ إليه . وأما مع يُقَبَّلُ
الأرضَ بعد رَفَعِ دُعائِهِ ، فإنه يقول بعد تَكَلُّمَةِ الصَّدْرِ : ورودَ المثلِ العالى أعلاه الله
تعالى على يد فلان ، فقبلَهُ حينَ قابَلَهُ ، ووقَفَ على ما تَضَمَّنَهُ من كَيْتَ وكَيْتَ ،
وفَرِحَ بما دَلَّ عليه من عافيةِ المَخْدُومِ ، وحَمْدِ الله تعالى وشكرِهِ على ذلك ، وفَهِمَ
ما أشار إليه من كَيْتَ وكَيْتَ ؛ ويُجاوِبُ عنه ، ثم يقول : والمملوكُ يسألُ إحسانَ
المخدوم بتشريفِ المملوكِ بمَهَمَّاتِهِ ومَراسِمِهِ لِيُفُوزَ بقضائِها ، فإن المملوكَ وَقَفَ المالكُ ؛
طالَعَ بذلك ، والله تعالى يُؤَيِّدُهُ بِنِعْمَةٍ وَكَرَمِهِ ، أو نحو ذلك . وأما مع يُقَبَّلُ الأرضَ
بالمَقَرِّ الشريف ، ويُقَبَّلُ الباسطَ الشريف ؛ فإنه يُقالُ وَرُودَ المثلِ العالى أيضا ،
وربما قيل وَرُودَ مثَالِهِ العالى . وقد يقالُ المَشْرِفُ الكريمُ العالى على ما تقتضيه رتبةُ
المكتوب إليه ، ويرتضيه المكتوبُ عنه ؛ والباقي على نحو ما تقدّم .

المرتبة الثالثة — أن يعبر عن الكتاب الوارد بالمشرفة ، على التأنيث ؛ وذلك مع يقبل الباسطة ويقبل اليد . ويختلف الحال في ذلك بحسب المراتب . فيقال : يقبل الباسطة وينهى ورود المشرفة الكريمة ، ومع اليد الشريفة ، والكريمة ، والعالية ؛ وفي معنى ذلك يخدم إذا كتب بها ؛ وكذلك أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم ، وإن كان المكتوب عنه يكتفى عن نفسه بنون الجمع المقتضية للتعظيم . ثم يقول : في كل منها فقبلها المملوك حين قابلها ، ووقف على ماتضمنته من محبته ومودته ، وفهم ما شرحه من أمر كيت وكيت ، ويجاوب عنه ؛ ثم يقول : والمستمد من محبته تشریف المملوك بمراسيمه ومشرقاته وخدمه : ليقوز بقضائها ، ويأدر إلى آمتالها ؛ فإن المملوك ما عنده غفلة فيما يقتضيه رأيه العالی ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه .

المرتبة الرابعة — أن يعبر عن الكتاب الوارد بالمكتبة . وذلك مع الابتداء بالدعاء بلفظ : ضاعف الله تعالى نعمة الجناح العالی ؛ وأدام الله تعالى نعمة المجلس العالی ؛ وصدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالی ، أو المجلس السامی ؛ أو هذه المكتبة إلى المجلس السامی ؛ أو يعلم مجلس . فيقال : وتوضح لعلمه ، أو موصحة لعلمه ، أو تتضمن إعلامه ، أو تعلمه ، أو يعلم على حسب المراتب المتقدمة ، وورود مكاتبته ، فوقفنا عليها ، وأحطنا علماً بما تضمنته من كيت وكيت ، ويجاوب عنه ؛ ثم يقول : فيتقدم الجناح أو المجلس أو مجلس الأمير ونحو ذلك مما يقتضيه الحال ، بإعلامنا بأخباره وضروراته وحوائجه .

وأعلم أن لكاتب السر أجوبة لتواب السلطنة وغيرهم ممن ترد عليه مكاتبتهم بطلب الملاحظة عند عرض مكاتبتهم على الحضرة السلطانية ؛ وتحسين السفارة في ذلك ؛ ويقع الخطاب في جواب كل منهم على حسب رتبته .

ففى جوابِ نائبِ السلطان بالشام المحروس يُكتب ما صورته : ويُنبى بعد رفعِ
أُدعيته الصالحة تقبلها الله تعالى من المملوك ومن كلِّ داعٍ مُخلص ، بدوامِ أيامِ مولانا
ملكِ الأمراء ، أعزَّ الله تعالى أنصاره ، وخلودِ سعادته عليه ، أنَّ المثلَّ الكريمِ وردَ
على المملوكِ على يدِ فلان ؛ فنَهَضَ له المملوكُ ، وأَجْمَلَ في تلقَّيه السُّلوكُ ؛ وفَضَّه عن
صدقاتِ عميمه ، وتفَضُّلاتِ جسيمه ؛ وفرِحَ بما دَلَّ عليه من سلامةِ مولانا ملكِ
الأمراء - أعزَّ الله أنصاره وعافيته ، وصحَّةِ مزاجه المحروس ؛ وتضاعفَ سرورُ المملوكِ
بذلك ، وتزايدَ آتِهاجه به ، وسألَ الله تعالى أنْ يُديمَ حياةَ مولانا ملكِ الأمراء ،
أعزَّ الله أنصاره ، ويُنْقِيه ؛ وآتتهى إلى ماتضمتته الإشارةُ الكريمةُ في معنى تجهيزِ
المشارِ إليه إلى خِدمةِ الأبوابِ الشريفةِ بما على يده من المكاتبَةِ الكريمةِ ، وما رَسَمَ به
من القيامِ في خِدْمَتِها وعَرْضِها بين يَدَيِ المَواقِفِ الشريفةِ شرفها الله تعالى وعظَّمها ؛
وقابلَ المملوكُ الإشارةَ الكريمةَ بالأمثالِ بالسَّمْعِ والطاعة ، وبأَدَرَ إلى ما رَسَمَ به ؛
وقد عَرَّضَ المملوكُ المكاتبَةَ الكريمةَ على المَسَامِعِ الشريفةِ ، وكتبَ الجوابَ الشريفَ
عن ذلك بما سَتَحِيطَ به العلومُ الكريمةُ ؛ وعادَ بذلك إلى خِدمةِ مولانا ملكِ الأمراء
أعزَّ الله أنصاره . والمملوكُ مملوكُ مولانا ملكِ الأمراء عزَّ نصره ، ومُحِبُّه القديمِ ،
والمعترفُ بإحسانه وصدقاته ؛ ويسألُ تشريفه بالمهمَّاتِ والخِدمِ ، أنهى ذلك ، إن شاء
الله تعالى .

وفى جوابِ بقيةِ التَّوَابِ بالمالكِ الشامية : كَتُوبَ السلطنة بِحَمَاءَ وطَرَابُلُسَ وصَفَدَ
والكَرْكُ ، ومَقَدِّمِ العسكرِ بغزَّةَ ، يكتب : ويُنبى بعد رفعِ دُعائه ، وإخلاصه في محبته
وولائه ، وأَعْتَرَفَهُ بإحسانِ مولانا وآلائه ، أنَّ المثلَّ العالى - أعلاه الله تعالى -
وردَ على المملوكِ على يدِ فلان ، فقبَّله المملوكُ ، وأحسنَ في تلقَّيه السُّلوكُ ؛ وفرِحَ بما دَلَّ
عليه من عَافِيَةِ مولانا وسلامته ، وصحَّةِ مزاجه المحروس ، وحمدَ الله تعالى على ذلك ،

وَأَتَتْهُ إِلَى مَا أَشَارَ إِلَيْهِ : مِنْ تَجْهِيزِ الْمَطَالَعَةِ الْكَرِيمَةِ إِلَى الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ ، شَرَّفَهَا اللَّهُ تَعَالَى وَعَظَّمَهَا ، وَفَهَّمَهُ الْمَمْلُوكُ ذَلِكَ ، وَآمَنَتْهُ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، وَوَقَفَ فِي خِدْمَتِهَا عِنْدَ الْعَرَضِ عَلَى الْمَسَامِعِ الشَّرِيفَةِ ، وَأَحَاطَتْ الْعُلُومُ الشَّرِيفَةُ بِمُضْمُونِهَا ؛ وَكُتِبَ الْجَوَابُ الشَّرِيفُ عَنْ ذَلِكَ بِمَا سَيُحِيطُ بِهِ عِلْمُ مَوْلَانَا ، وَقَدْ عَادَ فُلَانٌ بِالْجَوَابِ الشَّرِيفِ وَبِهَذِهِ الْخِدْمَةِ ، وَحَمَلَهُ الْمَمْلُوكُ مِنَ السَّلَامِ وَالشُّوقِ وَالِدَعَاءِ وَالْوَلَاءِ وَتَقَبُّلِ الْأَرْضِ مَا يُبْدِيهِ لِمَسَامِعِ مَوْلَانَا . وَالْمَمْلُوكُ يُسَالُ إِحْسَانَهُ الْإِصْغَاءَ إِلَى ذَلِكَ ، وَالتَّشْرِيفَ بِمِرَاسِمِهِ وَخِدْمَتِهِ : لِيَبَادِرَ إِلَى قَبُولِهَا . وَاللَّهُ تَعَالَى يُؤَيِّدُهُ وَيَحْرُسُهُ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .

وعلى قياس ذلك في غير هذه من المكاتبات بحسب ما تقتضيه رتبة كل واحد من أصحابها .

الضرب الثاني

(من الأجوبة ما يفتح بمرور المكاتبة مصدرا بلفظ : وردت أو وصلت

أو وقفت على المكاتبة ، وما أشبه ذلك)

مثل أن يكتب : ورد المثال الكريم الفلاني ، وذكر سلامته أحلى من ذكر الأوائل ، وقد تطرز منه طرازا أشرف من طراز الغلائل ؛ وما سكن القلب إلى شيء كسكونه إليه ، ولا رأى واردا أكرم منه عليه ؛ فقابل نعمة قدومه بدوام شكرها ، وطوى صحائف الآمال إلا من نشرها ؛ وإذا كان وجه الأيام مقطبا استغنى بيشير وجهه الميمون عن بشيرها ؛ فإن حسن رأيه الإجراء على عوائد إحسانه [من التشريف بمِرَاسِمِهِ وَخِدْمَتِهِ] والمواصلات بها ، [نالت ^(١) النفس من ورودها نهاية أربها .

(١) بياض في الأصل قليل ، وما أثبتناه مأخوذ من المقام .

قلت : أما الأجوبة المطلقة : وهى الدائرة بين الأصدقاء والأصحاب من أفاضل الكتاب ، وعيون أهل الأدب ، ممن له ملكة فى الإنشاء ، وقوة فى النظم والنثر ، فإنها لا تتوقف على ابتداء مخصوص ، ابتداء ولا جواباً ، بل قد تكون مبتدأة بما تقدم من الابتداءات ، وقد تكون بغير ذلك من الاقتضات التى يختارها صاحب الرسالة ، بل أكثرها مفتوح بالشعر المناسب للحال المكتوب فيها ، بل ربما أقصر فيها على الشعر خاصة دون النثر .

المهيمع الثانى

(فى بيان رتب المكتوب عنهم والمكتوب إليهم : من أعيان الدولة بمملكة الديار المصرية ، وما يستحقه كل منهم من رتب المكاتبات السابقة على ما أحوال مستقر عليه فى زماننا)

اعلم أن المكتوب عنهم من أعيان الدولة على طبقات ، لكل منهم مكاتبات يصدر يختص به ، إلى من فوق رتبته أو مساو له فى الرتبة أو دونه فيها ، مرتبة على ترتيب المكاتبات الصادرة عن الأبواب السلطانية إلى أهل الدولة :

الطبقة الأولى — من المكتوب عنهم من يكتب إليه عن السلطان « أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم » ككافل السلطنة : وهو نائب السلطان بالحضرة ، وأتابك العساكر ، ونائب السلطنة بالشام . والمكتوب إليهم عن هذه الطبقة على مراتب :

المرتبة الأولى — من يكتب له عن هذه الطبقة « الفلانى بمطالعة » ، ومن يكتب إليه بذلك عن نائب الشام فيما رأيته — أتابك العساكر بالأبواب الشريفة ، وكان ما كتب له « المخدومى الأتابكى فلان الفلانى » باللقب المضاف إلى لقب السلطان ، « أتابك العساكر المنصورة » .

المرتبة الثانية — من يُكْتَب إليه « الأبواب بمطالعة » ومن يُكْتَب إليه بذلك عن النائب الكافل بالحضرة، والأتابك-نائب السلطنة بالشام. فقد قال في "التتقيف":
 إِنَّ بهذه المكتبة يَكْتَبُ عن أكابر أمراء الديار المصرية إلى نائب الشام وحَلَبَ فيما أُظُنُّ؛ ومن يكتب إليه بذلك عن نائب الشام - الدَّوَادَارُ، وأميرأخُورُ، ومقدَّمُو الألوَف بالديار المصرية، وأكابر الأمراء مقدَّمي الألوَف بالشام، وكافل الملكة الشريفة الحليّة .

المرتبة الثالثة — من يُكْتَب له عن هذه الطبقة « الأبواب بغير مطالعة » وبذلك يَكْتَبُ عن كافل السلطنة بالحضرة إلى نائب السلطنة بحَلَب . وقد ذكر في "التتقيف" أنه كان يَكْتَبُ بذلك عن الأمير يَلْبُغا العُمري (يعني الخاصكيّ) وهو أتابك الديار المصرية، إلى نائب الشام أيضا . ثم قال: وكذلك كُتِبَ بعده إلى نائبي الشام وحَلَبَ، الأمير منكلي بُغا، والأمير الحاي، وتَوَابِ السلطنة بالديار المصريّة؛ وبذلك يَكْتَبُ عن نائب الشام إلى كُلِّ من قُضاة القُضاة الأربعة بالديار المصرية؛ وكذلك الوزير وكاتب السّر بها .

المرتبة الرابعة — من يَكْتَبُ له عن هذه الطبقة «الباب الكريم والباب العالي»^(١)
 أما الباب الكريم، فإنه يَكْتَبُ بذلك عن النائب الكافل والأتابك

وبذلك يَكْتَبُ عن نائب الشام إلى الأمراء الطليخاناه بالديار المصرية، وإستادار الأملاك الشريفة، وناظر الجيوش المنصورة بالأبواب السلطانية، وناظر الخواصّ، وناظر الدّولة، وحاجب الحُجّاب بالشام، وقاضي القُضاة الشافعيّ بالشام، وكاتب

(١) بياض في الأصل بقدر سطر والساقط هو المكتوب إليهم . ولعله الى نائب الشام ونائب طرابلس الى آخر ما يأتي بعد . وحرر .

السَّرْبَه، ونائب السلطنة بطرَابُلُس، ونائب السلطنة بِحَمَاة، ونائب السلطنة بِصَفَد،
ونائب السلطنة بِالكَرْك .

أَمَّا مَنْ يَكْتُبُ لَهُ عَنْ نَائِبِ الشَّامِ الْبَابُ الْعَالِي بِدُونِ الْكَرِيمِ ، فَقَدَّمَ الْعَسْكَرَ
الْمَنْصُورَ بِغَزَّةَ ، وَالْقُضَاةَ الثَّلَاثَةَ بِالشَّامِ ، مَا خَلَا الشَّافِعِيَّ الْمَقْدَمَ ذِكْرُهُ ؛ وَالْوَزِيرَ
بِالشَّامِ .

المرتبة الخامسة — مَنْ يَكْتُبُ إِلَيْهِ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ « يَقْبَلُ الْأَرْضَ بِالْمَقَرِّ
الشَّرِيفِ » وَبِذَلِكَ يَكْتُبُ عَنِ النَّائِبِ الْكَافِلِ وَالْأَتَاكِ ، إِلَى نَائِبِ طَرَابُلُسَ ،
وَنَائِبِ حَمَاةَ ، وَنَائِبِ صَفَدَ ، وَنَائِبِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ ، وَأُمَرَاءِ الْأُلُوفِ بِالْدِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ؛
وَبِهِ يُكْتُبُ عَنِ نَائِبِ الشَّامِ .

المرتبة السادسة — مَنْ يَكْتُبُ إِلَيْهِ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ « الْبَاسِطُ الشَّرِيفِ » وَبِذَلِكَ
يَكْتُبُ عَنِ النَّائِبِ الْكَافِلِ وَالْأَتَاكِ ، إِلَى مَقْدَمِ الْعَسْكَرِ بِغَزَّةَ ، وَمَقْدَمِ الْعَسْكَرِ بِسِيسَ ،
وَنَائِبِ السُّلْطَانَةِ بِالكَرْكِ ، وَحَاجِبِ الْمُجَنَّبِ بِالشَّامِ ، وَحَاجِبِ الْمُجَنَّبِ بِحَلَبَ ،

المرتبة السابعة — مَنْ يَكْتُبُ لَهُ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ « الْبَاسِطَةُ الشَّرِيفَةُ » وَمَنْ
يَكْتُبُ لَهُ بِذَلِكَ عَنْ نَائِبِ الشَّامِ قَاضِيَ الْقُضَاةِ الشَّافِعِيَّ بِحَلَبَ .

المرتبة الثامنة — مَنْ يَكْتُبُ لَهُ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ « الْيَدُ الشَّرِيفَةُ » أَوْ « الْيَدُ الْكَرِيمَةُ »
أَوْ « الْيَدُ الْعَالِيَةُ » . وَبِذَلِكَ يَكْتُبُ عَنِ النَّائِبِ الْكَافِلِ وَالْأَتَاكِ ، إِلَى نَائِبِي الْوَجْهِ الْقِبْلِيِّ
وَالْوَجْهِ الْبَحْرِيِّ بِالْدِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ؛ وَنَائِبِ الْقُدْسِ ، وَنَائِبِ خَمَصَ ، وَنَائِبِ الرَّجْبَةِ ،
وَنَائِبِ الْبَيْرَةِ ، وَنَائِبِ قَلْعَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَنَائِبِ مَلْطِيَّةَ ، وَنَائِبِ دَبْرَكِي ، وَنَائِبِ الْأَبْلَسْتَيْنِ ،
وَنَائِبِ طَرْسُوسَ ، وَنَائِبِ أَدَنَةَ ، وَنَائِبِ بَهْسَنِي ؛ وَأُمَرَاءِ الْأُلُوفِ بِالشَّامِ وَحَلَبَ .
وَبِذَلِكَ يُكْتُبُ [أَيْضًا] عَنْ نَائِبِ الشَّامِ إِلَى أُمَرَاءِ الْعَشَرَاتِ بِالْدِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَقُضَاةِ

العسكر بها ، وحاجب الحُجَّاب بِحَلَب ، والقُضَاة الثلاثة : الحنفى ، والمالكي ، والحنبلى ، بها .

المرتبة التاسعة — مَنْ يَكْتَبُ لَهُ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ « أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنْصَارَ الْمُقَرَّرِ الْكَرِيمِ ». وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى كاشف الصَّفْقَةِ الْقَبِيلَةِ ، وإلى الأمراء مقدِّمى الألوْف بالشام ، وناظر الجيش به ، وأمير آل فَضْل ، ونائب حِمص ، وكاتب السرِّ بِحَلَب ، ونائب المملكة بها ، ونائب دَوْرَكِي ، ونائب دَرَنْدَة .

المرتبة العاشرة — مَنْ يَكْتَبُ لَهُ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ « أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى نُصْرَةَ الْمُقَرَّرِ الْكَرِيمِ ». وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى نائب قلعة دِمَشْق ، والحاجب الثانى بها ، ووكيل بيت المال بها ، ومقدِّمى الألوْف بِحَلَب ، ونائب الجيش بها ، ونائب الرَّحْبَةِ ، ونائب الأَبْلُسِيِّينَ ، ونائب مَلْطِيَّة ، ونائب قلعة المسلمين ، ونائب بَهْسَنَى ، ونائب البيرة ، ونائب جَعْبَر ، ونائب الرُّها ، ونائب حُسْبَان .

المرتبة الحادية عشرة — مَنْ يَكْتَبُ لَهُ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ « أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى نُصْرَةَ الْجَنَابِ الْكَرِيمِ ». وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى أمراء الطَّبَلْخَانَةِ بالشام ، ونائب القُدْس ، ونائب بَعْلَبَكَّ ، ومتولَّى صَيْدَا ، وأمراء الطَّبَلْخَانَةِ بِحَلَب ، ووكيل بيت المال بها ، والمحْتَسِب بها ، وناظر خاصَّ البريد بها ، وأمير حاجب بَصَفَد .

المرتبة الثانية عشرة — مَنْ يَكْتَبُ إِلَيْهِ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ : « ضَاعَفَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الْجَنَابِ الْعَالِي ». وبذلك يكتب عن نائب الشام ، إلى والى قَطِيَا ، ورُبَّمَا زِيد فِيهِ الْكَرِيم .

المرتبة الثالثة عشرة — مَنْ يَكْتَبُ إِلَيْهِ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ : « أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الْجَنَابِ الْعَالِي ». وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى أمراء العَشَرَات بِمِصْر ، وأمراء

العشرينات بالشام، والمحاسب بها، والحاجب الكبير بغزة، ومقدم عرب بنى عقبة، وأكابر عرب آل فضل، وأمير عرب آل على، وأمير آل موسى، ونائب مضياف، ومتولى يروت .

المرتبة الرابعة عشرة — مَنْ يكتب إليه عن هذه الطبقة : « المجلس العالى مع الدعاء » . وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى العشرات بدمشق، ووالى المدينة، ووالى البرها، والحاجب الثانى بغزة، وأمير آل مرآ، ومقدم عرب جرم، ومقدم بنى مهدي، وأمرء العشرينات بحلب .

المرتبة الخامسة عشرة — مَنْ يكتب إليه عن هذه الطبقة : « صدرت والعالى » . وبذلك يكتب عن النائب الكافل والأتابك، إلى كاشف الوجه البحرى من الديار المصرية، وكاشف الفيوم والبهنساوية، ووالى أسوان، وكشاف الجسور من أمرء الطبليخاناه بالوجهين : القبلى والبحرى بالديار المصرية، ونائب قلعة حلب، ونائب آياس، ونائب جعبر، ونائب درندة، وحاجب الحجاب بطرابلس، وحاجب الحجاب بحماة، وحاجب الحجاب بصفد، وبذلك يكتب [أيضا] عن نائب الشام إلى أجناد الحلقة بمصر، والحاجب الكبير بمحصى، وأمرء العشرات بحلب .

المرتبة السادسة عشرة — مَنْ يكتب إليه عن هذه الطبقة : « صدرت والسامى » . وبذلك يكتب عن النائب الكافل والأتابك، إلى والى قوص، ووالى منقلوط، ووالى الأشمونين، ووالى البهنسى، ووالى منوف، ووالى الغربية، ووالى الشرقية، ووالى قطيا، ونائب مضياف، ونائب بعلبك، ونائب قلعة صفد، ونائب عيتاب، والحاجب الكبير بغزة . وبذلك يكتب [أيضا] عن نائب الشام إلى مقدم الحلقة بالشام، وأعيان الجند بها، ومقدم بنى مهدي، ومتولى الصلت ومجلون، ومتولى صرخد،

والحاجب الصغير بِمَحْصَ ، ووالى تَدْمُرَ ، ومقدم إقليم الحروب بِصَيْدَا ، ومقدم إقليم النّعاج ، ووالى البقّاعين ، ووالى بُلْنِيَّاسَ .

المرتبة السابعة عشرة — مَنْ يَكْتَبُ إِلَيْهِ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ « هَذِهِ الْمَكْتَبَةُ » وبذلك يَكْتَبُ عَنْ النَّائِبِ الْكَافِلِ وَالْأَنْبَاكِ ، إِلَى وَالِي الْجِزْيَةِ ، ووالى إَطْفِيحَ ، ووالى قَلْبُوبَ ، ووالى أَشْمُومَ الرُّمَّانَ بِالْديَارِ الْمِصْرِيَّةِ . وبذلك يَكْتَبُ أَيْضًا إِلَى نَائِبِ الْكَحْتَا ، وَنَائِبِ كَرْكَرَ ، وَنَائِبِ حَجَرِ شُغْلَانَ ، وَنَائِبِ سِرْفَنْدَكَارَ ، وَنَائِبِ الْقُصَيْرِ ، وَنَائِبِ بَغْرَاسَ ، وَنَائِبِ الرَّوَنْدَانَ ، وَنَائِبِ الشُّغْرِ وَبَكَاسَ ، وَنَائِبِ الرُّهَا ، وَنَائِبِ الدَّرْبَسَاكِ ، وَنَائِبِ شَيْزَرَ بِالْمَمْلَكَةِ الْحَلِيبَةِ ، وَإِلَى نَائِبِ اللَّادِيقَةِ ، وَنَائِبِ صَرْيُونَ ، وَنَائِبِ حِصْنِ الْأَكْرَادِ ، وَنَائِبِ حِمَصَ ، وَنَائِبِ الْمَرْقَبِ ، وَنَائِبِ بَلَاطُنُسَ ، وَنَائِبِ الْكَهْفِ ، وَنَائِبِ الْقَدْمُوسَ ، وَنَائِبِ الْخَوَايَ ، وَنَائِبِ الْعَلِيقَةِ ، وَنَائِبِ الْمَيْقَةِ : مِنْ أَعْمَالِ طَرَابُلُسَ ، وَنَائِبِ شَقِيفِ تَبْرُونَ مِنْ مَعَامِلَةِ صَفَدَ . وبذلك يَكْتَبُ [أَيْضًا] عَنْ نَائِبِ الشَّامِ إِلَى صِغَارِ الْأَجْنَادِ بِمِصْرَ ، وَإِلَى كَاشِفِ الرَّمْلَةِ ، وَمَتَوَلَّى حُسْبَانَ ، وَحَامِي الْخَرِيبَةِ .

المرتبة الثامنة عشرة — مَنْ يَكْتَبُ إِلَيْهِ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ « يَعْلَمُ » . وبذلك يَكْتَبُ عَنْ نَائِبِ الشَّامِ إِلَى صِغَارِ الْأَجْنَادِ بِالشَّامِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ وَرَاءَ مَا تَقْدَمُ مِنَ الْمَكْتَابَاتِ عَنْ نَائِبِ الشَّامِ مَكْتَابَاتٍ أُخْرَى إِلَى مَنْ هُوَ خَارِجٌ عَنِ الْمَمْلَكَةِ ، وَهُمْ عَلَى مَرَاتِبَ .

المرتبة الأولى — مَنْ يَكْتَبُ لَهُ عَنْهُ : « يَقْبَلُ الْأَرْضَ » — صَاحِبُ بَغْدَادَ : كَمَا كَانَ يُكْتَبُ لِلْقَانِ أَحْمَدَ بْنِ أُوَيْسَ ، كَانَ يُكْتَبُ إِلَيْهِ فِي وَرَقٍ قَطَعَ نِصْفَ الْحُمَّى بِقَلَمِ الثَّلَاثِ الصَّغِيرِ : يَقْبَلُ الْأَرْضَ لَدَى الْحَضْرَةِ الشَّرِيفَةِ ، الْعَالِيَةِ ، الْمُتَوَلِّيَةِ ،

السلطانية، العالمية، العادلة، المؤيدية، المالكية، القانية، ولا زالت عزّمتها مؤيده، وآراؤها مسدّده؛ ويُنهى إلى العلم الكريم — صاحب السّرائى : ودشت القَبْجاق مثله بأبسط ألقاب .

المرتبة الثانية — مَنْ يكتب إليه : « أعزّ الله تعالى أنصار المَقَرّ الشريف »
أَبْنُ السُّلطان أحمد بن أُويس المذكور . وورقه نظير ورق والده ، وقلمه نظير قلمه — صاحب هَرَاة : مثله .

المرتبة الثالثة — مَنْ يكتب إليه : « أعزّ الله أنصار المَقَرّ الكريم » — صاحب
مارِدِينَ : أعزّ الله تعالى أنصار المَقَرّ الكريم العالى، المولوى، الكبيرى، العادلى،
السلطانى، المَلِكى، الفلانى؛ ورَقَ مِقْداره، وأجزل مَبَارَه . المملوك يحدّد الخِدْمَة
العالية، ويصِفُ أشواقه المتواليه؛ ويُنهى لعلمه الكريم — صاحب بُرْصا : من بلاد
الروم، وهو ابن عُثمان . والرسم فيه على ما كان يكتب لأبى يَزِيد بن مراد بك بن
عثمان : أعزّ الله تعالى أنصار المَقَرّ الكريم ، العالى، المولوى، الكبيرى، العالمى،
العادلى، العونى، الغياثى، الممهّدى، المشيّدى، الزعيمى، الغازى، المجاهدى،
المنافعى، المرباطى، العابدى، الناسكى، الزاهدى، المقدّمى، الأتابكى، المحسنى،
الظهيرى، المَلِكى، الفلانى؛ مُعزّ الإسلام والمسلمين، سيد الأمراء فى العالمين،
ناصر الغزاة والمجاهدين، زعيم جيوش الموحّدين، مُبيد المشركين، قاصع أعداء
الدين، مقتل الحُصُون من الكافرين؛ عون الأئمة، عماد الملة، دُخْر الدولة، ظهير
الملوك والسلطين، حاكم البلاد الرُّومِيّة، صاحب بُرْصا وقَيْسَرِيّة، سيف أمير
المؤمنين، قَهَر [الله] أعداء الدين الحنيفى بعزائمه وسَطَوَاتِه، وجعله مؤيدا فى حركاتِه
وسكّاته، وأيده فى جِهاده وأجتهاده بالنصر الذى لا يفارق ألوية أعلامه وراياته،

ولا زالت رعاياه محبوره، وعساكره منصوره؛ هؤلاء بجوده [وهباته]، وهؤلاء بوجوده
وحياته . الملوك يقبل اليه التي لازال القصد بها يزيد ، وبحر البر من أناملها مديد،
ونواها يناله الوافدون حيث أموه من قريب وبعيد؛ ويصف صفاء محبة يتضاعف
نماؤها كل يوم جديد ، وترادف تحيات أشواقها بالموالاة والتحميد ، ويتوأمّر
بهادي رسائلها بصديق المودة الدائمة على التأيد ؛ ويؤدي إلى العلم الكريم .

قلت : كذا رأيته في دستور بخط القاضي ناصر الدين بن أبي الطيب : كاتب
سر الشام كان . وفيه اضطراب وتخليط من نعته في ألقابه [بقوله] «الملكي الفلاني» ؛
وقوله سيد الأمراء في العالمين ، حيث وصفه أولا بأوصاف الملوك ، ثم وصفه
بأوصاف الأمراء ؛ إلى غير ذلك من الخبط الذي لا يخفى على متأمل .

المرتبة الرابعة — « أعز الله أنصار المقر العالي » — وزير صاحب بغداد ،
ورقه في قطع الحموي بقلم الثلث الخفيف — قاضي بغداد : مثله سواء — صاحب
لارندا : من بلاد الروم بمملكة بنى قومان . ويقال في ألقابه : الأصيلي . نوين
التوامين ، مجهز المقانب ، دُخْر القانات — صاحب سيواس : من البلاد الرومية
أيضا — صاحب آياس لوق : من البلاد الرومية — صاحب جُولَمَرَك : من بلاد
الأكراد .

المرتبة الخامسة — « الجناح الكريم » — صاحب حصن كيفا : من بلاد
الجزيرة ، ويقال فيه : الملكي الفلاني — مقدم التركان البيضاء .

المرتبة السادسة — « الجناح العالي » — صاحب أرزنجان — صاحب جزيرة
أبن عُمر من بلاد الجزيرة — صاحب أنطاليا من بلاد الروم — ابن الشيخ
عبد القادر الكيلاني شيخ الجبال .

المرتبة السابعة — « المجلس العالى » — صاحب ميا فأريقين : من بلاد
الجزيرة — صاحب أكل : من الجزيرة أيضا — صاحب أرقين — صاحب
قلعة الجوز — صاحب جرموك — صاحب أماسيا : من بلاد الروم — نائب
ماردين — خادم صاحب ماردين — صاحب بطنان — صاحب سنجار : من
بلاد الجزيرة — صاحب حاسك (؟) — صاحب أزبك — صاحب الموصل —
صاحب سنوب — صاحب بوشاظ — صاحب الدربند — صاحب عين دارا —
صاحب الحمة — صاحب خلاط — صاحب طلان — صاحب تاخ — صاحب
جمشراك — نائب كربزك — صاحب القنطرة — نائب خرت برت — صاحب
البارعية — صاحب حران — صاحب العمادية — صاحب حاني — نائب مازكرد —
نائب صاحبة ماردين — أمير التركمان الشهرية — صاحب أشنو .

الطبقة الثانية — ممن يكتب عنهم من أعيان الدولة بالديار المصرية ، من
يُكتب إليه عن السلطان : « أعز الله تعالى نُصرة الجناح الكريم » وهو نائب
السلطنة بحلب .

والكتابة عنه على مراتب :

المرتبة الأولى — « الفلاني بمطالعة » وهو النائب الكافل بالحضرة السلطانية ،
وأتابك العساكر المنصورة .

المرتبة الثانية — « الأبواب بمطالعة » وهو نائب السلطنة بالشام ، والامير الدوادار
بالأبواب السلطانية ، وأستاذ الدار بها ، وأكابر الأمراء المقدمين الخاصكية .

المرتبة الثالثة — « الأبواب بغير مطالعة » . وبذلك يكتب إلى نائب الشام .

المرتبة الرابعة — «البابُ الكريم». وبذلك يكتب إلى نائب السلطنة بطرابطس ، ونائب السلطنة بحمّة ، ونائب السلطنة بصقديّ ، وكذلك يكتب به إلى الطبقة الثانية من الأمراء المقدمين بالحضرة ممن دون الخاصية ، وفي معنى ذلك الوزير ، وكتّاب السرّ ، وناظر الخاص ، وناظر الجيش ، ومن في معانهم .

المرتبة الخامسة — «يقبل الأرض بالمقرّ الشريف». وبذلك يكتب إلى حاجب الحجاب بالشام .

المرتبة السادسة — «يقبل الباسطة» وبذلك يكتب إلى الحاجب الثاني بالشام ، وحاجب الحجاب بحلب ، وحاجب الحجاب بحمّة ، وحاجب الحجاب بطرابطس ، وقاضي القضاة الشافعيّ بحلب ، وكتّاب السرّ بها .

المرتبة السابعة — «يقبل اليد الشريفة». وبذلك يكتب إلى نائب البيرة ، ونائب ملطية ، ونائب قلعة المسلمين ، ونائب جعبر ، ونائب الرها ، ونائب الأبلستين ، ونائب حمص ، وأمراء الطبلخاناه بدمشق .

المرتبة الثامنة — «أعز الله تعالى أنصار المقرّ الكريم». وبذلك يكتب إلى نائب طرسوس ، ونائب الرحبة ، والحاجب الثاني بطرابطس ، ومقدمي الألوفا بها ، والقضاة الثلاثة : المالكيّ ، والحنفيّ ، والحنبليّ بحلب . إلا أنه يقال : «أعز الله تعالى أحكام المقرّ» .

المرتبة التاسعة — «أعز الله تعالى أنصار المقرّ الكريم العالی» وبذلك يكتب إلى نائب بهسنی ، ونائب الرحبة ، وأكابر الطبلخاناه بالشام ، ومن تولى الإمرة من عرب آل فضل ثم عزّل ؛ وقضاة العساكر المنصورة بحلب ، وناظر المملكة بها ، وأمير آل عليّ .

المرتبة العاشرة — « أعز الله تعالى نُصْرَةَ الجَنَابِ الكريم ». وبذلك يُكتب إلى أعيان أمراء الطبلخاناه بِحَلَبَ ، والحاجب الثالث والرابع بها ، وأكابر أولاد أمراء عرب آل فَضْل .

المرتبة الحادية عشرة — « ضَاعَفَ الله تعالى نِعْمَةَ الجَنَابِ العالى » وما فى معناه مما يُكتب به إلى أرباب الأقاليم وغيرهم . وبذلك يكتب إلى نائب شِيزَر ، وأمراء الطبلخاناه بِحَلَبَ ، غير الأعيان ، وناظر الأملاك الشريفة بِحَلَبَ ، وناظر خاص البريد وموقعى الدَّسْتِ بها .

المرتبة الثانية عشرة — « صَدَرَتْ والعالى » . وبذلك يُكتب إلى نائب عَيْنَتَابَ ، ونائب الرَّاوَنْدَانِ ، ونائب الكُخْتَا ، ونائب كَرْكَر ، ونائب بَغْرَاسَ ، ونائب الدَّرَبَسَاكِ ، ونائب الشُّغْرِ وبَكَاسَ ، ونائب القُصَيْرِ ، وأمراء العِشْرِينَاتِ بِحَلَبَ ، وأعيان العِشْرَاتِ بها .

المرتبة الثالثة عشرة — « صَدَرَتْ والسامى » . وبذلك يُكتب إلى مُقَدِّمى الحَلَقَةِ بِحَلَبَ ، ومُقدِّمى البريديَّةِ بها ، وأعيانهم .

المرتبة الرابعة عشرة — « السامى » بغير ياء . وبذلك يُكتب إلى والى سَرَمِينَ ، ووَالِى البَابِ ، ووَالِى عَزَازَ ، ووَالِى أَنْطَاكِةَ ، ووَالِى حَارِمَ ، ووَالِى كَفَر طَابَ ، ووَالِى الجَبُولِ ، ووَالِى مَنبِجَ ، ووَالِى تَلِّ بَاشِرَ ، وأجنادِ الحَلَقَةِ بِحَلَبَ ، وصغار البريدية بها ، وعِدَادُ التَرْكِمَانِ وعِدَادِ الأَكْرَادِ .

وأعلم أن وراء ما تقدّم من المكاتبات الصادرة عن نائب حَلَبَ [مكاتبات أخرى] إلى من هو خارج عن المملكة ، كما تقدّم فى المكاتبات الصادرة عن نائب الشام ، وهى على مراتب :

المرتبة الأولى — المكتابة بـ «يُقْبَلُ الأَرْضُ» — القان صاحب بَغْدَاد : كما كان يُكْتَب إلى القان أُوَيْس ، وأَبْنِه أحمد : يُقْبَلُ الأَرْضُ بالمقام الشريف العالى ، المَوْلَى ، السُّلْطَانِي ، الأعْظَمِي الأَوْحَدِي ، الملاذِي ، العُطُوفِي ، المُحْسِنِي ، القَانِي ، المَلِكِي الفلاني ، الجَلَالِي ؛ أعلى الله تعالى شأنه ، وأعز سلطانه ، وأمكن من رِقَاب الأعداء مكانه ؛ ولا زال لَوَاؤُهُ يَتَأَزَّرُ بالنصر ويرتدى ، وفَنَاؤُهُ يَرُوحُ إليه العِزُّ ويعتدى ، وعِزُّهُ يُثَقَّفُ صرف الزَّمان فلا يعتاد أن يعتدى ؛ ولا يَرَحَ محموداً في مَوْقِفِ النَّصْرِ موقفه ، مَاضِيّاً في هَامَاتِ أَعْدَائِهِ مُرْهَفَةً . وينهى بعد أدعية رفعها إلى مواطن الإجابة ﴿ فَتَقْبَلْهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ ومُؤَالاةٍ شَفَعَهَا بالإخلاص ، فعَجَزَ عن وصفها ذَوُو البلاغة واللِّسَن ، وأَثْنِيَّةٌ جَمَعَهَا فَلَذَّتْ بها الأَسْمَاعُ لَدَاذَةِ الأَعْيُنِ السَّاهِرَةِ بالوَسْن ؛ أن الأمر كَيْتَ وَكَيْتَ .

المرتبة الثانية — من يُكْتَب له «أعزَّ الله تعالى أنصار المَقَرِّ الشريف» — صاحب مَارِدِينَ . والرسم أن يُكْتَب إليه : أعزَّ الله تعالى أنصار المَقَرِّ الشريف ، العالى ، المَوْلَى ، الكِبَرِي ، العَالِمِي ، العَادِلِي ، السُّلْطَانِي ، المَلِكِي ، الفلاني ؛ ويدعى له ، نحو : لَزَالَتْ أَيَامُهُ مَسْعُودَةً ، وأَبْوَابُهُ مَقْصُودَةً ، وَأَلْوِيَةُ النَّصْرِ بِنَوَاصِي خَيْلِهِ مَعْقُودَةً ؛ المملوك يُقْبَلُ اليَدَ الشريفه ، ويقوم من الخِدْمَةِ بِأَكْلِ وَظِيفِهِ ؛ وينهى لعلمه الكريم بعد السلام الزكي ، والثناء المِسْكِي ؛ كَيْتَ وَكَيْتَ ، فيحيط بذلك علمه الكريم ، وَيُثَقَّفُ بِالمُشْرِفَاتِ على عادة فضله العَمِيمِ .

المرتبة الثالثة — «أعزَّ الله تعالى أنصار المَقَرِّ الكريم» . وبذلك يكتب إلى ابن قُرْمَانَ نَائِبِ السُّلْطَانَةِ بِالْبِلَادِ القَرْمَانِيَّةِ — حاكم جُولْمَرْك — صاحب بُرْصَا وهو ابن عثمان — صاحب آيَاس لُوق .

المرتبة الرابعة — « المقرّ العالى » وبذلك يكتب إلى صاحب حصن كيفا،
والوزير بالممالك القانية وقاضيا .

المرتبة الخامسة — « أعز الله تعالى نُصْرَةَ الجَناب الكريم » . وبذلك يكتب
إلى صاحب أنطاليا من بلاد الروم .

المرتبة السادسة — « ضاعف الله تعالى نعمة الجَناب العالى » . وبذلك يُكتب
إلى نائب كرنك ، وحاكم جمشكراك ، وحاكم سيواس ، وحاكم أماسيا ، وحاكم
سنوب ، والحاكم بخيرت يرت .

المرتبة السابعة — « أدام الله تعالى نعمة الجَناب العالى » . وبذلك يكتب إلى نائب
صاحب ماردين ، ونائب الصالحية ، وبعض خدام صاحب ماردين .

المرتبة الثامنة — « صَدَرَتْ والعالى » . وبذلك يكتب إلى حاكم حران ، ونائب
مازكرد ، وحاكم قلعة الجوز .

الطبقة الثالثة — ممن يكتب عنه من أعيان الدولة بمملكة الديار المصرية —
من يكتب إليه عن السلطان : « ضاعف الله تعالى نعمة الجَناب العالى » كوزير المملكة
بالديار المصرية ، ونَاضِر الخَاص ، على ما استقر عليه الحال آنحرا ، وأرباب الوظائف
من الأمراء المقدمين بها : كأمير سلاح ، وأمير مجلس ، وأمير أخور ، والدوّادار ،
وإستادار ، وحاجب الحجاب ، ونائب الإسكندرية ، وكذلك تواب السلطنة
بطرابطلس ، وحمّة ، وصَفَد ، من الممالك الشامية .

والمكتوب إليهم عن هذه الطبقة على [تسع] مراتب :

المرتبة الأولى — « الفلانى بمطالعة » وهم : النَّائب الكافل ، وأتابك العساكر ،
ونائب الشام .

المرتبة الثانية — « الأبواب بمطالعة » . وبذلك يكتب إلى نائب حلب .

المرتبة الثالثة — « الأبواب بغير مطالعة » وبذلك يكتب إلى نائب طرابلس ،
ونائب حماة ، ونائب صفد ، ونائب الكرك ، وأمير سلاح وغيره من سائر من في هذه
الطبقة .

المرتبة الرابعة — « الباب الكريم » . وبذلك يكتب إلى نائبي الوجهين القبلي
والبحري بالديار المصرية ، ومقدمي العسكر بغزة وسياس ، والأمراء المقدمين
المتوجهين من الأبواب السلطانية لكشف الجسور والمساحة وقبض الغلال .

المرتبة الخامسة — « يقبل الأرض بالمقر الشريف » إن قصد تعظيمه ، أو الباسط
الشريف إن لم يقصد ، وبذلك يكتب إلى (١)

المرتبة السادسة — « يقبل اليد العالية » . وبذلك يكتب إلى أمراء الطليخاناه
المتوجهين من الأبواب السلطانية لكشف الجسور والمساحة والقبض . وربما
أخطت رتبة أحد هؤلاء فكتب إليه : أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم ، أونصرة
الجناب الكريم ؛ أو ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالی .

المرتبة السابعة — « ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالی » . وبذلك يكتب إلى
كاشف الوجه البحري وكاشف القيوم والبهنساوية .

المرتبة الثامنة — « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالی » . وبذلك يكتب إلى الولاة
الطليخاناه بالوجهين القبلي والبحري بالديار المصرية : كقوص والمحلة ، وغيرهما .
وربما كتب "صدرت والعالی" لأحدهم .

المرتبة التاسعة — « صَدَرَتْ والسامى » . وبذلك يكتب إلى ولاة العشرات بالوجهين القبلي والبحرى بالديار المصرية .

الطبقة الرابعة — ممن يكتب عنه من أعيان الدولة بمملكة الديار المصرية ، من يكتب إليه عن السلطان « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى » . ككاتب السر وناظر الجيـش ، وكذلك المـُجـاب المـُـبلـِـغـانـاه بالديار المصرية . وعلى ذلك كان ناظر الخاص فى الزمن المتقدم . فلما جُمِعَ للصاحب شمس الدين المقسى بين الوزارة ونظر الخاص ، كان يُكتب عنه بما يُكتب به عن الوزراء كما تقدم . فلما انفصل الخاص عن الوزارة رُوِيَ فى الخاص ذلك القدر ، فكتب عن ناظر الخاص كما كتب عن الوزير ، والأمر على ذلك إلى الآن .

والمكاتبات الصادرة عن هذه الطبقة على مراتب :

المرتبة الأولى — « الفلانى بمطالعة » . وبذلك يُكتب إلى النائى الكافل ، والأنايك ، ونائب الشام ، وألحقوا بهذه الرتبة نائب حلب ، فكتبوا إليه الفلانى .

المرتبة الثانية — « الأبواب بمطالعة » . وبذلك يكتب عن هذه الطبقة إلى نواب السلطنة بطرأبلُس ، وحمّاء ، وصفد ، ونُفَرِ الإسكندرية .

المرتبة الثالثة — « الأبواب بغير مطالعة » وبذلك يكتب إلى نائى الوجهين القبلى والبحرى بالديار المصرية ، ومُقدّمى العسكر بغزة وسيس ، وربما كُتِبَ إلى أحدهم « الباب الكريم » .

المرتبة الرابعة — « الباسط الشريف » . وبذلك يكتب إلى نائب الكرك .

المرتبة الخامسة — « يقبل الباسطة » . وبذلك يكتب إلى نائب القُدس الشريف ، ونائب الرّجّة ، وكاشف الوجه البحرى ، وكاشف القيوم بالديار المصرية .

المرتبة السادسة — « يقبل اليدّ العالية ». وبذلك يكتب إلى الولاة الطبلخاناه ،
بالوجهين القبليّ والبحريّ ، بالديار المصرية .

المرتبة السابعة — « يخدم الجناح العالى ». وبذلك يكتب إلى الولاة العشرات
بالوجهين القبليّ والبحريّ أيضا .

قلتُ : وعلى هذه الطبقات الأربع يُقاس مَنْ دونهم ممن يكتب إليه عن
السلطان ، صدرت والعالى ، ككاتبى القُدس والرّجبة ؛ ومن يُكتب له : صدرت
والساحى ، كالكاشف بالوجه البحريّ ، وكاشف القيوم ؛ ومن يكتب له : هذه
المكتبة ، كالولاة الطبلخاناه بالوجهين القبليّ والبحريّ ؛ ومن يكتب له : « يعلم »
كالولاة العشرات بالوجهين أيضا . على أن الغالب فى مثل هؤلاء أن تكون الكتابةُ
عنهم لأعيان الدولة « الفلانى » بمطالعة « وفيمن هو مثلهم أو دونهم يقاس على
ما تقدّم .

وأعلم أن هذه المراتب المضمّنة للطبقات ليست على سبيل اللزوم فى الوقوف
عند حدّها ، بحيث لا يجوز تجاوّزها بزيادة ولا التناخُر عنها بنقص ، بل هى على
سبيل التقريب ، والأمر فى زيادة رتبة المكتوب إليه زيادة لا تُخرجه عن حدّه
فى المقدار موكولٌ إلى اختيار الكاتب ، يزيد فى ذلك وينقص ، بحسب ما يقتضيه
الحال : من رفعة قدر المكتوب إليه ، لمزيد رفعته عن نوعه ، أو محاباته لأستمالته
إلى القصد المطلوب منه ، أو الغضّ منه بحطيطة رُتبته أو نحو ذلك .

الفصل السابع

من الباب الثانى من المقالة الرابعة

(فى مقاصد المكاتبات ، وهى الأمور التى تكتب المكاتبات بسببها)
وهى الجزء الأعظم من صِنَاعَةِ التَّرْسُلِ ، وعليها مَدَارُ صِنْعَةِ الكِتَابَةِ ، إذ الولايات
من مقاصد المكاتبات ، وهى أَمُّ مَا تَصْلَعُ بِهِ الكَاتِبُ ، وَأَلْزَمُ مَا مَهَرَّ فِيهِ ؛ وهى قسمان :

القسم الأول

(مقاصد المكاتبات السلطانيات ، وهى على نوعين)

النوع الأول

(مَا يُكْتَبُ عَنْ الْخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ ، وهو على ثلاثة أضرب)

الضرب الأول

(مَا يَكْتُبُ عَنْ الْخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ وَمِنْ صَاهَاهُمْ)
مما هو مستعمل الآنَ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ الْحَالُ فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ مِمَّا يَقِلُّ وَيَكْثُرُ ،
وَيَتَكَرَّرُ تَدَاوُلُهُ فِي الْكِتَابَةِ وَسَائِرِ الْمَكَاتِبَاتِ فِي الْحَوَادِثِ الْمَأْلُوفَةِ الَّتِي يَكْثُرُ تَدَاوُلُهَا ،
وَيَتَكَرَّرُ الْكِتَابَةُ فِيهَا بِتَكَرُّرِ وَقَائِعِهَا ، وَمَا رَسُمُ الْكِتَابَةِ بِهِ بَاقٍ إِلَى زَمَانِنَا ، وَإِنْ تَغْيِيرُ
مِصْطَلَحِ الْإِبْتِدَاءِ وَالْخُطَابِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ رُسُومِ الْمَكَاتِبَاتِ . وهو على أصناف :

الصنف الأول

(الْكُتُبُ بَاتِّقَالَ الْخِلَافَةِ إِلَى الْخَلِيفَةِ)

قال فى "موادّ البيان" : جرت العادة أن تُنْفَذَ الْكُتُبُ إِلَى وِلَاةِ الْأَعْمَالِ فِي مِثْلِ
هَذِهِ الْحَالَةِ ، مُتَضَمِّنَةً مَا جَرَى عَلَيْهِ الْأَمْرُ بِالْحَضَرَةِ : مِنْ اتِّقْيَادِ الْأَوْلِيَاءِ وَالرَّعَايَا

إلى الطاعة، ودُخُولِهِم في الْبَيْعَةِ بِصُدُورِ مُنْشَرَحَةٍ، وَحُضِّ مَنْ بِالْأَعْمَالِ مِنْ رِجَالِ السُّلْطَانِ وَرَعِيَّتِهِ عَلَى الدُّخُولِ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ أَمْثَلُهُمْ، وَإِعْطَاءِ الرِّعَايَا عَلَى ذَلِكَ صَفَقَةً أَيْمَانِهِمْ .

وقد كان الرَّمُ فيها أَنْ تُصَدَّرَ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عَوَارِفِهِ الَّتِي لَمْ تَزَلْ تَكْشِفُ الْخَطْبَ، وَتَرَأْبُ الشَّعْبَ، وَتُدْفَعُ الْمُهِمَّ، وَتَرْفَعُ الْمُلِمَّ، وَتَجْبِرُ الْوَهْنَ، وَتُسَبِّغُ الْأَمْنَ، وَالصَّلَاةَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذِكْرِ خَصَائِصِهِ وَمَنَاقِبِهِ، وَتَشْرِيفِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ بِإِقْرَارِ الْإِمَامَةِ فِي أَقَارِبِهِ، وَتَخْصِيصِهَا بِنَبِيِّ عَمِّهِ الَّذِينَ هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ، وَمَا أَمَرَ بِهِ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ طَلَبِ مَوَدَّتِهِمْ مِنَ الْأُمَّةِ بِقَوْلِهِ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » . وَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَقَاءِ الْخِلَافَةِ فِيهِمْ بِقَوْلِهِ لِعَمِّهِ الْعَبَّاسِ : « أَلَا أُبَشِّرُكَ يَا عَمُّ، بِإِخْتِمَامِ النَّبُوءَةِ وَبَوْلَدِكَ تَحْتِ الْخِلَافَةِ » وَمَا يَجْرِي مَجْرَى ذَلِكَ . ثُمَّ يَتَلَوُ ذَلِكَ بِالْإِفْصَاحِ عَنْ شَرَفِ الْخِلَافَةِ وَفَضْلِهَا، وَالْإِبَانَةِ عَنْ رَفِيعِ مَكَانِهَا وَمَحَلِّهَا؛ وَأَنَّهُ ظِلُّ اللَّهِ الْمَحْدُودِ، وَحَبْلُهُ الْمَشْدُودُ؛ وَمِسَاكُ الدِّينِ وَنِظَامُهُ، وَمِلَاكُ الْحَقِّ وَقَوَامُهُ . وَأَمْتِنَانِ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْعِبَادِ بِأَنْ جَعَلَ فِيهِمْ أُمَّةً يُقْسِطُونَ الْعَدْلَ عَلَيْهِمْ ، وَيُقِيمُونَ الْحُدُودَ فِيهِمْ ؛ وَيُقِيمُونَ أَدْيَانَهُمْ، وَيَهْدُونَ إِيْمَانَهُمْ ؛ وَيُرْهِقُونَ بِصَائِرِهِمْ ، وَيَهْدُونَ حَائِرَهُمْ ؛ وَيَكْفُونَ ظُلُومَهُمْ ، وَيُنْصِفُونَ مَظْلُومَهُمْ ، وَيَجْمَعُونَ كَلِمَتَهُمْ ؛ وَيَحْمُونَ ذِمَارَهُمْ ، وَيَحُوطُونَ دِيَارَهُمْ ؛ وَمَا يَجْرِي مَجْرَى ذَلِكَ . ثُمَّ يَذْكُرُ مَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ لِلْإِمَامِ مِنَ الطَّاعَةِ وَحَسَنِ التَّبَاعَةِ أَيَّامَ حَيَاتِهِ ، وَالْإِقْيَادِ لِأَمْرِهِ فِي طَاعَةِ مَنْ يَنْصُ عَلَيْهِ فِي الْقِيَامِ مَقَامَهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ : لِيَتَّصِلَ حَبْلُ الْإِمَامَةِ بَيْنَهُمْ ، وَيَتَدَخَّلَ ظِلُّ الْخِلَافَةِ عَلَيْهِمْ . فَإِنْ كَانَ قَدْ تَلَقَّى الْخِلَافَةَ بَعْدَ عَنْ خَلِيفَةٍ قَدْ مَاتَ : مِنْ أَبٍ أَوْ غَيْرِهِ، أَوْ بِمُقَدِّمَةِ فِي ذِكْرِ الْمَوْتِ ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَوَّى فِيهِ بَيْنَ بَرِيَّتِهِ ، وَجَعَلَ فِي تَطَرُّقِهِ

إلى رسوله أُسْوَةٌ لخليقته ؛ وَتَفَرَّدَ بِالْبَقَاءِ ، وَأَمْتَنَعَ عَنِ الْفَنَاءِ . ثم يقال : وإن الله تعالى لما آختر لعبده ووليه فلان الثَّقَلَيْنِ إلى دار كرامته ، والحُلُولَ بِنِسَاءِ طاعته ؛ وأعانه على سياسة بريته ، وأنهضه بما حَمَلَهُ ، وأيده فيما كَفَّلَهُ ؛ من الذَّبِّ عن المسلمين ، والمِرَامَةِ عن الدين ؛ والعملِ بكتابهِ وسُنَّتِهِ في القول والفعل ، وأستشعارِ خِيفَتِهِ ومُرَاقَبَتِهِ في السرِّ والجهر ؛ وما يليق بهذا - استخلص عبده وولِيَهُ فلاناً الإمامَ الفلانيَّ لخلافته ، وأُهمِّي سماءَ الرحمة بإمامته ؛ وأحلَّ عزيز النصر بولايته ، وألْقَى في نفيس رأيه النصَّ عليه ، والتفويضَ إليه ؛ لما علم سبحانه في ذلك من شمول المصلحة للعباد ، وعموم الأمانة للبلاد ؛ فأَمْضَى - قدس الله روحه - ما أَلْهِمَهُ ، وَكَلَّمَهُ قبل خروجه من دار الدنيا وتممه ؛ عالماً بفضل اختياره ، وأنه لم يَمَلْ به الهوى في إشاره ؛ فقام أمير المؤمنين الإمامُ الفلانيُّ مقامه ، وَحَفِظَ نِظَامَهُ ؛ وسَدَّ ثُلُمَتَهُ ، وَعَثَى رَزِيَّتَهُ ؛ وأقر الله تعالى الإمامة به في نصابها ومقرها ، وزاد باستخلافه في صِيت الخلافة وقُدْرَها .

وأمير المؤمنين يسأل الله تعالى أن يخص وَلِيَّهُ السعيدَ بِقُرْبِهِ بأفضل صلواته ، وأشرفِ تحياته ؛ وَيُحَسِّنَ جِزَاءَهُ في سعيه في صلاح العباد ، وسِدَادِ البلاد ؛ وأن يُلْهِمَ أمير المؤمنين الصبر على تَجَرُّعِ الرِّزِيَّةِ فِيهِ [ويجزيه] أفضل ماجزئ به صابراً مُحْتَسِباً ، وأن يُجَبِّرَ كَسْرَهُ في فقدِهِ ، وَيُوفِّقَهُ لجميل العزاء من بعده ؛ وَيُسَدِّدَهُ في مصادره وموارده ، وَيَهْدِيَهُ لما يُرْضِيهِ في جميع مقاصده ؛ وَيُعِينَهُ على تأليف الأُهْواء ، وَجَمْعِ الآراء ؛ وَنَظْمِ الشُّمْلِ ، وَكَفِّ القَتْلِ ، وإِرْخاءِ الظل .

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك وقد اجتمع من محضرته ، من ذَوِي جهته وأمرائه دولته ؛ وَكَافَّةُ جُنْدِهِ وَجَمَاعَةُ حَوَازَتِهِ على بيعته ، وإِعْطَائِهِ صَفَقَةَ أَيْمانهم على طاعته

ومشايته ؛ عن صدور مُخلصة نقيّة ، وسرائر صافية سليمة ؛ وعقائد مشتملة على الوفاء بما عَقَدُوا عليه ، وأنقادوا مختارين إليه ؛ وشملتهم بذلك الرحمة ، وصَفَتْ عليهم النعمة ؛ فما يَرْجُوا الرِّزِيَّةَ ، حتّى فَرَحُوا بالعطية ، ولا وَجَعُوا للصَّيبِ ، حتّى بَسَمُوا للرَّغِيبة ؛ ولا أَظْلَمُوا لفقد الماضي ، حتّى أَضَاءَ الوجود بالآتى .

فله الحمد على هذه النعمة التى جَبَرَتْ الوَهْنَ ، وحَقَّقَتْ فى فضله المَنّ ؛ حمدا يَسْتَدِرُّ أَخْلَافَ فَضْله ، ويستدعى سابغ طوله ؛ وصلى الله على عهد وآله . وأمير المؤمنين يراك من أهل مخالصته ، والمتحققين بطاعته ؛ وهو يأمرُك أن تأخذ البيعة له على نفسك ، وعلى جميع أوليائه المقيمين قبلك ، وكافة رعاياه الذين هم فى عَمَلِك ؛ وتُسَعِّرْهم بما عنده للسارعين لطاعته ، المبادرين إلى اتِّباعه ؛ من تيسير الإنصاف والعدل ، وإفادَةِ الإحسان والفضل ؛ وما لمن نَكَبَ عن الطريقة المثلى ، وحَادَ عن الأولى ، من الكَفِّ الرَادِع ، والأدب الوَازِع ؛ ويتوسَّعُ فى هذا المعنى توسُّعاً يشرح صدور أهل السلامه ، المستمرِّين على نهج الاستقامه ؛ ويردِّعُ أهل الفساد ، ويفضُّ من نواظر ذوى العناد . ويحلِّي الكتاب بآيات من القرآن الكريم تحسِّنُ استعارتها فى باب العزاء ، ويليق ذكرها فى باب الإشادة بالخلافة والخلفاء . فان كان الكتاب مما يقرأ بالحضرة . قال فى موضع «وكتاب أمير المؤمنين إليك» : «وأتم معاشر أقارب أمير المؤمنين : من إخوته وبني عمه وخوَّاصِّ الدولة وأمرائها وأجنادها وكتَّابها وقضَّائها وكافة رعيَّتها ، ومن أشتمل عليه ظل مملكتها - أحقَّ من حافظ على عوارف أمير المؤمنين وأعتدَّ بطائفه ؛ وقام بشكر نعمته ، وسارع إلى اتِّباعه وأعتصم بحبل دعوته ؛ فأَجْمَعُوا على متابعتِه ، وإعطائه صَفَقَةَ إيمانكم على مبايعته ؛ ليجمع الله على التآليف كلمتكم ، ويحمى بالتأزير بيضتكم » ويتَّبَعُ ذلك من وعد أهل الطاعة

بما يضاعف جدودهم ، ومن وعيد أهل المعصية بما يصفر خدودهم ؛ على نسق ما سبق في الترتيب .

وهذه نسخة كتاب في المعنى ، كُتِبَ به عن الأمر بأحكام الله تعالى عند استقراره في الخلافة بعد أبيه المستعلي بالله ، والدولة مشتملة على وزيره من إنشاء ابن الصيرفي ، وهي :

الحمد لله المتوحد بالبقاء ، القاضى على عباده بالفناء ؛ الذى تمجد بالأزلية والقدم ، وتفرد بالوجود وتزه عن العدم ؛ وجعل الموت حتماً مقضياً على جميع الأمم .

يمجده أمير المؤمنين على ما خصه به من الإمامة التى قصه سرهاها ؛ وورثه غفرها وجمالها ؛ حمد شاكر على جزيل عطية ، صابر على جليل الرزية ، مسلم إليه فى الحكم والفضية ؛ ويسأله أن يصلى على جدّه محمد الذى ثبتت حجته ، ووضّحت محجته ؛ وعلت كلمته ، وأنافت على درج الأنبياء درجته ؛ صلى الله عليه وعلى أخيه وأبن عمه أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى جعل [الله] الإمامة كلمة فى عقبه باقيه ، وحبه جنة يوم الفزع الأكبر واقيه ؛ وعلى الأئمة من ذريتهما الطاهرين ، صلاة دائمة إلى يوم الدين .

وإن الإمام المستعلي بالله أمير المؤمنين قدس الله روحه وصلى عليه ، كان من أوليائه الذين أصطفاهم لخلافته فى الأرض ، وجعل إليهم أزيمة البسط والقبض ؛ وقام بما حمّله من أوق الإمامة ^(١) ، ولم يزل عاملاً بمرضاة الله إلى أن نقله إلى دار المقامه ؛ فإننا لله وإنا إليه راجعون ، رضا بقضائه ، وصبرا على بلائه ؛ وإلى الله يرغب أمير المؤمنين فى إلهامه حسن الصبر على هذا المصاب ، وإجزال خطّه عليه من الأجر والثواب ؛ وإمداده فى خلافته بمواد الإرشاد والصواب ؛ بكرمه .

وكتّاب أمير المؤمنين يوم كذا من الشهر الفلاني من سنة كذا؛ بعد أن جلس للحاضرين بحضرته من الأمراء: عُثُمَيْنَهُ وأوليائه وَخَدَمَ دولته، وسائر أجناده وغبيد مملكته، وعامة شيعته، وأصناف رعيته؛ وأنوار الخلافة عليه مُشْرِقه، وأغصان الإمامة مُثْمرة مُورِقه؛ والسيد الأجل الأفضّل الذي أمدّه الله في نُصرة الدولة العلوية بالتأييد والإظهار، وأبان به برهان الإمامة الآمرية فوصّحت أنوارها للبصائر والأبصار، وشهرله من المناقب ما سار مسير الشمس في جميع الأقطار؛ يتولّى الأمر بحضرته تَوَلَّى الكافل الزّعيم، ويباشر النظر في بيعته مُباشرة القسيم الحميم؛ والناس داخلون في البيعة بانسراح صدور، وإظهار آبتهاج وسرور؛ يُعطون صَفَقَة أيمانهم، ويعلمون ما لهم من الحظّ في طاعة إمام زمانهم؛ قد تحقّقوا شُمول السّعد وعُموم الرّشاد، وتيقنوا الخيرة لهم في العاجلة والمعاد؛ وأمير المؤمنين يُعزّيك ومن قبلك من أولياء دولته، وسائر رعيته؛ عن المصيبة في الإمام المستعلي بالله - صلى الله عليه - التي قطعت من النفوس أملاًها، وأسكنت الألباب جرحاً وولماً، ويُهنيك وإياهم بمُتجدّد دولته التي تهلّل لها وجه الزمان، وأسّتلت بها سحاب الفضل والإحسان . وأمير المؤمنين يحمّد الله الذي أقرّ الحقّ في منصبه، وأفرده بما كان والدّه الإمام المستعلي بالله أفرده به .

فأعلم ما أعلمك أمير المؤمنين من هذا الخطب الجسيم، والنّيب العظيم، وأشكر الله على ما جدّده لك ولكافة المسلمين، من النعمة بامامة أمير المؤمنين؛ التي أوفّقت بأساء الزمان وجنّايته، وشفّت من داء كُله ونكّايته؛ وتقدّم إلى الدّعاء (؟) قبلك بأخذ البيعة على نفسك وعلى كافة من في ولايتك، واستحمد إلى أمير المؤمنين أنت وهم بالإخلاص في طاعته، والاجتهاد في مناصحته، والتّمسك بعصم مشايخته؛ لتنالوا

في العاجلة حظاً جسيماً ، ونُحِرُوا في الآجلة أجراً كريماً : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

وطالع بالكائن منك بعد قراءة كتاب أمير المؤمنين عليّ الحاضرين قبلك ، وإذاعته في الواردين عليك والمستوطنين عمّلك ؛ ليحمدوا الله على ما أنالهم بخلافة أمير المؤمنين من جميل الصنع العائد على العباد ، وصلاح البلاد - وكتب في اليوم المذكور .



وهذه نسخة كتاب عن الأمر بأحكام الله المقدم ذكره ، كُتِبَ به إلى ولاية الأطراف بعد قراءة عهده ، مهتأ بخلافته ، وتجديد ولايته ، من إنشاء ابن الصيرفي أيضاً ، وهي .

أما بعد ، فالحمد لله مولى المنايح من نعمه ، ومجزل العطايا من مواهبه وقسمه ، ومعوذ الصنع الجميل من لطفه وكرمه ، الذي له الحكم الظاهر عدله ، ولديه الطول الفائض فضله ، وعنده مفاتيح الغيب وإليه يرجع الأمر كله .

يحمده أمير المؤمنين عليّ ما أفرده به من سنيّ المواهب ، ونظّمه له من عقود المناقب ؛ ونقله إليه من تركت آبائه الكرام الذين جلا ضياؤهم ظلام الغياهب ؛ وترينت بهم الأرض تزين السماء الدنيا بزينة الكواكب ؛ ويسأله أن يصلى على جدّه محمد الذي نشر الله به الرحمة ، وكشف الغمّة ، وأنقذ الأمّة ؛ صلى الله عليه وعلى أخيه وأبن عمّه عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين ، والمذكور في زُبر الأولين ، وعلى الصّفوة من ذريتهما الهداة الراشدين ، صلاةً باقية إلى يوم الدين .

وإن النعم تتفاضل أقدارها بحسب مواقعها ، وتتفاوت أخطارها بقدر مواضعها ؛ ومن ألطفها مكاناً ، وأشرفها محلاً وشاناً ، وأولاها بأن تُستنطق به الأقلام ، وأحقّها بأن يتناقل ذكرها الخاصّ والعام ؛ ما خصّ الله به أمير المؤمنين من المنّ الظاهره ،

وتولاه من المنح المتظاهره ؛ وأصاره إليه من الخلافه في أرضه ، وأسخطه عليه من القيام بسن دينه وفرضه ؛ وأسترعاه إياه من حياطة بلاده ، وأوجه من طاعته على كافة خلقه وعباده ؛ وذخره لدولته من كفيله وخليله ، ومقيم أدلة حقه وموضح سبيله ؛ السيد الأجل الأفضل الذي أرتضاه الله للدب عن الإسلام ، وانتضاه لنصرة إمام بعد إمام ؛ وشهر مناقبه في كل موقف ومقام ، وخصه بفضائل لم تر مجتمعة للملك من ملوك الإسلام ؛ لاجرم أن أمير المؤمنين قد أحله منه محل الروح من الجسد ، والوالد من الولد ؛ وفوض الأمور إليه تفويض معول على يمن قيبته معتمد ، مبالغ في حسن الاختيار للأمة مجتهد ؛ والله تعالى يمتع أمير المؤمنين ببقائه الكافل ببلوغ الأمل ، ويجازيه عن تشييد مملكته أحسن ما جرى به مخلصا جمع في الإيمان بين القول والعمل ؛ بكرمه .

ولما وقف أمير المؤمنين بما طالعه به السيد الأجل الأفضل عند مثوله بحضرته ، وإنهائه أمور دولته وأحوال مملكته ؛ على أمرك الذي استحمدته في الخدمة ، واستحققت به إفاضة الإحسان وإسباغ النعمه ؛ وأن لك في الدولتين : المستنصرية والمستعيلة من الخدم المشكوره ، والمساعي المبروره ؛ ما يدل على مناصحتك وإخلاصك ، ويعت على أصطناعك واستخلاصك - أمر بكتب هذا السجل لك مؤكدا لأواخيك ، ومُعربا عن رأيه الجميل فيك ؛ ومجدا من ولايتك ، ومجريا لك فيها على مستمر رسمك ومستقر عادتك . فقابل نعمة أمير المؤمنين من الإخلاص في طاعته بما يرتبطها ، ووفها من حق الاجتهاد ما يقرها عندك ويثبتها ؛ وأجعل تقوى الله تعالى عمداك ، وأطو عليها طويتك واعتقادك ؛ ومكن في نفوس الأولياء جميل رأي أمير المؤمنين فيهم ؛ وإحاده لمواقفهم في الخدمة ومساعدتهم ؛ وحقق عند كافة المستقرين لديك ، والواردين عليك ؛ ما يكتفون به من الأمر الشامل ،

وَيُغْمَرُونَ بِهِ مِنْ حُسْنِ النَّظَرِ الْمُتَوَاصِلِ ؛ وَأَجْرٍ عَلَى الْعَادَةِ الْمَأْلُوفَةِ فِي إِفَاضَةِ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ ، وَتَتَكَبَّرُ سَبِيلَ الْجَوْرِ وَالْإِجْحَافِ ؛ وَمَهْدَ السَّبِيلِ قَبْلَكَ ، وَأَحْمٍ مِنْ أَسْبَابِ الْفَسَادِ وَلَا يَتَكَ وَعَمَلِكَ ؛ وَأَخْصَصْ مُتَوَلَّى الْحَكْمِ وَالِدَعْوَةَ الْهَادِيَةِ - ثَبَّتْهَا اللَّهُ تَعَالَى - بِالْإِعْزَازِ وَالرَّعَايَةِ ، وَوَقَّرَ حَظَّهُمْ مِنَ الْمُلَاحَظَةِ وَالْعَنَايَةِ ؛ وَخُذِ الْمُسْتَعْدَمَ فِي الْخُطْبَةِ الْعُلَوِيَّةِ بِاقَامَتِهَا فِي أَوَقَاتِهَا ، عَلَى أَفْضَلِ قَوَانِينِهَا وَوَجِبَاتِهَا ؛ مُعَلِّناً فِيهَا بِذِكْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي يُتَوَجَّحُ فُرُوقُ الْمَنَابِرِ ، وَيُسَنَّفُ أَسْمَاعُ الْبَوَادِي وَالْحَوَاضِرِ ؛ وَتَوَفَّرَ عَلَى مَا تَمَرُّ الْأَمْوَالُ وَأَتَمَّهَا ، وَغَزَّرَهَا وَرَخَّأَهَا ، وَقَضَى بُوُقُورَهَا وَحَصَوَهَا ، وَدَعَا إِلَى دُرُورِهَا وَمَوَاصِلَةِ حُمُولِهَا ؛ وَأَنْظِرْ فِي أَمْرِ الرِّجَالِ الْمُسْتَعْدَمِينَ مَعَكَ نَظْرًا يُؤَدِّي إِلَى مَصْلَحَتِهِمْ . فَاعْلَمْ هَذَا مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَاعْتَظْ بِمَا أَصَارَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ آغْبَاطِ أَمْثَالِكَ مِنَ الْمَخْلَصِينَ ، وَاعْتَقِدْ طَاعَتَهُ أَعْتِقَادَ مَنْ يُجَارِيكَ مِنْ أَهْلِ الْيَقِينِ ، وَاعْمَلْ بِوَصَايَاهُ وَمُرَاشِدِهِ تَحْظَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ وَطَالِعْ بِالكَائِنِ مِنْكَ بَعْدَ قِرَاءَةِ هَذَا السَّجِلِّ عَلَى كَافَّةِ النَّاسِ أَجْمَعِينَ ؛ وَكُتِبَ فِي كَذَا وَكَذَا .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْعَادَةَ جَارِيَةً بَيْنَهُمْ أَنَّهُ إِذَا كَتَبَ كِتَابٌ عَنِ الْخَلِيفَةِ بِانْتِقَالِ الْخِلَافَةِ إِلَيْهِ ، يُكْتَبُ مَلَطَفٌ عَنِ الْوَزِيرِ ، يُلَفُّ كِتَابُ الْخَلِيفَةِ ضِمْنَهُ ، وَيُوجَّهُ بِهِ إِلَى حَيْثُ الْمَقْصِدُ :



وهذه نسخة مُلَطَّفٌ فِي هَذَا الْمَعْنَى ، كُتِبَ بِهِ عَنْ وَزِيرٍ فِي الدَّوْلَةِ الْفَاطِمِيَّةِ ، يُلَفِّ كِتَابُ الْخَلِيفَةِ طِيَّةً ؛ وَهُوَ :

يَنْطَوِي هَذَا الْأَمْرُ الْوَاردُ عَلَى الْأَمِيرِ ، عَلَى كِتَابِ مَوْلَانَا وَسَيِّدِنَا الْإِمَامِ الْفَلَاحِيِّ لِدِينِ اللَّهِ ، أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَى آبَائِهِ الطَّاهِرِينَ ، وَأَبْنَائِهِ الْأَكْرَمِينَ ، أَوْ أَبْنَائِهِ الْمُتَنَطِّرِينَ ، إِنْ كَانَ لَا وَلَدَ لَهُ - بِمَا أَصَارَهُ إِلَيْهِ مِنْ شَرَفِ

الإمامه، وبوّأه إياه من مقام العظمة والكرامة؛ إثر انتقال الإمامِ فلان أمير المؤمنين - قدس الله روحه - إلى جوارِ ربه . فاعتمد العملَ بمضمونه في أخذ البيعة على نفسك ومن يليك، وتلاوته على رؤوس الأشهاد، وإذاعة مكنونه في الحاضر والباد، على الرسم المعتاد؛ فأعلم هذا وأعمل به إن شاء الله تعالى .

قلت : وهذا المعنى في الكتابة بانتقال الخلافة إلى الخليفة جارٍ في زماننا بانتقال السلطنة إلى السلطان؛ ويعبر عن ذلك بجلوسه على تخت الملك، والأمر على ما تقدم في الخلافة من التعزية بالماضي، والتهنئة بالمستقر، ونحو ذلك مما يجري مجراه .



وهذه نسخة مكتوبة بالبشارة بجلوس الملك الصالح ابن الملك الناصر محمد ابن قلاوون على التخت، في شهر رجب الفرد سنة اثنتين وخمسين وسبعائة، بعد خلع أخيه الملك الناصر [حسن] . وصورتها بعد الصدر والألقاب :

وأورد عليه من البشائر أسنى البشر، وأسمعه من التهانى ما أنتشى حديثه بين البرايا وانتشر، وحفظ عليه وعلى الأمة ما أراد لهم من الخير وولى عليهم خيارهم وجعل ملوكهم صالح البشر .

صدرت هذه المكتوبة إلى فلان^(١) وبصرها مقدماً بالظفر، وذكرها قد ملأ الأقطار بجمع عليه كل قلب كان قد نقر؛ تُهدى إليه سلاماً عن وجه الشكر سفر، وشاء يحصل منه على النصيب الأوفر؛ وتوضح لعلهم أن الجنابات العالية الأمراء الأكابر، أمراء الدولة الشريفة، ضاعف الله نعمتهم؛ كانوا قد عظموا أخاناً الناصر، وحكموه، ومشوا إلى خدمته على أحسن سنن؛ وما أبقوا في خدمته مُمكناً من التعظيم، والإجلال والتحكيم، وأمثال الأمر في كل جليل وحقيق؛ فلم يرع لهم

(١) كذا بالأصل على هذه الصورة .

ذلك، ولا آلتفت إلى ما هم عليه من حقوق الخدمة؛ وآتفت مع الصبيان، وأراد القبض على الأمراء، وإمساك الجنابات العالية الأمراء الأكابر والإيقاع بهم . فلما تحققوا منه ذلك، اجتمعت الأمراء، وآتفت الكلمة على خلعه من الملك الشريف وإقامتنا . فخلع المشار إليه؛ وكان جلوسنا على تخت الملك الشريف وكرسي السلطنة المعظمة في يوم الاثنين المبارك، بحضور الإمام المعتضد بالله أمير المؤمنين أبي الفتح أبي بكر، ابن الإمام المرحوم أمير المؤمنين أبي الربيع سليمان المستكفي بالله، ومبايعته لنا، وحضور المجالس العالية قضاة القضاة بالأبواب الشريفة، أعز الله تعالى أحكامهم؛ وحلف لنا أمراء الدولة الشريفة على جارى العادة في ذلك؛ وضربت عند ذلك البشائر، وشهد هذا الهناء كل بادٍ وحاضر، وتشتفت الأسماع وقرت العيون واستقرت الخواطر؛ وأبتجت بذلك الأئم، وتباشرت بهذا السعد الذي كتب لنا من القدم؛ وأصبح كل من أنصار دولتنا الشريفة مبتهلا بالدعاء مبتهجا .

فليأخذ المقر حظه من هذه التهنية، وليذغ خبرها لتكون المسار معيدة ومبديه؛ ويتحقق ماله عندنا من المكانه، والمحل الذي زان بالإقبال الشريف زمانه؛ ويتقدم أمره الكريم بتهنئة المجالس العالية والسامية ومجالس الأمراء بالملكة الفلانية، ويتقدم أيضا بضرب البشائر وبالزينة على العادة .

وقد تجهز إلى الجناب العالى نسخة يمين شريفة يحلف عليها، ويكتب خطه، ويجهزها إلينا تحفة المجلس السامى، الأمير، الأجل، الكبير، العضد، الذخرى، النصيرى، الأوحدي، عضد الملوك والسلاطين، يلغا الحموى الصالحى، أدام الله علوه، المتوجه بهذا المثال الشريف . وقد جهزنا نسخة يمين شريفة ليحلف عليها لنا الأمراء بطرابلس ويكتبوا خطوطهم، ويجهزها إلينا على العادة تحفة المشار إليه .

وقد جهزنا للجناب العالى صحة المشار إليه تشریفاً شريفاً كاملاً؛ فيتقدم الجناب العالى بتسلمه منه وتبسیه ، ويتحقق ماله عندنا من المكانة والمترلة ، ويُعيد الأمير سيف الدين يلبغا المشار إليه إلى الباب الشريف ، فيحيط علمه بذلك .

الصنف الثانى

(من الكتب السلطانية الكُتُبُ فى الدعاء إلى الدين ، وهو من أهم المهمات)
قال فى "مواد البيان" : أشرف ما يُنشئه الكاتب الدعاء إلى دين الإسلام الذى أظهره الله تعالى على كل دين ، وأعزّه على كره المشركين ، وأسْتَجْرَأُ مُحَالِفِيهِ إِلَيْهِ ، وَاجْتَذَابُ الْخَارِجِينَ عَنْ دَائِرَتِهِ إِلَى الدُّخُولِ فِيهِ ؛ عملاً بما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده ، لأنه قَوْمُ الْمَلِكِ وَنِظَامُ السُّلْطَانِ اللَّذَانِ لَا يَصْحَاحُ إِلَّا بِهِ .

قال : والكاتب يحتاج فى إنشاء هذه الكُتُبِ إلى علم التوحيد وبراهينه ، وشرع الرسول صلى الله عليه وسلم خاصه وعامه ، ومعجزاته ، وآيات نبوته : ليتوسع فى الإبانة من ظهور حجته ، ووضوح حجته .

ثم قال : والرسم فيها أن تُفتَحَ بحمد الله الذى اختار دين الإسلام فأعلاه وأظهره ، وَقَدَّسَهُ وَطَهَّرَهُ ؛ وجعله سبيلاً إلى رِضَاهُ وَكَرَامَتِهِ ، وطريقاً إلى الرِّفْقِ فى جَنَّتِهِ ؛ وَشَفِيعاً لَا يُقْبَلُ عَمَلٌ عَامِلٌ إِلَّا بِهِ ، وَبَاباً لَا يَصُلُّ وَاصِلٌ إِلَّا مِنْهُ ؛ فَلَا تُغْفَرُ السَّيِّئَاتُ إِلَّا مَنْ أَعْتَصَمَ بِحَبْلِهِ ، وَلَا تُقْبَلُ الْحَسَنَاتُ إِلَّا مِنْ أَهْلِهِ . وَشُكْرُهُ تَعَالَى عَلَى الْهَدَايَةِ إِلَيْهِ ، وَالتَّوْقِيفِ عَلَيْهِ ؛ وَذِيَادَتِهِ عَنْ مَجَاهِلِ الضَّلَالَةِ بِمَا أَوْضَحَهُ مِنْ بَرَاهَانِهِ ، وَنَوَّرَهُ مِنْ تَيَّانِهِ . وَتَمْجِيدِهِ مِنْ تَعْظِيمِ آيَاتِهِ ، وَبَاهِرِ مُعْجَزَاتِهِ ؛ وَحَكِيمِ صَنِيعَتِهِ ، وَبَدِيعِ فِطْرَتِهِ . وَتَزْيِينِهِ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِسُلْطَانِهِ ، وَلَا تَجُوزُ إِضَافَتُهُ إِلَى عَظِيمِ شَانِهِ . وَتَسْبِيحِهِ

عَمَّا يَصِفُهُ بِهِ الْمُلْحِدُونَ، وَيَحْتَلِّقُهُ الْجَاهِدُونَ؛ وَالصَّلَاةِ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْإِفْصَاحِ عَنْ دَلَائِلِ نُبُوتِهِ، وَبَرَاهِينِ رِسَالَتِهِ؛ وَمَا خَصَّصَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ إِعْلَاءِ ذِكْرِهِ وَإِمْدَادِهِ بِالْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَةِ، وَالْآيَاتِ الظَّاهِرَةِ .

ثُمَّ يُذَيِّعُ ذَلِكَ بِالْإِعْلَانِ إِلَى الدِّينِ وَالْحَصِّ عَلَيْهِ . وَإِضَاحِ مَا فِي التَّمَسُّكِ بِهِ مِنَ الرَّشَادِ فِي دَارِ الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ . وَالتَّبَشِيرِ بِمَا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ الْمُسْتَجِيبِينَ لَهُ، وَالِدَاخِلِينَ فِيهِ؛ مِنْ تَمْجِيسِ السَّيِّئَاتِ، وَمُضَاعَفَةِ الْحَسَنَاتِ، وَعِزِّ الدُّنْيَا وَفَوْزِ الْآخِرَةِ . وَالْإِنْذَارِ بِمَا أَوْعَدَ اللَّهُ بِهِ النَّاكِثِينَ عَنْ سَبِيلِهِ، الْعَادِلِينَ عَنْ دَلِيلِهِ؛ مِنَ الْإِذْذَالِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَالتَّخْلِيدِ بَعْدَ الْعَرَضِ عَلَيْهِ فِي النَّارِ؛ وَتَصْرِيفِ الْمُخَالَفِينَ بَيْنَ الرِّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ، فِي الْعَاجِلِ وَالْمُغْبَى .

قَالَ : وَيَنْبَغِي أَنْ يَتَأَنَّى الْكَاتِبُ فِيمَا يُورِدُهُ مِنْ هَذِهِ الْأَغْرَاضِ، لِيَقَعَ فِي الْمَوَاقِعِ اللَّائِقَةِ بِهِ، وَيَجْلُوَ الْحُجُجَ فِي أَحْسَنِ الْمَعَارِيضِ، وَيُفْصِحَ عَنْهَا بِأَقْرَبِ الْأَلْفَاظِ مِنَ النَّفُوسِ . فَإِنَّهُ إِذَا وَفَّقَ لِذَلِكَ، نَابَ كِتَابُهُ مَتَابَ الْجُيُوشِ وَالْأَجْنَادِ، وَأَقْرَبَ السُّيُوفِ فِي الْأَعْمَادِ . ثُمَّ قَالَ : وَمَنْ صَدَقَتْ فِي هَذَا الْفَنِّ رَغْبَتُهُ، أَيْدِ اللَّهُ تَعَالَى غَرِيزَتَهُ، وَعَضَّدَ بَدِيهَتَهُ وَرَوِيَّتَهُ .

قُلْتُ : وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ الْمَكْتَابَاتِ السُّلْطَانِيَةِ قَدْ بَطَلَ فِي زَمَانِنَا، فَلَمْ يُعْهَدْ أَنْ مَلِكًا مِنَ الْمُلُوكِ كَتَبَ إِلَى بِلَادِ الْكُفْرِ بِالْإِعْلَانِ إِلَى الدِّينِ . إِذْ مِثْلُ ذَلِكَ إِنَّمَا يَصْدُرُ مَعَ الْعَلَبَةِ وَالْقُوَّةِ وَالْقَهْرِ . كَمَا كَانَ الْخُلَفَاءُ فِي الزَّمَنِ الْمُبْتَدِئِ، وَالْكَفْرُ مَقْهُورٌ مَعَهُمْ، مَذْلُولٌ لَدَيْهِمْ . أَمَّا الْآنَ فَلَوْلَا مَا أَخْبَرَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ : «وَنُصِرْتُ بِالرَّغْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ» وَفِي رِوَايَةٍ «وَنُصِرْتُ أُمَّتِي» لَأَجْتَاكَ أَهْلُ الْكُفْرِ الْإِسْلَامَ، وَلَكِنْ اللَّهُ وَعَدَ دِينَهُ أَنْ لَا يُخْذَلَ .

الصنف الثالث

(من الكتب السلطانية المكتُوب بالحث على الجهاد)

قال في "مواد البيان" : كما أن الدين يَنْتَظَم بالدعاء إليه والترغيب فيه ، كذلك يَنْتَظَم بصيانة حوزته ، وما دخل في مملكته ، وكَفَّ أعدائه عن تَقْصِص أطرافه ، والتغلب على بلاده . ولهذا فرض الله تعالى الجهاد وأوجبه ، وأكد الأمر فيه وشدده ، والسلطان يحتاج عند الحوادث التي تَحْدُث من تطرُق المخالفين إلى بعض الثغور ، أو شن الغارة على أهل الإسلام ، ان يدْعُو إلى الجهاد ومُقارعة الأعداء ، وصون حريم الملة ، وحفظ نظام الدولة .

ثم ذكر أن الرسم فيها أن تفتح بحمد الله تعالى على جميل صنعه : على إعزاز الكلمة ، وإسباغ النعمة باظهار هذه الملة ، وما وعد الله به من نصر أوليائه ، وخِذلان أعدائه ، وإدالة الموحدين ، وإزالة الملحدين ، والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، وذِكْر طَرف من مواقفه في الجهاد ، ومُقارعته لِشيع الإلحاد ، وتأيد الله تعالى أنصاره على أهل العناد . ثم يذكر الحادثة بنصّها ، ويشرح القصة على فصّها ، ويندُب من جاوره وداناه من أهل الملة أجمعين ، ويخاطبهم بما يُرْهِف عزائمهم في نُصرة الدين وكافة المسلمين ، وأتباع سبيل السلف الصالحين ، الذين خَصَّهم الله تعالى بِصِديق الضمائر ، ونفاذ البصائر ، وصحة الدين ، ووثاقة اليقين ، فلم يكونوا ليرؤموا هراة إلا سهل لهم ماتوعر ، ويسر عليهم ما تعسر ، وسماهم إلى ما هو أقصى منه مرعى وأبعد مدى ؛ رغبة فيما رغبهم فيه من نُصرته ، وتعرضاً لما عرَّضهم له من جزيل مثوئته ، وأن يحضهم على التمسك بعزائم الدين ، والعمل على بصائر المخلصين ، واقتراض ما فرض الله عليهم من جهاد أعدائه ، وتحيز ما وعدهم به

من الإظهار بهم والإظهار عليهم ؛ وأن يجاهدوا مُسْتَصِرِينَ ، وَيُؤَدُّوا الْحَقَّ مُحْتَسِبِينَ ، وَيُقَدِّمُوا رِسَالًا لَنَا كَصِين وَلَا شَاكِينَ وَلَا مُرْتَابِينَ ؛ مُتَّبِعِينَ الْحَقَّ حَيْثُ يَمُوقَصِدُ ، وَمُضَارِبِينَ دُونَهُ مِنْ صَدِّ عَنْهُ وَعَنْدَ ؛ وَيُيَالِغُ فِي تَخِيَةِ أَهْلِ الْبَسَالَةِ وَالنَّجْدَةِ ، وَالْبَاسِ وَالشَّدَةِ ؛ وَيُبْعِثُهُمْ عَلَى نَصْرِ حَقِّهِمْ وَطَاعَةِ خَلْقِهِمْ ؛ وَالْفَوْزِ بِدَرْكِ الثَّوَابِ وَالرِّضْوَانِ ، وَتَتَوَرُّ الْبَصَائِرُ فِي الْإِيمَانِ ؛ وَفَضِيلَةِ الْأَنْفِ مِنَ الضَّمِيمِ ، وَالْبُعْدِ مِنَ الذَّمِّ ؛ إِلَى غَيْرِ هَذَا مِمَّا يَعْدِلُ الْأَرْوَاحَ وَالْمُهْجَ ، وَالْإِقْدَامَ عَلَى مُصَارَعِ التَّلَفِ . فَإِنَّ الْمُلُوكَ الْمَاضِينَ - لَعَلَّهُمْ أَنَّ النَّاسَ إِنَّمَا يُجُودُونَ بِذَلِكَ لِلْفَوَائِدِ الَّتِي تُوجِبُهُ - كَانُوا يَبْذُلُونَ لِمَنْ يَدْعُوهُ إِلَى الْمَكَالِفِ ، وَيَعْرِضُونَهُ لِلذَّابِحِ ؛ الرَّاغِبَ الَّتِي تُهَوِّنُ عَلَيْهِمْ إِقْلَاءَ نَفْسِهِمْ فِي الْمَهَالِكِ تَارَةً ، وَيَذْكُرُونَهُمُ الْأَحْقَادَ وَالضَّغَائِنَ وَيُخَوِّفُونَهُمْ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْمَذَلَّةِ أُخْرَى .

ثم قال : وَيُنْبَغِي لِلْكَاتِبِ أَنْ يُقَدِّمَ فِي هَذِهِ الْكُتُبِ مُقَدِّمَاتٍ ، يَرْتَبِهَا عَلَى تَرْتِيبِ يَهْزُ الْأَرِيحِيَّاتِ ، وَيُسَبِّحُ الْعَزَائِمَ ؛ لِيَجْمَعَ بَيْنَ خِدْمَةِ سُلْطَانِهِ وَالْفَوْزِ بِنَصِيبِ مِنَ الْأَجْرِ .

قلت : وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ الْمَكَاتِبِ السُّلْطَانِيَّاتِ مُسْتَمَرَّ الْحُكْمِ إِلَى زَمَانِنَا . فَمَا زَالَتِ الْمُلُوكُ يَكْتُبُونَ إِلَى مَا يَلِيهِمْ بِالْحَثِّ عَلَى الْجِهَادِ ، وَالْقِيَامِ بِأَمْرِهِ ، وَالْحِصْنِ عَلَى مُلَاقَاةِ الْعَدُوِّ ، وَالْأَخْذِ بِنُصْرَةِ الدِّينِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى مُقَدِّمَاتِ الْمَكَاتِبِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ : أَنَّ الشَّيْخَ شَهَابَ الدِّينِ مَحْمُودًا الْحَلَبِيَّ ذَكَرَ فِي "حُسْنِ التَّوَسُّلِ" أَنَّهُ إِذَا كُتِبَ عَنِ الْمَلِكِ فِي أَوْقَاتِ حَرَكَاتِ الْعَدُوِّ إِلَى أَهْلِ الثَّغُورِ ، يُعَلِّمُهُمُ بِالْحَرَكَةِ لِلِقَاءِ عَدُوِّهِمْ - أَنَّهُ يَبْسُطُ الْقَوْلَ فِي وَصْفِ الْعَزَائِمِ ، وَقُوَّةِ الْهِمَمِ ، وَشِدَّةِ الْحِمِيَّةِ لِلدِّينِ ، وَكَثْرَةِ الْعَسَاكِرِ وَالْجِيُوشِ ، وَسُرْعَةِ الْحَرَكَةِ ، وَطَيِّ الْمَرَاكِحِ ، وَمُعَاجَلَةِ الْعَدُوِّ ، وَتَحْيِيلِ أَسْبَابِ النَّصْرِ ، وَالْوُثُوقِ بِعَوَائِدِ اللَّهِ فِي الظَّفَرِ ، وَتَقْوِيَةِ الْقُلُوبِ مِنْهُمْ ، وَبَسْطِ آمَالِهِمْ ، وَحَثِّهِمْ عَلَى التَّيَقُّظِ ، وَحَضِّهِمْ عَلَى حِفْظِ مَا بَأَيْدِيهِمْ مِنْ ذَلِكَ وَمَا أَشْبَهَهُ . وَأَنَّهُ يُبْرِزُ

ذلك في أيّين كلام وأجلّه ، وأمكنه وأقربه من القوة والبسالة ، وأبعده من اللّين والرفّة ، ويبالغ في وصف الإنابة إلى الله تعالى وأستنزال نصّره وتأنيده ، والرجوع إليه في تثبيت الأقدام ، والاعتصام به في الصّبر ، والاستعانة به على العدوّ ، والرغبة إليه في خذلانهم ، وزلزلة أقدامهم ، وجعل الدائرة عليهم ، دون التصريح بسؤال بطلان حركتهم ، ورجاء تأخيرهم ، وانتظار العرضيات في تحلّفهم ، لما في ذلك من إيّهام الضّعف عن لقائهم ، واستشعار الوهن والخوف منهم ، وأن زيادة البسّط وتقصّها في ذلك بحسب المكتوب إليه .

وهذه نسخة مكالمة من ذلك عن السلطان إلى بعض نواب الثغور ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبيّ ، أوردناها في "حسن التوسل" وهي :

أصدرناها ومنادى النّصر قد أعلن بياخيل الله أركي ، وياملائكة الرحمن أخصي ، ويأوفود الظفر والتأييد أقرّبي ، والعزائم قد ركضت على سوابق الركض إلى العدا ، والهمم قد نهضت إلى عدوّ الإسلام فلو كان في مطلع الشمس لاستقربت ما بينها وبينه من المدى ، والسيوف قد أنفتحت من الغمود فكادت تنفر من قريها ، والأسنة قد طمئت إلى موارد القلوب فتشوّفت إلى الارتواء من قلوبها ، والكافة قد زارت كالليوث إذا دنت فرائسها ، والجياذ قد مريحت لما عودتها من الانتعال بمجامع الأبطال فوارسها ، والجيش قد كثرت النجوم أعداها ، وسارها للهجوم على أعداء الله من الملائكة الكرام أمدادها ، والنفوس قد أضرمّت الحمية للدين نار غصّها ، وعداها حرّ الإشفاق على ثغور المسلمين عن برد الثغور وطيب شنها ، والنّصر قد أشرقت في الوجود دلائله ، والتأييد قد ظهرت على الوجوه مجاليه ، وحسن اليقين بالله في إعزاز دينه قد أنبأت بحسن المال أوائله ، والألسن باستنزال

نَصَرَ اللَّهُ لِهَاجِهِ ، والأدجاء بأرواح القبول أَرْجَه ، والقلوب بعوائد تُطْفِئُ الله بهذه
الأمة مبتهجة ؛ والحماة وما منهم إلا من استظهر بإمكان قُوَّتِهِ وقُوَّة إمكانه ، والأبطال
وليس فيهم من يسأل عن عَدَدِ عُدُوِّهِ بل عن مَكَانِهِ ؛ والنبياتُ على طَلَبِ عَدُوِّ اللَّهِ
حيث كان مُجْتَمِعَةً ، والخواطر مطمئنة بكونها مع الله بصدقها و«مَنْ كَانَ مَعَ اللَّهِ
كَانَ اللَّهُ مَعَهُ» ؛ وما بَقِيَ إِلَّا طَيُّ المراحل ، والنزولُ على أطراف الثُّغُور نزول الغيث
على البَلَدِ الساحِلِ ، والإحاطة بعَدُوِّ اللَّهِ من كل جانب ، وإِنزَالُ نفوسهم على [حُكْمِ]
الأمرين [الآخرين] : من عذابٍ وَأَصَبَ وَهُمْ نَاصِبٌ ؛ وإحالة وجودهم إلى العدم ،
وإزالة السيوف التي إِنْ أَنْكَرَتْهَا أَعْنَقَتْهُمْ فما بالعهد من قَدَمٍ ؛ وَأَصْطَلَامُهُمْ على ما بأيدي
العصاة المؤيَّدة بنصر الله في حربها ، وَابْتِلَاؤُهُمْ من حَمَلَاتِهَا بِرِيحٍ عَادٍ التي تَدْمِرُ كُلَّ
شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ؛ فليكنْ مُتَرَقِّبًا طُلُوعَ طلائعها عليه ، مُتَيَقِّنًا من كَرَمِ اللَّهِ اسْتِئْصَالَ
عَدُوِّهِ الذي إِنْ فَرَّ أَدْرَكَتْهُ من ورائه وَإِنْ ثَبَتَ أَخَذَتْهُ من بين يديه ؛ وَلِيَجْتَهِدَ
فِي حِفْظِ مَا قَبْلَهُ من الأطراف وَصَحَّهَا ، وَجَمْعِ سَوَائِمِ الرعايا من الأماكن الخُوفَةِ وَلَمَّهَا ؛
وإصلاح ما يُحْتَاجُ إلى إصلاحه من مسالك الأرباض المتطرِّفة ورَمَّهَا ، فَإِنْ الْاِحْتِيَاظُ
على كل حال من آكِدِ المصالح الإسلامية وأهمها ؛ فَكَأَنَّهُ بِالْعَدُوِّ وَقَدْ زَالَ طَمَعُهُ ،
وَزَادَ ظَلْمُهُ ؛ وَذَمَّ عُقْبَى مَسِيرِهِ ، وَتَحَقَّقَ سُوءُ مُنْقَلَبِهِ ومصيره ؛ وَتَبَرَّأَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ
الذي دَلَّاهُ بِغُرُورِهِ ، وَأَصْبَحَ لِحْمُهُ مُوزَعًا بَيْنَ ذِئَابِ الْقَلَا وَضِبَاعِهَا وَبَيْنَ عِقْبَانِ الْجَوِّ
وُسُورِهِ ؛ ثِقَةً من وعد الله وَتَمَسُّكًا مِنْهُ باليقين ، وَتَحَقُّقًا أَنَّ اللَّهَ يَنْصُرُ مَنْ يَنْصُرُهُ
وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقِيْنِ .

وهذه نسخة مرسومة في المعنى ، بل هو أصرح في ذلك مما قبله ، كُتِبَ بِهِ
عند ظهور الفَرَنج اللوسارية والشوال بالبحر : من إنشاء الشيخ بدر الدين حبيب

الْحَلِيِّ؛ وهو وإن لم يكن عن السلطان فإنه في معناه، لقيام النائب بالملكية قيام السلطان الذي أَسْتَنَابَهُ، وهو :

المرسوم بالأمر العالى أعلاه الله تعالى، لازالت هراسمه النافذة تُبَلِّغُ أَهْلَ الْعِصَابَةِ الْمُحَمَّديَّةَ غَايَةَ الْأَمَالِ، وَأَوَامِرُهُ الْمُطَاعَةُ تَقْضِي بِكسر اللُّوسَارِيَّةِ وَشَيْنِ الشَّوَالِ؛ أَنْ تَتَقَدَّمَ الْعَسَاكِرُ الْمَنْصُورَةُ بِالْمُلْكَةِ الطَّرَابُلسِيَّةِ أَيْدِ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ أَيْمِهِمُ الْقَاهِرَةِ، وَأَذَلَّ بِسُيُوفِهِمُ الطَّائِفَةَ الْكَافِرَةَ؛ بِارْتِدَاءِ مَلَابِسِ الْجِهَادِ، وَالتَّحَلِّيِّ بِمِرَاةِ الصَّبْرِ عَلَى اجْتِلَاءِ الْحِلَادِ؛ وَأَنْ يَحْيُوا دَاعِيَ الدِّينِ، وَيَكْفُوا أَيْدِيَ الْمُعْتَدِينَ؛ وَيُقَوِّقُوا سِهَامَهُمْ، وَيَجْعَلُوا التَّقْوَى أَمَامَهُمْ؛ وَيُشِرُّعُوا رِمَاحَهُمْ، وَيَحْمِلُوا سِلَاحَهُمْ؛ وَيَوْمِضُوا بِرُوقِ السُّيُوفِ، وَيَرْسِلُوا نِبَالَ الْخُتُوفِ؛ وَيَهْدُمُوا بُنْيَانَ الْكُفَّارِ، وَيُطِيلُوا أَهْلَةَ الْقَيْسِيِّ بِمَدِّ الْأَوْتَارِ؛ وَيَهْضُمُوا جَانِبَ أَهْلِ الْعِنَادِ، وَيَقَابِلُوا الْبَحْرَ بِمَلَأَةِ بَحْرِ مِنَ الْحِيَادِ؛ وَيَنْظُرُوا أُمُوجَهُ بِأُمُوجِ النَّصَالِ، وَيَقَاتِلُوا الْفِرْقَةَ الْفَرَجِيَّةَ أَشَدَّ الْقِتَالِ؛ وَلَا يَهْمِلُوهُمْ بِالنَّهَارِ وَلَا بِاللَّيْلِ، وَيَعْدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ؛ وَيُنُورُوا بِمَصَابِيحِ الرِّبَاطِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ظُلَامَ الدُّجَنَةِ؛ وَأَنْ يُصَابِرُوا وَيَصْبِرُوا، فَإِذَا اسْتَنْفَرُوا فَلْيَنْفِرُوا؛ وَيَبَالِغُوا فِي الْغُدُوِّ وَالرَّوَاحِ لِيُبَلِّغُوا الرِّعْيَةَ مِنَ الْأَمْنِ أَمَانِيَهَا . فَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» . وَيَعْتَمِدُوا عَلَى الْقَرِيبِ الْحَبِيبِ، وَيَجْتَهِدُوا فِي كَسْرِ أَصْلَابِ أَهْلِ الصَّلِيبِ؛ وَيَنَافِسُوا فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ وَيَدْعُوا الدُّنْيَا، وَيَقَاتِلُوا لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا؛ وَيَشْهَدُوا الْمَوَاقِفَ، وَيَبْذُلُوا التَّلَادَ وَالطَّارِفَ؛ وَلْيَبْزُزْ الْفَارُسُ وَالرَّاجِلُ، وَيُظْهِرِ الرَّامِحُ وَالنَّائِلُ؛ فَإِنَّ الْجِهَادَ، سَطْوَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى ذَوِي الْفَسَادِ، وَنَقْمَتُهُ الْقَائِمَةُ عَلَى أَهْلِ الشَّرِكِ وَالْعِنَادِ؛ وَهُوَ مِنَ الْقُرُوضِ الْوَاجِبَةِ، الَّتِي لَمْ تَزَلْ سِهَامُ أَصْحَابِهِ صَائِبَةً؛ فَوَاطِبُوا عَلَى فِعْلِهِ،

ولاتذهبوا عن مذاهبه وسبله ؛ وأطلبوا أعداء الله براً وبحراً ، وقسموا بينهم الفتكات قتلاً وأسراً ، وفاجئوهم بمكروه الحرب ، وناجوهم برسائل الطعن والضرب ؛ وخذوا من الكفار باليمن ، وجدوا في تحصيل الرّبح الثمين ؛ ولازموا النزول بساحل البحر لمنازلة الطّغاة والمشرّكين ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ وسابقوا الأعداء ، وهزّوا أعطاف الأسنة ؛ وشمروا عن ساق العزائم ، ولا تأخذكم في الله لومة لائم ؛ واتخذوا الحيام مساكن ، وأجعلوا ظهور الخيل لكم مواطن ؛ وأنصبوا الألوية والأعلام ، وأطفئوا جمرة الشرذمة الفايضة للإسلام ؛ ولا تحشوا من جمعهم الآئيل إلى التفريق ، وحشدهم الذي هو عمّا قليل إن شاء الله تعالى غريق ؛ ولا تعبثوا بسفينهم البحرية ، فإن سفنكم الخيل المخلوقة من الرياح ؛ ولا تنظروا إلى مجاديفهم الخشبية ، فإن مجاديفكم السيوف والرماح ؛ فأقلعوا قلوبهم ، وشئتوا جموعهم ؛ وأذهبوا الجحف والحيف ، وخاطبهم بالسنة السيف ؛ وأوقدوا في قلوبهم بالتحصين والاحتراز نارا ، وأدعوا الله أن لا يذر على الأرض من الكافرين دياراً ؛ ونكسوا صلبهم المنصوب ، وبادروا إلى حرب حزبهم المغلوب ؛ وأرفعوا باليقين شك هذه المنحنة ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ؛ وأهجروا في ذات الله طيب المنام ، وأقلوا الأقدام إلى الأقدام ؛ واكشفوا عنكم أستار الملأل والملام ، وأهتموا بما يعلى كلمة الإسلام والسلام ؛ فليرفعنكم الله إلى منازل العز والتميز ، ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

الصِّنفُ الرابع

(من الكتب السلطانية الكُتُبُ في الحثِّ على لزوم الطاعة وذمِّ الخِلافِ)

قال في "موادِّ البيان" : طاعةُ السلطان والأتقيادُ إليه ، والرجوعُ إلى رأيه والاعتمادُ عليه ، أبدى الأسباب ، في استمرارِ الأتساقِ والاستِتبابِ ؛ وهي فرضٌ أوجبه الله تعالى . فقال : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ ولا تصح مملكةٌ ولا تدوم دَوْلَةٌ إلا بأمرين : أحدهما عدلُ السلطان ، والآخر طاعة الرعية له ؛ ففتى أرتفع أحدهما ، فسَدَ السَّائِسُ والمسُوسُ . ولم تزل ملوك الأزمنة يقدّمون إلى الرعايا لزومَ الطاعة ، والاعتصامَ بحُجَلِ الشريعة والنهي عن مفارقة الجماعة .

قال : والرسم فيها أن تفتتح بالحمد لله على النعم في تأليف قلوب أهل الدين ، وجمع كلمة الموحدين ؛ وعَايَةِ أهوائهم إلى الاتِّفاق ، وصِيَانَةِ عَصَاهم عن الأتساق ؛ والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم ، والتنبيه على فضائل الطاعة ، فإنها العروة الوثقى ، والمَعْقِلُ الذي لا يُرْفَى ؛ والحِصْنُ الحصين ، والكَنَفُ الأمين ؛ والحِجَى الأَمْنَع ، والمَرْقَبُ الأرفع ؛ وأنَّ مَنْ حافظ عليها فاز وسَلِمَ ، وَرَجَحَ وَغَنِمَ ؛ وَمَنْ فارقها خَسِرَ وَخَابَ ، وَنَكَبَ عن سبيل الصَّواب ؛ وإيضاح مافي سبيل الطاعة من اتِّفاق الكلمة ، وانتظام شَمْلِ الأُمّة ؛ وشمولِ الخيرات ، وعمومِ البركات ؛ وعمارةِ البلاد ، وصَلَاحِ العباد ؛ وما في المُشَاقَقَةِ من الفساد العام ، العائد بانتثارِ النِّظام ؛ وأُنْبِيَاتِ الحبل ، وتفرُّقِ الشَّمْلِ ، وأَجْثَاثِ الأَصْل ؛ وطُمُوسِ الديار ، وصِيَالِ الأشرار ، وأَنْقِمَاعِ الأخيار ؛ وتوالى الفِتَنِ التي لا تُصِيبُ الظالمَ خاصّةً دون العادل ، ولا المُشَاقِقَ دون الموافق ؛ وحلولِ التَّوَابِ المُزِيلَةِ للنعم ؛ وإتباعِ ذلك بما يجب من إعدار وإنذار ، وترهيب وترغيب ، وتذكير وتبصير ، ووعظٍ وتخويف ؛ وبعثِ العُلَمَاءِ

الحُصَفَاءُ ، عَلَى رَدْعِ الْجُهَلَاءِ السَّخَفَاءِ ، وَتَنْبِيهِ أَهْلِ السَّلَامَةِ وَالصَّلَاحِ ، عَلَى كَفِّ ذَوَى الْعَيْثِ وَالطَّلَاحِ ؛ إِلَى نَحْوِ هَذَا مَا يَجَارِيهِ . وَأَنْ يَبَالِغَ فِيمَا يُورِدُهُ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي ، فَإِنْ هَذِهِ الْكُتُبُ إِذَا كَانَتْ بَلِيغَةً مُسْتَوْفَاةً جَيِّدَةً الْعِبَارَةَ ، أَخَذَتْ بِجَمَاعِ الْقُلُوبِ ، وَأَغْنَتْ عَنِ الْكَتَائِبِ فِي إِدْرَاكِ الْمَطْلُوبِ .



وهذه [مكتبات] في معنى ذلك أوردها أبو الحسين بن سعد في تَرْسِلِهِ ، وَهِيَ :
أما بعد ، فَإِنَّ اللَّهَ أَفْتَرَضَ الطَّاعَةَ وَأَوْجَبَهَا ، وَأَمَرَ بِهَا وَرَغَّبَ فِيهَا ؛ وَجَعَلَهَا عِصْمَةً مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ ، وَضِيَاءً مِنْ كُلِّ شُبْهَةٍ ، وَسَلَامَةً مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ ؛ وَسَبَبًا لِلظَّفَرِ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ مَنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا وَفَّقَهُ لَهَا ، وَأَلْزَمَهُ الْمَحَافِظَةَ عَلَيْهَا وَالْإِعْتَصَامَ بِحَبْلِهَا ؛ فَتَعَجَّلَ عِزَّهَا وَشَرَفَهَا ، وَسَعَتَهَا وَأَمْنَهَا ؛ وَأَسْتَحَقَّ السَّعَادَةَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ بِهَا ، وَالْمَثُوبَةَ عَلَيْهَا .

آخر : وقد علمتم ما جعل الله في الطاعة ولزومها ، والمحافظة عليها : من العز والمِنَّةِ وَالْإَيْدِ وَالْقُوَّةِ وَالْفَوْزِ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ [وما] في خلافتها مِنْ صُنُوفِ الْمَخَافِ ، وَأَنْوَاعِ الْمَتَالِفِ .

آخر : وقد كانت الطاعة أَتَانَتْ بِكَ عَلَى كُلِّ ظَلِيلٍ ، وَأَفْضَتْ بِكَ إِلَى لَيْلٍ مِهَادٍ عِنْدَ إِقْضَائِ الْمَضَاجِعِ ، وَصَفَاءِ الْمَشَارِبِ عِنْدَ تَكْثُرِ الْمَنَاهِلِ ، وَأَتِّصَالِ أَمْنَةٍ عِنْدَ حَدُوثِ الْمَخَافِ ؛ حَتَّى فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا .

آخر : فَلَمْ يَمُرَّ مِنْ طَاعَتِهِ مَارِقٌ ، وَلَا فَارِقُهَا مُفَارِقٌ ؛ إِلَّا صَرَعَ اللَّهُ خَدَّهُ ، وَأَتَعَسَّ جَدَّهُ ؛ وَخَضَدَ شَوْكَتَهُ ، وَأَكْذَبَ ظَنَّهُ وَأَمْنِيَّتَهُ ، وَجَعَلَهُ لِسِيفِ اللَّهِ غَرَضًا ، وَلَأُولِيائِهِ غَنِيمَةً .

آخر : والطاعة هي العروة الوثقى ، والطريقة المثلى ، والغنيمة لاهلها في الأخرى والأولى .

« عبد الحميد » : - فان الفتنة تتشوف لاهلها بأنق منظر ، وأزبن ملبس ؛ تجر لهم أذيالها ، وتعدهم تتابع لذاتها ، حتى ترمى بهم في حومات أمواجها ؛ مسلمة لهم : تعدهم الكذب وتضمنهم الخدع ؛ فاذا لزيمهم عضاضها ، وفقر بهم شماسها ؛ تحلت عنهم خاذلة لهم ، وتبرأت منهم معرضة ؛ قد سلبوا أجمل لباس دينهم ، واستزلوا عن أحصن معقل دنياهم : من الغناء البهي منظره ، الجميل أثره ؛ حتى تطرحهم في فضائح أعمالهم ، والإيحاف في التعب ، وسوء المقلب ؛ فن آرديته على دنياه تملك بطاعة ولآته ، وتحرز بالدخول في الجماعة ، تاركاً لأثقل الأمرين ، وأوبل الحالين .

« ابن عبد كان » في ذم الخلاف : - وإن فلانا كان عبدا من عبيدنا ، أعوره إنعامنا ، وتوه به إكرامنا ؛ وشرفه ولأونا ، وحسن عنده بلأونا ؛ وأبتينا له الأموال ، وأسنيانا له الأعمال ، وأوطأنا عقبه الرجال ؛ فلم تقع النعم منه عند شاكر ، ولا الصنيعة عند محتمل ؛ فلما رفع الله بمكاننا خسيسته ، وبلغه من شرف الذكر ونباهة القدر وأنبساط يده ما كانت همته تعجز عنه ، وآماله تقصر دونه ؛ أضراه ذلك وأبطره ، وأطغاه وأكفره ؛ فأختال زاهيا ، وأستكبر عاليا ؛ وغدر باغيا ، وشاق عاصيا ؛ وأوضع في الفتنة لنا حربا ، ولأعدائنا حربا ؛ ولمن أنحرف عنا يدا ، ولمن مال إلينا ضدا ؛ من غير سبب أوجبه ، ولا أمر دعاه إليه ؛ فكان كما قال الله عز وجل في كتابه : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴾ وكقوله : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾ فلما ورد الخبر بما هيا الله لنا من الرجوع إلى الفسطاط على الحال السائرة لأوليائنا ، الغائظة لأعدائنا ، سقط في يده ، وفكر في غليظ جرime

وخيانته ؛ فأذاه الخوف الذى أستشعره ، والإشفاق الذى خامرَه ؛ إلى أن ركب عظيمًا من الأمور ، وكشف بالعصبيَّة والغرور ؛ مكاتفًا أعداء ^(١) ، ومواليا ذوى العداوة والشنارَه ؛ ونرجو بحول الله وقوَّته ، وإرادته ومشيتته ، وما لم يزل الله - تقدس اسمه - يُخْرِيه عندنا من جميل عاداته فيمن سَفِه الحق ، وزاغ عن القصد ؛ أن يُنْسِلَ هذا الخائن بجبايئ أعماله ، ويُسَلِّمَه لقبائح أفعاله ، وأن يصرعه بأسوا مصارع أمثاله ؛ فإنَّ أحدًا لم يَحْمَد النعمة ، إلا استدعى النقمه ؛ ولم يُلِّع الشكر ، ويستعمل الكفر ؛ إلا كانت العثرة منه قريبه ، والبلايا محيطه ؛ قولًا لا يُبدل رسمه ولا يُحوَّل .

من كتاب موسى بن عيسى .

أما بعد ، فإنَّ امرأ لو خَصَّ من فَلَائِ الخَطِّا وَخُطُواتِ المَلَأِ ، بفضيلة رأي ولطافة بصر بالأمور ، كُنْتَ أَجْحَىٰ بِذلك دون أهل زمانك ، للذى جَرَتْ لك عليه تصارييف التبّع ، وتعرَّضَتْ لك به وجوه العبر ؛ ولمَّا استقبلت من موارد أمور نفسك ، وتَعَقَّبْتَ من مصادر أمور غيرك ؛ وَلَكِنَّ الله إذا أراد أمرًا جعل له من قضائه سببا ، ومن مقاديره عللا ؛ فمن مقاديرِ عللِ البلاء تضييع المعرفة ، وإلغاء ما تُفِيدُهُ التَّجَرِبَةُ ؛ ومن أسباب السَّلامة الْإِنْتِبَاهُ بِالْعِبَرِ ، وَالْإِسْتِدْلَالُ بِمَا كَانَ عَلَىٰ مَا يَكُونُ . وأنتَ امرؤ جَرْتَ لك وعليك أنحاء من النعم ، وأنحاء من المحجج ، عَرَفْتَ بها ما لك وعليك ؛ فان تأخذُ بها ، عَرَفْتَ كَيْفَ تَسْلُكُ مسالكه ، وإن تدع الأخذ بذلك ، تدع على علم . وقد رأيت الذى آتتْ لك به النعمة ، ووهبت لك به العافية ؛ فيما ألهمك الله من طاعة ولاة أمورك ، والصبر لها على مواطن الحق التى رَفَعَ الله بها ذِكْرَكَ ، وأحسن عليها عُقْبَكَ وَذُنُوكَ ؛ فلم تَمْنُصْ بك فى طاعتهم رُتْبَةً ، إِلَّا قَرَّبَكَ الله بها فى الخير عَقْبَهُ ، وَلَا تَبْدُلْ مِنْ نَفْسِكَ نَصَبًا ، إِلَّا أَوْجَبَ

(٢) المَلَأُ هنا معناه الظن والطمع .

(١) بياض فى الأصل ولعله الامارة .

لك به مُجْحَا ، ولم تَقْتَأْ تَوَاتِرَ ذَلِكَ : من مناصحتك وحُسنِ طاعتك ، حَتَّى طُلْتَ بها
 على من طاووك ، وَفَضَلْتَ بها من فاضلك ؛ وجريت ممدودا عَنَّاكَ إِلَى قُصْوَى غَايَاتِ
 أَمْلِكَ ، فَاصْبَحْتَ قَرِيعَ الْمَسَامِينِ ، بعد خليفة الله أمير المؤمنين ، وَخَيْرَتَهُ من خَلْقِهِ ،
 بعد ذَوِي الْفَضْلِ من أهل بيته ؛ حَتَّى مَالَكَ من رِجَالِ الْعَرَبِ نظير في مَنَزِلَةٍ ،
 وَلَا نَدِيدَ فِي حَالٍ وَلَا رُتْبَةٍ ؛ بل هم فيك رجُلان : إِمَارَاهُ بِكَ مِنْكَ ، وإِمَارَاغُ بِكَ مِنْكَ .
 قلت : وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مستمرّ الكتابة إلى زماننا . فما
 زالت الملوك يكتبون إلى من يَخَيَّلُونَ منه خَلَعَ الطاعة من التَّوَابِ ومن في مغناهم ،
 وَيَحْتَوْنَهُمْ على لزوم الطاعة ، وَيَحْذَرُونَهُمُ الْخَالَفَةَ والخروجَ عن الجماعة .



ومن ذلك ما كتب به الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي إلى مملوك سِيسٍ عند
 كَثْرَةِ التَّارِ ، بعد قيامه معهم في المَصَافِّ ، ومُسَاعَدَتِهِ إِيَّاهُمْ ، وهو :
 بَصَرَهُ اللهُ بِرُشْدِهِ ، وأراه مواقع غِيٍّ في الإصرار على مخالفتِهِ وَتَقْضِ عَهْدِهِ ،
 وَأَسْلَاهُ بِسَلَامَةِ نَفْسِهِ عَمَّنْ رَوَّعَتِ السِّیُوفُ الْإِسْلَامِيَّةَ بِفَقْدِهِ .

صدرت تُعْرِفُهُ أَنَّهُ قد تَحَقَّقَ ما كان من أمرِ الْعَدُوِّ الَّذِي دَلَّاهُ بِغُرُورِهِ ، وَحَمَلَهُ
 التَّمَسُّكُ بِخَدَايِهِ على مجانبَةِ الصَّوَابِ في أموره ؛ وَأَنَّهُمْ آسْتَجَدُوا بِكُلِّ طَائِفَةٍ ، وَأَقْدَمُوا
 على البلاد الإسلامية بنفوس طامعة وقلوب خائفة ؛ وذلك بعد أن أقاموا مدة
 يَشْتَرُونَ الخِداةَ بالمُوادعة ، وَيُسِرُّونَ المَصَارِمَةَ في المسالمة ؛ وَيُظْهِرُونَ في الظاهرِ
 أموراً ، [وَيَدْبُرُونَ في الباطنِ أموراً ^(١)] وَيَعِدُّونَ كُلَّ طَائِفَةٍ من أعداء الدين وَيَمْنُونَهُمْ
 وما يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ؛ وَكُنَّا بِمَكْرِهِمْ عَامِلِينَ ، وعلى معاجلتهم عاملين ؛ وحين

ثَيْنٍ مَرَادُهُمْ، وَتَكَلَّ أَحْتِشَادُهُمْ؛ أَسْتَدْرَجْنَاهُمْ إِلَى مَصَارِعِهِمْ، وَأَسْتَجَرْنَا لَهُمْ لِقُرْبِهِمْ
فِي الْقَتْلِ مِنْ مَضَاجِعِهِمْ، وَيَبْعَدُوا فِي الْهَرَبِ عَنْ مَوَاضِعِهِمْ؛ وَصَدَمْنَاهُمْ بِقُوَّةِ اللَّهِ
صَدْمَةً لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِهَا قَبْلُ، وَحَمَلْنَا عَلَيْهِمْ حَمَلَةً أَلْهَاهُمْ طُوفَانُهَا إِلَى ذَلِكَ الْجَبَلِ: وَهَلْ
يَعِصُمُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ جَبَلٌ؟ فَخَصَرْنَا فِي ذَلِكَ الْفَضَاءِ الْمَتَّسِعِ، وَضَايَقْنَاهُمْ كَمَا قَدْ رُئِيَ
وَمَرَّقْنَاهُمْ كَمَا قَدْ سَمِعَ؛ وَأَتَرَلْتَاهُمْ عَلَى حُكْمِ السَّيْفِ الَّذِي نَهَلَ مِنْ دِمَائِهِمْ حَتَّى رَوَى
وَأَكَلَ مِنْ لُحُومِهِمْ حَتَّى شَبِعَ؛ وَتَبِعْتَهُمْ جِيُوشُنَا الْمَنْصُورَةَ تَخَطَّفَهُمْ رِمَاحُهَا، وَتَلَقَّفَهُمْ
صِفَاحُهَا؛ وَيُدِدُهُمْ فِي الْقَلَوَاتِ رُعْبُهَا، وَيُفَرِّقُهُمْ فِي الْقِفَارِ طَعْنُهَا الْمُتَدَارِكُ وَضَرْبُهَا؛
وَيَقْتُلُ مَنْ فَاتَ السُّيُوفَ مِنْهُمْ الْعَطَشُ وَالْجُوعُ، وَيُخَيِّلُ لِلْحَيِّ مِنْهُمْ أَنَّ مَوْضِعَهُ كَالدُّنْيَا
الَّتِي لَيْسَ لِلنَّيِّتِ إِلَيْهَا رَجُوعٌ؛ وَلَعَلَّهُ قَدْ رَأَى مِنْ ذَلِكَ فَوْقَ مَا وَصَفَ عَيَانًا، وَتَحَقَّقَ
مِنْ كُلِّ مَا جَرَى مَا لَا يَحْتَاجُ أَنْ تَزِيدَهُ بِهِ عِلْمًا وَلَا تُقِيمَ عَلَيْهِ بُرْهَانًا.

وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ أَمْرَ هَذَا الْعَدُوِّ الْمَخْذُولِ مَا زَالَ مَعْنَا عَلَى هَذِهِ الْوَتِيرَةِ، وَأَنَّهُمْ مَا أَقْدَمُوا
إِلَّا وَنَصَرْنَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ؛ وَمَا سَاقَتْهُمْ الْأَطَاعُ فِي وَقْتٍ مَا إِلَّا إِلَى حُتُوفِهِمْ،
وَلَا عَادَمْتُهُمْ قَطُّ فِي وَقْعَةٍ إِلَّا أَحَادٌ تُخْبِرُ عَنْ مَصَارِعِ أُلُوفِهِمْ؛ وَلَقَدْ أَضَاعَ الْحَزَمُ مِنْ
حَيْثُ لَمْ يَسْتَدِمَّ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ [بِطَاعَتِنَا] الَّتِي كَانَ فِي مِهَادِ أَمْنِهَا، وَوَهَادِ يُمْنِهَا؛ وَحِمَايَةِ
عَفْوِهَا، وَبَرْدِ رَأْفَتِهَا الَّتِي كَدَّرَهَا بِالْخَالَفَةِ بَعْدَ صَفْوِهَا؛ يَصُونُ رَعَايَاهُ بِالْبَطَاعَةِ عَنِ الْقَتْلِ
وَالْإِسَارِ، وَيَجْعِي أَهْلَ مِلَّتِهِ [بِالْحَذَرِ عَنِ الْحَرَكَاتِ] الَّتِي مَانَهُضُوا إِلَيْهَا إِلَّا وَجَرُوا ذُيُولَ
الْخَسَارِ؛ وَلَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ وَأَصْحَابَهُ لِسُيُوفِنَا الَّتِي كَانَ مِنْ سَطَوَاتِهَا فِي أَمَانٍ، وَوَثِقَ
بِمَا ضَمِنَ لَهُ النَّتَارُ مِنْ نَصَرِهِ وَقَدْ رَأَى مَا آلَ إِلَيْهِ [أَمْرُ] ذَلِكَ الضَّمَانِ؛ وَجَرَّ لِنَفْسِهِ بِمَوْلَاةِ
النَّارِ عَنَاءً كَانَ عَنْهُ فِي غَنَى، وَأَوْقَعَ رُوحَهُ بِمُظَافَرَةِ الْمُغْلِ فِي حَوْمَةِ السُّيُوفِ الَّتِي تَخَطَّفَتْ

(١) بياض بالأصل والتصحيح عن "حسن التوسل" (ص ٩٨).

أولياءه من هنا ومن هنا ؛ وأقتحم بنفسه مواردَ هلاكٍ سلبت رداءَ الأمنِ عن منكيته ،
وأغترَّ هو وقومه بما زينَ لهم الشيطانُ من غروره ﴿ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ
عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾ وما هو والوقوفُ في هذه المواطنِ التي تتزلزلُ فيها أقدامُ الملوكِ الأكاسره ؟
وأثنى لضعافِ التقادِ قُدْرَةً على الثباتِ لوثباتِ الأسودِ الضاريةِ واللُّيُوثِ الكاسره ؟
لقد أعترض بين السَّهمِ والهدفِ بحجْرِهِ ، وتعرَّضَ للوقوفِ بين نَابِ الأسدِ وطُفْرِهِ ؛
وهو يعلم أننا مع ذلك نرعى له حقوقَ طاعةِ أسلافِهِ التي ماتوا عليها ، ونحفظ له خدمةَ
آبائِهِ التي بذلوا نفوسهم ونفائسهم في التَّوصُّلِ إليها ؛ ونُجْرِيهِ وأهلَ بلاده نُجْرِي
أهلَ ذمتنا الذين لا تُؤسِّسهم من عَفْوِنَا ما استقاموا ، ونَسْلُكُ فيهم حُكْمَ مَنْ في أطرافِ
البلادِ من رعايانا الذين هم في قبضتنا : تَزْحُوا أو أقاموا ؛ ونحن نتحقق أنه ما بقي
ينسئى ملازمةَ رِبْقَةِ الحَتِفِ خُنَاقَهُ ، ولا يرجع يُوردُ نفسه في مواردِ الهلاكِ وهل
يَرْجِعُ إلى الموتِ مَنْ ذاقَهُ ؟ فَيَسْتَدْرِكُ بابَ الإِنَابَةِ قبلَ أَنْ يُغْلَقَ دُونَهُ ، ويصون
نفسه وأهله قبلَ أَنْ تَبْدَلَ السِوْفُ الإِسْلَامِيَّةُ مَصُوبَةً ؛ ويبادر إلى الطاعةِ قبلَ
أَنْ يَبْذُلَهَا فلا تُقْبَلُ ، ويتمسَّكُ بأذيالِ العَفْوِ قبلَ أَنْ تُرْفَعَ دُونَهُ فلا تُسَبَّلُ ؛ ويعجِّلُ
بِحِجْلِ أُمُوالِ القطيعةِ وإلا كان أهله وأولاده في جملة ما يحملُ منها إلينا ، ويسلِّمُ مَفَاتِحَ
ما عَدَا عليه من فتوحنا وإلا فهو يعلم أنها وجميعُ ما تَأَخَّرَ من بلاده بين يدينا ؛
ويكون هو السببُ في تَمَرُّقِ شِمْلِهِ ، وتَفَرُّقِ أَهْلِهِ ، وقُلُوعِ بَيْتِهِ من أصلِهِ ؛ وهَدْمُ
كَنَاسِهِ ؛ وَابْتِدَالُ نفسه ونفائسِهِ ؛ وَاسْتِرْقا قِ حُرْمِهِ ، وَاسْتِخْدَامُ أولاده قبلَ خَدَمِهِ ؛
وَاسْتِقْلَاعُ قِلاعِهِ ، وإِحراقُ رُبُوعِهِ وَرِباعِهِ ؛ وتعجيلُ رؤيةِ ما وُعدَ به قبلَ سَماعِهِ .
ومَنْ لغازانِ أَنْ يُجَابَ إلى مثلِ ذلك ، أَوْ يُسَمَّحَ له مع الأمنِ من سيوفنا ببعضِ ما في يده
من الممالكِ ؛ لِيَتَنَفَّعَ بما أَهْبَتْ جيوشنا المؤيدة في يده من الحَيْلِ والخَلُولِ ، ويعيش

في الأُمْنِ ببعض ما نسمح له به ومنَّ للُغُورِ بِالْحَوْلِ ؛ والسيوف الآن مُضَيَّعةٌ إلَّا جوابه لَتُكْفَفَ إن أبصر سبيل الرشاد، أو نَتَعَوَّضَ بِرُءُوسِ حِمَاهِ وَكِتَابِهِ عَنِ الْإِعْصَادِ إن أَصْرَّ عَلَى الْعِنَادِ؛ والخير يكون إن شاء الله تعالى .

الصنف الخامس

(من الكتب السلطانية الكُتُبُ إلى مَنْ نَكَّثَ الْعَهْدَ مِنَ الْخَالِفِينَ)

قال في "موادَّ البيان" : إذا نقض مُعَاهِدُ عَهْدِهِ ، أو نَفَضَ من شروط الهُدْنَةِ يَدَهُ ؛ فالرسم أن يصدَّر ما يكتَبُ به بالحمد لله تعالى على مُوَهِّبَتِهِ فِي إظهار الدين ، وإعزاز المسلمين ؛ وما تَكَفَّلَهُ من النصر على الباغين ، ووعد به أهل العدل من الإدالة والتَّكْمِينِ ؛ والصلاة على سيدنا محمد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعلى آله أجمعين ؛ وإيرادِ طَرَفٍ من معجزاته وفضائله ، وآياته ومناقبه ؛ التي تتخرط في هذا النظام ، وتليق بهذا التَّمَطُّ من الكلام ؛ ثم يُتَّبَعُ ذلك بمقدمة تدلُّ على متانة البصائر في الدين ، وَوَثَاقَةِ الْعُقَاثِدِ فِي إِذَالَةِ الْمُحَادِّثِينَ ؛ وَمَضَاءِ الْعِزَائِمِ فِي مَجَاهِدَةِ الْمُتَعَدِّينِ ، وَالْأَسْتِطَالَةِ عَلَى الْمَعَانِدِينَ ؛ مع ما تَضَمَّنَهُ اللهُ تعالى من نَصْرِهِ وإِظْفَارِهِ ، ووَعَدَ بِهِ من تَأْيِيدِهِ وإِقْرَارِهِ ؛ وَسَهْلِهِ مِنْ إِهْوَاءِ الْأَهْوِيَةِ إِلَيْهِ ، وَجَمْعِ الْكَلِمَةِ عَلَيْهِ ؛ بِمَا خَوَّلَهُ مِنْ بَأْسٍ وَشِدَّةٍ ، وَعَدِيدِ وَعْدَةٍ . وما يليق بذلك مما يُعْرَبُ بِهِ عَنْ عُلُوِّ السُّلْطَانِ ، وَوُفُورِ الْإِخْوَانِ ؛ وَأَتَّسَاعِ الْقُوَّةِ وَالْأَيْدِ ، وَصَدَقِ الْعَزْمُ وَالْحِدَّةُ . ثم يذكر الحال التي أُنْعَقَتِ الْهُدْنَةُ عَلَيْهَا ، وَأَنَّ الْإِجَابَةَ إِلَيْهَا لَمْ تَقَعْ قُصُورًا عَنْ غَزْوِهِمْ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ ، وَتَشْرِيدِهِمْ بِالْغَارَاتِ الْمَبْثُوثَةِ بَرًّا وَبَحْرًا عَنْ قَرَارِهِمْ ؛ وَإِنَّمَا قَبُولُ الْمَسَاءِ لَهُمْ ، وَأَمْتِنًا لِأَمْرِ اللهِ تعالى فِي مُسَالَمَتِهِمْ . ويأخذ في تعديد الوقائع التي أوقعها أهل الإسلام بهم ؛ والمشاهد التي نصر الله تعالى فيها عليهم ، وَالْمَعَاقِلَ الْمُسْتَرْتَعَةَ مِنْ أَيْدِيهِمْ ؛

وَأَنَّ تِلْكَ الْعِزَّاتِ مُضْطَرَمَّةٌ مُتَوَقِّدَةٌ ، وَتِلْكَ السِّیُوفُ مُشْحَذَةٌ مُهَنْدَةٌ ؛ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى
 قَدْ أَبَاحَ حَرَمَ مَنْ نَقَضَ عَهْدَهُ ، وَنَقَضَ مِنَ الدِّمَامِ يَدَهُ ؛ وَأَنَّ كَاتِبَ اللَّهِ مُوجِفٌ وَرَاءَ
 هَذَا الْكِتَابِ ، فِي جَيْشٍ يُلْحِقُ الْخَبْتَ بِالْهَضَابِ ؛ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ مَبَادِرَةٌ إِلَى الْإِفْلَاحِ
 وَالْإِنَابَةِ ، وَمَكَاتِبَةٌ فِي الصَّفْحِ وَالْإِسْتِنَابَةِ ؛ وَأَنَّهُ قَدْ قَدَّمَ الْأَعْذَارَ ، وَبَدَأَ قَبْلَ الْإِقْدَامِ
 بِالْإِنْذَارِ ؛ وَمَا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ مِنْ هَذَا وَمِثْلِهِ .

قال : فَإِنْ كَانَ الْكِتَابُ جَوَابًا عَنْ كِتَابٍ وَرَدَّ ، أَجِيبَ بِمَا يَنْقُضُهُ ، وَبُنِيَ الْأَمْرُ
 فِيهِ عَلَى مَا يَسِطُ الْحَيَّةَ ، وَيَدْعُو إِلَى التَّزُولِ عَلَى أَحْكَامِ الطَّاعَةِ . وَيَخْتَلِفُ الْحَالُ
 فِي ذَلِكَ بِأَخْتِلَافِ الْأُمُورِ الْحَادِثَةِ ، وَالْأَسْبَابِ الْعَارِضَةِ ؛ فَيَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ أَنْ يَحْتَاطَ
 فِيمَا يَطْلُقُ بِهِ قَلَمَهُ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي الْخَطِيرَةِ : لِأَنَّهُا مَزَاحِمَةٌ بِالْأَدُولِ وَالْمَلِكِ ، وَحُجَجٌ
 تَحْصُلُ مِنْ كُلِّ دَوْلَةٍ عِنْدَ الْآخَرِينَ ؛ وَدَرَكٌ مَا يَقَعُ فِيهَا عَائِدٌ عَلَيْهِ ، وَمَنْسُوبٌ إِلَيْهِ .



وهذه نسخة كتاب كُتِبَ بِهِ عَنْ الْحَافِظِ لَدِينِ اللَّهِ الْخَلِيفَةِ الْفَاطِمِيِّ بِالْأَمِيرِ الْمَصْرِيِّ ،
 إِلَى بَهْرَامِ النَّصْرَانِيِّ الْأَرْمَنِيِّ الَّذِي كَانَ أَسْتَوْرَهُ ، ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْهِ رِضْوَانُ بْنُ وَخْشِي ،
 أَرْتَغَامًا لِلدِّينِ ، لَتَحْكُمَ نَصْرَانِيٌّ فِي أَهْلِ الْمِلَّةِ ، وَوَلِيَ الْوِزَارَةَ مَكَانَهُ ؛ فَقَرَّ هَارِبًا
 إِلَى الشَّامِ نَافِضًا لِلْعَهْدِ ، وَكُتِبَ إِلَى الْحَافِظِ يَطْلُبُ أَهْلَهُ وَجَمَاعَتَهُ مِنَ الْأَرْمَنِ الَّذِينَ
 كَانُوا مَعَهُ فِي جَمَلَةِ جُنْدِ الدِّيَارِ الْمَصْرِيَّةِ ، مَظْهَرًا لِلطَّاعَةِ وَالرَّغْبَةِ إِلَى التَّخَلِّيِّ عَنِ الدُّنْيَا ،
 وَالْإِنْقِطَاعِ فِي بَعْضِ الدِّيَرَةِ لِلتَّعَبُّدِ مَكْرًا وَخَدِيعَةً ؛ فَكُتِبَ لَهُ بِذَلِكَ جَوَابًا عَنْ كِتَابِهِ
 الْوَارِدِ مِنْهُ . وَنَصَّ مَا كُتِبَ إِلَيْهِ :

عُرِضَ بِحَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْكِتَابُ الْوَارِدُ مِنْكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، الْمَقْدَّمُ ، الْمُؤَيَّدُ ،
 الْمَنْصُورُ ؛ عَنِ الْخِلَافَةِ وَتَشْمُسُهَا ، تَأْجُ الْمَمْلَكَةِ وَنِظَامُهَا ؛ فَخَرُّ الْأَمْرَاءِ ، شَيْخُ الدَّوْلَةِ

وعمادها؛ ذو المجدين، مصطفى أمير المؤمنين . ووقف على جميعه ، وأستولى بحكمه على مضمونه .

فأما ما وسعت القول فيه وبسطته ، ونفست فيا أوردته منه وذكرته ؛ مما خفاه ومحصوله ما أنت عليه من الطاعة ، والولاء والمشايعة ؛ والأعتراف بنعم الدولة عليك ، والإقرار بإحسانها إليك ؛ فلعمر أمير المؤمنين إن هذا الذي يليق بك ويحسن منك ، ويحسن أن يرد عنك ، ويجب أن يعرف لك ؛ وقد كانت الدولة أسلفتك من حسن الظن قديما ، ونقلتك في درجة التنويه حديثا ؛ حتى رفعتك إلى أعلى المراتب ، وبلغتك ما لم تسم إليه هممة طالب ؛ وأوطأت الرجال عقبك ، وجعلت جميع أهل الدولة تبعك ؛ مما أغنى أعتراك به عن الإطالة بشرحه ، والإطناب في ذكره .

وأما ما ذكرته مما كان أمير المؤمنين أعطاك التوثقة عليه ، فأجابه منه إلى ما رغبت فيه ، فاستقر بينه وبينك في معناه ما أطمأنت إليه ؛ فلم يزل أمير المؤمنين على الوفاء باطنا وظاهرا ، ونية وعلاية ؛ واعتقاده أن لا يرجع عنه ، ولا يغير ما أحكمه منه ؛ وإنما حال بينه وبين هذا المراد أن كافة المسلمين في البعد والقرب غضبوا لملتهم ، وأمتعضوا مما لم تجر به عادة في شريعتهم ؛ ونفرت نفوسهم مما يعتقدون أن الصبر عليه قاذح في دينهم ، ومضاعف لآلامهم ؛ وأنه ذنب لا يغفر ، ووزر لا يتجاوز ولا يصفح [عنه] حتى إن أهل المشرق أخذوا في ذلك وأعطوا ، وعزموا على ما اتفقوا عليه مما صرفه الله وكفى مشوته والأشتغال به .

وأما ما أتمسته من تسيير من الباب من طائفتك إليك ، فهذا أمر لا يسوغ ولا يمكن فعله ، ولو جاز أن يؤمر به لمنع المسلمون منه فلم يفسحوا فيه . والآن فلن

يَحُلُّوْ حَالَك مِنْ أَحَدِ قَسْمَيْنِ : إِمَّا أَنْ تَكُونَ مُتَعَلِّقًا بِأُمُورِ الدُّنْيَا وَغَيْرِ مُتَفَصِّلٍ عَنْهَا ،
فَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يُجَيِّدُكَ فِي وِلَايَةِ أَحَدِ ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ : إِمَّا قُوْصَ ، أَوْ إِنْجِيْمَ ، أَوْ أَسْيُوْطَ ؛
فَأَيُّهَا أَحْتَرْتُ وَلَاكَ إِيَّاهُ ، وَرَدَّ أَمْرَهُ وَالنَّظَرَ فِيهِ إِلَيْكَ ؛ عَلَى أَنْ تَقْتَصِرَ مِنَ الَّذِينَ
مَعَكَ عَلَى خَمْسِينَ أَوْ سِتِينَ فَارْسًا ، وَتُسَيِّرَ الْبَاقِيْنَ إِلَى الْبَابِ لِيُجْرُوا عَلَى عَادَاتِهِمْ ،
وَرُسُومِهِمْ فِي وَاجِبَاتِهِمْ وَإِقْطَاعَاتِهِمْ ؛ إِذْ كَانُوا عِيْدَ الدَّوْلَةِ وَمُتَقَلِّبِينَ فِي فَضْلِهَا ،
وَأَكْثَرَهُمْ مُتَوَلِّدُونَ فِي ظِلِّهَا . وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ عَلَى الْقَضِيَّةِ الَّتِي مَا زِلْتَ تَذْكُرُ رَغْبَتَكَ
فِيهَا وَلِيَاثَارِكَ لَهَا : مِنْ التَّخَلِّيِ عَنِ الدُّنْيَا وَلِزُومِ أَحَدِ الدَّيْرَةِ ، وَالْإِقْطَاعِ إِلَى الْعِبَادَةِ ؛
فَإِنْ كُنْتَ مَقِيْمًا عَلَى ذَلِكَ فَتَخَيَّرْ ضَيْعَةً مِنْ أَىِّ الضَّيَاعِ شِئْتَ يَكُونُ فِيهَا دَيْرٌ يُقِيمُ فِيهِ
وَتَقْطَعُ إِلَيْهِ ؛ فَتُعَيِّنِ الضَّيْعَةَ لِيَجْعَلَهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ تَسْوِيغًا لَكَ مُؤَبَّدًا ، وَإِقْطَاعًا
دَائِمًا مُخْلَدًا ؛ وَتَجْرَى مَجْرَى الْمَلِكِ ، وَيُكْتَبُ لَكَ بِذَلِكَ مَا جَرَتْ الْعَادَةُ بِمِثْلِهِ ، مِمَّا تَطْمَئِنُّ
إِلَيْهِ وَتُسْتَحْكَمُ نَفْسُكَ بِهِ . وَإِنْ أَبَيْتَ الْقِسْمَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ وَلَمْ يُرِضْكَ الْأَوَّلُ مِنْهُمَا ،
وَلَا رَغَبْتَ فِي الثَّانِي ، فَتَحَقِّقْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ بِأَجْمَعِهِمْ ، وَكَافَّةًهُمْ وَأَسْرَهُمْ ؛ وَكُلٌّ مِنْ يَقُولُ
بِالشَّهَادَتَيْنِ : مِنْ قَاصٍ وَدَانٍ ، وَقَرِيبٍ وَبَعِيدٍ ، وَكَبِيرٍ وَصَغِيرٍ ، يَنْفِرُونَ إِلَيْكَ ، وَيَتَّقِفُونَ
عَلَى الْقَصْدِ لَكَ ، وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِي التَّوَجُّهِ نَحْوَكَ ؛ وَهُوَ عَمَلُ دِينِي ، لَا يَرِيئُهُ أَمْرٌ دُنْيَوِيٌّ ؛
فَتَأْمَلْ مَا تَضُمَّنْتَهُ هَذِهِ الْإِجَابَةُ مِنَ الْأَقْسَامِ ، وَطَالِعْ بِمَا عِنْدَكَ فِي ذَلِكَ .

قُلْتُ : وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ الْمَكَاتِبِ السُّلْطَانِيَّةِ لَا وَجُودَ لَهُ فِي زَمَانِنَا لَعَدَمِ وَقُوعِ
الْهُدَنِ الْمُرْتَبِ عَلَيْهِ هَذَا الصَّنْفُ مِنَ الْمَكَاتِبِ ؛ فَإِنْ أَحْتِجَّ إِلَى ذَلِكَ مَشَاءَ الْكَاتِبِ
عَلَى الْقَاعَةِ الْقَدِيمَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ .

الصنف السادس

(من الكتب السلطانية ، الكتب إلى من خلع الطاعة)

قال في "موادالبیان" : وهذه الكتب تختلف رسومها بحسب اختلاف أقدار المكاتبين وأحوالهم في الخروج عن الطاعة . قال : وجمع أوضاعها كلها في قانون كلي عسير المرام ، إلا أننا نرسم فيها رسوماً يمكن الزيادة فيها والنقص منها . ثم قال : والعادة أن تنفذ هذه الكتب إلى من تُرجى إجابته ، وتؤمل مراجعته . فأما من وقع الإيأس من استصلاحه ، ودعت الضرورة إلى كفاحه ، فلا حاجة إلى معاتبته ، ولا وجه لمكاتبته .

قال : والرسم فيها أن تفتتح بالتحميد المناسب لمعنى الكتاب ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، بما يدعو إلى إيناسه ، ويزيل أسباب استيحاشه ، ويعود بثبات جاشه ، ويبعثه على مراجعة فكره ، ومعاودة النظر في أمره ، ويدكره ما أسدى من العوارف إليه ، وأفيض من النعم عليه ، وأنه لا ينفر سربها بحجدها وكفرها ، ويوحش ربعها بإهمال حمدها وشكرها ، ويربطها بحسن الطاعة ، ويستترهها بالتأدب في التباعة ، ولا يجتز الوبال إلى نفسه بالخروج عن العصمه ، في عاجل ذميم الوصمة وفي آجل أليم التقمه . ويصبره بعاقبته ومن يليه من ذوى الجند بما يقتضى رب الإنعام لديهم ، وإقرار الفضل عليهم ، وأن يسلبهم ملبس الظل الظليل ، وأن يعطلهم من حلي الرأي الجميل ، ويتدرع في أثناء ذلك بشعار التفاق ، ويتسم بميسم الشقاق ، ويتعجل إزعاجه من داره ، وبعده من قراره ، وهدم ماشيده الإخلاص من ذكره ، وتقويض ما رفعت الطاعة من قدره ، ويعود بعد أن كان مجاهداً عن الحوزة مجاهداً مجتهداً ، وبعد أن كان مرامياً عن السدة مرمياً بيدها ، ويضيع

مَا أُسْدِيَ إِلَيْهِ ، وَأُفِضَ مِنَ الْإِحْسَانِ عَلَيْهِ ، وَمَا ذَهَبَ مِنَ الْيَقِينِ فِي تَدْرِيجِهِ إِلَى مَرَاتِقِ
السِّيَادَةِ ، وَمِنَ الرِّغَابِ فِي إِحْلَاقِهِ بِأَهْلِ السَّعَادَةِ ؛ وَلَا يَغْتَرُّ بِنِزَازِهِ لَهُ عَاجِلُ الْآجِلِ ،
وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِخَدَجِ الْبَاطِلِ ؛ وَيَجْعَلُ أَقْوَالَهُمْ دَبْرَ سَمْعِهِ ، وَيُبْعِدُ أَشْخَاصَهُمْ عَنْ نَظَرِهِ ؛
نَاضِرًا فِي عَاقِبَتِهِ ، وَحَارِسًا مُهَجَّتَهُ ؛ وَرَاغِبًا فِي حَقِّ دَمِهِ ، وَصِيَانَةً حُرْمِهِ ؛ وَلِيَرْجِعَ
إِلَى الْفَنَاءِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ يُحْزَرُهُ ، وَالْكَفِّ الَّذِي لَمْ يَزَلْ يُعْزَرُهُ ؛ وَلَا يَجْعَلُ مُسَالِمَهُ بِالْعُودِ
مَنَازِعًا ، وَمُوَاصِلَهُ بِالْجُحُودِ مَقَاطِعًا ؛ وَوَاهِبَهُ بِالْكَفْرِ سَالِبًا ، وَمَطْلَعَ النِّعْمَةِ بَضْيَاعَةً
حَقَّقَهَا مَغْرِبًا ؛ وَقَدْ بَقِيَ فِي الْحَبْلِ مُمْسِكٌ ، وَفِي الْأَمْرِ مُسْتَدْرِكٌ ؛ لِأَنَّهُ يَهْبُ مِنْ رَقْدَتِهِ ،
وَيَسْتَبْدِلُ مِنْ لَفَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِلِقَاءِ حَضْرَتِهِ . ثُمَّ يَقُولُ : فَإِنْ كَانَ مَا جَنَاهُ قَدْ هَدَّ
سُرْبَهُ ، وَكَدَّرَ شَرْبَهُ ؛ وَأَحْسَ فِي نَفْسِهِ سُوءَ الظَّنِّ ، وَأَخَافَهُ بَعْدَ الْأَمْنِ ؛ فَلْيَبْعَثْ
رَسُولَهُ يَسْتَوْثِقْ وَيُعَاقِدْ ، وَيَتَوَكَّدْ وَيُعَاهِدْ ؛ فَإِذَا عَادَ إِلَيْهِ بِمَا يَمْلَأُ فُؤَادَهُ أَمْنًا ،
وَيَكُونُ عَلَيْهِ حِصْنًا ؛ سَارِعًا إِلَى أَمْتِثَالِ الْمَرَاسِمِ ، وَجَرِيًّا فِي الطَّاعَةِ عَلَى سَنَنِهِ الْمُتَقَادِمِ ؛
وَلَا يَسْتَمِرَّ عَلَى الْمُدَافَعَةِ وَالْمُطَاوَلَةِ ، وَيَقْتَصِرْ عَلَى الْمَغَايَظَةِ وَالْمُحَاطَلَةِ .

ثُمَّ يَقَالُ بَعْدَ هَذَا : وَقَدْ قَدَّمَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ كِتَابَهُ هَذَا إِلَيْكَ نَائِبًا عَنْهُ فِي أَسْتِصْلَاحِكَ ،
وَقَائِدًا يَقُودُكَ إِلَى طَرِيقِ نَجَاحِكَ ؛ قَبْلَ تَجْرِيدِ مَوَاضِيهِ ، وَإِلْخَاقِ مُسْتَأْنَفِهِ فِي الْحَرْبِ
بِمَاضِيهِ ؛ وَخُيُولِهِ تُجَادِبُ الْأَعِنَّةَ ، وَذَوَائِلُهُ مُشْرَعَةُ الْأَسِنَّةِ ؛ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا قَصْدُكَ
فِي عُفْرِ دَارِكَ الَّتِي بَوَّأَكَهَا ، وَأَنْتَرَاعُ نِعْمَتِهِ الَّتِي أَعْطَاكَهَا ؛ لِتَذُوقَ مَرَارَةَ الْخَالَفَةِ ،
وَتَزِيْنَهَا بِحُلَاوَةِ الْمَوَاقِفَةِ ؛ فَكُنْ عَلَى نَفْسِكَ لِنَفْسِكَ حَاكِمًا ، وَلَا تُكُنْ لَهَا ظَالِمًا ؛
وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا يَلِيْقُ بِهِ .

وَإِنْ كَانَتْ الْمَكَاتِبَةُ إِلَى رَجُلٍ قَدْ سَبَقَتْ لَهُ سَابِقَةُ بَخْلَجِ الطَّاعَةِ ، ثُمَّ سَأَلَ الْإِقَالََةَ
فَأَقِيلَ بَعْدَ مُشَارَفَةِ الْإِحَاطَةِ بِهِ وَالنَّكَايَةِ فِيهِ ، ثُمَّ رَاجَعَ الْعَصِيَانَ ؛ فَالرَّسْمُ أَنْ تُفْتَحَ

يُحْمَدُ اللهُ جَاعِلَ الْعَاقِبَةِ لِلتَّقِيّينَ ، وَالْعُدُوَانَ عَلَى الظَّالِمِينَ ؛ وَالْعِزَّةَ لِحُزْبِهِ ، وَالذِّلَّةَ لِحُزْبِهِ ؛
وَالْإِظْهَارَ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ ، وَالْخَسَارَ لِأَهْلِ مَعْصِيَتِهِ ؛ وَدَائِرَةَ السُّوءِ عَلَى الْخَالَعِينَ طَاعَةَ
خَلَفَائِهِ ، الْقَائِمِينَ بِحُجَّتِهِ . ثُمَّ يَقَالُ : أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا رَأَيْتَ تَحْوُلُهُ بِهِ مِنْ تَصْدِيقِ
أَمْرِهِ ، وَتَوْفِيقِ أَعْمَالِهِ ؛ وَتَسْدِيدِ مَرَامِيهِ ، وَهِدَايَةِ مَسَاعِيهِ ؛ وَإِجَابَةِ دَعْوَتِهِ ،
وَتَحْقِيقِ رَغْبَتِهِ ؛ بِإِدَالَةِ مُوَالِيهِ ، وَإِذَالَةِ مُعَادِيهِ ؛ وَمُعُونَتِهِ عَلَى مَاوَلَاءِهِ ، وَتَمَكِّنَتِهِ
مِنْ نَاوَاهِ ؛ وَيَسْأَلُهُ الصَّلَاةُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ .

ثُمَّ يَقُولُ بِمُقَدِّمَةِ تَدْلُ عَلَى جَمِيلِ عَاقِبَةِ الطَّاعَةِ ، وَذَمِّ مَغْيَةِ الْمَعْصِيَةِ ؛ يَبْسُطُ الْقَوْلَ
عَلَيْهَا ، وَيَتَوَسَّعُ فِيهَا ، لِتَكُونَ فِرَاشًا لِمَا يَتْلُوها . ثُمَّ يَقَالُ بَعْدَهَا : وَإِنَّمَا يَحْمِلُ ذَلِكَ
أَهْلَ الْغَرَارَةِ الَّذِينَ لَمْ يُلْوَكَوْا شَكَاكُمُ التَّجَارِبَ ، وَلَمْ يُكَارِسُوا ضَرَامِ النَّوَائِبِ ؛
وَأَنْتَ فَقَدْ تَذَوَّقْتَ مِنْ كِرَاهَةِ الْمَعْصِيَةِ وَمِرَارَتِهَا ، وَعُدُوِيَّةِ الطَّاعَةِ وَحِلَاوَتِهَا ؛
مَا يَرْجُو أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونَ قَدْ وَعَظَكَ وَأَدَبَكَ ، وَقَوَّمَكَ وَهَدَّكَ ؛ وَكَشَفَ لَكَ
عَنْ عَاقِبَتَيْهَا ، وَعَرَّفَكَ بِغَايَتَيْهَا ؛ فَدَعَتْكَ الطَّاعَةُ إِلَيْهَا بِمَا أَسْبَغَتْهُ عَلَيْكَ مِنْ لِبَاسِ
شَرَفِهَا وَمَجْدِهَا ، وَأَسْتَحْدَمَتْهُ لَكَ مِنْ أَنْصَارٍ إِقْبَالُهَا وَسَعْدِهَا ؛ وَنَهَتْكَ الْمَعْصِيَةُ عَنْهَا
بِمَا بَلَّوَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا وَصَنَائِعِهَا ، وَجَرَّبَتْهُ مِنْ مَرَمِضِ مَرَامِيهَا وَمَوَاقِعِهَا ، لِأَنَّهَا أَقَلَّتْ
عَدَدَكَ ، وَمَزَّقَتْ مُطَرَفَكَ وَمِثْلَكَ ؛ حَتَّى تَدَارَكَكَ مِنْ عَطْفِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَنْبَتَكَ
بَعْدَ الْحَصْدِ ، وَرَأَشَكَ بَعْدَ الْحِصِّ ؛ وَأَتَتْهُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّكَ حَيَّتَ إِلَى اتِّبَاعِ
الضَّلَالَةِ الَّذِينَ غَرُّوكَ ، وَمِلْتَ إِلَى أَشْيَاعِ الْفِتْنَةِ الَّذِينَ أَسْتَهْوَوْكَ ؛ فَاصْغَيْتَ إِلَى أَقْوَالِهِمْ
الَّتِي ظَاهَرَهَا نُصْحٌ وَبَاطِنُهَا غِشٌّ ، وَأَرَأَيْتَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهَا مَوَارِدُهَا صَلَاحٌ وَمَصَادِرُهَا فُسَادٌ ؛
وَمِلْتَ إِلَى مُعَاوَدَةِ الشَّقَاقِ وَالْإِرْتِكَاسِ فِي الْعِصْيَانِ ، وَمُقَابَلَةِ التَّعْنِي بِالْكَفْرِ وَالْإِنْفِرَانِ ؛
فَقَدَّمَ كِتَابَهُ إِلَيْكَ مُدَّكِرًا ، وَمَتَحَكَ خُطَابَهُ مُعْذِرًا مُنْذِرًا ؛ لِيَعْرِفَكَ خَطْأَكَ ، وَيَهْدِيَكَ
رُشْدَكَ ؛ [وَيَذَلُّكَ] عَلَى الْأَحْسَنِ لَكَ فِي مَبْدُوكَ وَعَاقِبَتِكَ ، وَيُحَدِّدَكَ مِنْ مَرَاجِعَةِ

ماقارفته ؛ وأن تَزَلَّ عن المنزلة التي رَقَّكَ إليها ، وتُجَدِّبَ رِبَاعَكَ من النعمة التي أَرْتَعَكَ فيها ، وتُتَخَلَّ عن مرابع الدَّعة التي أوردك عليها ؛ فانظر لنفسك حَسَنًا ، وَكُنْ إليها مُحْسِنًا ؛ وانتفع بمراشد أمير المؤمنين ، ولا تُفْسِدَنَّ بخلافك عن أمره نَصِيكَ من الدنيا والدين ؛ فارْجِعْ إليه مسترغمًا فإنه يَقْتَدِي بالله في الرحمة للحسين ، مادام مؤثراً لربِّ النعمة لديك ، وإقرارها عليك . فاعلم هذا وأعمل به إن شاء الله تعالى .

قال : وإن كانت المكتبة إلى رعية قد خرجت عن الطاعة كتبت إليها بما مثاله :

أما بعد ، وَقَّكُمْ الله لَطَاعَتِهِ ، وَعَصَمَكُمْ من معصيته ؛ فإنَّ الشيطان يُدْلِي الإنسان بغروره ، ويقيم له الضلال في صورة الهدى يَهْتَانُهُ وزوره ؛ مُسْتَخِفًّا لَطَاشِي الألباب ، ومُسْتَرِيًّا للأقدام عن مَوْفِفِ الصواب ؛ مُحْسِنًا بكيدهِ لاعتقاد الأباطيل ، مُزَيِّنًا بغيه أَتْبَاعَ الأضاليل ، صارفاً بمكره عن سواء السبيل ؛ مُصَوِّرًا للحق في صورة المين ، مُغْطِيًّا على القلوب بِسِغَافِ الرِّين ؛ والحَازِمُ اليَقْظُ من تحرُّز من أَشْرَاكِه وحَبَائِلِهِ ، وتحفَظ من تحَايلِهِ وغوائلِهِ ؛ وَأَنَّهُمْ هَوَاجِسُ فِكْرِهِ ، وَأَسْتَرَابَ بوساوس صدره ؛ وعرض ما يعرض له على عقله ، وكرَّر فيه النظر مُتَحَرِّزًا من مَكْرِ الشيطان وخُتْلِهِ ؛ فإن ألقاه عَادِلًا عن الهوى ، مائلًا إلى التقوى ؛ بريثًا من خُدَعِ الشيطان ، آمنًا من عوادي الأفتان ؛ أمضاه وَاتِّقًا بِسلامة مَغْبِتِهِ وعاقبته ، وشُمُولِ الأَمْنِ في أولاهُ وأُنْجَاهُ .

وَأَتَيْتُ إلى أمير المؤمنين أَن الشيطان المرِيدُ اسْتَحْفَافِ أَحْلَامِ جماعة من جُهَالِكُمْ ، وَأَسْتَوْلَى على أَفْهَامِ عِدَّةٍ من أَرَادِلِكُمْ ؛ وَحَسَّنَ لَهُمْ شَقَّ عَصَا الإسلام ، وَمَعْصِيَةِ الإمام ؛ ومفارقة الجماعة ، والأَنْسِلَاحَ من الطاعة ؛ التي فرضها الله تعالى على الجمهور ، وجعلها نظامَ الأمور ؛ فقال جَلَّ قَائِلًا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ واختيار الفرقة التي نهى الله عنها . فقال :

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتِ﴾ وَمُجَانِبَةَ الْأَلْفَةِ
التي عدّها في جلائل نعيمه ، فقال مُتَمَتِّئًا بها على عبادته : ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ وَسَوَّلَ لَهُمُ التَّعَرَّى مِنْ آدَابِ
الدين ، والمُجَاهَرَةِ بِالْخِلَافِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَنَبَذُوا مَا بِيَدَيْهِمْ مِنْ بَيْعَتِهِ ، وَسُلِّبُوا
مِنْ ظِلِّ دَعْوَتِهِ ؛ وَرَكِبُوا مِنْ ذَلِكَ أَوْعَرَ الْمَرَاكِبِ ، وَسَلَكُوا أَخْشَنَ الْمَسَارِبِ ؛
وَسَعَوْا فِي الْبِلَادِ بِالْفَسَادِ ، وَقَامُوا فِي وَجْهِ الْحَقِّ بِالْعِنَادِ ، وَاسْتَخَفُّوا بِحَمْلِ الْآثَامِ ،
وَبَسُطُوا أَيْدِيَهُمْ إِلَى الدِّمَاءِ الْحَرَامِ ، وَشَنُّوا الْغَارَاتِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ .

وقد علمت أن من أقدم على تأثير مثل هذه الآثار ، فقد استنزل في هذه الدار سُخْطَ
الْجَبَّارِ ، وَتَبَوَّأَ فِي الْآخِرَةِ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ ؛ وَجَرَى عَلَى غَيْرِ الْوَاجِبِ فِي إِقَامَةِ الْفُرُوضِ
وَالصَّلَوَاتِ ، وَتَأْدِيَةِ الْعِبَادَاتِ وَالزَّكَوَاتِ ، وَعَقْدِ الْعُقُودِ وَالْمُنَاقَاةِ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ
الْأَحْوَالُ إِنَّمَا تُرْضَى وَتُرْفَعُ ، وَتُجَابُ وَتُسْمَعُ ؛ إِذَا تَوَلَّاهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، أَوْ مَنْ
يَسْتَخْلِفُهُ مِنْ صَلَحاءِ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَأَمَّا إِذَا اسْتَبَدَّتُمْ فِيهَا أَنْفُسَكُمْ ، وَاقْتَدَيْتُمْ فِي تَأْدِيتِهَا
بِنَاكِيبِ عَنْ سَبِيلِهِ ، مُجَانِبِينَ لِدَلِيلِهِ ؛ فَقَدْ نَسَكَّعْتُمْ فِي الضَّلَالَةِ ، وَتَطَايَعْتُمْ عَلَى الْجَهَالَةِ ؛
وَكُلُّ رَاضٍ مِنْكُمْ بِذَلِكَ ، عَاصٍ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَلِلْإِمَامِ .

ولما أطلع أمير المؤمنين على ما ذهبت إليه بسوء الاختيار ، وَرَكِبْتُمُوهُ مِنْ مَرَاكِبِ
الْاِعْتِرَارِ ؛ لَمْ يَرَأْ أَنْ يُلْغِيَكُمْ وَيَهْجُرَكُمْ ، وَيَغْفَلَكُمْ وَلَا يُبَصِّرَكُمْ ؛ فَقَدَّمَ مَكَاتِبَكُمْ مُعَذِّرًا
مُنْذِرًا ، وَمُخَوِّفًا مُحَذِّرًا ؛ وَبَدَأَ بِكُمْ بِوَعْظِهِ مُشْفِقًا عَلَيْكُمْ مِنْ زَلَّةِ الْقَدَمِ ، وَمَوْقِفِ النَّدَمِ ؛
وَجَازِبًا لَكُمْ عَنْ مَضَالِّ الْغَوَايَةِ ، إِلَى مَرَاشِدِ الْهَدَايَةِ ؛ وَافْتَتَحَكُمْ بِاللَّفْظِ الْأَحْسَنِ ،
وَالْقَوْلِ الْأَثْنِ ؛ وَهَدَاكُمْ إِلَى السَّبِيلِ الْأَوْضَحِ ، وَالْمَتَجَرِّ الْأَرْبَحِ ؛ وَاخْتَارَ أَنْ يَهْدِيَكُمْ
اللَّهُ تَعَالَى إِلَى طَرِيقِ الرِّشَادِ ، وَيُدْلِّكُمْ عَلَى مَقَاصِدِ السَّدَادِ ؛ وَيُعِيدَكُمْ إِلَى الْأَوَّلَى ،

وَيُعِنِّكُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمَثَلِ ؛ وَأَنْ تَعْرِفُوا الْحَقَّ فَتَعْتَصِمُوا فِي أَيْدِيكُمْ مِنْ بَيْعَتِهِ ،
وَتَقُومُوا بِمَا فَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ طَاعَتِهِ ؛ وَتَرْجِعُوا إِلَى إِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ ، وَمَا اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ
كَلِمَةُ إِخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ ؛ وَتَتَّبِعُوا مَذَاهِبَ أَهْلِ السَّلَامَةِ ، وَأَوَّلَى الْأَسْتِقَامَةِ ؛ فَإِنْ وَقَعَ
مَا أَلْفَاهُ إِلَيْكُمْ الْمَوْقِعَ الَّذِي قَدَّرَهُ فِيكُمْ ، وَسَأَلْتُمْ الْإِقَالََةَ ، فَالْتَوُّبَةُ تَنْفَعُكُمْ ، وَالْعَفْوُ
يَسَعُكُمْ ؛ وَإِنْ تَمَادَيْتُمْ فِي غَيْبِكُمْ وَبَاطِلِكُمْ ، وَغُرُورِكُمْ وَجَهْلِكُمْ ؛ تَقَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ جِيُوشُ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُقَوِّمَةٌ ، وَمِنْ عَصَاكُمْ مُتَقَمَةٌ ؛ وَذَلِكَ مَقَامٌ لَا يُمَيِّزُ فِيهِ الْبَرُّ مِنَ السَّقِيمِ ،
وَلَا الْجَاهِلُ مِنَ الْعَلِيمِ ؛ أَلَا تَسْمَعُونَ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ
ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ ؟ وَأَيُّ فِتْنَةٍ أَشَدُّ مِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ ، وَمَعْصِيَةِ السُّلْطَانِ ؛ وَشَقِّ
الْعَصَا ، وَإِرَاقَةِ الدِّمَا ، وَإِثَارَةِ الدِّهْمَا ؟ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَارْجِعُوا ، وَتَأْمَلُوا وَارْجِعُوا ؛
وَتَبَصَّرُوا وَاسْتَبَصَّرُوا ؛ وَقَدْ أَوْضَحَ لَكُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْحَجَّجَهُ ، وَبَدَأَ كُمْ بِالْحَجَّةِ ؛ فَأَوْجِدُوهُ
السَّبِيلَ إِلَى مَا يَنْوِيهِ لَكُمْ وَلِكَافَةِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ : مِنْ حَقِّ الدِّمَاءِ ، وَصِيَانَةِ الْحَرِيمِ ،
وَتَحْصِينِ الْأَمْوَالِ ، وَشُمُولِ الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ ؛ وَأُجِيبُوا عَنْ كِتَابِهِ هَذَا بِمَا يُوفِّقُكُمْ اللَّهُ
تَعَالَى [إِلَيْهِ] : مِنْ إِجَابَةِ دَعَائِهِ وَالْعَمَلِ بِرَأْيِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة ما كتب به عبد الحميد إلى بعض من نَحَرَاجَ عن الطاعة ، وهو :

أما بعد : بلغني كتابك تذكر أنك تَحْمِلُ الْمُرْدَ عَلَى الْجُرْدِ ؛ فَسَرَدُ عَلَيْكَ جُنُودُ اللَّهِ
الْمُقْتَرِبُونَ ، وَأَوْلِيَائِهِ الْغَالِبُونَ ؛ وَيَرِدُ عَلَيْكَ مَعَ ذَلِكَ حَزْبُهُ الْمَنْصُورُ مِنَ الْكُهُولِ ، عَلَى
الْفَحُولِ ؛ كَأَنَّهَا الْوُعُولُ ، تَخُوضُ الْوُحُولَ ؛ طَوَالَ السَّبَالِ ، تَخْتَضِبُ بِالْجُرْيَالِ ، رِجَالُ
هَمِ الرِّجَالِ ؛ بَيْنَ رَاغٍ وَنَاشِبٍ ، لَيْسَ مَعَهُمْ إِلَّا كَلْبٌ مُحَارِبٌ ؛ وَلَا يَنْتَكِلُونَ عَلَى الْأَصْحَابِ .
قَدْ ضَرَبُوا بِضَرْبِ الْهَامِ ، وَأَعْتَادُوا الْكَتْرَ وَالْإِقْدَامَ ، لَيْسُوا بِذَوِي هَيْئَةٍ وَلَا إِحْجَامٍ ؛
يَقْضُونَ بِالسُّيُوفِ ، وَيَخَالِطُونَ الرُّخُوفَ ، فِي أَعْنَتِهِمُ الْحُتُوفَ ؛ يَزَارُونَ زَيْرَ الْأَسْوَدِ ،

وَيَتَّبِعُونَ وَتُوبَ الْفُهْدِ؛ لَيْسَ فِيهِمْ إِلَّا شَاكٌ مُحْتَبِكٌ، فِي الْحَرْبِ مُجَرَّبٌ؛ قَدْ شَرِبَ عَلَى نَاجِدِ الْحَرْبِ وَأَكَلَ، ذَوْ شِقْشِقَةٍ وَكُلَّ كُلٍّ؛ كَأَنَّمَا أُشْرِبَ وَجْهَهُ قَبِيعَ الْحِنَاءِ؛ قَدْ رَمَى الْحَرْبَ وَرَضَعَهَا، وَغَذَّتْهُ وَالْفَهَاءُ؛ فَهِيَ أُمُّهُ وَهُوَ أَبْنَاهُ، يَسْكُنُ إِلَيْهَا وَيَأْتِسُ بِقُرْبِهَا؛ فَهُوَ بَطْلُهَا أَرَبٌ، وَعَلَى أَهْلِهَا حَرْبٌ لَا يَرُوعُهُ مَا يَرُوعُ، وَلَا يَزِيغُهُ مَا يَزِيغُ الْغُمَرُ الْجَبَانَ؛ حِينَ يَسْتَدُّ الْوَعْيُ، وَتَخْطُرُ الْقَنَاءُ وَتُقْلَصُ الشِّفَاءُ، وَتُسْفَرُ الْكُجَاهُ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ تُسَالِمُكَ الْمُرْدُ، وَتُكْشَفُ عَنِ الْجُرْدِ. فَتَاهَبُ لَذَلِكَ أَهْبَتَكَ، وَأَخْطُبُ لَهُ خِطْبَتَكَ، مِنَ الْمَسَاكِينِ وَالْحَوَاكِي؛ ثُمَّ كِيدُونِي جَمِيعًا فَلَا تُتَظَرُّونَ؛ فَمَا أَسْرَنًا إِكْثَارُكَ الْجَمُوعِ، وَحَشْدُكَ الْخِيُولِ؛ فَإِنَّكَ لَا تُكْتَفَى جَمْعًا، وَلَا تُسَرَّبُ خِيَلًا؛ إِلَّا وَثَقْنَا بِأَنْ سَمِدْنَا اللَّهَ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، وَيزِيدُنَا مِنْ نَصْرِهِ؛ بِمَا قَدْ جَرَتْ بِهِ سُنَّتُهُ، وَسَلَفَتْ بِهِ عَادَتُهُ؛ وَنَحْنُ نَجْرَى مِنْ ذَلِكَ عَلَى نَقَمَاتٍ مِنَ اللَّهِ وَنَكَالٍ وَسَطَوَاتٍ مُهْلِكَةٍ؛ فَرَأَيْتُمْ ذَلِكَ فِي الْمَنَازِلِ، وَعَرَفْتُمُوهُ فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي يَجْمَعُهَا الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ؛ فَأَبَشِّرْنَا بِمَا سَاءَ صَبْرًا، وَمَشَّاكَ تُقَادُ كَمَا يُقَادُ الْجَمَلُ الْمَخْشُوشُ.



وَمِنْ أَحْسَنِ الْكُتُبِ الْمَكْتُبَةِ فِي هَذَا الْبَابِ مَا كَتَبَ بِهِ قِيَامُ الدِّينِ (يُحْيَى بْنُ زِيَادَةَ) وَزَيْرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ النَّاصِرِ لِدِينِ اللَّهِ الْخَلِيفَةِ بَغْدَادَ إِلَى (طُغْرُل) مُقَطَّعِ الْبَصَرَةِ بِأَمْرِ الْخَلِيفَةِ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ نَزَحَ عَنْهَا، قَاصِدًا بَعْضَ الْأَطْرَافِ، مُفَارِقًا لِعَاطَةِ الْخَلِيفَةِ، عِنْدَ مَا طُلِبَ مِنْ دِيَوَانِهِ شَيْءٌ مِنَ الْمَالِ، فَأَوْجِبَ ذَلِكَ أَتْنَاءَهُ عَنْ عَزْمِهِ وَتَوَجُّهَهُ إِلَى بَغْدَادَ دَاخِلًا تَحْتَ الطَّاعَةِ، وَمُقَابِلَتَهُ بِالصَّفْحِ وَتَلْقِيهِ بِالْقَبُولِ. وَهَذِهِ نَسِخَتُهُ:

أَصْدَرْتُ هَذِهِ الْخِدْمَةَ إِلَى الْجَنَابِ الْكَرِيمِ، الْأَمِيرِيِّ، الْأَسْفَهْ سَلَارِيِّ، الْأَجَلِيِّ، الْكَبِيرِيِّ، السَّيِّدِيِّ، الْعِمَادِيِّ، الرَّكْنِيِّ، الظَّهِيرِيِّ، الْمُحْتَرَمِيِّ، الْعَزِيِّ، الْجَمَالِيِّ، أَمِيرِ الْجُيُوشِ؛ أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ، وَأَدَامَ عُلُوَّهُ وَنِعْمَتَهُ؛ وَأَنَا أَوْقَعَ الْأَقْوَالِ الْمُتَوَاتِرَةِ،

والأموال المتناصرة، مُسْتَغْرَبًا لَهَا، مُتَعَجِّبًا مِنْهَا، كَأَنِّي أَسْمَعُهَا فِي الْمَنَامِ، وَتَخَاطَبُنِي بِهَا أَصْغَاتُ أَحْلَامٍ؛ فَلَوْلَا أَنَّ الْأَيَّامَ صَحَائِفُ الْعَجَائِبِ، وَلَا يَأْنِسُ بِمُتَجَدِّدَاتِهَا إِلَّا مَنْ حَنَّكَهُ التَّجَارِبُ؛ لَمْ أَصَدِّقْ هَذِهِ الْحَرَكَةَ الْمُبَارَكَةَ الَّتِي وَقَعَتْ مِنْهُ بِسَعَادَتِهِ؛ فَإِنِّي مَا أَرَاهَا إِلَّا عَثْرَةً مِنْ جَوَادٍ، وَعَوْرَةً عَلَى كَمَالِهِ؛ وَإِلَّا فَمَنْ أَيْنَ يَدْخُلُ الزَّلْزَلُ عَلَى ذَلِكَ الرَّأْيِ السَّيِّدِ، وَالْعَقْلِ الرَّاجِحِ، وَالْفِكْرِ الصَّائِبِ؟ الَّذِي يُعَلِّمُ الْآرَاءَ كَيْفَ تُتِيرُ، وَيُعَرِّفُ النُّجُومَ كَيْفَ تُسِيرُ، وَيَهْدِي غَيْرَهُ فِي الْمُسْكَلَاتِ إِلَى صَوَابِ التَّنْذِيرِ. وَالْقَائِلُ لَا كَلَامَ فِيهِ، غَيْرَ أَنَّ الْعَقْلَ يَقْضِي بِأَسْتِدْرَاكِ الْمُمْكِنِ وَتَلَاْفِيهِ؛ بِالْانْحِرَافِ عَنِ الْهَوَى إِلَى الرَّأْيِ الصَّادِقِ، وَالرُّجُوعِ عَنِ تَأْوِيلِ النَّفْسِ إِلَى مَرَاجَعَةِ الْفِكْرِ النَّاصِحِ؛ فَالْعَوْدُ إِلَى الْحَقِّ أَوَّلَى مِنَ التَّمَادَى عَلَى الْبَاطِلِ، وَأَحَبُّ أَنْ تَسْمَعَ مَا أَقُولُ بِأَذْنٍ وَاعِيَةٍ وَقَلْبٍ حَاضِرٍ؛ وَخَوْشَى أَنْ تَسْتَدْفِعَهُ الْكُوَاذِبُ عَنْ تَدَبُّرِ الْحَقَائِقِ، وَعِرْفَانِ النَّصَائِحِ؛ فَإِنَّ مِنَ الْقَوْلِ مَا بُرْهَانُهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَاهِدٍ مِنْ غَيْرِهِ .

قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ: مَا الَّذِي أَحْوجَ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ الْقَبِيحَةِ السُّمْعَةِ، وَرُكُوبِ الْخَطَرِ فِي هَذِهِ الْحَرَكَةِ، وَأَحْتِمَالِ هَذِهِ الْمَشَاقِّ، وَالْانْزِعَاجِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَدْعُو إِلَيْهِ حَاجَةٌ؟ هَلْ هُوَ إِلَّا شَيْءٌ جَرَتْ الْعَادَةُ بِمِثْلِهِ، وَبِمَطَالَبَةِ دِيْوَانِهِ بِمَا كَانَ يَنْدَفِعُ الْأَمْرَ بِبَعْضِهِ؟ كَمَا جَرَتْ عَادَةُ الدَّوَاوِينِ، وَخِدْمُ السُّلَاطِينِ؛ ثُمَّ إِنَّهُ عَمْدٌ - أَدَامَ اللَّهُ نِعْمَتَهُ - بِأَوَّلِ خَاطِرِهِ، وَبَادئِ رَأْيِهِ فِي هَذِهِ الْعَجَلَةِ، مِنْ غَيْرِ تَثَبُّتٍ وَلَا رَوِيَّةٍ . لَمْ لَا رَاجِعَ فِكْرُهُ الْكَرِيمَ، وَيَقُولُ لِنَفْسِهِ: إِلَى أَيْنَ أَمْضِي؟ وَلِمَنْ أَخْدُمُ؟ وَعَلَى أَىِّ بَابٍ أَقِفُ؟ وَتَحْتَ أَىِّ لَوَاءٍ أَسِيرُ؟ وَبِأَىِّ غُبَارٍ أَكْتَحِلُ؟ وَفَضْلٌ مَنْ أَطْلُبُ؟ وَعَلَى حُكْمٍ مَنْ أُنْزِلُ؟ بَعْدَ أَنْ رُبِّيتُ فِي عَرَصَةِ الْخِلَافَةِ، وَدَارِ النُّبُوَّةِ، وَحِضْنِ الْمَمْلَكَةِ؛ أَتَشَاءُنِي نَعِيمُهَا صَغِيرًا، وَقَدَمْنِي كَبِيرًا؛ وَكُنْتُ مَأْمُورًا بِجَعْلِنِي أَمِيرًا، وَطَارَ صَبْتِي فِي الدُّنْيَا وَلَمْ أَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا؛ فَأَنَا خَيْرٌ مِنْ مَلِكٍ أَقْصَدُهُ، وَأَمْثَلُ مِنْ كُلِّ

مَنْ أَرْجُوهُ وَأَسْتَجِدُّهُ؛ أَفَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْحَضِيضِ، وَأَهْدِمُ مَا بَنَى الْإِنْعَامُ عِنْدِي فِي الزَّمَنِ الطَّوِيلِ الْعَرِيضِ؟ ! هَذَا هُوَ الْمَكْرُوهُ الْأَعْظَمُ، الَّذِي تَعَوَّذُ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حِينَ قَالَ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخَوَرِ بَعْدَ الْكُورِ" وَمَنْ يَكُونُ حَضِيضَ خِلَافَةٍ كَيْفَ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ تَابِعَ إِمَارَةٍ؟ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَا هِجَمَ عَلَيْهِ إِلَّا هَذَا لَكَفَى. ثُمَّ لَمْ يَلْتَفِتْ فِي هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا، الَّتِي صَحِبَتْهُ بَوَاقِهَا، وَيَسْمَعُ خُطَابَهَا بِلِسَانِ حَالِهَا تَمَّ؟ تَقُولُ لَهُ: يَا عِمَادَ الدِّينِ! أَمَّا هَذِهِ خِيَامُ الْإِنْعَامِ عَلَيْكَ؟ أَمَّا هَذِهِ الْخَيْلُ الْمُسَوَّمَةُ تَحْتَكَ؟ أَمَّا هَذِهِ مَلَابِسُهُ الْفَاخِرَةُ مُقَاضَةً عَلَيْكَ؟ أَمَّا هَذِهِ مَمَالِكُهُ حَافَّةٌ بِكَ؟ أَلَيْسَ الْأَصْطِنَاعُ رَفَعَ قَدْرَكَ إِلَى الْمَتَرَةِ الَّتِي ثَقُلَ عَلَيْكَ بَعْضُ الْأَنْحِطَاطِ عَنْهَا، وَوَهَبَ لَكَ الْهِمَّةَ الَّتِي أَبَيْتَ الضَّيْمَ بِهَا؟ فُخْشِيتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ تَوَاتَرَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ فَلَهَا، وَتَكَاثَرَتْ عَلَيْهِ فَضَعُفَ عَنْ حَمْلِهَا؛ فَيَا لَيْتَ شَعَرَى! مَاذَا يَكُونُ جَوَابُهَا؟ وَاللَّهِ إِنِّي أَقُولُ لَهُ بِسَعَادَتِهِ وَلَا أَعْقُبُ: وَلَوْ أَنَّهُ قَدْ تَحَقَّقَ - وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ - وَقُوعُ كُلِّ مَحْذُورٍ، وَحُلُولُ كُلِّ مَكْرُوهٍ؛ لَمْ يَكُنْ فِي هَذِهِ الْحَرَكَةِ مَعْدُورًا، فَكَيْفَ بظَنِّ مُرَجِّمٍ، وَقَوْلِ مُسَوِّفٍ مُتَوَهِّمٍ؛ وَرَأْيِ فَطِيرٍ غَيْرِ مُخْتَمِرٍ. وَلَقَدْ كَانَ أَسْتَسْلِمُهُ لِمَالِكِ الرُّقِّ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ - أَحْسَنَ فِي الدُّنْيَا وَأَحْمَدَ فِي الْعُقْبَى؛ وَاقِعًا ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِهِ حَيْثُ وَقَعَ. وَالْآنَ فَالْوَقْتُ ضَاقَ فِي إِصْدَارِ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةِ، عَنْ اسْتِثْقَاءِ الْعِتَابِ وَالْمُحَاقَقَةِ؛ وَإِيرَادِ كُلِّ مَا تَلَزَمَ بِهِ الْحُجَّةُ، لِكَيْتِي أَقُولَ عَلَى سَبِيلِ الْجُمْلَةِ:

إِنِّي أَخَافُ عَلَى سَدِيدِ ذَلِكَ الرَّأْيِ إِجَابَةَ دَاعِي الْهَوَى، فَإِنَّ الْجَبَّاحَ مِنْ أَوْسَعِ مَدَاخِلِ الشَّيْطَانِ عَلَى الْإِنْسَانِ، وَخَوْشَى كَمَالِهِ مِنْ هَذَا الْقِسْمِ.

وَالشَّانِي أَسْتَشْعَارُهُ بِسَعَادَتِهِ مِنْ بَادِرَتِهِ، وَأَسْتِيحَاشُهُ مِنْ تَجَلَّتِهِ؛ وَهَذَا أَيْضًا مِنْ أَدَقِّ مَكَائِدِ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، فَإِنَّهَا تَوْمَنُ مِنَ الْخَوْفِ، وَتُخَوِّفُ مِنَ الْمَأْمُونِ،

وَتَسْحَرُ الْعَقْلَ بِالتَّحْيِيرِ وَالشَّكِّ ، فَلَا تَصِحُّ لَهُ عَزِيمَةٌ ، وَلَا تَصْفُو لَهُ فِكْرُهُ ؛ وَهَذَا التَّوَعُّ إِذَا عَرَّضَ فِي الصَّدْرِ يَجِبُ دَفْعُهُ بِالنَّظَرِ إِلَى الْحَقِّ وَشِجَاعَةِ الْقَلْبِ ، وَالْإِخْلَادِ إِلَى مُنَاطَرَةِ النَّفْسِ ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ بِمَعْصُومٍ ، وَالزَّلَلُ فِي الرَّأْيِ لَيْسَ مِنْ أَوْصَافِ الْجَمَادِ ، بَلْ مِنَ الْأَوْصَافِ الْأَلَزِمَةِ لِلْبَشَرِيَّةِ ؛ وَلَيْسَ الْكَمَالُ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْوَاحِدِ الصَّمَدِ .

فَإِذَا عَرَّضَ لَهُ بِسَعَادَتِهِ هَذَا الْاِسْتِشْعَارَ ، فَيَدْفَعُهُ عَنْ نَفْسِهِ ؛ فَلَيْسَ سُلْطَانُ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ، إِلَّا فِي صَدُورِ النَّاسِ ؛ فَلِهَذَا لَا يَنْبَغِي لِمُذْنِبٍ أَنْ يَقْنَطَ ، وَلَا لِمُسِيءٍ أَنْ يَسْتَوْحِشَ ؛ لِاسْتِمْحَاةٍ إِذَا أَتَبَعَ الذَّنْبَ بِالِاسْتِقَالَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ ، وَالْاِعْتِذَارِ وَالِاقْلَاعِ ؛ وَعَلَى الْخُصُوصِ إِذَا كَانَتْ الْخِيَانَةُ عِنْدَ مَنْ لَا يَتَعَاطَمُهُ عَفْوَهَا ، وَلَا يَضِيقُ حِلْمُهُ عَمَّا ؛ فَإِنْ كُلُّ كَبِيرَةٍ تُوجِبُ الْخِيفَةَ ، تَغْرُقُ فِي بَحْرِ عَفْوِ الْخِلَافَةِ ؛ فَيَجِبُ أَنْ يُقَرَّرَ بِسَعَادَتِهِ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ ، وَيُخْرَجَ سَوْءُ الظَّنِّ وَالِاسْتِشْعَارُ مِنْ خِيَالِهِ ؛ فَإِنْ مِثْلُهُ مِنْ خُلَصَانِ الْمَالِكِ لَا يُسَمَحُ بِهِ ، وَلَا يُسَغَّبُ عَلَيْهِ عِنْدَ هَفْوَةٍ بَادِرَةٍ .

وَالثَّالِثُ الْاِقْتِبَاضُ وَالْحَيَاءُ . فَانَّهُ رُبَّمَا يَقُولُ فِي نَفْسِهِ : بَأَى وَجْهِ أَلْقَى مَوْلَايَ ؟ وَبَأَى عَيْنٍ أَبْصَرَ مَوَاطِنَ الدَّارِ الْعَزِيزَةِ ؟ رَبَّائِي وَأَنْشَانِي ! . وَهَذَا أَيْضًا لَا يَصْلُحُ خُطُورُهُ بِيَالِهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ ، فَإِنَّهُ مِنْ ضَعْفِ النَّحِيزَةِ ، وَالْمِيلِ مَعَ خَوَادِجِ الطَّبَعِ ، عَنْ نَصَائِحِ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ ؛ فَإِنَّ الْحَيَاءَ إِتْبَاعُ زَلَّةِ الْقَدَمِ بِالنَّدَمِ وَالْاِعْتِذَارِ ، لَا التَّهَوُّكُ فِي اللَّجَاجِ وَالِإِصْرَارِ . فَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمُلُوكِ لِحَصِيصٍ مِنْ خَوَاصِّهِ ، عَصَاهُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ :

«بَأَى عَيْنٍ تَلْقَانِي وَقَدْ عَصَيْتَ أَمْرِي ؟» فَقَالَ : «بِالْعَيْنِ الَّتِي أَلْقَى بِهَا رَبِّي فِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ يَرَانِي عَلَى فَوَاضِحِ الْمَعَاصِي» . وَقَدْ أَثْنَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى مَنْ أَذْنَبَ ثُمَّ تَابَ ، وَشَرَّدَ عَنْ طَاعَتِهِ ثُمَّ أَتَابَ . وَبِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى مَا جَرَى مَا يَقْتَضِي قَرْطَ الْاِسْتِشْعَارِ . هَلْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ خَافَ بَادِرَةَ مَوْلَاهُ ، فَتَنَحَّى مِنْ مَكَانِهِ إِلَى أَنْ يَعْطَفَ

عليه برحمته؟ وليس هذا ببدیع، ولا من الصَّفح ببعید. على أنه بسعادته لو أنصف من نفسه لما استشعر. فكم أخرجت الخزائن الشريفة عليه من الأموال حتى نبت عرقه، وأورق غصنه، وكبر شأنه، وجميع ضمان البصرة عشر معشار ذلك.

والرابع إصغاؤه - والعياذ بالله - إلى قول من لا ينصح، ويغويه ولا يرشده؛ ويتقرب إليه بمتابعة هواه. وهذا ما لا يخفى عن لمحة الناظر، ولا يحتاج في الإعراض عنه إلى باعث؛ فقدما قيل: «صديقك من نهاك، وعدوك من أغراك» والله تعالى يوفقه لتحقيقه النظر في هذه الأقسام الأربعة، التي أحذرنا عليه، وأحذرنا منها؛ ويسره لليسر.

وبعد ذلك فإنا أنصفه من نفسه، وأقول الحق: إن نفساً ربها خليفة الله في أرضه - صلوات الله عليه وسلامه - بإنعامه، وأعلى همماً باختصاصه، وشرفها بنسب عبوديته؛ لا تحمل الهوان، ولا تقر على الابتدال؛ فغالب ظني أن نفوره بسعادته إنما هو من ديوان الزمام المعمور. والآن فإنا وهو بسعادته عبدان، ولكني أنفرد عنه بالسِّن والتجريب؛ وطريقي هو بسعادته يعرفها، وإنني لأدحر عن أحد نصحا. فالصواب أن يقبل قولي، ويتحقق صحة مقصدي في نصيحته ومقصده، فإني أوجب ذلك له على نفسه، وأراه من واجبات خدام مالك الرقي - صلوات الله عليه وسلامه - أيضا.

وقد علم الله تعالى أني قد أوصحت من عذره، وأحسن المتأب عنه بسعادته، ماله حظه وتولاه بنفسه لما زاد عليه؛ ورأيت الإنعام يستغني عن كل شرط ولا يحتاج إليه، وتقررت قاعدته بسعادته أن لا يكون له مع ديوان الزمام المعمور حديث، ولا مع غيره ممن لا يعرف حقه، ولا يوفيه من الاحترام وأجبه؛ فإن أمر

أَنْ أَتَوَلَّى وَسَاطَتَهُ فَأَنَا أَعْتَمِدُ ذَلِكَ فِي مَرَاضِيهِ ، وَتَعَشِيَةِ أَمْرِهِ أَكْثَرِمًا فِي نَفْسِهِ .
وإن أختار بسعادته أَنْ يَكُونَ غَيْرِي وَسِيطُهُ وَسَفِيرِهِ ، فَيُعِينُ مَنْ يَخْتَارُهُ : لِيَكُونَ
حديثه معه . وقد أَسْلَفْتُ مِنْ وَظَائِفِ إِحْسَانِ الْمَنَابِ أَنْتَى تَنْجِزْتُ لَهُ بِسَعَادَتِهِ أَمَانًا
مُتَوَجِّيًا بِالْقَلَمِ الْأَشْرَفِ الْمُقَدَّسِ ، عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ وَمَالِهِ وَأَوْلَادِهِ - وَالْأَمَانِ الْمَذْكُورِ
طَى كِتَابِي هَذَا - مَقْرُونًا بِخَاتَمِ أَمَانٍ ثَانٍ ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ هُوَ بِسَعَادَتِهِ جَوَابَ
ذَلِكَ . إِنْ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْجَوَابُ إِلَّا هُوَ بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ ، فَلَا يَشْعُرُ بِهِ أَحَدٌ
إِلَّا وَهُوَ مُقَابِلُ التَّاجِ الشَّرِيفِ ، مُلْقِيًا نَفْسَهُ بَيْنَ يَدَيِ مَالِكِهَا الَّذِي هُوَ أَرْحَمُ لَهَا ،
وَأَلْطَفُ بِهَا ، وَأَشْفَقُ عَلَيْهَا مِنْهَا ، تَالِيًا مَا حَكَاهُ الْقُرْآنُ الْحَمِيدُ عَنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ،
إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ : (سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) فَإِنَّهُ يَرَى -
بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ - كُلَّ مَا يُحِبُّ ، وَيَأْمَنُ كُلَّ مَا يَحْذَرُ . وَأَنَا أَسْتَسْرِعُ وَصُولَهُ
عَنْ أَسْتِعْرَاضِ مُهِمَّاتِهِ ، وَلِرَأْيِهِ كَرَمِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قلت : فَإِنْ آتَفَقَتِ الْمَكَاتِبَةُ فِي مَعْنَى ذَلِكَ فِي زَمَانِنَا ، رَاعَى الْكَاتِبُ فِيهِ صُورَةَ
الْحَالِ ، وَجَرَى فِي ذَلِكَ عَلَى مَا يَلَاقِي حَالَهُ ، وَيُنَاسِبُ مَا هُوَ فِيهِ ، مَعَ النَّظَرِ فِي كَلَامِ
مَنْ سَبَقَهُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَالنَّسْجَ عَلَى مَنَوَالِ الْحَمِيدِ ، وَالْإِقْدَاءَ بِالْمُحْسِنِ فِي إِيرَادِهِ
وإِصْدَارِهِ .

الصَّنْفُ السَّابِعُ

(الْكُتُبُ فِي الْفُتُوحَاتِ وَالظَّفَرِ بِأَعْدَاءِ الدَّوْلَةِ وَأَعْدَاءِ الْمِلَّةِ ،

وَأَسْتِرْجَاعِ الْمَعَاقِلِ وَالْحُصُونِ ، وَالْإِسْتِيلَاءِ عَلَى الْمُدُنِ)

وَأَصْلُهَا مِنْ فَتْحِ الْأَقْفَالِ وَدُخُولِ الْأَبْوَابِ . كَأَنَّ الْمَدِينَةَ أَوْ الْحِصْنَ كَانَ مُقْفَلًا

مُتَمَتِّعًا بِالْأَغْلَاقِ عَلَى قَاصِدِهِ حَتَّى يُفْتَحَ لَهُ فَيَدْخُلُ .

قال في "موادّ البيان" : وهو من أعظم المكتابات خطراً ، وأجلّها قدراً ؛ لا شتماً أغراضها على إنجاز وعدّ الله تعالى الذي وعدّ به أهل الطاعة في إظهار دينهم على كل دين ، وتوفير حظّهم من التأييد والتّمين ، وما يترّ فيها من الأساليب المختلفة التي يشتمل هذا القانون عليها .

قال : والكاتب يحتاج إلى تصريف فكره فيها ، وتهذيب معانيها : لأنها تُثلى من فوق المنابر على أسماع السامعين ، وتُجعل نصبَ عيون المتصفّحين .

ثم قال : والرسم فيها أن تفتح بحمد الله العفوّ الحليم ، العفّور الرحيم ، العليم الحكيم ، ذى البرهان المبین والفضل الحسيم ، والقوّة المتين والعقاب الأليم ؛ مُبيد الظالمين ، ومُبرِّ القاسطين ؛ ومؤيّد العادلين ، وجاعل العاقبة للمتقين ؛ المُلِي إِمهالاً وإنذاراً ، والمُعاقب تنبيهاً وإذكاراً ؛ الذي لا يُنجي منه مهربٌ ، ولا يبعد عليه مَطْلَبٌ ؛ وكيف يُعْتَصَم منه وهو أقرب من جبل الوريد ، وله على كل لا فِظ رقيب وعِتيد ؟ . والصلاة على رسوله الأمين ، الذي ختم به النبيّين ؛ وفضله على المرسلين ، وأيده بأوليائه الثّائنين ؛ الذين قاموا في نُصرته ، وإعزاز رأيتِه ؛ المقام الذي فازوا فيه بالخصْل ، فاستولوا به على قصبّات الفضل ؛ فشرّكهم معه في الوصف والثناء ، فقال جلّ قائلًا : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ .

ثم يؤتى بمقدمة تشتمل على التحدّث بنعمة الله في شحذ العزائم لنُصرته ، وتثبيت الأقدام في لقاء عدوّه ومجاهدته ؛ وإنجازه وعده في الإعزاز والإظهار ، والظفر والإظفار ؛ والاستنبشار بموقع النّعمة في الفتح الحليل ، والإشادة بإبقاء هذا الأثر الجميل . ثم يفيض بما جرت العادة به في مقاربة العدو ومُدائاته ، وبثّ الطلائع لتنفيذ السّرايا في مبادى ملاقاته ؛ وما أفضى إليه الأمر في التقابل

والمؤاتبة ، والتواشج في المطاعنة والمضاربة ؛ وذكر مواقف الشجعان في الكفاح والمجاهدة ، والذنب والمجالد ، وثبوت الأقدام ، والجود بالنفوس ، وأشداد الأيدي ؛ وقوة الشكائم ، واستصحاب العزائم ؛ وتفخيم أمر العدو : بوصفه بكثرة الرجال والأجناد ، والقوة والاستعداد : لأن توقع الظفر بمن هذه صفته أعظم خطراً ، وأوقع في النفوس أثراً .

ثم يذكر ما جال بين الفريقين من قراع ومصاع ، ومضاربة ودفاع ، ومصالاة ومناضلة ، ومناهدة ومكافأة ، وحماية ومناخة ، وثبات ومصافقة ، ومقاومة ومواقفة ، ومخادعة ومطامعة ؛ وينعت المواكب والكائب ، والخيول والأسلحة ؛ والجرحى والمجذلين ، والأسرى والمقتلين . واستعمال التشبيهات الفائقة ، والاستعارات الرائقة ؛ وإرداف المعاني في الإبانة عن لمعان أسنة الذوابل ، وبريق صفحات المناصيل ؛ وإعمال المقاصيل في القيم ، وظهور نجوم السيوف من ليل الحرب في دياجي الظلم ؛ وينعت الدماء المنبعثة من الجراح ، على متون الرماح والصفاح .

ويذكر ما أظهره الله تعالى : من تكامل النصر ودلائل الظفر ، وما أنجلت عنه الحرب : من قتل من قتل وأسير من أسير ، وهزيمة من هزم ؛ وما فاز به الرجال من الأسلاب والأموال ، والدواب والرجال ؛ وما جرت عليه الحال من أنفال العدو عند المقاتلة ، أو أسير العدو إن أسير ، أو اعتصامه بمقيل لا يمحضنه ، أو امتناعه بحيث يحتاج إلى منازلته باستنزاله قسراً ؛ أو حيازة المعقل الذي كان بيده ، وما اعتمد فيه : من حسن السيرة ، وتخفيف الوطأة عن الرعية وحسم أسباب الفتنة ؛ أو رغبته في المسأله ، وسؤاله في المهادنه ؛ لخوف أظله ، وهلع أحته ؛ وما تردد من رسائل ، وتقرر من شروط وعقود ؛ وإنفاذ الأمر في ذلك كما أوجبه الحزم ، واقتضاه صواب الرأي .

وإن كان السلم قد وقع ، والتنازع قد ارتفع ؛ ذكر اتفاق الحزبين ^(١) ، واتحاد الكلمة ، وشمول النعمة .

وإن كان لم يجبه إلى المهادنة ، حذرًا من المكر والمخادعة ، ذكر ما مر في ذلك من رأي وتدير ، وتسديد وتقرير .

وإن كان طلب المهادنة ليجد فسحة المهل فيكثر عدده ، ويجم عده ، ويتم حيلته ؛ فأطلع منه على ذلك ، فبادره مغللاً لكيده ومكره ، مديقاً له وبأل أمره ؛ شرح الحال على نصها وما أتتهى إليه آخرها .

قال : وقد يقع من هذه الأمور مالا يُحتسب ، وسبيل جميعه هذا السبيل .

ثم قال : ويُنحتم الكتابُ بحمد الله القاضى لأوليائه بالإداله ، ولأعدائه بالإذاله ؛ الذى يستدرج بحيله إمهالاً ؛ ولا يلقى العادل عن حكمه إمهالاً ؛ والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله .

وقد تقدم فى الكلام على مقدمة المكاتبات فى أوائل المقالة الرابعة من الكتاب ، أن هذه الكتب مما يجب بسطها والإطناب فيها ؛ وأن ما وقع فى كتاب المهلب ابن أبى صفرة ، من كتابه إلى الحجاج فى فتح الأزارقة من الخوارج ، على عظم الفتح وبعد صيته ، على سبيل الإيجاز والاختصار ، حيث قال فيه :

أما بعد ، فالحمد لله الذى لا تنقطع مواد نعمة عن خلقه حتى تنقطع منهم مواد الشكر . وإنا وعدونا نكاً على حال يسرنا منهم أكثر مما يسوئنا ؛ ويسوئهم منا أكثر مما يسرهم ؛ ولم يزل الله جل ثناؤه يزيدنا وينقصهم ، ويعزنا ويذلهم ، ويؤيدنا ويخذلهم ، ويخصنا ويحققهم ؛ حتى بلغ الكتاب أجله . ﴿ قَطَعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ

(١) فى الاصل "آساع الحربين" وهو غير مناسب .

ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ فَإِنَّمَا سَلَكَ فِيهِ سَبِيلَ الْإِنجَازِ، لَكُونَهُ مِنَ التَّابِعِ إِلَى الْمَتَّبِعِ ؛ إِذِ الْحَجَّاجُ كَانَ هُوَ الْقَائِمَ بِأَمْرِ الْعِرَاقِ وَمَا وَالَاهُ الْعَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، عَلَى شِدَّةِ سَطَوْتِهِ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قُوَّةِ الشَّكِيمَةِ وَشِدَّةِ الْبَأْسِ ؛ مَعَ كَوْنِ الْأَدَبِ فِي مَكَاتِبَةِ الْمَرْعُوسِ الرَّئِيسِ الْإِثْنَانَ بِقَلِيلِ اللَّفْظِ الدَّالِّ عَلَى الْمَقْصِدِ ؛ حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ شَغْلٌ لِلرَّئِيسِ بِطُولِ الْكَلَامِ وَبَسْطِ الْقَوْلِ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي مَوْضِعِهِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْكَتَابَةَ فِي فَتُوحَاتِ بِلَادِ الْكُفْرِ وَمَعَاقِلِهِمْ وَالْأَسْتِيلَاءِ عَلَى بِلَادِ الْبَغَاةِ تَكَادُ أَنْ تَكُونَ فِي الْكَتَابَةِ عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ ؛ إِلَّا أَنَّ مَجَالَ الْكَاتِبِ فِي فَتُوحَاتِ بِلَادِ الْكُفْرِ أَوْسَعُ، مِنْ حَيْثُ عِزَّةُ الْإِسْلَامِ عَلَى الْكُفْرِ، وَظُهُورُ دِينِهِ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ .

وهذه نسخة كتاب بفتح فتحه الخليفة وعاد منه ، وهي :

الحمد لله مُدِيلِ الْحَقِّ وَمُنِيرِهِ ، وَمُذِلِّ الْبَاطِلِ وَمُبِيرِهِ ؛ مُؤَيِّدِ الْإِسْلَامِ بِيَاهِرِ الْإِنجَازِ، وَمَتِّمِ وَعْدِهِ فِي الْإِظْهَارِ بَوَشِيكَ الْإِنجَازِ ؛ وَأَتَمِّدُ كُلَّ دِينٍ وَأَعْلَاهُ ، وَرَفُضَ كُلِّ شَرٍّ وَأَجْتَنَبَاهُ ؛ وَجَعَلَهُ نُورَهُ الْأَلَامِ ، وَظَلَّهُ الْمَاتِعِ ؛ وَأَبْتَعَتْ بِهِ السَّرَاجَ الْمُتِيرِ، وَالْبَشِيرَ النَّذِيرِ ؛ فَأَوْضَعَ مَنَاهِجَهُ ، وَبَيَّنَّ مَدَارِجَهُ ؛ وَأَنَارَ أَعْلَامَهُ ، وَفَصَّلَ أَحْكَامَهُ ؛ وَسَنَّ حَلَالَهُ وَحَرَامَهُ ، وَبَيَّنَّ خَاصَّهُ وَعَامَّهُ ؛ وَدَعَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ، وَحَصَّ عَلَى التَّمَسُّكِ بِعَصَمِ دِينِهِ ؛ وَتَمَرَّ فِي نَصْرِهِ مُجَاهِدًا مَنْ نَدَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَعِنْدَ عَنْ دَلِيلِهِ ؛ حَتَّى قَصَّدَ الْأَنْصَابَ وَالْأَصْنَامَ ، وَأَبْطَلَ الْمَيْسِرَ وَالْأَزْلَامَ ؛ وَكَشَفَ غِيَابَاتِ الْإِظْلَامِ ، وَأَنْتَعَلَتْ خَيْلُ اللَّهِ بِقَبَائِلِ الْهَامِ (٣) .

(١) لعله زائد من قلم الناسخ .

(٢) يؤيد ماورد هنا التصحيح الذي أوردهناه بهامش (١) من (ج ٦ ص ٤٤٠) من هذا المطبوع فليراجع هناك .

(٣) يؤيد ماورد هنا أيضا التصحيح الذي أوردهناه بهامش (٢) من (ج ٦ ص ٤٤٠) .

يحمده أمير المؤمنين أن [جعله من ولاية أمره ، ووقفه لاتباع سنة رسوله وأقتفاء أثره ، وأعانه على تمكين الدين ، وتوهمين المشركين ، وشفاء صدور المؤمنين و] ^(١) أنهضه بالمرامة عن الملة ، والمجامة عن الحوزة ، وإعزاز أهل الإيمان ، وإذلال حزب الكفران ؛ ويسأله الصلاة على خيرته أئجيبي ؛ وصفوته المتصفي ؛ مجد أفضل من ذب وكافح ، وجاهد وناخ ؛ وحى الذمار ؛ وغزا الكفار ؛ صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سيفه القاطع ، ومجته المدافع ؛ وسهمه الصارد ، وناصره المعاضد ؛ فارس الوقائع ، ومفرق الجمائع ؛ ^(٢) مبيد الأقران ، ومبيد الشجعان ؛ وعلى الطهرة من عترته أئمة الأزمان ، وخالصة الله من الإنس والجان .

وإن أولى النعم بأن يرقل في لباسها ، ويتوصل بالشكر إلى إيناسها ؛ ^(٣) ويتهادى طيب خبرها ، ويتفاوض بحسن أثرها ؛ نعمة الله تعالى في التوفيق لمجاهدة أهل الإلحاد والشرك ، وغزو أولى الباطل والافك ؛ والهجوم عليهم في عقردارهم ، واجتثاث أصلهم والحد في دمارهم ؛ واستزالهم من معاقلهم ، وتشريدهم عن منازلهم ؛ وتعميض نواظرهم الشوس [وإلباسهم لباس البوس] لما في ذلك من ظهور التوحيد وعززه ، ومحمود الإلحاد وعمره ؛ ^(٤) وعلو ملة المسلمين ، وانخفاض دولة المشركين ؛ ووضوح [محجة] الحق ومجته ، وصدوع برهانه وآيته .

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك وقد أنكفا عن ديار الفلانيين المشركين إلى دسيت خلافته ، ومقر إمامته ؛ بعد أن غزاهم برا وبحرا ، وشردهم سهلا ووعرا ، وجرعهم

(١) الزيادة عما تقدم (ج ٦ ص ٤٤٠) .

(٢) ورد بدل هذه الكلمة في (ج ٦ ص ٤٤١) "معبوس" وقد وضع بجانبها هناك علامة توقف لعدم ظهور معناها .

(٣) كذا هنا ، والذي في (ج ٦ ص ٤٤١) "لباسها" .

(٤) الزيادة عما تقدم في (ج ٦ ص ٤٤١) .

من عواقب كفرهم مُرًّا ؛ وَفَرَّقَ جَمَائِعَهُم الَّتِي تُطَبِّقُ سُهوبَ الْفَضَاءِ [خيلا ورجلا ،
وتضيق بها ألتهامه حزنا وسهلا ، وَمَزَّقَ كَتَائِبَهُم الَّتِي تُلْحِقُ الْوَهَادَ بِالنَّجَادِ ، وَتَخْتِطِفُ
الْأَبْصَارَ بِبَوَارِقِ الْأَغْمَادِ] ^(١) وَتَجْعَلُ رَعُودَ سَنَابِكِهَا فِي السَّمَاءِ ، وَسَبِيَّ الدَّرَارِيِّ
وَالْأَطْفَالِ ، وَأَسْرَ الْبَطَارِيْقِ وَالْأَقْيَالِ ، وَأَفْتَحَ الْمَعَاقِلَ وَالْأَعْمَالِ ، وَحَازَ الْأَسْلَابَ
وَالْأَمْوَالَ ؛ وَأَسْتَوْلَى مِنَ الْحِصُونِ عَلَى حِصْنٍ كَذَا وَحِصْنٍ كَذَا ؛ وَمَحَامِلُهَا رُسُومَ الشَّرِكِ
وَعَقَاهَا ، وَأَثْبَتَ سُنَنَ التَّوْحِيدِ بِهَا وَأَمْضَاهَا ؛ وَغَمَّ أَوْلِيَاءَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمُتَطَوِّعَةَ
المسلمين [من الغنائم] مَا أَقْرَّ الْعَيُونَ ، وَحَقَّقَ الظُّنُونَ ؛ وَأَنْفَصَلُوا وَقَدْ زَادَتْ بَصَائِرُهُمْ
تَفَادًا فِي الدِّينِ ، وَسَرَّائِرُهُمْ إِخْلَاصًا فِي طَاعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ بِمَا أَوْلَاهُمُ اللَّهُ مِنَ النَّصْرِ
وَالْإِظْفَارِ ، وَالْإِعْزَازِ وَالْإِظْهَارِ ؛ وَوَضَعَ لِلشَّرِكِينَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْخِلْدَانِ ،
وَأَنَاهُمْ إِيَّاهُ مِنَ الْهَوَانِ ؛ أَنَّهُمْ عَلَى مِصْلَةٍ مِنَ النَّيِّ وَالْعَمَى ، وَمُنْحَاةٍ مِنَ الرُّشْدِ وَالْهُدَى ؛
فَضَرَعُوا إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي السَّلَامِ وَالْمَوَادَعَةِ ، وَتَجَلَّوْا بِذِلَّةٍ بِذُلُّوهُ ^(٢) [تَفَادِيَا] ^(٣) مِنَ الْكِفَاحِ
وَالْمُقَارَعَةِ ؛ فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ مُتَوَكِّلًا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَمْتِنَالًا لِقَوْلِهِ إِذْ يَقُولُ :
(وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَأَجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) وَعَاقَدَ طَائِعِيَهُمْ
عَلَى كِتَابِ هُدًى كَتَبَهُ لَهُ ، وَأَقْرَأَ فِي يَدِهِ ؛ حُجَّةً بِمَضْمُونِهِ .

أشعرك أمير المؤمنين ذلك : لِنَأْخُذَ مِنْ هَذِهِ النِّعْمَةِ بِنَصِيبٍ مِثْلِكَ مِنَ الْمُخْلِصِينَ ،
وَنَعْرِفَ مَوْقِعَ مَا تَفَضَّلَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ؛ فَيَحْسِنَ ظَنُّكَ ،
وَتَقَرَّ عَيْنُكَ ؛ وَتَشْكُرَ اللَّهَ تَعَالَى شُكْرَ الْمُسْتَمِدِّ مِنْ فَضْلِهِ ، الْمُعْتَدِّ بِطَوْلِهِ ؛ وَتَتْلُوَ كِتَابَ

(١) الزيادة عما تقدم في (ج ٦ ص ٤٤١) .

(٢) في (ج ٦ ص ٤٤٢) من هذا المطبوع ” وَبَعْدَ “ .

(٣) الزيادة عما تقدم في (ج ٦ ص ٤٤٢) .

أمير المؤمنين ، على كَافَّة مَنْ قَبْلَكَ من المسلمين : ليعلموا ما تولاهم الله به من نصره وتمكينه ، وإذلالِ عَدُوِّهم وتَوْهِينِهِ ؛ فأعلم ذلك وأعمل به ، إن شاء الله تعالى .

ثم الفتوح إما فتح لبعض بلاد الكُفَر ، وإما فتح لِمَا استولى عليه البُغَاة من المسلمين .

فأما فَتْح بلاد الكُفَر فكان سبيلهم فيه أن يُصَدَّرَ الكُتَاب بحمد الله تعالى على عُلُوِّ دين الإسلام ورفِيعته ، وإظهاره على كل دين ؛ ثم على بَعْدِ النبي صلى الله عليه وسلم بالهداية إلى الدين القويم ، والصَّراطِ المُسْتَقِيم ؛ ويذكر ما كان من أمره صلى الله عليه وسلم من جِهَادِ الكُفَر . ثم على إقامة الخُلَفَاء في الأرض حِفْظًا للرَّعِيَّة ، وحيَاطة للبرية ، وصَوْنًا للبيضة ؛ ويخصَّ خليفة زمانه من ذلك بما فيه تفضيله ورفعة شأنه ؛ ثم يؤخذ في تعظيم شأن العدو وتهويل أمره ، وكثرة عدده ، ووُفُور مدده ؛ ثم في وصف جيوش المسلمين بالقوة والاستعداد ، والأشدِّاد في الله تعالى ، والقيام في نُصرة دينه ؛ ثم تذكر المَلْحَمَة وما كان من الوقِيعَة والنِّحَام القتال ، وما أُنْجَلَتْ عنه المَلْحَمَة من النُّصرة على عَدُوِّ الدين وخِذلانه ، والإمكان منه ، وقَتْل من قُتِل منهم ، وأسر من أُسِر ، وتفريق شملهم ، وانتظام كلمة الإسلام ، وطَاعَتِهِم بِهَلَاكِ عَدُوِّهم ، وما في معنى ذلك .

وهذه نسخة كتاب كُتِبَ به إلى الديوان العزيز ، أيام الناصر لدين الله ، عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، بفتح القدس الشريف ، وإِنْقَاذِهِ من يد الكُفَر ، في آخر شعبان سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، من إنشاء القاضي الفاضل ، وهو :

أدام الله أيام الديوان العزيز النبوي الناصري، ولا زال مظفر الحد بكّل جاحد،
 غنيّ التوفيق عن رأي كل رائد؛ موقوف المساعي على اقتناء مطلقات المحامد؛
 مستيقظ النصر والسيف في جفنه راقد، وأرد الجود والسحاب على الأرض غير وأرد؛
 متعدّد مساعي الفضل وإن كان لا يلقى إلا بشكر واحد، ماضي [حكم القول] بعزم^(١)
 لا يعضى إلا بنسل غويّ وریش راشد، ولا زالت غيوث فضله [إلى الأولياء]^(٢)
 أنواء إلى المرافق وأنواراً إلى المساجد؛ وبُعوث رعيه إلى الأعداء خيلاً إلى المراقب
 وخيالاً إلى المراقد.

كتب الخادم هذه الخدمة تلو مآصدر عنه مما كان يجري مجرى التبشير لصبح
 هذه الخدمة، والعنوان لكتاب وصف هذه النعمة، فإنها بحر للأفلام فيه سبح
 طويل، ولطف تحمل الشكر فيه عبء ثقیل، وبُشرى للخواطر في شرحها مآرب،
 ويُسرى للأسرار في إظهارها مسارب؛ والله في إعادة شكره رضا، وللنعمة الرأهنة
 به دوام لا يقال معه: هذا مضي؛ وقد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصايرها،
 وأستبقت عقائد أهله على أيّين بصايرها؛ وتقلّص ظل رجاء الكافر المبسوط،
 وصدق الله أهل دينه فلما وقع الشرط حصل المشروط؛ وكان الدين غريباً فهو
 الآن في وطنه، والفوز معروضا فقد بذلت الأنفس في ثمنه؛ وأمر الحق وكان
 مستضعفاً، وأهل ربه وكان قد عيف حين عفا؛ وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك
 راعمه، فأدبجت السيوف إلى الآجال وهي نائمة؛ وصدق وعد الله في إظهار دينه

(١) كذا هنا وفيما تقدم، والذي في وفيات الأعيان لأبن خلكان (ج ٢ ص ٥٨٤)
 "غنيّاً بالتوفيق".

(٢) الزيادة عن رسائل القاضي الفاضل الفتوغرافية المحفوظة بدار الكتب السلطانية نمرة ٢٢٩٤
 أدب.

على كُلِّ دِين ، وَاسْتَطَارَتْ لَهُ أَنْوَارُ أَبَانَتْ أَنَّ الصَّبَاحَ عِنْدَهَا حَيَانُ الْحَيْن ؛ وَاسْتَرَدَّ^(١)
 الْمُسْلِمُونَ ثَرَاتًا كَانَ عَنْهُمْ آيِقًا ، وَظَفَرُوا يَقْظَةً يَمَا لَمْ يُصَدِّقُوا أَنَّهُمْ يَظْفَرُونَ بِهِ طَيْفًا
 عَلَى النَّأْيِ طَارِقًا ؛ وَاسْتَقَرَّتْ عَلَى الْأَعْلَى أَقْدَامُهُمْ ، وَخَفَقَتْ عَلَى الْأَقْصَى أَعْلَامُهُمْ ؛
 وَتَلَقَّاتْ عَلَى الصَّخْرَةِ قُبُلُهُمْ ، وَشَفِيتْ بِهَا وَإِنْ كَانَتْ صَخْرَةً [قُلُوبُهُمْ^(٢)] كَمَا تُشْفَى
 بِالْمَاءِ غُلْمُهُمْ .

وَمَا قَدِمَ الدِّينَ عَلَيْهَا عَرَفَ مِنْهَا سُودَاءَ قَلْبِهِ ، وَهَنَّا كَفُوْهَا الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ
 بَيْتَ عِصْمَتِهَا مِنَ الْكَافِرِ يَحْرِيهِ ؛ وَكَانَ الْخَادِمُ لَا يَسْعَى سَعْيَهُ إِلَّا لِهَذِهِ الْعُظْمَى ،
 وَلَا يَقَاسِي تِلْكَ الْبُؤْسَى إِلَّا رَجَاءَ هَذِهِ النُّعْمَى ؛ وَلَا يَنَاحِزُ مِنْ يَسْتَمِطِلُهُ فِي حَرْبِهِ ،
 وَلَا يُعَاتِبُ بِأَطْرَافِ الْقَنَاءِ مَنْ يَتِمَادِي فِي عَتَبِهِ ؛ إِلَّا لَتَكُونَ الْكَلِمَةُ مَجْمُوعَةً ، وَالِدَعْوَةُ
 إِلَى سَامِعِهَا مَرْفُوعَةً ؛ فَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَلِيُقَوِّزَ بِجَوْهَرِ الْآخِرَةِ لَا بِالْعَرَضِ
 الْأَذْنَى مِنَ الدُّنْيَا ؛ وَكَانَتِ الْأَلْسِنَةُ رُبَّمَا سَلَقَتْهُ فَأَنْضَجَ قُلُوبَهَا بِالْأَحْقَارِ ، وَكَانَتِ
 الْخَوَاطِرُ رُبَّمَا غَلَّتْ عَلَيْهِ مَرَاجِلُهَا فَأُطْفِئَهَا بِالْأَحْثَالِ وَالْأَصْطِبَارِ ؛ وَمَنْ طَلَبَ خَطِيرًا
 خَاطَرَ ، وَمَنْ رَامَ صَفْقَةً رَاجِحَةً تَجَاسَرَ ، وَمَنْ سَمَا لِأَنْ يُجَلِّيَ عِمْرَةً غَامَرَ ؛ وَإِلَّا فَإِنَّ
 الْقُعُودَ يُلْبِنُ تَحْتَ نِيُوبِ الْأَعْدَاءِ الْمَعَاجِمَ فَتَعَضُّهَا ، وَيُضْعِفُ بِأَيْدِيهَا مَهْزِ الْقَوَائِمِ
 فَتَقْضُهَا ؛ هَذَا إِلَى كَوْنِ الْقُعُودِ لَا يَقْضِي فَرَضَ اللَّهِ فِي الْجِهَادِ ، وَلَا يُرْعَى بِهِ حَقُّ اللَّهِ
 فِي الْعِبَادِ ؛ وَلَا يُوفَى بِهِ وَاجِبُ التَّقْلِيدِ الَّذِي تَطَوَّقَهُ الْخَادِمُ مِنْ أُمَّةٍ قَضَوْا بِالْحَقِّ
 وَبِهِ كَانُوا يَعْدِلُونَ ، وَخُلَفَاءُ اللَّهِ كَانُوا فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ لِلَّهِ يَسْأَلُونَ ؛ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ أَوْرَثُوا
 سِرَّهُمْ وَسِرِّيَرَهُمْ خَلْفَهُمُ الْأَطْهَرُ ، وَتَجَلَّاهُمْ الْأَكْبَرُ ؛ وَبَقِيَّتُهُمُ الشَّرِيفُ ، وَطَلَعَتُهُمْ
 الْمُنِيفُ ، وَعُتُونَا صَحِيفَةَ فَضْلِهِمْ لَا عَدِمَ سَوَادَ الْعِلْمِ وَبَيَاضَ الصَّحِيفَةِ ؛ فَمَا غَابُوا

(١) كَذَا فِيَا تَقْدِمُ أَيْضًا (ج ٦ ص ٤٩٧) وَفِي وَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ (ج ٢ ص ٥٨٥) "عِنْدَ حِسَانِ الْجَيْنِ" .

(٢) الزِّيَادَةُ عَنْ وَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ (ج ٢ ص ٥٨٥) .

لَمَّا حَضَرَ، وَلَا غُضُّوا لَمَّا نَظَرُوا، بَلْ وَصَلَهُمُ الْأَجْرُ لَمَّا كَانَ بِهِ مَوْصُولًا، وَشَاطَرُوهُ الْعَمَلَ لَمَّا كَانَ عَنْهُ مَقْبُولًا وَمِنْهُ مَقْبُولًا؛ وَخَلَصَ إِلَيْهِمْ إِلَى الْمَضَاجِعِ مَا أَطْمَأَنَّتْ بِهِ جُنُوبُهَا، وَإِلَى الصَّحَائِفِ مَا عَقَّبَتْ بِهِ جُيُوبُهَا، وَفَازَ مِنْهَا بِذِكْرِ لَا يَزَالُ اللَّيْلُ بِهِ سَمِيرًا، وَالنَّهَارُ بِهِ بَصِيرًا؛ وَالشَّرْقُ يَهْتَدِي بِأَنْوَارِهِ، بَلْ إِنْ أَبَدَى نُورًا مِنْ ذَاتِهِ هَتَفَ بِهِ الْغَرْبُ بِأَنْ وَارِهِ؛ فَإِنَّهُ نُورٌ لَا تُكِنُّهُ أَغْشَاقُ السُّدُفِ، وَذِكْرُ لَا تُوَارِيهِ أَوْرَاقُ الصُّحُفِ .

وَكَلَّابُ الْخَلَادِمِ هَذَا، وَقَدْ أَظْفَرَ اللَّهُ بِالْعَدُوِّ الَّذِي تَشَطَّتْ قَنَاتُهُ شَفَقًا، وَطَارَتْ فِرْقُهُ فِرْقًا؛ وَقُلَّ سَيْفُهُ فَصَارَ عَصَا، وَصُدِعَتْ حَصَاةُهَا وَكَانَ الْأَكْثَرُ عَدَدًا وَحَصَا؛ وَكَلَّتْ حَمَلَاتُهُ وَكَانَتْ قُدْرَةُ اللَّهِ تُصَرِّفُ فِيهِ الْعِيَانَ بِالْعِيَانِ، عُقُوبَةٌ مِنْ اللَّهِ لَيْسَ لِصَاحِبِ يَدٍ بِهَا يَدَانِ؛ وَعَثَرَتْ قَدَمُهُ وَكَانَتْ الْأَرْضُ لَهَا حَلِيفَةً، وَغَضَّتْ عَيْنُهُ وَكَانَتْ [عُيُونُ] السُّيُوفِ دُونَهَا كَسِيفَةً؛ وَنَامَ جَفْنُ سَيْفِهِ وَكَانَتْ يَقْظَتُهُ تُرِيقُ نَظْفَ الْكَرَى مِنَ الْجُفُوفِ، وَجُدِعَتْ أَنْوُفُ رِمَاحِهِ وَطَلَمَاحُهَا كَانَتْ شَاخِجَةً بِالْمُنَى أَوْ رَاعِفَةً بِالْمُنُونِ؛ وَأَصْحَبَتِ الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةَ الطَّاهِرَةَ وَكَانَتْ الطَّامِثُ، وَالرَّبُّ الْمَعْبُودُ الْوَاحِدَ وَكَانَ عِنْدَهُمُ الثَّلَاثُ؛ فَيُوتُ الشَّرْكَ مَهْدُومُهُ [وَيُتُوبُ الْكُفْرَ مَهْتُومُهُ] (٢) وَطَوَائِفُهُ الْمُحَامِيَّةَ، مُجْتَمِعَةً عَلَى تَسْلِيمِ الْبِلَادِ الْحَامِيَةِ، وَشُجْعَانُهُ الْمُتَوَافِيَةِ، مُدْعِنَةً لِبَدَلِ الْمَطَامِعِ الْوَافِيَةِ؛ لَا يَرَوْنَ فِي مَاءِ الْحَدِيدِ لَهْمَ عُصْرَةٍ، وَلَا فِي فِئَاءِ الْأَفْنِيَةِ لَهْمَ نُصْرَةٍ؛ وَقَدْ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ، وَبَدَّلَ اللَّهُ مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ؛ وَقَلَّ بَيْنَ عِبَادَتِهِ مِنْ أَيْدِي أَصْحَابِ الْمَشَاطِمَةِ إِلَى أَيْدِي أَصْحَابِ الْمَيْمَنَةِ .

(١) الزيادة عن وفيات الأعيان .

(٢) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل .

(٣) في وفيات الأعيان "القلاع" .

وقد كان الخادم لقيهم اللقاة الأولى فأمده الله بمداركه، وأنجده بملائكته، فكسرهم كسرة ما بعدها جبر، وصرعهم صرعة لا يتعش بعدها بمشيئة الله كفر، وأسر منهم من أسرت به السلاسل، وقتل منهم من فتكت به المناصل، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح [والكفار، وعن أنصاف محيل فإنه قتلهم بالسيوف الأفلاق والرماح الأكسار، فيلوا بنار من السلاح ونالوه أيضا بنار^(١)] فكم أهلة سيوف تقارض الضارب بها حتى صارت كالعراجين، وكم أنجم أسنة تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين، وكم فارسية ركض عليها فارسها الشهم إلى أجل فاختلسه، وفغرت تلك القوس فأها فإذا فوها قد نهش القرن على بعد المسافة فافترسه، وكان اليوم مشهودا، وكانت الملائكة شهودا، وكان الكفر مفقودا والإسلام مولودا، وجعل الله ضلوع الكفار لنار جهنم وقودا، وأسر الملك وبسده أوثق ونائقه، وأكد وصله بالدين وعلاقته، وهو صليب الصلבות، وقائد أهل الجبروت، وما دهموا قط بأمر إلا وقام بين دهماهم ينسط لهم بآعه، ويحرضهم وكان مد اليد في هذه الدفعة ودأعه، لاجرم أنهم يتهافت على ناره فراشهم، ويجمع في ظل ظلامه خشائهم، ويقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدق، ويرونه ميثاقا يبنون عليه أشد عقد وأوثق، ويعُدونه سورا تحفر حوافر الخيل خندقه.

وفي هذا اليوم أسرت سرائهم، وذهبت دهاهم [ولم يقلب منهم معروف إلا القومص، وكان لعنه الله مليا يوم الظفر بالقتال، ومليا يوم الخلدان^(٢)] بالاحتيال، فنجوا ولكن كيف، وطار خوفا من أن يلحقه منسر الرمح أو جناح السيف،

(١) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل .

(٢) في وفيات الأعيان وفي رسائل القاضي الفاضل الفتورافية "قآ".

(٣) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل ومن وفيات الأعيان .

ثم أخذَه الله تعالى بعد أيامٍ بيده، وأهلكه لموعده؛ فكان لِعِدَّتِهِمْ فَذَلِكَ، وَانْتَقَلَ
من مَلِكِ المَوْتِ إلى مالِك .

وبعد الكسرة مرَّ الخادِمُ على البلاد فطَوَّأَهَا بما نَشَرَ عليها من الرأية العباسية السوداء
صَبْغًا، الْبَيْضَاءُ صُنْعًا؛ الْخَافِقَةُ هِيَ وَقُلُوبُ أَعْدَائِهَا، الْغَالِبَةُ هِيَ [وَعِزَائِمُ أَوْلِيَائِهَا] ^(١)
الْمُسْتَضَاءُ بِأَنْوَارِهَا إِذَا فَتَحَ عَيْنَهَا لِلْبَشَرِ، وَأَشَارَتْ بِأَنْمَالِ الْعَذَابَاتِ إِلَى وَجْهِ النَّصْرِ؛
فَافْتَتَحَ بِلْدَ كَذَا وَكَذَا وَهَذِهِ [كُلُّهَا] ^(١) أَمْصَارٌ وَمُدُنٌ، وَقَدْ تُسَمَّى الْبِلَادُ بِلَادًا وَهِيَ مَزَارِعُ
وَفُدُنٌ؛ وَكُلُّ هَذِهِ ذَوَاتُ مَعَاقِلَ وَمَعَاقِرَ، وَبَحَارٍ وَجَزَائِرَ، وَجَوَامِعَ وَمَنَائِرَ، وَجُجُوعَ
وَعَسَاكِرَ؛ يَتَجَاوَزُهَا الْخَادِمُ بَعْدَ أَنْ يُحْرَزَهَا، وَيَتْرَكُهَا وَرَاءَهُ بَعْدَ أَنْ يَنْتَهِزَهَا؛ وَيُخَصِّدُ
مِنْهَا كُفْرًا وَيَزْرَعُ إِيْمَانًا، وَيُحِطُّ مِنْ مَنَائِرِ جَوَامِعِهَا صُلْبَانًا وَيَرْفَعُ أَذَانًا؛ وَيُبَدِّلُ الْمَذَابِجَ
مَنَائِرَ وَالْكَائِسَ مَسَاجِدَ، وَيُبَوِّئُ بَعْدَ أَهْلِ الصُّلْبَانِ أَهْلَ الْقُرْءَانِ لِلدَّبِّ عَنْ دِينِ اللَّهِ
مَقَاعِدَ . وَيَقْرِئُ عَيْنَهُ وَعْيُونَ أَهْلِ الْإِسْلَامِ أَنْ تَعْلُقَ النَّصْرُ مِنْهُ وَمَنْ عَسَكَهُ بِحَارَ
وَمَجْرُورَ، وَأَنْ ظَفِرَ بِكُلِّ سُورٍ مَا كَانَ يُخَافُ زِلْزَالَهُ وَزِيَالَهُ إِلَى يَوْمِ النَّفْخِ فِي الصُّورِ .
وَلَمَّا لَمْ يَبْقَ إِلَّا الْقُدْسُ وَقَدْ اجْتَمَعَ إِلَيْهَا كُلُّ شَرِيدٍ مِنْهُمْ وَطَرِيدٍ، وَاعْتَصَمَ بِمَنْعَتِهَا
كُلُّ قَرِيبٍ مِنْهُمْ وَبَعِيدٍ؛ وَظَنُّوا أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ مَا نَعَتْهُمْ، وَأَنْ كُنِيستَ إِلَى اللَّهِ شَافِعَتُهُمْ؛ ^(٢)
فَلَمَّا نَازَلَهَا الْخَادِمُ رَأَى بِلْدًا كِبَالَادَ، وَجَمْعًا كِيَوْمِ التَّنَادِ؛ وَعِزَائِمَ قَدْ تَأَلَّبَتْ وَتَأَلَّفَتْ
عَلَى الْمَوْتِ فَتَزَلَّتْ بَعْرَصَتُهُ، وَهَانَ عَلَيْهَا مَوْرِدُ السَّيْفِ وَأَنْ تَمُوتَ بِغُصَّتِهِ؛ فَزَاوَلَ
الْبِلَدَ مِنْ جَانِبٍ فَإِذَا أَوْدِيَةٌ عَمِيقَةٌ، وَلُحْجٌ وَعَرَّةٌ غَرِيقَةٌ، وَسُورٌ قَدْ أَنْعَطَفَ عَطْفُ
السَّوَارِ، وَأَبْرَجَةٌ قَدْ نَزَلَتْ مَكَانَ الْوَاسِطَةِ مِنْ عِقْدِ الدَّارِ؛ فَعَدَلَ إِلَى جِهَةِ أُخْرَى

(١) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل ومن وفيات الأعيان .

(٢) جواب لما الأولي مفهوم من المقام . أنظر ما كتبناه عند الكلام على هذه الرسالة فيما تقدم

كان للطامع عليها مُعَرَّجٌ، وَلَحِيلٌ فِيهَا مُتَوَجِّحٌ؛ فَتَزَلُّ عَلَيْهَا، وَأَحَاطَ بِهَا وَقُرْبَ مِنْهَا؛
وَضَرَبَ خَيْمَتَهُ بَحِثٌ يَنَالُهُ السَّلَاحُ بِأَطْرَافِهِ، وَيُزَاحِمُهُ السُّورُ بِأَكْثَافِهِ؛ وَقَابَلَهَا
ثُمَّ قَاتَلَهَا، وَنَزَلَهَا ثُمَّ نَازَلَهَا، وَبَرَزَ إِلَيْهَا ثُمَّ بَارَزَهَا، وَحَاجَرَهَا ثُمَّ نَاجَرَهَا؛ فَضَمَّهَا صَمَةً
أَرْتَقَبَ بَعْدَهَا الْفَتْحَ، وَصَدَعَ أَهْلَهَا إِذَا هُمْ لَا يَصْبِرُونَ - عَلَى عُبُودِيَّةِ الْخَلْدِ - عَنْ عِتْقِ
الصَّفْحِ؛ فِرَاسُلُوهُ بِبَدَلِ قَطِيعَةٍ إِلَى مُدَّةٍ، وَقَصِدُوا نَظْرَةً مِنْ شِدَّةٍ وَأَنْتَظَارًا لِنَجْدِهِ؛
فَعَرَفَهُمُ الْخِلَادِمُ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ، وَأَجَابَهُمْ بِلِسَانِ الطُّولِ؛ وَقَدَّمَ الْمُنْجَنِيْقَاتِ الَّتِي تَتَوَلَّى
عُقُوبَاتِ الْحُصُونِ عِصْمَهَا وَحِبَالَهَا، وَأَوْتَرَلَهُمْ قِسِيَهَا الَّتِي تَضْرِبُ فَلَا تُفَارِقُهَا سِهَامُهَا
وَلَا يَفَارِقُ سِهَامُهَا نِصَالُهَا؛ فَصَاحَتِ السُّورُ بِأَكْثَافِهِ إِذَا سَهَمُهَا فِي شَايَا شُرَفَاتِهَا سِوَاكَ،
وَقَدَّمَ النَّصْرَ نَسْرًا مِنَ الْمُنْجَنِيْقِ يُخَلِّدُ إِخْلَادَهُ إِلَى الْأَرْضِ وَيَعْلُو عُلُوَّهُ إِلَى السَّمَاءِ؛
فَشَجَّ مُرَادِعَ أَبْرَاجِهَا، وَأَسْمَعَ صَوْتَ عَجِيجِهَا [صُمَّ أَعْلَاجِهَا] ^(١) وَرَفَعَ مُنَارَ عَجَاجِهَا؛ فَأَخْلَى
السُّورَ مِنَ السِّيَّارَةِ، وَالْحَرْبَ مِنَ النَّظَارَةِ؛ فَأَمَكْنَ النَّقَابُ، أَنْ يُسْفَرَ لِلْحَرْبِ النَّقَابُ،
وَأَنْ يَعِيدَ الْحَجَرَ إِلَى سِيرَتِهِ [الْأُولَى] ^(١) مِنَ التُّرَابِ؛ فَتَقَدَّمَ إِلَى الصَّخْرِ فَمَضَعَ سَرْدَهُ
بَأَنْيَابِ مِعْوَلِهِ، وَحَلَّ عَقْدَهُ بِضَرْبِهِ الْأَنْحَرِقِ الدَّالَّ عَلَى لَطَافَةِ أَمَلِهِ، وَأَسْمَعَ الصَّخْرَةَ
الشَّرِيفَةَ حَنِينَهُ وَأَسْتَغَاثَتَهُ إِلَى أَنْ كَادَتْ تَرِقُّ لِمُقْبَلِهِ؛ وَتَبَرَّأَ بَعْضُ الْحِجَارَةِ مِنْ
بَعْضٍ، وَأَخَذَ الْحَرَابُ عَلَيْهَا مَوْتَقًا فَلَنْ تَبْرَحَ الْأَرْضُ، وَفَتَحَ فِي السُّورِ بَابًا سَدَّ مِنْ
نَجَاتِهِمْ أَبْوَابًا، وَأَخَذَ يَنْقُبُ فِي حَجَرِهِ فَقَالَ عِنْدَهُ الْكَافِرُ: «يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا» فَيَنْثَنُ
يَنْتَسِرُ الْكَفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الدُّورِ، كَمَا يَنْتَسِرُ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ، وَجَاءَ أَمْرُ اللَّهِ
وَعَزَّاهُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ.

وَفِي الْحَالِ خَرَجَ طَافِغَةُ كُفْرِهِمْ، وَزِمَامُ أَمْرِهِمْ؛ ابْنُ بَارِزَانَ سَائِلًا أَنْ يُؤْخَذَ
الْبَلَدَ بِالسَّلَامِ لَا بِالْعَنَاءِ، وَبِالْأَمَانِ لَا بِالسَّطْوَةِ؛ وَأُلْقِيَ بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ، وَعَلَا ذَلِكَ

الْمَلَكَةِ بَعْدَ عِزِّ الْمَلِكَةِ، وَطَرَحَ جَبِينَهُ فِي التَّرَابِ وَكَانَ جَبِينًا لَا يَتَعَاطَاهُ طَارِحٌ، وَبَذَلَ مَبْلَدًا مِنَ الْقَطِيعَةِ لَا يَطْمَحُ إِلَيْهِ طَرْفُ أَمِيلٍ طَامِحٍ، وَقَالَ: هَاهُنَا أُسَارَى مُؤْمِنُونَ يَتَجَاوَزُونَ الْأَلُوفَ، وَقَدْ تَعَاوَدَ الْفَرَنْجُ عَلَى أَنَّهُمْ إِنْ هُجِمَتْ عَلَيْهِمُ الدَّارُ، وَحَمِلَتِ الْحَرْبُ عَلَى ظُهُورِهِمُ الْأَوْزَارَ؛ بُدِيَ بِهِمْ فُعْجَلُوا، وَثْنِي بِنِسَاءِ الْفَرَنْجِ وَأَطْفَالِهِمْ فَقَتَلُوا؛ ثُمَّ آسَقَتُوا بَعْدَ ذَلِكَ فَلَمْ يُقْتَلْ خَصْمٌ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَنْتَصِفَ^(١)، وَلَمْ يُسَلَّ سَيْفٌ مِنْ يَدٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَقْطَعَ أَوْ يَنْقَصِفَ؛ وَأَشَارَ الْأَمْرَاءُ بِالْأَخْذِ بِالْمِسُورِ، مِنَ الْبَلَدِ الْمَاسُورِ؛ فَإِنَّهُ إِنْ أُخِذَ حَرْبًا فَلَا بُدَّ أَنْ تَقْتَحِمَ الرِّجَالُ الْأَنْجَادَ، وَتَبْذُلَ أَنْفُسُهَا فِي آخِرِ أَمْرِ قَدْ نَبِيلٍ مِنْ أَوْلِهِ الْمُرَادِ؛ وَكَانَتِ الْجَرَاحُ فِي الْعَسَاكِرِ قَدْ تَقَدَّمَ مِنْهَا مَا أَعْتَقَلَ الْفَتَكَاتِ، وَأَعْتَقَ الْحَرَكَاتِ؛ فَقُبِلَ مِنْهُمْ الْمَبْدُولُ عَنْ يَدِهِمْ صَاغِرُونَ، وَأَنْصَرَفَ أَهْلُ الْحَرْبِ عَنْ قُدْرَةٍ وَهُمْ ظَاهِرُونَ؛ وَمَلَكَ الْإِسْلَامُ خِطَّةً كَانَ عَهْدُهُ بِهَا دِمْنَةً سَكَّانَ، نَفَدِمَا الْكُفْرَ إِلَى أَنْ صَارَتْ رَوْضَةً جَنَانٍ؛ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَهُمْ مِنْهَا وَأَهْبَطَهُمْ، وَأَرْضَى أَهْلَ الْحَقِّ وَأَسْخَطَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ خَذَلَهُمُ اللَّهُ حَمَوَهَا بِالْأَسْلِ وَالصَّفَاحِ [وَبَنَوَهَا بِالْعَمَدِ وَالصَّفَاحِ] وَأَوْدَعُوا الْكُتَّائِ بِهَا وَبُيُوتِ الدِّيْوَانِ وَالْأَسْتَبَارِيَةِ مِنْهَا كُلَّ غَرِيبَةٍ مِنَ الرِّخَامِ الَّذِي يَطْرُدُ مَآوَهُ، وَلَا يُطْرَدُ إِلَّا لِأَوَاهُ؛ قَدْ لَطَفَ الْحَدِيدُ فِي تَجْزِيعِهِ، وَتَقَنَّ فِي تَوْشِيْعِهِ؛ إِلَى أَنْ صَارَ الْحَدِيدُ، الَّذِي فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ، كَالذَّهَبِ الَّذِي فِيهِ نَعِيمٌ عَنِيدٌ؛ فَمَا تَرَى إِلَّا مَقَاعِدَ كَالرِّيَاضِ^(٢) لَهَا مِنْ بَيَاضِ التَّرْخِيمِ رَقْرَاقٍ، [وَعَمَدًا كَالْأَشْجَارِ لَهَا مِنَ التَّنْيِيبِ أَوْرَاقٍ]^(٣).

(١) فِي وَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ (ج ٢ ص ٥٨٨) وَرِسَائِلُ الْقَاضِي الْفَاضِلِ "يَفْك".

(٢) الزِّيَادَةُ مِنْ رِسَائِلِ الْقَاضِي الْفَاضِلِ وَوَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ وَأَنْظَرْ مَا تَقَدَّمَ مِنْ هَذَا الْمَطْبُوعِ (ج ٦ ص ٥٠٣).

(٣) فِي الْأَصْلِ "كَالْأَسْمَانِ" وَفِي رِسَائِلِ الْقَاضِي الْفَاضِلِ "لِلرِّيَاضِ" وَالتَّصْحِيحُ مِنْ وَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ.

(٤) الزِّيَادَةُ مِنْ رِسَائِلِ الْقَاضِي الْفَاضِلِ وَوَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ.

وأوعز الخادم برد الأقصى إلى عهده المعهود، وأقام له من الأئمة من يوفيه وزده
المورود؛ وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شهر شعبان فكادت السموات يتفطرن
للسجود لا للوجوم، والكواكب [منها] ينتثرن للطرب للرجوم؛ ورفعت إلى الله
كلمة التوحيد وكانت طرائقها مسدوده، وظهرت قبور الأنبياء وكانت بالنجاسات
مكدوده؛ وأقيمت الخمس وكان التثليث يقعدُها [وجهرت الألسن بالله أكبر وكان
سحر الكفر يعقدها] ^(١) وجهر باسم أمير المؤمنين في وطنه الأشرف من المنبر، فرحب به
ترحيب من بر بمن بر، وحق علماه في حفايقه، فلو طار به سرورا لطار بجناحيه .

وكتاب الخادم وهو مجد في استفتاح بقية الثغور، واستشراح ماضق بتمادي
الحرب من الصدور؛ فإن قوى العساكر قد استنفدت مواردها [وأيام الشتاء قد
مردت مواردها] ^(١) والبلاد الماخوذة المشار إليها قد جاست العساكر خلالها، ونهبت
ذخائرها وأكلت غلالها؛ فهي بلاد ترفد ولا تسترقد، وتجم ولا تستنفد؛ وينفق عليها،
ولا ينفق منها؛ وتجهز الأساطيل لبحرها، وتقام المراتب لبرها، ويدأب في عمارة
أسوارها، ومرمات معاقليها؛ وكل مشقة فهي بالإضافة إلى نعمة الفتح محتملة،
وأطاع الفرنج فيما بعد ذلك مذهبها غير مرجئة ولا معتزلة؛ فلن يدعوا دعوة يرجو
الخادم من الله أنها لا تسمع، ولن تزول أيديهم من أطواق البلاد حتى تقطع . ^(٢)

وهذه البشائر لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تشخص، ولا بما سوى
المشاهدة تتلخص؛ فلذلك نقدنا لسانا شارحا، ومبشرا صابا؛ ينشر الخبر على
سياقته، ويعرض جيش المسرة من طليعته إلى ساقته .

(١) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل ومن وفيات الأعيان .

(٢) وفيات الأعيان ورسائل القاضي الفاضل "ولن يفكوا" .

قلتُ : وقد وَقَّعْتُ على نسخة كِتَابِ كُتِبَ به عن المُكْتَفَى بالله، عند ما بَعَثَ محمد بن سليمان الكاتب إلى الديار المصرية، فانترعها من يد بني طولون وأَسْتَوَى عليها لل خليفة، في نحو كُرَاسَةٍ، تاريخها سنة ثمان وستين ومائتين، أولها : أما بعدُ فالحمد لله العليّ الكبير، العزيز القدير، أَضْرَبْتُ عن ذكرها لطولها .

الصفحة الثامن

(المكاتبة بالاعتذار عن السلطان في الهزيمة)

قال في "موادّ البيان" : من أخلاق العامة تقبيحُ سيرة السلطان إذا زلَّ في بعض أرائه ، والإِزْرَاءُ على تديره في جيش يُجهّزه فيُكسّر، ونحو ذلك : مما لا يسلم من مثله ، والإِفاضة فيه والتشنيع به . فيحتاج إلى مكاتبتهم بما يتلافى الوهن ويقيم العُذر، كما يكاتبهم بتفخيم المنح، وتعظيم الفُتوحات، والتحدّث بمواقع المواهب . وشكر الله تعالى على إسباغ النعم ، والإِظْفَارِ بأعداء الدين والدّولة : ليقوّى بذلك مُنتهم، ويُرهِفَ بصائرهم ويستخلّص طاعتهم، ويملاً صدورهم رهبة . قال : وليست لهذه الكُتُبُ رسومٌ ينتظم كُلُّ ما وقع فيها : لاختلاف ما يلام فيه ويعتذر .

ثم قال : ونحن نرمس في أصوله قولاً وجيزاً : وهو أن يقتَضِبَ الكاتبُ له المعاذير التي تُحَسِّنُ أحوالته ، وتستزِلُّه ، والمُجَحِّج التي تُعِيدُ اللَّائِمَ عاذراً ، والدَّامَّ شاكراً ، وتوجبُ التقريظ من حيث يجب التأنيب، والإِحْمَاد من حيث يستحقُّ التذنيب . مثلاً أن يعتذر عن هزيمة جيش، فيقول : وقد علمت أن الحَرْبَ سِجَالٌ ، والدنيا دُولٌ تَدَالُ ، وقد تهبُّ ريحُ النَّصْرِ لِلْقَاسِطِينَ على الْمُقْسِطِينَ أمتحاناً من الله وبألوى،

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى - من غير أن يُصَرِّحَ بِبَاطِلٍ ، ولا يُطْلِقَ كَذِبًا مُحَضًّا ، ولا يُخْتَلَقَ زُورًا يَعْلَمُ النَّاسُ خِلَافَهُ ؛ فَتَضَاعَفُ الْمُحَنَّةُ ، وَتُكَاثِفُ الْمِحْنَةُ ؛ فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ أَقْبَحُ عَلَى السُّلْطَانِ ، وَأَقْدَحُ فِي جَلَالَةِ الشَّانِ ؛ مِنْ أَنْ يُعْتَرَفَ فِي كُتْبِهِ عَلَى إِفْكِ قَدْ يَعْلَمُهُ بَعْضُ مَنْ يَقِفُ عَلَيْهِ ؛ بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَمَدَ فِي ذَلِكَ حُسْنَ التَّخْلِصِ وَالتَّوَرِيَّةِ عَنِ الْغَرَضِ ، وَاسْتِعْمَالَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَطْرَافِ الْحَالِ وَلَا تُفْصِحُ بِحَقَائِقِهَا .

وهذه نُسخةُ كتاب من ذلك .

الحمد لله الذى سَاسَ الْأُمُورَ بِحِكْمَتِهِ ، وَأَبَانَ فِيهَا مَوَاقِعَ قُدْرَتِهِ ؛ وَسَلَكَ فِيهَا طَرِيقَ مَشِيئَتِهِ ، وَصَرَّفَهَا عَلَى مَرَاةٍ عَدَلًا بَيْنَ الْعِبَادِ فِي أَقْسَامِ نِعْمَتِهِ وَمِحْنَتِهِ ، وَأَحْوَالِ بَلَوَاهُ وَعَافِيَتِهِ ؛ وَجَعَلَ الْأَيَّامَ فِيهِمْ نُوبًا ، وَالْأَحْوَالَ بَيْنَهُمْ عُقْبًا ؛ نَحْصَ أَوْلِيَائِهِ وَأَهْلَ طَاعَتِهِ بِالنَّصْرِ فِي الْمُحَاكِمَةِ ، وَالصُّلْحِ عِنْدَ الْمُخَاصِمَةِ ؛ وَالظُّهُورِ عَلَى مَنْ شَاقَّهُمْ وَعَادَاهُمْ ، وَالْقَهْرِ لِمَنْ ضَادَّهُمْ وَنَاوَاهُمْ ؛ إِنْجَازًا لِمَا وَعَدَ بِهِ الصَّابِرِينَ الْمُحْسِنِينَ ، وَإِعْزَازًا لِلَّذِينَ وَأَنْصَارَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَلَمْ يُخِلْ أَعْدَاءَهُ مِنْ دَوْلَةٍ أَدَاها لَهُمْ ، وَجَوْلَةٍ عَلَى الْحَقِّ زَادَهَا فِي طُغْيَانِهِمْ ؛ وَوَصَلَ الْإِمْلَاءَ لَهُمْ فِيهَا بِخِذْلَانِهِمْ : لِيَجِبَ الثَّوَابُ لِلْحَسَنِينَ ، وَيَحِقَّ الْعَذَابُ عَلَى الْكَافِرِينَ . فَقَالَ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ - وَقَدْ ظَهَرَ الْمَشْرُكُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ - ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ . وَقَالَ : ﴿ لِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ وَنَاوَبَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ فِي الْمَصَائِبِ ، وَالْمَوَاهِبِ ، وَالْمَسَازِ ، وَالْمَضَارِ ؛ لِيَشْفِيَ اللَّهَ صُدُورَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ؛ وَيُوجِبَ لَهُمْ إِخْلَاصَ السَّرَائِرِ فِي طَاعَتِهِ ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ ، وَالنُّصْرَةِ

لرسوله ، والمرامة عن دينه ، والمدافعة عن حريمه ؛ ضِعَفَ الثَّوَابُ وَحُسِّنَ الْمَأْتَبُ ،
وَيُحِلُّ بِالْمُشْرِكِينَ مَا أَعَدَّ لَهُمْ فِي دَارِ الْجَزَاءِ مِنَ أَلِيمِ الْعَذَابِ .

وَإِذَا كَانَ الْحَالُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ الْمُتَلَاقَيْنِ ، وَالْفِتْنَيْنِ الْمُتَجَاوِرَتَيْنِ ، وَالْخِزْيَيْنِ
الْمُتَحَاكِكَيْنِ ؛ فِي تَعَاوُرِ الْغَلَبَةِ ، وَتَعَاقُبِ الدَّوْلَةِ ؛ جَارِيَا عَلَى تَقْدِيرِ اللَّهِ وَمُتَصَرِّفَا عَلَى حُكْمِهِ ،
وَمُسْتَوْسِقَا عَلَى مَا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ ؛ فَلَيْسَ يُغْنِي فِي ذَلِكَ زِيَادَةُ عَدَدٍ ، وَلَا اتِّصَالُ مَدَدٍ ؛
وَلَا قُوَّةُ أَيْدٍ ، وَلَا لُطْفُ كَيْدٍ ؛ وَلَا اخْتِيَارُ وَقْتٍ مَحْمُودٍ لِلْقِتَالِ ، وَلَا اتِّخَاذُ لِأَهْلِ
الْبَسَالَةِ وَالنَّجْدَةِ مِنَ الرِّجَالِ ؛ وَلَا يَجِبُ أَنْ يَسْتَرِيثَ النَّصْرُ مَنْ أَبْطَأَ عَنْهُ ، وَيَسْتَشْعِرَ
الْخَزَعُ مَنْ نَالَ خَصْمُهُ مِنْهُ ؛ بَعْدَ تَحْصِيلِهِ السَّلَامَةَ فِي نَفْسِهِ ، وَقِيَامِ الْعُدْلِ بِعَنَائِهِ
وَجِدِّهِ ؛ وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ لِلْأَمِيرِ مِنَ الْمُنَاقِبِ - الَّتِي وَرِثَهَا عَنْ آبَائِهِ ، وَحَازَهَا فِي صَدْرِهِ ؛
وَالْحِيَازَةَ فِيهَا بَانَ مِنْ فَضْلِ بَأْسِهِ ، وَثَبَاتِ جَأَشِهِ ؛ وَأَصَالَةِ رَأْيِهِ ، وَصِحَّةِ تَدْبِيرِهِ ؛ وَإِيفَائِهِ
الْحَرْبِ شُرُوطَهَا ، وَالْهِجَاءِ حُقُوقَهَا : مِنَ الْخِزْمِ وَالتَّؤَدَةِ ، وَالْإِفْقَادِ عِنْدَ الْفُرْصَةِ ؛
وَالْإِصَابَةِ فِي التَّقْدِيرِ وَالتَّغْيِيرِ ، وَالْإِحْتِيَاطِ فِي سَدِّ مَوَاقِعِ الْخِلَالِ وَالْعَوْرِ ، وَإِعْمَالِ
النَّظَرِ وَالرَّوْيَةِ ؛ لَوْلَا اعْتِرَاضُ الْقَضَاءِ الَّذِي هُوَ مَالِكُ نَوَاصِي الْعِبَادِ ، وَغَيْرُ مَدْفُوعٍ
بِمَحَالٍ وَلَا جَلَادٍ ، وَلَا قُوَّةٍ وَلَا عُدَّةٍ وَلَا عَتَادٍ - مَا أَوْفَى حُسْنُهُ عَلَى مَزِيَّةِ الظَّفَرِ ،
وَزَادَ عُظُمُهُ فِي السَّنَاءِ وَالْخَطَرِ ؛ إِلَى مَا شَبِهَ عَسْكَرَهُ فِي مُتَقَلِّبِهِ بِمِرَاعَاتِهِ لَهُمْ ، وَمُدَافَعَتِهِ
مِنْ وَرَائِهِمْ ؛ حَتَّى تَوَافَى الْجَمْعُ مَوْفُورِينَ ، وَأَبَاؤُا سَالِمِينَ غَائِمِينَ ؛ وَبِاللَّهِ الْحَوْلُ وَالْقُوَّةُ
وَعَلَيْهِ صَمْنَانُ الْإِدَالَةِ عَلَى مَا جَرَى بِهِ وَعَدُهُ الصَّادِقُ ، وَأَخْبَرَتْ عَنْهُ كِتَابُهُ النَّاطِقُ ؛ وَهُوَ
حَسْبُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَكَافِيهِ ، وَنَاصِرُهُ وَوَالِيهِ ، وَنِعْمَ الْوَكِيلُ وَالظَّهِيرُ ، وَالْمَوْلَى
وَالنَّصِيرُ ؛ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ ، وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ
أَجْمَعِينَ ؛ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا .



وفى مثله من إنشاء أحمد بن سعيد .

احكام الله جلّ جلاله جارية على سبيل جامعة لوجوه الحكمة ، منتظمة لأسباب
الصلاح والمعدله . فمنها ما عرف الله أوليائه والمندوبين بطاعته ، والمجموعين
بهديته ؛ طريق المراد منه ، وسبب الداعي إليه ؛ والعلة فيما قضى من ذلك لحينه ،
والصورة المقتضية له . ومنها ما استأثر بعلمه ، وطوى عن الخلق معرفة حاله ؛ فهو
- وإن أشكل عليهم موضع الحاجة إليه ، وموقع العائدة به ؛ ورؤى بهم اضطراباً
في ظاهره عند تأملهم إياه بمقادير عقولهم ، ومبالغ أفهامهم - مبني على أوثق أساس
الحكمة ، وأثبت أركان الصواب على الجملة ؛ وكيف لا يكون كذلك ؟ والله خالق
الأشياء كلها ، وعالم بها قبل كونها ؛ في أحوال تكوينه إياها وبعده في متزغ غاياتها
ومقتضى عواقبها ؛ فليس تخفى عليه خافيه ، ولا تغرب عنه دانية ولا قاصية ؛ ولا يسقط
عن معرفته فضل ما بين الخطارين والوهميين في الخير والشر ، وما بين الحبلىين والدريين
في الوفور والغمور ، فكيف بما يبرزه الظهور ؛ ويخبر فيه عن موضع التدبير ، المحتاج
فيه إلى إحكام الصنعة وإتقان التقدير ؛ ومن ظن أن شيئاً من ذلك يخرج عن نهج
الصواب ، ويخالف طريق الصلاح ؛ فقد ضل من حيث ضل ، وغلط من
حيث غلط ؛ وأتصل سوء ظنه ، وفساد فكره ؛ بالزراية على فعل ربه ، تعالى عن
قول المبطلين ، ورجم الشياطين .

ثم إن لله جلّ جلاله عادة في الجششين المتحارين ، والحزبين المتحاكين : من
عباده المؤمنين ، وأضدادهم المفسدين الملحدين ؛ في المداولة بينهما ، والمعاينة
بين الفيتين منهما ؛ في العجز والظهور ، والوفاء والقصور ؛ والمعاينة والامتحان ،

والتَّصَرُّفَ وَالْحِذْلَانَ ؛ والإِعْلَاءَ لِرَأْيَةِ الْحَقِّ فِي حَالٍ ، وَالإِمْلَاءَ لِلْبَاطِلِ فِي أُخْرَى ؛
بِتَضَمُّينِ الْحَيَرَةِ لِأَوْلِيَائِهِ ، والدَّائِرَةِ عَلَى أَعْدَائِهِ ؛ عَاجِلًا بِالْتَّمَحِّصِ لَهُؤُلَاءِ ،
وَبِالْمَحَقِّ لِأُولَئِكَ ؛ بِمَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ مِنْ مُصِيبَتِهِ ، وَيَتَوَبُّهُمْ فِي حَاضِرِ الدُّنْيَا مِنْ رَغْبَتِهِ ؛
وَيُجِلُّ الْعَادِينَ مِنَ الْمَشْرِكِينَ دَارَ الْفَاسِقِينَ ، وَيَجْعَلُ الْعَاقِبَةَ لِلتَّقِيَيْنِ^(١) ؛ وَمِنْ سَعْدِ
بِقِسْمٍ مِنَ التَّوْفِيقِ ، وَحِظٍّ مِنْ فَائِدَةِ الْإِرْشَادِ ؛ فَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ بَزِيَادَةِ
أَنْصَارٍ وَعُدَّةٍ ، وَفَضْلٍ عِتَادٍ وَعُدَّةٍ ؛ وَبَسَالَةٍ وَنَجْدَةٍ ، وَأَيْدٍ وَقُوَّةٍ ، وَسَعَةٍ وَبَسْطَةٍ ؛
وَلَا يَعْدُو أَنْ يُسَلَّمَ لِلَّهِ تَعَالَى قَاضِيًّا لَهُ وَعَلَيْهِ ، وَيُؤْفَى بِإِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ مِنْ عُدُوِّهِ ،
أَوْ غَلَبَةِ عُدُوِّهِ ، أَوْ يَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ ؛ وَهُوَ حَسْبُهُ مُنْعِمًا ، وَمُتَحَنِّنًا وَمُعَافِيًا وَمُسَلِّمًا ؛
وَنِعَمَ الْوَكِيلَ .

قلت : وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مُسْتَعْمَلٌ بَيْنَ الْكُتَّابِ ، دَائِرٌ
فِي مُصْطَلَحَاتِهِمْ إِلَى الْآنَ . وَالشَّيْخُ شَهَابُ الدِّينِ مُحَمَّدُ الْحَلَبِيُّ فِي ذَلِكَ تَقْنِنَاتٌ
كَثِيرَةٌ ، أورد بعضها في كتابه "حُسن التَّوَسُّلِ" .

فمن ذلك ما أنشأه فيمن هُزِمَ هُوَ وَجَيْشُهُ ، يَتَضَمَّنُ إِقَامَةَ عُدْرِهِ ، وَوَصَفَ اجْتِهَادِهِ ؛
وَيَحْتُّ عَلَى مَعَاوِدَةِ عُدُوِّهِ ، وَالطَّلَبِ بَنَائِهِ ؛ وَهُوَ :

هذه المكتبة إلى فلان : لَأَزَالَ مَأْمُونُ الْغُرَّةِ ، مَأْمُولُ الْكَوَّةِ ، مُجْتَنِيًا حُلُوَ الظَّفَرِ
مِنْ أَكْثَامِ تِلْكَ الْمَرَّةِ الْمُرَّةِ ؛ رَاجِيًا مِنْ عَوَاقِبِ الصَّبْرِ أَنْ يُسْفِرَ لَهُ مَسَاءُ تِلْكَ الْمَسَاءَةِ
عَنْ صُبْحِ الْمَسَرَّةِ ، وَاتَّقَا مِنْ عَوَائِدِ نَصْرِ اللَّهِ بِإِعَادَتِهِ وَمِنْ مَعِهِ فِي [الْقُوَّةِ وَ] الْأَسْطِظْهَارِ^(٢)
كَمَا بَدَأَهُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .

(١) بياض في الأصل ولعله "فليس أنتصاره" تأمل .

(٢) الزيادة من "حسن التوسل" (ص ١١٧) .

أصدرناها وقد اتصل بنا نبأ ذلك المقام الذى أوصحت فيه السيوف عُذرها ،
وأبدت به الكفاة صبرها ؛ وأظهرت فيه الحماة من الوثبات والثبات ما يجب عليها ،
وبذلت فيه الأبطال من الجلال جُهدا ولكن لم يكن الظفر إليها ؛ وكان عليهم
الإقدام على غمرات المنون ، والأصطلاء بجرات الحرب الزبون ، ولم يكن عليهم
إتمام ما قدر أنه لا يكون ؛ فكبرت رقاب الأعداء فى ذلك الموقف السيوف ، وكثرت
أعدادهم الخنوف ، وتدفقت بحارهم على جداول من معه ولولا حكم القدر لانتصفت
تلك الآحاد من تلك الألوف ؛ فضاقت بأزديحام الصفوف على رجاله المجال ، وزاد
العدد على الجلد فلم يُقد له الإقدام على الأوجال مع قدوم الآجال ؛ وأملى للكافرين
بما قدر لهم من الإنظار ، وحصل لهم من الاستظهار ، وعوضوا بما لم يعرفوه من الإقدام
عما ألفوه من الفرار . ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾
وقد ورد أنهم يُنصرون كما تنصر ، وإذا كانت الحروب سجالا فلا ينسب إلى من
كانت عليه [وبالا] ^(١) إذا اجتهد ولم يساعده القدر أنه قصر . مع أنه قد أشتهر بما فعله
فى مجاله ، من اللدب عن رجاله ؛ وما أبداه فى قتاله ، من الضرب الذى ما تروى
فيه خصمه إلا بذكره بارتجاله ؛ وأن الرماح التى أمتدت إليه أنحرس سيفه السنة
استتبا ، والحياة التى أقدمت عليه جعل طعنة أكفأها مكان أعنتها ؛ فأثبت
فى مستنقع الموت رجله ، ووقف وما فى الموت شك لواقف ليحصى خيله ورجله ؛
حتى تحيز أصحابه إلى فئة مأمئهم ، وأقام نفسه دونهم دريئة لمن بدر من سرعان القوم
أو ظهر من مكئهم ؛ وهذا هو الموقف الذى قام له مقام النصر ، إذ فاته النصر
وفاته النصر ، والمقام الذى أصيب فيه من أصحابه آحاد يدركهم أدنى العدد وفقد

فيه من اعدائه مع ظهورهم أَوْفَ لا يدركهم الحَصْرُ ؛ [وكذا فليكن قَلْبُ] الجيش كالقَلْبِ يَقْوَى بِقُوَّتِهِ الجَسَدَ ، وإذا حَقَّ اللِّقَاءُ فلا يَقِرُّ عَنْ كَنَاسِهِ إِلَّا الطَّبِيُّ وَلَا يَتَجَمَّى [عَرِيْنُهُ] إِلَّا الْأَسَدُ ؛ وَمَا بَقِيَ إِلَّا أَنْ تَعْفُو الْكُلُومَ ، وَتُثَوِّبَ الْحُلُومَ ؛ وَتَسْدِمَلَ الْحِرَاحَ ، وَتَبْرَأَ مِنْ قُلُوبِ الْمَضَارِبِ صُدُورُ الصَّفَاحِ ؛ وَتَهْضَعَ لَاقْتِضَاءِ دَيْنِ الدِّينِ ، مِنْ غُرْمَانِهِ الْمُعْتَدِينَ ؛ وَتُبَادِرَ إِلَى آسْتِنَاجِازِ وَعَدِ اللَّهِ بِأَنْ اللَّهُ يُحْصِيَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيَحْكُمُ الْكَافِرِينَ ؛ وَاللَّيْثُ إِذَا جُرِحَ كَانَ أَشَدَّ لَثَابَتِهِ ، وَأَمَدَ لَوَثْبَاتِهِ ؛ وَالْمَوْتُورُ لَا يُصْطَلَى بِنَارِهِ ، وَالتَّائِرُ لَا يَرْهَبُ الْإِقْدَامَ عَلَى الْمَنُونِ فِي طَلَبِ نَارِهِ ؛ وَالدَّهْرُ ذُو دُولٍ ، وَالزَّمَانُ مُتَلَوِّنٌ إِنْ دَجَّتْ عَلَيْكُمْ مِنْهُ بِالْقَهْرِ لَيْلَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَدْ أَشْرَقَتْ لَكُمْ مِنْهُ بِالنَّصْرِ لَيْالٍ أُولَ ، فَالْمَوْلَى لَا يَلْتَفِتُ إِلَى مَافَاتٍ ، وَيُقْبِلُ بِفِكْرِهِ عَلَى تَدْيِيرِ مَا هَوَاتٍ ؛ وَيُعِدُّ لِلْحَرْبِ عُدَّتَهُ ، وَيَعَجِّلُ أَمَدَ الْأَسْتَظْهَارِ وَمُدَّتَهُ ؛ وَلَا يُؤَخِّرُ فَرَصَةَ الْإِمْكَانِ ، وَلَا يَعِيدُ ذِكْرَ مَا مَضَى فَإِنَّهُ دَخَلَ فِي خَبَرِ كَانَ ؛ وَلَا يُظْهِرُ بِمَا جَرَى عَجْزًا ، فَإِنْ الْعَاجِزُ مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُصِيبُ وَلَا يُصَابُ ، وَلَا يَتَّخِذُ غَيْرَ ظَهْرِ حِصَانِهِ حِصْنًا فَلَا حِرْزَ أَمْنٍ مِنْ صَهْوَةِ الْجَوَادِ وَلَا سَلَمَ أَسْلَمَ مِنَ الرِّكَابِ ؛ وَلْيَعْلَمْ أَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلتَّقِيْنَ ، وَيَدْرِغُ جُنَّةَ الصَّبْرِ لِيَكُونَ مِنَ النَّصْرِ عَلَى ثِقَةٍ وَمِنَ الظَّفَرِ عَلَى يَقِيْنَ ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ؛ وَمَنْ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ كَانَتْ يَدُهُ الطُّوْلَى ، وَإِذَا لَقِيَ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّهُ فَلْيَصْبِرْ لِحِمْلَتِهِ فَإِنَّ الصَّبْرَ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَكْلُوهُ بَعِيْنُهُ ، وَيُمِئِدُهُ بَعُوْنُهُ ، وَيَجْعَلُ الظَّفَرَ بَعْدُوَّهُ مَوْقُوفًا عَلَى مَطَالِبَتِهِ لَهُ بِدَيْنِهِ .

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٨) .

(٢) "حسن التوسل" ولا يظن ماجرى الخ .



ومن ذلك ما كتبه على لسان المهزوم يتضمن الاعتذار ، ويصف الاحتفال
بأخذ الثار .

هذه المكتبة إلى فلان : أتبع الله ما ساءه من أمرنا مع العدو بما يسره ، وبلغه
عنا من الانتصاف والانتصار ما يظهر من صدور الصفاح والسنة الرماح سره ، وأراه
من عواقب صنعه الجميل بنا ما يتحقق به أن كسوف الشمس لا ينال طلعتها وإن
سرار القمر لا يضره . توخى لعلمه أنه ربما اتصل به خبر تلك الوقعة التي صدقنا فيها
اللقاء ، وصدمننا العدو صدمة من لا يحب البقاء ؛ وأريناه حرباً لو أعانها التأيد فلبت
بجموعه ، وأذقناه ضرباً لو أن حكم النصر فيه إلى النصّل أوجده مصارعه وأعدمه
رجوعه . وحين شرعت رياح النصر تهب ، وسحاب الدماء من مقاتلهم تصوب
ونصب ؛ وكرعت الصفاح في موارد محوريهم ، وكشفت الرماح خبايا صدورهم ؛
وما بقى إلا أن نستجمل سيوفنا الرى من دمائهم ، وتقف صفوفنا على ربوات أشلائهم ؛
وتقبض بالكف من صفحت الصفاح عن دمه ، وتكف بالقبض يد من ألبسته
الجراح حلة عندهم ؛ - أظهروا الخرع في عزائهم ، وحكوا الطمع في غنائهم ؛ فحصل
لجندنا نجب أعجل سيوفنا أن تيم هدم بنائهم ، وطمع^(١) منع جيوشنا أن تكف عن
النهب إلى أن تصير من ورائهم ؛ فاغتنم العدو تلك الغفلة التي ساقها المهلكان ، العجب^(٢)
والطمع ، وانتهاز فرصة الإمكان ، التي أعانها عليها [المطمعان] إبداء الهلع ، وتحلية ما جمع ،
والطمع^(٣) .

(١) كذا في حسن التوسل وفي الأصل "الفقرة" ولعلها مصحفة عن « الغفوة » .

(٢) في حسن التوسل "فرصة" "الكرة" .

(٣) الزيادة عن حسن التوسل (ص ١١٩) .

فانتثر [من جمعنا] ^(١) بعض ذلك العِقْدِ المنظم ، وانتفض من حِزْبنا رُكنُ ذلك الصِّفِّ الذي أخذ فيه الزَّحَامُ بالكظم ؛ وثبت الخادم في طائفة من ذَوِي القُوَّة في يقينهم ، وأرباب البصائر في دينهم ، فكسرتنا جُفُونُ السُّيُوفِ ، وحطَّمتنا صُدُورُ الرِّمَاح في صدور الصفوف ، وأرَيْتْنا تلك الألوف كيف تُعَدُّ الآحاد بالألوف ؛ وحلَّنا بين العدو وبين أصحابنا بضرب يَكْفُف أطاعهم ، ويرُدُّ سرَّاعهم ، ويعمى ويصمُّ عن الآثار والأخبار أنصارهم وأسماعهم ؛ إلى أن نفَّسنا للنهزم عن خِناقِهِ ، وآيسنا طالِبَه عن لحاقِهِ ، وردَّدناه عنه خائباً بعد أن كادت يَدُهُ تَعْتَلِقُ بأطواقِهِ ؛ وأحجم العدو مع ما يرى من قَلَّتِنَا عن الإقدام علينا ، ورأى منا جِداً كاد لولا كثرة جمعه يستسلم به إلينا ؛ وعادوا ولنا في قلوبهم رُعبٌ يثنيهم وهم الغالبون ، [ويُدْرِكهم وهم الطالبون] ^(١) ويسلبهم رداء الأمان وهم السالبون ؛ وقد لَمَّ الخادم شَعَثَ رجاله ، وضمَّ فِرْقَهُم بذخائر ماله ؛ وأمدهم بِنَفَقَات أصاحت أحوالهم ، وأطلقت في طلب عدوِّ الله أقوالهم ؛ وسَلَّحَ جَدَدَ اسْتِطَاعَتِهِمْ ، وأَعَانَ شَجَاعَتَهُمْ ؛ وخيول تكاد تساقطهم إلى طَلَبِ عدوِّهم ، وتحضُّمُ على أخذ حَظَّهُمْ من اللقاء كأنَّها تساهمهم في أَجْرِ رَوَاحِهِمْ وعدوِّهم ؛ وقد نَضُّوا رِداءَ الإعجاب عن أكفاهم ، واعتصموا بعون الله وتأييده لاقُوَّة جَلْدِهِمْ ولا بِحِدَّةِ أسيافهم ؛ وسِعَّجَلُون العدو - إن شاء الله تعالى - عن أنْدِمَالِ حِرَاحِهِ ، ويتعجَّلون إليه بجيوش تسوءه طلائعُها في مَسَائِهِ وتُصَبِّحُه كَنَائِبُها في صَبَاحِهِ ؛ والله تعالى لا يَكِلُنَا إلى جَلَدِنَا ، ولا يَنْزِعُ أَعْنَةَ نَصْرِهِ مِنْ يَدِنَا .

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ٩١٩) .

(٢) الأصل "وضربهم" ، والتصحيح عن حسن التوسل .

الصنف التاسع

(المكاتبة بتوبيخ المهزوم وتقريعه والتهمُّ به)

وهذا النوع من المكاتبات قليل الوقوع، ولذلك لم يتعرَّض إليه في "مواد البيان".
والذى ينبغى أن تُبنى المكاتبة فيه عليه ذكرُ هزيمة المهزوم وما استولى عليه من
الغلبة والقهر، وصورة الحال في النصرة عليه، والاستيلاء على بلاده وأمواله وسائر
ذات يده؛ وأسر رجاله، وأسترقاق ذراريهم ونسائهم؛ وما يجرى مجرى ذلك : ثمَّ فيه
إيلام خاطره، وتقطيع قلبه حَسراتٍ على ما ناله ؛ ونحو ذلك مما يدعو المكتوب
إليه إلى الطاعة، ويوجب الانقياد .

وهذه نسخة كتاب من هذا النمط : كتب به القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر
رحمه الله، إلى البولس سمد ملك القرنج، المستولى على طرابلس من الشام، وأنطاكية
من بلاد العوَّاصم حين غزاه الملك ^(١) في طرابلس، ثم قصد أنطاكية فأخذها
من عانه، وهى : ^(٢)

قد علم التَّومَصُ الجليل المُتَّقِلَةُ مخاطبته - بأخذِ أنطاكية منه - من البولسية إلى
القومصية ؛ ألهمه الله رُشدَه، وقرَنَ بالخير قَصْدَه، وجعل النَّصيحةَ محفوظةً عنده ؛
ما كان من قَصْدِنَا طرابلسَ وغزَوْنَا له فى عُقرِ الدار، وما شاهدَه بعد رَحيلِنَا من
إحْرابِ العمارِ وهذَمِ الأعمار ؛ وكيف كُنِستَ تلك الكائس من على بساط الأرض
ودَارَتِ الدَّوائرُ على كُلِّ دائر، وكيف جُعِلَتِ تلك الجزائرُ من الأجساد على سَاحِلِ
البحر كالجزائر؛ وكيف قُطِرَتِ الرجال واستُخِدِمَتِ الأولادُ ومُتَلَكَّتِ الحرائرُ، وكيف
قُطِعَتِ الأشجار ولم يترك إلا ما يَصْلُحُ لأعواد المجانيق - إن شاء الله تعالى - والستائر ؛

(١) كذا بالأصل باهمال النقط وفي "الكامل" لابن الأثير (ج ١٠، ص ٢٥٤) "يمتد".

(٢) بياض بالأصل مقدار كلمة . (٣) كذا بالأصل ولعله "منه عنة".

وكيف نُهِبَتْ لك وَلِرَعِيَّتِكَ الأموالُ والحريمُ والأولادُ والحواشي ، وكيف آسَتْغْنَى
 الفقيرُ وتَاهَلَ العَازِبُ وَاسْتَعْدَمَ الحَرِيمَ وَرَكِبَ المَآثِي ؛ هذا وَأَنْتَ تَنْظُرُ نَظَرَ المَغْشَى
 عليه من المَوْتِ ، وَإِذَا سَمِعْتَ صَوْتًا قَلْتَ فَرَعًا : عَلَى هَذَا الصَّوْتِ ؛ وكيف فَارَقْنَا
 عَنْكَ رَحِيلَ من يَعودُ ، وَأَنْتَ تَحْزَنُكَ وَمَا كَانَ تَأْخِيرُكَ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ؛ وكيف فَارَقْنَا
 بِلَادَكَ وَمَا بَقِيَتْ فِيهَا مَآشِيهِ ، إِلَّا وَهِيَ لَدَيْنَا مَآشِيهِ ؛ وَلَا جَارِيَهُ ، إِلَّا وَهِيَ فِي مِلْكِنَا
 جَارِيَهُ ؛ وَلَا سَارِيَهُ ، إِلَّا وَهِيَ بَيْنَ أَيْدِي المَعَاوِلِ سَارِيَهُ ؛ وَلَا زَرْعٌ إِلَّا وَهُوَ مُحْصُودٌ ،
 وَلَا مَوْجُودٌ إِلَّا وَهُوَ مِنْكَ مَفْقُودٌ ؛ وَمَا مَنَعَتْ تِلْكَ المَغَايِرُ الَّتِي هِيَ فِي رُءُوسِ الجِبَالِ
 الشَّاهِقَةِ ، وَلَا تِلْكَ الأَوْدِيَةُ الَّتِي فِي التُّحُومِ مُخْتَرِقَةٌ وَلِلْعُقُولِ خَارِقَةٌ ؛ وكيف سَقَيْنَا
 عَنْكَ وَلَمْ يَسْقِنَا إِلَى مَدِينَتِكَ أَنْطَاكِيَةَ خَبْرٌ ، وكيف وَصَلْنَا إِلَيْهَا وَأَنْتَ لَا تُصَدِّقُ
 أَنَّنا نَبْعُدُ عَنْكَ وَإِنْ بَعْدْنَا فَسَنَعُودُ عَلَى الأَثَرِ ؛ وَهَذَا نَحْنُ نُعَلِّمُكَ بِمَا تَمُّ ، وَنُفْهِمُكَ
 بِالْبَلَاءِ الَّذِي عَمَّ .

كَانَ رَحِيلُنَا عَنْكَ مِنْ طَرَابُلُسَ يَوْمَ الأَرْبَعَاءِ ، وَنَزَلْنَا أَنْطَاكِيَةَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ ؛
 وَفِي حَالِ التَّزُولِ خَرَجْتَ عَسَاكَ كُرْكُ لِلْمُبَارَاةِ وَتَنَاصَرُوا فَمَا نَصَرُوا ، وَأَسْرَمَ مِنْ بَيْنِهِمْ
 كَدُّ اسْطِطْلَ فَسَالَ فِي مَرَاجِعَةِ أَصْحَابِكَ ، فَدَخَلَ إِلَى المَدِينَةِ ، فَخَرَجَ هُوَ وَجَمَاعَةٌ مِنْ
 رُهْبَانِكَ : وَإِنْ رَأَيْهِمْ فِي الخَيْرِ مُخْتَلِفٌ ، وَقَوْلُهُمْ فِي الشَّرِّ وَاحِدٌ ؛ فَلَمَّا رَأَيْنَاهُمْ قَدْ فَاتَ
 فِيهِمُ القَوْتُ ، وَأَنَّهُمْ قَدْ قَدَّرَ اللهُ عَلَيْهِمُ المَوْتَ ؛ رَدَدْنَاهُمْ وَقُلْنَا : نَحْنُ السَّاعَةُ لَكُمْ
 مُخَاصِرٌ ، وَهَذَا هُوَ الأَوَّلُ فِي الإِنْذَارِ وَالْآخِرُ ؛ فَرَجَعُوا بِهِ مُتَشَبِّهِينَ بِفِعْلِكَ ، وَمُعْتَقِدِينَ
 أَنَّكَ تَدْرِكُهُمْ بِجَيْلِكَ وَرَجَلِكَ ؛ فَفِي بَعْضِ سَاعَةِ مَرَّ شَانُ المَرَّشَانِ ، وَدَاخَلَ الرَّهْبُ
 الرُّهْبَانَ ؛ وَلَآنَ لِلْبَلَاءِ القَسْطَلَانِ ، وَجَاءَهُمُ المَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ؛ وَفَتَحْنَاهَا بِالسَّيْفِ

(١) لم يرد في كتب اللغة جمع المغارة على مفار، وإنما جمعه مفارات .

(٢) كذا في الأصل باهمال جميع الحروف .

في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان؛ وقتلنا كل من آخرته لحفظها
والحماية عنها، وما كان أحد منهم إلا وعنده شيء من الدنيا فما بق أحد منا إلا وعنده
شيء منهم ومنها؛ فلورأيت خيالك وهي صرعى تحت أرجل الخيول، ويأرك
والهابة فيها تصول والكسابة فيها تجول؛ وأموالك وهي توزن بالقطار، وإماءك
وكل أربع منها تباع فتشترى من مالك دينار؛ ولورأيت كائنك وصلبانها قد كسرت
ونثرت، ومحفها من الأناجيل المزورة قد نثرت، وقبور البطارقة وقد تغيرت؛
ولورأيت عدوك المسلم وقد داس مكان القداس، والمذبح وقد ذبح فيه الراهب
والقسيس والشماس؛ والبطارقة وقد دهموا بطارقة، وأبناء المملكة وقد دخلوا
في المملكة؛ ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تَحترق، والقتلى بنار الدنيا قبل نار
الآخرة تَحترق؛ وقصورك وأحوالها قد حالت، وكنيسته بونصر وكنيسة القسيان
وقد زلت كل منهما وزالت - لكنت تقول: ياليتني كنت ترابا، وياليتني لم أوت
بهذا الخبر ككاتب؛ ولكانت نفسك تذهب من حسرتك، ولكنت تطفئ تلك النيران
بماء عبرتك؛ ولو رأيت مغانيك وقد أفقرت، ومرايك وقد أخذت في السويديّة
بمراكبك، لصارت شوائبك من شوائبك؛ ولتيقنت أن الإله الذي أنطاك أنطاكية
منك أسترجمها، والرّب الذي أعطاك قلعتها منك قلعتها ومن الأرض أقتلها. وتعلم
أنّا قد أخذنا - بحمد الله - منك ما كنت أخذته من حصون الإسلام، وهو دركوش،
وشقيف تل منس^(١)، وشقيف كفردين، وجميع ما كان لك في بلاد أنطاكية
في هذه المدة إقامة(؟) وكونك ما كنت بها، فيكون إما قتيلا وإما أسيرا، وإما جريحاً

(١) في الاصل "لميس" ولم نعر عليه في المعجم والذي في معجم البلدان لياقوت أن تل منس حصن

قرب معرة النعمان بالشام .

وإما كسيراً؛ وسلامة النفس هي التي يفرح بها الحى إذا شاهد الأموات، ولعل الله إنما أنكر لأن تستدرك من الطاعة والخدمة ما فات؛ ولما لم يسلم أحدٌ يخبرك بما جرى خبرناك، ولما لم يقدر أحدٌ [أن] يباشرك بالبشرى بسلامة نفسك وهلاك ماسواها بأشركناك بهذه المفاوضة وبشركناك، لتتحقق الأمر على ما جرى، وبعد هذه المكتوبة لا ينبغي لك أن تكذب لنا خبراً، كما أت بعيد هذه المخاطبة يجب أن لا تسأل عما جرى .



وهذه نسخة في هذا المعنى، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي، وهي :
هذه المكتوبة إلى فلان أقاله الله عثرة زلته ، وأقامه من حفرة ذلته ، وتجاوز له عن كبيرة فراره من جمع عدوه على قلته .

بلغنا أمر الواقعة التي لقي فيها [العدو^(١)] بجمع قليل غناؤه ، ضعيف بناؤه ؛ كشف في رأي العين جمعه ، خفيف في المعنى وقعه ونفعه ؛ أسرع في مفارقة المجال ، من الظل في الانتقال ، وأشبه في مائلة الوجود بالعدم من طيف الخيال ؛ يمشون^(٢) إليه بقلب واجب ، ويهتدون من تحرّصه برأي بينه وبين الصواب ألف حاجب ؛ ويأتون منه بمقدم يرى الواحد من عدوه كآلف ، ويتسرعون منه وراء مقدّم يمشى إلى الزحف ولكن إلى خلف ؛ جناح جيشه مهبط ، وطرف سنانة غضيض ؛ وساقه عسكره طالعه ، وطلائمه كالتجوم ولكن في حال كونها راجعه ؛ تأسف السيف بيمينه على ضارب ، وتأسى الحنايب حوله إذ تعدّ لمحارب فتعدّ لهارب ؛

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٨) .

(٢) في الأصل "يمضون عنه" والتصحيح من "حسن التوسل" .

(٣) كذا في "حسن التوسل" والذي في الأصل "ويهتدون من تجريه وتهذيبه بينه" الخ ، ولا معنى له .

وأنه حين وقعت العين على العين ، وأيقن عدوه لما رأى^(١) من عدده وعدده معالجة الحين ؛ أعجل نصول العدا عن وصولها ، وترك غنيمة الظفر لعداه بعد أن أشرف على حصولها ؛ تناديه ألسنة أسنته : الكرة الكرة فلا يلوى إلى نداءها ، وتشتكو إليه سيوفه الظمأ وقد رأت موارد الوريد فيردّها إلى الغمود بدائها ؛ ففتح عدوه مقاتل رجاله ، وأباحهم كرائم مال جنده وماله ؛ وخلق لهم خزائن سلاحه التي أعدّها لقتالهم فأصبحت معدّة لقتاله ؛ فنجّا منجى الحارث بن هشام ، وآب بسلامة أعذب منها - لو عقل - شرب كأس الحمام ؛ وأنسم بين أوليائه وأعدائه بسمة الفرار ، وكان يقال : النَّارُ ولا العار ، فجمع له فراره من الزحف بين النار والعار ؛ وعاد بجمع موفور من الجراح ، موقر من الإثم والأجراح ؛ لا علم بما جرى عند أسيافهم ، ولا شاهد بمشاهدتهم الوغى غير مواقع الضلّيا في أكثافهم ؛ فباى جنان يطمع في معاودة عدوه من هذا قلبه ، وهؤلاء حزبه ، [وذلك القتال قتاله وتلك الحرب حرب^(٢)ه] .

وبعد فإن كانت له حمية فستظهر آثارها ، أو أريحية فستشيب نأرها ؛ أو أنفة فستحمله على غسل هذه الدنية ، وتبعثه على طلب غايتين : إما شهادة مريحة أو حياة هنية ؛ والله تعالى يوقظ عزمه من سنته ، ويعجل له الاتصاف من عدوه قبل اكمال سنته .

الصنف العاشر

(في المكاتبات بالتضييق على أهل الجرائم)

قال في "موادّ البيان" : لم يزل السلطان يكتب إلى الولاة - عند ما ينتهى [إليه] من إقدام الرعايا على ارتكاب الجرائم ، وأستباحة المحارم ، وأقتراف المآثم ؛ كالزنا

(١) في "حسن التوسل" «ولا يلتفت» .

(٢) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٩) .

واللواط، وشرب الخمر، وقطع الطرق، والغصب والتظالم، وما يجري هذا المجرى - بالتضييق عليهم، وإقامة حدود الله تعالى فيهم .

قال : والرسم فيها أن تفتح بحمد الله البادئ بنعمته قبل أفتراض طاعته، الممتن بفضلَه قبل إيجاب شكره؛ خالق الخلائق جوداً وكرماً، وموسعهم مناً ونعماً؛ الذي أختار دين الإسلام وطهره من الأرجاس، ونزهه عن الأدناس، وأختص به صفوته من الناس؛ وأبتعث به محمداً سيِّد المرسلين : ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ . يحمده أمير المؤمنين أن قوَّض إليه إيالة خلقه، وأقدره على القيام بخدمته؛ ونصبه لإعزاز دينه، والمحافضة على مفروضه ومسئونه؛ وزيادة العباد عن محاربه التي نهى عن التعدي إليها، وإقامة الحدود عليهم فيها؛ ويسأله الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم يقال : وإنَّ أمير المؤمنين يرى أنَّ من أعظم نعم الله تعالى عليه توفيقه لحفظ ما استَحَفَّظَه من شريعته، ورعاية ما استرعاه من بريته، وتوفير القيام على مَنْ قلده النظر فيهم، واعتماد ما يعود بالصَّلاح في الدِّين والدُّنيا عليهم؛ ومساواته بين قريهم وبعيدهم في تفقده، ومماثلته بين قاصيهم ودانيهم في تعهده؛ فلا ينال القريب [فقط] نصيباً من رعايته ويعلم جاهلهم، ويهْدِي حائرهم، ويُشجِّد بصائرهم، ويُثَقِّف مآذِنهم، ويصْلِح فاسدَهم، ويَنْخَوِّم من مَواغِظه بما يُردِّ الغلَّ، وَيُشْفِي العِلَّ؛ وَيَنْسَخ الشَّكَّ باليقين، وَيُقَيِّسُ مَقَاسِ النُّورِ المبين [فمن] أصغى إلى إرشاده سَعِدَ جَدُّه، وَوَرَى زَنْدُه، وَأُخِذَ يَوْمُه وَغَدُه؛ ومن خالف عن أمره ضلَّ مَسْعَاهُ، وَخَسِرَ آخِرَتَه وَدُنْيَاهُ، ودعا إلى اتباع أمر الله تعالى في تقويته وإصلاحه، والكف بإقامة الحدود عليه من حَمَاحِه .

وَأَتَيْتُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَقْدَمَ عَلَيْهِ الْأَحْدَاثُ وَأَهْلُ الدَّعَاةِ قَبْلَكُمْ مِنْ احْتِقَابِ
الْآثَامِ ، وَأَسْتِدْمَاحِ مَرَاكِبِ الْحَرَامِ ، وَالْأَسْتِهْتَارِ بِمَحْظُورِ اللَّذَاتِ ، وَالْإِتْجَابِ عَلَى
دِينِ الشَّهَوَاتِ ، الَّتِي تَسْلُخُ مِنَ الدِّينِ ، وَتُخْرِجُ عَنْ دَائِرَةِ الْمُسْلِمِينَ ؛ وَتَدْفَعُ عَنْ تَأْيِيدِ
الْعِبَادَاتِ ، وَإِقَامَةِ الصَّلَوَاتِ ؛ وَتَنْتَظِمُ فِي سِلْكِ الْبَهَائِمِ الْمُرْسَلَةِ ، وَالسَّوَائِمِ الْمُهْمَلَةِ .
وَتَقْصِيرُ مَشَائِخِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ عَنْ كَفِّهِمْ ، وَالْأَخْذِ عَلَى أَكْفِهِمْ ؛ وَتَعْرِيفُهُمْ وَجُوهَ
مَرَاشِدِهِمْ وَتَقْوِيمَ أَوْدِهِمْ ، فَأَمْتَعَضَ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَشْفَقَ مِنْ تَزُولِ الْقَوَارِعِ وَالْمَثَلَاتِ ،
وَحُلُولِ الْبَلِيَّاتِ وَالْآيَاتِ ؛ وَارْتَجَعَ مَا أَوْدَعَكُمْ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ نِعْمَتِهِ ، وَأَتَرَاجَ مَا أَلْبَسَكُمْ
مِنْ رَحْمَتِهِ ؛ وَبَادَرَ بِكَتَابِهِ مُوقِظًا لَغَافِلِكُمْ ، وَمُبْصِّرًا لَذَاهِلِكُمْ ؛ وَبَاعَثَنَا لَكُمْ عَلَى مَرَاضِيهِ
الْأَوَّلَى ، وَمَعَاوِدِ الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى ؛ وَمَبَادِرَةِ آجَالِكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ ، وَالْأَخْذِ لِأُحْرَاكُمْ
مِنْ أَوْلَاكُمْ ، وَلَسَقَمِكُمْ مِنْ صَحَّتِكُمْ ، وَلَتَوْمِكُمْ مِنْ يَقْظَتِكُمْ ؛ عَالِمِينَ أَنَّ الدُّنْيَا لَعِبٌّ
وَلَهْوٌ ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ، وَأَنْتُمْ فِيهَا كَسْفَرٍ شَارِفُوا الْمَثَلَ . فَاجْهَدُوا عِبَادَ اللَّهِ
وَأَحْتَشِدُوا ، وَأَقْلِعُوا وَارْجِعُوا ، وَاسْمَعُوا وَعُودُوا ؛ فَكُنْكُمْ وَاللَّهُ وَقَدْ تَوَصَّحَتْ خُدْعُهَا ،
وَتَصَرَّمَ مَتَاعُهَا ، وَجَلَّ مَتَوَقَّعُهَا ؛ وَالسَّعِيدُ مَنْ وَثِقَ بِمَا قَدَّمَ لِنَفْسِهِ بَعْدَ نَقَادِ أَيَّامِهِ ،
وَوُرُودِ حِمَامِهِ ؛ وَالشَّقِيُّ مَنْ أَفْرَطَ وَفَرَطَ ، وَنَدِمَ حَيْثُ لَا مَنَدَمَ . وَأَوْعِزْ إِلَى وَإِلَى الْحَرْبِ
فَلَانِ بِقِرَاءَةِ مَا نَصَّ فِيهِ عَلَيْكُمْ ، وَاخْتِبَارِ سَيْرِكُمْ بَعْدَ مَرُورِهِ عَلَى أَسْمَاعِكُمْ ؛ فَمَنْ رَغِبَ
فِي التَّقْوَى ، وَآثَرَ الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا ؛ عَرَفَ ذَلِكَ وَتَوَخَّاهُ بِتَكْرِمَتِهِ وَتَحَوَّلَهُ ، وَمَنْ أَبَى
إِلَّا غَوَايَةَ وَضَلَالًا ، وَبِطَالَةً وَغِيَالًا ؛ أَقَامَ حَدَّ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ غَيْرَ مُرَاقِبٍ فِيهِ . فَرَحِمَ
اللَّهُ عِبْدًا صَانَ نَفْسَهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ عَنِ الْعَارِ ، وَحَمَاهَا فِي الْآخِرَةِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ ؛
وَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَرْجُو أَنْ يَنْفَعَكُمْ اللَّهُ بِهَدَايَتِهِ ، وَيُشْفِيَ صُدُورَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ ، وَيُرْشِدَكُمْ
إِلَى مَا يُفِضِي بِكُمْ إِلَى الْكِفَايَةِ وَالْحِمَايَةِ . فَلْيَعْلَمْ فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ ذَلِكَ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
وَرَسْمِهِ ، وَلْيَعْمَلْ عَلَيْهِ بِجُحْتِهِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الصنف الحادى عشر

(الكتب فى النهى عن التنازع فى الدين)

قال فى "مواد البيان" : من أھم ما صرف إلیه السلطان تفقده ، ووقف علیه [تعھده] أمر الرعايا فى أعماله ، وتنفید الكتب إلیهم بالنهى عن التنازع فى الدين ، وحسن أسباب المجادلة والمراء ، والتحذیر من اتباع البدع والأهواء ، والإخلاد إلى مضلّ النحل والآراء : لأنه متى فسح لهم فى هذا الباب صاروا شیعا متباینين ، وفرقا متحاربين ؛ وأنشقت عصاهم ، وأتقضت حیلهم ، وخرجوا عن أحكام أهل السلامة إلى أحكام أهل الفتنة ، وعاد ضرر ذلك على الدين والسلطان . ولهذا صرف إلیه الساسة الحزمة من الملوك الأهتمام ، ولم یخلوا بحسم مادته على تغاير الأيام .

ثم قال : والرسم فیها أن تصدر بحمد الله تعالى على نعمه فى تألیف كلمة أهل الإسلام ، وامن به علیهم من الاتفاق والائتنام ؛ وشكره على موهبته فى نزع الغل من صدورهم ، والتألیف بین قلوبهم ؛ وتضییرهم إخوانا متصافین ، وخلاناً متوافین ؛ وعونهم بما وفقهم له من إظهارهم على من شق عصاهم ، وإقذارهم بما منحهم من الألفة على مرأمة من رامهم ؛ والصلاة على سيدنا محمد صلى الله علیه وعلى آله وسلم . ثم یشفع هذا بأن أمير المؤمنين بما مكّنه الله تعالى من مرضیه ، ووفقه له من القيام بفرضه ، والنهوض بحقوق طاعته ، والعمل بكتابه وسنته ، ورغبته فى الخیر العام ، وشمول الصلاح لكافة الأنام - لا یزال یحض رعیته على ما یقضى بسداد دنیاهم ، وحسن المنقلب فى آخرهم ؛ ویرى أن أنفع ذلك عائده ، وأجره فائده ؛ ما رفع عنهم أسباب التنافر ، ودعاهم إلى التعاضد والتظافر ؛ وحال بينهم وبين الخوض فى محدث النحل والآراء ، والإصغاء إلى مضلّ البدع والأهواء ؛ التى

تَصُدُّ عَنْ سَنَنِ الْهُدَى، وَتُلْقِي فِي مَهَاوِي الرَّدَى، وَتَدْعُو إِلَى شَقِّ الْعَصَا، وَتَقْضِي بَانْتِثَارِ النَّظَامِ، وَآخْتِلَافِ الْأَثَامِ، وَأَنْفِصَامِ عُرَى الْإِسْلَامِ. وَكَفَّهِمْ عَنِ الْمُمَارَاةِ فِي الدِّينِ، وَالْإِضْغَاءِ إِلَى سُنَّةِ الْمُضِلِّينَ، الْمُعْطَلَّةِ لِلْسَّنَنِ، الْقَادِحَةِ لِلْفِتَنِ، الدَّاعِيَةِ إِلَى اخْتِيقَابِ الْأَثَامِ، وَإِرَاقَةِ الدِّمَاءِ الْحَرَامِ، وَنَحْوِ هَذَا مِمَّا يَضَاهِيهِ.

ثم يقول: وَأَتَمِّهِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَلْتَفَاتِكُمْ عَنْ مَعَاشِكُمْ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لِدُنْيَاكُمْ قِيَامًا، وَعِبَادَتِكُمْ الَّتِي صَيَّرَهَا لِآخِرَتِكُمْ نِظَامًا، وَاقْبَالُكُمْ عَلَى الْمُمَارَاةِ وَالْمُنَازَعَةِ، وَالْمُنَاطَرَةِ وَالْمُجَادَلَةِ، إِلَى شُكُوكِ يُقِيمُهَا مَنْ يَرِغُبُ فِي الرَّيَاسَةِ وَالتَّقَدُّمِ: لِيَفُوزَ بِخَبِيثِ الْمَطْعَمِ، الَّذِي يُعْنَى الْبَصَائِرِ، وَيُقْسِدُ السَّرَائِرَ، وَيَقْدَحُ زَنْدَ الضَّلَالِ، وَيُسَبِّ نَارَ الْمِحَالِ وَالِاتِّحَالِ، فَاُمْتَعْصَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ذَلِكَ وَخَافَ عَلَيْكُمْ أَلِيمَ عَاجِلَتِهِ، وَذَمِيمَ آجِلَتِهِ، وَبَادَرَكُمْ بِكِتَابِهِ هَذَا مُنَبِّهًا لِفَافِكُمْ، وَمُرْشِدًا لِحَافِلِكُمْ، وَبَاعِثًا لَكُمْ عَلَى التَّشَاغُلِ بِمَا أَطَابَ أَخْبَارَكُمْ، وَحَسَّنَ آثَارَكُمْ: مِنْ تِلَاوَةِ كِتَابِ اللَّهِ الَّذِي آثَرَكُمْ بِتِلَاوَتِهِ، وَزِيَارَةِ بَيْتِ عِبَادَتِهِ، وَالتَّادِبِ بِأَدَبِ نَبِيِّهِ وَعِزَّتِهِ، وَأَوْعَزَ إِلَى النَّائِبِ فِي الْحَرْبِ بِتَقْوِيمِ مَنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِ، وَتَقْيِيفِ مَنْ أَصْرَغَ عَلَى غِيهِ، وَأَنْ يَحْسِمَ الدَّاءَ قَبْلَ اسْتِشْرَائِهِ، وَيَسْتَدْرِكَهُ دُوَيْنَ اسْتِفْعَالِهِ، فَاصْغَوْا إِلَى زَوَاجِرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَوَاعِظِهِ، وَاقْتَدُوا بِهَدْيِهِ وَمَرَّاشِدِهِ، لَتَفُوزُوا بِطَاعَتِهِ، وَتَسْعَدُوا بِرِضَاهِ، وَتَسْلَمُوا فِي الْحَاضِرِ، مِنْ مَهَانَةٍ أَنْتُمْ بَغِيرُهَا أَوْلَى، إِنْ سَلَكَتُمْ الطَّرِيقَةَ الْمُثَلَّى، وَفِي الْغَائِبِ مِمَّا أَعَدَّ اللَّهُ لِمَنْ خَالَفَ عَنْ أَمْرِهِ مِنَ الْعِقَابِ فِي الدَّارِ الْآخِرَى، فَاعْلَمُوا هَذَا وَاعْمَلُوا بِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قال: وَقَدْ يَكْتُبُ السُّلْطَانُ إِلَى الرَّعِيَّةِ بِاللَّهْمِ عَنِ الْفَائِزِ بِالْبَادِيَةِ وَالتَّنَازَعِ فِي الْعَصِيَّةِ. ثم قال: وَالطَّرِيقَةُ فِي هَذَا الْمَعْنَى مُشْتَقَّةٌ مِنْ طَرِيقَةِ هَذَا الرَّسْمِ.

الصنف الثاني عشر

(المكتبة بالأوامر والنواهي)

قال في "موادّ البيان" : على هذه الكتب مدارُّ أشغال السلطان في أعماله ، لأنها النافذة في تصريف الأمور وتنفيذ المراسيم ولَايَةً وَنَحْمَالَةً .

قال : وليس لهذا أمثلة فُتُورِدَها ، لِكِنَّه يَنْبَغِي للكاتب أن يُوَكِّد القول بها ، فإن الأمر فيها والنهي - وإن اختلف نَظْمُهُما - نوعٌ واحد : لأن كُلَّ مأمورٍ به مَنهْيٌ عن ضِدِّه ، وكُلُّ مَنهْيٍ عنه مأمورٌ بِضِدِّه ؛ فيَنْبَغِي له أن يُوَكِّد القول في أَمْتِثَالِ ما أَمَرَ ، والعملِ عليه والإِنْفَازِله ، والأتِّهَاءِ عَمَانِهْيَ عنه ، والحدَرِ من الإلْهَامِ به . ويجزم الأمر في العبارة عنهما جَزْماً تاماً لا يُتِمَّكُن معه من الإخلال ببعضهما والتَّقْصِصِ فيهما لَهَوًى ؛ ويأتى من المبالغة بما يُضَيِّقُ العُدْرَ ، ومتى وقع تقصيرٌ أَوْتَقَلَّ عَمَّا حُدِّدَ فيهما ، فَإِنَّمَا يُمَثِّلُ ذلك بِمَثَلٍ جامعة مع تَفَنُّنِ المعاني التي يَأْمُرُ بها وينهى عنها .

ثم قال : والكاتب إذا عرف الترتيب الواقع في هذين الغرضين على طريق الإجمال ، أَمَكَّنَه أن يَسْتَطِعه إذا أَحْتَاج إلى التفصيل والبيان بمشيئة الله تعالى .

وأعلم أنه كان لِلْخُلَفَاءِ والملوكِ وَلَوَاةِ الأمور في قديم الزمان عنايةٌ بالكُتَابَةِ إلى الرعايا بالأوامر والنواهي المتعلقة بالدين : من الأمرِ بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وما يجري مجرى ذلك ؛ وإلى الْعَمَّالِ بالوَصِيَّةِ بالرعايا ، والاجتهاد فيما لَدَيْهِمْ من جَبَايَةِ الخِرَاجِ ، والاهتمام بأمر الدَّوَاوِينِ ، وما أشبه ذلك .

فأما الأوامرُ والنواهي المتعلقة بالدين ، فقد تقدّم في الكلام على مُصْطَلَحِ أهل الغُربِ في أوائل هذه المقالة من إنشاء أبي زيد الفازازي ما أغْنَى ذِكْرُه هناك عن إعادته هنا أو ذكر غيره .

وأما الأوامر والنواهي المتعلقة بأمور السلطنة، فمن ذلك ما كتب به أبو عبد الله
أبن الحنان، عن الأمير أبي عبد الله بن هود أحد ملوك الطوائف بالأندلس في الرفق
بالرعية، وهو :

أما بعد حمد الله تعالى معلى منار الحق ورافعه، ومولى متوالى الإنعام ومتتابعه،
والصلاة على سيدنا محمد رسوله مشفع الحشر وشافعه، المبعوث ببدايع الحكم
وجواميعه، وعلى آله وصحبه المبشرين إلى مقاصده العلية ومنارعه، والذابين عن حوزة
الإسلام بمواضى الاعتزام وقواطعه، والرضا عن الخليفة الإمام العبادى أمير المؤمنين
ذى المجد الذى لا ينال شمو مطالعه .

فإنا كتبنا إليكم، كتب الله لكم عزة قدحها بالثبوت فائز، وسعادة قسطها للنماء
حائز، من فلانة : وكلمة الحق منصورة اللواء، منشورة الأضواء، والتوكل على الله
فى الإعادة والإبداء، والتسليم إليه من أطأ أمرنا فى الانتهاء والابتداء، وحمد الله تعالى
وشكره ووصلتنا إلى نيل مزيد النعم والآلاء، ومكانتكم لدينا مكانة السننى المناصب،
المستبى إلى كرام المستمات والمناسب، المتحل فى الغناء والاكتفاء، والخلوص
والصفاء، بأكرم السجيات والمناقب، المعلوم مالدیه من المناصحة السالكة بأكرم
السجيات فى المناحى الحسان على المهيع الأوضح والسنن اللاحب .

وقد وقفنا على كتابكم معلما بخبر فلانة وبما رأيتوه من المصلحة فى تحصيلها،
والاجتهاد فى سبب تأمينها، ونحن نعلم أنكم تريدون الإصلاح، وتتوخون مانتوسمون
فيه النجاح، لكن أهم الأمور عندنا، وأولى ما يوافق غرضنا وقصدنا، الرفق
بالرعية، وحملها على قوانين الإحسان المرعية، وعلى أثر وصول كتابكم وصلنا كتاب
[أهل] فلانة المذكورة يشكون ضرر الخدمة المنصرفين فيهم، ويتظلمون من
متحيفهم ومتعسفهم، وفى هذا ما لا يخفى عليكم، ولا ترضون به لو أنهى إليكم،

فإنه إذا كان الناظر في خِدْمَةِ مَنْ لَا يُحْسِنُ سِيَاسَةَ الْأُمُورِ ، وَلَا يَعْلَمُ طَرِيقَ الرِّفْقِ الحَاوِيَةَ لِرِفْقِ الْخَاصَّةِ وَالْجُمْهُورِ ؛ أَعَادَ التَّسْكِينَ تَغْيِيرًا ، وَالتَّيْسِيرَ تَعْسِيرًا ؛ وَتَعْلَمُونَ أَنَّا لَا نَقْدِمُ عَلَى إِثَارِ الْعَدْلِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ الْمُسْلِمِينَ عَمَلًا ، وَلَا نَبْنِي لَهُمْ بَاطِنَةً بَغِيرَ التَّخْفِيفِ عَنْهُمْ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ بَدَلًا ؛ وَأَنْتُمْ أَوَّلُ وَأَوَّلَى مَنْ يُعْتَقَدُ فِيهِ أَنَّهُ يُكَلِّ هَذَا الْمَقْصِدَ ، وَيَتَحَرَّى فِي مَصَالِحِ الرِّعَايَا هَذَا السَّنَنَ الْأَرْشَدَ ؛ وَقَدْ خَاطَبْنَا أَهْلَ فَلَانَةِ بِمَا يَذْهَبُ وَجَلَّتْهُمْ ، وَيَسْطُ أَمَلَتْهُمْ ؛ وَعَرَفْنَاكُمْ بِأَنْتُمْ لَوْ عَلِمْتُمْ مَا هُوَ جَارٍ عَلَيْهِمْ مِنْ [بَعْضِ] الْخِدْمَةِ لِأَخْدَتُمْ عَلَى يَدِهِ ، وَجَازَ يَقُوهُ بِسُوءِ مَعْتَمِدِهِ ؛ وَأَشْعَرْنَاكُمْ بِأَنَّ قَدْ آسَتْ وَصِينَاكُمْ بِهِمْ خَيْرًا ، وَنَبَهْنَاكُمْ عَلَى مَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ ضَرِيًّا وَيَرْفَعُ ضَرِيًّا ؛ وَأَنْتُمْ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - تَسْتَأْنِفُونَ نَظْرًا جَمِيلًا ، وَتَوْنَحُونَ عَنْهُمْ الْخِدْمَةَ الَّذِينَ لَا يَسْلُكُونَ مِنَ السِّيَاسَةِ سَبِيلًا ؛ وَتَقْدَمُونَ عَلَيْهِمْ مَنْ تَحْسُنُ فِيهِمْ سَيْرَتُهُ ، وَتَكْرُمُ فِي تَمْشِيَةِ الرِّفْقِ عَلَانِيَتُهُ وَسِرِّيَّتُهُ ؛ وَمِثْلَكُمْ لَا يُؤَكِّدُ عَلَيْهِ فِي مَذْهَبٍ تَحْسِنُ عَوَاقِبُهُ ، وَغَرَضُ يُوَافِقُهُ الْقَصْدُ الْإِحْتِيَاطِيّ وَيُصَاحِبُهُ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الصنف الثالث عشر

(المكاتبات عند حدوث الآيات السماوية)

قال في "مواد البيان" : جرت العادة أن يَكْتُبَ السُّلْطَانُ إِلَى الرِّعَايَا - عِنْدَ حَدُوثِ الْآيَاتِ الْمُهَوَّلَةِ الَّتِي يُرِيدُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا إِرْشَادَ عِبَادِهِ إِلَى الْإِقْلَاعِ عَنْ مَعْصِيَتِهِ ، وَالْإِقْبَالَ عَلَى طَاعَتِهِ ، كَالرِّيَّاحِ الْعَوَاصِفِ ، وَالزَّلَازِلِ وَالصَّوَاعِقِ ، وَاحْتِبَاسِ الْقَطَرِ وَخُرُوجِهِ فِي التَّسْكَابِ عَمَّا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ - كُتُبًا يُضْمِنُهَا مِنَ الْوَعْظِ الشَّافِي الرِّفْقِ مَا يَأْخُذُ بِجَمَاعِ الْقُلُوبِ ، وَيُشْعِرُهَا التَّقْوَى وَالرَّهْبَةَ ، وَيُبْعَثُ عَلَى الْمُرَاقَبَةِ وَالنَّظَرِ فِي الْعَاقِبَةِ .

قال : وينبغى للكاتب أن يتلطف في الموعظة ، ويبالغ في الذكرى التي تُحطّر الخواطر وتقدح الأنفس ، وتحرك العزائم نحو الإخلاص ؛ فإنه إذا أبرز هذه المعاني في صور [تُشعر ^(١)] الخيفة من غضب الله تعالى وعقابه ، وترغب في عفوه وتوابه ؛ نفع الله بذلك (؟) من رغب عن الهوى ، ورغب في التقوى بكتابته .

قال : والرسم فيها أن تفتح بحمد الله تعالى على آلائه التي يفيضها ابتلاء واختبارا ، وآياته التي يرسلها تحويفا وإنذارا ، وموهبته في التوقيف بسايع نعمته على طاعته ، والتحذير بدافع نعمته من معصيته . والصلاة على رسوله الذي أُنقذ بشفاعته ، وعصم من نزول القوارع بنبوته . ثم يقدم مقدمة تتضمن أن الله تعالى يقدم الإعدار أمام سُخطه وعذابه ، ويبدأ بالإنذار قبل غضبه وعقابه ؛ فمن استيقظ من سنته ، ونظر لعاقبته [ونهض ^(١)] إلى طاعته ، وأقلع عن معصيته ، كشف الرين عن قلبه ، وضاعف أجره ، ومن أضرب عن موعظته ، وتعمى عن تبصيره وتذكيره ، أخذه على غرته ، وسلبه سربال نعمته .

ثم يأخذ في حث الأمة على الفزع إلى الصلوات ، والمسارة إلى بيوت العبادات ؛ والإكثار من التضرع والخشوع ، والاستكانة والخنوع ، بإذراء سحائب الدموع ؛ وإخلاص التوبة عن مُحْتَقَب الآثام ومُحْتَرَج الأوزار ، والتوسل إلى الله تعالى في قبول الإنابة بقلوب نقيه ، وطويات على الطهارة مطوية ؛ وسرائر صريحة ، ونيات صحيحة ؛ يصدقها الندم على الماضي ، وعقد العزم على الإقلاع في الآتي ؛ والرغبة إليه في رفع سُخطه وإنزال رحمته ، وما يجارى هذا .

قلت : وهذا الصنف من المكاتبات قد ترك في زماننا فلا عناية لأحد به أصلا ، وإن كان مما يجب الاهتمام به وتقديمه .

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح يقتضيه المقام .

الصنف الرابع عشر

(المكتبات في التنبيه على شرف مواسم العبادة وشريف الأزمنة)

قال في "مواد البيان" : إن الله وَقَّتَ لعباده أوقاتاً عَظُم شأنها ، ورفع مكانها ، وأمرهم أن يتقربوا فيها إليه بتأدية ما فرضه عليهم لُطْفًا بهم ورأفَةً ، وَحَنَانًا وَرَحْمَةً .

قال : ولم يزل السلطان يكتب إلى عُمَّالِهِ بتنبيه الرعايا عليها ، وتَعْرِيفِهِمْ فضل العبادة فيها : ليستقبلوها بالإِخْبَاتِ والخُشُوعِ ، وَيَتَّقَوْهَا بالتَضَرُّعِ والخُضُوعِ ؛ ويتوسلوا في قَبُولِ التَّوْبَاتِ ، وَغُفْرَانِ الْخَطِيئَاتِ ؛ حِفْظًا لنظام الدين ، وَتَقْقُدًا لمصالح المسلمين .

قال : وينبغي للكاتب أن يحسن التَّأَنِّي في هذه الكتب ^(١) ويُدَكِّر النَّاسِيَّ وينبه الغَافِلَ اللّاهِي ، والمُهْمِلَ السَّاهِي ؛ وَيُحَرِّكَ النفوس نحو مصالحها ، ويعتَمِدَ على الأخذ بفاضل الأعمال وصالحها .

قال : والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله تعالى على أن وهب لعباده أوقاتاً يتقبل فيها قُرْبَهُمْ وأَعْمَالَهُمْ ، وَيُحَقِّقُ بالإِبانَةِ إليه عند حلولها أَوْزَارَهُمْ وأَنْقَالَهُمْ ؛ فيَغْفِرَ مُسْتَغْفِرَهُمْ ، وَيَعْفُو عَنْ مُسِيئَتِهِمْ ؛ ويتقبل التَّوْبَةَ عَنْ تَائِبِهِمْ . والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله . ثم يَقدِّمُ مقدمة مبنية على تعظيم هذه الأوقات ، والإِبانَةِ عَمَّا في قَصْرِهَا على العبادات ، والمسابقة إلى الخيرات ، من عظيم الثواب . وَيَسْفَعُ بِبِعْثِ الْوَلَاةِ على أخذ الرعايا بالمحافظة على السَّنَنِ ، وَتَعَهُّدِ حَقِّ الله تعالى فيها ، وَالتَّوَسُّعِ في توكيد الْحُجَّةِ ، وَنَقْيِ الشُّبْهِهِ ؛ وإيراد المواظع الرادعة ، والزواجر الوازعة ؛ التي تعود بِشَحْذِ البصائر ، وَصَفَاءِ الضَّمَائِرِ ، والإِثْبَانِ بحقوق هذه الأوقات وواجباتها ،

(١) بياض بالاصل مقدار كلمة .

وَالْفَوْزِ بِمَا يُؤَفِّرُهُ مِنْ جَزِيلِ بَرَكَاتِهَا ، وَالتَّوَفُّرِ عَلَى حُسْنِ مجاورتها ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِبَذْلِ الصَّدَقَاتِ ، وَالْإِقْبَالِ عَلَى الصَّلَوَاتِ وَزِيَارَةِ بُيُوتِ الْعِبَادَاتِ ، وَمُذَاكِرَةِ أَهْلِ الدِّينِ ، وَالسَّعْيِ فِي مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ ؛ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَنَاسِبُهُ .

ثم قال : فَإِنْ كَانَ الْكَتَابُ مَقْصُورًا عَلَى الدُّعَاءِ إِلَى الْحَجِّ ، أَفْتَتَحْ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ تَعَالَى أَنْ جَعَلَ لِعِبَادِهِ حَرَمًا آمِنًا يُحَصِّنُ ذُنُوبَهُمْ بِزِيَارَتِهِ ، وَيَمْحُو آثَامَهُمْ بِحُجَّةٍ وَوَفَادَتِهِ ؛ وَيُلِي ذَلِكَ مَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الْحَثِّ عَلَى تَأْدِيَةِ الْمَنَاسِكَ ، وَتَكْيِيلِ الْفَرَائِضِ وَالسُّنَنِ ، وَزِيَارَةِ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَكَذَلِكَ الْحُكْمُ فِي سَائِرِ الْأَبْوَابِ الدِّينِيَّةِ .

الصف الخامس عشر

(المكتبة بالسلامة في الركوب في المواسم والأعياد وما ينحصر)

في سلكها من المواكب الجامعة)

قال في "موادّ البيان" : جَرَتْ الْعَادَةُ أَنْ يَكْتُبَ السُّلْطَانُ عُمَّالَهُ وَوُلاَتَهُ بِسَلَامَةِ الْمَوَاسِمِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا : لِأَنَّهَا تُشَاهَدُ لِمَجْمُوعِ أَصْنَافِ الرِّعَايَا وَذَوِي الْأَرْوَافِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالْمَذَاهِبِ الْمُتَبَايِنَةِ ، وَالْقُلُوبِ الْمُتَعَادِيَةِ وَالْمُنْتَصَحِبَةِ فِي أَمْرِ الدِّينِ وَالْدُنْيَا ؛ وَكُلُّ مُتَرَبِّصٍ لِفِتْنَةٍ يَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا . فَلَا تَكَادُ هَذِهِ الْمَشَاهِدُ تَخْلُو مِنْ ثَوَرَةٍ وَحْدَةٍ أَحْدَثَتْ مُنْكَرَةً تُقْضَى إِلَى الْفِتَنِ الَّتِي لَا تُرْفَعُ . فَإِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِالسَّلَامَةِ مِنْهَا ، وَجَبَ التَّحَدُّثُ بِنِعْمَتِهِ ، وَالشُّكْرُ لِمَشِيئَتِهِ ؛ وَأَنْ يَكْتُبَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِسَلَامَةِ مَا قَبْلَهُ إِلَى عُمَّالِهِ ، لِيَسْكُنَ الْكَافَّةُ إِلَى ذَلِكَ ، وَيَشْتَرِكُوا فِي حَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَوَاسِمَ الَّتِي كَانَ يَعْتَادُ الْخُلَفَاءُ الرُّكُوبَ فِيهَا وَالْكَتَابَةَ بِالسَّلَامَةِ مِنْهَا هِيَ : عِيدُ الْفِطْرِ ، وَعِيدُ النَّحْرِ . وَكَانَ الْخُلَفَاءُ الْفَاطِمِيُّونَ بِالْأَيْدِي الْمِصْرِيَّةِ يَعْتَادُونَ

مع ذلك الركوب في غُرَّةِ السَّنة ، وفي أوَّلِ رَمَضان ، وفي الجمعة الأولى ، والجمعة الثانية ، والجمعة الثالثة منه ، على ما تقدَّم ذِكرُه في الكلام على ترتيب المملكة في المقالة الثانية . وكذلك "عيد الغدير" : وهو عيدٌ من أعياد الشيعة كما سيأتى ذكره . ونحن نُشير إلى ذِكر مَوَكبها مَوْكبًا مَوْكبًا ، ونذكر ما جرت به العادة في الكتابة في البشارة بالسلامة في ركوب كُلِّ مَوْكب منها .

الأول — البشارة بالسلامة في الركوب في غُرَّةِ السنة . وقد تقدَّم الكلام على صورة المَوْكب في الكلام على ترتيب المملكة في الدولة الفاطمية بالديار المصرية في المقالة الثانية .

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، أورده أبو الفضل الصوري في تذكرته ، وهي : الحمد لله الذى لم يزلْ يُؤبى لإحساننا وإنعاما ، وإذا أبلى عبيدهَ عامًا أجدهم بفضله عامًا ؛ فقد أمدكم معاشر^(١) [الخلفاء] كرمًا ومنًا ، وآتاكم من جوده أكثر مما يُمتنى ؛ ومنحكم من عطائه ما يُوفى على ما أردتموه ، ﴿وتخَّر لكم الليل والنهار وآتاكم من كلِّ ماسأَلْتُمُوهُ﴾ وقد آستقبلتم هذه السنة السعيدة ، وإذا عَمِلْتُم بالطاعة كنتم مستنجزين من نواب الله الأغراض البعيدة .

وصلَّى الله على سيدنا محمد نبيِّه الذى غدت الجنة مدخرة لمن عَمِلَ بهداه لما سَمِعَهُ ، ومُهَيَّاة لمن آمن به وآتبع الثور الذى أنزل معه ؛ وبين إرشاده ما تجرى أمور السنين عليه في العدد والحساب ، ونسخ ما كانت الجاهلية [تفعله] فيه زيادة في الكفر وضلالًا عن الصواب ؛ وعلى أخيه وابن عمِّه أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى كُلَّ الله الإسلام بإمامته ، وضاعف الأجر لأهل ولايته ، ومنح شيعته مقبول شفاعته ؛

(١) يياض بالأصل ، والتصحيح من المقام .

وعلى الأئمة من ذريتهما خلفاء الله على خلقه ، والقائمين بواجب حقه ؛ والعالمين
في سياسة الكافة بما يرضيه سبحانه ، ويضمن غفرانه ورضوانه ، وسلم عليهم
أجمعين ، سلاماً باقياً إلى يوم الدين .

وإن أحق النعم بنشر الذكر ، وأوجبها للوصف وإعمال الفكر ؛ نعمة رفعت الشك
وأزالت اللبس ، ووضح ضيائها لأولى الألباب ووضح الشمس ؛ وأشرت الناس
فتضاعفت الفائدة لديهم ، وأنفعوا بذلك في تواريحهم ومعاملاتهم ومآلهم وعليهم ؛
وتلك [هي] المعرفة باليوم الذي هو مطلع السنة وأولها ، ومبدؤها ومُستقبلها ؛
وحقيقة ذلك ظهور إمام كل زمان . وكان ظهور إمام زماننا مولانا وسيدنا الإمام
فلان - ليتسوى في الشرف برؤيته العامة والخاصة ، فيكون استقلال ركابه إشعاراً
بأن اليوم الذي تجلّى فيه لأوليائه ، ولرعاياه المتقيين ظلّ لوانه ؛ هو افتتاح السنة
وأول محرمها ، وعليه المعتمد في عدد تامّ الشهور وناقصها من مُفتتحها إلى مُختتمها -
يوم كذا غرة المحرم من سنة كذا ، في عساكر لا يحصر عددها ، وقبائل لا ينقطع
مددها ؛ وإذا اضطربت نار الكفر والتهبت ، طفت بأنوارهم وخبّت ؛ وقد تقلدت
هنديّة تروع إذا أشرقت وسكنت ، فما الظنّ إذا أصطحبت ؛ والأرض بمرورها عليها
مبهجة موقّعة ، وملائكة الله عزّ وجلّ حافّة به مُحَدِّقه ؛ فأذن بأن اليوم المذكور هو
غرة السنة المعينة ، وأن اليوم الفلاني أمسه أنسلاخ كذا سنة كذا المتقدمة : لتستقيم
أمورهم على أعدل نهجهم ؛ وليحفظ نظام دينهم في صومهم وفطريهم وحجّهم ؛
وكذلك أصدر هذا الكتاب ليتلوه الأمير على من يسكن عمله ، وجميع من قبله ؛
ويتمثلوا في معرفته ، ويحمل كلّ منهم الأمر عليه في معتقده وأسباب معاملاته ؛
ويشكروا الله على النعمة عليهم بهديته . وهو يعتمد ذلك ويطلع بكائنه فيه
إن شاء الله تعالى ، وتكتب في اليوم المذكور .

الثاني — البشارة بالسلامة في الركوب في أول شهر رمضان ، وهي على نحو مما تقدم في الركوب في غرة السنة .

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، من إنشاء ابن الصيرفي ، وهو :

الحمد لله كإني خلقه في اليقظة والنّام ، والكافل لهم بمضاعفة الأجر في شهر الصّيام ؛ وصلى الله على سيدنا محمد الذي بعثه رحمةً للأمم ، وعلى أخيه وابن عمّه أمير المؤمنين على بن أبي طالب أخلص وليّ ، وأشرف وصيّ ، وأفضل إمام ؛ وعلى الأئمة من ذريّتهما الدّاعين إلى دار السلام ؛ صلاةً دائمة الاتّصال ، مستمرة في الغدوّ والآصال .

وإن من المسرة التي تُتهدى : والنّعمة الشاملة للخلق جميعا وفردى ؛ ما من الله به من ظهور مولانا وسيدنا الإمام فلان ، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطّاهرين ، وأبنائه الأكرمين ؛ يوم كذا غرة شهر رمضان من سنة كذا ، إعلاما بأول الشهر وافتتاحه ، وأن الصّيام الأوّل من حجّره الأوّل قبل تنفّس صباحه ؛ وتوجّهه إلى ظاهر المعزية القاهرة المحروسة في عساكره المظفّرة وجنوده ، وأوليائه وأنصاره وعبيده ؛ والمينة رؤيته قد تساوى فيها الكافّة ، وملائكة الله مطيفة حافّة ، وعوده إلى قصوره الزاهرة ، وقد شمل المستظّلين بأفيائه بسعادتي الدنيا والآخرة .

أصدِر إليك هذا الأمر لتفّ على الجملة ، وتشكر النّعمة السابغة على أهل الملّة ؛ وتتلوّها على أهل عمّلك ، وتطالع بكائيك في ذلك ؛ فأعلم هذا وأعمل به ؛ إن شاء الله تعالى .

الثالث — الكتابة بالبشارة بالسلامة في ركوب الجمعة الأولى من شهر رمضان .

وهذه نسخة كتاب من ذلك ، من إنشاء ابن الصيرفي أيضا ، وهي :

أفضل مأسرٍ ذكَّره، ووجب حمدُ الله تعالى عليه وشُكْرُه، ما عادَ على الشريعة بالجمال
والبهجة، وأضحى وأصفه صحیح المقالِ صادقِ اللّهجة، فضاغفَ حسنةً ومحصَّ
سيئته، وجعل أسباب السعادة مُتَسَهِّلَةً مُتَبَيِّئَةً، وذلك ما يَسِّرُه الله تعالى من استقْلال
رِكَّابِ سيِّدنا ومولانا صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكرمين، يوم
الجمعة من شهر رَمَضَانَ من سنة كذا: مُؤَدِّياً خُطْبَتَهَا وَصَلَاتَهَا، وضامناً لأُمَّةٍ ائْتَمَّتْ به
خَلاصَها يومَ الفَرَزِ الأَكْبَرِ وَنِجَاتِهَا، في وَقَارِ النُّبُوَّةِ وَسَكِينَةِ الرِّسَالَةِ، والهَيْبَةِ المُسْتَوَلِيَةِ
على الْعِظَمَةِ وَالْجَلَالَةِ، والعساكرِ الْجَمَّةِ الَّتِي تُفْلِقُ بِمَهَابَتِهَا وَتُرْجِعُ، وتُنْظِنُ لِكَثْرَتِهَا
وَاقِفَةً وَالرَّكَّابَ يُهْمِلُجْ، ولما أَتَيْتُ إِلَيْهِ، خَطَبَ وَوَعَظَ فَفَتَحَ أَبْوَابَ التَّوْبَةِ،
وَأَبَ إِلَى الطَّاعَاتِ مَنْ لَمْ يُطْمَعْ مِنْهُ بِالْأَوْبَةِ، وَصَلَّى صَلَاةً تَقْبَلُهَا جَلٌّ وَعِزٌّ يَقْبُولُ
حَسَنَ، وَقَصَّرَ فِي وَصْفِهَا ذُووُ الْفَصَاحَةِ وَاللَّسَنِ، وعادَ إِلَى مُسْتَقَرِّ الْخِلَافَةِ، وَمَثْوَى
الرَّحْمَةِ وَالرَّافَةِ، وَعَيَّنَ اللهُ لَهُ مَلَا حِظَّهُ، ومَلَأَتْكَ لَه حَافِظُهُ. أَعْلَمْتَ ذَلِكَ لِنُذِيغِهِ
فِي أَهْلِ عَمَلِكَ، وَتَطَالَعِ بِكَائِكَ .

الرابع — المكتوبة بالبشارة بالسلامة في ركوب الجمعة الثانية من شهر رَمَضَانَ .

قد تقدّم في الكلام على ترتيب الملكة بالديار المصرية في النولة الفاطمية،
في المقالة الثانية: أن الخليفة كان يركب في الجمعة الثانية من شهر رَمَضَانَ إلى الجامع
الأَنْوَرِ، وهو جامعُ بابِ الْبَحْرِ، الذي عَمَّرَهُ الْحَاكِمُ بِأَمْرِ اللهِ، وجَدَّه الصَّاحِبُ
شَمْسُ الدِّينِ الْمُقْسِيُّ .

وهذه نسخة كتاب في المعنى، من إنشاء ابن الصيرفي أيضاً، وهي :

لَمْ يَزَلْ غَايِرُ كَرَمِ اللهِ وَفَضْلِهِ، يَفُوقُ حَاضِرُهُ مَا كَانَ مِنْ قَبْلِهِ، فنعمته الله تعالى
سَابِغَةً، وَمِنْهُ مُتَتَابِعَةٌ، وَمَلَأَ بِهَا ضَافِيَهُ، وَمَغَارِسُهَا نَامِيَةٌ، وَتَحَائِثُهَا هَامِيَةٌ، وهو جَلٌّ

وَعَزَّ يَضَاعِفُهَا عَلَى مَنْ صَلَّى وَصَامَ، وَيُؤَالِيهَا عِنْدَ مَنْ تَمَسَّكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى الَّتِي لَا أَنْفَصَالَ لَهَا وَلَا أَنْفِصَامَ؛ وَتَجَدَّدَ مِنْ ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ بُرُوزِ مَوْلَانَا وَسَيِّدِنَا الْإِمَامِ فَلَانٍ: صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَى آبَائِهِ الطَّاهِرِينَ، وَأَبْنَائِهِ الْأَكْرَمِينَ؛ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ مِنْ سَنَةِ كَذَا: فِي شَاخِ عِزِّهِ، وَبَاذِخِ جَبْدِهِ، وَتَوَجُّهِهِ إِلَى الْجَامِعِ الْأَنْوَرِ الْمُنْسُوبِ إِلَى مَوْلَانَا الْإِمَامِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ جَدِّهِ؛ سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَصَلَوَاتُهُ، وَبَرَكَاتُهُ وَتَحِيَّاتُهُ؛ وَعَسَاكَرُهُ قَدْ تَجَاوَزَتْ الْحَدَّ، وَكَثُرَتْ عَنِ الْإِحْصَاءِ وَالْعَدِّ، فَإِذَا تَأَمَّلَهَا الطَّرْفُ أَتَقَلَّبَ عَنْهَا خَاسِئًا وَارْتَدَّ.

وَلَمَّا وَصَلَ إِلَى الْجَامِعِ الْمَذْكُورِ خَطَبَ فَأُورِدَ مِنَ الْقَوْلِ أَحْسَنَهُ، وَوَعِظَ فَأَسْمَعَ مِنَ الْوَعِظِ أَوْحَىَّهُ وَأَبَيَّنَهُ؛ وَصَلَّى صَلَاةَ جَهَرٍ بِالْقِرَاءَةِ فِيهَا وَرَتَّلَهَا، وَعَادَ إِلَى قُصُورِهِ الشَّرِيفَةِ وَقَدْ شَمِلَتْ الْبَرَكَاتُ بَرُؤِيَّتَهُ، وَوَفَّقَ مَنْ عَمِلَ بِمَوْعِظَتِهِ، وَنَجَّى مَنْ أَقْتَدَى بِهِ فِي صَلَاتِهِ، وَأَسْتَوَى عَلَى السَّعْدِ مِنْ جَمِيعِ أَرْجَائِهِ وَجِهَاتِهِ. أَعْلَمْنَاكَ ذَلِكَ لَنَعْرِفَ قَدْرَ النِّعْمَةِ بِهِ، فَأَشْكُرُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بِمُقْتَضَاهُ، وَأَعْتَمِدُ تَلَاوَةَ هَذَا الْأَمْرِ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ؛ فَأَعْلَمُ ذَلِكَ.

الخامس — المَكْتُبَةُ بِالسَّلَامَةِ فِي الرُّكُوبِ فِي الْجُمُعَةِ الثَّلَاثَةِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ.

قَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى تَرْتِيبِ الْمَمْلُوكَةِ فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ أَنَّ الْخَلِيفَةَ كَانَ يَرْكَبُ فِي الْجُمُعَةِ الثَّلَاثَةِ مِنْهُ إِلَى الْجَامِعِ الْعَتِيقِ بِمَصْرَ، فَيَخْطُبُ فِيهِ وَيَعُودُ إِلَى قَصْرِهِ.

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك، من إنشاء ابن الصَّيْرَفِيِّ، وهى:

(١) ما تقدم في (ج ٣ ص ٥١١) من هذا المطبوع صريح في أنه كان يركب في الجمعة الثالثة من رمضان إلى الجامع الأزهر، وأنه لا يركب إلى الجامع العتيق إلا في الجمعة الرابعة، التي أهل هنا ركوبه إليها وحاصل ما تقدم أنه يركب في جمع رمضان ماعدا الأولى.

من عوائد الله - سبحانه - الإحسان إلى عبيده ، وتعويضهم للشكر عليه بموهبه
ومزيده ؛ والامتنان بتيسير عصبه ، وتعجيل قصيه ، وتقريب بعيدة ؛ فهو لا يخلهم
من نواحيه ، ولا ينفهم من هواحيه .

ولما أقبل هذا الشهر الشريف كان من عموم بركاته ، وشُمُول خيراتِه ؛ أن مولانا
وسيدنا الإمام الفلاني صَلَوَاتُ الله عليه وعلى آبائه الطاهرين ، وأبنائه الأكرمين ؛
والى فيه بركاتِه ، وزكى أعمال المؤمنين في استماع أخطابه والائتمام بصلاته ؛
وفي هذا اليوم وهو يوم الجمعة من شهر رمضان ، أعمل ركابه إلى الجامع العتيق بمصر
لئبهم لهذه المدينة من حظي الدنيا والآخرة ، مثل ما أسهمه وعجله لأهل المعززة
القاهرة . فكانت هيئته يعجز وصفها كل لسان ، وظهر - عليه السلام - في الردائين :
السيف والطيلسان ؛ والجوش قد أنبسطت وانتشرت ، والنفوس قد أبتهجت
وأستبشرت ، والألسنة قد عكفت على الدعاء بتخليد ملكه وتوقرت . وعند وصوله
خطب فأحسن في الألفاظ والمعاني ، وحدّر من تأخير التوبة والتضجيع فيها
والتواني ؛ وصلى صلاة شرفها الله وفضلها ، ورضيها تبارك وتعالى وتقبلها ؛ وأنكفا
عائدا إلى قصوره ومنازله المعظمة : ضاعف الله له ثوابه وأجره ، وأوجب شكره
ورفع ذكره ؛ ويجب أن تعتمد إذاعة ذلك ليبلغ الكافة في الاعتراف بالنعمة فيه ،
ويواصلوا شكر الله تعالى عليه ، والمطالعة بما أعتمد فيه .

السادس - ما يكتب بالبشارة بالسلامة في رُكُوب عيد الفطر .

وقد تقدّم في الكلام على ترتيب الدولة الفاطمية في المقالة الثانية : أن الخليفة
كان يركب لصلاة عيد الفطر صبيحة العيد ، ويخرج من باب العيسد من أبواب

القصر، ويتوجه إلى [المُصَلِّي] ^(١) فُيَصَلِّي وَيُحْطَبُ، ثم يعود إلى قصوره، ويكتب بذلك إلى أعمال المملكة، تارةً مع خُلُوِّ الدَّوْلَةِ عن وزيرٍ، وتارةً مع اشتغالها على وزيرٍ.

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك، مع خُلُوِّ الدولة عن وزيرٍ، من إنشاء ابن الصيرفي، وهو :

الحمد لله نَاشِرِ لَوَائِهِ في الأَفْطَارِ، وَمُعَوِّضِ الْمُطِيعِينَ مِنْ جَزَائِهِ بِبُلُوغِ الْأَوْطَارِ،
الَّذِي نَسَخَ الْإِفْطَارَ بِالصَّيَامِ وَنَسَخَ الصَّيَامَ بِالْإِفْطَارِ؛ وَكَفَّ عِبَادَهُ مَا يُطِيقُونَهُ
وَوَعَدَ عَلَيْهِ جَزِيلَ أَجْرِهِ، وَأَسْبَغَ مِنْ نِعَمِهِ مَا لَا يَطْمَعُ [فِي الْقِيَامِ] بِوَاجِبِ حَمْدِهِ
عَلَيْهِ وَشُكْرِهِ؛ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ الَّذِي أَعْلَنَ بِالْإِيمَانِ وَبَاحَ، وَبَيَّنَ الْمُحْظُورَ
فِي الشَّرِيعَةِ وَالْمُبَاحَ؛ وَأَرْشَدَ إِلَى مَا حَرَّمَهُ الْإِسْلَامَ وَحَلَّلَهُ، وَمَهَّدَ سُبُلَ الْهُدَى لِمَنْ
أَسْتَعَاوَاهُ الشَّيْطَانُ وَضَلَّاهُ؛ وَأَوْضَحَ مَرَاتِبَ الْأَوْقَاتِ وَمَنَازِلَهَا، وَعَرَّفَ تَفَاوُتَ الْأَيَّامِ
وَتَفَاضُلَهَا؛ وَعَلَى أَخِيهِ وَأَبْنِ عَمِّهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي مَضَتْ فِي اللَّهِ
عِزُّ مَائَتِهِ، وَبَيَّضَتْ وَجْهَ الدِّينِ الْحَنِيفِ مَوَاقِفُهُ وَمَقَامَاتُهُ؛ وَعَلَى الْأَئِمَّةِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا
الَّذِينَ تَكْفَلُوا أَمْرَ الْأُمَّةِ نَصًّا، وَأَمْتَطَوْا عَلَى مَنَارِهَا فَلَمْ يَأْلُوا جُهْدًا وَلَمْ يَتْرَكُوا حِرْصًا؛
فَالْحَاضِرُ مِنْهُمْ يُوفِي عَلَى مَنْ كَانَ [مِنْ] قَبْلِهِ، وَأَحْزَابُ الْحَقِّ فَرِحُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ
مِنْ فَضْلِهِ؛ وَسَلَّمْ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ سَلَامًا لَا أَنْقِطَاعَ لَدَوَامِهِ، وَشَرَفَهُمْ تَشْرِيفًا لَا أَنْفِصَامَ
لِإِبْرَامِهِ؛ وَأَسْنَى وَجَدَّ، وَتَابَعَ وَجَدَّ.

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك يوم كذا عيد الفطر من سنة كذا : بعد أن وفي
الصَّيَامَ حَقَّهُ، وحاز أَجْرَ مَنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَى خَزَائِنِهِ رِزْقَهُ؛ وَبَعْدَ أَنْ أَفْطَرَ بِحَضْرَتِهِ
الْأَوْلِيَاءَ مِنْ آلِهِ وَأُسْرَتِهِ، وَالْمُقَدَّمُونَ مِنْ رُؤَسَاءِ دَوْلَتِهِ، وَالْمُتَمَيِّزُونَ مِنْ أَوْلِيَاءِهِ

(١) بياض بالأصل، والتصحيح عما تقدم في هذا المطبوع (ج ٣ ص ٥١٣).

وَشَيْعَتِهِ . وكان من نبأ هذا اليوم أنَّ أمير المؤمنين لما أَرْتَقِبَ بَرُوزَهُ من قُصُورِهِ ، وَتَجَلَّى فَاشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِهِ ، توجه إلى المَصَلَّى قَاضِيًا لِسُنَّةِ الْعِيدِ ، فكانت نِعْمَةً ظُهورُهُ بِالنَّظَرِ [لِلْحَاضِرِ] وبِالْخَبَرِ لِلْبَعِيدِ ؛ وَأَسْتَقَلَّ رِكَابُهُ بِالْعَسَاكِرِ الْمَنْصُورَةِ الَّتِي أَبَدَتْ مَنْظَرًا مُفْتِنًا مُعْجِبًا ، وجعلت أديم الأرض بِالنَّحِيلِ وَالرَّجْلِ مُحْتَجِبًا ؛ وَذَخَرَتْ الْأَنْتِقَامَ مِنْ شَقِّ الْعَصَا ، وَتَجَاوَزَتْ فِي الْكَثْرَةِ عَدَدَ الرَّمْلِ وَالْحَصَا ؛ وَزَيَّنَتْ الْفَضَاءَ بِهَيْئَتِهَا ، وَرَوَّعَتْ الْأَعْدَاءَ بِهَيْئَتِهَا ؛ وَجَمَعَتْ بَيْنَ الطَّاعَةِ وَشِدَّةِ الْبَاسِ ، وَأَدْرَعَتْ مِنَ التَّقْوَى أَمْنًا جَنَّةً وَأَحْصَنَ لِبَاسًا ؛ وَلَمْ يَزَلْ سَائِرًا فِي السَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ ، نَاطِرًا لِلدُّنْيَا بَعِينَ الْأَحْتِقَارِ ؛ وَالثَّرَى بِالْجَبَاهِ وَالشَّفَاهِ مُصَافِحٌ مَلْثُومٌ ، فَهُمَا مَوْسُومَتَانِ بِهِ وَهُوَ بَهُمَا مَوْسُومٌ ؛ إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى مَقَرِّ الصَّلَاةِ ، وَحَلَّ الْمُنَاجَاةَ ؛ فَصَلَّى أَتَمَّ صَلَاةً وَأَكْمَلَهَا ، وَأَدَاَهَا أَحْسَنَ تَأْدِيَةٍ وَأَفْضَلَهَا ؛ وَأَخْلَصَ فِي التَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ إِخْلَاصَ مَنْ لَمْ يَفُتْ أَمْرًا وَيَخْشَى اللَّهَ وَيَتَّقِيهِ وَنَصَحَ فِي إِرْشَادِهِ وَوَعَّظَهُ ، وَأَعْرَبَ بِبَدِيعِ مَعْنَاهُ وَفَصِيحَ لَفْظِهِ ؛ وَعَادَ إِلَى مَثْوَى كَرَامَتِهِ ، وَقَلَّكَ إِمَامَتِهِ بِحَمْدِ الْمَقَامِ ، مَشْمُولًا بِالتَّوْفِيقِ فِي النَّقِصِ وَالْإِبْرَامِ . أَعْلَمَكَ أمير المؤمنين ذلك لِتُذِيعَهُ فِيمَنْ قَبْلَكَ ، وَتَشْكُرُوا اللَّهَ عَلَى النِّعْمَةِ الشَّامِلَةِ لَهُمْ وَلَكَ ؛ فَاعْلَمْ هَذَا وَاعْمَلْ بِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَكُتِبَ فِي الْيَوْمِ الْمَذْكُورِ .



وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، والدَّوْلَةُ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى وزير ، عن الحافظ لدين الله العَلَوِيِّ خَلِيفَةِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، فِي سَنَةِ إِحْدَى وَثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَهِيَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعَزَّ الْإِسْلَامَ وَشَيَّدَ مَنَارَهُ ، وَأَيَّدَ أَوْلِيَاءَهُ وَنَصَرَ أَنْصَارَهُ ؛ وَأَظْهَرَ فِي مَوَاسِمِهِ قُوَّتَهُ وَأَسْتَظْهَرَهُ ، وَخَتَمَ الشَّرَائِعَ بِشَرَفٍ أَبَدِيٍّ فَكَانَ حَظُّهَا مِنْهُ إِثْبَارَهُ ،

وَحَظَّ الْإِسْلَامَ أَسْتَبْدَادَهُ بِهِ وَأَسْتِثَارَهُ؛ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى جَدِّنا مُحَمَّدٍ الَّذِي كَرَّمَهُ بِاصْطِفَائِهِ ،
 وَأَسْعَدَ مِنْ حَافِظٍ عَلَى اتِّبَاعِ نَهْجِهِ وَأَقْتِفَائِهِ ؛ وَبَيَّنَّ بِشَرْعِهِ مَا حَلَّلَهُ وَحَرَّمَهُ ، وَدَعَا
 الْأُمَّةَ بِإِرْسَالِهِ إِلَى دِينٍ قِيمٍ أَعْلَى بِنَاءَهُ وَأَحْكَمَهُ ؛ وَوَعَدَهُمْ عَلَى مَقْرُوضِهِ وَمَسْتُونِهِ جَزِيلَ
 الْأَجْرِ ، وَأَمَرَ فِي اعْتِقَادِ خِلَافِهِ بِالذَّفْعِ وَالْمَنْعِ وَالزَّجْرِ ؛ وَعَلَى أَخِيهِ وَأَبْنِ عَمِّهِ أَبِينَا
 أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَوَّلِ الْأَئِمَّةِ الْخُلَفَاءِ ، وَالْمُشْتَهَرَةِ فَضَائِلُهُ أَشْهَارَا
 لَيْسَ بِهِ مِنْ خَفَاءٍ ؛ وَمَنْ حَبَاهُ اللَّهُ الْمَحَلَّ الرَّفِيعَ وَالْمَنْ الْجَزِيلَ ، وَخَصَّهُ مِنَ الشَّرَفِ
 بِمَا جَاءَ فِيهِ مِنْ مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ ؛ وَعَلَى الْأَئِمَّةِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا الْقَائِمِينَ بِفَرْضِ اللَّهِ وَالْمُؤَدِّينَ
 لِحُقُوقِهِ ، وَالَّذِينَ كَفَلَتْ أَمَانَتَهُمْ بِأَبْسَاطِ نُورِ الْحَقِّ وَأَنْتِشَارِ لَوَائِهِ وَخُفُوقِهِ ؛ وَسَلِّمْ
 وَكْرَمٌ ، وَمَجْدٌ وَعَظَمٌ .

وَكُتِبَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ يَوْمَ كَذَا عِيدِ الْفِطْرِ مِنْ سَنَةِ إِحْدَى وَثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ،
 الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ فِيهِ بِمَا نَهَى عَنْهُ مِنْ قَبْلِهِ ، وَضَاعَفَ الْأَجْرَ بِكَرَمِهِ وَفَضَّلَهُ ؛ فَرَفَعَ تَكَالِيفَ
 الصَّوْمِ ، وَأَوْجَبَ الْإِفْطَارَ فِي هَذَا الْيَوْمِ ؛ وَسَاوَى فِي ذَلِكَ [بَيْنَ] كُلِّ مُتِمِّهِ وَمُنْتَجِدٍ ،
 وَأَمَرَ بَنِي آدَمَ فِيهِ بِأَخْذِ الزَّيْنَةِ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ؛ وَكَانَ مِنْ خَبَرِهِ أَنَّ الْفَجْرَ لَمَّا طَلَعَ
 مُبَشِّرًا بِالشَّمْسِ ، وَمُؤَذِّنًا بِبَعْثِهَا مِنَ الرَّمْسِ ؛ نَتَابَعَتِ الْجُيُوشُ الْمُؤَفَّرَةُ ، وَالْعَسَاكِرُ
 الْمَنْصُورَةُ ؛ إِلَى أَبْوَابِ الْقُصُورِ الزَاهِرَةِ تَوَكُّفًا لِأَنْوَارِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَرَقُّبًا لظَهْوَرِهِ
 قَاضِيًا حَقَّ الدِّينِ ؛ فَلَمَّا أَسْفَرَ الصُّبْحُ وَأَضَاءَ ، وَمَلَأَتْ الْخَلَائِقُ الْفَضَاءَ ؛ تَجَلَّى مِنْ
 أَفْلَاكِ إِمَامَتِهِ ، وَبَرَزَ فَأَغْطَى كُلُّ مُؤْمِنٍ بَنَاتِهِ عَلَى الْمُشَايَعَةِ وَإِقَامَتِهِ ؛ وَكَانَ ظَاهِرًا
 وَهُوَ مُحْتَجِبٌ بِالْأَنْوَارِ ، وَمُتَمَنِّعًا وَهُوَ مُتَهَبٌّ بِالْأَبْصَارِ ؛ وَالْكَافَّةُ يُصَاحُّونَ الْأَرْضَ
 وَيَحْتَسِدُونَ فِي الدَّعَاءِ بِإِخْلَاصِ نِيَّاتِهِمْ ، وَالْعَسَاكِرُ الْمُؤَيَّدَةُ لَوَأْنِهَا عَمَّتِ الْأَرْضَ
 بِتَطْيِيقِهَا ، وَسَاوَتْ بَيْنَ قَرَبِيهَا وَسَحِيقِهَا ؛ وَصَارَتْ كَالْجِبَالِ الرَّوَاسِي فِيهَا ، لَكَانَتْ
 قَدْ تَزَلَزَلَتْ وَمَادَتْ بِأَهْلِيهَا ، وَهِيَ مَعَ تَبَائِنِ أَجْنَاسِهَا وَطَوَائِفِهَا مُتَطَافِرَةٌ عَلَى مُعَانِدِي

الدَّوْلَةُ وَمُخَالَفِيهَا ؛ مُتَلَامَةً عَلَى الْوَلَاءِ ، مُتَمَالِكَةً عَلَى الْأَعْدَاءِ ؛ نَتَلَفَّتْ إِلَى الْمَجَاهِدَةِ كَأَنَّهَا
الْأَسْوَدُ إِقْدَامًا وَبَاسًا ، وَكَأَنَّهَا فَصَّلَتْ جَوَامِدُ الْعُدْرَانِ سِلَاحًا لَهَا وَلِبَاسًا ؛ وَالسَّيِّدُ
الْأَجَلُ الْأَفْضَلُ الَّتِي عَظُمَتْ بِهِ الْمَوَاهِبُ وَجَلَّتْ ، وَذَهَبَتْ بِوِزَارَتِهِ الْقِيَاسُ
وَتَجَلَّتْ ؛ وَتَهَلَّلَ بِنُظَرِهِ وَجْهُ الْمِلَّةِ وَكَانَ عَانِسًا ، وَأَعَادَ الدَّوْلَةَ مُعْصِرًا وَقَدْ كَانَتْ قَبْلَهُ
عَانِسًا ؛ وَحَسُنَتْ الدُّنْيَا بِأَيَّامِهِ إِذْ لَيْسَ فِيهَا مَنْ يُضَاهِيهِ ، وَانْتَضَمَتْ أُمُورُهَا عَلَى
الْإِرَادَةِ بِصُدُورِهَا عَنْ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ ؛ تَرْتَّبُ الْمَوَاقِبُ بِمَهَابَتِهِ ، وَيُسْتَعْنَى بِتَوَعُّلِهَا
فِي الْقُلُوبِ عَنْ لِيَمَانِهِ وَإِسَارَتِهِ ؛ وَكُلُّ طَائِفَةٍ مُقْبِلَةٌ عَلَى شَانِهَا ، لَا زِمَةَ لِمَكَانِهَا ؛
مُتَصَرِّفَةٌ عَلَى تَهْذِيبِهِ وَتَقْرِيرِهِ ، عَامِلَةٌ بِأَدَابِهِ : فَوْقُوقُهَا بِوُقُوفِهِ وَمَسِيرُهَا بِمَسِيرِهِ .

وَتَوَجَّهَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْمُصَلَّى مُحْفُوفًا بِأَنْوَارِ نُجَلِّ مَا أَنْشَأَتْهُ سَنَابِكُ الْخَلِيلِ ، وَتَمَحَّوْ
آيَةً نَقَعَ قَامُ مَثَارُهَا مَقَامَ ظَلَامِ اللَّيْلِ ؛ وَعَلَيْهِ مِنْ وَقَارِ الْإِمَامَةِ ، وَسَكِينَةِ الْخِلَافَةِ ؛
مَا خَصَّه اللَّهُ تَعَالَى بِهِ دُونَ الْبَرِيَّةِ وَحْدَهُ ، لِأَنَّهُ مِمَّا وَرِثَ أُمِّيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآلَهُ وَجَدَّهُ ؛ وَلَمَّا أَتَتْهُ^(١) إِلَيْهِ قَصْدَ [الْحِرَابِ]^(٢) وَأَتَمَّهُ ، وَأَذَى الصَّلَاةِ
أَكْمَلَ أَدَاءٍ وَأَتَمَّهُ ؛ ثُمَّ أَتَتْهُ^(٣) إِلَى الْمِنْبَرِ فَعَلَاهُ ، وَبِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَحَمْدِهِ عَلَى مَا أَوْلَاهُ ؛
وَوَعَظَ وَعَظًا خَوْفَ عَاقِبَةِ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ ، وَحَلَّ وَكَأَى الْعُيُونِ وَدَاوَى مَرَضَ
الْقُلُوبِ ؛ وَأَمَرَ بِسُلُوكِ سَبِيلِ الطَّاعَاتِ وَأَفْعَالِ الْبِرِّ ، وَحَثَّ عَلَى التَّوَقُّفِ عَلَيْهَا فِي الْجَهْرِ
وَالسِّرِّ ، وَعَادَ إِلَى قُصُورِهِ الْمَكْرَمَةِ ، وَمَوَاطِنِهِ الْمُقَدَّسَةِ ؛ وَقَدْ بَذَلَ فِي نَصْحِهِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ جُهْدَهُ ، وَفَعَلَ فِي الْإِرْشَادِ وَالْهُدَايَةِ مَا لَا غَايَةَ بَعْدَهُ .

(١) كَذَا بِالْأَصْلِ .

(٢) بِيَاضُ بِالْأَصْلِ ، وَالتَّصْحِيحُ مِنَ الْمَقَامِ .

(٣) فِي الْأَصْلِ « إِلَى الْحِرَابِ فَصَلَاهُ » وَلَا مَعْنَى لَهَا .

أنبأك أمير المؤمنين خبر هذا اليوم لتشكر الله على النعمة فيه ، وتذيعه قبلك على
الرسم فيما يجاريه ؛ فأعلم هذا وأعمل به إن شاء الله تعالى .

السابع — ما يكتب بالبشارة بالسلامة في ركوب عيد النحر .

قد تقدم في الكلام على ترتيب دولة الفاطميين في المقالة الثانية أن الخليفة كان
يركب لصلاة عيد النحر كما يركب لصلاة عيد الفطر ، تارة مع اشتغال الدولة على
وزير ، وتارة مع عدم اشتغالها على وزير .

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، من إنشاء ابن الصيرفي ، وهي :

أما بعد ، فالحمد لله الذي ألقى منار المله ، وشرف مواسم أهل القبلة ؛ وكفل
أمير المؤمنين أمر الأيام ، كما كفله أمر الأنام ، فرأى الناس من حسن سيرته أيقاظا
ملايرونه مجازا في المنام ؛ وصلى الله على جدنا محمد نبيه الذي أرسله إلى الناس كافة ،
وجعل العصمة محيطة به حافة ؛ فأطلع في ظلام الشرك شمس التوحيد وبدره ،
وآمن به من شرح الله للإسلام صدره ، وعصاه من تمزق فائق الوزر ظهره ؛ وبين
عبادات كرم أجزها وعظم نوابها ، وألزم طاعات جعل الجنة للعاملين بها مفتحة
أبوابها ؛ وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبي طالب مظافره ومظاهره ،
والمساوي في حكمه بين باطنه وظاهره ؛ ولم يزل حاملا على المحجة البيضاء جاعلا ذلك
من قربه وذخائره ، قائما بحقوق الله جاهدا في تعظيم حرمة وشعائره ؛ وعلى الأئمة
من ذريتهما نجوم الأرض وهداة أهلها ، والواجبة طاعتهم على من في وعبرها
وسهلها ؛ والدائين بالمشرقية عن حي الشريعة ، والذين متابعتهم من أوجه ذريعه .

وكتب أمير المؤمنين هذا إليك يوم كذا عيد النحر سنة كذا وكذا : وهو يوم
أظهر الله فيه قوة الدولة وأقدارها ، وأوجب فيه — رغبة ورهبة — مسارعة النفوس

المخالفة إلى الطاعة وأبتدأها ؛ وذلك أن عساكر أمير المؤمنين توجهت إلى قُصُورِهِ الزاهرة عند أنفجار الفجر ، وحافظت على ما تُحَرِّزُهُ من كريم الثواب وخزير الأجر ؛ وأستزلت الرحمة برؤية إمام الأئمة ، وأعدت الإخلاص في خدمته من أوفى الحرُمات وأقوى الأذمة ؛ وأقامت إلى أن برز أمير المؤمنين والأنوار الساطعة طواله ، ومهابته تمنع كل طرف من استقصاء تأمله وتدافعه ؛ وقصد المصلى في كتابه ، ومواكب التعظيم مستوحيه ؛ وعزيرة تبين في الشمايل والصفحات ، وقوة يشهد بطيب وصفها أرج الفحات ؛ قد غدت عددها محمكة ؛ وخيولها مطهمة ؛ وذوالبها إذا ظمئت كانت مقومه ، وإذا رويت عادت محطمة ؛ تتقلد صفائح متى انتضيت أنصفت من الجائر الخائف ، ومتى اقتضبت عملاً كان اقتضاها مبيضا للصحائف ؛ وفي ظلها معاقل للأذنين ، ويحدها مصارع للتأذين ؛ وهى للدماء هوارق ، وللهمامات فوالق ، ولستغلق البلاد مفاتيح ولستفتحها مغاليق .

ولما انتهى إلى المصلى قضى الصلاة أحسن قضاء وأداها أفضل تأديه ، وأستزل رحمة لم تزل بصلاته متماديته ؛ وأنهى إلى المنبر فرقيه ، وخطب خطبة من استخلفه الله فكان مراقبه ومتقيه ؛ ووعظ أبلغ وعظ ، وأبان عملاً للعامل بوضعه في الدنيا والآخرة من فائدة وحظ . وعطف على الأضاحى المعدة له فتحرها جرياً في الطاعات على فعلها المتهادى ، وأضحت تتوقع التكميل بإنجازه وعيده في الأعادي ؛ فانه يقضى بتصديقه ، ويمن بخياله وتحقيقه ؛ وعاد إلى قُصُورِهِ المكرمة مشكوراً سعيه ، مضموناً نفعه ؛ مرضياً فعله ، مشمولاً عيده منه بما هو أهله . أعلمك أمير المؤمنين ذلك فاعلم هذا وأعمل به . وكُتِبَ في اليوم المذكور .



وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، والدولة مشتملة على وزير ، من إنشاء ابن
قادوس ، وهى :

أما بعد ، فالحمد لله ماحى دَنَسِ الآثام بالحجّ إلى بيته الحرام ، وموجب الفوز
في المعاد لمن عمل بمرشد أئمة الهدى الكرام ؛ ومُضَاعِفِ الثَّوَابِ لِمَنْ أَجْتَهَدَ فيما أمر
الله به من التَّوْبَةِ والإِحْرَامِ ، ومُحوِّلِ الْفُقَرَاءِ لِمَنْ كَانَ بِفَرَاغِ الْحَجِّ وَنَوَافِلِهِ شَدِيدَ
الْوُلُوعِ والغَرَامِ ؛ وصلى الله على جدنا محمد الذى لبى وأحرم ، ويين ما أحلَّ الله وحرم ؛
وعلى أخيه أئمتنا أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى ضرب وكبر ، وحقر من طغى
وتجبر ؛ وعلى الأئمة من ذرِّيَتِهِمَا أعلام الدين ، وحُتُوفِ الْمُتَعَدِّينِ ؛ وسَلَمَ وَكْرَمَ ،
وشَرَفَ وَعَظَّمَ .

وإنَّ من الأيام التى كَلَّمَتْ مُحَاسِنُهَا وَتَمَّتْ ، وَكَثُرَتْ فُضَائِلُهَا وَجُمْتُ ؛ ووجب
تخليدُ عِزِّ صِفَاتِهَا ، وتَعَيَّنَ تَسْطِيرُ تَأْثِيرَاتِهَا ؛ يَوْمَ عِيدِ النَّحْرِ مِنْ سَنَةِ كَذَا : وكان من
قَصَصِهِ أَنْ الْفَجْرَ لَمَّا سَلَّ حُسَامَهُ ، وَأَبْدَى الصَّبَاحُ ابْتِسَامَهُ ؛ نَهَضَ عِيْدُ الدَّوْلَةِ
فِي جُمُوعِ الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَنْصَارِ ، وَأُولَى الْعَزِيمَةِ وَالْإِسْتِبْصَارِ ؛ مُمَيِّمِينَ الْقُصُورَ الزَاهِرَةَ
مُتَبَرِّكِينَ بِأَفْنِيَّتِهَا ، وَمُسْتَمْلِينَ بِسَعَادَتِهَا ؛ وَتَأَلَّفُوا صَفُوفًا تَبَهَّرُ النَّوَاطِرَ ، وَيُحْجِلُ تَأَلُّفُهَا
تَأَلَّفَ زَهْرُ الرُّوضِ النَّاضِرِ ؛ مُسْتَضْحِينَ فُنُونًا مِنَ الْأَزْيَاءِ تَرُوقُ ، وَمُسْتَتَبِعِينَ أَصْنَافًا
مِنَ الْأَسْلِحَةِ يَغْضُ لَمْعُهَا مِنْ لَمْعِ اللَّهَبِ وَالْبُرُوقِ ؛ وَالْأَعْلَامُ خَافِقَةٌ ، وَالرَّايَاتُ بِأَلْسِنَةٍ
النَّصْرِ ، عَلَى الْإِخْلَاصِ لِإِمَامِ الْعَصْرِ ، مُتَوَافِقَةٌ ؛ فَأَقَامُوا عَلَى تَسْوِيفِ لَظْهُورِهِ ، وَتَطَلُّعِ
لِتَبَرُّكِ بِلَامِعِ نَوْرِهِ .

ولما بزغت شمس سعادته، وجرّت الأمور على إيثاره وإرادته؛ وبدت أنوار الإمامة الجليّة، وظهرت طلعتها المعظمة البهيّة؛ نحر الأنام سُجوداً بالدعاء والتمجيد، والاعتراف بأنهم العبيدُ بنو العبيد؛ وأستقلّ ركّاب أمير المؤمنين، ووزيره السيّد الأجلّ الذي قام بنصر الله في إنجاد أوليائه، وتكفل للإسلام برفع مناره ونشر لوائه؛ ونأصل عن حوزة الدين وجاهد، ونأصل أحزاب الكفّار وناهد؛ يقوم بأحكام الوزارة، وتدير الدولة تدير أولى الإخلاص والطهارة؛ ويتبع آراء أمير المؤمنين فيما تنفذ به أوامره، ويعمل بأحكام الصواب فيما تقتضيه موارده ومصادره؛ ويحسن السياسة والتدير، ويتوخى الإصابة في كلّ صغير من أمور الدولة العلويّة وكبير؛ ويخلص لله جلّ وعزّ وإمامه، ويكفّكف من الأعداء بيدلّ الجهد في أعماله لهدمه وحسامه؛ وسار أمير المؤمنين والعساكر متتابعة في أثره، متوافقة على أمثال أمره؛ قد رفعت السنابك من العجاج سحاباً، وخيلت جنّ الحسد للنظرين في البرّعباب؛ والحياض المسومة موج في أعنتها، وتختل في مراكبها وأجلّتها؛ وتُسرع فتكسب الرياح نشاطاً، وتفيد المتعرّض لوصفها إفراطاً، وتهدي لمن يحاول مماثلتها غلواً واشتطاطاً؛ وأصوات مرتفعة بالتهليل، وأصوات الحديد تُسمعُ بشائر النصر بترجمة الصليل؛ ويكاد يرعب الأرض تزلزل الصهيل، وترض سنابكها الهضاب وتغدو صلابها كالكتيب المهيل.

ولما انتهى ركّاب أمير المؤمنين إلى المصلى والتوفيق يكتنفه، والسعادة تُصرفه؛ قصد المحراب فأقام الصلاة، ونحا المنبر فشرّفه إذ علاه؛ وأدى الصلاة على أكل الأوضاع وأتمّها، وأجمع [الأحوال] لمراضى الله وأعمّها؛ وأنقذ للبذلّ الممدّة فنحر ما حضر تقرّ بالخالق، وأجرى القانون على حقائقه؛ وعاد إلى قصوره الزاهرة وقد غفر الله بسعيه الذنوب، وطهر برويته القلوب، وبلغ الأئم من المرشد نهاية المطلوب.

أعلمك أمير المؤمنين نبأ هذا اليوم الذي تشتمل المسار على جميعه أولاً وآخراً ،
وَبَاطِنًا وظاهرًا ؛ لتُذيعَ نبأه في عَمَلٍ وَلَايَتِكَ ، وتُشيعَ خبره في الرعايا على جَارِي
عَادَتِكَ ؛ فأعلم هذا وأعمل به ، وطالع مجاس النظر السيدي الأجل بما أعتمدته
في ذلك ، إن شاء الله تعالى . وكتب في اليوم المذكور .

قلت : وهذا الصنف من المكاتبات قد رُفِضَ وتُركَ استعماله بديوان الإنشاء
في زماننا .

الصنف السادس عشر

(المكاتبة بالبيشارة بوفاء النيل والبيشارة بالسلامة في الركوب لفتح الخليج)

وهذه المكاتبة من خصائص الديار المصرية ، لا يشاركها فيها غيرهما من الممالك .
ولم يزل القائلون بالأمر بالديار المصرية من قديم الزمان وهلم جرا يكتبون بالبيشارة
بذلك إلى ولاة الأعمال ، اهتماماً بشأن النيل ، وإظهاراً للسُّرور بوفائه ، الذي يترتب
عليه الخصب المؤدى إلى العمار وقوام المملكة ، وانتظام أمر الرعية . وقد كان للخلفاء
الفاطميّين القائمين بأمر الديار المصرية بذلك كبير العناية وافر الاهتمام ؛ وكانت
عادتهم في ذلك أنهم يكتبون بالبيشارة بوفاء النيل كتباً مفردة ، وفتح الخليج
وهو المعبر عنه في زماننا بالكسر كتباً مفردة . ولعلّ فتح الخليج كان يترأخى في زمنهم
عن يوم الوفاء ، فيُقرّدون كلّ واحد منهما بكتب .

فأما وفاء النيل المبارك فهذه نسخة كتاب بالبيشارة به في الأيام الفاطمية ،
من إنشاء ابن قادوس ، وهى :

النعم وإن كانت شاملة للأمم ، فإنها متفاضلة الأقدار والقيم ؛ فأولها بشكر تُشَرُّ
في الآفاق أعلامه ، واعتداده تحمُّ بإدراك الغايات أحكامه ؛ نعمة يشترك في النفع بها

العباد، وتَبْدُو بِرُكَّتُهَا عَلَى النَّاطِقِ وَالصَّامِتِ الْجَمَادِ؛ وَتِلْكَ النِّعْمَةُ النَّيْلُ الْمِصْرِيُّ الَّذِي تَبْرُزُ بِهِ الْأَرْضُ الْجُرُزُ فِي أَحْسَنِ الْمَلَابِسِ، وَتُظْهِرُ حُلْلَ الرَّيَاضِ عَلَى الْقِيَعَانِ وَالْبَسَائِسِ؛ وَتُرَى الْكُنُوزُ ظَاهِرَةً لِلْعِيَانِ، مُتَبَرِّجَةً بِالْجَوَاهِرِ وَالْجَلِيْنِ وَالْعِيقَانِ؛ فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَهُ سَبَبًا لِإِنْشَارِ الْمَوَاتِ، وَتَعَالَى مَنْ ضَاعَفَ بِهِ ضُرُوبَ الْبَرَكَاتِ، وَوَفَّرَ بِهِ مَوَادَّ الْأَرْزَاقِ وَالْأَقْوَاتِ؛ وَهَذَا الْأَمْرُ صَادِرٌ إِلَى الْأَمِيرِ، وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا بِوَفَاءِ النَّيْلِ الْمُبَارَكِ، وَخُلِعَ عَلَى الْقَاضِي فَلَانِ بْنِ أَبِي الرَّدَادِ فِي يَوْمِ كَذَا وَكَذَا، وَطَافَ بِالْخَلِجِ وَالتَّشْرِيفَاتِ، وَالْمَوَاهِبِ الْمُضَاعَفَاتِ؛ بِالْقَاهِرَةِ الْمُحْرُوسَةِ وَمِصْرَ عَلَى جَارِي عَادَتِهِ، وَقَدِيمِ سِيرَتِهِ؛ وَنُودِيَ عَلَى الْمَاءِ بِوَفَائِهِ سِتَّةَ عَشَرَ ذِرَاعًا وَإِصْبَعًا مِنْ سَبْعَةِ عَشَرَ ذِرَاعًا؛ وَاسْتَبَشَرَ بِالنِّعْمَةِ بِذَلِكَ الْخَلَاقِ، وَوَاصَلُوا بِالشُّكْرِ مُوَاصَلَةً لَا تَسْتَوْقِفُهُمْ عَنْهَا الْعَوَائِقُ؛ وَبَدَأَ مِنْ مَسَرَّاتِ الْأُمَمِ وَأَبْتِهَاجِهِمْ مَا يَضْمَنُ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ الْمَزِيدِ، وَيُنِيلُهُمُ الْمَنَالَ السَّعِيدِ، وَيَقْضِي لَهُمْ بِالْمَالِ الْحَمِيدِ. وَمُوصِّلُ هَذَا الْأَمْرِ إِلَيْكَ فَلَانِ، فَاعْتَمَدَ عِنْدَ وُصُولِهِ إِلَيْكَ إِكْرَامَهُ وَإِعْزَازَهُ، وَإِحْجَالِ تَلْقِيهِ وَإِفْضَالِهِ؛ إِلَى مَا جَرَتْ بِهِ عَادَةٌ مِثْلُهُ مِنْ رَجَاءٍ، وَتَوْيِهِ وَاحْتِفَاءٍ، وَإِكْرَامٍ وَأَعْتِنَاءٍ؛ لِيُعْمِدَ شَاكِرًا. فَاعْلَمْ هَذَا وَاعْمَلْ بِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.



وهذه نسخة أخرى من ذلك، من إنشاء ابن الصيرفي، وهي :

أَوَّلَى مَا تَحَدَّثَ بِهِ نَاقِلُهُ وَرَاوِيهِ، وَتَعَجَّلَ الْمَسْرَّةَ بِهِ حَاضِرُهُ وَرَأْيِيهِ؛ مَا كَانَتْ الْفَائِدَةُ بِهِ شَائِعَةً لَا تَتَحَيَّرُ، وَالنِّعْمَةُ بِهِ ذَائِعَةً لَا يَتَخَصَّصُ أَحَدٌ بِسُمُولِهَا وَلَا يَتَمَيَّزُ؛ إِذْ كَانَ عَلَّةً لِنِكَاتِ الْأَقْوَاتِ، وَبِهَا يَكُونُ الثَّمَانُ فِي الْبَقَاءِ وَالتَّسَاوِي فِي الْحَيَاتِ؛ وَذَلِكَ مَا مَنَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ وَقَاءِ النَّيْلِ الْمُبَارَكِ : فَإِنَّهُ آتَمَى فِي يَوْمِ كَذَا مِنْ سَنَةِ كَذَا، إِلَى سِتَّةَ عَشَرَ ذِرَاعًا وَزَادَ إِصْبَعًا مِنْ سَبْعَةِ عَشَرَ ذِرَاعًا؛ وَقَدْ سِيرْنَا أَيُّهَا الْأَمِيرُ فَلَانَا

بهذه البشري إليك ، وخصصناه بالورود بها عليك ؛ فتلقها من الشكر بمستوجبها ،
وأستقبلها من الأبتهاج والاعتباط بما يليق بها ؛ وأجعل الرسوم التي جرت العادة
بتوظيفها لفلان بن أبي الرِّدَادِ محمولةً من جهتك إلى حضرتنا ، لتؤلى إليه من جهتنا ؛
فاعلم هذا وأعمل به إن شاء الله تعالى ، وكتب في اليوم المذكور .

وهذا الصنف من المكاتبات متداول بالديار المصرية إلى آخر وقت ، يكتب به
في كل سنة عن الأبواب السلطانية إلى نواب السلطنة بالمالك الشامية عند وفاء
النيل ، وتسير به البريديّة ؛ ورُبما جِي للبريديّ من المالك شيء بسبب ذلك .
وإذا كانت الدولة عادلة ضمن الكتاب أنه لا يُجْبَى للبريديّ شيء بسبب ذلك .



وهذه نسخة مثال شريف في معنى ذلك .

ولا زال يروى عنه وإليه حديث الوفاء والنّدا ، ويورد على سمعه الكريم نبأ
الخصب الذي صفا موردا ؛ ويهني بكلّ نعمة تكفّلت للرعايا بمضاعفة الجود
ومرادفة الجدا ، ويخصّ بكلّ منّة عمّت مواهبها الأنام فلن تنسى أحدا .

صدرت هذه المكتبة إلى الجناح العالي : وبجرّ كرمها لايتهي إلى مدى ،
ويشربشراها دائماً أبدا ؛ تهدي إليه سلاماً مؤكدا ، وثناء أضحى به الشكر مرّدا ،
وتوصّح لعليه الكريم أن الله تعالى قد أجرى على جميل عاداته ، وأراد بالأمة من الخير
ماهو المألوف من إراداته ؛ ومنح مزيد النعم التي لم تزل تُعهد من زيادته ؛ فأسدى
معروفة المعروف إلى خلقه ، وأيدهم بما يكون سببا لمادة عطائه ورزقه ؛ فبلغهم
تأميلهم ، وأجرى نيلهم ؛ وزادهم بسطة في الأرض ، وملا به الملا وطبق به البلاد
طولها والعرض ؛ ونشر على الخافقين لواء خصيه ، وأتى بعسكر ربه لقتل المحل

وَجَدَيْهِ ، وَبَيْنَا هُوَ فِي الْقَاعِ إِذْ بَلَغَ بِأَذْنِ رَبِّهِ ، بِفَعْلٍ مِنَ الذَّهَبِ لِبَاسَهُ ، وَعَطَّرَ
بِالشَّدَا أَنْفَاسَهُ ، وَلَمْ يَتْرِكْ خِلَالَ قُطْرِ إِلَّا جَاءَهُ بِقَاسِهِ ، وَنَصَّ السِّيرَ فَسِيرَ نَصٍّ مَجِيئِهِ
فِي الْأَرْضِ لَمَّا صَحَّحَ بِالْوَفَاءِ قِيَاسَهُ ، وَغَازَلَتْهُ الشَّمْسُ فَكَسَّتْهُ حُمْرَةُ أَصِيلِهَا لَمَّا غَدَتْ
لَهُ بِمُشَاهَدَتِهَا مَاسَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْعَامِ إِلَّا بِمَقْدَارِ مَا قِيلَ : أَقْبَلَ إِذْ قِيلَ : وَفَى ،
وَمَدَّ فِي الزِّيَادَةِ بَاعًا وَبَسَطَ ذِرَاعًا ، وَأَطْلَقَ بِمَوَاهِبِ أَصَابِعِهِ كَفًّا ، وَعَاجَلَ إِدْرَاكَ الْأَهْرَمِ
فِي آبْتِدَاءِ أَمْرِهِ مَطَالِ شَبَابِهِ ، وَرَمَى عَلَى الْأَرْضِ فَحَلًا فِي الْأَفْوَاهِ لَمَّا سَاغَ شُكْرُ سَائِغِ
شَرَابِهِ ، وَاعْتَمَدَ عَلَى نَصِّ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ فَكَادَ أَنْ يَدْخُلَ كُلَّ بَيْتٍ مِنْ بَابِهِ .

وَمَا كَانَ يَوْمَ كَذَا مِنْ شَهْرٍ كَذَا الْمَوَافِقِ لَكَذَا مِنْ شَهْوَرِ الْقَيْطِ بِادْرَتٍ إِلَى الْوَفَاءِ
شَيْمِهِ ، وَأَغْنَتْ أَمْوَاغُهُ عَنْ مِثَّةِ السُّحُبِ فَدُمَّتْ عِنْدَهَا دِيمُهُ ، وَزَارَ الْبِلَادَ مِنْهُ أَجَلُ
ضَيْفٍ فَرَشَتْ لَهُ صَفْحَةً خَدَّهَا لِلْقُرَى فَعَمَّهَا كَرَمُهُ ، وَبَلَغَ مِنَ الْأُذْرُعِ سِتَّةَ عَشَرَ ذِرَاعًا
وَرَفَعَ لَوَاعَهُ بِالْمَزِيدِ وَلَشَّرَ ، وَجَاءَ لِلْبَشْرِ بِأَنْوَاعِ الْبُشْرِ ، فَرَسَمْنَا بِتَعْلِيقِ سِستَرِ مِقْيَاسِهِ ،
وَتَحْلِيقِهِ وَتَضْوِيعِ أَنْفَاسِهِ ، وَفِي صَبِيحَةِ الْيَوْمِ الْمَذْكُورِ كَسَرْتُ حَلِيحَهُ عَلَى الْعَادَةِ ،
وَبَلَغَ الْإِنَامُ أَقْصَى الْإِرَادَةِ ، وَتَبَاشَرَ بِذَلِكَ الْعَامُ وَالْخَاصُّ ، وَأَعْلَنْتِ الْأَلْسَنَةُ بِمَجْدِ
رَبِّهَا بِالْإِخْلَاصِ ، وَسَطَّرَهَا وَهُوَ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ مُتَتَابِعِ الْمَزِيدِ ، بِسَيْطِ بَحْرِهِ
الْمَدِيدِ ، مُتَجَدِّدِ الثَّمَوِ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الزِّيَادَةِ جَدِيدِ . فَالْحَنَابُ الْعَالِي يَأْخُذُ مِنْ
هَذِهِ الْبُشْرِ بِأَوْفَرِ نَصِيبٍ ، وَيَشْكُرُ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَى مَا مَنَحَ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - هَذَا الْعَامَ
الْخَصِيبَ ، وَيُذَيِّعُ لَهَا خَبْرًا وَذِكْرًا ، وَيُضَوِّعُ بَطْنَهَا نَشْرًا ، وَيَتَقَدَّمُ بِأَنْ لَا يُجْنَى
عَنْ ذَلِكَ بِشَارَةِ بِالْجُمْلَةِ الْكَافِيَةِ ، لِتَغْدُو الْمِنَّةُ تَامَةً وَالْمَسْرَةُ وَافِيَةً ، وَقَدْ جَهَّزْنَا بِهَذِهِ
الْمَكْتُوبَةِ فَلَنَا ، وَكَتَبْنَا عَلَى يَدِهِ أَمْثَلَةً شَرِيفَةً إِلَى ثَوَابِ الْقِلَاعِ الْفَلَانِيَةِ [جَرِيًا] عَلَى
الْعَادَةِ ، فَيَتَقَدَّمُ بِتَجْهِيزِهِ بِذَلِكَ عَلَى عَادَةِ هِمَّتِهِ ، فَيُحِيطُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ .



وهذه نسخة أخرى في معنى ذلك، كُتِبَ بها في سابع عشر ذى القعدة سنة ست وستين وسبعائة، وصورتها بعد الصدر :

وَبَشِّرْهُ بِأَخْصَابِ عَامٍ ، وَأَخْصِ مَسَرَّةَ هَنَاقِهَا لِلْوُجُودِ عَامٍ ، وَأَكْبِلِ نِعْمَةَ تَقَابُلِ
الْعَامِ مِنْ عَيُونِ الْأَرْضِ بِمَزِيدِ الْإِنْعَامِ .

صدرت هذه المكاتبة إلى الجَنَابِ الْعَالِي تُهْدِي إِلَيْهِ أَتَمَّ سَلَامٍ ، وَأَعَمَّ ثَنَاءٍ تَامٍ ؛
وَتَوْضِيحَ لَعَلِّهِ الْكَرِيمِ : أَنْ اللَّهَ تَعَالَى - وَلَهُ الْحَمْدُ - قَدْ جَرَى فِي أَمْرِ النَّيْلِ الْمُبَارَكِ عَلَى
عَوَائِدِ أَنْطَافِهِ ، وَمَنْحَ عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ مِنْ مَدِيدِ نِعْمَةٍ مَزِيدٍ إِسْعَافِهِ ؛ وَأُورِدَ الْأَمَالَ
مِنْ جُودِهِ مَنَهَلًا عَذْبًا ، وَمَلَأَهَا بِهِ إِقْبَالَاً وَخِصْبًا ؛ وَأَحْيَا بِهِ مِنْ مَوَاتِ الْأَرْضِ
فَاهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ ، وَأَنْبَتَتْ كُلُّ بَيْهَجٍ وَأَنْجَبَتْ ؛ وَأَيْنَعَتِ الرِّيَاضُ بَجَرَتْ فِيهَا الرُّوحُ
وَدَبَّتْ ، وَأَمْتَلَأَتْ الْحَيَاضُ قَفَاضَتْ بِالْمِيَاهِ وَأَنْصَبَتْ ؛ وَطَلَعَ كَالْبَدْرِ فِي آزْدِيادِهِ ،
وَتَوَالَى عَلَى مَدِيدِ الْأَرْضِ بِأَمْدَادِهِ ؛ إِلَى أَنْ بَلَغَ حَدَّهُ ، وَوَصَلَ الْقَرَجَ وَمَنْعَ الشَّدَّهِ ؛
وَفِي يَوْمٍ كَذَا مِنْ شَهْرٍ كَذَا الْمَوَافِقِ لَكَذَا وَكَذَا مِنْ شَهْرِ الْقِبْطِ ؛ وَقَاهُ اللَّهُ سِتَّةَ عَشَرَ
ذُرَاعًا فَاهُ فِيهَا بِالنُّجُجِ ، وَعَمَّ ثَرَاهُ الْأَرْضُ فَاشْرَقَ بَعْدَ لَيْلِ الْجَدْبِ بِالرَّخَاءِ أَضْوَاءُ صُبْحٍ ؛
وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عُلِّقَ سِتْرُهُ ، وَخُلِقَ مِقْيَاسُهُ فَاشْتَهَرِذِ كُرَّهُ ، وَكُسِرَ سَدُّهُ ، وَتَوَالَى مَدُّهُ ،
وَتَجَزَّ مِنْ الْخِصْبِ وَعَدُّهُ ؛ وَعَلَا التَّرَعُ وَالْجُرُوفُ ، وَقَطَعَ الطَّرِيقَ فَأَمَّنَ مِنَ الْجَدْبِ
الْخَوْفُ ؛ وَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الطَّلُقَ الْحَيَا ، وَأَسْبَلَ عَلَى الْأَرْضِ لِبَاسَ النَّفْعِ فَبَدَّلَهَا بَعْدَ
الظُّلَمِ رِيًّا ؛ فَحَمَدْنَا اللَّهَ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعَمِ ، وَرَأَيْنَا أَنْ يَكُونَ لِلْجَنَابِ الْعَالِي أَوْفَرُ
نَصِيبٍ مِنْ هَذَا الْهَنَاءِ الْأَعَمِّ ؛ وَآثَرْنَا إِعْلَامَهُ بِذَلِكَ : لِيَكُونَ فِي شُكْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ أَكْبَرُ
مِشَارِكٍ ؛ فَالْجَنَابِ الْعَالِي يَأْخُذُ حَظَّهُ مِنْ هَذِهِ الْبُشْرَى ، وَيَتَحَقَّقُ مَالُهُ عِنْدَنَا مِنْ

المكانة التي خَصَّته في كُلِّ مُبْهَجَةٍ بِالذِّكْرِ؛ ويتقدَّم أمره الكريم بأن لا يُجْزَى
عن ذلك حقَّ بشاره، ولا يتعرَّض إلى أحدٍ بخساره؛ وقد جَهَّزنا بذلك فلانا .

الصنف السابع عشر

(فيما يكتب في البشارة بركوب الميدان الكبير بخط اللوق)

عند وفاة النيل في كُلِّ سنة)

وهو مما يتكرر في كُلِّ سنة عند ركوب الميدان ، ويكتب به إلى جميع النواب
الأكابر والأصاغر ؛ وتجهَّز إلى أكابر النواب خيولُ حُجَّةِ المثال الشريف ، ويرسم
لهم بالركوب في ميادين الممالك لِلْعِبِّ الكُرَّة ، تأسَّيًّا بالسلطان ؛ فيركبون ويلعبون
الكُرَّة . والعادة في مثل ذلك أن تُنْشَأَ نسخةُ كتاب من ديوان الإنشاء الشريف ،
ويكتب بها إلى جميع النيابات ، لا يختلف فيها سوى صدرها ، بحسب ما يقتضيه
حال ذلك النائب .

وهذه نسخة مثال شريف في معنى ذلك ، كُتِبَ به في ذى القعدة سنة ستين
وسبعمائة لِنائب طرابلس ، وصورته بعد الصدر :

ولا زال يُحْمَلُ إليه أنباء ما يبرِدُ غُلَّتَه من مُضَاعَفَةِ الشُّرُور ، وَتُبِّثَ له أقوال الهناء
بما يَجِبُ عِلَّتِه من النَّصْرِ الموفور ، وَتَحْصُهُ من إقبالنا الشريف بأكل تكريم
وأتم حبور .

صدرت هذه المكتوبة تُهْدَى إليه من السلام والثناء كذا وكذا ، وتَوْصَحُ لِعِلْمِهِ الكريم
أَنَّا نَحْقُقُ مَضَاءَ عَزَائِمِهِ حَرْبًا وَسِلْمًا ، وَأَعْتِلَاءَ هِمَمِهِ التي تُحَرِّسُ بها الممالك ونُجْجِي ؛

وَأَنْ صَوَّافَنَّهُ تَرْتَبُّ لُتَرَكُضْ ، وَتُحْبَسُ لَتَنْهَضْ ؛ فَلَذَلِكَ نُعَلِّمُهُ مِنْ أَنْبَاءِ اسْتَظْهَارِنَا
مَا يُبْهِجُ خَاطِرَهُ ، وَيُقِرُّ نَظَرَهُ ؛ وَهُوَ أَتْنَا لَمَّا كَانَ فِي يَوْمِ السَّبْتِ الْمُبَارَكِ خَامِسِ سُؤَالَ ،
تَوَجَّهَ رِكَابُنَا الشَّرِيفُ إِلَى الْمِيدَانِ السَّعِيدِ وَفَاضَ بِهِ جُودُنَا فَأَخْضَرَتْ مَرْوَجُهُ ،
وَضَهَبَتْ نَيْرَانَا الْأَعْظَمُ فَأَشْرَقَتْ آفَاقُهُ وَتَشَرَّفَتْ بِرُوحِهِ ، وَأَقْرَّ الْعُيُوبَ مُنِيرُ وَجْهِهَا
الْمُبَارَكِ وَبَهَّجَهُ ؛ وَغَدَا كُلُّ وَلِيٍّ بِمَوْلَاةٍ إِنْعَامَنَا مَشْمُولًا ، وَبِمَنَالَاتٍ إِكْرَامَنَا مُوصُولًا ؛
وَرَكَّضَ الْأَوْلِيَاءَ بَيْنَ أَيْدِينَا جِيَادًا أَلْقَتْ نِزَالًا وَعَرَفَتْ طِرَادًا ، وَأَنْعَظَتْ لِينًا وَأَنْقِيَادًا ؛
وَعُدْنَا إِلَى مُسْتَقَرِّ مَلِكِنَا الشَّرِيفِ وَقَدْ جَدَّدَ اللَّهُ تَعَالَى لَنَا إِسْعَادًا ، وَأَيَّدَ لِعَزْمِنَا الْمَعَانَ
مَبْدَأً وَمَعَادًا ؛ وَآثَرْنَا إِعْلَامَ الْجَنَابِ الْعَالِي بِهَذِهِ الْوَجْهَةِ الْمَيْمُونَةِ ، وَالْحَرَكَةِ الَّتِي هِيَ
بِالْبَرَكَةِ مَقْرُونَةٌ : لِيَأْخُذَ حَظَّهُ مِنَ السُّرُورِ بِذَلِكَ وَالْهَنَاءِ ، وَيَتَحَقَّقَ مِنْ إِقْبَالِنَا الشَّرِيفِ
عَلَيْهِ مَا يَبْلُغُ بِهِ الْمُنَى .



وهذه نسخة مثالي شريف في المعنى ، كُتِبَ بِهِ فِي الْعِشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ ، سَنَةِ
أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ . وَصُورَتُهُ بَعْدَ الصَّدْرِ :

وَلَا زَالَتْ مَيَادِينُ سَعْدِهِ لَا تَنْتَاهِي إِلَى مَدْيٍ ، وَكُرَاتُ كَرَاتِهِ فِي رِحَابِ النَّصْرِ تَلْمَعُ
كَنَجْمِ الْهُدَى ؛ وَمُدُورُ صَوَالِحِهِ كَشَوَاحِرِ الْمُرَّانِ تَحْلُو بِتَأْيِيدِهَا لِلْأَوْلِيَاءِ وَتَقْدُ
مَرِيرَةَ الْعِدَا .

صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ وَظَفَرُهَا لَا يَزَالُ مُؤَيَّدًا ، وَنَصْرُهَا لَا يَبْرَحُ مُؤَيَّدًا ؛ تُهْدَى إِلَيْهِ
سَلَامًا مُؤَكَّدًا ، وَشَاءَ كَنْشَرِ الْأَرْضِ بِالنَّدَى ؛ وَتَوَخَّعَ لَعَلَّمَهُ أَنَّنَا لَمْ نَزَلْ بِحَمْدِ اللَّهِ نَتَّبِعُ
سَلَفِنَا الشَّرِيفِ ، وَنُجْرَى الْأُمُورِ عَلَى عَوَائِدِ جَمِيلِهِمُ الْمُتَيْفِ ؛ وَنَرَى تَمَرِينَ
الْأَوْلِيَاءِ عَلَى مُمَارَسَةِ الْحُرُوبِ ، وَنُؤَيِّرُ إِبْقَاءَ آثَارِ الْجِهَادِ فِيهِمْ عَلَى أَحْسَنِ أُسْلُوبٍ ؛

فلذلك لا يُنْجَلُ في كُلِّ عامٍ بالتَّعَاهُدِ إلى المَيْدَانِ السَّعِيدِ، والركوبِ إليه في أَسْعَدِ طَالِعٍ يُدْئِي النَّصْرَ وَيُعِيدُ : لِمَا في ذلك من آتِهَاجٍ يَتَجَدَّدُ ، وأسبابِ مَسْرَةٍ لِكَاْفَةِ الْأَنَامِ تَتَأَكَّدُ ، ودَعَوَاتِ أَلْسِنَتِهَا تَتَضَاعَفُ مِنَ الرِّعْيَةِ وَتَتَرَدَّدُ .

ولما كان في يوم السبت المبارك سادس عشر شهر رَجَبِ الْفَرْدِ ، ركبنا إلى المَيْدَانِ السَّعِيدِ في أَوَّلِ وَقْتٍ أَخَذَ مِنَ السَّعْدِ يَجْمُوعِهِ ، وأظهر في أَفْقِ الْعَسَاكِرِ مِنْ وَجْهِهَا الشَّرِيفِ الْبَدْرَ عِنْدَ طُلُوعِهِ ؛ وَلَمْ نَبْرَحْ يَوْمَنَا الْمَذْكُورِ فِي عَطَاءٍ نُجِيدُهُ ، وَإِنْعَامٍ نُفِيدُهُ ، وَإِطْلَاقٍ نُبْدِيهِ وَنُعِيدُهُ ؛ وَالْأَوْلِيَاءِ بَيْنَ أَيْدِينَا الشَّرِيفَةِ يَمْرُحُونَ ، وَفِي بَحَارِ كَرَمِنَا الْمُنِيفِ يَسْبَحُونَ ، وَفِي مَيْدَانِ تَأْيِيدِنَا الْمُطِيفِ يَسِيحُونَ ؛ وَالْكُرَاتُ كَالشَّمْسِ تَجَحُّ تَارَةً وَتَغِيبُ ، وَتَخْشَى مِنْ وَقْعِ الصَّوَالِجَةِ فَتَقَابِلُهَا بِوَجْهِ مُصَفَّرٍ مُرِيبٍ ؛ ثُمَّ عُدْنَا إِلَى الْقَلْعَةِ الْمَنْصُورَةِ عَلَى أَوَّلِ حَالٍ ، وَأَسْعَدِ طَالِعٍ بَلَغَ الْأَنَامَ الْأَمَانَ وَالْأَمَالَ ؛ وَالْعَسَاكِرُ بِخِدْمَتِنَا الشَّرِيفَةِ مُحْدِقُونَ ، وَمَمَالِكُنَا بِعُقُودٍ وَلَانَا مُطَوَّقُونَ ؛ وَالرَّعَايَا قَدْ أَلْبَسَهَا السُّرُورُ أَثُوبًا ، وَفَتَحَ لَهَا مِنَ الْآتِهَاجِ أَبْوَابًا ؛ وَقَدْ آثَرْنَا إِعْلَامَ الْجَنَابِ بِذَلِكَ لِيَأْخُذَ حَظَّهُ مِنْ هَذِهِ الْمَسْرَةِ وَالْبُشْرَى ، وَيَشْتَرِكَ هُوَ وَالْأَنَامُ فِي هَذِهِ النِّعْمَةِ الْكُبْرَى ؛ وَمَرَّسُومُنَا لِلْجَنَابِ أَنْ يَتَقَدَّمَ بِالرَّكُوبِ بَيْنَ عُنْدِهِ مِنَ الْأُمَرَاءِ فِي مَيْدَانِ طَرَابُلُسَ الْمَحْرُوسَةِ ، وَيَلْعَبَ بِالْكُرَةِ عَلَى جَارِي الْعَادَةِ فِي ذَلِكَ ؛ لِيُسَاهِمَ أَوْلِيَاءُ دَوْلَتِنَا الْقَاهِرَةِ فِي ذَلِكَ ، وَيَسْلُكَ مِنْ طَرَفِهِمُ الْجَمِيلَةَ أَجْمَلَ الْمَسَالِكِ .

قلت : وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ الْمَكَاتِبَاتِ السُّلْطَانِيَةِ لَمْ يَزَلْ مُسْتَعْمَلًا بِدِيَوَانِ الْإِنْشَاءِ ، يُكْتَبُ بِهِ كُلَّمَا رَكِبَ السُّلْطَانُ إِلَى الْمَيْدَانِ الصَّالِحِي بِخَطِّ اللَّوْقِ ، إِلَى أَنْ عُطِّلَ جِيدُهُ مِنَ الرَّكُوبِ فِي أَوَاخِرِ الدَّوْلَةِ الظَّاهِرِيَّةِ « بِرَفُوقٍ » وَأَقْتَصَرَ عَلَى لَعِبِ الْكُرَةِ فِي الْمَيْدَانِ الَّذِي جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ ؛ فَتَرَكْتَ الْمَكَاتِبَةَ بِذَلِكَ مِنْ دِيَوَانِ الْإِنْشَاءِ وَرَفَضَ اسْتِعْمَالُهَا .

الصفحة الثامن عشر

(المكتبة بالإشارة بحج الخليفة)

لما كانت الأسفار، محلّ الأخطار؛ وموقع الاختلاف وحدوث الفتن؛ كانت الخلفاء يكتبون الكتب إلى عمّاهم بالسلامة عند الإياب من السفر للحج وغيره . والرسم فيها أن يذكر أن الحج من أجل العبادات ، وأن من النعمة [أن يمن] الله تعالى بقضاء المناسك، والوقوف بالمسعر الحرام، والطواف بالبيت العتيق، والسعي بين الصفا والمروة، وما يجري مجرى ذلك من شعائر الحج؛ ثم بعد زيارة النبي صلى الله عليه وسلم، واتفق الكلمة في جميع هذه الأحوال، على كثرة الخلائق ومزيد الجيوش والعساكر .

وهذه نسخة كتاب بالسلامة من سفر الحج، وهي :

الحمد لله الذي جعل بيته مثابة للناس وأمناء، وحرماً من دخله كان آمناً؛ الذي اختار دين الإسلام على الأديان، وأبتعت به صفوته من الإنس والجان؛ محمداً أكرم نبي معذ بن عدنان .

يمجده أمير المؤمنين أن أعانه على نادية حقه، ونصبه لكفالة خلقه؛ ووفقه للعمل بما يرضيه ويؤدّي إليه . ويسأله أن يصلّي على خير من غار وأئجد، وصدر وورد؛ وركع وسجد، ووحد ومجد، وصلّى وعبد؛ وحلّ وأحرم، وحجّ الحرم؛ وأتى المستجار والمكتر، والحطيم وزمزم، محمد سيد ولد آدم؛ وعلى أخيه وأبن عمه مضباح الدلالة، وحجاب الرسالة؛ إمام الأمة، وباب الحكمة؛ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب،

مُزَقِّ الكُتَّابِ ، وَمُفَرِّقِ المَوَاقِبِ ، وَمُحِطِّمِ القَوَاضِبِ ، فِي القَلِيلِ وَالْمَنَاجِبِ ، وَعَلَى
الْأُتَمَّةِ مِنْ دُرِّيَّتِهَا المَهِدِينَ ، صَلَاةً بَاقِيَةً فِي العَالَمِينَ .

وَإِنَّ أَوَّلَى النِّعَمِ بَأَن يُسْتَعْدَبَ ذِكْرُهَا ، وَيُسْتَغْفَرَ نَشْرُهَا ، وَتُحَدَّثَ بِهَا الْإِنْسَانُ ،
وَتُعَدَّ فِي مَوَاهِبِ اللَّهِ الحَسَنَةِ ، نِعْمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي التَّوْفِيقِ لِحُجِّ بَيْتِهِ الَّذِي جَعَلَهُ مَثَابَةً
لِرَأْيِهِ ، وَالْإِطَافَةَ بِحَرَمِهِ الَّذِي يُوجِبُ المَغْفِرَةَ لِقَاصِدِيهِ ، وَالتَّزُولَ بِأَفْنِيَّتِهِ الَّتِي مِنْ
يَحْدُمِ بِهَا فَقَدْ آنَسَلَخَ مِنَ السَّيِّئَاتِ ، وَتَلَبَّسَ بِالحَسَنَاتِ ، وَكُتِبَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا
إِلَيْكَ يَوْمَ النَّفَرِ الْأَوَّلِ : وَقَدْ قَضَى بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَوَفَّى نَذْرَهُ ، وَنَمَّ حُجَّهُ ، وَكَلَّ طَوَافَهُ ،
وَشَهِدَ مَنَافِعَهُ ، وَأَدَّى مَنَاسِكَهَ ، وَوَقَفَ الْمُؤَقَّفَ بَيْنَ يَدَي رَبِّهِ قَانِتًا دَاعِيًا ، وَرَاجِيًا
رَاجِيًا ، وَعَرَفَهُ بِعَرَفَاتٍ إِعْلَامَهُ قَبُولَ سَعْيِهِ ، وَإِجَابَةَ تَلَيُّنَتِهِ ، وَبَلَغَهُ فِي مَنَى أَمَانِيهِ
مِنْ رَأْفَتِهِ ، وَأَرَاهُ مِنْ مَحَابِلِ الرَّحْمَةِ ، وَدَلَّائِلِ المَغْفِرَةِ ، مَا تَلَأَلَّتْ أَنْوَارُهُ ، وَتَوَخَّضَتْ
آثَارُهُ ، وَأَجْرَاهُ عَلَى تَفْصِيلِ الْعِبَارَةِ فِي شُمُولِ السَّلَامَةِ لِكُلِّ مَنْ حَجَّ بِحُجَّهَ ، وَوَقَفَ
مَوْقِفَهُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ وَخَاصَّتِهِ ، وَعَامَّتِهِ وَرَعِيَّتِهِ ، وَأَنْعَمَ بِاتِّفَاقِ كَلِمَتِهِمْ ، وَاجْتِمَاعِ أَهْوِيَّتِهِمْ ،
وَأَكْتِنَافِ الدَّعَةِ وَالسُّكُونِ لَهُمْ ، وَزَوَالِ الْإِخْتِلَافِ وَالْمُبَاطَنَةِ بَيْنَهُمْ .

فَإِنْ أَرَادَ زِيَارَةَ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : وَهُوَ يَصْدُرُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى
عَنْ مَوْقِفِهِ هَذَا مِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، إِلَى زِيَارَةِ قَبْرِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

فَإِنْ أَرَمَعَ الْإِنْكَفَاءَ إِلَى مَقَرِّهِ ، قَالَ :

وَأَشْعُرُكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ذَلِكَ وَهُوَ عَائِدٌ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى مَقَرِّ خِلَافَتِهِ ،
فِي عِزٍّ مِنْ قُدْرَتِهِ ، وَعُلوٍّ مِنْ كَلِمَتِهِ ، وَأَمْتَدَادٍ مِنْ سُلْطَانِهِ ، وَتَضَاعُفٍ مِنْ جُنْدِهِ
وَأَعْوَانِهِ : لِنَاخِذِ بِحُظِّكَ مِنَ الْإِبْتِهَاجِ وَالْجَذَلِ ، وَتُدْيِعِهِ بَيْنَ أَهْلِ الْعَمَلِ : لِيُشَارَكَكَ
الْعَامَّةُ فِي الْعِلْمِ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ فَيُخْلِصُوا لِلشُّكْرِ عَلَيْهَا ، وَيَرْغَبُوا إِلَيْهِ فِي الزِّيَادَةِ مِنْهَا ،
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة كتاب بسلامة الخليفة من سفر في الجملة .

والرسم فيه أن تُذكر نعمة الله تعالى بما منح أمير المؤمنين في سفره ذلك : من بلوغ المآرب ، وتسهيل المقاصد ، وإدراك الأوطار ، وشُمول النعمة في الذهاب والإياب ، وما يجري مجرى ذلك مما يخطر في هذا السلك ، وهذه نسخته :

الحمد لله ذي الطول والإنعام ، والفضل والإكرام ، والمِنَّنِ العظام ، والأبدي الحسام ، الذي أرعى أمير المؤمنين من حياطته عيناً لا تَنَام ، وأستخدم لحراسه والمراماة دونه الليالي والأيام ، وقضى له بالتوفيق والسعادة في الظعن والمقام .

يحمده أمير المؤمنين أن استخلصه لإمامة الأئمة ، وعَدَّق به أساليب النقض والإبرام ، ويسأله الصلاة على من آخضه بشرف المقام ، وأبتعته بدين الإسلام ، وجلا به حنادس الظلام ، مجد حاتم الأنبياء الكرام ، وعلى أخيه وأبن عمه الهمام الضرغام ، أمير المؤمنين على بن أبي طالب مكسر الأصنام ، وعلى الأئمة من ذريتهما أعلام الأحكام ، وأدلة الحلال والحرام .

وإن أمير المؤمنين لا يزال يتحدث بنعم الله مُستدراً لأخلافها ، منتصباً لقطافها ، ويُفيض في ذكرها ، مُستدعيّاً للزيادة بشكرها ، ويُطلعُ خلصاءه على حُسن آثارها لديه : وسُبوح مَلائسها عليه ، ليأخذوا بحظ من الغبطة والاستبشار ، ويسرحوا في مسارج المباح والمَسَار ، وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك حين استقر ركابه بناحية كذا ، مبشراً لك بنعمة الله في حياطته ، وموهبته في سلامته ، وما أولاه من انارة (؟) الدليل ، وتسهيل السبيل ، وطى الجاهل ، وتقريب المنازل ، وإعذاب المناهل ، وإنالة الأوطار ، وتدميث الأوطار ، وبركة المتصرف ، وسعادة المنصرف ، ووُصوله إلى مقصده

قَرِيرَ الْعَيْنِ ، قَلِيلَ الْإِنِّ ؛ مَحْفُوظًا سَارِيًّا وَأَثْبًا ، مَكْمُوءًا عَائِدًا وَذَاهِبًا ؛ مُشَرَّدَ النَّصَبِ
مَسْرُورًا ، مَوْفُورَ النَّصِيبِ مَحْبُورًا ؛ فِي أَجْتِمَاعٍ مِنْ كَلِمَةِ أَوْلِيَائِهِ عَلَى طَاعَتِهِ ، وَنُقُودِ
بَصَائِرِهِمْ فِي نَصْرِ زَايَتِهِ ؛ وَإِعَانَتِهِ عَلَى مَا اسْتَحْفَظَهُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَاسْتِرْعَاهِ مِنْ بِلَادِهِ : لِيَأْخُذَ
بِالْحِطِّ الْأَجْزَلِ ، مِنَ الْإِتْبَاهِاجِ وَالْجَذَلِ ؛ وَيَشْكُرَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الْمُتَجَدِّدَةِ ،
وَيُضِيفَهَا إِلَى سَوَالِفِ نِعَمِهِ الثَّالِدَةِ ؛ وَيُذَيِّعَهَا بَيْنَ رَعِيَّتِهِ ، وَأَنْصَارِ دَعْوَتِهِ ؛ لِيَشْتَرَكُوا
فِي آرْتِشَافِ لُغَايَاهَا ، وَالنِّحَافِ أَنْوَابِهَا ؛ فَاعْلَمْ هَذَا وَاعْمَلْ بِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قلت : وهذا الصَّنْفُ من المكاتبات السلطانية قليلُ الوقوع ، فَإِنْ وَقَعَ مِثْلُهُ
لِلْكَاتِبِ فِي زَمَانِنَا ، خَرَّجْهُ عَلَى نِسْبَةِ الْأُسْلُوبِ الْمَتَقَدِّمِ .

الصنف التاسع عشر

(الكُتَابَةُ بِالْإِنْعَامِ بِالتَّشَارِيفِ وَالْخَلْعِ)

وهذا الصَّنْفُ مِمَّا أَغْفَلَهُ صَاحِبُ "مَوَادِّ الْبَيَانِ" وَلَا يَدُّ مِنْهُ .

وَالرَّسْمُ فِيهِ أَنْ يَكْتُبَ عَنِ الْخَلِيفَةِ أَوِ السُّلْطَانِ إِلَى مَنْ أَخْلَصَ فِي الطَّاعَةِ ،
أَوْ ظَهَرَتْ لَهُ آثَارُ كِفَايَةٍ : كَفَتْحِ أَوْ كَسْرِ عَدُوٍّ ، وَمَا يَجْرِي مَجْرَى ذَلِكَ .

وهذه نسخة كتاب كتبه به أَبُو إِسْحَاقَ الصَّاهِبِيُّ عَنِ الطَّائِعِ لِلَّهِ ، إِلَى صَمَّصَامِ الدَّوْلَةِ
أَبْنِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ بْنِ بُوَيْهِ ، قَرِينَ خِلْعَةٍ وَفَرَسَيْنِ بِمَرْكَبَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ وَسَيْفٍ
وَطَوِيقٍ ، وَهِيَ :

مَنْ عَبْدُ اللَّهِ عَبْدُ الْكَرِيمِ الْإِمَامُ الطَّائِعُ لِلَّهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، إِلَى صَمَّصَامِ الدَّوْلَةِ
وَشَمْسِ الْمَلَةِ أَبِي كَالِيَجَارِ بْنِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ وَتَاجِ الْمَلَةِ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

سلام عليك : فإن أمير المؤمنين يَمُجِّدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَيَسْأَلُهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى جَدِّهِ مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

أما بعد ، أطال الله بقاءك : فإن أمير المؤمنين وإن كان قد بَوَّأَكَ المِثْلَةَ العُلْيَا ، وَأَنَالَكَ مِنْ أَثَرَتِهِ الغَايَةَ القُصْوَى ؛ وجعل لك ما كان لأبيك عَضْدُ الدَّوْلَةِ وتاج المِلَّةِ - رحمة الله عليه - من القَدْرِ والمَحَلِّ ، والمَوْضِعِ الأَرْفَعِ الأَجَلِ ؛ فإنه يُوجِبُ لك عند كُلِّ أَثَرٍ يكون منك في الخِدْمَةِ ، ومَقَامِ حَمْدِ تَقْوَمِهِ في حِمَايَةِ البَيْضَةِ ؛ إِنْعَامًا يُظَاهِرُهُ ، وإِكْرَامًا يُتَابِعُهُ ؛ وَيُؤَاتِرُهُ ؛ وَاللَّهُ يَزِيدُكَ مِنْ تَوْفِيقِهِ وتَسْدِيدِهِ ، ويمُدُّكَ بِمَعُونَتِهِ وتأييده ؛ وَيَجْعَلُ لَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا رَأَيْتَهُ مُسْتَمِرًّا عَلَيْهِ مِنْ مَزِيدِكَ وتمكينك ، والإِيقَاءِ بك وتعظيمك ؛ وما تَوْفِيقُ أمير المؤمنين إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ وإِلَيْهِ يُنِيبُ .

وقد عرفت - أدام الله عزَّكَ - ما كان من [أمر كردويه] ^(٣) كافر نِعْمَةِ أمير المؤمنين ونِعْمَتِكَ ، وجَاحِدِ صَنِيعَتِهِ وصَنِيعَتِكَ ؛ في الوَثْبَةِ التي وثَبَهَا ، والكِبَرَةِ التي آرْتَكَبَهَا ؛ وتَقْدِيرِهِ أَنْ يَنْتَهِزَ الفُرْصَةَ التي لم يَمِكَّنْهُ اللَّهُ مِنْهَا ، بل كان من وراء [ذلك] دَفْعُهُ وَرَدُّهُ عَنْهَا ؛ ومَعَاجِلَتِكَ إِيَّاهِ الحَرْبَ التي أصْلَاهُ اللَّهُ نَارَهَا ، وَقَنَعَهُ عَارَهَا وشَنَارَهَا ؛ حَتَّى أَنهَزِمَ والأَوْغَادُ الذين شَرِكُوهُ في إثَارَةِ الفِتْنَةِ ، على أقْبَحِ أحوال الذَّلَّةِ والقِلَّةِ ؛ بعد القَتْلِ الذَّرِيعِ ؛ والإِثْمَانِ الوجيع . فالْحَمْدُ لله على هذه النعمة التي جَلَّ مَوْقِعُهَا ، وبَانَ على الخَاصَّةِ والعَامَّةِ أَثَرُهَا ؛ وَلَزِمَ أمير المؤمنين خصوصًا والمسلمين عموماً نَشْرُهَا والحديثُ بها ، وهو المسْئُولُ إقامَتَهَا وإدامَتَهَا بِرَحْمَتِهِ .

(١) تقدم في هذا المطبوع (ج ٦ ص ٣٩٦) عند ذلك أثرًا .

(٢) الذي تقدَّم « يؤيدك » وما هنا أوضح .

(٣) بياض بالأصل ، والتصحيح عما تقدَّم .

وقد رأى أمير المؤمنين أن يُجَازِيكَ عن هذا الفتح العظيم، والمقام المحيد الكريم؛
بِخَلْعٍ تَامَةٍ، ودَابَّتَيْنِ بِمَرْكَبَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ مِنْ مَرَاكِبِهِ، وَسَيْفٍ وَطَوِيقٍ وَسِوَارٍ مُرَصَّعٍ .
فَتَلَقَّى ذَلِكَ بِشُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ ، وَالْأَعْتِدَادِ بِنِعْمَتِهِ فِيهِ ؛ وَالْبَسَ خَلْعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
وَتَكْرِمَتَهُ ، وَسِرٍّ [مِنْ بَابِهِ] عَلَى حَمَلَاتِهِ ، وَأَظْهَرَ مَا حَبَّكَ بِهِ لِأَهْلِ حَضْرَتِهِ ، لِيُعْزَّزَ
اللَّهُ بِذَلِكَ وَلِيَّهُ وَوَلِيَّكَ ، وَيُذِلَّ عَدُوَّهُ وَعَدُوَّكَ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ
وَرَحْمَتُهُ وَبَرَكَاتُهُ . وَكُتِبَ فَلَانِ لَثَمَانٍ بَقِيْنَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ نَحْمَسٍ وَسَبْعِينَ
وَلَثَمَانَةً : أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَكَ ، وَأَدَامَ عِزَّكَ ، وَأَجْزَلَ حِفْظَكَ وَحَيَاطَتَكَ ، وَأَمْتَعَ أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ بِكَ وَبِالنِّعْمَةِ فِيكَ وَعِنْدَكَ .

قُلْتُ : وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ الْمَكَاتِبَاتِ السُّلْطَانِيَةِ بَاقٍ عَلَى الْأَسْتِمَالِ ، مَتَى أَنْعَمَ
السُّلْطَانُ عَلَى نَائِبِ سُلْطَانَةٍ أَوْ أَمِيرٍ أَوْ وَزِيرٍ أَوْ غَيْرِهِ بِخُلْعَةٍ بَعَثَ بِهَا إِلَيْهِ وَكُتِبَ
قَرِينَهَا مِثْلًا شَرِيفًا بِذِكْرِ ذَلِكَ ؛ إِلَّا أَنَّهُ أَهْمَلُ فِي ذَلِكَ السَّجْعُ وَالْأَزْدَوَاجُ ، وَأَقْتَصَرَ
فِيهِ عَلَى الْكَلَامِ الْحُلُولِ كَمَا فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَكَاتِبَاتِ ، إِلَّا فِي النَّادِرِ الْمُعْتَنَى بِشَأْنِهِ .

الصنف العشرون

(المكاتبة بالتنويه والتلقيب)

قال في "مواد البيان" : جرت عادة الخلفاء بالكاتبه بالتلقيب ، لأنَّ اللَّقَبَ مَوْهَبَةٌ
مِنْ مَوَاهِبِ الْإِمَامِ : أَمْضَاهَا وَأَجَازَهَا ؛ فَإِذَا جَرَتْ عَلَيْهِ كَانَتْ كَغَيْرِهَا مِنْ نِعَمِهِ الَّتِي يَمْنَحُهَا
عَلَى عِبِيدِهِ ؛ وَالْكُنْيَةُ تَكْرِمَةٌ يَسْتَعْمِلُهَا النَّاسُ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، فَلَيْسَ حُكْمُهَا حُكْمُ اللَّقَبِ .

(١) بياض بالأصل والصحيح عما تقدم (ج ٦ ، ص ٣٩٧) .

(٢) سماء فيما تقدم « أحمد بن محمد » .

قال : والرسم في هذه الكتب أن تفتح بحمد الله على نِعَمِهِ السَّابِغَةِ الضَّافِيَةِ ،
ومَوَاهِيهِ الزَّاهِيَةِ النَامِيَةِ ، وعَوَارِفِهِ الَّتِي جَعَلَهَا جَزَاءً لِلْحَسَنِينَ ، وزيادةً لِلشَّاكِرِينَ ؛
ونحو هذا مما يليق أن يفتتح به هذا الغرض ؛ والصَّلَاةُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وسلم . ثم يقال :

وإنَّ أميرَ المؤمنين بما خَوَّلَهُ اللهُ تعالى من نِعَمِهِ ، وبَوَّأَهُ من قِسْمِهِ ؛ وَخَصَّهُ
به من التَّمَكِينِ في أَرْضِهِ ، والمُعُونَةِ عَلَى الْقِيَامِ بِقَرَضِهِ ، يَرَى الْمَنَّ عَلَى حُلْصَانِهِ ،
وإِسْبَاغَ النِّعَمِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ ؛ وَأَخْصَصَهُم بِالنَّصِيبِ الْأَوْفَرِ من حَيَاتِهِ ؛ وَالْإِمَالَةَ بِهِم
إِلَى الْمَنَازِلِ الْبَازِخَةِ ، وَالرُّتَبِ الشَّائِخَةِ . وَإِنْ أَحَقَّ من وَفَرٍ قِسْمُهُ من مَوَاهِبِهِ ، وَغَزُرَ
سَهْمُهُ من عَطَايَاهُ وَرَغَائِبِهِ ؛ مَنْ تَمَيَّزَ بِمَا تَمَيَّزَتْ بِهِ من إِخْلَاصٍ وَمُطَاوَعَةٍ ، وَوَلَاءٍ
وَمُشَافَعَةٍ ، وَأَنْقِيَادٍ وَمُتَابَعَةٍ ؛ وَصَفَاءٍ عَقِيدَةٍ وَسِرِيرَةٍ ، وَحُسْنِ مَذْهَبٍ وَسِيرَةٍ ؛ وَلِذَلِكَ
رَأَى أميرَ المؤمنين أَنْ يَنْعَتَكَ بِكَذَا لِاشْتِقَاقِهِ هَذَا النَّعْتَ من سِمَاتِكَ ، وَأَسْتِنْبَاطِهِ إِيَّاهُ
من صِفَاتِكَ ؛ وَشَرَفَكَ من مَلَابِسِهِ بِكَذَا ، وَطَوَّقَكَ بِطَوِّقٍ أَوْ بَعْقِدٍ ، وَقَلَّدَكَ بِسَيْفٍ
من سِيوفِهِ ، وَعَقَدَ لَكَ لِيَؤَاءً من أَلْوِيَتِهِ ، وَحَمَلَكَ عَلَى كَذَا من خَيْلِهِ وَكَذَا من
مَرَاكِبِهِ . وَبُحْسِنَ الْوَصْفُ في كُلِّ نَوْعٍ من هَذِهِ الْأَنْوَاعِ وَأَشْتَقَاقِ الْأَلْفَاظِ
من معانيهِ ، يَعْرَبُ عن قَدْرِ الْمَوْهَبَةِ فِيهِ . ثُمَّ يَقَالُ : إِبَانَةً لَكَ عَنْ مَكَانِكَ من حَضْرَتِهِ ،
وَإِثَابَةً عَلَى تَشْمِيرِكَ فِي خِدْمَتِهِ ؛ فَالْبَسَ تَشْرِيفَهُ وَتَطَوَّقَ ، وَتَقَلَّدَ مَا قَلَّدَكَ بِهِ ؛ وَأَرْكَبَ
حُمُولَاتِهِ ، وَأَبْرَزَ لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ فِي مَلَابِسِ نَعْمَائِهِ ، وَأَرْفَلَ في حُلْلِ آلَائِهِ ، وَزَيَّنَ
مَوَكِبَكَ بِلَوَائِهِ ؛ وَقُلْ (رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ) وَأَعِنِّي عَلَى
مَا يَسْتَرْهِمُهَا لَدَيَّ ؛ وَخَاطَبَ أميرَ المؤمنين مُتَقَلِّبًا بِسِمَتِكَ ، مُتَنَعِّتًا بِنِعَّتِكَ .

وهذه نسخة مكتوبة إلى الأفضل بن ولحشى ، وزير الحافظ لدين الله الفاطمي ،
أحد خلفاء الفاطميين بالديار المصرية ، حين قَرَّرَ الحافظ نُعُونَهُ : السَّيِّدُ ، الْأَجَلُّ ،

الأفضل، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الأنام، كافل قضاة المسلمين، وهاذى دعاة المؤمنين، وهى :

أما بعد ، فالحمد لله الذى تفرّد بالإلهية ، وتوحد بالقدم والأزلية ؛ وأبدع من برأ وخلق ، وأنشأهم من غير مثال سبق ؛ وأصطفى لتدبيرهم فى أرضه من بعثه برسالاته ، وجعل ما جاءوا به من الشرائع من أماراة لطفه بهم ودلالته ؛ وصلى الله على جدنا محمد رسوله الذى جعل رتبته اخيرا ونبوته أولى ، فكان أفضل من تقدمه نبيا وسبقه رسولا ؛ وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى ذخره لخلافته ، وأيده بوزارته ؛ مع كونه من منزلة الأصطفاء ، وتأيد الوحي الظاهر من غير خفاء ؛ بحيث لا يفتقر إلى وزير ، ولا يحتاج إلى ظهير ؛ وإنما جعل ذلك تعليما لمن يستخلفه فى الأرض من عبادہ ، وتمثيلا نص - جل وعز - إلى قصده واعتماده ؛ لما فيه من ضمّ النشْر ، وصلاح البشر ، وشمول المنافع ، وعموم الخيرات التى أمن فيها من مضيع ؛ وعلى الأئمة من ذريتهما العاملين بمرضاته ، والمتقين له حق تقاته ، والكافلين لكل مؤمن بأمانه يوم القزع الأكبر ونجاته ؛ وسلم عليهم أجمعين ، سلاما متصلا إلى يوم الدين .

والحمد لله الذى جعل النعم التى أسبغها على أمير المؤمنين ، بحسب ما اختصه به من منزلته التى فضله بها على جميع العالمين ؛ فجعله خليفة فى الأرض ، والشفيع لمن شايعه يوم الحساب والعرض ؛ وأجزل له من منته مالا يباهضه شكر إلا كان ظالما ، ولا يقابله اعتداد إلا استولى عليه العجز فلم يكن بما يجب له طامعا ؛ وإن من أرفعها مكانا ، وأعظمها شانا ؛ وأنعمها قدرا ، وأنبهها ذكرا ؛ وأعمها نفعا ، وأحسنها صنعا ؛ وأغزرها مادّة ، وأثبتها قاعدة إذا غدت النعم شاردة نادرة ؛ وأعودها فائدة

على الخاص والعام ، وأضمنها للسَّعْدِ المُسَاعِدِ والحِظِّ الوافر التَّامَّ - ما كان من المنَّةِ
الشَّاحِخَةِ الذَّرَى ، والمِنْحَةِ الشَّامِلَةِ لجميع الوري ؛ والعارِفَةِ الَّتِي اعترف بها التوحيد
والإسلام ، والمَوْهَبَةِ الَّتِي [إذا] أَنْفَقَ كُلُّ أَحَدٍ عَمْرَهُ فِي وَصْفِهَا وَشُكْرِهَا فَمَا يُعْذِلُ وَلَا
يُلَامُ ؛ والآيَةِ الَّتِي أَظْهَرَهَا اللَّهُ لِلْمَلَّةِ الْحَنِيفِيَّةِ عَلَى قُتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ، والمُعْجِزَةِ الَّتِي هَدَى
أَهْلَهُ لَهَا دُونَ كَافَّةِ الْأُمَّةِ إِلَى أَعْدَلِ السُّبُلِ ؛ والْبُرْهَانِ الَّذِي خَصَّ بِهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
وَأَظْهَرَهُ فِي دَوْلَتِهِ ، وَالْفَضِيلَةِ الَّتِي أَبَانَتْ مَكَانَهُ مِنَ اللَّهِ وَكَرِيمَ مَازِلَتِهِ ؛ وَذَلِكَ مَا مَنَّ اللَّهُ
بِهِ عَلَى الشَّرِيعَةِ الْمَهَادِيَةِ ، وَالْكَلِمَةِ الْبَاقِيَةِ ؛ وَالْخِلَافَةِ النَّبَوِيَّةِ ، وَالْإِمَامَةِ الْحَافِظِيَّةِ ؛
مِنْكَ أَيُّهَا السَّيِّدُ الْأَجَلُّ الْأَفْضَلُ : وَلَقَدْ طَالَ قَدْرُكَ فِي حُلَلِ الثَّنَاءِ ، وَجَلَّ اسْتِحْقَاقُكَ
عَنْ كُلِّ عَوِضٍ وَجَزَاءٍ ؛ وَغَدَتْ أَوْصَافُكَ مَسْأَلَةَ أَجْتِمَاعٍ وَأَتْنِلافٍ ، فَلَوْ كَانَتْ مَقَالَةٌ لَمْ
يَقَعْ بَيْنَ أَرْبَابِ الْمِلَلِ شَيْءٌ مِنَ التَّنَاقُضِ فِيهَا وَالْاِخْتِلَافِ ؛ وَأَيْنَ يَبْلُغُ أَمْدُ اسْتِجَابِكَ
مِنْ مُتَتَّبِعِيهِ ، أَوْ يَتَسَهَّلُ إِدْرَاكُ شَأْنِهِ عَلَى طَالِبِهِ وَمُتَبِعِيهِ ؟ ؛ وَالْإِيمَانُ لَوْ تَجَسَّمْ لَكَانَ
عَلَى السَّعْيِ عَلَى شُكْرِكَ أَعْظَمُ مَنَاصِرٍ ، وَالْإِسْلَامُ لَوْ أَمَكَّنَهُ التُّطْقُ لَقَامَ بِالْإِدْعَاءِ لَكَ خَطِيئًا
عَلَى الْمَنَاصِرِ ؛ فَأَمَّا الشُّرْكُ فَلَوْ أَبْقَيْتَهُ حَيًّا لَتَصَدَّدَى وَتَعَرَّضَ ، لَكِنَّكَ أَنْحَيْتَ عَلَيْهِ
وَأَدَلَّتِ التَّوْحِيدَ مِنْهُ فَانْهَدَ بِنَاؤُهُ بِمَجْدِ اللَّهِ وَتَقَوَّضَ ؛ فَكَانَ لَكَ فِي حَقِّ اللَّهِ الْعُضْبُ
الَّذِي تَقَرَّبْتَ بِهِ إِلَيْهِ فَأَرْضَيْتَهُ ، وَالْعِزُّمَ الَّذِي صَمَّمْتَ عَلَيْهِ فِي نُصْرَةِ الْحَقِّ فَأَمْضَيْتَهُ ؛
وَالْبَاطِنَ الَّذِي أَطْلَعَ عَلَيْهِ مِنْكَ فَنَصْرَكَ وَلَمْ تُرْقِ دَمًا ، وَلَا رَوَّعَتْ مُسْلِمًا ؛ وَلَا أَقْلَقْتَ
أَحَدًا وَلَا أَرْعَجْتَهُ ، وَلَا عَدَلْتَ عَنْ مَنَهِجِ صَوَابٍ لَمَّا اتَّهَجْتَهُ ؛ وَذَلِكَ مِمَّا أَشْرَكَ
الْكَافَّةُ فِي مَعْرِفَتِهِ ، وَتَسَاوَوْا فِي عِلْمِ حَقِيقَتِهِ ؛ مَعَ مَا كَانَ مِنْ تَسْيِيرِكَ الْعَسَاكِرَ الْمُظَفَّرَةَ
صُحْبَةَ أَخِيكَ الْأَجَلِّ الْأَوْحَدِ : أَدَامَ اللَّهُ بِهِ الْإِمْتِنَاعَ وَعِصْدَهُ ، وَأَحْسَنَ عَنْهُ الدِّفَاعَ
وَأَيَّدَهُ ، مِمَّا بَحَرْتَ الْحَالَ فِيهِ بِحُسْنِ سِيَاسَتِكَ ، وَفَضْلِ سَيَادَتِكَ ؛ عَلَى أَفْضَلِ مَا عَوَدَكَ اللَّهُ
مِنْ بُلُوغِ آمَالِكَ ، مِنْ غَيْرِ أَذَى لِحَقِّ أَحَدًا مِنْ رَجَالِكَ ؛ وَالْأَمْرُ فِي ذَلِكَ أَشْهَرُ مِنْ

الإيضاح ، وأمين من ضياءِ فلقِ الصُّباح ، وهذا إذا تأمله أمير المؤمنين أوجب عليه أن يُقَالِكَ من إحسانه ، بغاية ما في إمكانه ، وأن يُولِيكَ من منته ، أقصى ما في استطاعته وقُدْرَتِهِ ، ولم يرَ أحضرَ من أن قرر نُعوتَكَ «السَّيِّدُ ، الأَجَلُّ ، الأَفْضَلُ ، أميرُ الجيوش ، سيفُ الإسلام ، ناصرُ الأَئام ، كافلُ قُضَاةِ المسلمين ، وهادى دُعاة المؤمنين ، أبو الفتحِ رضوان الحافظي» إذ لا أُولَى منك بكفالة قُضاة دولته وإرشادهم ، وهداية دُعائِهِ إلى ما فيه نَجاةُ المستجيبين في معادِهِمْ ، وجدد لك ما كان قدَّمه : من تكفيلك أمرَ مَمْلَكَتِهِ ، وإعادة القول فيما أسلفه من رده إليك تدبيرَ ما وراء سِرِّيرِ خلافتِهِ ، التَّيْذاذا بتكرار ذلك وترديده ، وأبتهاجا بتطرية ذكره وتجديده ، فأمرُ المِلَّةِ والدَّولةِ مَعْدُوقَةٌ بتدبيرك ، وأحوالُ الأَدانِي والأَقاصِي موكولةٌ إلى تقريرك ؛ وقد جمع لك أمير المؤمنين من استخدام الأَولام ، وجعل السيادة لك على سائر القُضاة والدُّعاة والحُكَّام ، وأَسجَل لك بالأختصاص بالمعالِي والأَنفَراد ، والتَّوَحُّدِ بأنواع الرِّياسات والاستبداد ؛ ولك الإبرامُ والنَّقْضُ ، والرَّفْعُ والخَفْضُ ؛ والوِلايَةُ والعِزُّ ، والتَّقديمُ والتَّأخيرُ ، والتَّنْويهُ والتَّأْمِيرُ ؛ فالْمُقَدَّمُ من قدَّمته ، والمحمود من حَمْدَتِهِ ، والمؤخَّرُ من أخرته ، والمذموم من ذَمَّتِهِ ؛ فلا مخالفةَ لما أَحَبَّتِهِ ، ولا مَعْدِلَةَ عما أَرَدَتِهِ ؛ ولا تَجَاوُزَ لما حَدَدَتِهِ ، ولا نُحْوَجَ عَمَّا دَبَّرَتَهُ ؛ وأين ذلك ممَّا يُضْمِرُهُ لك أمير المؤمنين ويَتَوَيَّهُ ، ويعتقده فيك فلا يزال مدى الدَّهرِ يُعِيدُهُ وَيُيَدِّدُهُ ؟ ولو لم يكن من بركاتك على دَوْلَةِ أمير المؤمنين ، ويُمَيِّنُ تدبيرك العائد على الإسلام والمسلمين ، إلا أن أَوَّلَ عَسْكَرِ جَهْزَتِهِ إلى جِهادِ الكَفَرَةِ المَلَاعِينِ : وكان له النُّصْرُ العَزيزُ الذي تَبَلَّجَ جُحْرَهُ ، والْفَتْحُ المُبِينُ الذي جَلَّ قُدْرُهُ وَأَنْتَشَرَ ذِكْرُهُ ؛ وَالظَّفَرُ المُبْهِجُ لِلدِّينِ - العَسْكَرُ المَنْصُورُ (١) على الطائفة الكافرة : قَتَلًا لأَبْطالِها ، وَأَسْرًا لأَعناقِ رِجَالِها ، وأخذًا لِقِلاعِ المَلْسَةِ

(١) كذا بالأصل ، وقد وضع فوقها علامة توقف لعدم ظهور معناها ، ولعلها مصحفة عن "الكفرة" .

منها، وأنه لم يُقِلَّتْ من جماعتها إلا مَنْ يُحْبِرُ عنها؛ ولو عَلِمَ أمير المؤمنين تعظيماً يخرج عما تَضَمَّنَه هذا السَّجِلُّ لما آقْتَصَرَ عليه ، إلا أنه عَاجَلَه ما يَسُرُّه بِفَاحِرٍ لَكَ^(١) بما هو مُسْتَقَرٌّ لديه ؛ والله عَزَّ وَجَلَّ يُخْدِمُكَ السُّعُودُ ، وَيُخْصِّكَ مِنْ مَوَاهِبِهِ بما يتجاوز المعهود ؛ وَيَمُدُّكَ بِمَوَادِّ التَّوْفِيقِ والتَّأْيِيدِ ، وَيَقْضِي لَكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ بِمَا لَا مَوْضِعَ فِيهِ لِلزَّيْدِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

قُلْتُ : وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ الْكُتُبِ السَّلْطَانِيَةِ قَدْ رُفِضَ وَتُرِكَ اسْتِعْمَالُهُ فِي زَمَانِنَا فَلَا مَعُولَ عَلَيْهِ أَصْلًا .

الصنف الحادى والعشرون

(المكاتبة بالإحاد والإذام)

قال فى ”مواد البيان“ : السلطان محتاج إلى مكتبة مَنْ يَقِفُ مِنْهُ عَلَى طَاعَةِ وَاجْتِهَادِ ، وَمُنَاصَحَةٍ وَإِخْلَاصِ ، بِالشُّكْرِ والإِحَادِ ، وَالبُعْثِ عَلَى الْإِزْدِيَادِ مِنَ الْخَالِصَةِ وَحُسْنِ السَّعْيِ فِي الْخِدْمَةِ وَغَيْرِهَا ؛ بِمَا يَرْتَبِطُ بِهِ النِّعْمَةُ ، وَيَسْتَوْجِبُ مَعَهُ حِفْظَ الرُّتْبَةِ . وَمُكَاتَبَةٍ مَنْ يَعْتَرِ مِنْهُ عَلَى تَقْصِيرٍ وَتَضْجِيعٍ ، وَتَفْرِيطٍ وَتَضْيِيعٍ ؛ بِالذَّمِّ وَالتَّقْرِيعِ وَالتَّنَائِبِ : لِأَنَّهُ لَا يَخْلُو أَعْوَانُ السُّلْطَانِ مِنْ كُفَاةٍ يَسْتَدِيمُ كِفَايَتَهُمْ بِتَصْوِيبِ مَرَامِيهِمْ ، وَاسْتِحْسَانِ مَسَاعِيهِمْ ؛ وَإِحْمَادِهِمْ عَلَى تَسْمِيرِهِمْ ، وَشَرْحِ صُدُورِهِمْ بِبَسْطِ آمَالِهِمْ ؛ وَالعِدَّةِ بَرَفِ مَنَازِلِهِمْ وَمَحَاطَمِهِمْ ، وَتَمْيِيزِهِمْ عَلَى نَظَائِرِهِمْ وَأَشْكَالِهِمْ ؛ وَتَحْذِيرِهِمْ مِنَ التَّوْبِيخِ وَتَقْدِيمِ الْأَعْذَارِ ، وَالتَّخْوِيفِ مِنْ سَقُوطِ الْمَرَاتِبِ ، وَقُبْحِ الْمَصَايِرِ وَالْعَوَاقِبِ .

(١) فى الأصل ”وشاهد“ .

قال : وينبغي للكاتب أن ينتهى فى خطاب من انتهى فى الحالين إلى غايتيهما ، إلى المعانى الناجعة فى الغرضين ، ويتوسط فيهما سبيل التوسط الذى يقتضيه الحال المقاض فيها : لأن فى ذلك تقريرا للمُحْسِن على إحسانه ، ونَقْلاً للمُسِيء عن إساءته : لأنه إذا علم النَّاهِضُ أنه مُثَاب على نَهْضَتِهِ ، وَالْوَانِي أنه مُعَاقَب على وَنْيَتِهِ ؛ أَجْتَهَدَ هذا فى الاستظهار بِخِدْمَتِهِ بما يَزِيد فى رُتْبَتِهِ ، وخاف هذا من حَطِّ منزلته وتَغْيِير حالته . ثم قال : والرسوم فى هذه المكاتبات تختلف بحسب اختلاف أغراضها ، ونُتَشَعِب بِتَشَعُّبِ معانيها ؛ والأمر فى ذلك مَوْكُولٌ إلى نظر الكاتب العارف الكامل ، ووضعه كُلُّ شَيْءٍ فى موضعه ، وترتيبه إياه فى مرتبته .

فأما المكتبة بالإحمد ، فكما كُتِبَ عن صَمَّامِ الدولة بن عَضِدِ الدولة بن بُوَيْه ، إلى حاجب الحُجَّاب أبى القاسم سعد بن محمد وهو مقيم بنِصِييْنِ على مُحَارَبَةِ باد الكردي .

كاتبنا ، ووصل كتابك مُؤَرَّخاً بيوم كذا ، تذكُّر فيه ما جرى عليه أمرُك فى الخِدْمَةِ التى نِيَطَتْ بِكَفَايَتِكَ وَغَنَائِكَ ، وَوَكَلْتَ إلى تديريك ووفائك : من رد باد الكردي عن الأعمال التى تَطَرَّقَها ، وَحَدَّثَ نَفْسَهُ بِالتَّغْلِبِ عليها ؛ وَتَصَرَّفَكَ فى ذلك على مُوجِبَاتِ الأوقات ، وَالتَّرَدُّدِ بينَ أَخِينَا وَعُدَّتِنَا أبى حَرْب : زياد بن شهر اكويه وبينك من المكاتبات ؛ وَحُسْنِ بَلَائِكَ فى تَحْيِيفِهِ ، وَمَقَامَاتِكَ فى حَصِّ جَنَاحِهِ ، وَأَنَارِكَ فى الانْقِضَاضِ على فَرِيقٍ بعد فَرِيقٍ من أصحابه ؛ وَأَضْطَرَّارِكَ إِيَّاهُ بِذلك وَبُضْرُوبِ الرياضات التى أَسْتَعْمَلْتَهَا ، وَالسِّيَاسَاتِ التى سُسَّتْ أمره بها ؛ إلى أن نزل عن وُجُورَةِ الْمُعْصِيَةِ إلى سُهولة الطاعة ، وَأَنصَرَفَ عن مَجَاهِلِ الْغَوَايَةِ إلى مَعَالِمِ الْهَدَايَةِ ؛ وَتَرَاجَعَ عَنِ السُّؤْمِ إِلَى الْاِقْتِصَارِ ، وَعَنِ السَّرْفِ إِلَى الْاِقْتِصَادِ ؛ وَعَنِ الْإِبَاءِ إِلَى الْاِثْقَادِ ،

وعن الاعتِيَّاصِ إلى الإذعان؛ وأن الأمر استقرَّ على أن قِيلَتْ منه الإنابة، وبَذَلَتْ له فيما طلب الاستجابة؛ وأُسْتَعِيدَ إلى الطاعة، وأُسْتُضِيفَ إلى الجماعه؛ وتَصَرَّفَ على أحكام الخِدْمَةِ، وجرى مجرى مَنْ تَضَمَّنَ الجمله؛ وأُخِذَتْ عليه بذلك العُهُودُ المستَحِكَمَةُ، والأَيْمَانُ المُعْلَظَةُ؛ وجدَّدَتْ له الولاية على الأعمال التي دخلت في تقليده، وُضِرَتْ عليها حُدُودُهُ، وفهمناه .

وقد كانت كُتُبُ أَخِينَا وَعُدَّتَنَا أُمِّي حَرْبٍ [زياد بن شها كويه] مولى أمير المؤمنين تَرُدُّ عَلَيْنَا، وَتَصِلُ إِلَيْنَا؛ مُشْتَمِلَةً عَلَى كُتُبِكَ إِلَيْهِ، وَمُطَالَعَاتِكَ إِيَّاهُ؛ فَنَعْرِفُ مِنْ ذَلِكَ حُسْنَ أَثَرِكَ [وَحَزْمَ رَأْيِكَ] ^(١) وَسَدَادَ قَوْلِكَ، وَصَوَابَ اعْتِمَادِكَ؛ وَوُقُوعَ مَضَارِيكَ فِي مَقَاصِلِهَا، وَإِصَابَةَ مَرَامِيكَ أَغْرَاضَهَا؛ وَمَاعِدَوْتَ فِي مَذَاهِبِكَ كُلِّهَا، وَمُتَقَلِّبَاتِكَ بِأَسْرِهَا؛ الْمُطَابَقَةَ لِإِيْثَارِنَا، وَالْمُؤَافَقَةَ لِمَا أَمَرْتَ بِهِ عَنَّا؛ وَلَا خَلَّتْ كُتُبُ أَخِينَا وَعُدَّتَنَا أُمِّي حَرْبٍ مِنْ شُكْرِ لَسْعِيكَ، وَإِحْمَادِ لَأَثَرِكَ؛ وَثَنَاءٍ جَمِيلٍ عَلَيْكَ، وَتَلَوِيحٍ وَإِفْصَاحٍ بِالنَّاصِحَةِ الْحَقِيقَةِ بِكَ، وَالْمُؤَالَاةِ اللَّازِمَةِ لَكَ؛ وَالْوَفَاءِ الَّذِي لَا يُسْتَغْرَبُ مِنْ مِثْلِكَ، وَلَا يَسْتَكْثَرُ مِنْ حَلِّ فِي الْمَعْرِفَةِ مَحَلِّكَ؛ وَلَئِنْ كُنْتَ قَصِدْتَ فِي كُلِّ نَهْجٍ أَسْتَمَرْتَ عَلَيْهِ، وَمَعْدِلٍ عَدَلْتَ إِلَيْهِ؛ مُكَافَأَةً هَذَا الرَّجُلَ وَمُرَاعِمَتَهُ، وَمُصَابَرَتَهُ وَمُنَازَلَتَهُ؛ وَالتَّمَّاسَ الظُّهُورَ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ مَا تَرَا جَعْتُمَاهُ مِنْ قَوْلٍ، وَتَنَازَعْتَاهُ مِنْ حَدٍّ؛ فَقَدْ أَجْتَمَعَ لَكَ إِلَى إِحْمَادِنَا إِيَّاكَ، وَآرْتِضَانِنَا مَا كَانَ مِنْكَ؛ الْبُحْبُوحَةُ عَلَيْهِ إِذْ سَكَنْتَ جَاشَهُ، وَأَزَلْتَ أَسْتِيحَاشَهُ؛ وَأَسْتَلَّتْهُ مِنْ دَنَسِ لِبَاسِ الْخُلَافَةِ، وَكَسَوْتَهُ حُسْنَ شِعَارِ الطَّاعَةِ؛ وَأَطْلَتَ يَدَهُ بِالْوِلَايَةِ، وَبَسَطَتْ لِسَانَهُ بِالْحُجَّةِ؛ وَأَوْفَيْتَ بِهِ عَلَى مَرَاتِبِ نَظَرَائِهِ، وَمَنَازِلِ قُرُونِهِ؛ حَتَّى هَابُوهُ هَيْبَةُ الْوَلَاةِ، وَارْتَفَعَ بَيْنَهُمْ عَنْ مَطَارِحِ الْعَصَا .

(١) الزيادة عن رسائل الصابي المخطوطة .

فالحمد لله على أن جعلك عندنا محموداً ، وعند أخينا وعدتنا أبى حربٍ مشكوراً ؛
وعلى هذا الرجل ماناً ، وفى إصلاح ما أصلحت من الأمر مثباً ماجوراً ؛ وإياه
نسأل أن يُجِرَى علينا عادته الجارية فى إظهار آياتنا ، ونصرة أوليائنا ، والحكم لنا
على أعدائنا ، وإزالة هم على إرادتنا ؛ طوعاً أو كرهاً ، وسلاماً أو حرباً ؛ فلا يخلو أحدٌ
منهم من أن تحيط لنا بعنقه ربةً أسراً ، أو مينةً عفو ؛ إنه جلّ ثناؤه بذلك جدير ،
وعليه قدير .

ويجب أن تُنفذ إلى خضرتنا الوثيقة المكتتبة على باد الكردى إن كنت لم تُنفذها
إلى أوإن ووصول هذا الكتاب : لتكون فى خزانتنا محفوظة . وفى دواويننا منسوخه ؛
وأن نتصرف فى أمر رُسُلِهِ وفى بَقِيَّةِ - إن كانت بقيت من أمره - على ما يرسمه لك
عنا أخونا وعدتنا أبو حربٍ ، فأريك فى العمل على ذلك ، وعلى مطالعتنا بأخبارك
وأحوالك ؛ وما يُحتاج إلى علمه من جهتك ، موثقاً إن شاء الله تعالى .

وأما الإذمام فيختلف الحال فيه باختلاف المَلُوم فيه والمذموم بسببه . فمن ذلك
الذم على [ترك] الطاعة وشقّ العصا .

كما كتب عمارة يصف شخصاً بأنه لما أرتفع مكانه ، وعلا قدره ، بطر
معيشته ، وخرج عن طاعة الخليفة : وأن فلانا كان ممن عرفت حاله : فى غموض
أمره ، وتحول ذكره ؛ وضيق معيشته ، وقلة عده وناهضته ؛ ولا تُجاوز حياته
ما يقوله ، ولا يتعاطى ما وراء ذلك ولا يرومه ؛ ولا يمينه نفسه ، ولا يدفع يد لأمس
عنه بقوة تنوء بملأ ، ولا عز يلجأ إليه . فأنعم عليه أمير المؤمنين وأكرمه وشرفه ،
ويلغ به الغاية التى لم يكن يرجوها ولا تُرجى له ؛ وبسط له من الدنيا ، وآتاه من
غضارتها ونعمتها ، وعزها وسلطانها ، ما لم يؤت أحداً من أهل زمانه . فلما مكّن الله

له في الدنيا طغى وتَجَبَّرَ، وَعَلَا وَتَكَبَّرَ؛ وَظَنَّ أَنَّ الذی كَانَ فِيهِ شَيْءٌ قَادَهُ إِلَى نَفْسِهِ
بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ : تَهْوِيلًا مِنَ الشَّيْطَانِ، وَاسْتِدْرَاجًا مِنْهُ لَهُ .

وَكَمَا كَتَبَ عَبْدُ الْحَمِيدِ فِي مِثْلِهِ :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَلَغَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْكَ أَمْرٌ لَمْ يَحْتَمِلْهُ لَكَ ، إِلَّا مَا أَحَبَّ مِنْ رَبِّ
صَنِيعَتِهِ قَبْلَكَ ، وَاسْتِثَامَ مَعْرُوفِهِ إِلَيْكَ ؛ وَكَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَحَقَّ مَنْ أَصْلَحَ مَا فَسَدَ
مِنْكَ ؛ وَإِنَّكَ إِنْ عُدْتَ لِمِثْلِ مَقَالَاتِكَ ، وَمَا بَلَغَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْكَ ؛ رَأَى فِي مُعَاجَلَتِكَ
رَأْيَهُ ؛ فَإِنَّ النُّعْمَةَ إِذَا طَالَتْ بِالْعَبْدِ مُمْتَدَّةً أَبْطَرَتْهُ : فَأَسَاءَ حَمَلُ الْكَرَامَةِ ، وَاسْتَقْبَلَ
الْعَافِيَةَ ؛ وَنَسَبَ مَا هُوَ فِيهِ إِلَى حِيلَتِهِ ، وَحُسْنِ نَبْتِهِ وَرَهْطِهِ وَعَشِيرَتِهِ . وَإِذَا نَزَلَتْ بِهِ
الْغَيْرُ ، وَانْكَشَفَتْ عَمَايَةُ الْعَشَى عَنْهُ ؛ ذَلَّ مُنْقَادًا ، وَنَدِمَ حَسِيرًا ؛ وَتَمَكَّنَ مِنْهُ عَدُوُّهُ :
قَادِرًا عَلَيْهِ ، وَقَاهِرًا لَهُ . وَلَوْ أَرَادَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُكَافَأَتَكَ بِلَفْظِكَ ، وَمُعَاجَلَةَ
إِفْسَادِكَ ، جَمَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مِنْ شَهِدَ قَلَّتَاتِ خَطَّتِكَ وَعَظِيمِ زَلَّتِكَ ؛ وَلِعَمْرِي لَوَحَاوَلَ
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُكَافَأَتَكَ بِلَفْظِكَ فِي مَجْلِسِكَ ، وَبِحُجُودِكَ فَضْلَهُ عَلَيْكَ ، لَرَدَّكَ إِلَى مَا كُنْتَ
عَلَيْهِ ، وَلَكُنْتَ مُسْتَحِقًّا .

وَفِي مِثْلِهِ :

فَإِنْ صَاحِبَ الْبَرِيدِ كَتَبَ إِلَيَّ عَنْ أَصْحَابِكَ بِكَذَا ، فَقُلْتُ : لَئِنْ لَمْ يُقَدِّمُوا عَلَيَّ
مَا أَقْدَمُوا عَلَيْهِ حَتَّى تَعْجُمُوكَ ، فَعَرَفُوا خَوَرَ عُوْدِكَ ، وَضَعْفَ مَكْبِرِكَ ، وَمَهَانَةَ
نَفْسِكَ ، وَأَنَّهُ لَا غَيْرَ عِنْدَكَ وَلَا نَكِيرَ .

وَمِنْ ذَلِكَ الذَّمُّ عَلَى الْخَطِئِ ، كَمَا كَتَبَ أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ :

كَأَنَّ الْبُخْلَ وَالشُّؤْمَ صَارَا مَعًا فِي سَهْمِهِ ، وَكَأَنَّا قَبْلَ ذَلِكَ فِي قِسْمِهِ ؛ فَخَازَهُمَا
بِالْوَرَاثَةِ ، وَاسْتَحَقَّ مَا اسْتَمْلَكَ مِنْهُمَا بِالشَّفْعَةِ ؛ وَأَشْهَدُ عَلَى حِيَازَتِهِمَا أَهْلَ الدِّينِ

والأمانة حتى خلاصاً له من كل ممانع، وسلباً له من تبعه كل منازع؛ فهو لا يصيب إلا مخطئاً، ولا يحسن إلا ناسياً؛ ولا ينفق إلا كارهاً، ولا ينصف إلا صاغراً .
قلت : وهذا الصنف من المكاتب السلطانية لا يمتنع وقوعه في وقت من الأوقات . فإن عرّض له موجبٌ، راعى الكاتب فيه صورة الحال، وكتب على ما يوجبه المقام، وتقتضيه تلك الوقعة .

الصنف الثاني والعشرون

(ما يكتب مع الإنعام لتؤاب السلطنة بالخليل والجوارح)

وغيرها من أنواع الإنعامات) وهذا الصنف من المستعمل في زماننا كل وقت فأما ما يكتب مع الإنعام بالخليل، فقد جرت العادة أن السلطان ينعم بالخليل على تؤاب السلطنة بالشام، ويكتب بذلك مثالات شريفة إليهم . وربما أنعم بالخليل وكتب بها في غير ذلك .

وهذه نسخة مثال شريف من ذلك :

ضاعف الله تعالى نعمة الجنب وخصّه من النعم بما لا تحصى له آثار، ولا يتعلق له بقبار؛ ولا يوصف بحالٍ واحدة : لأنه إن جرى فبحر وإن وقف فنار .

صدرت هذه المكاتب إلى الجنب العالي بكل سلام لا تدرك لسوابقه غايه ، ولا تحصى له نهايه ؛ ولا يرد منه كل ماجاء وله في وجهه كفلق الصبح آيه ، ولا يتقدم في ميدان إلا وقد حمل له في كل مكان رايه . وتوضّح لعلمه الكريم أنه قد جهّز له قرينها ماجرت به عادته من الحصن التي لا يدعى البرق أنه لها نظير ، ولا تجارى الرياح من سوابقها ما يطير؛ كم لها في ميدان بحال ، وكم لها في رؤية دوية آرتجال ؛

وَكَمْ دُعِيَ الْوَعْيُ بِهَا عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ فَأَتَتْ رَجَالًا تَقْدَحُ سَنَابِكُهَا نَارًا، وَتَفِيضُ جَوَائِبُهَا
 مِنَ الرِّكْضِ عَقَارًا، وَيَتَكَفَّلُ بِدَيْعِهَا بِكُلِّ مَرَامٍ، وَتُعْطَى مَا فِي يَدَيْهَا لِأَنْهَا مِنَ الْكَرَامِ؛
 وَقَدْ تَشَرَّفَتْ مِنْ نِعْمَتِنَا الشَّرِيفَةِ بِالسُّرُوجِ وَالنُّجُومِ وَالْعِدَّةِ الْمُكَمَّلَةِ، وَتَحَلَّتْ مِنَ الذَّهَبِ
 وَالْفِضَّةِ مَا يُغْنِي بِجَمَلَتِهِ الْمُفَصَّلَةَ، وَأَرْسَلْنَاهَا إِلَيْهِ تَرْقُصُ فِي أَعْنَتِهَا زَهْوًا، وَتَتَرَكُّ بِطَيْبِ
 صَهْلِهَا كُلَّ بَحْرِ تَحْوِضُهُ إِلَى الْمَنَايَا رَهْوًا، وَتَوَجَّهَ بِهَا فَلَانٌ كَالْعَرَائِسِ الْمَجْلُوتَةِ فِي حُلَاهَا،
 وَالنُّجُومِ لَوْلَا مَا تَمَيَّزَتْ بِهِ مِنْ حُلِيِّ عَطَلِهَا، وَالسَّحَابِ إِلَّا أَنَّهَا لَا تَحْتَاجُ مِنْهُ الرِّيحَ
 فِي تَتَقْلُّهَا.

فَلْيَقَابِلْ هَذِهِ النِّعْمَةَ الشَّرِيفَةَ بِشُكْرِهَا، وَلْيَتَسَلَّمْ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ الْعَمِيمَةَ الَّتِي
 تَعْتَرِفُ كُلُّ نِعْمَةٍ بِقَدْرِهَا، وَلِيَحْمَدِ اللَّهَ مِنْ تَقْدُّاتِنَا الشَّرِيفَةِ عَلَى كَرَمِ فَرْسِ جَاءَ
 وَهُوَ سَابِقٌ، وَجُودِ جَوَادٍ لَا يَدُورُ مَعَهُ السَّحَابُ فِي طَائِقٍ، وَيَعْتَمِدُهَا لِارْتِقَاءِ كُلِّ
 صَهْوَةٍ مُنِيفَةٍ، وَجِهَادِ أَعْدَاءِ اللَّهِ عَلَيْهَا بَيْنَ أَيْدِينَا الشَّرِيفَةِ، وَيَعِيدِ الْوَاصِلِ بِهَا إِلَى
 خِدْمَةِ أَبْوَابِنَا الْعَالِيَةِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَدِيمُ عَلَيْهِ بِنَا النِّعَمِ الْمُتَوَالِيَةِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.



آخِرُ: وَلَا زَالَ إِقْبَالُنَا يُمِذُّهُ مِنَ الصَّافِنَاتِ الْحَيَادِ بِمَا يُيَارَى الرِّيحَ، وَيَتَمَنَّى
 بَغْرِهَا الصَّبَاحَ، وَيَطْلُقُ أَعْنَتَهَا فِي حَلَبَةِ السَّبَاقِ فَتَسْبِقُ بِرَكْبِهَا ذَوَاتِ الْجَنَاحِ؛
 وَلَا بَرَحَ إِنْعَامِنَا يُخَفِّفُهُ بِكُلِّ طَرَفٍ يُبْهِجُ الطَّرْفَ، وَيَتَلَجُّ الصَّدْرُ بِمَا أَسْتَمَدَ عَلَيْهِ مِنَ
 الْمَلَاةِ الَّتِي تَرُوقُ الْعَيْنَ وَتَفُوقُ الْوَصْفَ، وَيُقْرِدُهُ بِمَا أَجْتَمَعَ فِيهِ مِنَ الْحُسْنِ وَالْيَمِينِ:
 إِذْ هُوَ وَاحِدٌ كَالْأَلْفِ - تُهْدِي إِلَيْهِ سَلَامًا تَعْبُقُ بِطَيْبِ نَشْرِهِ أَرْجَاؤُهُ، وَثَنَاءُ يُعْرَبُ
 عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ مِنْ عُلُوِّ قَدْرِهِ وَسُمُوِّ ذِكْرِهِ فَيُشْرِقُ سَنَاؤُهُ وَيُضَاعَفُ ثَنَاؤُهُ؛ وَتَوْصَحُّ لِعَلَمِهِ
 الْكَرِيمِ أَنَّهُ غَيْرُ خَافٍ عَنْهُ مَا يَصِلُ إِلَى أَبْوَابِنَا الشَّرِيفَةِ مِنَ الْخِيُولِ الْبَرِّقَةِ فِي كُلِّ عَامٍ،

وما نُحْصِه منها بَكْلٌ مِمْوَنِ الْغَرَّةِ مُبَارِكِ الطَّلَعَةِ هَنِيءِ السَّيْرِ عَلَى الْإِنْعَامِ ؛ وَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى جَنَابِهِ الْكَرِيمِ مِنْ ذَلِكَ سَهْمَهُ ، وَأَضَفْنَا إِلَى ذَلِكَ مَا اسْتَصْلَحْنَاهُ مِنَ الْخَيْلِ الْعَرَبِيَّةِ الْغَرِيْبَةِ وَالْعِتَاقِ الْعَجِيْبَةِ الْعَرَبِيَّةِ (١) ، مِمَّا الْخَيْرُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا ، فَتُرْهَقُ عَلَى صَهَوَاتِهَا نَفُوسُ الْأَعْدَاءِ وَتَسْتَتِرُهَا مِنْ صَيَاصِيهَا ؛ فَيَأْخُذُ الْجَنَابُ الْعَالِي مَا يُحْصِيهِ مِنْ ذَلِكَ ، وَيُفَرِّقُ الْبَاقِيَ عَلَى مَنْ رَسَمْنَا لَهُ بِهِ يُمَيِّنُ رَأْيَهُ الْمُبَارَكِ الَّذِي لَا يُسَاهِمُهُ فِيهِ أَحَدٌ وَلَا يُشَارِكُ ؛ وَيُجَهِّزُ الْخَيْلَ الْمَخْصُوصَةَ بِفُلَانٍ إِلَيْهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَضَاعِفُ عِزَّ ظُهُورِهَا عِنْدَ أَمْتَانِهَا لَدِيهِ .

وَأَمَّا مَا يَكْتُبُ مَعَ الْإِنْعَامِ بِالْجَوَارِحِ [فَمَا يُكْتُبُ] (١) مَعَ إِرْسَالِ سُتْقُرٍ .

وَقَدْ بَعَثْنَا إِلَيْهِ بِسُتْقُرٍ كَأَنَّهُ مَلِكٌ مُتَوَجِّجٌ ، وَرِزْقٌ مُرَوِّجٌ ؛ تَجَزَّأَ عَلَى سَفِكِ الدَّمَاءِ ، وَأَبَى أَنْ يَطْلُبَ رِزْقَهُ إِلَّا مِنَ السَّمَاءِ ؛ يَوْدُ الْكُرْكُشِيُّ لَوْ خَلَصَ مِنْ مَحَالِيهِ ، وَيَخَافُ أَنْ يَسْلَمَ مِنْ خُرْطِ الشَّبَكَةِ (٢) وَيَقَعَ فِي كَلَالِيهِ ؛ يَدْرِكُ الصَّيْدَ وَلَا يُوجِّلُهُ ، وَيَرْفَعُ صَدْرَهُ ثُمَّ يُوجِي إِلَيْهِ بِرَأْسِهِ كَأَنَّهُ يَسْتَعِجِلُهُ ؛ قَدْ جَمَعَ مِنَ الْحَاسِنِ كُلِّ الصُّنُوفِ ، وَكُنِيتَ عَلَيْهِ أَسْطَرُّ تَقْرَأُ بِمَا تُقْرَأُ بِهِ الصُّبُوفُ .

وَمَا يَكْتُبُ مَعَ إِرْسَالِ صَقْرٍ .

وَقَدْ وَجَّهْنَا إِلَيْهِ بِصَقْرٍ لَا تُؤَسَّى لَهُ مِنَ الصَّيْدِ جِرَاحٌ ، وَلَا يَدْعُ مِنْ وَحْشٍ يَسْرَحُ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ يَجْنَحُ ؛ أَيْنَمَا تَوَجَّهَ لَا يَأْتِ إِلَّا بِخَيْرٍ ، وَحَيْثُمَا أُطْلِقَ كَانَ حَتْفُ الْوَحْشِ وَالطَّيْرِ ؛ يَدْعُ أَقْطَارَ الْفَلَاةِ مَجْزَرَهُ ، أَوْ رَوْضَةَ الدَّمَاءِ مُزْهِرَهُ ؛ يَجِدُّ إِلَى الطَّيْرِ فِي عُنُقِهِ ، وَيُحَلِّقُ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرْجِعُ وَطَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ ؛ تَحَاكُهُ الْعُقُورُ عَلَى نَفُوسِهَا ، وَتَحْضَعُ لَهُ وَلِأَمْثَالِهِ فَمَا تَخْرُجُ إِلَّا وَالطَّيْرُ عَلَى رُءُوسِهَا ؛ يَزِيدُ خُبْرَهُ فِي مَطَآنِ الصَّيْدِ عَلَى الْخَبَرِ ،

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح يقتضيه المقام .

(٢) كذا في الأصل و" التعريف " .

وتخرج الطَّيَّاءُ وقد تَسَجَّتْ خَوْفًا منه في مَلَأَةٍ من العَجَاجِ مَخِيطَةً من قرونها بالإبر؛
شَدِيدِ الأَيْدِ ، قد بنى على الكَسْرِ حُرُوفَ الصَّيْدِ ؛ يَحْمَدُ مُقْتَنِيهِ أَيَّامَهُ الْغُرَّ ؛ ويقول
له إذا تَلَفَّتْ إلى الصيد : إِنْ جَلَبْتَ ضُبْعًا فَأَنْتَ حَرْبٌ ؛ لَا يَصْحَبُ مُسْتَصْحِبُهُ مَعَهُ
إِلَّا مَرَادَهُ ، وَأَيْنَمَا سَارَ حَامِلُهُ - وهو معه - كَانَ مَعَهُ زَادُهُ .

ومما يكتب مع إرسال شاهين .

وقد وَجَّهَ إليه بِشَاهِينَ إِذَا حَاقَّ وراء الطَّيْرِ شَاهَتْ بِهِ الْوُجُوهُ ، وشاهدت الآمَالُ
به مَاتَرْجُوه ؛ قد أَصْبَحَ كُلُّ مُحَلِّقِ الْجَنَاحِ رَهِينَ يَدِهِ ، وَكُلُّ سَارِبٍ مِنَ الْوَحْشِ طَعَامُ
يَوْمِهِ أَوْ غَدِهِ ؛ لَا يُتَعَبُّهُ خَلْفُ الطَّرِيدَةِ بَعْدَ الْمَدَى ، وَلَا يَرُدُّهُ خَوْفُ مَسَافَةٍ وَلَا تَقَحُّمُ
رَدَى ؛ رِيَّةٌ عامٌ لَمْ يُتَمِّعْ بِطُولِ مَادَهْرِ ، وَمُمْتَدَّةٌ مِنْهُ فِي الطَّلَاقِ مِثْلَ رِيحِ سُلَيْبَانَ غَدُوها
شَهْرٍ وَرَوَاحِهَا شَهْرٌ .

ومما يكتب مع إرسال كوهية .

وقد جَهَّزْنَا إِلَيْهِ كُوهِيَّةً ، هِيَ بِالْمَحَاسَنِ حَرِيَّةٌ ، وَلِكثْرَةِ الْإِقْدَامِ جَرِيَّةٌ ؛ يَكِلُ بِهَا
صَاحِبُهَا أَمْرَ مَطْبَخِهِ ، وَيَمْدُّهَا مِنَ الطَّيْرِ مَنْ لَيْسَ بِمُصْرِخِهِ ؛ لَا تَعْفُ عَنْ دَمٍ ،
وَلَا تُرَى أَطْرَافُهَا إِلَّا مُثْمَرَةً بَعْنَابٍ ^(١) أَوْ مُخَضَّبَةً بَعْنَدَمٍ ؛ قَدْ أَخْلَتْ مِنْ كُلِّ سَائِحٍ ،
وَلَيْسَتْ زِيَّ الرَّاهِبِ الْمُتَعَبِّدِ وَفَكَتْ بِكُلِّ سَائِحٍ .

ومما يكتب مع سقاوة .

وقد جَهَّزْنَا إِلَيْهِ بِسَقَاوِهِ ، مَحَالِيهَا عَلَى الطَّيْرِ كَالْحَدِيدِ أَوْ أَشَدُّ قَسَاوَهُ ؛ تُسِيلُ دِمَاءَ
الصَّيْدِ كَالْمَذَانِبِ ^(٣) ، وَتَكْسُو الْأَرْضَ حَبْرًا مِنْ رِيَّاشِ الْحُبَّارِيِّ وَفِرَاءٍ مِنْ جُلُودِ الْأَرَانِبِ ؛

(١) كَذَا فِي "التعريف" (ص ٢٢٥) وَفِي الْأَصْلِ «مُسْمَرَةٌ» .

(٢) فِي الْأَصْلِ «قَدْ أَخْلَتْ مِنْ كُلِّ سَائِحٍ» وَالتَّصْحِيحُ عَنْ "التعريف" .

(٣) كَذَا فِي "التعريف" وَفِي الْأَصْلِ «كَالْمَذَانِبِ» .

وَجَعَلَتْ فِي قُبْضَةِ الْكَفِّ مَا كَانَتْ الْعَيْنُ عَلَيْهِ تَدُورُ ، وَتَكَفَّلَتْ بِكِفَايَةِ الْمَطْبِخِ
وَمَلَأَتْ الْقُدُورَ .

ومما يُكْتَبُ مع إرسال باز .

وقد بعثنا إليه بِبَازٍ مَهْمَا لَقِيَ لَقِيفَ ، وَمَهْمَا خَطَا لَدَيْهِ خَطِيفَ ، كَأَنَّمَا خُطَّ
جَوْهَرُهُ بِقَلَمٍ ، أَوْ رِيشٌ عَلَيْهِ مِنَ الصَّبَاحِ وَالظُّلَمِ ؛ قَدْ أُعِدَّ لِلطَّوَارِقِ ، وَأَدْرَأَ بِشَلِّ
الطَّوَارِقِ ؛ قَدْ دَحَضَ مُجِجَ الْحَجَلِ ، وَكَسَرَهَا حَتَّى أَبَانَ عَلَيْهَا حُمْرَةَ النِّجَلِ ؛ لَا يُسَالُ
فِي الصَّيْدِ عَمَّا نَهَبَ ، وَلَا تُعْرَفُ لَهُ قِيَمَةٌ إِلَّا أَنَّ لَهُ عَيْنًا مِنَ الذَّهَبِ .

ومما يُكْتَبُ مع الفَهْدِ .

وقد أنعمنا عليه بِفَهْدٍ أَهْرَتِ الشَّنَقِ ، ظَاهِرِ الْحَذَقِ ؛ بَادِي الْعُبُوسِ ، مُدَنَّزِ
الْمَلْبُوسِ ؛ شَتْنِ الْبَرَاثِنِ ، ذِي أَنْيَابٍ كَالْمُدَى وَخَالِبِ كَالْحَاجِنِ ؛ قَدْ أَخَذَ مِنَ الْفَلَقِ وَالْعَسَقِ
إِهَابًا ، وَتَقَمَّصَ مِنْ مُجَلِّ الْحَذَقِ جَلْبَابًا ؛ يُضْرَبُ الْمَثَلُ فِي سُرْعَةِ وَثُوبِ الْأَجَلِ بِهِ
وَبَشِيرِهِ ، وَتَكَادُ الشَّمْسُ مُدَّ لَقْبُوهَا بِالْغَزَالَةِ لَا تَطْلُعُ مِنَ الْوَجَلِ عَلَى وَجْهِهِ ؛ يَسْبِقُ
إِلَى الصَّيْدِ مَرَامِي طَرَفِهِ ، وَيَفُوتُ لِحَظَ مُرْسِلِهِ إِلَيْهِ فَلَا يَسْتَكِلِ النَّظَرَ إِلَّا وَهُوَ
فِي كَفِّهِ ، وَتَتَقَدَّمُهُ الصَّوَارِي إِلَى الْوَحْشِ فَإِذَا وَثَبَ لَهُ تَعَثَّرَتْ مِنْ خَلْفِهِ ^(١) .

وأما مَا يُكْتَبُ مع الإِنْعَامِ بِالسَّلَاحِ .

فمن ذلك — وقد جهزنا إليه سَيْفًا تَلْمَعُ مَخَايِلُ النَّصْرِ مِنْ غَمْدِهِ ، وَتُشْرِقُ جَوَاهِرُ
الْفَتْحِ فِي فِرْنَدِهِ ؛ وَإِذَا سَابَقَ الْأَجَلَ إِلَى قَبْضِ النُّفُوسِ ، عَرَفَ الْأَجَلَ قَدْرَهُ فَوْقَ
عِنْدِ حُدِّهِ ؛ وَمَتَى جَرَّدَ عَلَى مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الْعِدَا وَهَتْ عَرَائِمُهُ ، وَعَجَزَ جَنَاحُ جَيْشِهِ

(١) وقع في هذه الرسالة تحريف كثير في الأصل ، فصححناها من "حسن التوسل" (ص ١٠١) .

أَنْ تَنْهَضَ بِهِ قَوَادِمُهُ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ سَيُقِنَّا الَّذِي عَلَى عَاتِقِ الْمَلِكِ [الْأَعَزُّ] ^(١) نَجَادُهُ وَفِي يَدِ جَبَّارِ السَّمَوَاتِ قَائِمُهُ .

الصفحة الثالث والعشرون

(المكتبة بالبشارة عن الخليفة بوليد رزقه)

والرسم فيها أن يذكر شرف الخلافة وعلو رتبته ، ويشير إلى تخصيص الخلافة بمصيرها إليه دون سائر البرية ، وانتقالها إليه بالتوارث من آبائه الطاهرين كآبائهم عن كآبائهم ، وبقائها في عقبه إلى الأبد . ثم يتخلص إلى ذكر النعمة على أمير المؤمنين التي أنعمها الله تعالى عليه ، وأن من أعظمها نعمة أن رزقه الله تعالى ولداً ، ويذكر اسمه وكُنْيَتَهُ ، ويصفه بما يناسبه .

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، وهي :

الحمد لله مؤيد الإسلام بخلفائه الراشدين ، ومُظهِرِ الإيمان بأوليائه الهادين ، الذي جعل الإمامة كلمة باقية فيهم إلى يوم الدين ، وأقام منهم الحاضر المتبّع ، والمرجوّ المتوقّع ، وأطلع منهم في سماء الهداية شهباً لا يحبُّونها شهابٌ حتى يتوقّد شهاب ، وفتح بهم للإرشاد أبواباً لا يربحُ منها بابٌ حتى يُفتح باب .

يحمده أمير المؤمنين أن فوض إليه منازل آبائه ، ووفقه (؟) بانتقال ماورثته من آبائه إلى أبنائه ، ويسأله أن يصلي على من كرمه بولادته وشرفه بالانتساب إلى شجرة سيدنا محمد خاتم رسله ، المترجم عن توحيده وعدله ، وعلى أخيه وأبن عمه على بن أبي طالب قسيمه في فضله ، ووصيه على أمته وأهله .

وإن أولى النعم أن يفاض في شكرها، وتُعطر الحافلُ بنشرها ؛ نعمةً حاطت
دعائم الدين، وأمرت حبل المسلمين ؛ وتساووا في [تأول^(١)] قطافها الكافه، وأذنت
بشيوخ الرحمة والرافه ؛ وأضحت بها النبوة مشرقة الأنوار، والإمامة عالية المنار ؛
والخلافة محالة المنبر والسرير، رافلة في حلل الابتهاج والسرور .

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك ، وقد رزقه الله تعالى ولدا ذكرا مباركا رضيًا ، سماه
فلانا ، وكناه أبا فلان ، بفلا بنهار غرته الدامس ، وأقر بمقدمه العائس ، وأخضر
يمن [نقيته^(١)] اليايس ؛ ووثقت الآمال بسعادة مقدمه ، وتطلعت الأعناق إلى جوده
وكرمه ؛ مبشرا لك بهذه النعمى الحسنة الأثر ، القليلة الخطر ؛ علما بمكانك من ولائه
ومخالصته ، وسرورك بما يفيضه الله عليه من شآبيب نعمته : لتأخذ من المسرة
والجدل بحظ المولى الخالص ، والعبد المتخصص ؛ ولتشيّع مضمون كتابه فيمن قبلك
من الأولياء ، ليشاركونا في الشكر والثناء ؛ فاعلم هذا وأعمل به ، إن شاء الله تعالى .

[قلت^(١)] وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مستعمل في الإشارة عن السلطان
إذا حدث له ولد ، فيكتب بالإشارة به إلى تواب السلطنة وأهل المملكة .

الصنف الرابع والعشرون

(ما يُكتب عن السلطان بالإشارة بعافيته من مريض)

وهذه نسخة كتاب بعافية الملك الناصر « محمد بن قلاوون » من مريض ، إلى
صاحب مآردين ، وهو :

(١) يياض بالأصل والنصح من المقام .

ولا زالت البشائر على سَمْعِهِ الكريم مُتَوَاتِرَةً ، والمسارُ إلى مَقَامِ مُلْكِهِ سائرٌ ؛
 وَالتَّهَانِي ، بِلُؤْغِ الْأُمَانِي ، من كَمَالِ شَفَائِنَا تجعلُ ثُغُورَ الثُّغُورِ بِاسْمِهِ وَوُجُوهَ الدُّهُورِ
 نَاصِرَةً ؛ وَنِعْمَ اللَّهُ تَعَالَى مُقَابَلَةً بِالشُّكْرِ الْحَزِيلِ عَلَى أَنْ أَجَدَّ مَلِكُ الْإِسْلَامِ بِإِفْتِقَادِهِ ،
 وَأَبْقَى لِلدِّينِ مُحَمَّدِي نَاصِرَهُ . أَصْدَرْنَا إِلَى الْمَقَامِ الْعَالِي وَمَوَارِدُنَا مِنَ الصَّحَّةِ حُلُوةً
 فِي الْأَفْوَاهِ ، وَالسِّنْتُنَا شَاكِرَةً لِنِعْمِ اللَّهِ ؛ وَعَافَيْنَا تُجَدِّدُ فِي كُلِّ جَدِيدٍ ، وَصَحَّتْنَا قَدْ بَلَغَتْ
 مِنَ الْمَزِيدِ مَا نُرِيدُ ؛ وَقَدْ أَلْبَسَنَا اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الشِّفَاءِ ثَوْبًا قَشِيبًا ، وَنَصَرَنَا نَصْرًا عَزِيزًا
 وَفَتَحَ لَنَا فَتْحًا مُبِينًا - تُهْدِي إِلَيْهِ سَلَامًا تَتَازَجُ بِهِ أَرْجَاءُ مُلْكِهِ ، وَتَنَاءُ تَنْتَظِمُ الْأَنْبِيَاءُ
 فِي سِلْكِهِ ؛ وَتَوْصَحُّ لِعَالِمِهِ الْكَرِيمِ مَا حَصَلَ مِنْ عَافِيَتِنَا الَّتِي تَضَاعَفَ بِهَا فَرَحُ الْإِسْلَامِ
 وَالْمُسْلِمِينَ ، وَوَجِبَ الشُّكْرُ عَلَيْهِمُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

الضرب الثاني

(من مقاصد المكاتبات السلطانية ما يكتب عن السلطان في الجواب)

وَكُلُّ مَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي الْوَاردِ بِهَا الْكِتَابُ إِلَيْهِ يُسْتَقُّ جَوَابُهُ مِنْهَا ، وَغَالِبُ مَا يُعْنَى
 بِهِ مِنْ ذَلِكَ جَوَابُ مَا يَرِدُ مِنَ الْمَكَاتِبَاتِ بِالتَّقَادُمِ وَالْهَدَايَا ، وَمَا فِي مَعْنَى ذَلِكَ .

وهذه أدعية من ذلك يستضاء بها في أوائل الأجوبة عن المعاني التي ترد فيها .

جواب سُلْطَانِيٍّ عَنْ وَصُولِ خَيْلٍ : - وَلَا زَالَ يُخْفِ بِكُلِّ صَاهِلٍ فِي الْجَحْفَلِ ،
 وَجَمَالٍ فِي الْمَحْفَلِ ؛ وَأَجْرَدَ إِذَا أَمَّ غَايَةَ لَمَعَتْ فِي أَثَرِهِ الْبُرُوقُ تَتَطَفَّلُ ، وَمُسَوِّمٌ يَلْتَرَمُ
 جَلَالَهُ بِمَزِيدِ جَلَالِهِ ، وَكَيْفَ لَا وَهِيَ إِذَا أُسِدِلَتْ عَلَيْهِ يَتَكَفَّلُ ! . أَصْدَرْنَا وَالْعِطْرُ
 يَضُوعُ مِنْ سَلَامِهَا ، وَالْمَسْكُ يَقُوحُ مِنْ خِتَامِهَا ، وَأَثَارُ النَّدَى تَحْكِي آثَارَ أَقْلَانِهَا .

آخر في المعنى : ولا زال مُحْتَفِلًا بِالْحَيَادِ وإرسالها ، ومُهْدِيًا لِرِكَابِ الشَّرِيفِ
السَّوَابِقِ التي إذا لم يسبقها شيءٌ من الحيوان تجلَّتْ في مُسَابَقَةِ ظِلَالِهَا ، وَيَتَّقِي لَمَوَاكِبِنَا
الْحَيُولَ التي إذا أصبحت في مَدَى أصبحت الرياحُ تتعلق بأذيالها . أصدرناها .

آخر في مثله : ولا زال يُهْدِي إلينا من الحَيَادِ بَحْرًا ، وَيَقُودُ من العَرَابِ مَاتَمَلًا
غُرَّتُهُ المَوَاكِبَ بِشَرَاءٍ ، وإذا طلع في الكَتِيبَةِ يزيدُها عِزًّا ونَصْرًا ، من كُلِّ طَرَفٍ
تَأَصَّلَ حُسْنًا وحَسَنَ إِهَابًا وجلَّ قَدْرًا .

آخر في مثله : وأعلى له على صَهَوَاتِ العِتَاقِ مُرْتَقِيًا ، وخصَّه بِكُلِّ جَوَادٍ وهو مُتَقِلٌّ
إليه مُتَّقِيًا ، وأطلع عليه نَوَاصِيَ الصَّوَابِقِ التي عُقِدَ الخَيْرُ بها عَقْدًا مُوثِقًا . أصدرناها
وَنُورُ التَّحَايَا من أَرْجَائِهَا يُنِيرُ ، ومَفَانِحُهَا تَشْرَفُ بها كُلُّ مَنِيرٍ وسَرِيرٍ ، وركائبُ أُتُنَيْتِهَا
تسير إلى مقامه فَتَطِيبُ راحلَةً في ذلك المَسِيرِ .

آخر في مثله : ولا زال يُهْدِي من الحَيَادِ المُسَوِّمَةَ أَصَائِلُهَا ، وَيُخَفِّفُ مما يحويه عند
الْوَفَادَةِ عليه صَاهِلُهَا ، ويقابل أَكْرَمَ غُرَّةٍ : الخَيْرُ معقودٌ بناصيتها وإيْمَنُ يُقَالُهَا ، ويمتَعُ
بَاعِزُ جَوَادٍ حَلِيَّةُ الشَّفَقِ دون إِهَابِهِ إِذْ يُمَاطِلُهَا ، وسُرْعَةُ البرقِ خِفَّتُهُ إِذْ يُسَاجِلُهَا .

الضرب الثالث

(من الكتب السلطانية الكتب الصادرة عن نواب السلطنة إلى النواب)

(بسبب ما يرد عليهم من المثالات السلطانية)

إِعلم أنه قد جرت العادة بأنَّه إذا ورد على نائب السلطنة بالشَّامِ مِثَالٌ شَرِيفٌ من
الأبواب السلطانية ، يأمرهم ^(١) كَتَبَ نَائِبُ الشَّامِ إلى نَوَابِ السلطنة بورود

(١) بياض بالأصل ولعله بأمر .

المثال الشريف مُبَشِّرًا بذلك ؛ ويجهز إلى كُلِّ منهم مع المثال الوارد إلى كُلِّ نائب من نواب السلطان معنى المثال الوارد من الأبواب السلطانية بذلك . إلا أنه يكون حاكيا لصورة المثال الوارد بذلك ، لأنه مُبْتَدِئُهُ ؛ ويشتمل ذلك على عدة أمور .

فمن ذلك جلوس السلطان على تخت الملك ، فيخبر نائب الشَّام في الكتاب الصادر عنه إلى بعض النواب بأنَّ المثال الشريف ورد عليه بذلك ، وأنه ورد كتاب إلى المكتوب إليه بجهزه إليه .

[وهذه نسخة كتاب من ذلك] كُتِبَ به عن نائب الشَّام إلى بعض نواب السلطنة ، بالِبِشَارَةِ بسلطنة السلطان الملك الصَّالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون ، وقد ورد على يَدِ بعض الحُجَّاب . من إنشاء الشيخ جمال الدين بن بُنَّاتِه ، في سنة ثلاث وأربعين وسبعائة ، وهي بعد الصدر :

أمتعه [الله] من البشائر بما يتَوَضَّعُ على جَبِينِ الصَّبَاحِ نُشْرُهُ ، وبما يَتَرَجَّحُ على مِيزَانِ الكواكب قَدْرُهُ ؛ وبما يَنْفَسِحُ من أوقات أَمْنٍ لَا يَخْتَصِمُ في ظِلِّهَا زَيْدٌ وعَمْرُو حَتَّى يَقَالَ : وَلَا زَيْدُ النُّجُومِ وعَمْرُو . وَيُنْهَى بعد دعاء يَتَبَلَّجُ في الليل فَجْرُهُ ، وثناء يَتَأَرَّجُ في طَيِّ النِّسِيمِ نُشْرُهُ ، وولاءٍ يتساوى في درجات الصِّفَاءِ سِرُّه وجَهْرُهُ . أَنَّ خَيْرَ البشائر مَا خَصَّ أولياءَ الدَّوْلَةِ الشَّرِيفَةِ وعمَّ الرعايا ، وسَمَّا إلى نُغُورِ الإسلامِ خَبْرُهُ الْحَلِيُّ فَقَالَ : «أَنَا ابْنُ جَلَاوِطَلَاعِ الثَّنَائَا» وَقِسِمَتْ مَسَرَّتُهُ عَلَى كَافِلِي الْمَالِكِ فَقَالَتْ مَمْلُوكَةُ مَوْلَانَا : «لَنَا الْمِرْبَاعُ مِنْهَا وَالصِّفَايَا» وَسَلَكَ الْمَمْلُوكُ مِنَ الْإِسْرَاعِ بِإِسَاعَتِهِ الْحَقَّ الْوَاجِبَ ، وَجَهَّزَ خِدْمَتَهُ بَيْنَ يَدَيِ الْمَثَالِ الشَّرِيفِ الَّذِي سَبَقَ طَائِرُ يَمْنِهِ وَلَكِنَّهُ جَاءَ وَفِي خِدْمَتِهِ حَاجِبٌ ؛ وَهِيَ الْبُشْرَى الْوَارِدَةُ فِي الْأَمْثَلَةِ الشَّرِيفَةِ السُّلْطَانِيَةِ ، الْمَالِكِيَةِ الْمَلَكِيَةِ ، الصَّالِحِيَةِ الْعِمَادِيَةِ ؛ الْعَرِيقَةُ فِي نَسَبِ النُّصْرِ بِالنَّسَابِ النَّاصِرِيَةِ الْمَنْصُورَةِ ، أَعْلَى اللَّهِ

تعالى أبداً على قواعد الملكِ عمادها، وصرف بها الأئمة لما سرّ وصرفها عما دهي؛
 يجلوسه على كُرسيّ المملّكة الذي هو آية سَعْدِ الكُبْرَى، وتحت السّلطنة الذي عينه
 ملك الجود والعلم فقال: السّلام عليك بحراً، وإجماع الأئمة على أنه صالح المؤمنين،
 وكفّاة الحِلّ والعقد على أنه سلطان الإسلام والمسلمين؛ وأركان البيت النّاصريّ
 على أنه عمادُه، وعلى أنه سندُه المكلّم وإذا انقضّ بيتُ سِنادِه؛ فياله جُلوساً قامت
 فيه كواكب السّعدِ مشدودة المناطِق، وياله إجماعاً اتفق فيه - حتى من تصميم
 السيوف وتعبير الأقلام - كُلّ صاميتٍ وناطق؛ وياله بيتَ ملكٍ أبى الله إلا أن يقيم
 وزنه أفضل الأفاعيل، وياله ملكاً قال الدهرُ الطويلُ أنتظاره: ﴿الحمد لله الذي
 وهب لي على الكبرِ إسماعيل﴾. وياله أمراً بلغ خبرُه وخبره الأوطار والأوطان،
 ونفذت برده المِصريّة على حينِ قترَةٍ تاليّة له السّعود: ﴿فانفذوا لا تتفدون إلا سلطان﴾
 وحشّر الناسَ صُحّى يوم الزّينة، وجاءوا إليها مستبشرين من أدنى وأقصى كُلِّ مَنْ
 في المدينه؛ وضربت البشائرُ ويا عجباً! أنّها تُضرب ومكّاتُها من القلوب مكيّنه.
 حتى إذا أخذت مضرّ حظّها من الهناءِ قُسمت على الأمصار، وأضاء بأرقِ نَشْرِها
 من كُلِّ وجهٍ فسمت بالشّاماتِ غُرّة الابصار؛ وركّضَ بريدُ الخبيرِ بمبارك باب البريد،
 ووصل نيلَ النيلِ إلى أنهارِ دِمَشقَ فبردى على الشّكرِ ثابِتٌ ويزيد؛ وبُشّر الإسلامُ
 من وجه الخلف الصّالح بأكرم مَنْ برّ، وأسفاض الأسم الشّريف: فلوكلّف مُشتاقٌ
 فوق وسعِه لسعى إليه المنبر.

فالحمد لله على أن سرّ البيت الشّريف النّاصريّ بجمع شملِه، وعلى أن أتى الملك
 العقيم الصّالح من أهله؛ وقد جهّز المملوكُ المِثالَ الشّريف المختصّ بمولانا: ومولانا
 أوّل من انتظمت لديه دُرر هذه الأخبار الثّمينه، وعُظمت بناحيّته شعائر هذه الدّولة
 المكيّنه، وكلّ خير حمّاه خير قرينه؛ والله تعالى يُعزّز الإسلام بعزّمه، ويُمضي الآجال

والأرزاق على يَدَي حَرْبِهِ وَسِلْمِهِ ؛ وَيُنْجِزُ لِرَأْيِهِ وَرَأْيَتِهِ النَّصْرَ قَبْلَ أَنْ يَطُوفَ الْأَوْلِيَاءُ
بِعَلَمِهِ ، وَقَبْلَ أَنْ يُحِيطَ الْأَذْيَاءُ بِعَلَمِهِ .

ومن ذلك الكتابة بورود مثال شريف بعافية السلطان الملك الصالح عماد الدين
إسماعيل ، بن الناصر محمد بن قلاوون ، في خلافة المعتضد بالله أبي الربيع سليمان ؛
من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، وهي بعد الألقاب :

أورد الله عليه من الهناء كُلَّ سِرٍّ يُسِرُّهُ ، وَكُلَّ سَنِيٍّ يَقَرُّ أَمَامَ نَاطِرِهِ الْكَرِيمِ وَيُقِرُّهُ ،
وَكُلَّ وَفَى إِذَا طَلَعَ فِي آفَاقِ حَلَبٍ قِيلَ : لَهِ دَرُّهُ ؛ وَلَا زَالَتِ الْبَشَائِرُ تَلْقَاهُ بِكُلِّ وَجْهِ
جَمِيلٍ ، وَبِكُلِّ جَلِيٍّ جَلِيلٍ ، وَبِكُلِّ خَبَرٍ تَصِحُّ الدُّنْيَا بِصَحَّتِهِ فَلَيْسَ بِهَا غَيْرُ النَّسِيمِ
عَلِيلٍ ؛ تَقْبِيلًا يُزَاحِمُ عُقُودَ الثُّغُورِ ، وَيَكَادُ يَمْنَعُ ضَمَّ الشَّفَقَيْنِ لِلَّهِ طَوْلُ الْإِبْتِسَامِ
لِلسُّرُورِ ؛ وَيُنْهِى بَعْدَ رَفْعِ الْيَدِ بُدْعَانِهِ ، وَضَمَّ الْجَوَانِحِ عَلَى وَلَانِهِ ؛ وَجَزَمَ الْهَنَاءَ الْمَشْتَرَكِ
بِمَسْرَةِ مَوْلَانَا وَهَنَائِهِ ؛ أَنْ الْمَثَالَ الشَّرِيفَ زَادَهُ اللَّهُ شَرَفًا ، وَزَادَ فَضْلَ سُلْطَانِهِ عَلَى
الْعِبَادِ سَرَفًا ؛ وَرَدَ بِالْبَشِيرَةِ الْعُظْمَى ، وَالنِّعْمَاءِ الَّتِي مَاضَاهُمَا الْأَيَّامُ قَبْلَ نَبْعْمِي ؛ وَالْمَسْرَةَ
الَّتِي يَأْكُلُ حَدِيثُهَا أَحَادِيثَ الْمَسَرَّاتِ أَكْلًا لَمًّا ، وَيُحِبُّهَا الْإِسْلَامُ وَالْمُسْلِمُونَ حُبًّا جَمًّا ،
بِسَلَامَةِ جَوْهَرِ الْجَسَدِ الشَّرِيفِ مِنْ ذَلِكَ الْعَرَضِ ، وَشَفَائِهِ الَّذِي فِي عَيُونِ الْأَعْدَاءِ
مِنْهُ شِفَاءٌ تَطْعُنُ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ؛ وَأَنْ مَادَّةَ الْأَدْوَاءِ بِحَمْدِ اللَّهِ قَدْ انْحَسَمَتْ ،
وَالْوَارِدَةُ مِنَ الْإِفْتِقَادِ بِالْأَجْرِ وَالْعَافِيَةِ قَدْ ابْتَسَمَتْ ؛ وَأَنْ ظُنُونُ الْإِشْفَاقِ قَدْ أَضْمَحَلَّتْ ،
وَسَمَاتِ الرُّوضِ قَدْ قَدَّتِ الْجِسْمَ الشَّرِيفَ فَأَعْتَلَّتْ ، وَأَخْبَارُ الْهَنَاءِ يَعْنِيهَا كُلُّ بَرِيدٍ
نَشْوَانٍ مِنَ الْفَرَجِ [يَنْشُدُ] أَسْأَلُهَا أَيْ الْمَوَاطِنَ حَلَّتْ ؛ فَيَالَهَا بَشِيرَةً خَصَّتْ الْإِسْلَامَ
وَعَمَّتْ بَيْنَهُ ، وَسَارَتْ فَوْقَ الْأَرْضِ وَسَرَتْ تَحْتَهَا أَسْلَافُ الْمُلُوكِ وَمُبْتَنِيهِ ؛ وَشَمِلَتْ الْبِلَادَ
وَعِبَادَهَا ، وَالسُّلْطَنَةَ وَقَدْ حَجَبَ اللَّهُ عَمَادَهَا عَمَّا دَهَى ، وَالْمُلُوكَ السُّلَيْمَانِيَّ وَقَدْ ثَبَّتَ اللَّهُ

به على الدنيا من السماء خيمتها ومن الجبال أوتادها؛ والطير وقد حملت ورقه أوراق السرور، والوحش وقد قالت مهاه : على عيني أنحمّل ذلك السقام أودك الفتور؛ (ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيًّا) والألطف الرّاحم بها المؤمنين من خلقه (وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) .

وكان ورود هذا المثال الشريف على يد فلان ، فيآله من وارد لمشاريع الأمن أورد، ولروائع الناس عن القلوب حجب أورد؛ وقد جهزه المملوك بالمثال الشريف المختص بمولانا وهذه الخدمة بعد أن ضربت البشائر مسوعة في كل ضرب من التهاني ، وزينت البلد زينة منظمّت فيها غير العقود أيدي القواني ؛ فيأخذ حظه من هذه البشري ، ونصيبه من هذا الوجه الذي ملأ الوجود بشرا ، وشطره من الهناء المخصوص الذي تعجل منه المملوك شطرا ؛ والله تعالى يسره بكل خير شريق زواهره ، وتعقب في كرائم الدروج أزهيره ، ويتألق على يد بريده من المخلقات كل كوكب صبح تملأ الدنيا بشائره .

ومن ذلك المكتبة بورود المثال الشريف بوفاء النيل .

إذا ورد على نائب الشام بوفاء النيل المبارك ، كتب نائب الشام عن نفسه إلى نائب حلب وغيره ، من ثواب السلطنة بالممالك الشامية ، بورود المثال الشريف عليه بذلك ، ويكتب عنه كما يكتب عن السلطان : من السجع ، وإيراده مورد البشارة ، وإظهار الفرج والسرور بذلك ، لا يكاد يخافه إلا في كونه واردا مورد الحكاية لمثال السلطان ، ومثال السلطان محير بذلك ابتداء .

وهذه نسخة مثال كريم من ذلك عن نائب الشام ، من إنشاء الشيخ جمال الدين ابن نباتة ، كتب به لسنة ثلاث وأربعين وسبعائة ، وهي بعد الصدر :

لا زالت مُبَشِّرَةً بِكُلِّ مُبْهَجَةٍ ، مُفْطَرَّةَ الْأَرْجَاءِ بِكُلِّ سَائِرَةِ أَرْجَاهِ ؛ مُبَسِّرَةَ الْأَوْقَاتِ
بِمُقَدِّمَتِي سَمَاعٍ وَعِيَانٍ : كِلَاهُمَا لِلسَّائِرِ مُنْتَجَةٍ ، مُسْتَحْضِرَةً فِي مَعَالِي الْكَرَمِ كُلِّ دَقِيقَةٍ
تَشْهَدُ بِسَطَةِ النَّيْلِ أَنَّهَا أَرْفَعُ مِنْهُ دَرَجَةً ، وَيُنْهِي بَعْدَ دَعَاءِ مَا الرِّوْضُ أَعْطَرَ مِنْ شَدَاهِ ،
وَلَا مَاءَ النَّيْلِ وَإِنْ كَرُمَ وَفَاءً بِأَوْفَى مِنْ جَدَاهِ ؛ أَنْ الْمَرْسُومَ الشَّرِيفَ زَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى
شَرَفًا ، وَرَدَ بِوَفَاءِ النَّيْلِ الْمُبَارَكِ وَحَبْدًا هُوَ مِنْ وَفَى مُوَافِي ، وَمُنْغِيرِ الْخَبْرِ وَعَيْشِ
الْبِلَادِ بِهِ الْعَيْشِ الصَّافِي ، وَحَسَنِ الزِّيَارَةِ وَالرَّحِيلِ مَاضَاهُ الْغِيُوثِ فِي وَلَا فِي ؛ وَوَارِدِ
مِنْ مَعْبَدٍ بَعِيدٍ ، وَحِمِيلٍ لَا جَرَمَ أَنْ مَدَّهُ تَابَتْ وَيَزِيدُ ؛ وَجَائِدٍ إِذَا تَابَعَ حَيْثُ تَيَّارُهُ
يُقَلِّدُ بَرُّهُ وَدُرَّهُ مِنَ الْأَرْضِ وَسَاكِئَهَا كُلِّ جِيدٍ ، وَإِذَا ذُكِرَ الْخِصْبُ لِمَكَانِ عَيْدِهِ
الْمَشْهُودِ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ؛ وَذَلِكَ فِي يَوْمٍ كَذَا ، وَأَنَّ الْبِلَادَ جُرَتْ بِكُمَرِ
خَلِيجِهِ ، وَاسْتَقَامَتْ أَحْوَالُهَا بِتَفَرُّجِهِ : وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ بِآلَائِهِ ، وَوَسَمَتْ لَوْنَهُ الْأَضْهَبَ
عَلَى رَغَمِ الصَّبَاءِ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ ؛ وَخَلَقَ فَمَلَأَتِ الدُّنْيَا بَسَائِرَ مُخَلِّقِهِ ، وَعَلَّقَ سِتْرَهُ
الْمِصْرِيَّ التَّبْرِيَّ فَزَكَ عَلَى مَعْلَقِهِ ، وَخَلَقَ مَسِيرَ تَرَاغِيهِ عَلَى الْقُرَى فَبَاتَ عَلَى النَّدَا ضَيْفُ
مُخَلِّقِهِ ؛ وَحَدَّثَ عَنِ الْبَحْرِ وَلَا حَرَجَ ، وَأَنْعَرَجَ عَلَى الْبِقَاعِ يَلْوِي مِعْصَمَهُ فَلَهُ أَوْقَاتُ
ذَلِكَ اللَّوَى وَالْمَنْعَرَجِ ؛ وَاسْتَقَرَّتِ الرِّعَايَا آمِنِينَ آمِلِينَ ، وَقُطِعَ دَابِرُ الْحَدْبِ بِسُعودِ
هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ ﴿ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وَرُسِمَ أَنْ لَا يُجْبَى حَقٌّ بِشَارَةٍ ،
وَلَا تَعْبَتَ يَدُ التَّقْيِصِ مِنْهَا لِيَزْدَادَ الْخَبْرُ نُورًا عَلَى نُورٍ ، وَيَكُونَ فِي إِيثَارِهِ وَحُسْنِهِ الْخَبَرُ
الْحَسَنَ الْمَأْثُورَ ؛ وَوَصَلَ بِهَذَا الْخَبَرِ فُلَانٌ وَعَلَى يَدِهِ مِثَالُ شَرِيفٍ يَخْتَصُ بِمَوْلَانَا
وَقَدْ جَهَّزَ بِهِ ؛ فَيَأْخُذُ مَوْلَانَا حَظَّهُ مِنْ هَذِهِ الْبُشْرَى ، وَيُوضِّحُ بِهَا عَلَى كُلِّ الْوُجُوهِ

بُشْرًا؛ والله تعالى يملأ له بالمسرات صدرا، ويضع بعدله عن الرعية إصرا؛ ويسرهم في أيامه بكل وارِدٍ يقول الإحسان لم تحمله : (لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا) إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة كتاب آخر في المعنى إلى بعض التواب، من إنشاء الشيخ جمال الدين ابن نباتة أيضا، وهي بعد الصدر :

وضاعف مواد نعيمه ونعمائه ، ومسرتيه وهنائه ؛ وحفظ عليه ما وهبه من المناقب التي يروى النيل عن كرمه ووفائه ، وشرف السيوف لكونها من سمات كرمه والسيول لكونها من سمائه .

المملوك يُجَدِّدُ الخِدْمَةَ بِنَفَحَاتِ سلامه وثنائه ، ويصف ولاء لو تجسم لاستمدت عين الشمس من سنائه ؛ وينهى أن المرسوم الشريف زاده الله تعالى شرفا ، ورد مبشرا بوفاء النيل المبارك في يوم كذا ؛ فياله ربيعا جاء في ربيع ، وحاملا في مُقرِّده الفضل الجميع ؛ وداعيا بالخصب ينشد كل ثانية آتين ريحانة الداعي السميع ، ومتغنيا على منصة المقياس عرسه يحل عليه من شبا كها الستر الرفيع ؛ وأنه أقبل والبلاد أشهى ماتكون للقياء ، وأشوق ماترى لمباشرة ربه ورياه ؛ وقد أمتدت أيدي الجسور لقمه ، وأستعدت شفاؤه الحروف اللعس للشمه ؛ فكرم عليها زائره ، وصحبها بالنجح ساريه وسائره ، ودارت على الجذب من خطوط الأمواج دوائرُه ؛ وعمت المنافع ، وتلقت عيوب الفلا ناهلة بالأصابع ؛ وفاض البحر بيرة ، ونشر رداءه على الأرض وسيضوع روضها بشره ؛ وخلق المقياس فيالك من قياس بشري غير ممنوع ، وكسر الخليج فياله غصن قلم على النيل وطائر سيجعه على القرات مسموع ؛ ورسم أن

لَا يُنْجِي حَقُّ بَشَارِهِ ، وَلَا يَدْخُلُ فِيهَا التَّنْقِصُ لِدَارٍ وَلَا التَّنْغِصُ لِدَارِهِ ؛ وَوَصَلَ بِهَذَا الْأَمْرَ فَلَانَ وَقَدْ جُهِّزَ بِمَا عَلَى يَدِهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُمَتِّعُ مَوْلَانَا مِنْ أَقْسَامِ الْمَسَارِّ بِصُنُوفٍ ، وَيُدْفَعُ عَنْ حُصُونِ الْإِسْلَامِ بِمُنْهٍ أَيْدِيَ الصُّرُوفِ ؛ وَيَنْفَعُهَا بِظِلَالِهِ الَّتِي آوَاهَا مُلْكُهُ الْكَرِيمُ إِلَى جَنَّةٍ : وَكَذَلِكَ الْجَنَّةُ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ .

الضرب الرابع

(من المكاتبات السلطانية ما يُكْتَبُ عَنِ النَّوَابِ وَالْإِتْبَاعِ إِلَى الْخَلِيفَةِ أَوِ السُّلْطَانِ ، وَفِيهِ مِهْيَعَاتُ)

المهيعة الأولى

(فِي الْأَجُوبَةِ عَنِ الْكُتُبِ السُّلْطَانِيَةِ السَّابِقَةِ فِي الضَّرْبِ الْأَوَّلِ)

قَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى مُقَدِّمَةِ الْمَكَاتِبَاتِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ ذِكْرُ الْخِلَافِ : هَلِ الْكُتُبُ الْإِبْتِدَائِيَّةُ [أَعْلَى رُتْبَةٍ ^(١)] فِي الْإِثْبَانِ بِهَا أَمْ الْجَوَابِيَّةُ ، وَذِكْرُ الْأَحْتِجَاجِ لِكُلِّ مِنَ الْمَذْهَبَيْنِ ، وَذِكْرُ التَّحْقِيقِ فِي ذَلِكَ ؛ فَلْيَرِاجِعْ مِنْ مَوْضِعِهِ هُنَاكَ . وَنَحْنُ نَذْكُرُ الْكَلَامَ عَلَى أَجُوبَةِ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ عَلَى التَّرْتِيبِ الْمُتَقَدِّمِ ، جَارِينَ فِي ذَلِكَ عَلَى مَا قَرَّرَهُ فِي "مَوَادِّ الْبَيَانِ" .

فَأَمَّا الْجَوَابُ عَنِ الْكُتُبِ الْوَارِدِ بِانتِقَالِ الْخِلَافَةِ إِلَى الْخَلِيفَةِ ، فَإِنَّ الْكَتَابَ إِنْ كَانَ مُتَضَمِّنًا الْعِزْزِيَّةَ فِي سَلَفِهِ ، وَالْهِنَاءَ بِمُتَجَدِّدِ النَّعْمَةِ عِنْدَهُ فِي أَنْتِقَالِ الْخِلَافَةِ إِلَيْهِ ، فَارْتَمَ فِيمَا يُكَاتَبُ بِهِ عَنِ الْخَلِيفَةِ أَنْ يُبْنَى عَلَى الْأَسْتِشَارِ بِالنَّعْمَةِ فِي خِلَافَتِهِ ،

(١) بَيَاضٌ بِالْأَصْلِ . وَالتَّصْحِيحُ عَمَّا تَقَدَّمَ فِي (ج ٦ ص ٢٢٣) .

والمسارعة بإخلاص الضمير إلى الدخول في طاعته وبيعته ؛ وأنفساح الآمال في دولته ، والشكر لله تعالى على جبر الوهن وعلو كلمة الإسلام والمسلمين بدعوته ؛ وتعزيتيه عن أبيه ، بما يوجب محل المحنة ويقتضيه ؛ يعني إن كان الخليفة الميت أباه ، فالدعاء له بأن ينهضه الله تعالى بما حمّله ، ويعينه على ما كفّله ؛ ويقرن ملكه بالحدّ السعيد ، والخلود والتأييد ؛ وإدالة الأولياء ، وإدالة الأعداء ؛ ونحو هذا مما يُجاريه .

وإن كان الكتاب الوارد بانتقال الخلافة إليه عن أبيه ، ومن في معناه من يؤايله في المحبة ، فإن الكاتب يحوم في الجواب على ما حصل بذلك من صلاح حال الأمة ، وأستقامة أمر الرعية بانتقال الخلافة إليه ، من غير أن يصرّح بدمّ الذهاب قبله . ولا يخفى أن الجواب عن ورود الكتاب بانتقال السلطنة إلى السلطان وجلوسه على تخت الملك في معنى الجواب في انتقال الخلافة إلى الخليفة ، لا يكاد يفرق بينهما ، على ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى .

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالدعاء إلى الدين ، فإنما يتكفّفها كتاب مُحالفي الملة ، لأنها إنما تصدر إليهم . قال في "موادّ البيان" : إلا أنه لا غنى لكتاب الإسلام عن علم ما يقع فيها ، لتقدّم عندهم المعرفة بما يُجيب به المخالفون ، يأخذوا عليهم بأطراف الحجّة إذا كاتبهم ابتداء أو جواباً .

قال : ولا تحلّوا أجوبة هذه الكتب من أربعة معانٍ :

أحدها — إجابة الدعاء إلى الدين ، وقبول الإرشاد والهدى ، والنزوع عن النقي ، والإقبال على التبصرة والتذكرة ، بعقائد خالصة ، ونيات صريحة .

والثاني — الإصرار على ما هم متمسكون به ، وتمحلّ الشبهة في نصرته ، وأدعاء الحقّ فيما يعتقدونه ، والمغالطة عن الإجابة إلى قبول ما دُعوا إليه .

والثالث — بَذْلُ الْحِزْيَةِ وَالْمُصَالِحَةِ، وَالْجُنُوحُ إِلَى السَّلَامِ وَالْمُؤَادَعَةِ .

والرابع — إظهار الحمية ، والقيام في دفاع مَنْ يَرُومُ اقْتِسَارَهُمْ عَلَى مَفَارِقَةِ شَرَائِعِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ ، وَبَذْلُ الْأَنْفُسِ فِي مُقَارَعَتِهِ .

وأما الجواب عن الكُتُبِ الواردة بالحثِّ على الجهاد ، فقد ذكر في ”موادّ البيان“ أنها لا تخرج عن معنيين :

أحدهما — إجابة الصريح ، والمبادرة إلى التشجير في الجهاد ، والقيام في معونة الأولياء ، على كفاح الأعداء .

والثاني — الاعتذار والتعلُّل والتناقل .

هذا إن كانت الكُتُبُ صادرةً إلى القوادِ والمُقدِّمين . أما إذا كانت مقصورةً على الاستنفار ، فلا جواب لها إلا النفور أو الإمساك . قال في ”موادّ البيان“ :
والطريق إلى إقامة العُدْرِ لِلْمُسْتَضْرَحِ في التأخر عن مُسْتَضْرَحِهِ متى أراد الاعتذار عنه صَعْبٌ عَلَى الْكَاتِبِ ، وَلَا سِمْيًا إِذَا كَانَتْ الْأَعْذَارُ مُتَكَلِّفَةً غَيْرَ صَحِيحَةٍ .

قال : وينبغي أن يتأثى لذلك ويُحْسِنَ التَّلَطُّفَ فِيهِ ، وَلَا يَعْتَلَّ بِكَذِبِ صَرَاحٍ يَنْكَشِفُ لِلْعَتَدْرِ إِلَيْهِ .

وأما الجواب عن الكُتُبِ الواردة بالحثِّ على لزوم الطاعة ، إذا وردت على التَّوَابِ وَالْوَلَاةِ وَأَمْرُوا بِقِرَاءَتِهَا فِي أَعْمَالِهِمْ عَلَى الرَّعَايَا ، فَإِنَّهُ يَكُونُ : إما بانقياد الرَّعَايَا إِلَى مَا دُعُوا إِلَيْهِ ، أَوْ اسْتِدَامَتِهِمْ لِمَرْكَبِ التَّفَاقُقِ ، وَاسْتِدْعَاءِ مَادَّةٍ لَتَقْوِيَمِهِمْ .

وأما الجواب عن الكتب إلى مَنْ نَكَثَ عَهْدَهُ مِنَ الْمُعَاهِدِينَ ، فقد ذكر في ”موادّ البيان“ أنها لا تخلو من أحد أربعة معانٍ .

أولها — الاعتذار والاستقالة من مراجعة النكث، والرغبة في الصفيح عن النبوة، والمسامحة بالهفوة .

والثاني — المغالطة والمراوغه، واستعمال المدهانة والمخادعة .

والثالث — التجليح والمكاشفة .

والرابع — إيجاب الحجّة على الجوب (؟) عنه في أنه المبتدئ بفسخ ماعاقد عليه . قال : والكاتب إذا كان ماهرا كسا كل معنى من هذه المعاني الغرض اللائق به في الصناعة .

وأما الجواب عن الكتب إلى من خلّع الطاعة ، فقد قال في "موادّ البيان" : إنها تحتل معنيين : أحدهما الاعتذار ، والآخر الإصرار ؛ وكل واحد منهما محتاج إلى عبارة لائقة به . ثم قال : والكاتب إذا كان حاذقا ، عرّف سبيل التخصّص فيها بمشيئة الله تعالى .

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالفتوح، فإنها إن صدرت من السلطان إلى ولاته، فينبغي أن يبنى جوابها على الاستبشار بموقع النعم في الظفر بالعدو، والجدل بمجدّد الفتح؛ وأنّ ذلك إمّا تهيأ بسعاده، وعلوّ رأيه، وأنساض هيئته؛ وما عوده من إظهار أوليائه، وخذلان أعدائه؛ وأنهم قد أشاعوا هذا النبا في الخاصة والعامة من رعاياه فابتهجوا به، وشكروا الله تعالى عليه ودعوا له بصالح الدعاء . وإن صدرت من ولّاة الحرب إلى السلطان، فينبغي أن يكون ما يحييهم به مبنيا على حمد الله تعالى على عوّاريفه، والرغبة في مضاعفة لطائفه؛ وشكره على إنجاز وعده في الإظفار بأعداء الملة والدولة ونحو هذا . ومخاطبة أهل الطاعة بما يرهف غرائمهم، ويقوى شوكتهم، وتقريظ وإلى الحرب ووصفه بما يشجّد بصيرته في الخدمة، والثناء على

الأجنّاد ، ووَعَدِهِمْ بِجَزِيلِ الْجَزَاءِ عَلَى الْجِهَادِ وَالْإِبْلَاءِ ، إِلَى غَيْرِ هَذَا مِمَّا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ ، وَيُوجِبُهُ تَدْيِيرُ الْأَمْرِ الْحَاضِرِ .

وأما الجواب عن الكُتُبِ الواردة بالأعتذار عن السلطان عند ما يَحْصُلُ لَهُ زَلَلٌ فِي التَّدْيِيرِ أَوْ [فِي] الظَّفَرِ بِقَبْضِ الْأَعْدَاءِ عَلَى جَيْشٍ مِنْ جُيُوشِهِ ، فَإِنَّمَا تَقَعُ الْإِجَابَةُ عَنْهَا إِذَا تُفَدَّتْ إِلَى أَحَدِ الْعُمَلِ خصوصاً . قال في "موادّ البيان" : وحينئذ فينبغي أن يكون الجوابُ عنها مَبْنِيًّا عَلَى تَقْوِيَةِ نَفْسِ السُّلْطَانِ وَتَوْثِيقِهِ بِالْأَدِلَّةِ ، وَأَنْ مَا نَالَهُ لَا يَتَوَجَّهُ كَثِيرًا عَلَى ذَوِي الْحَرَمِ ، إِلَّا أَنْ عَوَاقِبَ الْقَلَجِ وَالظَّفَرِ وَالْإِصَابَةِ فِي الرَّأْيِ وَالتَّدْيِيرِ تَكُونُ لَهُمْ ، وَنَحْوُ هَذَا مِمَّا يُجَارِيهِ وَيَلِيْقُ بِهِ .

قال : أما إذا كانت المكتوبة في ذلك إلى الكَافَّةِ ، مُمَهَّدَةً لَعُذْرِ السُّلْطَانِ ، قَاطِعَةً قَالَةَ الرِّعْيَةِ عَنْهُ ، فَإِنَّهُ لَاجِبُ الْإِجَابَةِ عَنْهَا : لِأَنَّهَا إِذَا لَمْ تُتَوَجَّهْ إِلَى وَاحِدٍ بَعِيْنِهِ لَا تَسْتَدْعِي خِطَابًا .

وأما الجواب عن الكُتُبِ الواردة عن السلطان بالنّهْيِ عَنِ التَّنَازُعِ فِي الدِّينِ ، إِذَا صَدَرَتْ إِلَى الْعُمَلِ ، وَأُمِرُوا بِقِرَاءَتِهَا عَلَى الرَّعَايَا عَلَى مَنَابِرِ أَعْمَالِهِمْ ، فَإِنَّهُ يُنْبِئُ الْأَمْرَ فِيهَا عَلَى أَمْتِثَالِ الْأَمْرِ ، وَالْمُطَالَعَةِ بِأَرْتِسَامِ الْقَوْمِ مَأْرِسَمَ لَهُمْ فِيهَا . أما إذا كانت صَادِرَةً لِقَرَأَةِ الْعَامَّةِ لِيُبَصِّرُوا مَا فِيهَا وَيَعْمَلُوا عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ لَاجِبُ الْإِجَابَةِ عَنْهَا ، لِأَنَّهَا إِنَّمَا تَشْتَمِلُ عَلَى مَوَاعِظَ وَمَرَاشِدَ تَتَخَوَّلُ بِهَا الْأُئِمَّةُ رِعَايَاهُمْ .

وأما الجواب عن الكُتُبِ الواردة بالأوامر والنّواهي ، فقد ذكر في "موادّ البيان" أن الكتابَ الوارد في ذلك : إِنْ كَانَ شَيْئًا قَدْ جَزَمَ الْمَتَّبِعُ فِيهِ الْأَمْرَ ، وَضَيَّقَ عَلَى التَّابِعِ فِي إِثَارِهِ سَبِيلَ الْمُرَاجَعَةِ فِيهِ ، فَإِنْ الْجَوَابُ عَنْهُ سَهْلٌ : لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُجِيبُ بِجَوَابِ جَامِعٍ ، وَهُوَ وَقُوفُهُ عَلَى مَا أَمَرَ بِهِ وَإِنْفَاقُهُ لَهُ . وَإِنْ كَانَ الْوَارِدُ أَمْرًا مُحْتَمَلًا لِلْمُرَاجَعَةِ ، مِنْ حَيْثُ إِنَّ فِي إِمضَائِهِ إِذَا أُمِضِيَ إِفْسَادًا لِلْعَمَلِ ، وَإِخْلَالًا بِأَسْبَابِ

المُلك والسلطان، فالجواب عنه شاقٌّ صعبٌ : لأنه ينبغي أن يُبنى على تَلَطُّفٍ شديدٍ في الإبانة عما يُنتجُه ذلك المأمور به إذا أُنفِذَ على وجهه من قَتْلٍ وَخَلَلٍ ؛ ومُورَدُ المراجعة في ألفاظه لا يَتَبَيَّنُ فيه إزراءٌ على رأيِ الرئيس ولا طَعْنٌ في تدييره : بأن تكون نَاطِقَةً بأنَّ رأيه الأعلى، وتدييره الأصوب ؛ فيكون باطنُ الكلام توقيفا على الصَّواب، وظاهره تَصْوِيبا وتقريضا : لأن كثيرا من الرؤساء والمُلُوك يُعْجِبُونَ بآرائهم، وَيُزِيلُونَ أنفسهم بِحُكْمِ الرِّياسَةِ في منزلة من لا يُرَاجَعُ ولا يُعَارَضُ فيما يأمر به .

قال : وقد تَأْتَى من كُتُبِ الأوامر كُتُبٌ يأمر الرئيس فيها المرءوسَ بِشَرْحِ حال وأقتصاصِ أمور . ثم قال : وأجوبة هذه الكُتُبِ يجب أن تكون مُسْتَقْصِيَةً للمعنى المُشْرِح، مُسْتَوَلِيَةً على حَوَاشِيهِ، غير مُخِلَّةٍ بشيءٍ مما يحتاج إلى تَعْرِفِهِ منه .

وأما الجواب عن الكُتُبِ الواردة عن الإمام عند حدوث الآيات السماوية ، وهي مشتملة على مَوَاعِظَ وَمَرَاشِدَ يَتَخَوَّلُ بها الأئمة رَعَايَاهُمْ ؛ فإذا صدرت إلى العُمَلِ وأُمِرُوا بِقَرَأَتِهَا على الرَعَايَا، فأجوبتها إنما تُبْنَى على أَمْتثالِ الأمر والمطالعة بِأَرْتسامِ القوم ما رُسِمَ لهم فيها . أما إذا كانت صادرةً لِقُرْأَةٍ على العامة لِيَتَبَصَّرُوا بما فيها ويعملوا عليه، فإنه لاجواب عنها .

وأما الجواب عن التَّنْبِيهِ على مواسم العبادة، فإنه يصدر عَمَّنْ وَرَدَ عنه إلى الإمام بعد شُهودِ ذلك المَوْسَمِ، والآنْفِصَالِ عنه على حال السلامة، كما في صلاة العيد ونحوها . قال في ”موادِّ البيان“ : وأجوبتها تصدر إلى الخلفاء مقصورةً على ذِكْرِ ما مَنَّ الله تعالى به من قَضَاءِ الفريضة على حَالِ الائْتِلَافِ والائْتِفَاقِ، وشُمُولِ الأَمْنِ والهُدَى والسُّكُونِ، وَسُبُوحِ النِّعَمَةِ على الكَافَّةِ ؛ وأن ذلك بسعادة وعِناية الله تعالى بِدَوْلَتِهِ وَبِرَعِيَّتِهِ، ونحوها مما يقتضيه المعنى .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة عن الإمام إلى ولاة أمره بالسلامة في ركوب أول العام وغرة رَمَضان ، والجمعة الأولى والثانية والثالثة منه ، وعيدي الفطر والأضحى ، وفتح الخليج بعد وفاء النيل ، فقد قال في "مواد البيان" : إنه إن كان الكتاب عن السلامة في صلاة العيدين أو جمع رَمَضان ، فينبغي أن يكون مَبْنِيًّا على ورود كُتُبِهِ متضمنة ما أعان الله تعالى عليه أمير المؤمنين من تَأْدية فريضته ، والجمع في صلاة عيد كذا بَرَعِيَّتِهِ ؛ وما ألبسه الله تعالى من الهدى والوقار ، وأفاضه عليه من البهاء والأنوار ؛ وبروزه في خاصَّته وعامَّته إلى مُصَلَّاه ، وسماع خطبته وعوده إلى قَصْرِه الزاهر ، وعليه تَلَأُّ القبول لصلاته ودُعائه ، مما أجراه الله تعالى فيه على عادة آلائه ؛ ووقف عليه وقابله بالشكر والإحاد ، والاعتراف والاعتداد ، وأفتضه على رءوس الأشهاد ؛ فأغرقوا في شُكْرِ الله تعالى على الموهبة في أمير المؤمنين ، ورغبوا إليه في إطالة بَقَائِهِ مُرَامِيًّا عن الإسلام والمسلمين ؛ ونحو هذا مما يُجَارِيهِ .

ثم قال : فإذا نُفِدتْ هذه الكتب من العَمَلِ إلى أمير المؤمنين مُبَشِّرَةً بِاجتماع رعاياه لتأدية فريضتهم ، وعودهم إلى منازلهم سالمين ، فينبغي أن يكون الجواب عنها : «وصل كتابك مُتَضَمِّنًا ما لا يزال الله تعالى يُؤَلِّيه لأمر المؤمنين في رِعِيَّتِهِ ، وخاصَّته وعامَّته : من اتفاق كلمتهم ، وأتلاف أفئدتهم وسلامة كآفتهم ؛ وما منَّ الله به عليه وعليهم من اجتماعهم لتأدية فريضتهم ، وعودهم إلى منازلهم ؛ على السَّلامَةِ من ضمايرهم ، والطَّهارة من سرائرهم ؛ حَمْدَ أمير المؤمنين الله تعالى على ذلك وسأله مَزِيدُهُمْ منه ، وتَوْفِيقَهُمْ لِمَا يُرِضِيهِ عَنْهُمْ ؛ وشكر مَسْعَاكَ في سياستهم ، وأَمْتِدَادَ يَدِكَ في إِيَّائِهِمْ ؛ وهو يأمرُك أن تَجْرِيَ على عادتك ، وتسير فيهم بحمِلِ سِيرَتِكَ » وما يليق بهذا .

ثم بَيَّ على ذلك سائرُ كُتُبِ السلامة، وقال: ينبغي أن يُستَبَطَّ من نَفْسِ كُلِّ كِتَابٍ منها المعنى الذى تجب الإجابة به، مثل أن يكون الكتاب ورد من أمير المؤمنين إلى أحد عُمَّالِهِ، مُبَشِّرًا بسلامته من سَفَرِهِ؛ فينبغى أن يُبَيَّنَّ جوابُهُ على ما صُورَتُهُ: «ورد كتاب أمير المؤمنين مُبَشِّرًا عبده بما هَيَّاه الله تعالى له من السلامة ويُمِنُ الوجهَهُ، مع تقريب الشُّقَّةِ؛ وإزالة المَسَارِّ، وتسهيل الأوطار، وإدناء الدار؛ فوقف العبد عليه، وأمثلة المرسوم في إطلاع الأولياء على ما نُصِّ فيه من هذه البُشْرَى؛ فَعُظِّمَتِ المِنْحَةُ لديهم، وَجَلَّتِ النِّعْمَةُ عندهم؛ وأنشِرتْ صُدُورُهُم، وأنفسحت آمالُهُم، ووقفوا بَصْنَعِ الله تعالى لهم؛ وأرتفعت أيديهم إلى الله سبحانه بالرغبة في حَيَاةِ أمير المؤمنين قَاطِنًا وظَافِعًا، وَحُسِنَ صَحَابَتُهُ حَالًا وراحلا؛ وَجَمِلَ الخِلافةُ على مَنْ خَلَفَهُ من حَامَتِهِ وعَامَّتِهِ، وأهل دَعْوَتِهِ وخاصة دَوَلَّتِهِ؛ والله تعالى يوجب في أمير المؤمنين صَالِحَ الدُّعَاءِ، وَيُمَدُّ بِطُولِ البَقَاءِ» وما ينظم في سِلْكِ هذا الكلام وَيُضَاهِيهِ .

قلت: وقد تقدَّم في الكلام على المكتبة السلطانية الابتدائية: أن المكتبة بالبِشَارَةِ بالسلامة في رُكُوبِ العِيدَيْنِ وما في معناها من قدوم السَّفَرِ وغيره، قد ترك استعمله بديوان الإنشاء في زماننا . فإن قُدِّرَ مثْلُهُ في هذه الأيام، أجزاه الكاتب على نَحْوِ مَا تقدَّم، على ما يقتضيه مصطلح الزمان في المكتبات السلطانية .

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالخَلَجِ وما في معنى ذلك، فينبغى أن يكون مَبْنِيًّا على تعظيم المِنَّة، والاعتراف بِجَزَالَةِ المِنْحَةِ؛ وَجَمِلِ العطية، وزائد الفضل؛ وَأَن مَّا أُسْدِيَ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ تَفَضُّلٌ عَلَيْهِ، وَتَطَوُّلٌ مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ لَذَلِكَ؛ بَلْ قَائِضٌ فَضْلٍ، وَجَزِيلٌ أَمْتَانٍ؛ وَأَنَّهُ عاجز عن شُكْرِ هذه النِّعْمَةِ والقيام بواجبها، لَا يَسْتَطِيعُ

لها مكافأة غير الرغبة إلى الله تعالى بالأدعية لهذه الدولة . وما يناسب ذلك من الكلام ويلائمه .

وأما الجواب عن الكُتُب بالتَّنْوِيهِ والتلقيب إذا صدرت إلى نواب المملكة ، فالذى ذكره في "مواد البيان" أن المُنَوِّه به يُجِيبُ عَمَّا يَصِلُهُ من ذلك بوصول الكتاب إليه ، ووقوفه عليه ، ومعرفة به بقدر العارفة مما تضمنته الرغبة إلى الله تعالى في إيزاعه الشُّكْر ، ومعاونته على مقابلة النعمة بالإخلاص والطاعة . أما إذا كُتِبَ بالتَّنْوِيهِ والتلقيب لأحد من المقيمين بحضرة الخلافة ، فإنه لاجواب لها .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالإحماذ والإذمام ، فيختلف الحال فيه : فإن كان الكتاب الوارد بالإحماذ والتَّقْرِيط ، بخوابه مقصور على الشُّكْر الدال على وقوع ذلك الإحماذ موقَّعه من المحمود ، ومُطَالَبَتِهِ لنفسه بالخروج من حَقِّه باستفراغ الوسع في الأسباب المَوْجِبَةِ للزيادة منه . وإن كان الكتاب بالإذمام : فإن كان ذلك لِمَوْجِدَةٍ بسبب أمرٍ بلغه عنه من علوٍّ أو حاسِدٍ نِعْمَةٍ أو منزلة هو مَخْصُوصٌ بها من رئيسه ، كان الجواب بالتَّنَصُّلِ والمقابلة بما يُرَى سَاحَتَهُ ، ويدلُّ على سلامة نَاحِيَتِهِ ؛ وأن يُورَدَ ذلك بصيغة تُزِيلُ عن النفس ما سبق إليها ، وتَبَعُّثُ على الرِّضَا . وكذلك في كل واقعة بحسبها ، مما يحصل به التَّنَصُّلُ والاسترضاء ونحو ذلك .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة مع الإنعام السلطاني ، فعلى نحو ما سبق في الخلع : من تعظيم المِنَّة ، والاعتراف [بِجَزَالَةِ المِنَّة ^(١)] وجميل العطية ، وزيادة الفضل ، وما في معنى ذلك مما تقدّم ذكره .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة عن الخليفة أو السلطان بتجدد وُلْدٍ ، فإنه يكون بإظهار السرور والاعتباط ، وزِيَادَةِ الفَرَحِ والسُّرُورِ بما منّ الله تعالى به من تكثير

(١) يياض بالاصل والتصحيح عما تقدّم قريبا في الجواب عن الخلع .

العَدَد، وزيَادَة المَدَد، والرَّغْبَة إلى الله تعالى في أن يُؤَالِي هذا المَزِيدَ وَيُضَاعِفَهُ .
ونحو ذلك مما يجرى هذا المجرى .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بعافية الخليفة أو السلطان من مَرَضٍ كان قد عَرَضَ له ، فطريقه حَمْدُ الله تعالى وشُكْرُهُ على ما مَنَّ الله تعالى به من العافية ،
وتَفَضُّل به من إزاحة المَرَضِ ، ووقاية المَكْرُوه ، وإظهار الفَرَج والسُرور بذلك .
وما يخطر في هذا السِّلَك .

(١)
وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالتعزية بولَدٍ أو قَرِيبٍ ، فإنه يظهر فيه الغم والحُزَن والكآبة ، وحمد الله تعالى على سلامة نَفْسِهِ ، والرَّغْبَة إلى الله تعالى في الخَلَفِ عليه ، إن كان المَيِّتُ وَلَدًا ، مع الدعاء بطول البَقَاءِ وخُلُودِ الدَّوْلَةِ ، وما يجرى هذا المجرى .
وهذه نسخ أجوبة عن مكاتبات سلطانية ، مما يكثر وقوعه ، ويتعدد تكراره ،
يَسْتَضِيءُ بها الكاتب في كتابة الأجوبة ، وَيَنْسُجُ على مَنَواِلِها .



نسخة جواب عن كِتَابٍ وصل من الخليفة بانتقال الخلافة إليه ، كُتِبَ به إلى
أمير الأمراء ، قَرِيبَ خَلْعَةٍ وَسَيْفٍ وَتَاجٍ وَسِوَارَيْنِ ، من إنشاء أبي الحسين بن
سعد ، وهو :

فإن كان سَيِّدُنَا أمير المؤمنين ، بما أعلم من فَضْلِ مُرَاعَاتِهِ لأُمُورِ الدِّينِ ، وَصِدْقِ
عَيْنَيْهِ بمصالح المسلمين ، وَأُفَيْضَ لَهُ (؟) من مَوَاهِبِ الله عندهم ، وَصُنُوفِ نِعَمِهِ عليهم ،
فبما هداه من طُرُقِ الرِّشَادِ ، وَبَصَرَهُ إِيَّاهُ من مَنَاهِجِ الصَّوَابِ ، وَقَرَنَهُ به من التَّوْفِيقِ
في عَزَائِمِهِ ، وَالْجِدِّ في مَرَامِيهِ ، وَتَوَعَّدَهُ فيه بالخيرات النَّامَةِ ، وَالْكِفَايَةِ الْعَامَّةِ ؛ في كُلِّ

(١) في الاصل "التنعم" ولم نثر عليه في كتب اللغة .

أَمْرٍ يُمِضِيهِ ، ورَأْيٍ يَرْتَبِيهِ ؛ أَعْتَادًا لَهُ بِحُسْنِ الْمَعُونَةِ عَلَى مَا أَسْتَرْعَاهُ ، وَوَصْلِهِ بِالْمَزِيدِ
فِيَا خَوْلَهُ وَأَعْطَاهُ ؛ وَحِرَاسَةَ مَاسَاغِهِ إِلَيْهِ مِنْ إِرْثِ النَّبُوَّةِ ، وَحَمْلَهُ إِيَّاهُ مِنْ ثِقَلِ الْإِمَامَةِ ؛
لَمَّا عَرَفَهُ مِنْ نُهُوضِهِ بِالْعَبَاءِ ، وَقِيَامِهِ بِالْحَقِّ فِيمَا نَاطَهُ وَأَسْنَدَهُ إِلَيْهِ ؛ وَتَأَمُّلِهِ مَا تَأَمَّلَهُ
مِنْ حَالِ عَبْدِهِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ لِبَطَاعَتِهِ مُعْتَقِدًا ، وَبِعِصْمَةِ وَلَايَتِهِ مُعْتَصِدًا ؛ وَلَوْ قُتِ
يَسْلُغُهُ مِثْلُةُ الْإِحْمَادِ ، وَيُحْزَلُهُ عَائِدَةُ الْأَجْتِهَادِ ، فِيمَا أَرْضَاهُ مُرْتَضِدًا ؛ وَلَسَعِيهِ وَنَيْتُهُ ،
وِظَاهِرُهُ وَطَوَيْتُهُ ، مُعْتَمِدًا ؛ وَوُجُودُهُ أَيْدَهُ اللَّهُ فِي يَسِيرِ مَا أَمْتَحَنَ بِهِ بَلَاءَهُ ، وَعَرَفَ
فِيهِ غَنَاءَهُ ؛ مَوْضِعًا لِلصَّنِيعَةِ ، مُحْتِمِلًا لِلْعَارِفَةِ ؛ مُقَرًّا بِحَقِّ النِّعْمَةِ ، عَارِفًا بِقَدْرِ الْمَوْهِبَةِ ؛
وَتَرْقِيهِ فُرْصَةً يَنْتَهِزُهَا فِي إِبْدَاءِ عَزَمِهِ ، وَإِمْضَاءِ رَأْيِهِ ؛ وَأَنَّهُ [وَأَثَقَ] بِالْأَسْتَظْهَارِ بِمَكَانِهِ ،
وَالْإِسْهَامِ لَهُ فِي عِزِّ سُلْطَانِهِ ؛ حَتَّى أَسْفَرَتْ رَوِيَّتُهُ ، وَاسْتَقَرَّتْ عِزِّيَّتُهُ ؛ فَاخْتَصَّ
عَبْدَهُ بِجَمِيلِ الْأَثَرِ ، وَأَصْطَفَاهُ بِلَطِيفِ الْحُظُّوةِ ، وَأَعْتَمَدَ عَلَيْهِ فِي إِمَارَةِ الْأُمَرَاءِ ،
مُوفِيًا بِهِ عَلَى رُتْبَةِ النَّظَرَاءِ ، وَكَاسِيًا لَهُ حُلَّةَ الْحَمْدِ وَالسَّنَاءِ ؛ وَرَدَّ إِلَيْهِ تَدْيِيرَ الرِّجَالِ ،
وَتَقْدِيرَ أُمُورِ الْعُمَالِ ؛ وَشَفَعَ ذَلِكَ بِالتَّكْنِيَةِ وَالتَّلْقِيَةِ فِي مَشَاهِدِ حَفَلَتِهِ ، وَمَجَالِسِ
خَلْوَتِهِ ؛ وَأَكْمَلَ الصَّنْعَ عِنْدَهُ بِإِلْحَاقِ عَبْدِهِ فِيمَا قَسَمَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِنْ شَرِيفِ
حِبَابَتِهِ ، وَسَنَى عَطَائَهُ ؛ وَتَجَاوَزَ فِي التَّكْرِمَةِ لَهُ إِلَى أَعْلَى الْأَحْوَالِ ، وَأَرْفَعَ الرُّتَبِ وَالْمَحَالِّ ؛
فِيمَا أَمَرَ - أَعْلَى اللَّهِ أَمْرُهُ - بِحَمْلِهِ إِلَيْهِ مِنَ الْخِلْعَةِ الَّتِي يَبْقَى شَرَفُ لِبَاسِهَا [عَلَى] الْأَيَّامِ ،
وَيُحْلَدُ ذِكْرُهَا عَلَى الدُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ ؛ وَالسَّيْفِ الَّذِي تَفَاعَلَ لِعَبْدِهِ فِيهِ بِمَا يَرْجُو مِنْ
مَوْلَاهُ وَسَعَادَةِ جَدِّهِ : أَنْ يَحْقِّقَهُ اللَّهُ فِي الْأَعْتَادِ بِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ ، وَتَعَمُّدِهِ فِي مُخُورِ مُشَاقِقِهِ
وَعَامِصِي نِعْمَاتِهِ ؛ وَالتَّاجِ الْمُرْصَعِ الَّذِي نَظَّمَ لَهُ جَوَامِعَ الْفَخْرِ ، وَالْوَشَاحِ الْمُوشَى الَّذِي
وَشَّحَّهُ حِلْيَةُ الْجَمَالِ مَدَى الدَّهْرِ ؛ وَالطُّوقِ الَّذِي طَوَّقَهُ قَلَانِدُ الْحَمْدِ ، وَالسَّوَارِينَ اللَّذِينَ
أَذْنَاهُ بِقُوَّةِ الْعُضْدِ وَبَسْطَةِ الْيَدِ ؛ وَاللَّوَاءِ الْمَعْقُودِ بِهِ مَفَاتِحُ الْعِزِّ فِي طَاعَتِهِ ، الْمَرْفُوعِ بِهِ
مَعَالِمُ النُّصْرِ عَلَى شَانِي دَوْلَتِهِ ؛ وَوَصَلَ إِلَى وَفَهْمَتِهِ .

وسيدنا أمير المؤمنين - فيما أكرمه الله به من خلافته ؛ وأتمننه من الحكم على
 برئته ؛ ووكله إليه من حقوق الدين ، وحياطته كرم المسلمين ؛ وإحياء السير الرضية ،
 والسنة الحميدة ؛ وإمالة الأحكام الجائرة ، والمظالم الظاهرة ؛ وتقويم أود المملكة
 بعد تزغزع أركانها ، وتصدع بُنيانها ؛ وإعزاز الأمة وإيناسها ، بعد أن أشتمت
 [الدلة^(١)] عليها وتمكنت الوحشة فيها ؛ وحكم اليأس في آمالها ، وغلب القنوط على
 أطاعها ؛ وتفاعل بما أعتمده له ، وفوضه إلى نظره : من الحلية بحقائقه ، والتوكيد
 بما لم تزل الخبايل فيه لآئحه ، والأمارات منه واضحة ؛ والشواهد به صادقة ،
 والدلائل عليه ناطقة ؛ حتى تدارك بنعمة الله الدين بعد أن طمس مناره ، وتعتقت
 آثاره ؛ ودرست رؤسوه ، وغارت مجومه ؛ وأنهى الشيطان بجرانه ، وأشرأب لتبديله
 بعدوانه ؛ وانتدب لنصرة الإسلام برأي يستغرق آراء الرجال ، وحلم يستخف رواسي
 الجبال ؛ وروية تستخرج كوامن الغيوب ، وتكشف عنها حنادس الشكوك ؛ وباع
 لما يمتد إليه بسيط ، وذراع لما يتظم عليه رحيب ؛ وصدر يتسع لمعضلات
 الأمور ، ويشرق في مدهمات الحوادث ؛ فشرّد أعداء الله بعد أن اتصلت بهم مهلة
 الاغترار ، وتناولت بهم مدة الإصرار ؛ ومدّ رواق الملك وضرب قبابه ، وثبت أواخيه
 وأحصّد أسبابه ؛ وقطع أطاع الملحين ، وأبطل كيد الكافرين ، وفّت في أعصاب
 المنايدين ؛ فتحصنت البيضة ، واجتمعت الكلمة ؛ واتفقت الأهواء المتفرقة ،
 وانتظمت الآراء المتشعبة ، وسكنت الدهماء المضطربة ، وقرت القلوب المترعجة ؛
 وصدقت خواطر الصدور المتلحجة ؛ وظهر الحق ورشح عموده ، وبهر جماله ونضر
 عوده ؛ ونشرت أعلامه وطلعت سعوته ، وعزّ أوليائه ونصرت جنوده ؛ وساخ

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح من المقام .

(٢) في الأصل «أخضد» وهو تصحيف .

بالباطل قَدُمه ، وَأَنْقَطَعَتْ وَصَائِلُهُ وَعِصْمُهُ ؛ وَأَنْبَتَتْ حَبَالُهُ وَرُمُهُ ، وَأَنْحَلَّتْ أَسْبَابُهُ وَذِمُّهُ - حَقِيقٌ بِمَا بَانَ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَسْتَفَاضَ فِي الْأُمَّةِ مِنْ عَدْلِهِ ، وَعَمَّ كَافَّةَ الرَّعِيَّةِ مِنْ طَوْلِهِ ؛ وَوَصَلَتْ إِلَى الْمِلَّةِ وَالذَّمِّ وَالِدَانِي وَالْقَاصِي عَائِدَةُ الْخَيْرِ فِي أَيَّامِهِ ، وَفَائِدَةُ الْأَمْنِ بِمَمْلَكَتِهِ وَسُلْطَانِهِ ؛ وَمَأْمُولٌ لِأَفْضَلِ مَا بَدَأَ لِعَبْدِهِ مِنْ ثَمَرَةِ أَجْتِبَائِهِ وَأَصْطِفَائِهِ ، وَمَا تَعَمَّدَهُ بِهِ مِنَ النِّعَمِ الْعَظِيمَةِ ، وَالْمَوَاهِبِ الْجَسِيمَةِ ؛ وَأُسْبَغَهُ عَلَيْهِ مِنَ الْعَوَارِفِ السَّيِّئَةِ ، وَرَفَعَهُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَنَازِلِ الْعَلِيَّةِ ، الَّتِي تَقْصُرُ عَنْهَا هِمُّ ذَوِي الْأَقْدَارِ ، وَتَقِفُ دُونَهَا آمَالُ أَوْلِي الْأَخْطَارِ ؛ مُقَدِّمًا لَهُ عَلَى أَهْلِ السَّوَابِقِ مِنْ أَنْصَارِ دَوْلَتِهِ ، وَأَشْيَاعِ دَعْوَتِهِ .

فلو ترادفت أَلْسُنُ الْعِبَادِ - أَيْدَ اللَّهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - عَلَى اخْتِلَافِ لُغَاتِهِمْ ، وَتَبَايُنِ طَبَقَاتِهِمْ ، وَتَفَاوُتِ حَالَاتِهِمْ ؛ فِي مَقَابِلَةِ نِعْمَةِ سَيِّدِنَا الَّتِي أَغْشَى الْعُيُونَ بِهَاؤُهَا ، وَتَأْدِيَةِ حَقُوقِهِ الَّتِي أَعْيَا الْمُجْتَهِدِينَ قَضَائُهَا ؛ لَكَانَتْ - حَيْثُ أَتَتْهُ ، وَأَثَى تَصَرَّفَتْ ؛ عَلَى اسْتِفْرَاجِ الْقُدْرَةِ وَاسْتِنْفَادِ الطَّاعَةِ - غَيْرُ مُقَارِبَةٍ حَدًّا مِنْ حُدُودِهَا ، وَلَا مُؤَدِّيَةٍ فَرَضًا مِنْ فُرُوضِهَا ؛ وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ - أَيْدَ اللَّهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - فِي قُوَّةِ الْإِحْسَانِ مَقَادِيرِ الشُّكْرِ ، وَإِيفَانِهِ عَلَى مَبَالِغِ الْوُسْعِ ؛ فَقَصْدُ عِبْدِهِ فِي جَبْرِ النِّقِصَةِ ، وَسَدِّ الْخَلَلِ ؛ الْأَزْدِيَادُ فِي الطَّاعَةِ ، وَالْإِخْلَاصُ فِي الْمُوَالَاةِ وَالْمُشَايَعَةِ ؛ وَإِدَامَةُ الْأَبْتِهَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَرَفْعُ الرَّغْبَةِ فِي مُعُونَةِ عَبْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مُجَافَاةِ بَلَائِهِ ، وَالتَّفَرُّدِ بِحِزَائِهِ ، وَتَجْدِيدِ الْمَسْأَلَةِ فِي إِطَالَةِ بَقَائِهِ : فِي عِزٍّ لَا تَبْلَى جِدَّتُهُ ، وَسُلْطَانٍ لَا تَنْتَهِي مُدَّتُهُ ؛ وَمَوَادٍّ مِنْ مَنَاسِيحِهِ وَمَوَائِدِهِ ، وَرَوَادِفٍ مِنْ عَوَائِدِهِ ؛ مُتَظَاهِرَةً لَا يَنْقُطِعُ مِنْهَا أَوَّلٌ حَتَّى يَلْحَقَ نَآئِلُهُ ، وَلَا يَنْصَرِمُ سَالِفُهُ حَتَّى يَنْصَرِفَ آتِيهِ ؛ وَيَكُونُ الْمَالُ بَعْدَ اسْتِيفَاءِ شُرُوطِ الْأَمَلِ ، وَتَقْضَى حُلُودُ الْمَهَلِ ؛ إِلَى النِّعَمِ الْمُقِيمِ ، فِي جَوَارِ الْعَزِيزِ الْكَرِيمِ .

ومن تمام إفضال سيدنا على عبده، ونظام معرفه عنده، بدؤه إياه بما يمتحن به خفة نهضته، وسرعة حركته، وقعوده لأمره بحد حديد، وبعيش عتيد، وصمده لما يحظيه لذلك مولاه، ويحوز له حمده ورضاه، بصدق بصيره، وخلوص سريره، واستسهال لكل خطه، وتجشيم لكل مشقه، دنت المسافة أم شغعت، قربت الطية أم نزحت، وسيدنا أهل لاستتمام يد ابتداها، وإكمال عارفة أنشأها وكرامة آبتناها، باستعمال عبده بأمره ونهيه، وأعتاده لمهمات بحضرته وفي أطراف مملكته، إن شاء الله تعالى.



قلت : وهذه نسخة كتاب أنشأته : ليكتب به إلى أمير المؤمنين المستعين بالله، أبي الفضل العباس خليفة العصر، عن نائب الغيبة بالديار المصرية، حين وردت كتبه الشريفة من الشام إلى الديار المصرية بالقبض على الناصر فرج بن الظاهر برقوق بالشام، واستبداده بالأمر دون سلطان معه، في أوائل سنة خمس عشرة وثمانمائة، مفتيحاً له «يقبل الأرض» التي يكتب بها الملوك. وإن كان قد تقدم من كلام المقر الشهابي بن فضل الله أن المكتبة إلى أبواب الخلافة بالدعاء للديوان، لا يختلف فيه ملك ولا سوقة، وهو :

يَقْبَلُ الْأَرْضَ وَيُنْبِئُ وَرُودَ الْمَثَالِ الْأَشْرَفِ الْمَيْمُونِ طَائِرُهُ، الْمَرْقُومِ عَلَى صَفَحَاتِ الْأَفلاكِ تَهَانِيهِ الْمُحْمُولِ عَلَى مَتْنِ السَّحَابِ بَشَائِرِهِ، الشَّاهِدِ بِالْفَتْحِ الْمُيْمِنِ أَوَائِلِهِ وَبِالنَّصْرِ الْعَزِيزِ أَوَائِلِهِ، مُتَضَمِّنًا مَا مَنَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ جَمِيلِ الصَّنْعِ الَّذِي وَكَّفَتْ بِالْخَيْرِ سَخَائِبُهُ، وَخَفِيَ الْلُطْفِ الَّذِي بَهَرَتْ الْعُقُولُ عَجَائِبُهُ، بِمَا مَنَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مَوْلَانَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَدَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْإِسْلَامِ وَارِفَ ظِلِّهِ، وَأَنَامَ الْأَنَامَ بِمَدِّ رِوَاقِ

الإمامة المعظمة في مهَادِ عَدْلِهِ ، وَمَكَّنَ لَهُ فِي الْأَرْضِ كَمَا مَكَّنَ لِآبَائِهِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ قَبْلِهِ : مِنْ جُلُوسِهِ عَلَى سُدَّةِ الْخِلَافَةِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي وُصِّلَ مُنْقَطِعُ حَدِيثِهَا بِإِسْنَادِهِ ، وَحَازَ مِنْهَا بِأَشْرَفِ مَقْعَدٍ تَرَاثَ آبَائِهِ الْكَرَامُ وَأَجْدَادُهُ ؛ وَابْتَسَمَ تَغَرُّ الْخِلَافَةِ بَعْبَاسِهِ ، وَتَأَنَسَّ مِنْهَا جَانِبَ الدِّينِ بَعْدَ الْأَسْتِيحَاشِ بِلَيْنَاسِهِ ؛ فَقَبَّلَ الْمَمْلُوكُ لَهُ الْأَرْضَ خَاضِعًا ، وَلَبَّى أَوَامِرَ الشَّرِيفَةِ ضَارِعًا ، وَأَجَابَ دَاعِيَهُ بِالْإِمْتِثَالِ سَامِعًا طَائِعًا ؛ وَتَجَدَّدَ سُجُودُ الشُّكْرِ لَذَلِكَ فَعَرِيفَ بِسِيَامِهِ ، وَانْتَسَبَ إِلَى الْوَلَاءِ الشَّرِيفِ الْإِمَامِيِّ أَنْتَسَابًا شَامِلًا لِأَسْمِهِ وَمَعْنَاهُ ؛ وَأَعْلَمَ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْأَمْرَاءِ وَالْأَجْنَادِ بِذَلِكَ فَقَابَلُوهُ بِالْإِسْتِشَارِ طُرًّا ، وَتَلَقَّوْهَا تَلَقًّا يَلِيْقُ بِمِثْلِهَا وَإِنْ كَانَ لَا مِثْلَ لِهَذِهِ الْبُشْرَى ؛ وَقُرِئَتْ الْمُطْلَقَاتُ الشَّرِيفَةُ عَلَى الْمَنَابِرِ فَسَكَنَتِ الدَّهْمَاءُ وَقُرَّتْ ، وَسَرَّتْ أَلْفَاظُهَا إِلَى الْأَسْمَاعِ الشَّيْقَةِ فَسُرَّتْ ، وَكُرِّرَتْ أَلْفَاظُهَا الْعَذْبَةُ مَرَارًا فَحَلَّتْ لَدَى النُّفُوسِ إِذْ مَرَّتْ ؛ وَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ بِالدَّعَاءِ بِدَوَامِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ النَّبَوِيَّةِ دَوَامًا لَا يَسْتَشْعِرُ مُسْتَشْعِرُ خِلَافَتِهِ ، فَحَقِيقُ ظُهُورِ مُعْجَزَةِ أَكْرَمِ مُرْسَلٍ بَعْدَ الثَّمَانِيَةِ بِقَوْلِهِ لِعَمِّهِ الْعَبَّاسِ : « أَلَا أَبْشُرُكَ يَا عَمُّ : بِخَتْمِ النَّبُوَّةِ وَبَوْلَدِكَ تُخْتَمُ الْخِلَافَةُ » .



وهذه نسخة جواب عن نائب طرَابُلُسَ عن مِثَالٍ شَرِيفٍ وَرَدَ بِوَفَاةِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ « مُحَمَّدُ بْنُ قَلَاوُونَ » وَاسْتِقْرَارِ وَلَدِهِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ « أَبِي بَكْرٍ » مَكَانَهُ فِي الْمُلْكِ بَعْدَهُ مِنْ أَبِيهِ . مِنْ إِنْشَاءِ الْقَاضِي تَاجِ الدِّينِ بْنِ الْبَارْبَنَارِيِّ ، بَعْدَ التَّعْزِيَةِ بِأَبِيهِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ ، وَهِيَ :

وَيُنْهِى وَرُودَ الْمَرْسُومِ الشَّرِيفِ شَرَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَعَظَّمَهُ ، يَتَضَمَّنُ أَمْرَ الْمُصَابِ الَّذِي كَادَتْ لَوْقُوعِهِ الْأَرْضُ تَتَزَلُّ بِأَهْلِهَا ، وَالْعُقُولُ تَتَرَيَّلُ عَنْ مَحَلِّهَا ، وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ

الحنَّاجِر، وَاسْتَوْحَشَتِ الْقُصُورُ وَاسْتَأْنَسَتِ الْمَقَارِ، وَتَصَدَّعَتْ لَهُ صُدُورُ النِّسُوفِ
وَرُءُوسُ الْمَنَارِ؛ وَقَصَمَ الظُّهُورُ، وَشَيَّبَ السُّودَ مِنَ الشُّعُورِ؛ وَجَرَعَ كُؤُوسَهُ،
وَصَدَّعَ الْحُوزَةَ الْمَحْرُوسَةَ؛ وَذَلِكَ بِمَا قَدَّرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أُنْتِقَالِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ السَّعِيدِ،
الشَّهِيدِ؛ وَالدُّمُولَانَا السُّلْطَانِ - خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ - إِلَى رَحْمَتِهِ وَرِضْوَانِهِ: فَأَجْرَى الْمَمْلُوكُ
عَوَضَ الدُّمُوعِ دَمًا، وَأَقَامَ الْإِسْلَامُ وَالْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ مَأْتَمًا، وَتَغَيَّرَ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ لِفَقْدِهِ
فَامْسَى مُظْلِمًا؛ وَنَدَبَهُ الْإِسْلَامُ فِي سَائِرِ مَحَارِبِهِ وَمُصَلَّاهُ، وَأَسَفَ عَلَيْهِ الْبَيْتُ الْحَرَامُ
وَرُكَّاهُ ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

لَمَّا دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ، أَشْرَقَ مِنْهَا ذَلِكَ الْيَوْمَ كُلُّ شَيْءٍ، وَيَوْمَ
قُبِضَ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ؛ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَثْبَتَ النَّاسِ يَوْمَ
وَفَاتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ الْخَلِيفَةُ مِنْ بَعْدِهِ؛ وَمَوْلَانَا السُّلْطَانُ الشَّهِيدُ - قُدَّسَ
اللَّهُ رُوحَهُ - كَانَ مُنْشَرِّقًا بِأَسْمِ نَبِيِّهِ، وَمُتَبَرِّكًا فِي ذُرِّيَّتِهِ الشَّرِيفَةِ بِذِكْرِ سَمِيهِ ^(١)؛
وَلَوْ ذَابَتِ الْمُهْجُ أَسْفًا عَلَيْهِ لَمَّا أَنْصَفَتْ، وَقَدْ أَسَفَتْ عَلَيْهِ الْأُمَمُ بِأَسْرِهَا وَحَقَّ لَهَا
أَنْ أَسَفَتْ؛ نَبَتَتْ لِحُومُنَا مِنْ صَدَقَاتِهِ، وَعَمَّرَتْ الْمَمْلُوكَ وَالْمَمَالِكَ بِمَجْزَلَاتِ هِبَاتِهِ؛
وَمَا يُقَلَّ مِنْ قَضِيرِهِ إِلَّا إِلَى جَنَاتِ النَّعِيمِ، وَمَا فَارَقَ مُلْكَهُ إِلَّا وَبَاتَ فِي جِوَارِ
اللَّهِ الْكَرِيمِ؛ وَكَانَ سُلْطَانًا وَهُوَ الْيَوْمَ عِنْدَ اللَّهِ سُلْطَانٌ، فَسَقَى اللَّهُ عَهْدَهُ صَوْبَ
الرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَانِ.

وَبِحَمْدِ اللَّهِ قَدْ جُرِيتِ الْقُلُوبُ الْمُنْصَدِعَةُ بِجُلُوسِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ - خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ -
عَلَى تَحْتِ السُّلْطَنَةِ الْمُعْظَمَةِ وَاللَّهُ مَعَهُ، وَمَا جَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ الْمَلِكِ إِلَّا أَهْلُهُ، وَلَا قَامَ
بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا مَنْ عُلِمَ فَضْلُهُ؛ وَمَوْلَانَا السُّلْطَانُ وَارِثُ الْمَلِكِ النَّاصِرِيِّ الْمَنْصُورِ

حقاً ، والقائمُ بِشأنِ السلطنة غريباً وشرقياً ؛ وخلاصةُ هذا البيتِ الشريف زاده الله نصراً ، وأدام ملكه دوماً مستمراً ؛ والعيونُ الباكية قد قَرَّتِ الآنَ بهذه البشرى ، والقلوبُ الناكِكة قد مَلِئَتْ بهجةً : ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ واستقرَّ الإسلامُ بعد قلقه ، ونَامَ على جَفْنِهِ بعد آرقه ؛ واستقبلت الأمةُ عامًا جديدًا ، وسلطانًا منصورًا سعيدًا ؛ واستبشرت القبَلتان ، وتناجى بالمسرة الثقلان ؛ والذين كفروا أمسوا خائبيين ، والذين آمنوا أضحوا فرحين ﴿هُوَ الَّذِي آيَدَكَ بِنَصْرِهِ يَا مُؤْمِنِينَ﴾ ومولانا السلطان هو العريقُ في سلطنة الإسلام ، والإمامُ الأعظمُ ابنُ الإمام ؛ خَلَّدَ الله ملكه مادامت الأيام ، وأحسنَ عزاءه في خيرِ سلطان الأنام ؛ وأبتهلت الألسنة بالترحم على مولانا السلطان الشهيد - قَدَسَ اللهُ رُوحَه - بدموع سائله ، وقلوب موجوعة بجراحات النباحات ثم عوَضُوا بالمسراتِ الكامِلة ، والدعاء مرفوع لمولانا السلطان - خَلَّدَ اللهُ ملكه - برأً وبحراً ، والبلاد مطمئنةٌ والعساكر على ما يَجِبُ من التمسُّكِ بالطاعة الشريفة ، والتشريف بإقبال دولةِ سلطانهم ، ووارث سلطانهم ؛ وكان المملوك يودُّ لو شاهد مولانا السلطان - خَلَّدَ اللهُ ملكه - على ذلك السريرِ والمنبر ، وقبل الأرض بين يدي المواقِفِ المعظِّمة والمقام الأَكْبَر ؛ إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة جَوَّاه عن وُرُودِ المثال الشريف برُكُوبِ السلطان بالميْدان ، والإذن للثواب في لعبِ الكُرَّة ، وهي :

ويُنْهِى وُرُودُ المثال الشريف شَرْفَه اللهُ تعالى وعَظَمَه ، يتضمن الصَّدَقَة التي أُجْرَتْ أوليائها على أَجْمَلِ عادةٍ من الاحتفال ، والمرآحِمِ الشاملة التي وَسَّعَتْ لهم كَرَمُهَا سافرةً عن أوجه الإقبال ، والبشرى التي جمعت من أنواع المسرات ما بلغته

الآمال ، وهو أَنَّ الرَّكَّابَ الشَّرِيفَ اسْتَقَلَّ إِلَى الْمِيدَانِ السَّعِيدِ نَهَارَ السَّبْتِ فِي كَذَا مِنْ شَهْرٍ كَذَا : فِي أَسْعَدِ طَالِعٍ ، وَأَيْمَنَ وَقْتٍ مُطَاوِعٍ ، وَفِي الْخِدْمَةِ الشَّرِيفَةِ مِنَ الْأُمَرَاءِ - كَثَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى - مَنْ جَرَتْ الْعَادَةُ بِهِمْ مِنْ كُلِّ كَيْمٍ مُفْتَعٍ ، قَدْ لَبَسَ مِنَ الطَّاعَةِ بُرْدًا وَبِالْإِخْلَاصِ تَدَرَّعَ ، وَأَمْتَطَى مِنْ فَائِضِ الصَّدَقَاتِ الشَّرِيفَةِ صَهْوَةً سَابِقٍ قَدْ شَمَّرَ لِلْسَّبْقِ ذَيْلًا ، وَفَزَّ كَبْرِيٍّ لَمَعَ لَيْلًا .

وَأَنَّ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ - خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ - طَلَعَ عَلَيْهِمْ طُلُوعَ الْبَدْرِ عِنْدَ الْكَمَالِ ، وَحَوْلَهُ الْمَمَالِكُ الشَّرِيفَةُ كَالْأَنْجُمِ الزَّاهِرَةِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُسَبَّهُ بِمَثَالٍ ؛ وَالْحَيَادُ لَا يُرَى لَهَا أَثَرٌ مِنَ الرُّكُضِ ، وَالْكُرَّةُ تَنْشَرَفُ بِالصُّوْبِ لِحَانٍ كَمَا تَنْشَرَفُ بِالتَّقْيِيلِ الْأَرْضُ ؛ وَعَادَ الرَّكَّابُ الشَّرِيفُ - زَادَهُ اللَّهُ شَرَفًا وَعَظَّمَهُ - إِلَى الْقَلْعَةِ الْمَنْصُورَةِ ، إِلَى مَحَلِّ الْمَمْلَكَةِ الشَّرِيفَةِ ، وَفِي دَسْتِ السُّلْطَانَةِ الْمُعَظَّمَةِ ؛ مُحْفُوفًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِلُطْفِهِ ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ .

وَمَا أَقْتَضَتْهُ الْآرَاءُ الشَّرِيفَةُ ، وَالْمَرَاحِمُ الْمُطِيفَةُ ؛ وَآثَرَتْ بِهِ إِعْلَامَ الْمَمْلُوكِ بِذَلِكَ ، وَالْمَرْسُومَ الشَّرِيفَ - شَرَّفَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَعَظَّمَهُ - أَنْ يَتَقَدَّمَ الْمَمْلُوكُ بِالْتَّزْوِلِ إِلَى مِيدَانِ فَلَانَةِ الْمَحْرُوسَةِ ، وَمَعَهُ مَمَالِكُ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ - خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى مُلْكَهُ - وَالْأُمَرَاءُ ؛ فَقَابِلَ الْمَمْلُوكِ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ ، بِتَقْيِيلِ الْأَرْضِ وَرَفْعِ الدَّعَوَاتِ ؛ وَجَمَعُوا بَيْنَ الْكُرَّةِ وَالصُّوْبِ لِحَانٍ ، وَحَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْمَسَرَّاتِ مَا لَا يَحْصُرُهُ بَيَانٌ ؛ وَأَنْبَسَطَتْ نَفُوسُهُمْ إِذَا أَصْبَحُوا فِي أَمْنٍ وَأَمَانٍ ، وَابْتَهَلُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِدَوَامِ هَذِهِ الْأَيَّامِ الَّتِي تَوَعَّتُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْإِحْسَانِ ؛ وَصَبَّحُوا بِالْأُدْعِيَةِ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانَ - خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى مُلْكَهُ - الَّتِي عَمَّتْ مَوَاهِبُهُ وَفَاقَ بِمَكَارِمِهِ الْمَبَاضِينَ ، وَأَرْبَى عَلَى سَلَفِهِ الشَّرِيفِ بِالْعَطَاءِ وَالتَّمْكِينِ ، جَعَلَ اللَّهُ أَعْدَاءَهُ تَحْتَ قَهْرِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة جواب بوفاء النيل المبارك، كتب به عن نائب طرابلس، وهي :

وَيُنْهِى وَرُودَ الْمَشَالِ الشَّرِيفِ - شَرَّفَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَعَظَّمَهُ - الَّذِي أَشْرَقَتْ أَنْوَارُ تَهَانِيهِ، وَتَأَلَّقَتْ بِرُوقِ أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ؛ فَبَشَّرَتْ بِفَيْضِ فَضْلِ الرَّحْمَةِ، وَعُمُومِ الرِّعَايَا بِتَوَاتُرِ عَمِيمِ النِّعَمَةِ؛ وَوَفَاءِ النَّيْلِ الْمُبَارَكِ الَّذِي مَا بَرِحَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الزَّاهِرَةِ يَنْفِي بَعْدَهُ، وَيُسَلِّ سَيْفَ الْخَضْبِ مِنْ غَمِّهِ، وَيَقْتُلُ الْحَلَّ بِحُمْرَةِ مَتْنِهِ وَجَوْهَرِ حَدِّهِ؛ مُهَنِّئًا لِلْأَوْلِيَاءِ بِهَذِهِ الدَّوْلَةِ الَّتِي أَصْبَحَتْ قُلُوبُهُمْ مُطْمَئِنَّةً بِالْأَمْنِ وَالرِّخَاءِ، مَسْرُورَةً بِمَا مَنَّ اللَّهُ بِهِ مِنْ تَرَادُفِ الْآلَاءِ وَعُمُومِ النِّعَمَةِ؛ وَحَالَ مَا وَرَدَ الْمَرْسُومَ الشَّرِيفِ - شَرَّفَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَعَظَّمَهُ - بِأَدْرِ الْمَمْلُوكِ إِلَى آمْتَالِ الْمَرْسُومِ الشَّرِيفِ بِتَقْبِيلِ الْأَرْضِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَأَخَذَ كُلُّ حَظٍّ مِنْ هَذِهِ الْبُشْرَى، الَّتِي عَمَّتْ تَهَانِيَهَا بَرًّا وَبَحْرًا؛ وَجَعَلَتْ أُمُورَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَيْنَ بَرَكَةِ هَذِهِ الْأَيَّامِ الشَّرِيفَةِ بَعْدَ عُسْرِ يُسْرٍ؛ وَقَدْ عَادَ فُلَانُ الْبَرِيدِيِّ وَمَنْ مَعَهُ إِلَى الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ بِالْجَوَابِ الشَّرِيفِ، طَالِعَ بِذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



آخر في المعنى :

وَيُنْهِى وَرُودَ الْمَثَالِ الشَّرِيفِ زَادَهُ اللَّهُ عُلُوًّا وَشَرَفًا ، وَبَيَّضَ لَهُ فِي الْقِيَامَةِ صُحُفًا ؛ يَتَضَمَّنُ أَنْوَاعَ الْإِنْعَامِ الْجَزِيلِ ، وَإِبْدَاءَ آثَارِ السُّرُورِ بِمَا يَسَّرَ اللَّهُ مِنْ وَفَاءِ النَّيْلِ ؛ فَاشْرَقَتْ أَنْوَارُ تَهَانِيهِ ، وَتَأَلَّقَتْ بِرُوقِ أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ ؛ فَبَشَّرَ بِفَيْضِ فَضْلِ الرَّحْمَةِ ، وَعُمُومِ الرِّعَايَا بِتَوَاتُرِ عُمُومِ النِّعَمَةِ ؛ إِذْ جَاءَ مُحْيَاهُ فِي هَذَا الْعَامِ طَلْقًا ، وَسَلَّكَ فِي عَوَائِدِ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ طُرُقًا ؛ وَأَذِنَ بِبُلُوغِ الْمَرَامِ وَالْمُرَادِ ، وَكَسَّرَ سَدَّ خَلِيجِهِ جَبْرًا لِلْعِبَادِ

والبلاد ، حيث ملأ الأرض ريباً ، وأهدى من نَفَحَاتِ الأَمْنِ والمنِّ ريباً ، والمرسوم الشريف - شرفه الله وعظّمه - بأن لا يُجْحَى على ذلك حقُّ بشاره ، ولا يُتَعَرَّض إلى أحدٍ بِجَسَارِهِ ، فقابل المملوكُ المِثَالَ الشريفَ والمُرْسُومَ الشريفَ بتقيل الأرض والسَّمْع والطَّاعَة ، وبأدّر المملوكُ إلى إِذَاعَةِ هذه البُشْرَى ، التي عَمَّتْ تَهَانِيهَا بَرّاً وبحراً ، وجعلتْ أُمُورَ هذه الأُمَّةِ يُمَيِّنُ بَرَكَهَ هذه الأيامِ الشريفة بعد عُسْرِ يُسْرٍ ، وأسْتَنْطَق الأَلْسِنَةَ بالدُّعَاءِ لهذه الدَّوْلَةِ القَاهِرَةِ ، وَجَلَّ وَتَلَّ صُورَ الهَنَاءِ وَسُورَ الآلَاءِ بِهذه النِّعَمَةِ الوَافِيَةِ وَالْمِنَّةِ الوَافِرَةِ ، وسأل الله تعالى أن يُخَلِّدَ مُلْكَ مولانا السلطان ، ويُوَالِيَ أُنْبَاءَ البِشَائِرِ فِي أَيَّامِهِ الشريفة مَرْوِيَةً بِالْأَسَانِيدِ الْحَسَنِ ، وَقَدْ عَادَ فُلَانُ الْبَرِيدِ بِالْأَبْوَابِ الشريفة - شَرَفَهَا اللهُ تعالى وعظّمها - بهذا الجواب الشريف ، وقد عَيْنَ أَتَهَالِ أَهْلُ هذه المملِكة الْفُلَانِيَّةِ بالدُّعَاءِ بدوام هذه الأيامِ الزَّاهِرَةِ السَّازَةِ بِهذه البِشَائِرِ بِخُلُوقِهَا مِنْ الْكُلْفِ وَالْحَسَارَةِ ، طالع بذلك . إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة جَوَابٍ عن مثال شريف بوصول فَرَسٍ لإنعام ، كُتِبَ به عن نائب طَرَابُلُس ، وهى :

يُقَبَّلُ الأَرْضَ وَيُنْهَى وَرُودَ المرسوم الشريف أعلاه الله تعالى وشرفه ، يتضمن ما آفَقَتْهُ الآراءُ الشريفةُ مِنْ الْخَيْرِ التَّامِّ ، وَالْإِنْعَامِ الْعَامِّ ، وَالصَّدَقَةِ الْوَافِيَةِ الْوَافِرَةِ الْأَقْسَامِ ، الَّتِي مَا بَرَحَتْ مَمَالِكُ هذه الدَّوْلَةِ الشريفة فِي إِنْْعَامِهَا الْعَمِيمِ تَتَقَلَّبُ ، وَالْخَيْلُ السَّوَابِقُ بِسَعَادَتِهَا الْإِبْدِيَّةِ مُجْلَبٌ وَمُجَنَّبٌ وَتُرَكَّبُ : مِنْ تَجْهِيزِ الْحِصَانِ الْبَرِّقِ بِسَرِّهِ وَلِجَامِهِ وَعُدَّتِهِ الْكَامِلَةِ ، وَشُمُولِ الْمَمْلُوكِ بِالصَّدَقَاتِ الَّتِي مَا بَرَحَتْ مُتَرَادِفَةً مُتَوَاصِلَةً ، وَلِعَبْدِ هَذَا الْبَيْتِ الشَّارِفِ شَامِلِهِ ، وَقَبْلَ الْمَمْلُوكِ الأَرْضَ وَقَبْلَ حَوَافِرِهِ ، وَأَعْتَدَ

بهذه النعمة الباطنة والظاهرة؛ وأعدّه ليومئ تجلّ وجهه، ولقاء عدوّ وطّراد؛ والله تعالى يخلّد هذه الصدقات الشريفة التي ما برحت تشمل القريب والبعيد، والموالي من أولياء هذه الدولة الشريفة والعبيد؛ طالع بذلك، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة جواب عن وصول خيل من الإنعام السلطانيّ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبيّ .

ويُنَبِّئُ وَصُولَ مَا أَنْعَمَ بِهِ مِنْ الْخَيْلِ الَّتِي وَجَدَ الْخَيْرُ فِي نَوَاصِيهَا، وَتُخَدِّصُ صَوَائِهَا^(١) حُصُونًا يَعْصِمُ فِي الْوَعْيِ بِصِيَاصِيهَا .

فَمِنْ أَشْهَبَ غَطَاهُ النَّهَارُ بِجُلَّتِهِ، وَأَوْطَاهُ اللَّيْلُ عَلَى أَهْلَتِهِ؛ يَتَمَوَّجُ أَدِيمُهُ رِيًّا، وَيَتَأَرَّجُ رِيًّا، وَيَقُولُ مَنْ أَسْتَقْبَلَهُ فِي حُلٍّ لِحَامِهِ : هَذَا الْفَجْرُ قَدْ طَلَعَ بِالْثَرِيَّا؛ إِنْ أَنْفَلَتْ^(٢) فِي الْمَضَاقِقِ أَنْسَابَ أَنْسِيَابِ الْأَيِّمِ، وَإِنْ أَنْفَرَجْتَ الْمَسَالِكُ مَرَّ مُرُورِ الْغَيْمِ؛ كَمْ أَبْصَرَ فَارِسُهُ يَوْمًا أبيضَ بَطْلَعَتِهِ، وَكَمْ عَيْنَ [طَرْفِ] السَّانِ مَقَاتِلِ الْعَدُوِّ فِي ظِلَامِ النَّعْجِ بُنُورِ أَشِعَّتِهِ؛ لَا يَسْتَنُّ دَاحِسٌ فِي مِضْمَارِهِ، وَلَا تَطْمَعُ الْغَبْرَاءُ فِي شَقِّ غُبَارِهِ، وَلَا يَنْظُرُ لَاحِقٌ مِنْ لِحَافِهِ بِسِوَى آثَارِهِ؛ تُسَاقِ يَدَاهُ مَرَامِي طَرْفِهِ، وَيُدْرِكُ شَوَارِدَ الْبُرُوقِ ثَانِيًا^(٣) مِنْ [عِظْفِهِ] .

وَمَنْ أَدَّهَمَ حَالِكِ الْأَدِيمِ، حَالِي الشَّكِيمِ، لَهُ مُقَلَّةٌ غَانِيَةٌ وَسَالِفَةٌ رِيمٍ؛ قَدْ أَلْهَسَهُ اللَّيْلُ بَرْدَهُ، وَأَطْلَعَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ سَعْدَهُ؛ يَنْظُنُّ مَنْ نَظَرَ إِلَى سَوَادِ طُرَّتِهِ، وَبَيَاضِ مَجْجُولِهِ

(١) في "حسن التوسل" (ص ٩٩) «وَأَدْنَرَتْ» .

(٢) في "حسن التوسل" (ص ٩٩) إِنْ «الْتَقَّتِ الْمَضَاقِقُ» وَهِيَ أَوْضَحُ .

(٣) بَيَاضُ بِالْأَصْلِ وَالتَّصْحِيحُ مِنْ "حَسَنِ التَّوَسُّلِ" (ص ٩٩) .

وُغَرَّتْهُ ؛ أَنَّهُ تَوَهَّمُ النَّهَارَ نَهْرًا خَافِضَهُ ، وَأَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ نُقْطَةً مِنْ رَشَاشِ تِلْكَ الْمَخَاضَةِ ؛
لَيْنِ الْأَعْطَافِ ، سَرِيعِ الْأَنْعَافِ ؛ يُقِيلُ كَاللَّيْلِ ، وَيَمُرُّ كَالْمُودِ [صَخْرِ] حَطَّهُ السَّيْلُ ؛
يَكَادُ يَسْبِقُ ظِلَّهُ ، وَمَتَى جَارَى السَّهْمِ إِلَى غَرَضٍ بَلَغَهُ قَبْلَهُ .

وَمِنْ أَشَقَرٍ : وَشَاهُ الْبَرَقِ بَلَهِيهِ ، وَغَشَاهُ الْأَصِيلُ بَذَهِيهِ ؛ يَتَوَجَّسُ مَالِدِيهِ بِدَقِيقَتَيْنِ ،
وَيَنْفُضُ وَفَرَّتِيهِ عَنْ عَقِيقَتَيْنِ ، وَيَتَزَلُّ عِدَارُ لِحَامِهِ مِنْ سَالِفَتِيهِ عَلَى شَقِيقَتَيْنِ ؛ لَهُ مِنْ
الرَّيَاحِ لَوْنُهَا ، وَمِنْ الرِّيَاحِ لِينُهَا ؛ إِنْ جَرَى فَبَرَقَ خَفَقَ ، وَإِنْ أَسْرَعَ فَهَلَالٌ عَلَى شَفَقٍ ؛
لَوْ أَدْرَكَ أَوَائِلَ حَرْبِ بَنِي وَائِلٍ لَمْ يَكُنْ لِلْوَجْهِ وَجَاهُهُ ، وَلَا لِلنَّعَامَةِ نَبَاهُهُ ، وَلَكَانَ
تَرْكُ إِغَارَةِ [سَكَابِ لَوْمًا وَتَحْرِيمُ بَنِيهَا سَفَاهَهُ] يَرْكُضُ مَا وَجَدَ أَرْضًا ، وَإِذَا أَعْرَضَ
بِهِ رَاكِبُهُ بِحَرًّا وَثَبَ عَرْضًا .

وَمِنْ مُكَيْتٍ نَهْدٍ ، كَأَنَّ رَاكِبَهُ فِي مَهْدٍ ؛ عِنْدَمِي الْإِهَابِ ، شَمَالِي الذَّهَابِ ؛ يَزِلُّ
[الْغَلَامُ] (٤) انْخُفَّ عَنْ صَهَوَاتِهِ ، وَكَأَنَّ نَعْمَ الْغَرِيضِ وَمَعْبِدٍ فِي لَهَوَاتِهِ ؛ قَصِيرُ الْمَطَا ،
فَسِيحُ الْخُطَا ؛ إِنْ رُكِبَ لَصِيدٌ قَيْدَ الْأَوَايدِ ، وَأَعْجَلَ عَنِ الْوُثُوبِ الْوَحْشِ اللَّوَابِدِ .
وَإِنْ جُنِبَ إِلَى حَرْبٍ لَمْ يَزُورْ مَنْ وَقَعَ الْقَنَا بَلْبَانِهِ ، وَلَمْ يَشْكُ لَوْ عَلِمَ الْكَلَامَ بِلِسَانِهِ ،
وَلَمْ يُرْدُونَ بُلُوغَ الْغَايَةِ وَهِيَ ظَفَرُ رَاكِبِهِ ثَانِيًا مِنْ عِنَانِهِ ؛ وَإِنْ سَارَ فِي سَهْلٍ اخْتَالَ
بَصَاحِيهِ كَالثَّمَلِ ، وَإِنْ أَصْعَدَ فِي جَبَلٍ طَارَ فِي عِقَابِهِ كَالْعُقَابِ وَأَتَحَطَّ فِي مَجَارِيهِ

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح من "حسن التوسل" (ص ٩٩) .

(٢) في "حسن التوسل" «يتوخش» .

(٣) بياض بالأصل ، والتصحيح من "حسن التوسل" .

(٤) الزيادة عن "حسن التوسل" .

(٥) في الأصل «ومقبل» والتصحيح عن "حسن التوسل" .

(٦) في الأصل «سريع» والتصحيح عن " » » .

كَالْوَعْلِ ؛ مَتَى مَا تَرَقَّ الْعَيْنُ فِيهِ نَسْهَلُ ، وَمَتَى أَرَادَ الْبَرْقُ مُجَارَاتَهُ قَالَ لَهُ الْوُقُوفُ
عِنْدَ قَدْرِهِ : مَا أَنْتَ هُنَاكَ فَتَمَهَّلْ .

وَمِنْ حَبَشَى أَصْفَرِ رُوقِ الْعَيْنِ ، وَيُسَوِّقُ الْقَلْبَ بِمِشَابِهِتِهِ الْعَيْنِ ؛ كَأَنَّ الشَّمْسَ
أَلْقَتْ عَلَيْهِ مِنْ أَشْعَتِهَا جِلَالًا ، وَكَأَنَّهُ نَفَرَ مِنَ الدُّجَى فَأَعْتَقَ مِنْهُ عُرْفًا وَأَعْتَقَ أَجْجَالًا ؛
ذِي كَفَلٍ يَزِينُ سَرَجَهُ ، وَذَلِيلٍ يَسُدُّ إِذَا اسْتَدْبَرْتَهُ مِنْهُ فَرَجَهُ ؛ قَدْ أَطْلَعَتْهُ الرِّيَاضَةُ
عَلَى مُرَادِ فَارِسِهِ ، وَأَغْنَاهُ نَضَارُ لَوْنِهِ وَنَضَارَتُهُ عَنْ تَرْصِيعِ قَلَائِدِهِ وَتَوْشِيعِ مَلَابِسِهِ ؛
لَهُ مِنَ الْبَرْقِ خِفَّةٌ وَطَيْبٌ وَخَطْفَةٌ ، وَمِنْ النَّسِيمِ لِينٌ مُرْوَرٌ وَلُطْفَةٌ ، وَمِنْ الرِّيحِ هَرَبٌ يَزُهَا
إِذَا مَا جَرَى شَاوِينٍ وَأَبْتَلَّ عِطْفُهُ ؛ يَطِيرُ بِالْغَمَزِ ، وَيُذِرُكَ بِالرِّيَاضَةِ مَوَاقِعَ الرَّمْزِ ،
وَيَعْدُو كَأَلْفِ الْوَصْلِ فِي اسْتِغْنَاءٍ مِثْلِهَا عَنِ الْهَمَزِ .

وَمِنْ أَخْضَرَ حَكَاةٍ مِنَ الرُّوضِ تَفْوِيضُهُ ، وَمِنْ الْوَشْيِ تَقْسِيمُهُ وَتَأْلِيْفُهُ ؛ قَدْ كَسَاهُ
النَّهَارُ وَاللَّيْلُ حُلَّتِي وَقَارِ وَسَنًا ، وَاجْتَمَعَ فِيهِ مِنَ السَّوَادِ وَالْبَيَاضِ ضِدَانٍ لَمَّا اسْتَجْمَعَا
حَسَنًا ؛ وَمِنْهُ الْبَازِي حُلَّةٌ وَشِيْهُ ، وَنَحَلَتُهُ الرِّيَّاحُ وَلَمَعَاتُهَا قُوَّةَ رَكْبِهِ وَخِفَّةَ مَشْيِهِ ؛
يُعْطِيكَ أَفَانِينَ الْجُرَى قَبْلَ سُؤَالِهِ ، وَلَمَّا لَمْ يُسَاقِ بهُ شَيْءٌ مِنَ الْخَيْلِ أَغْرَاهُ حُبُّ الظَّفَرِ
بِمُسَابَقَةِ خَيَالِهِ ؛ كَأَنَّهُ [تَفَارِيْقُ] ^(٣) شَيْبٍ فِي سَوَادٍ عِذَارٍ ، أَوْ طَلَائِعُ بَحْرٍ خَالِطُ بَيَاضِهِ
الدُّجَى ، فَمَا سَبَّحِي ، وَمَا زَجَ ظِلَامُهُ النَّهَارَ ، فَمَا أَنْارَ ؛ يَخْتَالُ لِمُشَارَكَةِ أَسْمِ الْجُرَى بَيْنَهُ
وَبَيْنَ الْمَاءِ فِي السَّيْرِ كَالسَّيْلِ ، وَيَذُلُّ بِسَبْقِهِ عَلَى الْمَعْنَى الْمُشْتَرَكِ بَيْنَ الْبُرُوقِ وَاللَّوَايِعِ

(١) فِي الْأَصْلِ « الْعَيْنِ » وَالتَّصْحِيحُ عَنْ « حَسَنِ التَّوَسُّلِ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ « طَرُوقُهُ » وَالتَّصْحِيحُ عَنْ « » « » .

(٣) الزِّيَادَةُ عَنْ « حَسَنِ التَّوَسُّلِ » .

وَبَيْنَ الْبَرْقِيةِ مِنَ الْخَلِيلِ ؛ وَيَكْذِبُ [الْمَأْتُوِيَّةُ^(١)] لِتَوَلَّدَ الْيَمِينُ فِيهِ بَيْنَ إِضَاءَةِ النَّهَارِ وَظُلْمَةِ اللَّيْلِ .

وَمِنْ أَبْلَقَ ظَهْرِهِ حَرَمَ ، وَجَرِيهِ ضَرَمَ ؛ إِنْ قَصِدَ غَايَةَ فَوْجُودِ الْفَضَاءِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا عَدَمَ ، وَإِنْ صُرِّفَ فِي حَرْبٍ فَعَمَلُهُ مَا يَشَاءُ الْبَنَانُ وَالْعِنَانُ وَفِعْلُهُ مَا تُرِيدُ الْكَفُّ وَالْقَدَمُ ؛ قَدْ طَابَقَ الْحُسْنُ الْبَدِيعُ بَيْنَ ضِدِّي لَوْنِهِ ، وَدَلَّتْ عَلَى آجِتَاعِ التَّقْيِضِينَ عِلَّةُ كَوْنِهِ ؛ وَأَشْبَهَ زَمَنَ الرَّبِيعِ بِاعْتِدَالِ اللَّيْلِ فِيهِ وَالنَّهَارِ ، وَأَخَذَ وَصَفَ حُلَّتِي الدُّجَى فِي حَالَتِي الْإِبْدَارِ وَالسَّرَارِ ؛ لَا تَكُلُّ مَنَاكِهَ ، وَلَا يَضِلُّ فِي سَجَرَاتِ الْجِيُوشِ رَاكِبُهُ ، وَلَا يَحْتَاجُ لَيْلُهُ الْمُشْرِقُ بِجَاوِرَةِ نَهَارِهِ إِلَى أَنْ تَسْتَرِيسَ فِيهِ كَوَاكِبُهُ ؛ وَلَا يُجَارِيهِ الْخِيَالُ فَضْلًا عَنِ الْخَلِيلِ ، وَلَا يَمْلَأُ الشَّرَى إِلَّا إِذَا مَلَأَ مُشِيرَاهُ : النَّهَارُ وَاللَّيْلُ ؛ وَلَا تَمْسُكُ الْهَرُوقُ اللَّوَامِعُ مِنْ لِحَاقِهِ بِسِوَى الْأَثَرِ فَإِنْ جَهَدْتَ فَبِالذَّلِيلِ ؛ فَهُوَ الْأَبْلَقُ الْقَرْدُ ، وَالْجَوَادُ الَّذِي يُجَارِيهِ الْعَكْسُ وَلَهُ الطَّرْدُ ؛ قَدْ أَعْتَبَتْهُ شُهْرَةٌ نَوْعُهُ فِي جَنَسِهِ عَنِ الْأَوْصَافِ ، وَعَدَلَ بِالرِّيَاحِ عَنْ مُبَارَاتِهِ لُسْلُوكِهَا لَهُ فِي الْأَعْتِرَافِ جَادَّةُ الْإِنْصَافِ .

فَقَرَّبْتُ الْمَمْلُوكَ إِلَى رُتَبِ الْعِزِّ مِنْ ظُهُورِهَا ، وَأَعَدَّهَا لِحُطْبَةِ الْخِنَانِ إِذَا الْجِهَادُ عَلَيْهَا مِنْ أَنْفَسِ مُهُورِهَا ؛ وَكَفَّفَ بَرْكُوبَهَا فَكَلَّمَا أَكَلَهُ عَادَ ، وَكَلَّمَا أَمَلَهُ شَرَهُ إِلَيْهِ فَلَوْ أَنَّه زَيْدُ الْخَلِيلِ لَمَّا زَادَ ؛ وَرَأَى مِنْ آدَابِهَا مَا دَلَّ عَلَى أَنَّهَا مِنْ أَكْرَمِ الْأَصَائِلِ ، وَعَلِمَ أَنَّهَا لَيَوْمِ سَلَمِهِ وَحَرْبِهِ جَنَّةُ الصَّائِدِ وَجَنَّةُ الصَّائِلِ ؛ وَقَابَلَ إِحْسَانًا مُهْدِيَهَا بِنَتَائِهِ وَدُعَائِهِ ،

(١) بياض بالاصل ، والتصحيح عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠) .

(٢) كذا في "حسن التوسل" وفي الأصل «زبد البحر والخليل» .

(٣) كذا في "حسن التوسل" وفي الأصل «جنة للصائِل وجنة للصائِل» .

(٤) في الأصل «الصدقات الشريفة» والتصحيح عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠) .

وَأَعَدَّهَا فِي الْجِهَادِ لِمُقَارَعَةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَائِهِ [وَاللَّهُ تَعَالَى يَشْكُرُهُ الَّذِي أَفْرَدَهُ
فِي النَّدَى بِمَذَاهِبِهِ، وَجَعَلَ الصَّافِنَاتِ الْحَيَادَ مِنْ بَعْضِ مَوَاهِبِهِ] ^(١) .

المهيــــــــع الثاني

(من مقاصد المكاتبات السلطانية ما يُكْتَبُ بِهِ عَنْ نَوَابِ
السُّلْطَانِ وَالْأَتْبَاعِ إِلَى السُّلْطَانِ أَبْتِدَاءً)

وهو على أنواع كثيرة، نذكر منها ما يَسْتَضِيءُ بِهِ الْكَاتِبُ فِي مِثْلِهِ .

فَمِنْ ذَلِكَ مَا يُكْتَبُ عَنْ نَائِبِ كُلِّ مَمْلُوكَةٍ إِذَا وَصَلَ إِلَى مَحَلِّ وَلَايَتِهِ .

قَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنَّ النَّائِبَ إِذَا وَصَلَ إِلَى مَمْلَكَتِهِ وَمَقَرِّ وَلَايَتِهِ، كَتَبَ إِلَى السُّلْطَانِ
يُخْبِرُهُ بِذَلِكَ وَبِمَا الْمَمْلُوكَةُ عَلَيْهِ .

وهذه نسخة مكاتبة من ذلك، كُتِبَ بِهَا عَنْ نَائِبِ حَلَبَ فِي مَعْنَى ذَلِكَ، وَهِيَ :

يَقْبَلُ الْأَرْضَ وَيُنْهِى أَنْ الْمَمْلُوكُ وَصَلَ إِلَى الْمَمْلُوكَةِ الْفُلَانِيَةِ الْمَحْرُوسَةِ، وَحَلَّ مَحَالَّهَا
الْمَأْنُوسَةَ، الَّتِي شَمِلَتْهُ الصَّدَقَاتُ الشَّرِيفَةُ بِكِفَالَتِهَا، وَأَهْلَتْهُ الْمَرَاحِمُ الْمُنِيفَةُ لِإِيَالَتِهَا؛
رَافِقًا فِي حُلِّ الْإِنْعَامِ الشَّرِيفِ، مُتَفِيئًا ظِلَّ الْعِزِّ الْوَرِيفِ، صُحْبَةً فُلَانٍ مُسْفَرِهِ،
وَدَخَلَهَا يَوْمَ كَذَا مِنْ شَهْرٍ كَذَا لِأَنْسَاءِ تَشْرِيفِهِ الشَّرِيفِ الْمُنْعَمِ بِهِ عَلَيْهِ، مَا شِئًا لِمَحَلِّ
الْكَرَامَةِ الَّذِي سَارَ إِلَيْهِ؛ [بِحَضُورٍ مَنْ جَرَتْ الْعَادَةُ بِحُضُورِهِ] ^(٢) مِنْ قُضَاةِ الْقَضَاةِ
وَالْأُمَرَاءِ وَالْحُجَّابِ، وَالْعَسَاكِرِ الْمَنْصُورَةِ وَالْأَصْحَابِ، عَلَى أَجْمَلِ الْعَوَائِدِ، وَأَكْمَلِ

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠) .

(٢) الزيادة مأخوذة من نسخة الكتاب التالية وهي من سقط النسخ .

القَوَاعِدْ؛ وَقَبْلَ الْأَرْضِ بِيَابِ الْقَاعَةِ الْمَنْصُورَةِ، وَدَخَلَ دَارَ الْعَدْلِ الشَّرِيفِ وَقُطُوفُ
الْأَمَانِي لَهُ مَهْضُورَةٌ؛ وَقُرِئَ بِهَا بِحَضْرَةِ أَوْلِيَاءِ الدَّوْلَةِ تَقْلِيدُهُ، وَعَظَّمَ الْمَرَاسِمَ الشَّرِيفَةَ
تَأْيِيدُهُ؛ وَتَصَدَّى لِمَا نَصَبَتْهُ لَهُ الْمَرَاسِمُ الشَّرِيفَةُ مِنْ إِنْصَافِ الْمَظْلُومِ، وَتَنْفِيزِ كُلِّ مُهِمَّةٍ
شَرِيفٍ وَمَرْسُومٍ؛ وَتَصَفِّحَ أَحْوَالَ الْمَمْلَكَةِ، وَسَلَكَ كُلَّ أَحَدٍ مَسْلَكَهَ؛ وَأَسْتَجْلَبَتْ
الْأَدْعِيَةَ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانَ، وَاجْتَهَدَ فِي حَيَاةِ الْبِلَادِ مَنْ يَمُدُّ إِلَيْهِ شَيْطَانُ الْمُفْسِدِينَ
بِأَشْطَانٍ؛ وَأَنْتَظِمَ لَهُ أَمْرَ الْمَمْلَكَةِ بِالْمَهَابَةِ الشَّرِيفَةِ أَحْسَنَ أَنْتَظَامٍ، وَبَلَغَ بِهِ كُلَّ وَلِيٍّ
مِنْ قَهْرِ الْعُدُوِّ غَايَةَ الْمَرَامِ؛ وَقَدْ أَعَادَ الْمَمْلُوكُ فَلَانًا مُسَفَّرَهُ إِلَى خِدْمَةِ الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ
مُزَاحَ الْأَعْدَارِ، مُبَلِّغَ الْأَوْطَارِ؛ عَلَى الْعَادَةِ - طَالِعَ بِذَلِكَ - وَلَا زَالَ مِنْهُ مَزِيدُ الشَّرَفِ
وَالْعُلُوِّ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.



وهذه نسخة كتاب في المعنى إلى الأبواب السلطانية عن نائب طرابلس، وهي :

يُقْبَلُ الْأَرْضَ وَيَنْهَى أَنَّهُ وَصَلَ إِلَى طَرَابُلُسَ الْمَحْرُوسَةِ مَعْمُورًا بِالصَّدَقَاتِ
الشَّرِيفَةِ، وَالْإِنْعَامَاتِ الْمُطِيفَةِ؛ صُحْبَةَ مَمْلُوكِ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ فَلَانَ خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى
مُلْكَهُ، وَالْأَيْسَ شَرِيفَةَ الشَّرِيفِ، وَقُرِئَ تَقْلِيدُهُ الشَّرِيفُ بِدَارِ الْعَدْلِ، وَقَبْلَ الْأَرْضِ
مِرَارًا عَلَى الْعَادَةِ. وَتَقَدَّمَ الْمَمْلُوكُ بِالْحَافِيفِ الشَّرِيفِ عَلَى النُّسخَةِ الْمُجَهَّزَةِ صُحْبَةَ الْمُسَارِ
إِلَيْهِ مِنَ الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ عَظَّمَهَا اللَّهُ تَعَالَى؛ بِحُضُورٍ مِنْ جَرَتِ الْعَادَةِ بِحُضُورِهِ :
مِنْ قُضَاةِ الْقُضَاةِ وَالْأَمْرَاءِ، وَكَتَبَ خَطَّهُ عَلَيْهَا؛ وَأَتَصَبَّ الْمَمْلُوكُ لَخَلَاصِ الْحَقُوقِ،
وَإِزَالَةِ الْمَظَالِمِ؛ وَتَشْرِيلِوَاءِ الْعَدْلِ الشَّرِيفِ، لِيَتَنَصَّفَ الْمَشْرُوفُ مِنَ الشَّرِيفِ،
وَيَتَزَجَرَ الْقَوِيُّ عَنِ الضَّعِيفِ؛ وَأَتَّبَعَ الْحَقَّ فِي الْقَضَايَا، وَأَسْتَجْلَبَ الْأَدْعِيَةَ بِدَوَامِ
هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْعَادِلَةِ مِنَ الرِّعَايَا؛ وَرَتَّبَ أُمُورَ الْآزَاكِ الْمَنْصُورَةِ عَلَى أَكْمَلِ عَادَةٍ وَأَجْمَلِ

قاعدة؛ وقد عاد فلان إلى الأبواب الشريفة، شرفها الله تعالى وعظمها، لينهى بين يدي الأيادي المعظمة ماعينه من المملوك من إخلاصه في الطاعة الشريفة ومغالاته. طالع بذلك. إن شاء الله تعالى.

ومن ذلك ما يكتب به في التهنئة بالخلافة :

أما التهنئة بالخلافة ، فقد قال في ”مواد البيان“ : من الأدب المستفيض ترفيه الخلفاء عن الهناء والعزاء ، إيجاباً لهم وتعظيماً . إلا أننا رأينا ذوى الأخطار من القدماء قد شافهوهم بالعزاء مُسَلِّين ، وبالهناء داعين ؛ وربما دُفِعَ الكاتبُ إلى ضحية رئيس يقتضي محله أن يهنئ الخليفةَ بمتجدد النعم لديه ، ويعزيه لمتطرق النواب إليه ؛ فاحتيج إلى أن يرسم في هناء الخلفاء وعزائهم ما يُحتذى عليه ، عند الحاجة إلى استعمال مثله .

وهذه نسخة تهنئة بالخلافة ، أوردها في ”مواد البيان“ وهي :

أولى النعم - خلد الله ملك مولانا أمير المؤمنين - بأن تنطبق بها السنن الدارين يضيوع عطرها ، وتتناقلها أفواه الشاكرين يفوح نشرها - نعمة إيلانه في خلاقته التي جعلها ذخراً للأنام ، وعصمة للإسلام ، وحاجراً بين الحلال والحرام ؛ وقواماً للائتلاف والاتفاق ، وزماماً عن الاختلاف والافتراق ؛ ونظاماً لصالح الخاصة والعامة ، وسبيلاً إلى اجتماع الكلفة وسكون الأمة ؛ وسبباً لحقن الدماء ، ودعة الدهماء ، ومجاهدة الأعداء ؛ وإقامة الصلوات ، وإيتاء الزكوات ؛ والعمل بالفرائض والسنن ، وحبم البدع والفتن ؛ وعدقيها بالأخيار ورثة نبيه وعترته ، والأبرار الطهرة من أرومة رسوله وشجرته ؛ الذين نصبهم دعاة إلى طاعته ، وهداة لبريئته ، وأعلاماً لشريعته ؛ يأمرون بالمعروف ويأثمرون ، وينهون عن المنكر ويتبنون ، ويقضون

بالحق وبه يعدلون ؛ وكلما لحق منهم سلف بمقر أوليته ، أقام خلفاً يختصه بانتخابه وتكريمه .

والحمد لله الذى قصر خلافته على أمير المؤمنين وآبائه ، وجعل منهم الماضى الذى كانت مفوضة إليه ، والآتى الذى أقرت عليه ؛ وأنجز لهم ما وعدهم من إبقاء الإمامه ، فى عقيم إلى يوم القيامة ؛ وأستخلص لها فى عصرنا هذا وليها الحامى لحقيقتها ، المرامى عن حوزتها ، المعز لكلماتها ، الرافع لرايتها ، المحدد لحدودها ، الحافظ لعقودها ؛ وسلم قوساً منه إلى باريها ، وناطها بكفئتها وكافئها ؛ وأفضى إليه بشرف الولادة والأبوة ، وميراث الإمامة والنبوّه ؛ وألف به بين القلوب الآية ، وجمع عليه النفوس النائية ، وأتفقت الآراء بعد تبأيها وتنافيها ، وتطابقت الأهواء على اختلافها وتعاديتها ؛ وأستدت ثلثة الدين بعد أنغارها ، وأطمأنت الدهماء بعد تفارها ، حمداً يكون لنعمته كفاء ، ولموهبته جزاء .

وخلافة الله وإن كانت الغاية التى لا تنزع الهمم إليها ، ولا تتطلع الأمانى عليها : لأختصاص الله بها صفوته من بريته ، وخالصته من أهل بيت نبيه وعترته ؛ فإن أمير المؤمنين يتعاطم عن تهنته بوضوئها إليه ، وسبوغ ملابسها عليه ؛ إذ لا يسوغ أن يهنا بإدراك ما كتب الله له أن يدركه بأقلام الأقدار ، على صفحات الليل والنهار ؛ والعبد يسأل الله تعالى ضارِعاً إليه فى إنهاض أمير المؤمنين بما حمّله وكلفه ، وتوفيقه فيما كلفه وأستخلفه ؛ وأن يُمكّن له فى الأرض ، ويُعلي يده بالسطر والقبض ؛ ويمدّه بعزّ السلطان ، وعلو الشان ؛ وظهور الأولياء ، وثبور الأعداء ؛ وإعزاز الدين ، وأبتراز المُلحدين ؛ وتقوية يده فى نصرّة الإسلام ، وسياسة الأنام ؛ ويعرف رعيته من بين دولته ، وسعادة ولايته ؛ ما يجمعهم على الطاعة والمواقفة ، ويعصمهم من المعصية والمفارقة ؛

وَيُوفِّقُهُم مِنَ الْإِخْلَاصِ فِي مُوَالَاتِهِ، لَمَّا يُوفِّرُ حَظَّهُمْ مِنْ مَرْضَاتِهِ؛ وَيَجْعَلُ وَلَايَتَهُ هَذِهِ مَقْرُونَةً بِإِنْفِسَاحِ الْمُدَّةِ وَالْأَجَلِ، وَبُلُوغِ الْمُنَى وَالْأَمَلِ، وَصَالِحِ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ وَيُبْلِّغُهُ فِي مَمْلَكَتِهِ وَدَوْلَتِهِ أَفْضَلَ مَا بَلَغَهُ خَلِيفَةٌ مِنْ خُلَفَائِهِ، وَوَلِيًّا مِنْ أَوْلِيَائِهِ .

ومن ذلك ما يكتب في البشارة بالفتوح .

قد جرت العادة أن السلطان إذا وجه جيشاً لِفَتْحِ قَلْعَةٍ أَوْ قُطْرٍ مِنَ الْأَقْطَارِ وَحَصَلَ الْفَتْحُ عَلَى يَدَيْهِ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى السُّلْطَانِ مُبَشِّرًا بِذَلِكَ الْفَتْحِ، مُنَوِّهاً بِقُدْرِهِ، مُعْظِماً لِأَمْرِهِ؛ وَمَا كَانَ فِيهِ : مِنْ عَزِيزِ النَّصْرِ وَقُوَّةِ الظَّفَرِ .

(١)

[فمن مكاتبة في البشارة بفتح حصن المرقب، وهي:]

قد أسفر عن الفتح المئين صباحه، والتأيسد وقد طار به مُحَلِّقُ التباشير خَفَقَ فِي الْخَافِقَيْنِ جَنَاحُهُ؛ وَالْإِسْلَامَ وَقَدْ وَطِئَ هَامَةً الْكُفْرَ بِمَقْدَمِهِ، وَالْدِّينَ وَقَدْ عَزَّ بِفَتْكَاتٍ سَيْفِهِ الْمَنْصُورِ فَإِنْفَ أَنْ يَكُونَ الشُّرْكُ مِنْ خَدَمِهِ؛ وَالْأَفْلَاكُ وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لِهَذَا الْفَتْحِ الْقَرِيبِ كَانَ أَجْتِمَاعُ كَوَاكِبِهَا، وَالْأَمْلاَكُ وَقَدْ نَزَلَتْ لِتَشْهَدَ أَحْمَدَ النُّصْرَةِ الْبَدْرِيَّةِ فِي صُفُوفِهَا وَمَوَاكِبِهَا؛ وَحِصْنِ الْمَرْقَبِ وَقَدْ أَلْقَتْ عَلَيْهِ الْمِلَّةُ الْإِسْلَامِيَّةَ أَشْعَةً سَعْدِهَا، وَأُنْجَزَتْ لَهُ الْأَيَّامُ مِنَ الشَّرَفِ بِهَا أَمَالُهُ بَعْدَ مَا طَالَ أَنْتَظَارُهُ لَوَعْدِهَا، وَأُمِّتَهُ الْأَقْدَارُ الَّتِي ذَلَّلَتْهُ لِلْإِسْلَامِ أَنْ تَطَاوَلَ إِلَيْهِ الْحَوَادِثُ مِنْ بَعْدِهَا؛ وَقَدْ أَحَاطَتْ الْعُلُومُ بِأَنَّ هَذَا الْحِصْنَ طَالَمَا شَحَّتِ الْأَحْلَامُ، أَنْ تُخَيَّلَ فَتَحُهُ لِمَنْ سَلَفَ مِنَ الْأَنَامِ؛ فَمَا حَدَّثَتْ الْمُلُوكُ أَنْفُسَهَا بِقَصْدِهِ إِلَّا وَثَّأَهَا الْانْجَلُ، وَلَا خَطْبَتَهُ بَيِّنُ

(١) لم يذكر المؤلف عنواناً لهذه المكاتبة، فذكرنا عنوانها بحسب ما يقتضيه المقام لينتم الكلام . وقد بحثنا عن هذه المكاتبة في الكتب التي بأيدينا فلم نهند إليها، غير أن الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي قد ذكر فقرات منها في "حسن التوسل" (ص ١٠١) .

النَّفَاسُ وَالنُّفُوسُ إِلَّا وَكَانَتْ مِنَ الْجِرْمَانِ عَلَى ثِقَةٍ وَمِنْ مُعَاجَلَةِ الْأَجَلِ وَقَتَهُ عَلَى وَجَلٍ ؛
 وَحَوْلَهُ مِنَ الْجِبَالِ كُلِّ شَاخٍ تَهَيَّبَ عِقَابُ الْجَوِّ قَطَعَ عِقَابِهِ ، وَتَقِفُ الرِّيحُ خَدَمًا
 دُونَ التَّوْقِلِ فِي هِضَابِهِ ؛ [وَحَوْلَهُ مِنْ] الْأَوْدِيَةِ خَنَادِقُ لَا تَعْلَمُ مِنْهَا الشُّهُورُ إِلَّا بِأَنْصَافِهَا ،
 وَلَا تُعْرِفُ فِيهَا الْأَهْلَةَ إِلَّا بِأَوْصَافِهَا ؛ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ قَدْ تَقَرَّطَ بِالنُّجُومِ ، وَتَقَرَّقَ
 بِالْغُيُومِ ، وَسَمَا قَرَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَرَسَا أَصْلُهُ فِي التُّخُومِ ؛ تُحَالُ الشَّمْسُ إِذَا عَلَتْ أَنَّهَا
 تَتَنَقَّلُ فِي أَبْرَاجِهِ ، وَيُظَنُّ مِنْ سَمَاءٍ إِلَى السَّمَاءِ أَنَّهُ ذُبَالَةٌ فِي سِرَاجِهِ ؛ فَكَمْ مِنْ ذِي جِيُوشٍ
 قَدْ مَاتَ بِقُصَّةٍ ، وَذِي سَطَوَاتٍ أَعْمَلَ الْحَيْلَ فَلَمْ يَقْزُ مِنْ نَظَرِهِ عَلَى الْبُعْدِ بِقُرْصَةٍ ؛
 لَا يَعْلُوهُ مِنْ مُسَمًّى الطَّيْرِ سِوَى نَسْرِ الْفَلَكَ وَمِرْزَمِهِ ، وَلَا يَرْمُقُ مَتَبَرِّجَاتِ أَبْرَاجِهِ غَيْرُ
 عَيْنِ شَمْسِهِ وَالْمُقَلِّ الَّتِي تَطْرِفُ مِنْ أَنْجُمِهِ ؛ وَقَدْ كَانَ نُصِبَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَجَانِيقِ مَا سَهَمَهُ
 أَنْفَذَ مِنْ سِهَامِ الْجَفُونِ ، وَخَطَرَاتِهِ أَسْرَعُ مِنْ لِحَظَاتِ الْعُيُونِ ؛ لَا يُحَاطَبُ إِلَّا بِوَسَاطَةِ
 رُسُلِهِ بِضَمِيرِ الطَّلَابِ ، وَلَا يُرَى لِسَانُ سَهْمِهِ إِلَّا كَمَا تُرَى خَطَفَاتُ الْبَرَقِ إِذَا تَأَلَّقَ
 فِي عُلُوِّ السَّحَابِ ؛ فَتَزَلَّتْ عَلَيْهِ الْجِيُوشُ نُزُولَ الْقَضَاءِ ، وَصَدَمَتَهُ بِهِمَمُهَا الَّتِي تَسْتَعِيرُ
 مِنْهَا الصَّوَارِمُ سُرْعَةَ الْمَضَاءِ وَرُوعَةَ الْإِنْتِضَاءِ ؛ فَنَظَرَتْ مِنْهُ حِصْنًا قَدْ زَرَرَ عَلَيْهِ الْجَوُّ
 جَيْبَ غَمَامِهِ ، وَأَفْتَرَتْ قَرْعَهُ كُلَّمَا جَدَّبَ عَنْهُ الْبَرَقُ فَاضِلَ لِسَامِهِ ؛ فَتَذَلَّلَتْ صِعَابُهُ ،
 وَسَهَلَتْ عِقَابُهُ ؛ وَرَكِرَتْ لِلْجُنُوبَاتِ (١) فِي سَفْحِهِ وَطَالَمَا رَامَتِ الطَّيْرُ أَذْنَاهُ فَلَمْ تَقْوَعْ عَلَيْهِ
 الْقَوَادِمَ ، وَكَمْ هَمَّتِ الْعَوَاصِفُ بِتَسْمِ رَبَّاهُ فَاصْبَحَتْ مُحَلَّفَةً تَبْكِي عَلَيْهَا الْغَائِمَ ؛ فَضُرِبَ
 بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْحِصْنِ بِسُورِ بَاطِنِهِ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ، وَنُصِبَتْ فَوْقَهُ
 مِنَ الْأَسِنَّةِ تُغَوِّرُ بَرَاقَةَ النَّيَا وَلِكِنَّهَا غَيْرُ عَذَابٍ ؛ فَعَادَ ذَلِكَ السَّفْحُ مُصَفَّحًا بِصَفَاحِهَا ،

(١) فِي الْأَصْلِ «فِي الْأَوْدِيَةِ» وَالتَّصْحِيحُ مِنْ «حَسَنِ التَّوَسُّلِ» .

(١) مُشْرِقًا بِأَعْلَامِ أَسِنَّةٍ رَمَاحِهَا ، فَأَرْسَلَتْ إِلَى أَرْجَائِهَا مَا أُرْبَى عَلَى الْغَمَائِمِ ، وَزَادَ فِي نَفْحِهِ عَلَى التَّمَائِمِ .

وَكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجُنُونِ فَأَصْبَحَتْ * وَمِنْ جُثِّ الْقَتْلِ عَلَيْهَا تَمَائِمُ !

وُضِعَتْ عَلَيْهَا الْمَجَانِيقُ فَلَمْ تَرَعْ حَقَّ جَنْسِهَا ، وَسَطَتْ عَلَيْهَا فَأَصْبَحَ غَدَا فِي التَّحَامِلِ أَبْعَدَ مِنْ أُمْسِهَا ، وَاسْتَنْصَحَتْهَا الْعِدَا فَأَعْلَمَتْهُمْ أَنَّهَا لَا تُطِيقُ الدَّفَاعَ عَنْ غَيْرِهَا بَعْدَ أَنْ عَجَزَتْ عَنْ نَفْسِهَا ، وَبَسَطَتْ أُنْفَهَا أَمَارَةً عَلَى الْإِذْعَانِ ، وَرَفَعَتْ أَصَابِعَهَا : إِمَّا إِبَابَةً أَنْ تَذِلَّ لِلشَّهْدِ وَإِمَّا إِبَابَةً إِلَى طَلَبِ الْأَمَانِ ؛ نَخَافُ الْعِدَا مِنْ ظُهُورِ هَذَا الْإِسْتِظْهَارِ ، وَعَلِمُوا أَنَّ الْمَجَانِيقَ قُحُولٌ لَا تَثْبِتُ لَهَا الْإِنَانُ الَّتِي عَمِرَتْ مِنَ النَّفْعِ بِأَيْدِيهِمْ فَاسْتَعَانُوا عَلَيْهِنَ مَعَ الْعِدَا بِطُولِ الْجِدَارِ ؛ فَمَعْدُ ذَلِكَ غَدَتْ تَكُنُّ كُفُونُ الْأَسَاوِدِ وَتَثْبُ وَتُوبَ الْأُسُودِ ، وَتُبَارَى بِهَا الْحُصُونُ السَّمَاءَ فَكُلَّمَا قَدَفَتْ هَذِهِ بَكَوَا كِبَاهُ النَّيِّرَةِ قَدَفَ هَذَا بَكَوَا كِبَاهُ السُّودِ ؛ وَلَمْ يُكْسِرْ لَهُمْ مَنْجَنِيْقٌ إِلَّا وَنَصَبُوا آخَرَ بِمَكَانِهِ ، وَلَا فُطِعَتْ لِأَحَدٍ إِصْبَعٌ إِلَّا وَاصِلَ الْآخَرِ بِنَانِهِ ؛ فَظَلَّتْ تَتَحَارَبُ مِثْلَ الْكُجَاهِ ، وَتَتَحَامَلُ تَحَامِلَ الرَّمَاهِ ؛ حَتَّى لَفَحَتْ وَفَسَحَتْ لِلرَّضَا مَجَالًا ، وَمَالَتْ وَمِيلَ فِيهَا وَكَذَلِكَ الْحَرْبُ تَكُونُ سِجَالًا .

هَذَا وَالتَّقُوبُ قَدْ دَبَّتْ فِي بَاطِنِهِ دَيْبُ السَّقَامِ ، وَتَمَشَّتْ فِي مَقَاصِلِهِ كَمَا تَمَشَّى فِي مَقَاصِلِ شَارِبِهَا الْمُدَامِ ؛ وَحَشَتْ أَضَالِعَهُ نَارًا تُشْبِهُ نَارَ الْهَوَى : تُحْرِقُ الْأَحْشَاءَ وَلَا يَبْدُو لَهَا ضَرَامٌ ؛ قَدْ دَاخَلَتْ مَرَسَلَةَ الْوَجَلِ ، فَتَحَقَّقُوا حُلُولَ الْأَجَلِ ؛ وَعَلِمُوا أَنَّ هَذَا الْفَتْحَ الَّذِي تَمَادَّتْ عَلَيْهِ الْأَيَّامُ قَدْ جَاءَ يَسْعَى إِلَى مَا يَبِينُ يَدِيهِ عَلَى عَجَلٍ ، وَأَيَقِنَ الْحَصْنَ بِالْإِنْتِظَامِ فِي سِلْكِ الْمَالِكِ الشَّرِيفَةِ فَكَادَ يُرْقِصُهُ بَيْنَ فِيهِ فَرَطُ الْجَدَلِ ؛ وَزَادَ

شَوْقُهُ إِلَى التَّشْرِيفِ وَيَا صَبَابَةً لَوْ سَمِهَا وَأَسَمِهَا مُشْتَاقٌ لَكُنْهُمْ أَظْهَرُوا الْجَلَدَ ، وَأَخْفَوْا
ضَرَامَ نَارِ الْجَزَعِ وَكَيْفَ تَخْفَى وَقَدْ وَقَدْ ؛ وَتَدَفَّقَتْ إِلَيْهِمُ الْجُيُوشُ فَلَائِ الْأُفُقِ ،
وَأَحَاطَتْ بِهِمْ إِحَاطَةُ الطُّوقِ بِالْعُنُقِ ؛ وَنَهَضَتْ إِلَيْهِمْ مُسْتَمِدَّةً مِنْ عَزَمَاتِ سُلْطَانِهَا ،
مُسْتَعِدَّةً لِاتِّزَاعِ أَرْوَاحِ الْعِدَا عَلَى يَدَيْهَا مِنْ أَوْطَانِهَا ؛ فَانْقَطَعَتْ بِهِمُ الظُّنُونُ ،
وَدَارَتْ عَلَيْهِمُ رَحَى الْمُنُونِ ، وَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمُ الْمَجَانِيقُ أَجْمَارَهَا (فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وَحَطَّتْ بِسَاحَتِهَا عِقَبَانُ تِلْكَ الْأَحْجَارِ ، فَهَدَمَتِ الْعِمَارَ وَالْأَعْمَارَ ،
وَأَجَرَتْ فِي أَرْجَائِهَا أَنْهَارَ الدِّمَاءِ فَهَلَكُوا بِالسَّيْفِ وَالنَّبِيلِ وَالنَّارِ ، وَتَحَكَّمَتْ هَذِهِ الثَّلَاثَةُ
فِي أَهْلِ التَّثْلِيثِ فَبَدَّلُوا بِالْخَوْفِ مِنْ أَمْنِهِمْ ، وَهَرَبُوا مِنْهَا إِلَى مَخَايِلِ حَضَنِهِمْ .

وَلَمَّا رَكِبَ الْأَوَّلُ لِلزَّخْفِ فِي جُيُوشِهِ الَّتِي كَاثَرَتْ الْبَحْرَ بِأَمْوَاجِهِ ، تَزَلُّزَ الْحِصْنُ
لِشِدَّةِ رَكْبِهِ ، وَتَضَعَّضَ مِنْ خَوْفِ عِصْيَانِهِ فَلَحِقَتْ سَمَؤُهُ بِأَرْضِهِ ؛ وَتَحَلَّلَتْ قَوَاعِدُ
مَاشِيْدٍ مِنْ أَرْكَانِهِ فَانْحَلَّتْ ، وَأَلْقَتْ الْأَرْضُ مَا فِيهَا وَتَحَلَّتْ ؛ وَمَشَتْ النَّارُ مِنْ تَحْتِهِمْ
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، وَنُفِخَ فِي الصُّوْرِ بِلِ فِي السُّورِ إِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ؛ وَمَا كَانَ
إِلَّا أَنْ قَابِلَتِ الْعَسَاكِرُ ذَلِكَ الْبُرْجَ حَتَّى أَهْوَى يَلِيمُ التُّرَابِ ، وَتَادَبَ بِأَدَابِ الطَّاعَةِ
فَفَخَّرَا كَعَا وَأَنَابَ ؛ فَهَاجَمَتْهُمُ الْجُيُوشُ مُهَاجِمَةً الْخُتُوفِ ، وَأَسْرَعَتِ الْمَضَاءَ وَالْإِنْتِضَاءَ
فَلَمْ تَدْرِ الْعِدَا : أَهْمُ أَمْ الَّذِينَ فِي أَيْمَانِهِمُ السُّيُوفُ الَّتِي تَسْبِقُ الْعَدَلَ . وَثَبَّتَ مِنْهُمْ
مَنْ لَمْ يَجِدْ وَرَاءَهُ مَجَالًا فَلَجَّجُوا إِلَى الْأَمَانِ ، وَتَمَسَّكَ دَنِيءُ كُفْرِهِمْ بِعِزَّةِ الْإِيمَانِ ،
وَتَسَبَّحُوا بِسَاحِلِ الْعَفْوِ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ؛
وَسَأَلُونَا أَنْ يَكُونُوا لَنَا مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ ، وَتَضَرَّعُوا فِي أَنْ تَجْعَلَ أَرْوَاحَهُمْ لِسُيُوفِنَا
مِنْ جُمْلَةِ الْوَدَائِعِ فَتَصَدَّقَ عَلَيْهِمْ بِأَرْوَاحِهِمْ كَرَمًا ، وَظَلُّوا عَلَى مَعْنَى الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ :

يَرَوْنَ الْمَمَاتَ يَقْظَةً وَالْحَيَاةَ حُلُمًا وَأُطْلِقَتْهُمُ الْيَدُ الَّتِي لَا يَحِبُّ لَدَيْهَا الْآمَلُ ، وَأَعْتَقَتْهُمُ
الْيُمْنَى الَّتِي فَجَّاجُ الْأَرْضِ فِي قَبْضَتِهَا : فَمَتَى تَشَاءُ تَجْمَعُ عَلَيْهِمُ الْأَنَامِلُ ؛ وَخَرَجُوا بِنُفُوسٍ
قَدْ تَجَزَّدَتْ حَتَّى مِنْ الْأَجْسَامِ ، وَمُقِلَّ طَلَّقَتْ الْكِرَا خَوْفًا مِنَ الصَّوَارِمِ الَّتِي تَسْلُهَا
عَلَيْهِمُ الْأَحْلَامُ ؛ وَسُطِّرَتْ وَالْمَدِينَةُ قَدْ تُسَنَّمُ أَعْلَاهَا ، وَشِعَارُ الْإِيمَانِ قَدْ جَرَّهَا مِنْ لِبَاسِ
الْكُفْرِ وَأَعْرَاهَا ؛ وَالْأَعْلَامُ قَدْ سَلَكَتْ إِلَى ذَلِكَ الْحِصْنِ أَعْلَى مَرْقَى ، وَالسَّعَادَةُ
قَدْ بَدَلَتْ بَيْعَهُ مَسَاجِدَ وَمَحَارِبَهُ قِبَلَةً وَكَانَتْ شَرْقًا ، فَأَصْبَحَ يَرْفُلُ فِي حُلَلِ الْإِيمَانِ ،
وَأَدْعَنَ بِالطَّاعَةِ فَانْحَرَسَ جَرَسُ الْجَرَسِ بِهِ صَوْتُ الْأَذَانِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

[ومن ذلك] ما يكتب به في التعازي إلى الخلفاء .

وقد تقدّم في الكلام على التَّهْنِئَةِ بِوِلَايَةِ الْخَلِيفَةِ ، أَنَّهُ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ لَا يَهْنَأَ الْخَلِيفَةُ
بِالْخِلَافَةِ إِعْظَامًا ، فَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ لَا يُعْزَى فِي مُصَابِهِ . إِلَّا أَنَّهُ رُبَّمَا دَعَتْ ضَرُورَةُ
الْكَاتِبِ إِلَى ذَلِكَ : لِإِكْرَامِ بَعْضِ أَخْصَاءِ الْخَلِيفَةِ إِيَّاهُ بِالْكِتَابَةِ بِذَلِكَ إِلَى الْخَلِيفَةِ .
وَلَا يَنْخِفُ أَنْ الْحَالُ فِي ذَلِكَ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْمَعْزَى : مِنْ وَالِدٍ أَوْ وَلَدٍ أَوْ غَيْرِهِمَا .

(١) [وهذه نسخة مكتوبة في معنى ذلك] ذكرها في "موادّ البيان" وهي :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ خِلَافَتَهُ خَلْقَهُ قَوَامًا ، وَلِبَرِيَّتِهِ نِظَامًا ؛ وَجَعَلَ لَهُ
خُلَفَاءَ يَدْنُوهُمْ لِمِرَاثِهَا ، وَيَحْتَضُّهُمْ بِتَرَاثِهَا ؛ فَإِذَا آتَقَضْتَ مَدَّةَ مَا ضِيَمَ : لِمَا يَرِيدُهُ اللَّهُ
مِنْ أَسْتَدْنَائِهِ إِلَى مَقَرِّ خُلَصَائِهِ ، نَقَلَهَا إِلَى نُورِهِ بِأَصْطِنَاهُ وَأَصْطَفَاهُ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَصَرَ خِلَافَتَهُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَبَائِهِ ، وَجَعَلَ مِنْهُمْ زَعِيمَهُمُ
الْمَاضِيَ الَّذِي كَانَتْ بِيَدِهِ مَوَارِيثُهَا ، وَالْآتِي الَّذِي صَارَ إِلَيْهِ [تَرَاثُهَا] .

والحمد لله الذى ختم لأمر المؤمنين المُتَّقِلِ إلى دار الكرامة بأفضل الخاتم ،
وأحسن له الجزاء عن السعي في الأمانة ؛ وأنعم باستخلاص أمير المؤمنين لإمامة خليفته ،
وحياطة شريعته ؛ وحماية بلاده ، وسياسة عبادته ؛ ولوراثته ثراث آبائه وأجداده ؛
وجعل الماضى منهم مرضياً عنه ، والآتى مرضياً به ؛ واعتدت الرعية من عدل
أمير المؤمنين ما جبر كسرهما في خليفته ، وصبرها في رزيته ؛ وهو المسئول أن يُلهمه
على المصيبة في سلفه الطاهر صبراً ، وعلى ما أخلفه عليه في تأهيله لخلافته التى
لا كفاء لها شكراً ؛ بمنه وفضله إن شاء الله تعالى .



[وهذه نسخة كتاب في التعزية ^(١) أيضاً] وهى :

إن الله خص أمير المؤمنين بما هو أهله من خلافته ، وعظم محله بما نصبه له
من إمامة بريته ؛ وجعله عماداً لأهل الإسلام تجتمع عليه أهواؤهم ، وتسكن إليه
أملأؤهم ؛ ويصلح به دينهم ودنياهم ، ويستقيم به أمر أولاهم وأخراهم ؛ فإذا أسبغ
نعمة من نعمه عليه ، وظاهر موهبة من مواهبه لديه ؛ شركوه فيها ، ونهضوا معه
على الشكر عليها ؛ وإذا ابتلاه ببلية ، وأمتحن صبره برزية ؛ أخذوا بالنصيب العظيم
من الحادث ، والحظ الحسيم من الكارث ؛ [و] ما أفردوه بثواب الله فيها وما جعله
جزاءً من الأجر عليها .

وإن الله تعالى كان أعار أمير المؤمنين من ولده فلان - رضى الله عنه - عارية
من عواريه ، وبلغه من الاستمتاع بها ما احتسب من أمانيه ؛ ثم أسترجهما ليثقل بها
ميزانه ، ويضاعف إحسانه ؛ ويجعلها له ذخراً ، ونوراً يسعى بين يديه وأجراً ؛ فعظم

(١) بياض بالاصل ، والتصحيح يقتضيه المقام .

بذلك المصائب على رعيته، وكبر الرزء على أهل دعوته، لما كانوا يرجونه من سُكون القلوب، ونقع الخطوب، واستقرار قواعيد الخلافه، وشمول الرحمة والرافه، وقد حصل أمير المؤمنين على نعم كثيرة من موهبته ونوايه في استعادته، وحصل كافة خاصته على القلق لفقده، والأسى من بعده، وقد جعله الله تعالى صلاح كل فساد، وثقاف كل مياد، ومهبط كل رحمه، وطريق كل نعمه، وهو خليق بأن يظهر من صبره، ورضاه بقضاء الله وتسليمه لأمره، ما يبعث على التأسي به، والتأدب بأدبه، والله تعالى يحسن لأمر المؤمنين الخلف، ويعوضه أحسن العوض في الموتف، ويوفر حظّه من الثواب، ويعظم له الأجر على المصائب، ويريه في أوليائه وأحبابه، أعظم محابه وغاية آراه، وينقل المنقول إلى إيوان الكرامة والاحتفاء، بأفاضل الأجداد والآباء، بفضلِهِ ورحمته، إن شاء الله تعالى .



[وهذه] نسخة كتاب : كُتِبَ به إلى الأبواب السلطانية عند فتح (آياس)

(١)

قاعدة بلاد الأرمن وارتفاعها من أيديهم، وهي :

يُقبَل الأرض ويُهي أن ليلة الانتظار أطلعت صباحها، ومواعيد الآمال بعثت على يد الإقبال نجاحها، والعساكر المنصورة جردت رابع ربيع الأول بمدينة آياس صفاحها، وأوردت إلى الصدور رماحها، فلم يكن إلا كنهج البصر، ولسان صدق القتال قائل: بأن الجيش الناصري قد انتصر، وأنقضى ذلك النهار، بإيقاد نار حرب الحصار، على أبراج وأسوار، أديرت على المينا كما أدير المعصم على السوار، فما أشرق

(١) كان الأولى ذكر هذه المكاتبة مع المكاتبات التي ذكرت في البشارة بالفتح، إذ لمناسبة في ذكرها

صَبَّاحُ الصَّفَاحِ وَلاَح ، إِلا والأعلام النَّاصِرِيَّةُ عَلَى قُلَّةِ الْقَلْعَةِ مَائِسَةُ الْأَعْطَافِ مِنْ
الْأَرْتِيَّاحِ ، مُعَلِّئَةُ أَلْسِنَتِهَا بِحَى عَلَى الْفَلَاحِ وَحَى عَلَى النَّجَاحِ ، وَعِزُّ الْإِسْلَامِ يُقَابِلُ ذُلَّ
الْكُفْرِ : بهذا النَّصْرُ وَهَذَا الْإِفْتِتَاحُ ، وَجَمْعُ الْأَرْمَنِ الْمَلَّا تَفَرَّقَ مَا بَيْنَ قَتْلِ وَأَسِيرِ
وَأَنْتِرَاحِ ، وَلَعِبَتْ أَيْدَى التَّيْرَانِ فِي الْقَلْعَةِ وَجَوَانِبِهَا ، وَتَفَرَّقَتْ مِنَ الْأَسْوَارِ أَعْضَاءُ
مَنَازِلِهَا ، وَنَطَقَ بِالْأَقْدَارِ لِسَانُ النَّارِ : هَذِي مَنَازِلُ أَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ .

ثمَّ أَتَيْتُ الْمَحَاصِرَ إِلَى قَلْعَةِ الْبَحْرِ ، وَضَمَّ الْأَرْمَنِ الْمَلَّا إِلَيْهَا سَيْفُ الْقُدْرَةِ وَالْقَهْرِ ؛
وَهَذِهِ الْقَلْعَةُ عَرُوسٌ يَكُرُّ فِي سَمَاءِ الْعِزِّ شَاهِقَةً ، لَمْ يَسْبِقْ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُلُوكِ الْأَوَائِلِ إِلَى
خِطْبَتِهَا سَابِقَهُ ، قَدْ شَمَخَتْ بِأَنْفِهَا ، وَنَاتَ بِعُظْفِهَا ، وَتَاهَتْ عَلَى وَاثِقِهَا ، وَغَضَّتْ عَيْنَ
رَامِقِهَا ؛ فَهِيَ فِي عُقَابِ لَوْجِ الْحَوْكَالطَّائِرِ ، وَسُورِهَا الْبَحْرُ وَالْجَحْرُ فَلَا يَكَادُ يَصُلُّ
إِلَى وَكْرِهَا النَّاطِرُ ؛ وَقَدْ أُوتِنَتْ بِحَلَقَاتِ الْحَدِيدِ ، وَقِيدَتْ كَأَنَّهَا عَاصِيَةٌ تُسَاقُ بِالْأَصْفَادِ
إِلَى يَوْمِ الْوَعِيدِ ؛ فَأَرْسَلَ عَلَيْهَا الْمَنْجَنِيقُ عُقَابَهُ ، وَأَعْلَقَ بِهَا ظُفْرَهُ وَنَابَهُ ؛ فَكَشَفَ
مِنْ شُرُفَاتِهَا شَنْبَ نَغْرِهَا ، وَسَقَاهَا بِأَكْفِّ أَسْهَمِهِ كُتُوسَ حِجَارَةٍ فَتَمَيَّلَتْ مِنْ شِدَّةِ
سُكْرِهَا ؛ وَفَضَّ مِنْ أِبْرَاجِهَا الصَّنَادِيقَ الْمُقْفَلَةَ ، وَفَصَّلَ مِنْ أَسْوَارِهَا الْأَعْضَاءَ
الْمُتَّصِلَةَ ؛ فَتَرَلَزَلَ عَمْدُهَا ، وَزِيلَ عَنْ مَكَانِهِ جَلْمُهَا ؛ وَعَلَتْ الْأَيْدَى الْمُرَامِيَةَ بِهَا ،
وَعُلَّتْ الْأَيْدَى الْمُحَامِيَةُ عَنْهَا ؛ وَأَشْتَدَّ مَرَضُهَا مِنْ حَرَارَةِ وَهْجِ الْحِصَارِ ، وَضَعُفَتْ قُوَّتُهَا
عَنْ مَقَاوِمَةِ تِلْكَ الْأَحْجَارِ ؛ وَلَمْ يَبْقَ عَلَى سُورِهَا مِنْ يَفْتَحُ لَهُ جَفْنَا ، وَشَنَّ الْمَنْجَنِيقُ
عَلَيْهَا غَارَتَهُ إِلَى أَنْ صَارَتْ شَنَا ؛ فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا مِنْ سَمَاءٍ غَضِيهِ رُجُومًا ، وَوَالَى ذَلِكَ
عَلَيْهَا سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ؛ فَبَادَرَتْ إِلَى الطَّاعَةِ وَاسْتَسَلِمَتْ ، وَكَّرَرَ نَحْوَهَا
رُكُوعَهُ فَسَجَدَتْ ؛ وَرَكِبَتْ الْجِيُوشُ الْمَنْصُورَةُ عَوْضَ الصَّافِنَاتِ الْجُجِّ ، وَسَمَحَتْ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْمُهْجِ ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ سَارَعَ أَهْلُهَا إِلَى التَّعَلُّقِ بِأَسْبَابِ الْهَرَبِ ،

وكان نَحْرَابُ قَلْعَةِ الْمِينَا هَذِي نَحْرَابٍ قَلْعَتِهِمْ مِنَ الْجَرْبِ ، وأُحْرِقُوا كَيْدَهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ
بِنَارِ الْعَصَبِ ، وَأَتَرَحُّوا مِنْهَا لَيْلًا ، وَجَرُّوا مِنَ الْهَزِيمَةِ ذَيْلًا ، وَتَسَلَّمَهَا الْمَسَامُونَ ،
وَتَحَسَّرَ عَلَيْهَا الْحَسْرَةَ الْكُبْرَى الْكَافِرُونَ ؛ وَهَدِمَتْ حَجَرًا حَجَرًا ، وَصَاحَتْ بِجَبْهَتِهَا وَجْهَ
الثَّرَى ، وَأَعْدِمَتْ مِنَ الْوُجُودِ عَيْنًا وَأَثَرًا ؛ فَمَا أَعْجَبَ هَذَا الْفُتُوحَ وَأَغْرَبَ ! ،
وَمَا أَحْلَى ذِكْرَهُ فِي الْأَفْوَاهِ وَمَا أَعَذَبَ ! ! ، وَمَا أَلَدَّ حَدِيثَهُ فِي الْأَسْمَاعِ وَمَا أَطْرَبَ ! ! ،
وَمَا أَسْعَدَ هَذَا الْجَيْشَ النَّاصِرِيَّ وَمَا أُنْجَبَ ! ! ! .

بُشْرَاكَ بُشْرَاكَ هَذَا النَّصْرُ وَالظَّفَرُ * هَذَا الْفُتُوحُ الَّذِي قَدْ كَانَ يَنْتَظَرُ !
فَتَحَ مَبِينٌ وَنَصْرٌ جَلَّ مَوْقِعُهُ * سَارَتْ بِهِ وَلَهُ الْأَمْلَاكُ وَالْبُشُرُ !
عَجَائِبُ ظَهَرَتْ فِي فَتْحِهِ بَهْرَتْ * لَمْ تَأْتِ أَمْتَالُهَا الْأَيَّامُ وَالسَّيْرُ !
لَوْ كَانَ فِي زَمَنِ مَاضٍ بِهِ تَزَلَّتْ * فِي وَصْفِ وَقَعَتِهِ الْآيَاتُ وَالسُّورُ !
هَذِي أَيْأَسُ الَّتِي قَدْ عَزَّ جَانِبُهَا * وَعَزَّ حَاطِبُهَا حَتَّى أَتَى الْقَدْرُ !
جَاءَتْ إِلَيْهَا جُيُوشُ كَمِهَا أَسَدٌ * يَبِضُّ الصَّفَاحَ لَهَا الْإِنْيَابُ وَالظُّفَرُ !
جَيْشٌ لَهَا كَبَحْرِ زَاخِرٍ لَحِبٌ * إِذَا سَرَى لَا يُرَى شَمْسٌ وَلَا قَمَرُ !
يَسِيرُ بِالنَّصْرِ أَتَى سَارِ مُتَجِّهًا * مَا زَالَ يَقْدُمُهُ التَّائِبُ وَالظَّفَرُ !
جَيْشٌ لَهُ اللَّهُ وَالْأَمْلَاكُ نَاصِرَةٌ ، * مَلِكُهُ نَاصِرٌ لِلدِّينِ مُتَنَصِّرُ !
يَوْمَ الْخَمِيسِ رَأَيْتُ الْخَيْلَ حَامِلَةً * عَلَى رُءُوسِ عُدَاةٍ هَامَهَا أَكْرُ ،
وَقَلْعَةَ الْبَحْرِ كَانَتْ آيَةً لَهُمْ * فَعَنَ يَسِيرٍ فَأَصْحَتْ لِلْوَرَى عِبْرُ !
كَانَتْ بِأَفْقِ سَمَاءِ الْعِزِّ شَاهِقَةً * أَبْرَاجُهَا بَاسَقَاتُ نَحْرُهَا خَطَرُ !

فَرَكَبَ الْمُسْلِمُونَ الْبَحْرَ بَاذِلَةً * أُرْوَاهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَدَحُّرُ،
 لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَمِيرٌ وَلَا وَلَا مَلِكٌ * يَا أُوِيَّ مَقْرًا إِلَى أَنْ مَدَّتِ الْجَسْرُ!
 وَعَجَّلَ اللَّهُ بِالْفَتْحِ الْمُبِينِ لَهُمْ * هَذَا الْفَتْوحُ الَّذِي تُوْفَى لَهُ النَّذْرُ
 يَرْضَى بِهِ اللَّهُ وَالْإِسْلَامُ قَاطِبَةً * وَشَاهِدُ الْقَوْلِ فِيهِ الْعَيْنُ وَالْأَثَرُ!

تم الجزء الثامن . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء التاسع

وأوله القسم الثاني

(من مقاصد المكاتبات الإخوانيات)

والحمد لله رَبِّ الْعَالَمِينَ . وصلاته على سيدنا محمد خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ

وآله وصحبه والتابعين ، وسلامه

وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

فهرس

الجزء الثامن

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

صفحة

- المقصد الثالث - في المكتبة إلى أهل الجانب الجنوبي : من العرب
 ٥ السودان، وفيه ثلاث جمل ٥
 الجملة الأولى - في المكتبة إلى من بهذا الجانب من العربان ... ٥
 » الثانية - » » مسلمى ملوك السودان ... ٦
 » الثالثة - » » ملوك المسامين بالحبشة ... ١١
- المقصد الرابع - » » . أهل الجانب الشمالى ، وفيه ثلاثة
 أطراف ١٢
- الطرف الأول - في المكتبات إلى أمراء الأتراك ببلاد الروم المسماة
 الآن ببلاد الدروب ١٢
- » الثانى - في المكتبة عن ملوك الديار المصرية إلى ملوك الكفر ٢٥
 » الثالث - » إلى من وراء بحر القرم، ويشتمل على
 أربعة مقاصد ٢٦
- المقصد الأول - في المكتبة إلى ملوك الكفار ببلاد الشرق ... ٢٧
 » الثانى - » » » » المغرب من
 جزيرة الأندلس وما والاها ٣٣
- » الثالث - في المكتبة إلى ملوك الكفار بالجانب الجنوبي ... ٣٩
 » الرابع - » » » » الشمالى من
 الروم والفرنجية على اختلاف أجناسهم ... ٤٢
- الفصل الخامس - من الباب الثانى من المقالة الرابعة فى الكتب
 الواردة على الأبواب السلطانية من أهل المملكة
 وغيرها، وفيه نوعان ٥٤

صفحة

- النوع الأول — المكتبات الواردة عن ملوك المسلمين ، وهى
 على قسمين ٥٤
- القسم الأول — فى الكتب الواردة عن أهل هذه المملكة بالديار
 المصرية والبلاد الشامية ، وفيه ضربان ٥٤
- القسم الثانى — فى الكتب الواردة على الأبواب السلطانية عن
 أهل الممالك الإسلامية ، ويشتمل على أربعة
 مقاصد ٦٢
- المقصد الأول — فى الكتب الواردة عن أهل الشرق ، وفيه أطراف ٦٣
 الطرف الأول — الكتب الواردة عن القانات العظام من بنى
 جنكركان ٦٣
- » الثانى — فى المطالعات الواردة إلى الأبواب السلطانية عن
 أهل الشرق ٧١
- » الثالث — فى رسم المكتبات الواردة عن صاحب اليمن إلى
 هذه المملكة ٧٢
- » الرابع — فى الكتب الواردة إلى الأبواب السلطانية عن
 ملوك الهند ٧٦
- المقصد الثانى — فى المكتبات الواردة عن ملوك الغرب ، وفيه جمل ٧٨
- الجملة الأولى — فى المكتبة الواردة عن صاحب تونس ٧٩
- » الثانية — فى المكتبات الواردة عن صاحب تلمسان من
 بنى عبد الواد ٨٤
- » الثالثة — فى المكتبات الواردة عن صاحب فاس ٨٧
- » الرابعة — فى عادة الكتب الواردة عن صاحب الأندلس ... ١٠٦

صفحة

- المقصد الثالث - في رسم المكاتبات الواردة عن ملوك السودان ،
 وفيه ثلاثة أطراف ١١٥
- الطرف الأول - في المكاتبات إلى صاحب مالى ١١٥
- » الثانى - » الصادرة عن صاحب البرنو ... ١١٦
- » الثالث - » عن ملك الكانم ١١٩
- المقصد الرابع - في الكتب الواردة من الجانب الشمالى وهى
 بلاد الروم ١١٩
- النوع الثانى - [كتب خطأ القسم الثالث] من المكاتبات الواردة إلى
 هذه المملكة الكتب الواردة عن ملوك الكفار،
 وهى على أربعة أضرب ١١٩
- الفصل السادس - من الباب الثانى من المقالة الرابعة فى رسوم
 المكاتبات الإخوانيات، وفيه طرفان ١٢٦
- الطرف الأول - فى رسوم إخوانيات السلف من الصحابة والتابعين ١٢٦
- » الثانى - » الإخوانيات المحدثه بعد السلف، وفيه
 ثلاثة مقاصد ١٢٧
- المقصد الأول - فى رسوم إخوانيات أهل المشرق، وفيه أربعة مهايج ١٢٧
- المبيع الأول - فى صدور الابتداءات ١٢٧
- » الثانى - فى الأجوبة على هذا المصطلح ١٣٩
- » الثالث - فى خواتم الإخوانيات على هذا المصطلح ... ١٤١
- » الرابع - فى عنوانات الكتب على هذا المصطلح ... ١٤٤

- صفحة
- المقصد الثانى — فى رسوم إخوانيات أهل المغرب ، وفيه جملتان ... ١٤٨
- الجملة الأولى — فى مفتحات المكاتبات على اصطلاحهم ، وفيها مهيعان ١٤٨
- المهيع الأول — فى ابتداء المكاتبات ... ١٥٤
- » الثانى — فى الأجوبة ... ١٥٨
- الجملة الثانية — فى خواتم المكاتبات على اصطلاحهم ... ١٥٩
- المقصد الثالث — فى الإخوانيات المستعملة بالديار المصرية ، وفيه
- ثلاثة مصطلحات ... ١٦٠
- المصطلح الأول — ما كان الأمر عليه فى الدولة الطولونية ... وفيه
- ثلاثة مهايح ... ١٦٠
- المهيع الأول — فى الصدور ... ١٦٠
- » الثانى — فى خواتم الكتب ... ١٦٦
- » الثالث — فى عنوانات الكتب ... ١٦٦
- المصطلح الثانى — من مصطلحات الديار المصرية ما كان عليه الحال
- فى الدولة الأيوبية ... ١٦٧
- » الثالث — من مصطلحات الديار المصرية فى الإخوانيات
- ماجرى عليه الاصطلاح فى الدولة التركية ، وفيه مهيعان ١٦٨
- المهيع الأول — فى رتب المكاتبات المصطلح عليها ... وهى
- على قسمين ... ١٦٨
- القسم الأول — الابتداءات ... ١٧١
- » الثانى — من المكاتبات الإخوانيات الدائرة بين أعيان
- المملكة وأكابر أهل الدولة الأجوبة ... ٢١٢
- المهيع الثانى — فى بيان رتب المكتوب عنهم والمكتوب إليهم من
- أعيان الدولة ... ٢١٧

صفحة

- الفصل السابع — من الباب الثانى من المقالة الرابعة فى مقاصد
المكتبات، وهى قسمان ... ٢٣٣
- القسم الأول — مقاصد المكتبات السلطانية، وهى على نوعين ... ٢٣٣
- النوع الأول — ما يكتب عن الخلفاء والملوك، وهو على ثلاثة
أضرب [صوابه أربعة] ... ٢٣٣
- الضرب الأول — ما يكتب عن الخلفاء والملوك ومن ضاهاهم، وهو
على أصناف ... ٢٣٣
- الصف الأول — الكتب بانتقال الخلافة إلى الخليفة ... ٢٣٣
- » الثانى — من الكتب السلطانية الكتب فى الدعاء إلى الدين ٢٤٤
- » الثالث — » » » بالحث على الجهاد ٢٤٦
- » الرابع — » » » فى الحث على لزوم
الطاعة وذم الخلاف ... ٢٥٢
- » الخامس — من الكتب السلطانية الكتب إلى من نكت
العهد من المخالفين ... ٢٥٩
- » السادس — من الكتب السلطانية الكتب إلى من خلع الطاعة ٢٦٣
- » السابع — الكتب فى الفتوحات والظفر ... ٢٧٤
- » الثامن — المكتبة بالاعتذار عن السلطان فى الهزيمة ... ٢٩٠
- » التاسع — المكتبة بتوبيخ المهزوم الخ ... ٢٩٩
- » العاشر — فى المكتبات بالتضييق على أهل الجرائم ... ٣٠٣
- » الحادى عشر — الكتب فى النهى عن التنازع فى الدين ... ٣٠٦
- » الثانى عشر — المكتبة بالأوامر والنواهى ... ٣٠٨
- » الثالث عشر — المكتبات عند حدوث الآيات السماوية ... ٣١٠
- » الرابع عشر — » فى التنبيه على شرف مواسم العبادة الخ ٣١٢

صفحة

- الصف الخامس عشر — المكاتب بالسلامة في الركوب في المواسم والأعياد... ٣١٣
- « السادس عشر — المكاتب بالبشارة بوفاء النيل والبشارة بالسلامة في الركوب لفتح الخليج ... ٣٢٨
- « السابع عشر — فيما يكتب في البشارة بركوب الميدان الكبير الخ ... ٣٣٣
- « الثامن عشر — المكاتب بالبشارة بحج الخليفة ... ٣٣٦
- « التاسع عشر — الكتابة بالإنعام بالتشريف والخلع ... ٣٣٩
- « العشرون — المكاتب بالتنويه والتلقيب ... ٣٤١
- « الحادى والعشرون — المكاتب بالإحماذ والإذمام ... ٣٤٦
- « الثانى والعشرون — ما يكتب مع الإنعام لنواب السلطنة بالخیل والجوارح ... ٣٥١
- « الثالث والعشرون — المكاتب بالبشارة عن الخليفة بولد رزقه ... ٣٥٦
- « الرابع والعشرون — ما يكتب عن السلطان بالبشارة بعافيته من مرض ... ٣٥٧
- الضرب الثانى — من مقاصد المكاتبات السلطانية ما يكتب عن السلطان فى الجواب ... ٣٥٨
- « الثالث — من الكتب السلطانية الكتب الصادرة عن نواب السلطنة الخ ... ٣٥٩
- « الرابع — من المكاتبات السلطانية ما يكتب عن النواب والأتباع إلى الخليفة أو السلطان، وفيه مهيعان ... ٣٦٦
- المهيج الأول — فى الأجوبة عن الكتب السلطانية ... ٣٦٦
- « الثانى — من مقاصد المكاتبات السلطانية ما يكتب به عن نواب السلطان والأتباع إلى السلطان آتداء ... ٣٩٠

(تم فهرس الجزء الثامن من كتاب صبح الأعشى)